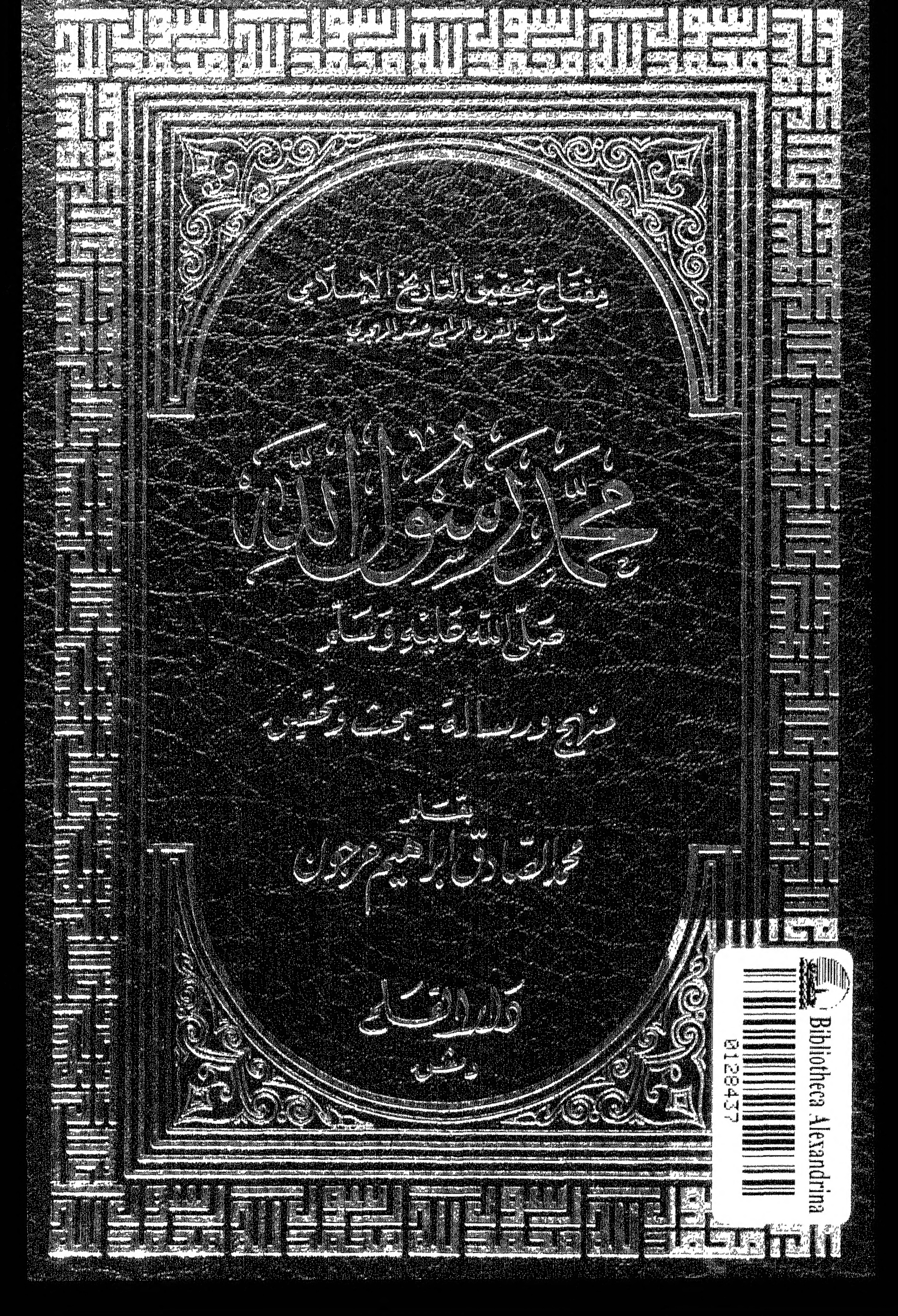
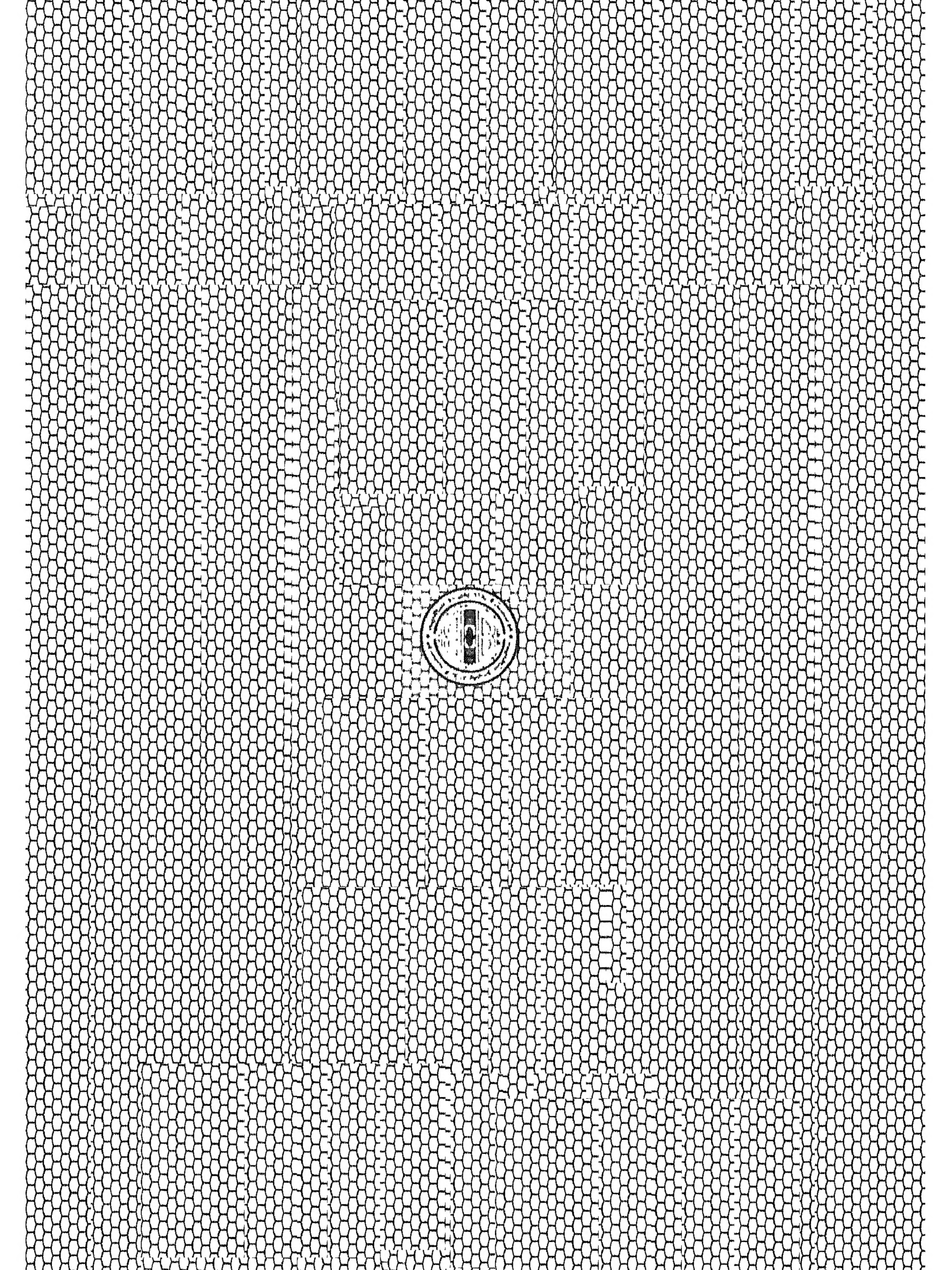
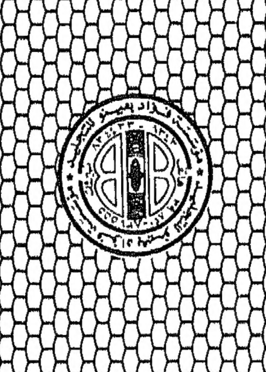

مفتاح تحقيق التاريخ الإسلامي
كتاب القرن الرابع عشر الهجري
محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم
منهج ورسالة - بحث وتحقيق
بقلم
محمد الصادق إبراهيم عرجون
دار القلم
دمشق
Bibliotheca Alexandrina
0128437





محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

مفتاح تحقيق التاريخ الإسلامي
كتاب القرن الرابع عشر الهجري

محمد رسول الله ﷺ

صلى الله عليه وسلم
منهج ورسالة - بحث وتحقيق

بقلم
محمد الصادق ابراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقاً

الجزء الثاني

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٢
دار البشير
للطباعة والنشر والتوزيع جدة: ٢١٤٦١ - ص.ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الهجرة إلى الحبشة

أثر من آثار حكمة الاستسرار بالدعوة

السابقون إلى الإسلام كان أكثرهم من علية قريش وشباب بيوتاتها

الذين استجابوا لله وللرسول من السابقين الأولين لم يكونوا كلهم ولا أكثرهم من الضعفاء والأرقّاء والفقراء وحواشي بيوتات مكة، وأتباعها الملتَقِطين فتات موائدها ـ كما شُهِر ذلك على ألسنة وأقلام السطحيين من الباحثين ـ بل كانوا في كثرتهم الكاثرة من صميم أبناء بيوت قريش وبطونها، وعِلْية شبابها.

وهم معروفون بأسمائهم وأنسابهم، وبيوتهم، وقبائلهم، فما شُهِر من أن الذين سبقوا إلى الإيمان بدعوة رسول الله ﷺ، ومتابعته على دينه، وتصديق رسالته كانوا من الأرقاء والموالي، والمستضعفين والمحرومين كلام لا تحقيق فيه، فلا يصح أن يؤخذ على إطلاقه ـ اغتراراً بما فيه من بريق مناصرة الإسلام للضعفاء، وتخليص الأرقاء من رق العبودية الظالمة، وتحرير الفقراء من أغلال الاستغلال الاجتماعي الجائر ـ تأثراً بالمذاهب الاجتماعية الضالة الفاسدة التي غررت بطوائف الشعب الغرِّيرة الكادحة تحت اسم العمال والمحرومين، وأقاموا على دعائم هذا التغرير الخبيث الماكر الثورات الاجتماعية الخادعة الشريرة المفسدة الملحدة متمثلة في الشيوعية الفاجرة التي تسوق الشعوب بسياط من بشاعة القسوة والعذاب الذي لا يطاق.

فهذا وإن كان في واقع الإسلام ومبادئه وشرائعه التي أنزلها الله لتحقيق العدالة الاجتماعية ونصرة المظلوم وإتاحة العيش الكريم لكل إنسان على أرض الله، ولكنه ليس هو واقع السابقين الأولين من طلائع المؤمنين بدعوة

الإسلام الذي أسلموا مع رسول الله ﷺ، واستجابوا له أول من استجاب لدعوته، فكانوا أول من آمن برسالته واهتدوا بهديه، وكانوا اللبنات الأولى في بناء صرح هذا الدين القيِّم دين الإسلام.

وليس هو واقع الإسلام في هدايته العامة التي جاءت لهداية الإنسانية كلها وتحريرها من ربقة الشرك والوثنية وإدخالها في حظيرة التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبودية الخالصة.

وتخليصها من ذل الظلم الاجتماعي الذي فرضه عليها حفنة من الطغاة الظالمين فساقوها بسياط الظلم إلى مهاوي العبودية لهم ولما في أيديهم من حطام الدنيا.

فهذا رأي ـ على شهرته ـ مدخول، وضعه من يريد أن يقول أن الإسلام يتملَّق الضعفاء والأرقَّاء والمحرومين ليستنصر بهم في نشر دعوته ويخلصهم من الاستعباد الاجتماعي، فكانوا أسرع استجابة لدعوته وأشد إقبالاً على اعتناقه.

فلا يصح أن يَغفل الذين يكتبون عن صدارة الإسلام وطلائعه عن هذه الدخيلة المغلَّفة بالبريق في هذا الرأي، ولا يصح أن تُسلَّم لقائلها إلا بعد النظر فيها نظرة فاحصة، تتبين بها دوافعه الاجتماعية، وعوامله السياسية في سير الدعوة، مما أدى بكثير من كتَّاب السيرة النبوية قديماً وحديثاً إلى الإيمان بهذه القضية المشهَّرة، التي يردها واقع التاريخ وحقائق الأحداث التي احتفت بها.

بيان مكانة السابقين إلى الإسلام في أقوامهم وعشائرهم

بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً إلى العباد كافة، وأمره بالإنذار العام في قوله تعالى: ﴿ قم فأنذر﴾، فنهض رسول الله ﷺ بأمر ربه، لا يبالي بما يلقاه من شديد الأذى، وفادح البلاء، لا يتَّقي أحداً من الناس.

ورأى ﷺ بتسديد الله وتوفيقه، وحكمة توجيه دعوته في سيرها، وتبليغ رسالته أن لا يبادي قومه بعداوة، وأن لا يعلن إليهم دعوته في أول خطواتها، وهو وحيد منفرد في قومه، ليس معه من ينصره منهم، ولا من

غيرهم، وهم جميعاً، ومن ورائهم سائر العرب، بل سائر الدنيا، إلْب على هذه الدعوة الهادية الراشدة، التي تعيب وثنيتهم، وتنعَى عليهم شركهم، وتسفِّه أحلامهم، وتسب آلهتهم، وتلقي بآبائهم وأسلافهم في نسب الجاهلية في نار جهنم خالدين، وتندِّد بحياتهم المادية الظالمة التي يحيونها دون رادع يردعهم عن فجور ظلم يرتكبونه، أو عتو بغي يأتونه، حيث لا قانون ولا دين، ولا نظام ولا ضمير.

ورسول الله ﷺ ماضٍ في دعوته، لا يصدّه عنها صادٌ، ولا يرده عن سبيلها رادٌّ، فاستجاب له أولُ من استجاب ـ بعد زوجه النجيبة، الأريبة، الحسيبة النسيبة، سيدة قومها جاهلية، وسيدة نساء العالمين إسلاماً، السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية ـ أبو بكر الصديق، العليم، العيلم، أعلم قريش بقريش وأحسابها ومفاخر بطونها المؤثل ثراء، المؤمل نجدة، صاحب حمائل قريش، وأثقالها في دياتها، وما ينوبها في منافراتها، الذي لا يرد قوله عندها، ولا تخذله إذا تحمل.

كان أبو بكر رضي الله عنه مذ دخل في الإسلام قوَّاماً بالدعوة إلى الله، ما دعا أحداً إلاّ استجاب له، وما كان يدعو إلا من يستجيب له من أبناء قمم قريش، وذرى أحسابها، وشباب بيوتها.

غيظ قريش وحنقها على السابقين إلى الإيمان من شبابها

واتخذ رسول الله ﷺ من دار الأرقم في أصل الصفا دار دعوته ومعهد تلقِّي رسالته، جعلها مجمع السابقين إلى الإيمان من أصحابه، وأقبل عليه أهل الصدق من شباب قريش، وغير قريش مؤمنين بدعوته، متَّبعين له في دينه، مصدِّقين برسالته، مهتدين بهديه، أعزة في قومهم، كرماء على أنفسهم، وكثروا، وتكاثروا، وهم مستخفون مع رسول الله ﷺ، وشعرت بهم، وبخطرهم عليها وعلى حياتها الجاهلية قريش، ومادت الأرض تحت أقدامها، والتفت رجال كل بيت في قريش إلى أنفسهم وأسرهم، أبنائهم وإخوتهم، فإذا بهم يرون أن محمداً ﷺ قد اجتذب منهم زهرات شبابهم، ومصدر قوتهم وعدة مستقبلهم، فهم عنده ومعه مسلمون، مؤمنون، واعتنقوا عقيدته، عقيدة التوحيد، وهجروا آلهة آبائهم وأسلافهم، وسفَّهوا

معه أحلامهم، ووصموا بالدنية قومهم، وأصبحوا جند دعوة محمد ﷺ، وكتائب رسالته، ودخلوا معه بشظف العيش، ويبس الحياة وفقرها، بعد الترف والمتعة في بيوتهم بين أهليهم، وفارقوا المال والولد، والأخوة والآباء، والأمهات والزوجات، وتبدَّلوا بهم محمداً ﷺ وأصحابه، فهو أبوهم، وأصحابه إخوتهم، يسمعون له، ويقولون بقوله، لا يخالفون عن أمره، يلحظون موضع إشارته ويرمقون نظراته، ويتأدبون بأدبه، يحبونه أكثر مما يحبون أنفسهم، لا يترددون في تحقيق رغبة من رغباته، ولو كانت فيها حياة أحدهم، فكانوا منه، ومعه، بما لم يكونوا به من أمهاتهم وآبائهم، ومع أولادهم.

وطارت عقول قريش شعاعاً من أدمغتها إذْ تمثلوا هذا في واقعهم، ودارت أفئدتهم في حنايا أضلعهم، وتنفسوا الصُّعَداء غماً وهماً وكمداً، وما يغني غم الدنيا وهمها وكمدها شيئاً، فليركبوا رأس الشيطان فجوراً وعتواً، وبغياً وكفراً، وليفتكوا بكل من يقدرون عليه من فلذات أكبادهم الذين تابعوا محمداً ﷺ، ولتذهب رحمة الأبوة، وشفقة البنوة راغمة تحت أقدام آلهتهم لعلها ترضى عنهم.

إشارة رسول الله ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة

وبدأت فدائح البلاء تتوالى على هؤلاء المؤمنين بمحمد ﷺ ورسالته من أحب الناس لهم، وشعر رسول الله ﷺ بما ينال أصحابه من شديد الأذى وقواصم البلاء، ونظر إلى ما هو فيه من العافية لمكانه من الله تعالى، وبما وفق له الله تعالى من تسخير عمه أبي طالب لحمايته، وهو على دين قومه، وأنه ﷺ ليس بمستطيع أن يمنع أصحابه مما هم فيه من البلاء، وهم صابرون، محتسبون، لا يؤذن لهم برد الاعتداء لأنهم دعاة هداية، وأصحاب رسالة، أريدوا لتبليغها إلى الحياة كلها في أرض الله، ولن يستطيعوا أن يبلِّغوا رسالات ربهم إذا زجوا بأنفسهم في مضايق الإثارات والتدافع والتقاتل، فليصبروا، وليصابروا وليعفوا وليصفحوا، وليغضوا الطرف عن سفاهة السفهاء، وليغمضوا الأعين على قذى قسوة الآباء والأمهات، حتى يقضيَ الله تعالى بالفرج.

ولمعت بارقة الفرج من أفق الغيب، فإذا بها آية من آيات الله لنشر رسالته العامة الخالدة، في أرض غير أرض العتو والجبروت، بطريقة لا تلتزم خطة التبليغ في أرض العتو والجبروت.

لم تكن الهجرة فراراً بل كانت الهجرة لوناً من ألوان تبليغ الرسالة

فليبق ملأ قريش على كفره وعتوه، وفجوره وبغيه، ولتبقَ - إلى حين - قريش كلها في مكة مطموسة البصيرة، منقادة بسلطان ملئها من الطغاة الذين لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، وليخرج المصطَفَون لتلقّي آية الفرج إلى حيث يأمنون على أنفسهم الفتنة في دينهم، يعبدون ربهم في غير خوف ولا إزعاج، ويبلِّغون رسالته بلاغاً ترسم له العناية الإلّهية طريقه في غير إثارة ولا استفزاز، فلا فرار، ولا هرب، ولكنها نقلة يُؤَدَّى فيها حق الدعوة بصورة من صور تبليغ الرسالة، فلتتصورها قريش ومن والاها فراراً وهرباً، وليتصورها أصحاب العقول السطحية - الذين لا يتعمقون الأحداث، ولا يأخذون في حسابهم النتائج مرتبطة بالمقدمات، ولكنهم ينظرون إلى الوقائع فرادى، منقطعة الصلات بين مباديها ونهاياتها - هجرة لمجرد الراحة من مس الأذى ومر العذاب، هجرة للأمن والسلام، والراحةُ والأمنُ قد يكونان مقصودَين، ولكن قصدهما لا يمنع أن يؤاخيهما في القصد أساس الإيمان بالدعوة، بل لا يمنع أن يكون الأمن والراحة مقصودين تبعاً لأساس الإيمان بالدعوة، وهو تبليغها بصورة توائم الجو الجديد الذي تتنسمه الدعوة في رياحين حملتها.

وهل يستطيع من وجد الراحة والأمن وبيده دعوة تكلفه ألا يختزنها لنفسه، وأن يبلغها لكل من يستطيع إبلاغها له، أن يقعد دون قيامه بحق هذا التبليغ إذا سنحت له الفرصة في غير إزعاج أو إثارة لمن آووه، وأمَّنوه، وأراحوه؟.

إن المؤمنين الذين هاجروا إلى الله منتقلين من مكة إلى الحبشة يحملون في أفئدتهم آيات دعوتهم إلى الله، ويحملون معها دلائل حقها عليهم في تبليغها أينما وُجِدوا من أرض الله، فكيف إذا كانت هذه الأرض التي آوَوا إليها

أرض صدق وأمن، لا يجدون فيها ظلماً يزعجهم، ولا عداوة ترعبهم، ولا نفوساً تكره دعوتهم وتناهضها؟.

إنهم حينئذ يكونون مسؤولين عن تبليغ هذه الدعوة كلما وجدوا مجال التبليغ مهيئاً لكلمتهم كلمة الحق والخير، يجهرون بها في غير عنت لأحد، ولا إثارة للمزعجات، وهم آمنون مطمئنون.

وكذلك كانت الأرض التي وجّههم إلى الهجرة إليها رسول الله ﷺ في قوله وهو يرى ما يصب عليهم من البلاء: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

وفي حديث الزهري عند عبد الرزاق قال: لما كثر المسلمون وظهر الإيمان أقبل كفار قريش على من آمن من قبائلهم، يعذبونهم، ويؤذونهم، ليردّوهم عن دينهم، قال: فبلغنا أن رسول الله قال لمن آمن به: «تفرقوا في أرض الله، فإن الله سيجمعكم» قالوا: إلى أين نذهب؟ قال «إلى هاهنا» وأشار بيده إلى أرض الحبشة، فهاجر إليها ذوو عدد منهم من هاجر بأهله، ومنهم من هاجر بنفسه.

فهذه الهجرة ـ وهي أول هجرة في الإسلام ـ لم تكن فرار ضعف، ولا هرب جبن وخوف، ولكنها كانت نقلة قصد بها: ـ

من مقاصد هذه الهجرة
أولاً: البعد عن مواطن الفتنة

أولاً ـ البعد من مواطن الفتنة في الدين للذين لا يستطيعون ردّ الاعتداء تمسكاً بعرى الصبر، إلى أن تتمكن الدعوة من توطيد أقدامها في السير إلى غايتها قوية منتصفة، فهي هجرة إلى عودة، ونقلة إلى رجعة، ومخرج من ضيق إلى فرج.

ثانياً: البعد عن إثارة المعوقات في طريق الرسالة

ثانياً ـ البعد عن إثارة المعوِّقات في طريق سير الرسالة، وتبليغ دعوتها، لأن المؤمنين المهاجرين كانوا في كثرتهم من شباب قريش خاصة، وشباب قبائل العرب عامة، تملؤهم النخوة والحمية والأنفة من الرضا بالضيم، والاستسلام للظلم، وربما نفد صبرهم، وضاقت أنفسهم بما يلقَون من جَوْر

واستبداد بهم، فتدفعهم طبيعتهم البشرية، وحميتهم العربية إلى مقاومة الظلم، ورد الاعتداء، كما وقع في قصة سعد بن أبي وقاص، وكان يصلي مع بعض إخوانه المسلمين، مختفين، فاطّلع عليهم بعض المشركين، فعيّروهم بترك دين آبائهم، وعابوا عليهم اتباع محمد ﷺ، واعتناق دينه، والإيمان بدعوته، وتصديق رسالته، واستهزؤوا بهم، وضاربوهم، فلم يطق سعد صبراً، فضرب رجلاً منهم بلَحْيِ جمل، فشجّه شجة منكرة، أدماه بها، فكان أول دم أهريق في الإسلام، وكادت الفتنة تتسع ويتصل القتال.

فلو تكرر ذلك ـ وفي المسلمين كثرة من أمثال سعد حمية وأنفة ـ لكان فيه شغل شاغل لرسول الله ﷺ، ولأصحابه عن السير بالدعوة في طريق التبليغ بعيدة عن المعوِّقات، ولكان فيه مصادمة لحكمة الاستسرار بالدعوة، لتجتذب إلى ساحتها أصحاب القلوب الواعية، والعقول السليمة الذين تتكون منهم كتائبها عندما تسنح الفرصة لظهورها والجهر بها، وهي قوية الشكيمة، ثابتة الدعائم، وطيدة الأركان.

ثالثاً: تخفيف الأزمات النفسية عن رسول الله ﷺ

ثالثاً ـ تخفيف الأزمات النفسية التي كانت ـ لو استمر المهاجرون في إبقائهم بمكة، لم يهاجروا ـ تضيف أعباء جديدة إلى الأعباء التي يتحملها رسول الله ﷺ في تلقّي الوحي برسالته، وحمل أمانة تبليغها والإنذار بها، وهو يرى أصحابه يؤذَون أشد الأذى، ويعذّبون أقسى العذاب، ولا يستطيع منعهم وحمايتهم مما يلاقون، دون أن يؤذن لهم في رد الاعتداء.

رابعاً: إفساح المجال أمام رسول الله ﷺ للسير بالدعوة في طريق التبليغ

رابعاً ـ إفساح المجال أمام رسول الله ﷺ للسير بالدعوة قُدُماً في طريق التبليغ، ولا شك أن هجرة من هاجر من المسلمين كان فيها هذا الإفساح الذي يخفف من الأعباء النفسية التي تشغل رسول الله ﷺ بالتفكُّر في أمرهم، وهم يتعرضون للفتنة في دينهم بما ينالهم في أنفسهم من شديد الأذى، وفادح البلاء.

والذين يقرؤون أسماء من هاجر إلى الحبشة أولاً، وثانياً، ويعرفون أنسابهم، وبيوتهم، وأحوالهم الاجتماعية، ومكانتهم في أقوامهم يعلم علم اليقين أن هجرتهم أرفع من أن تكون لمجرد الفرار من الأذى، أو لمجرد

الهرب مما يلقَون من البلاء، وإنما كانت هجرة قوم آمنوا بالله رباً وبنبيه محمد ﷺ رسولاً، فأوذوا بما لا طاقة لبشر على احتماله، ولم يجدوا للدفاع عن أنفسهم سبيلاً، لأنه لم يُؤْذَن لهم في رد الاعتداء، بل أُمروا بالصبر والصفح، لا عجزاً وضعفاً، ولكن حكمة تدبير، وسياسة تقدير.

وحسبنا في البرهنة على ما ذهبنا إليه أن الذين هاجروا إلى الحبشة، أولاً، وثانياً كانوا من أعزّ بيوت العرب وقبائلها، قريشٍ فمن دونها، ليس فيهم ضعيف أو مستضعف، ولا مولى، ولا تبع، والقلةً التي لم تكن بهذه المثابة نسباً وعصبية، كانت منها حِلْفاً، وحليف القوم منهم نجدة وحماية.

قال ابن إسحاق: وكان أول من خرج من المسلمين من بني أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف عثمان بن عفان، معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ.

سجل المهاجرين برهان على أن هجرتهم لم تكن لمجرد الفرار

ثم ذكر ابن إسحاق سجلاً مسهباً مفصَّلاً بأسماء وأنساب جميع المهاجرين إلى الحبشة في مرتيها، الأولى، والثانية، وكانوا سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين رجلاً، أكثرهم قرشيون من طلائع بيوتها وأشراف بطونها.

فهل من المعقول أن يخرج هذا العدد العظيم من الرجال، ذوي الأنفة والحمية عن بلادهم، وأهليهم، وعشائرهم، تاركين ديارهم وأموالهم وأولادهم، لمجرد الفرار والهرب من وجوه المشركين؟

أفما كان هذا العدد الكثير بمستطيع أن يتجمع أفراده، ويقفوا في وجه العدوان عليهم، ويردوه عنهم بقوة القتال خفية وعلانية؟

نعم، إنهم بالقياس إلى أعدائهم قلة عددية، وكان أقوامهم وعشائرهم يأخذونهم فرادى، يعذّب كل قوم من يسلم منهم، لكن هؤلاء المؤمنين كانوا مستطيعين ـ لو أرادوا ـ أن يكيدوا لأعدائهم ويجمعوا أمرهم للدفاع عن أنفسهم، ويغتالوا الكثير من رؤوسهم، ولو واجههم أعداؤهم في قتال لنالوا منهم، وساجلوهم، وانتصفوا، وفي الوقائع الجزئية ما يؤيد

ذلك، وقد أشرنا إلى قصة سعد بن أبي وقاص، وذكرنا غيرها من الحوادث التي استبسل فيها المؤمنون دفاعاً عن أنفسهم.

سياسة الاستسرار بالدعوة كانت حكيمة محكمة موفقة

وهذا كله يؤيد أن سياسة الحكمة التي سلكها رسول الله ﷺ بتوفيق الله في استسراره بالدعوة وهي مشرقة في أفق الحياة كانت سياسة حكيمة محكمة، أثمرت ثمراتها في تجميع قوة من المؤمنين الراسخين في إيمانهم، الصادقين في يقينهم، الذين تولاهم رسول الله ﷺ أول ما تولى بالتربية والتوجيه، حتى فشا الإسلام في مكة، وتسامع به الناس في أنديتهم ومحافلهم، وبدأت قريش- وهي سيدة مكة- تحس بخطر هذه القوة يدخل عليها في بيوتها، ويجتذب منها شبابها، ويأخذ بحلاقيمها، فشنّت على المؤمنين حرباً خسيسة، لا مواجهة فيها، ووقف المؤمنون من هذه الحرب الفاجرة موقف الصبر والاحتمال، بل موقف الصفح والعفو والاجمال، مما أدى أو كاد يؤدي إلى تجميد حركة الدعوة وإبلاغ الرسالة.

وفي نفوس المؤمنين قوى تتفاعل مكتومة مكبوتة، يراها رسول الله ﷺ، ويرى آثارها مرسومة على وجوه أصحابه، وهم من الشباب المفعم حماسة وقوة وحركة، وتحفزاً لرد الاعتداء، وهو ﷺ لم يُؤذن له بالمقاومة ورد الاعتداء بالقتال، فكان من أحكم التدبير، وحكمة السياسة أن يفتح ﷺ لأصحابه باب الهجرة، حتى يجدوا لأنفسهم متنفساً في حركاتهم وهم آمنون على أنفسهم، يعبدون ربهم وهم مطمئنون، لا يهيجهم أمر، ولا يفزعهم شيء، ولا شك أن هذا لون من ألوان السياسة في تبليغ الدعوة، بدأ هادئاً هامساً، فلما حُرِّك تحرك معبِّراً أصدق تعبير عن هداية الإسلام في أعظم محفل من محافل الحوار، الذي هيأ الله له أسبابه وعوامله ودوافعه، ونصب له معالمه وأقام منائره، وقد اقتضى هذا الحوار من المسلمين المهاجرين في أعظم فرصة سانحة أن يعرضوا رسالة نبيهم ﷺ، وحقيقة دينهم عرضاً حراً، أكمل ما تكون الحرية، صادقاً أبلغ ما يكون الصدق، يعقده ويشهده ملك البلاد التي آوتهم، ويحضره معه بطارقتها وأهل للعلم فيها، ويحضره ذوو رأيها

ووجوهها ويحضره راغمَينْ رسولا قريش إلى النجاشي ملك الحبشة ليرد عليها هؤلاء المهاجرين، فيسمع هذا الحشد الحافل في صراحة وقوة صوت الإسلام، يعلن عن حقيقته، ويشرح دعوته، ويبلّغ رسالته، فيؤمن من آمن، يؤمن الملك إيماناً يبخع به بأو الغرور، ويبطّ دمل الحقد في أنفس قريش ورسولَيْها إلى النجاشي، ويؤمن معه أهل العلم من البطارقة والقسيسين والرهبان، إيماناً تفيض معه أعينهم بدمع اليقين بأن ما سمعوه من متكلم المهاجرين وخطيبهم جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ، إنما يخرج من مشكاة موسى وعيسى عليهما السلام.

حديث أم سلمة عن قصة الهجرة

ومن أصح وأجمع وأجود ما عبّر عن قصة الهجرة إلى الحبشة، وما فيها من الحقائق والمعاني التي تجعلها أثراً من أعظم آثار حكمة الاستسرار بالدعوة، وتنأى بها عن مجرد الفرار والهرب، وتدخلها في طرائق التبليغ للرسالة التي سنّها رسول الله ﷺ بحكمة سياسته المحكمة الموفقة - حديث أم سلمة رضي الله عنها، وكانت إحدى المهاجرات مع زوجها أبي سَلَمة بن عبد الأسد المخزومي الذي ساقه ابن إسحق فأحسن وجوَّد.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم الزهري، عن أبي بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي آمية ابن المغيرة زوج رسول الله ﷺ، قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار، النجاشي، أمنّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جَلْدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فحملوا له أدَماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلاّ أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله ابن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته، قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدّما إلى النجاشي هداياه، ثم سَلاَه أن يسلمهم إليكما، قبل أن يكلمهم.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فخرجا حتى قدما على النجاشي،

ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته، قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضَوَى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلّماه، فقالا: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله ابن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقال بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، فغضب النجاشي، ثم قال: لا ها الله، إذاً لا أسلمهم إليهما، ولا يُكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي حتى أدعوَهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فان كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول ـ والله ـ ما عَلِمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوا ـ وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله ـ سألهم، فقال لهم: ما هذا الدين الذي

قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

- قالت أم سلمة رضي الله عنها: فعدُّوا عليه أمور الإسلام - فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذَّبونا وافتتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيَّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص)، فبكى والله النجاشي، حتى اخضلَّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.

ثم قال لرسولي قريش: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فلما خرجا من عنده، قال عمروابن العاص: والله لآتينّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم، فقال له عبدالله ابن أبي ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا، قال عمرو: والله لأخبرنَّه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك؟ إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم، فسَلْهم عمَّا يقولون فيه؟ فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت أم سلمة رضي الله عنها: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم، إذا سألكم عنه؟ قالوا:

نقول ـ والله ـ ما قال الله، وما جاءنا به نبيّنا، كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبدالله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله، حين قال ما قال فقال: وإن نخرتم والله، ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي ـ والشيوم الآمنون ـ من سبكم غرم، ما أحبّ أن لي دَبْراً من ذهب، وأنّي آذيت رجلاً منكم، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه، فخرج رسولا قريش من عنده مقبوحَين، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار. إهـ حديث أم سلمة رضي الله عنها.

رواية تخالف حديث أم سلمة في قصة الهجرة إلى الحبشة

ويروي البيهقي في دلائل النبوة بسنده إلى كتاب المغازي لموسى ابن عقبة ما يخالف بعض المخالفة حديث أم سلمة فيقول: ثم إن قريشاً اختمرت رؤوسهم، واشتد مكرهم، وهموا بقتل رسول الله ﷺ، أو

إخراجه حين رأوا أصحابه يزدادون، ويكثرون، فعرضوا على قومه أن يعطوهم ديته، ويقتلوه، فأبى ذلك قومه، ومنع الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ بحمية رهطه، واشتدوا على أتباعه على دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبايلهم، فكانت فتنة شديدة، وزلزالاً شديداً، فمنهم من عصم الله، ومنهم من افتتن.

فلما فُعل بالمسلمين ذلك أمرهم رسول الله ﷺ حين دخل الشِّعب[1] مع بني عبد المطلب بالخروج إلى أرض الحبشة، وكان بأرض الحبشة ملك يقال له النجاشي، لا يظلم بأرضه أحد، وكان يثنى عليه مع ذلك كثيراً، فانطلق إليها عامتهم حين قهروا وخافوا الفتنة، ومكث رسول الله ﷺ فلم يبرح، وذلك قبل خروج جعفر بن أبي طالب وأصحابه رضي الله عنهم إلى أرض الحبشة، وأنهم خرجوا مرتين، ثم رجع الذين خرجوا في المرة الأولى قبل خروج جعفر وأصحابه.

ثم ذكر ابن عقبة سبب رجوعهم، وربطه بأكذوبة الغرانيق، التي وضعها الزنادقة، كما سنبينه ـ إن شاء الله ـ عند مناسبتها.

ثم قال البيهقي في سياق كلام ابن عقبة: وخرج جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في رهط من المسلمين عند ذلك ـ أي عند اشتداد الأذى على المسلمين بعد رجوع أصحاب الهجرة الأولى ـ فراراً بدينهم أن يفتنوا عنه إلى أرض الحبشة، وبعثت قريش عمرو بن العاص، وعمارة ابن الوليد بن المغيرة، وأمروهما أن يسرعوا السير ففعلا، وأهدوا للنجاشي فرساً وجبَّة ديباج، وأهدَوا لعظماء الحبشة هدايا، فلما قدما على النجاشي قبل هداياهم، وأجلس عَمْراً على سريره، فقال عمرو: إن بأرضك رجالاً منا سفهاء، ليسوا على دينكم، ولا على ديننا، فادفعهم إلينا، فقال عظماء الحبشة للنجاشي: أجل، فادفعهم إليهم، فقال النجاشي :لا والله، لا

(١) المشهور أن الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة كانت قبل إسلام عمر بن الخطاب، وإسلام حمزة بن عبد المطلب، وإسلامهما كان في السنة السادسة من النبوة، والهجرة الأولى كما يقول ابن إسحاق كانت في السنة الخامسة، ودخول النبي ﷺ مع قومه شِعْب بني هاشم كان في سنة سبع أو ثمان من النبوة، فما ذكره ابن عقبة غير واضح.

أدفعهم إليهم حتى أكلمهم، وأعلم على أي شيء هم، فقال عمرو ابن العاص: هم أصحاب الرجل الذي خرج فينا، وسيخبرك بما يعرف من سفههم، وخــلافهم الحق أنهم لا يشهـدون أن عيسى ابن الله، ولا يسجدون لك إذا دخلوا عليك، كما يفعل من أتاك في سلطانك.

فأرسل النجاشي إلى جعفر وأصحابه، وأجلس النجاشي عمرو ابن العاص على سريره، فلم يسجد له جعفر، ولا أصحابه، وحيُّوه بالسلام، فقال عمرو وعمارة: ألم نخبرك خبـر القوم، والـذي يراد بـك؟ فقال النجاشي: ألا تحدثوني أيها الرهط: ما لكم لا تحيوني كما يحييني من أتاني من قومكم وأهل بلدكم؟ ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ وما دينكم؟ أنصارى أنتم؟ قالوا: لا، قال: أفيهود أنتم؟ قالوا: لا، قال: فعلى دين قومكم؟ قالوا: لا، قال: فما دينكم؟ قالوا: الإسلام، قال: وما الإسلام؟ قالوا: نعبد الله وحده، لا شريك له ولا نشرك به شيئاً، قال: من جاءكم بهذا؟ قالوا: جاءنا به رجل من أنفسنا، قد عرفنا وجهه ونسبه، بعثه الله إلينا كما بعث الرسل إلى من قبلنا، فأمرنا بالبر، والصدق، والوفاء وأداء الأمانة، ونهانا أن نعبد الأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به، فصدَّقناه وعرفنا كلام الله تعالى، وعلمنا أن الذي جاء به من عند الله، فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا، وعادّوا النبي ﷺ الصادق، وكذَّبوه، وأرادوا قتله، وأرادونا على عبادة الأوثان ففررنا إليك بديننا ودمائنا من قومنا، ولو أقرونا استقررنا.

فقال النجاشي: والله إن خرج هذا الأمر إلاّ من المشكاة التي خرج منها أمر موسى عليه السلام. قال جعفر: وأما التحية فإن رسولنا أخبرنا أن تحية أهل الجنة السلام. فأمرنا بذلك، فحييناك بالذي يحيي به بعضنا بعضاً، وأما عيسى بن مريم عليه السلام، فهو عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وابن العذراء البتول، فخفض النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، وقال: والله مازاد ابن مريم على هذا وزن هذا العود، فقال عظماء الحبشة: والله لئن سمعت هذا الحبشة لتخلعنَّك، فقال النجاشي: والله لا أقول في عيسى غير هذا أبداً، وما أطاع الله فيّ

حين رد إليّ ملكي، فأنا أطيع الناس في دين الله؛ معاذ الله من ذلك!!.

ثم قال النجاشي: أرجعوا إلى هذا هديته - يريد عمرو بن العاص - والله لو رشوني دَبْر ذهب - والدبر في لغة الحبشة الجبل - ما قبلته، وقال لجعفر وأصحابه: امكثوا، فإنكم سيوم - والسيوم الآمنون - قد منعكم الله عزّ وجل، وأمر بما يصلحهم من الرزق، وقال: من نظر إلى هؤلاء الرهط نظرة تؤذيهم فقد غرم، أي فقد عصاني.

ثم قال البيهقي في سياق كلام ابن عقبة: وكان الله عزّ وجلّ قد ألقى العداوة بين عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد في مسيرهما قبل أن يقدما إلى النجاشي، ثم اصطلحا حين قدما على النجاشي ليدركا حاجتهما التي خرجا إليها من رد المسلمين، فلما أخطأهم ذلك رجعا إلى أشرٍّ ما كانا عليه من العداوة، وسوء ذات البين، فمكر عمرو بعمارة، فقال: يا عمارة إنك رجل جميل، فاذهب إلى امرأة النجاشي، فتحدَّث عندها إذا خرج زوجها، فإن ذلك عون لنا في حاجتنا، فراسلها عمارة حتى دخل عليها، فلما دخل عليها انطلق عمرو إلى النجاشي، فقال له: إن صاحبي هذا صاحب نساء، وإنه يريد أهلك، فاعلم علم ذلك، فبعث النجاشي فإذا عمارة عند امرأته، فأمر به فنفخ في إحليله، ثم ألقي في جزيرة من البحر، فجن واستوحش مع الوحش، ورجع عمرو إلى مكة قد أهلك الله صاحبه، وخيَّب مسيره ومُنِعَتْه حاجتُه.

رواية الإمام أحمد في قصة الهجرة إلى الحبشة عن عبدالله بن مسعود

ويؤيد ما ساقه البيهقي من كتاب المغازي لابن عقبة ما رواه الإمام أحمد بسندٍ حسن، وصاحب (عيون الأثر) بسنده، والبيهقي بسنده في الدلائل عن عبدالله بن مسعود فقال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحو من ثمانين رجلاً، ومعنا جعفر بن أبي طالب، وعثمان ابن مظعون، وبعثت قريش عمارة وعمرو بن العاص، وبعثوا معه بهدية إلى النجاشي فلما دخلا عليه سجدا له، وبعثا إليه بالهدية، وقالا: إن ناساً من قومنا رغبوا عن ديننا ونزلوا أرضك قال: وأين هم؟ قالا: هم في أرضك، فبعث إليهم النجاشي، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتَّبعوه حتى دخلوا

على النجاشي، فلم يسجدوا له، فقالوا: ما لكم لم تسجدوا للملك؟ فقال جعفر: إن الله عزّ وجلّ بعث إلينا نبيه فأمرنا أن لا نسجد إلا لله تبارك وتعالى، فقال النجاشي: وما ذاك؟ فأخبره، فقال عمرو بن العاص: إنهم يخالفونك في عيسى، قال: فما تقولون في عيسى وأمه؟ قالوا: نقول كما قال الله عزّ وجلّ: هو روح الله، وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسها بشر، ولم يفرضها ولد، فتناول النجاشي عوداً فقال: يا معشر القسيسين والرهبان، ما تزيدون على ما يقول هؤلاء ما تزن هذه ـ وأشار إلى العود ـ فمرحباً بكم، وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه نبي، لوددت أني عنده فأحمل نعليه، أو قال: أخدمه، فانزلوا حيث شئتم من أرضي.

بحث وتحقيق حول من كان رفيقاً لعمرو ابن العاص

فهذا الحديث فيه أن عمارة بن الوليد هو الذي كان رفيقاً لعمرو ابن العاص في بعثته إلى النجاشي ليرد على قريش جماعة المسلمين الذين هاجروا إليه ونزلوا أرضه، ولم يَرِد فيه قط ذكر لعبدالله بن أبي ربيعة.

وحديث أم سلمة صريح في أن عبدالله بن أبي ربيعة هو الذي كانَ رفيق عمرو في سفارته إلى النجاشي ولم يَرِد فيه ذكر قط لعمارة بن الوليد.

وكأن صاحب (عيون الأثر) تنبه إلى هذا التدافع بين الروايات، فأراد أن يدفع الاختلاف بينها فقال: وبعثت قريش في شأنهم إلى النجاشي مرتين: الأولى عند هجرتهم الأولى والثانية عقب وقعة بدر، وكان عمرو ابن العاص رسولاً في المرتين، ومعه في إحداهما عمارة بن الوليد، وفي الأخرى عبدالله بن أبي ربيعة المخزوميان.

وهذا كلام صريح في أن قريشاً بعثت في أثر المهاجرين إلى الحبشة مرتين في إحداهما كانت هجرتهم الأولى، وهي التي كانت في مدة استسرار الدعوة، قبل إسلام حمزة وعمر، والثانية كانت عقب وقعة بدر، وقد كانت هذه الوقعة الظافرة في السنة الثانية من الهجرة النبوية، فبينها ـ على هذا التقدير ـ نحو من عشر سنوات، وهذا مستبعد جداً.

وقد كان عمرو بن العاص رسولاً في المرتين، كان في إحداهما عمارة

ابن الوليد رفيقاً لعمرو، وكان في الأخرى عبدالله بن أبي ربيعة هو الرفيق لعمرو، بيد أن صاحب (العيون) لم يوضح أي المرتين كان فيها عمارة رفيقاً لعمرو، وأيتهما كان فيها عبدالله بن أبي ربيعة هو الرفيق لعمرو، ولم يوضح ـ أيضاً ـ أي الرجلين هو الذي شهد حوار المهاجرين مع النجاشي، وحديث ابن مسعود، وحديث أم سلمة يثبت كل منهما للرجل الذي ذكر فيه مرافقاً لعمرو أنه هو الذي شهد هذا الحوار، وشارك عَمْراً فيه، وسار معه في مهمته التي كلفته قريش القيام بها فخاب سعيه، وقبح مرده إليها، وحديث أم سلمة صريح في أن هذا الرفيق هو عبدالله بن أبي ربيعة.

وكلام موسى بن عقبة الذي ساقه البيهقي، وحديث ابن مسعود في رواياته واردان في شأن الهجرة الثانية، لأن ابن مسعود لم يكن من أهل الهجرة الأولى، كما جزم ابن إسحاق، وكما هو صريح حديثه في رواياته في قوله: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحو ثمانين رجلاً، ومعنا جعفر بن أبي طالب.

فهذا العدد، وفيهم جعفر رضي الله عنه كان بالقطع في الهجرة الثانية لأن الهجرة الأولى لم يزد فيها عدد المهاجرين على اثني عشر رجلاً، ولم يكن فيهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، كما ذكر أسماءهم ابن إسحاق، وأم سلمة رضي الله عنها وإن كانت من أهل الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة لكنها ذكرت في حديثها أن جعفر بن أبي طالب كان هو خطيب المسلمين ومتكلمهم عند النجاشي، وجعفر كان بالقطع من أهل الهجرة الثانية، فحديث أم سلمة يحكي ما جرى في الهجرة الثانية كحديث ابن مسعود، فاختلافهما في أي الرجلين: عمارة بن الوليد، أو عبدالله ابن أبي ربيعة كان رفيقاً لعمرو بن العاص في سفارته التي وقع فيها الحوار بين النجاشي والمهاجرين باقٍ لم تُحلَّ عقدته.

وكأنما تنبّه القسطلاني في (المواهب) إلى هذا الإشكال فأراد حل عقدته فقال في الكلام عن الهجرة الأولى: فلما رأت قريش استقرارهم ـ

أي المهاجرين ـ في الحبشة وأمنهم أرسلوا عمرو بن العاص، وعبدالله ابن أبي ربيعة بهدايا وتحف من بلادهم إلى النجاشي، وكان معهما عمارة ابن الوليد.

وصرح الزرقاني في شرح المواهب بأن عمارة لم يكن أصيلاً في سفارة قريش إلى النجاشي وإنما كان تابعاً لعمرو بن العاص، وابن أبي ربيعة فقال: ولم يذكر عمارة ـ أي في حديث ابن مسعود لأنه تبع لهما.

وحكى الزرقاني عن الشامية فقال: الصحيح أن في الهجرة الأولى عمارة، وفي الثانية عبدالله، ومعنى ذلك أن عمارة وعبدالله بن أبي ربيعة لم يجتمعا في بعثة واحدة مع عمرو بن العاص وهذا خلاف ما قاله القسطلاني، ويقتضي أن قريشاً بعثت في تطلُّب المهاجرين لردهم إليها تفتنهم في دينهم بعثتين، كان فيهما عمرو بن العاص رسولاً، يرافقه في أولاهما عمارة ابن الوليد وفي الثانية عبدالله بن أبي ربيعة.

بيد أن هذا لا يلتئم مع ما اتفقت عليه الروايات من وحدة الحوار الذي دار بين النجاشي من جانب وبين المهاجرين من جانب آخر، في موضوعه، وصورته التي جرى في إطارها، ونهايته التي انتهى إليها، وفي تعيين متكلم المسلمين المهاجرين، وهو في كل الروايات جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، بمشهد من مبعوثي قريش، وأحدهما على القطع عمرو بن العاص، وكان هو مُشْعل إغراء النجاشي وتحريشه.

لأنه يبعد جداً أن يتكرر هذا الحوار بصورته التي يحضر مجلسها الملك، وبطارقته، ورؤوس مملكته، وموضوعه الذي دار فيه والمتكلم عن المسلمين وخطيبهم؛ وهو في جميع الروايات جعفر بن أبي طالب الذي اتفقت الروايات على أنه كان من أهل الهجرة الثانية ولم يكن من أهل الهجرة الأولى، التي كانت قليلة العدد، قليلة الزمن المختص بها في مكث أهلها منفردين بالحبشة بعددهم القليل قبل أن يلحق بهم إخوانهم أصحاب الهجرة الثانية.

ولعل وحدة الحوار، وهو من أهم ما كان في هذه الهجرة، هو

الحامل للحافظ ابن حجر على الاقتصار في سيرته على أن عَمْراً وعمارة ذهبا في الهجرة الثانية، ولم يذكر الحافظ في سيرته ذهاباً لأحد من جهة قريش في الهجرة الأولى، وهذا موافق في ذكره عمارة رفيقاً لعمرو بن العاص لحديث عبدالله بن مسعود، ورواية موسى بن عقبة في مغازيه كما ساقها البيهقي في الدلائل.

والذي نرجحه ـ جمعاً بين الروايات ـ أن قريشاً بعثت في أثر المهاجرين إلى الحبشة من المسلمين بعثة واحدة، كانت في الهجرة الثانية التي بلغ فيها عدد المهاجرين من الرجال والنساء نحواً من اثنين ومائة بين رجل وامرأة، وكان فيها عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة المخزومي، مبعوثَين أصليين، وكان معهما رديفاً وتابعاً عمارة بن الوليد، وفي هذه الهجرة جرى الحوار المذكور في جميع الروايات بين النجاشي، وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه. لأن هذه الهجرة الثانية في كثرة عدد أفرادها، وشمولها لأكثر بيوت قريش وبطونها وعشائرها هي التي أشجَت قريشاً، وأخذها بسببها المقيم المقعد، ونزلت منها منزلة الغصة بالماء، فقد أهمتها أشد الاهتمام، وخشيت أن تكون منشراً للدعوة التي أمضتها، والرسالة التي أشجتها.

ويدخل في هذا الترجيح بداهة أن عمارة بن الوليد لم يكن موجوداً في مجلس الحوار بين النجاشي وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، لما جرى بينه وبين عمرو بن العاص من شر وسوء ذات بين.

ومن هنا أغفلت ذكره رواية أم سلمة رضي الله عنها التي رواها مجوَّدة ابن إسحاق، لأنه لم تكن له مشاركة جادة، ولعله كان مشغولاً بعبثه الذي انتهى به إلى أبشع مصير، كما تحكيه الروايات مرة متصلاً بقصة عابثة يرويها أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه ولعلها أو تفاصيلها من نواسياته العابثة، ومرة في صورة سوء وثام، وشر بينه وبين عمرو اقتضى أن يكيد له عمرو، ويمكر به حتى قذفه إلى ذلك المصير المشؤوم، كما ذكره البيهقي عن مغازي ابن عقبة، وطوّل القصة السهيلي وأشار اليها القاضي عياض كما نقله عنه النووي في شرح مسلم.

بقي في البحث أن البيهقي في الدلائل ذكر بسنده إلى ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: إنما كان يكلم النجاشي عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وهذه رواية غريبة بين روايات قصة الهجرة إلى الحبشة، لأن سائر الروايات ـ سواء التي تذكر عمارة بن الوليد، أو عبدالله بن أبي ربيعة، أو هما معاً في رفقة عمرو إلى النجاشي ـ تذكر أن الذي كان يكلم النجاشي نائباً عن المسلمين وخطيبهم هو جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكلها تذكر بالتفصيل ما كلَّم به جعفر النجاشي، وتذكر ما كان من أسئلة توجه بها النجاشي إلى المسلمين المهاجرين، وإلى متكلمهم جعفر، بناء على تحريض عمرو ورفيقه في بعثة قريش، وتذكر بالتفصيل والصراحة ما كان يجيب به جعفر عن هذه الأسئلة باتفاق بينه وبين إخوانه المسلمين، على مسمع من بطارقة النجاشي ورهبانه ورؤوس قومه ووجوه بلده، وعلى مسمع من رسولي قريش: عمرو، وصاحبه.

ورواية أن الذي كان يكلم النجاشي إنما هو عثمان بن عفان لم يعرِّج عليها الرواة، ولم نرَ من ذكرها غير البيهقي بهذا الأسلوب المبتسر، المختصر المجمل، وعثمان بن عفان كان أول من هاجر بأهله إلى الحبشة، وهو رضي الله عنه في مكانته من الإسلام وفضله في السبق إلى الهجرة وقدره بين قومه من قريش لا ينكر عليه أنه هو الذي كلَّم النجاشي، وأنه هو الذي أدَّى عن المسلمين المهاجرين، وتكلَّم بلسانهم.

لكن سوق هذه الرواية بهذه الصورة لا يجعلها في قوة الروايات المتعددة المفصلة التي أطبقت على أن المتكلم بلسان المسلمين هو خطيبهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

غير أن رواية عثمان هذه قد تحل مشكل الروايات التي تحكي أن بعث قريش إلى النجاشي كان مرتين إحداهما في الهجرة الأولى، والثانية في الهجرة الثانية، ومن المعروف المتعالم أن عثمان رضي الله عنه كان من أهل الهجرتين، وجعفراً رضي الله عنه كان من أهل الهجرة الثانية، ولم يكن في

أصحاب الهجرة الأولى، التي كان عدد أصحابها قليلاً اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، وهذا العدد في قلته لا يقلق قريشاً إلا بمقدار ما تعرف من استقرارهم وأمنهم خشية أن يكونوا طليعة لهجرة غيرهم ونشر دعوتهم.

ومن ثم يمكن أن يتصور أن بعثة قريش الأولى وراء هذا العدد القليل من المسلمين المهاجرين كانت بعثة استطلاع وتعرف على حال هؤلاء المسلمين المهاجرين، ومدى استقرارهم ومدى ما وجدوا في مهاجرهم من الأمن على أنفسهم ودعوتهم، ولعل عمارة بن الوليد كان رفيقاً لعمروابن العاص في هذه الرحلة الأولى.

ولم تكن هذه البعثة الاستطلاعية تقصد إلى حتمية ردِّهم إلى قومهم وبلدهم، ولعله قد جرى حديث في شأنهم في هذا الجو الاستطلاعي لإغراء الحبشة بهم حتى يسيئوا جوارهم وتضيق صدورهم بما يجدون منهم في غربتهم، فيرجعوا إلى بلدهم وقومهم، وكان المتكلم عن المسلمين حينئذ هو عثمان رضي الله عنه، وبهذا تتمشى هذه الرواية مع الروايات الأخرى، ولا تنفي أن خطيب المهاجرين المتكلم بلسانهم في مجلس النجاشي وبطارقته ورؤوس بلده هو جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومما يؤكد هذا ويؤيده ما ورد أن النبي ﷺ كتب إلى النجاشي كتاباً خاصاً حمله إليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قبل أن يكتب إلى ملوك العالم ورؤساء القبائل كُتُبَه التي دعاهم فيها إلى الإسلام بزمن مديد، لأن كُتُبَه ﷺ إلى الملوك والرؤساء كانت بُعَيْد رجوعه من الحديبية وكتابه الخاص إلى النجاشي مع ابن عمه جعفر بن أبي طالب كان قبيل دخوله ﷺ مع المسلمين ومن آزرهم من بني هاشم والمطلب حمية شِعْب بني هاشم الذي أقاموا فيه محاصرين نحو ثلاث سنين.

وكتابه ﷺ مع جعفر إلى النجاشي كان للوصية بالمسلمين الذين هاجروا إلى بلده يرجون حسن جواره، والأمن والاستقرار في كنفه، بدليل أنه ﷺ حينما كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام كان أول من كتب إليه بذلك هو ملك الحبشة الذي خلف ملكها الذي أسلم على يدي جعفر،

وكتب بذلك إلى النبي ﷺ، وهذا النجاشي المسلم هو الذي صلَّى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب حين أخبر بوفاته، وكان رسوله إلى النجاشي الثاني الذي كتب إليه يدعوه إلى الإسلام أسوة بملوك العالم هو عمرو ابن أمية الضمري.

ونص كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي الذي حمله معه إليه في هجرته جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه كان متضمناً ـ إلى جانب الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وعبودية عيسى عليه السلام ورسالته، وأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم العذراء البتول ـ الوصية بالمسلمين، وأن النبي ﷺ بعث إليه ابن عمه جعفراً ونفراً من المسلمين، ليكرمهم، فهو كتاب خاص كان الهدف الأول منه هو الوصية بالمسلمين وإحسان جوارهم وإكرامهم ليأمنوا في جواره وهذا هو نص الكتاب كما ترويه كتب السيرة: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم، ملك الحبشة، سِلْم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً، ونفراً من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم، ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى».

نص كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي

نص كتاب النجاشي إجابة لكتاب رسول الله ﷺ

وقد رد النجاشي على كتاب النبي ﷺ بكتاب أجاب فيه إلى الإسلام واستجاب إلى وصية النبي ﷺ بالمسلمين المهاجرين فأكرمهم، فقال: (بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر. سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته من الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام. أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما

ذكرت تفروقاً، انه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه، وأسلمت على يديه لله رب العالمين.

وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق: والسلام عليك يا رسول الله).

تحقيق في من هو النجاشي الذي كتب إليه النبي ﷺ مع جعفر بن أبي طالب

أما كتابه ﷺ إلى النجاشي الثاني، وليس هو بالذي صلَّى عليه ﷺ، فإن هذا كان غير مسلم، وكان رسول رسول الله ﷺ إليه الذي حمله إليه هو عمرو بن أمية الضمري، فهو كتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، وهو في نصه لا يختلف كثيراً مع كتاب النجاشي الذي أسلم على يدي جعفر ابن أبي طالب سوى أن كتاب عمرو الضمري لم يتضمن ذكر جعفر بن أبي طالب وأصحابه والوصية بهم وإكرامهم، كما أورده ابن القيم في كتابه (زاد المعاد) قال ابن القيم بعد أن ذكر أن النجاشي الذي توفي سنة تسع من الهجرة وخرج النبي ﷺ بالناس إلى المصلى، فصلَّى عليه، وكبَّر أربعاً - وهذا وَهَم - والله أعلم - قد خلط راويه، ولم يميز بين النجاشي الذي صلَّى عليه، وهو الذي آمن به وأكرم أصحابه وبين النجاشي الذي كتب إليه يدعوه إلى الإسلام، فهما اثنان، وقد جاء ذلك مبيناً في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام، وحمل كتابه إليه عمرو ابن أمية الضمري، وليس هو بالذي صلى عليه.

وحديث الهجرة إلى الحبشة طويل الذيول، عريض الأكناف، متفاوت الأخبار، مختلف الروايات، وقد أتينا على ما بلغ جهد القلم من تحقيق روايات هذه الهجرة في مرَّتيها الأولى والثانية، وركَّزنا على أنها لم تكن هجرة لمجرد الفرار من الاضطهاد والتعذيب، ولا سيما في المرة الثانية التي استوعبت كثيراً من أبناء البيوتات وأشراف قريش، وإنما كانت هجرة للتخفيف عن رسول الله ﷺ في حرصه على أمن أصحابه، وعدم شغله نفسياً بأمرهم ليتفرغ للدعوة وتبليغ رسالته وهي في مضايق مراحلها وأشد أزماتها واستسراره بها، وكانت هجرة تبليغ ونشر للدعوة، تركت أثرها

بالحوار الصدوق الذي تولاه جعفر بن أبي طالب باسم سائر المسلمين المهاجرين، واستجاب لها النجاشي وأحباره ورهبانه، الذين فاضت أعينهم بالدمع مما سمعوا من الحق، وأنزل فيهم قرآناً يتلى ﴿ ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ﴾.

قِصَّة الغَرانيق

أكذوبة بلهاء متزندقة

أقحم بعض كتّاب السيرة النبوية، وجماعة من المفسرين، وطوائف من المحدِّثين في كتبهم ودواوينهم ومؤلفاتهم أقصوصة (الغرانيق)، وألصقوها بهجرة الحبشة وجعلوها سبباً لعودة المهاجرين الأولين إلى مكة، وهي أقصوصة مختلقة باطلة في أصلها وفصلها، وأكذوبة خبيثة في جذورها وأغصانها، وفريَّة متزندقة اخترقها (غِرْنَوق) أبْله جهول، أو شيخ حاقد على الإسلام زنديق، أو منافق فاجر عربيد، ألقى بها إليه شيطان عابث مريد، يتلعَّب بعقول البُلْه المغفَّلين، الذين يتكثرون تعالُماً، ويتلقفون كل شوهاء فجور، فجَرَت إلى مجتمعات أعداء الإسلام، ومن كل يهودي خبيث، وكل ملحد عَتِيّ،وسرت منهم إلى كل مسلم أبْله مُغَرَّر، وكل متعالم مغفَّل، وكل جدلي متفيهق، وكل مغرور مخدوع بكواذب المدح والثناء، وكل حفَّاظ (صمام)، وكل جمَّاع لا يفقه ولا يتفقه، وكل جامد مقلد، وكل حَرْفي متعصب، وكل مُلَبَّس عليه يزعم أنه مجتهد، وكل خابط هنا وهناك يتكذب، وكل حاطب في ظلمات الجهل، يتلقف (العلم) من وراء طنين الأسماء، دون تمحيص ناقد، أو بحث مُسَدَّد، وكل مدّع دعيٍّ، وكل متسقِّط يزعم أنه مجدِّد، وكل ملتقط يزعم أنه متنق، وكل مزهو بالغرور يزعم أنه وحيد دهره، وفريد عصره، بل واحد أمته، لو قيل له إن الشيطان يلبِّس عليك في علمك، فيوهمك ما ليس بحق أنه حق لانتفخت أوداجه غضباً لنفسه، ولكنه يقبل ويدافع دفاع المستميت عن قصة مزورة تهدم أصل أصول الإسلام وتخرق سياج النبوة، وتبطل عصمة الأنبياء اعتماداً على رمرمة من مراسيل واهية.

فباضت هذه الأكذوبة البلهاء بين أحضان هؤلاء، وفرَّخت في أعشاشهم، وزقزقت أفراخها في أوكارهم، وطارت بأجنحة الافتراء الأبله إلى آفاق التاريخ الإسلامي المظلوم، فتلقفها كل (راوندي) ملحد، وحملها كل زنديق مفسد، ليطعن بها في سويداء قلب القرآن الكريم الحكيم المحكم، ويفتك بخنجرها بالسنة المطهرة المبينة، وهما أصل أصول الإسلام اللذان قام على دعائمهما شامخُ صرح هذا الدين القيم، ليزعزع الثقة بأصلَيْه، فينفلت من أيدي المسلمين زمام دينهم الذي أنزله الله تعالى هدى ورحمة للعالمين، ليهدم به كل بناء للوثنية والإلحاد، ويقضي بهدايته على معالم الشرك والإفساد، ويضعضع بآياته كل تفلسف متزندق، وكل زندقة متفلسفة، ويقيم بشرائعه وأحكامه منائر التوحيد الخالص لله تعالى وحده وينشر بآدابه في آفاق الحياة نور الحق والخير.

هذه الأكذوبة (الغرنوقية الخبيثة) تريد من المسلمين أن يجعلوا من سيد المرسلين، خاتم الأنبياء محمد ﷺ ألعوبة في يد الشيطان، وأن يجعلوا منه ﷺ معبثة للشرك والمشركين، وأبطولة يرقص من حولها الملاحدة والحاقدون ولكن الله تعالى يأبى إلا أن يجعل من دينه، دين الإسلام الذي رضيه لأمة محمد ﷺ حصناً حصيناً لا تقتحمه الأباطيل والترهات، ولا تنطلي على حُذّاق حملته من الجهابذة زندقة المتزندقين، وقد أخبر سبحانه إخباراً لا يتخالجه الريب، ولا يحوم حول حماه الشك، بأنه هو الذي تولَّى بنفسه حفظه بحفظ دستوره (القرآن الحكيم المحكم)، فلا يدخل إلى ساحته افتراء المفترين، ولا يلج إلى حظيرة قدسه عبث الشياطين، فقال تعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وليتأمل المتأملون في هذه الآية الحكيمة المحكمة وفي قول الله تعالى: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هُدًى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيُّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾[1]. ليرَوا ما أضفى رب العزة تبارك وتعالى على كتابه القرآن الحكيم المحكم من حفاوة الاختصاص

---

(١) سورة المائدة آية (٤٤).

بتولي حفظه وإسناد ما أفاضه على التوراة من فضله، فوكل حفظه إلى الربانيين والأحبار.

قال أبو حيان في البحر: وقد أخذ الله على العلماء حفظ الكتاب - أي التوراة - من وجهين، أحدهما: حفظه في صدورهم ودرسه بألسنتهم، والثاني حفظه بالعمل بأحكامه واتباع شرائعه، وهؤلاء ضيَّعوا ما استحفظوا حتى تبدَّلت التوراة، وفي بناء الفعل للمفعول، وكون الفعل للطلب ما يدل على أنه تعالى لم يتكفل بحفظ التوراة، بل طلب منهم حفظها وكلَّفهم بذلك، فغيَّروا وبدَّلوا، وخالفوا أحكام الله، بخلاف كتابنا فإن الله تعالى تكفَّل بحفظه، فلا يمكن أن يقع فيه تبديل ولا تغيير، قال تعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ أفلا يعقل الغِرْنوقيون؟.

هذه الأكذوبة الخبيثة البلهاء كانت إحدى الفِرى الحاقدة التي طوَّفت ببعض مؤلفات الجمَّاعين للغث والسمين، فرواها في غفلة من عقله وعلمه بعض المفسدين، وأُدخلت على بعض المحدِّثين، مغلَّفة بأغلفة الأسانيد، محاطة بهالات بريق الأسماء، فردَّدها بأساليب مختلفة وفرطحها كثير ممن تلقفها بالبله والغفلة، ورتعت في أسفار المؤرخين فأعادوا فيها وأبدوا، وزادوا ونقصوا، وأثبتوا وحذفوا، وشوَّهوا وزينوا، ومسخوا وحرفوا، وتلقاها القصَّاصون فغنّوا بها، وكان إبليس هو عازف موسيقاها في أنديتهم ومجالسهم، ومصمصت لسماع أباطيلها شفاه الجاهلين من غوغاء العامة، وعامة الغوغاء الذين تَكْبُر في صدورهم الغرائب والأعاجيب من المضحكات المبكيات - فيهشون لها، ويتزاحمون على محافلها.

بيد أن هذه الأقصوصة الخبيثة والأكذوبة البلهاء لم تفلت من سياط النقد الممحص، فنهض إليها من الجهابذة المهرة، والحذَّاق العيالم من أئمة الإسلام المشهود لهم بالفضل والصدق والتبحر، والتفقه في الدين مَنْ طعنها في أقتل مقاتلها، فبهرج زيفها، وكشف عن سوأتها، وعرَّاها شوهاء متزندقة، وجلَّاها بلهاء ملحدة، وأظهرها فِرْية مستخبثة، ولكنها ظلت تعيش في أودية الشياطين، تتربص للوثبة، لتفسد على المجتمع المسلم

حياته الإيمانية بتشكيكه في أصل أصول دينه، ودستور حياته (القرآن الحكيم المحكم) وتزعزع ثقته في صدق نبيه، سيد الأنبياء والمرسلين، محمد خاتم النبيين ﷺ، ليصبح هذا المجتمع المسلم الذي اكتسح حياة الوثنية والإلحاد المشرك بهُدَى قرآنه وسنة نبيه ﷺ فريسة للإلحاد الجديد على ألْسنة المستشرقين والمبشرين الصليبيين واليهود السبائيين، والزنادقة الراونديين، والمتحللين من فجار الشيوعيين الذين عجزوا عن مواقفة القرآن في مواجهة فكرية ومحاجة علمية، فلاذوا إلى الافتراء يختلقونه وإلى الأباطيل يزرعونها في أرضه في غفلة من حراسه الغرّ الميامين، ليغيروا معالم هدايته، ويشوهوا حقائق دستوره، ويخلعوا عن نبيه سيد الأنبياء والمرسلين خلعة العصمة التي حفظه الله بها عن أي خطأ فيما يبلغه الرسول عن الله تعالى من الشرائع والأحكام إلى الخلق كافة، فكانت عاصماً له ﷺ من أن يكون للشيطان عليه سبيل، والعصمة عن الخطأ فيما يبلِّغه الرسول عن الله تعالى ثابتة بإجماع طوائف الأمة خَلَفاً عن سلف، لم يعرف في هذا مخالف إلا من أوَّل وحرَّف وبدَّل، وذلك أمره إلى الله، يتولى جزاءه بما يستحق من جزاء.

وسنحاول ـ بقدر الاستطاعة ـ أن نستوفي عرض الأقوال والآراء والمذاهب، والتأويلات والدلائل مما وقفنا عليه إثباتاً ونفياً في أمر هذه الأقصوصة دون تقيد بترتيب خاص، حتى نكشف عن باطلها أغطية البَلَه والغفلة، وأكنة المكر والحقد، وقد جمع الشيخ الحافظ جلال الدين السيوطي من روايات هذه الأقصوصة في كتابه (الدر المنثور) ما يكاد يكون استيعاباً لها، وأتى في جمعه لهذه الروايات على أكثر ما جمعه شيخ شيوخه الحافظ ابن حجر العسقلاني في (فتحه)، والسيوطي قَصَر نفسه على جمع الروايات، وإسنادها إلى من خرّجها، ولم يتدخل بشيء من البحث فيما وراء ذلك من إثبات القصة أو نفيها إلا قليلاً، وهو بهذا الصنيع كان أميناً مع طبيعته العلمية التي ينادي بها تاريخه الفكري وتصورها مؤلفاته المتكاثرة.

وأما الحافظ ابن حجر فكان موقفه من القصة ممثلاً لشخصيته العلمية التي يضفي عليها فوقه في الصناعة الحديثية هالة من الاقتدار

والتفرد على حفاظ عصره، مما غلب عليه العصبية الصناعية، فحكّمها في إثبات أصل القصة من جهة روايات أحاديثها وأسانيدها، وبهذه البراعة الصناعية انتهض ليجعل من أقصوصة الغرانيق قصة لها أصل حديثي يحميها من الوضع والكذب، وهذه كبوة لا ندري ما الله صانع به من أجلها، ولعله تذكّر وأناب.

وقد تناول هذه الأقصوصة كثير من القدامى والمتأخرين، وكان منهم من له دراية بصناعة التحديث ونقد الروايات الحديثية، فأجاد في بيان زيف جميع روايات الأقصوصة، وما فيها من وهي ووهن ينسفانها نسفاً، ويذريان رميمها في مهب أعاصير الأباطيل، ولكنه كعّ عن الصراحة في الرد على من أثبتها من الأكابر ذوي الشهرة والرنين، وكل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ فهو وحده المعصوم عن أن يبلّغ عن الله إلا ما هو حق وهدى.

والمتأمل في صنيع الجهابذة من جند الله ومهرة عيالم علوم تفسير القرآن والسنة وحذّاقها فقهاً وتفقهاً وصناعة في تزييف أقصوصة الغرانيق البلهاء وإبطالها في منابتها، واستحالة وقوعها ـ يجد هذا الصنيع أقوم مسلكاً، وأسد منهجاً، وأعمق منبعاً، وأرضى مصرفاً، وأصدق برهاناً، وأسطع حجة، وأضوأ مشرقاً، وأصفى مشرباً، وأعدل مقصداً، وأبدع مشرعاً، وأحق متقبلاً، وأعذب مذاقاً، وأحلى مورداً، وأنجع شفاء، وأقطع لجذور الفتنة، لأنه يجمع النظر المحكم من جميع جوانبه النقلية والعقلية، فلا يدع منها جانباً لغامز، ولا يترك فيها سبيلاً لقول متكذّب.

ومن أعجب وأغرب ما استوقف أنظار البحث أن نجد إماماً له اليد الطولى في علوم القرآن وتفسيره، وعلوم السنة وفنونها وسائر معارف الإسلام النقلية والعقلية، والدفاع عنها وإحاطته علماً بأقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أرباب الفرق، ومذاهب الطوائف في الملل والنحل بما لم يعرف مثله لغيره من أئمة العلم، رواية وحفظاً وتفقهاً، وغوصاً على الحقائق والمعاني، وسوقاً للأدلة والبراهين ـ يجنح إلى القول بثبوت قصة

الغرانيق مروية عن السلف كما يزعم، ذلك هو الشيخ الإمام ابن تيمية، كما جاء ذلك في فتاويه.

وسنسوق كلامه ونناقشه ونناقش كلمات جاءت عن القصة من كلام تلميذه الشيخ العلاّمة ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان)، وهي كلمات عارضة ظاهرة في القول بثبوت قصة الغرانيق لم تقصد في سياقها إلى القصة إلا تبعاً.

ثم نسوق كلام الحافظ ابن حجر في (فتحه) وادِّعائه أن للقصة أصلاً يحميها من الوضع والكذب، ونكل مناقشته والرد عليه إلى ما يجيء في كلامنا عند عرض كلام الأئمة النافين لوقوع هذه القصة.

ومن أبشع ما وقفنا عليه في زعم ثبوت هذه الأكذوبة البلهاء كلام للشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني الكردي، وقد ساق الآلوسي في تفسيره (روح المعاني) كلام هذا الرجل وناقشه ورد عليه بما شفى وكفى، وسنقف مع كلام الشيخ الكوراني وقفة تعتمد على النظر فيما ساقه الآلوسي إثباتاً ونفياً، مع تحقيق بعض النقاط، وتوضيح بعض المواضع.

ثم نسوق أقوال الجهابذة من أئمة الإسلام وأعلامه، وحذَّاق علمائه الذين أنكروا وقوع هذه الأقصوصة الباطلة، وأثبتوا أنها من المحال وقوعه في حياة سيد المرسلين محمد ﷺ، وزيَّفوا رواياتها، وكشفوا عن خبْثِها وما تضمنته من شر مستطير وفساد كبير يجب أن تبرأ من شناعته ساحة الرسالة المحمدية الخاتمة الخالدة الهادية، لنسد على شياطين الإلحاد من أعداء الإسلام مداخلهم لإفساد عقائد هذا الدين القيِّم في نفس معتنقيه وزعزعة الثقة بكتابه المبين ورسوله الأمين ﷺ

سياق السيوطي لروايات القصة

ونبدأ ـ مستعينين بالله وحوله وقوته، مستجلبين توفيقه ـ بتقديم أكثر ما سرده السيوطي في كتابه (الدر المنثور) من روايات هذه الأقصوصة البلهاء ، معقِّبين على ما نرى أنه في حاجة إلى التعقيب إفراغاً للحق في قالبه من أول أمره، حتى ننتهي بحول الله وقوته إلى دَرْج هذه الأكذوبة المتزندقة في أكفانها، لنلقي بها في وجه كل منافق زنديق، أو ملحد حاقد عربيد، أو جاهل أبله من المغفلين، أو عالم يكبو به جواد الغرور الأهوج في ساحة التعصب. وقد أورد السيوطي روايات كثيرة في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ نذكرها بحسب ترتيبه فيما يأتي:

الرواية الأولى

قال السيوطي:

أخرج عبد بن حُمَيد من طريق السُّدِّي عن أبي صالح قال: قام رسول الله ﷺ، فقال المشركون: إن ذكر آلهتنا بخير ذكرنا إلهه بخير، فألقى في أمنيته ﴿ أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ إنهن لفي الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، قال: فأنزل الله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ الآية: فقال ابن عباس: إنّ أمنيته أن يسلم قومه.

هذه رواية تنادي على نفسها بالبطلان، فقول أبي صالح: قام رسول

الله ﷺ، لا يُدْرى ما المراد منه؟ وهو محتمل لإرادة القيام إلى الصلاة وهي موطن لقراءة القرآن، ويحتمل قام على رؤوس المشركين يدعوهم إلى الله تعالى وتوحيده وخلع الأنداد والشركاء كما هو دأبه ﷺ، ويحتمل غيرذلك. وقول أبي صالح: فألقى في أمنيته ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ إنهن لفي الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، كلام ملفّق لأنه خلط بين آيات الله تعالى المنزلة بالوحي لتوبيخ المشركين، والتنديد بآلهتهم الباطلة، وذلك قول الله تعالى: ﴿ أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ وبين ما هو محض الكذب والافتراء على الله وكتابه ونبيه ﷺ وذلك قول الزناديق: إنهن لفي الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى. وجعل هذا كلهُ مُلْقىً في أمنية رسول الله ﷺ وقد أبهم المُلْقِي، وهذا الإبهام خدعة زندقية للإيهام بأن هذا كلهُ مُلقىً إلى رسول الله ﷺ عن طريق الوحي، ويدل لهذا أن الرواية لم تذكر تصويب جبريل لما نزل به من الوحي الصادق وهذا من أبطل الباطل وأفجر الكفر. فهذه رواية كاذبة باطلة لا تساوي عفطة عنز، غير أن فيها شيئاً يلفت النظر، ذلك هو تفسير الرواية عن ابن عباس لأمنية رسول الله ﷺ، فقالت: فقال ابن عباس: أمنيته ـ أي أمنية النبي ﷺ ـ أن يسلم قومه، وهذا ـ إذا صح عن ابن عباس، وهو حبر الأمة والصحابي الوحيد الذي ذكر في روايات هذه القصة ـ هو البيان الذي لا محيص عنه في تفسير الأمنية، لأنها من التمني وهو محبة الشيء والرغبة في حصوله ووقوعه، ولا شك أن كل نبي أو رسول يتمنى ويحب ويشتهي ويرغب أن يسلم قومه ويستجيبوا لدعوته ويؤمنوا برسالته، وهذا التفسير يرد دعوى من زعم أن السلف (كلهم) على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته كما هو صريح كلام ابن القيم في (إغاثة اللهفان) وإليه جنح شيخه في الفتاوى، ولم يرد في روايات القصة تعيين أحد من السلف بأنه فسر الأمنية بالتلاوة وتمنى بتلا، وهذا حبر الأمة يفسر الأمنية بحب إسلام قومه، وهو المعنى الموافق لاستعمالات اللغة وأوضاعها، والتمني بمعنى التلاوة لم يرد إلا في بيت منسوب لحسان ابن ثابت في رثاء عثمان بن عفان لم يعرف له سند صحيح؛ وسائر من كتب

سابقاً ولاحقاً لم يجدوا دليلاً لغوياً على تفسير الأمنية بالتلاوة سوى هذا البيت الذي يحتمل أنه مكذوب مصنوع، ولو كان ثَمَّـة غيره لذكر وذاع، واستعمال القرآن الكريم للتمني في آيات كثيرة كله جـاء بمعنى الرغبة والمحبة والاشتهاء، مثل قوله تعالى: ﴿ليس بـأمانيِّكم ولا أمـانيّ أهل الكتاب﴾ وقوله جلّ شأنه: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ﴾ وقوله: ﴿فتمنَّوا الموت إن كنتم صادقين﴾ وقوله: ﴿ولا يتمنَّونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾. فالعدولُ عن هذا الاستعمال الشائع إلى تمحّل معنى لم يذكر له دليل لغوي إلا بيت فذ منسوب لحسان حَمْلٌ لألفاظ القرآن الكريم على استعمال باطل أو بعيد متعسِّف.

ولفت النظر إلى هذا التفسير الصحيح للأمنية المذكور في هذه الرواية لم يكن تسليماً لصحتها، وإنما هو لبيان أن مختلقي أقصوصة الغرانيق أرادوا خداع العقول بـإدخـال الحبر ابن عباس في سندها لإيهام صحتها، وابن عباس أعلم الناس بشعر حسان رضي الله عنهما، فلو كان بيت حسان ثابتاً عند ابن عباس لاستشهد به على المعنى المزعوم للأمنية في الآية، وكل ما استطاعه المنتحلون لبيت الشعر المنسوب لحسان أن جعلوا منه بيتين متحدي الشطر الأول، وسيأتي إن شاء الله لذلك زيادة تحقيق.

الرواية الثانية

قال السيوطي:

أخرج البزار، والطبراني، وابن مردويه، والضياء في المختارة بسند (رجاله ثقات) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن رسول الله ﷺ قرأ ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى. ففرح المشركون بذلك وقالوا: قد ذكر آلهتنا، فجاء جبريل فقال: اقرأ عليّ ما جئتك به، فقرأ ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى. فقال - أي جبريل -: ماأتيتك بهذا، هذا من الشيطان، فأنزل الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلاّ إذا تمنّى﴾ إلى آخر الآية.

وهذه الرواية التي قال عنها السيوطي (بسند رجاله ثقات) معلولة بتردد الراوي في وصلها، قال أبو بكر البزار: لا نعلمه ـ أي هذا الحديث ـ يُروى متصلاً إلا بهذا الإسناد: أي يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال سعيد ابن جبير: فيما أحسبه، وهذا شك في وصل الحديث، ثم قال البزار: تفرَّد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور.

وما تفيد ثقة أمية بن خالد وشهرته والشك علة قادحة، فكيف يكون رواته ثقات؟.

وفي هذه الرواية مخالفة لسابقتها في نص الكلمة الخبيثة المزوَّرة، ففي الرواية السابقة جاء النص هكذا (إنهن لفي الغرانيق العلا) وفي هـذه الرواية جاء النص هكذا (تلك الغرانيق العلا) وفي الرواية الأولى قـام رسول الله ﷺ فقال المشركون: إن ذكر آلهتنا بخير، فألقي في أمنيته ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومنـاة الثالثـة الأخرى﴾ إنهن لفي الغـرانيق العُلَا، وإن شفاعتهنّ لترتجى، هكذا متصلة بالآيتين القرآنيتين قبلها، وهذا يفيد أن النبي ﷺ قرأ هاتين الكلمتين الخبيثتين متصلتين بآيتي القرآن الكريم على أنهما قرآن أنزل به الوحي، واعتقد ذلك، ولم ينزل عليه جبريل لتصويب الوحي وإبطال ما عداه من كلام الزنادقة الأخبثين، وإنما نزلت الآية لتبين سنةً من سنن الله في أنبيائه ورسله، وتسليط الشيطان عليهم حتى يتقوَّلوا على الله ما لم يقله لهم، وفي الرواية الثانية التي زعم السيوطي ثقة رجال سندها أن ابن عباس قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿أفرأيتم اللات والعزَّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، هكذا متصلة بآيتي القرآن الحكيم قبلهما، وأن النبي ﷺ هو الذي قرأ ذلك فخلط بين ما نزل عليه الوحي، وبين ما لم ينزل به، وإنما هو من الكذب الخبيث، فالروايتان ـ موثوقة السند في زعم موثقيها، ومهملة التوثيق ـ متفقتان على التقوُّل على رسول الله ﷺ أنه قرأ آيتي القرآن الحكيم في ذم الأوثان، وتوبيخ الوثنيين المشركين، وأنه وصلهما بالكلمة الكاذبة الخبيثة في مدح الأوثان، وهذا

أكذب الكذب على رسول الله ﷺ، يتبوأ متقوله مقعده من النار، وقد خلّت الرواية الأولى من ذكـر مجيء جبريل عليه السلام لتنبيه النبي ﷺ على ما زُعم عليه أنه أدخل في كلام الله ما ليس منه، وتصحيح النص القرآني كما جاء في الرواية الثانية من أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ، وقال له: اقـرأ عليَّ مـا جئتك بـه، فقرأ عليـه آيتي الأوثان المـوبختين للمشركين، ووصلهما بما زعم من الكلمتين الخبيثتين في مدح الأوثان، فنبهه جبريل عليه السلام أنه ما جاءه بهاتين الكلمتين الكاذبتين، وبيّن له أنهما ليستا من القرآن، وقال له: ما أتيتك بهذا، هذا من الشيطان.

وهذا كله يقتضي بداهة أن هذه الرواية الباطلة ـ كسابقتها ـ تنسب إلى سيد المرسلين محمد ﷺ أنه لم يميز بين كلام الله تعالى الحكيم المحكم، وكلام الشيطان الكذوب المضلِّل، وأنه ﷺ مكث على اعتقاد قرآنية كلام الشيطان حتى جاءه جبريل عليـه السلام فنبهـه وبيّن لـه أنّ هذا من الشيطان، وهذا أبشع الافتراء على الله ورسوله، افتراء يهدم الرسالة من أساسها، والرواية الأولى مثل أختها في البطلان تقتضي ما اقتضته وتزيد عليها أنها خلت من تنبيه جبريل، فأي ثقة تبقى بعد ذلك في أي نص من آيات القرآن الحكيم المحكم؟ لأن الاحتمال قائم في كل نص، ولا سيما على الرواية الأولى حيث لا تنبيه من ملك الوحي على صحة النص المنزل من عند الله، ولو ذكر التنبيه لاحتمل، فلا يرفع المحذور.

الرواية الثالثة

قال السيوطي:

أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه (بسند صحيح) عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم، فلما بلغ هذا الموضع ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهنّ لتُرتجى، قالوا ـ أي المشركون الوثنيون ـ : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا، ثم جاءه جبريل بعد ذلك قال: اعرض عليّ ما جئتك به، فلما بلغ: تلك الغرانيق العلا،

وإن شفاعتهن لترتجى، قال له جبريل: لم آتك بهذا، هذا من الشيطان.

وهذه الرواية التي يقول عنها السيوطي: إنها جاءت (بسندٍ صحيح) هي نفس الرواية التي ثبت فيها الشك في وصلها عن ابن عباس، ـ فيما يظهر ـ والشك ـ كما قدمنا ـ علة قادحة تمنع صحة الرواية، وهي مستلزمة ـ بداهة ـ أن الشيطان استولى على رسول الله ﷺ فألقى على لسانه هاتين الكلمتين الكاذبتين الخبيثتين في مدح الأوثان، بعد ذم القرآن لها، وتقريع عابديها من الوثنيين المشركين، وأنه ﷺ وهو المبلِّغ عن الله رسالاته لم يميز هذا البهتان الشيطاني من الكلام الإلهي، وتقوّل هذا يسلب رسول الله ﷺ أخص خصائصه البشرية أولاً ـ في معرفته بخصائص القرآن الحكيم الأسلوبية وحقائقه المعنوية وأهدافه في الهداية التي نزل لتوطيد دعائمها، كما يسلب عنه نعوت النبوة وحقيقتها وما يجب لها من عصمة من وجبت له منذ أول لحظة ثبوتها بالوحي من الله.

فما قيمة زعم (صحة السند) مع هذه الالزامات المكفِّرة؟ فهذه الرواية باطلة كاذبة فيما تقوَّلته على رسول الله ﷺ، ولا عبرة بصحة سندها ـ إذا ثبتت هذه الصحة كيف ودون صحة سندها تناول نجوم السماء بأكف المشلولين ـ إنها رواية ترفع الثقة عن آيات القرآن الحكيم، وتذهب بخصيصة إعجازه البياني الذي أدركه أجلاف العرب فسجدوا عند سماعه، إعظاماً لبلاغته، وهم لم يؤمنوا به فإذا كان رسول الله ﷺ وهو أفصح البشر، وأقوم الخلق بفهم إعجاز القرآن، وهو ﷺ القيِّم على تنزيله وتبليغه وحفظه من التحريف والتبديل، الحفيظ على نصه ونظم تأليفه، العليم بحقائقه وهدايته ـ لا يميز بين كلمات هذا الكتاب الحكيم وآياته، وبين غثاء الشياطين وافترائهم، فمن إذاً بقي من الخلق إنسهم وجنهم ومَلَكهم وراء ذلك ليحفظ على هذا الكتاب الحكيم المحكم مقوِّمات صدقه، ودلائل إعجازه، ومعرفة هديه وبراعة أسلوبه، وتميز معانيه وحقائقه؟.

وليست صحة السند ـ إذا سُلِّمت ـ دليلاً على صحة ما يروى من الشرائع والأحكام، ولا سيما ما يتعلق منها بالعقيدة، وإنما يكمن وراء

صحة السند صحة كاملة النظرُ الممحص في صحة المتن، واستقامة النص على نهج الهداية وموافقة أصول الرسالة الخاتمة الخالدة، ومعرفة ما للقرآن من قداسة توجب ألّا يقبل أسلوبه ونظمه، وحقائق هدايته، ومعانيه التشريعية أن يدخل فيه ما ليس منه، ولا أن ينقص من آياته أو كلمه أو حروفه ما هو منه، ومعرفة ما للنبي ﷺ من عصمة توجب ألّا يتقوَّل على الله شيئاً، لا سهواً ولا عمداً، أو يقبل أن يتقول على الله تعالى ما لم يقل، وقد قال الله تعالى: ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا من باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾[1] وهذا تهديد مرعب بلغ ذروة الوعيد، والزجر على وقوع تقوُّل شيء - أي شيء على الله - والمراد منه تنزيه ساحة النبي ﷺ عن وقوع مثله، قطعاً لأطماع الكافرين الوثنيين الذين كانوا يُعنتون النبي ﷺ بمقترحاتهم العنادية، بغياً وعتواً، وفجوراً في الكفر والضلال.

الرواية الرابعة

قال السيوطي:

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن طريق العوفي عن ابن عباس أن النبي ﷺ بينما هو يصلي إذ نزلت عليه قصة آلهة العرب، فجعل يتلوها فسمعه المشركون فقالوا: إنا نسمعه يذكر آلهتنا بخير، فدَنوا منه، فبينما هو يتلوها، وهو يقول: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان: أن تلك الغرانيق العلا، منها الشفاعة ترتجى، فعلق يتلوها، فنزل جبريل فنسخها، ثم قال: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ إلى قوله ﴿ حكيم ﴾.

وهذه الرواية تحمل دلائل بطلانها وكذبها في كل كلمة من كلماتها، فهي قد جعلت وقوع أقصوصة الغرانيق في حال تلبس النبي ﷺ بالصلاة، وأن الشيطان تسلط عليه وألقى إليه كلمتي الكفر الفاجر وهو يصلي، وأنه ﷺ علق بهما يتلوهما في آيات القرآن في ذم آلهة الوثنيين وتوبيخهم على اتخاذ هذه الأوثان شركاء لله تعالى، معتقداً أن هذا الكلام المفترى في خبثه

(١) الحاقة آيات (٤٤ - ٤٥ - ٤٦).

وكذبه وظهور ضلاله قرآن منزل من عند الله، ولم يميز بين افتراء الشيطان، وكلام الله الحكيم العليم حتى نبهه جبريل بنسخ كلام الشيطان.

والتعبير بالنسخ هنا إمعان في التضليل، لوروده في قوله تعالى: ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ وهذا من الإيهام لحمل النسخ في الآية على إزالة ما ألقى الشيطان في قراءة النبي ﷺ بزعم أن الأمنية هي التلاوة والقراءة، وهو المعنى البعيد - إذا صح أن الأمنية استعملت فيه لغة -، وهو مما لا دليل عليه سوى بيت الشعر الفذ المنسوب إلى حسان بن ثابت، ثم إن هذه الرواية جاءت بالكلمتين الكاذبتين الخبيثتين في أسلوب مغاير لأسلوبهما في الروايات السابقة، مما يدل على الكذب والتضليل والاضطراب..

وكل ذلك يستلزم رفع الثقة بآيات القرآن الحكيم، ويسلب النبي ﷺ حسه ببلاغة وبراعة بيانه الذي يباين به كل كلام سواه، ويسلبه العصمة عن التقوُّل على الله تعالى ما لم يقل، مما يوجب بطلانها وكذبها، وأن القصة من وضع الزنادقة وخبثاء اليهود وملاحدة المنافقين، وفي سند هذه الرواية العوفي، وهو كما يقول عنه الحافظ ابن حجر: صدوق، يخطىء كثيراً، شيعي مدلِّس.

الرواية الخامسة

قال السيوطي:

وأخرج ابن مردويه عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وعن طريق أبي بكر الهذلي، وأيوب عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن طريق سليمان التيمي عمن حدثه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم وهو بمكة فأتى على هذه الآية: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فألقى الشيطان على لسانه إنهنّ الغرانيق العلى، فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك﴾ الآية، وهذه الرواية واهية السند في طريقها الأول لأنها تعتمد على الكلبي الكذاب، عن أبي صالح الذي صرح الكلبي بأن كل ما حدَّث به عنه فهو كذب، وأبو صالح الذي يروي عنه الكلبي، عن ابن عباس لم يرَ ابن عباس كما

يقول ابن حبّان، وفي طريقها الثاني. تعتمد على من لم يُسَمَّ، وفي طريقها الثالث تعتمد على أبي بكر الهذلي، الذي قال عنه الحافظ ابن حجر في (تقريب التهذيب): إخباري متروك الحديث، وقرن أيوب به ـ ولو كان السختياني ـ لا يفيد، لأن الحافظ ابن حجر بعد أن ساق الرواية بطرقها الثلاث في (الفتح) قال: وكلُّها ضعيف أو منقطع، مما يدل على أن هذا الطريق لا يصلح للاحتجاج بروايته.

وإذ قد ثبت زيف سند هذه الرواية فمتنها منكر زائف، لأن فيه أن الشيطان تسلَّط على رسول الله ﷺ وألقى على لسانه كلماته الخبيثة الكاذبة، ولا شك أن هذا باطل، بل محال، لأنه يناقض مقصود النبوة، ويبطل العصمة التي هي دعامة الثقة فيما يبلِّغه الرسول عن الله تعالى.

الرواية السادسة

قال السيوطي:

أخرج عبد بن حُمَيد وابن جرير من طريق يونس عن ابن شهاب، حدثني أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث أن رسول الله ﷺ وهو بمكة قرأ سورة النجم، فلما بلغ ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ قال: إن شفاعتهن ترتجى، وسها رسول الله ﷺ ففرح المشركون بذلك، فقال: ألا إنما كان ذلك من الشيطان، فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلاّ إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ حتى بلغ ﴿ عذاب يوم عقيم﴾ قال السيوطي: (مرسل صحيح الإسناد). وهذا التعتيب لن يخدع أحداً من أهل العلم راسخي الإيمان، المتفقهين في دين الله، فصحة الإسناد وحدها ليست جوازاً لمرور متن الحديث إلى ساحة القبول، والعمل به، واعتقاد معانيه، والإيمان بهذه المعاني التي يفيدها والحقائق التي يقتضيها.

والمتأمل في هذه الرواية نصاً وروحاً وسنداً يرى دلائل بطلانها تلوح على كل كلمة منها، فهي أولاً مرسلة السند، والإرسال ـ ولا سيما في العقائد ـ موطن ضعف، لا يقبل إلا في الاحكام الفرعية عند من يقول بقبول المرسل، فإذا تخطَّينا السند وجدنا هذه الرواية تُقوِّل النبي ﷺ أنه هو

الذي أدخل الكلمة الكاذبة الخبيثة ـ وهي إحدى كلمتين قامت عليهما الأقصوصة الزندقية ـ على كلام الله تعالى، ومزجها به على أنها منه وحياً من الله تعالى، إذ تقول: قال: إن شفاعتهن ترتجى، ثم تعتذر الرواية عن هذا التقول على رسول الله ﷺ فتقول: وسها رسول الله ﷺ، ولم تبين موطن السهو، هل كان قبل زعمهم أنه قال: أو بعده؟ ثم تقول: ففرح المشركون بذلك، فقال: «ألا إنما كان ذلك من الشيطان» وهذا من أبطل الباطل، وأكذب الكذب، لأن النبي ﷺ يستحيل عليه ـ وهو المعصوم ـ أن يمدح الأوثان، ويُدخل هذا المدح في آيات القرآن، لأن مجرد مدح الأوثان أكفر الكفر، وأخبث الشرك، فضلاً عن جعل هذا المدح قرآناً أوحي إليه، لظهور مناقضة ذلك لأعظم مقاصد الرسالة، لأن النبي ﷺ لم يرسل إلا لاقتلاع جذور الوثنية، وإبطال الشرك بجميع ألوانه ومظاهره، فكيف يتقول على الله في وحيه وقرآنه أنه مدح الأوثان، وقال بُعَيد ذمها وتوبيخ عابديها: أن شفاعتهن ترتجى، وهذا كل ما يقوله المشركون من الكفر الذي جاءت رسالة محمد ﷺ لهدمه وإزالة معالمه من الحياة.

فالمشركون الوثنيون لا يدّعون لآلهتهم الإحياء والإماتة، ولا الخلق والرزق، وأمثال ذلك من عظائم خواص الإلّهية، وإنما يدَّعون أن أوثانهم تشفع لهم عند الله، وأنها تقربهم إلى الله زلفى، كما حكى القرآن عنهم ذلك في قوله: ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ وفي قوله: ﴿ ما نعبدهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زُلْفى ﴾ ولا يحمي هذه الرواية الكاذبة الباطلة عن طرحها في هاوية الوضع الزندقي في الكذب قول راويها: وسَهَا رسول الله ﷺ؛ لأن السهو فيما يبلِّغه الرسول عن الله ولا سيما في أصل أصول الإيمان ـ لا يجوز ولا يقع قط من الرسول لأنه يناقض المقصود من تصديقه بالمعجزة، وهذه الرواية الباطلة تقوّل رسول الله ﷺ أنه قال عقب تلاوته مباشرةً قول الله تعالى في ذم الأوثان وتقريع عابديها من أحلاس الوثنية وغثاء الشرك: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ أن شفاعتهن ترتجى، وأن المشركين سمعوا منه ذلك ففرحوا توهماً أنه مدح آلهتهم، وهذا التقويل لرسول الله ﷺ هو أفجر الكفر وأخبث الكذب، وأيضاً لا يحمي هذه

الرواية الباطلة من طرحها في هاوية الأكاذيب قول راويها: إن الرسول ﷺ قال - بعد أن رأى فرح المشركين بمدح أوثانهم -: ألا إنما ذلك كان من الشيطان، لأن مجرد نسبة التقويل إلى رسول الله ﷺ بأنه قال على الله ما لم يقل، بنسبة قول الكلمة الخبيثة إليه كفر صريح، يزلزل الثقة في آيات القرآن، ثم ما الذي يثبت أن ما قالوه على لسان رسول الله ﷺ: ألا إنما ذلك كان من الشيطان ليس من قبيل السهو أيضاً؟ وعند ذلك تبقى الكلمة الخبيثة من غير نفي، وترتفع الثقة في كل ما يقوله رسول الله ﷺ بعد ذلك. فهذه الرواية باطلة متكذّبة على رغم ادعاء صحة سندها المرسل.

الرواية السابعة

قال السيوطي:

أخرج ابن أبي حاتم عن طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب، وأخرجه البيهقي في الدلائل عن موسى بن عقبة ولم يذكر ابن شهاب، وأخرجه الطبراني - في الكبير - عن عروة مثله سواء. واللفظ عن رواية ابن أبي حاتم التي صدّر بها السيوطي قال: لما أنزلت سورة النجم كان المشركون يقولون، لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكن لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى، بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر، وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم، وتكذيبهم، وأحزنته ضلالتهم، فكان يتمنى كفّ أذاهم، فلما أنزل الله سورة والنجم قال: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الطواغيت، فقال: وإنهن لَهُنَّ الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لَهي التي ترتجى، فكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلَقت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد وسجد كل من حضر من مسلم ومشرك، ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة، فأنزل الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول

ولا نبي ﷺ الآيات، فلما بين الله قضاءه، وبرَّأه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم للمسلمين، واشتدوا عليه.

هذه الرواية لا يعنينا منها في البحث إلا ذكرها لأقصوصة الغرانيق الكاذبة الباطلة، وقد ذكرت أن النبي ﷺ لما أنزل الله عليه سورة النجم قرأ في آياتها قول الله تعالى موبخاً لعابدي الأوثان: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ وكان معروفاً عنه ﷺ بغضه للأصنام والأوثان، وتسفيه عقول عابديها من دون الله تعالى، فكان ذلك مما يباعد بينه وبين قومه لعتو كفرهم وعنادهم وتأبيهم عن الانقياد للحق والإيمان بما جاءهم به من الهدى والنور، وكان ﷺ شديد الحرص على إدخالهم في حظيرة الإيمان، يتمنى هدايتهم، وكفّ أذاهم عنه وعن أصحابه، فلما أنزل الله تعالى عليه سورة النجم، وفيها ذكر طواغيتهم قالت الرواية: ألقى الشيطان عندها ـ أي عند ذكرها مذمومة في آيات القرآن ـ كلمات فقال: وإنهن لهن الغرانيق العُلَى، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى، قال راوي الأقصوصة: فكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة، وجرت بها ألسنتهم يلهجون بتردادها مستبشرين فرحين، وهذا يدل على أن الرواية تتقوَّل على رسول الله ﷺ أنه قرأها متصلة بآيتي ذم الأوثان والطواغيت ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فتوهم أحلاس الوثنية أنها قرآن نزل به الوحي على رسول الله ﷺ، ففرحوا وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول؛ ودين قومه ـ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ـ وفشت كلمة الشيطان الخبيثة الفاجرة في أهل مكة، وأظهرها الشيطان وذاعت حتى بلغت أرض الحبشة، وبلغ المسلمين المهاجرين الأولين إلى الحبشة أن قومهم استجابوا للإيمان وهدأ ما بينهم وبين رسول الله ﷺ، وكانت الفتنة قد أطلّت برأسها في أرض الحبشة، ورأى المسلمون المهاجرون أن ينجوا بأنفسهم من شر هذه الفتنة التي وقعت بين ملك الحبشة وشعبه، وشجعهم ذيوع كذبة إيمان قومهم، وكفهم أيديهم عن أذى رسول الله ﷺ وأذى أصحابه، فتحملوا للعودة إلى وطنهم وعشائرهم، حتى بلغ منهم من بلغ مكة، أو قريباً منها،

فوضحت لهم الحقيقة وأن إيمان قومهم أكذوبة نفخ الشيطان فيها فترامت إليهم، ووجدوا قومهم على أشد مما كانوا فجوراً وكفراً وإيذاء لرسول الله ﷺ ولأصحابه، فدخل من دخل مكة في جوار، ولكن المشركين زادوا شراً واستشرى الإيذاء ولا سيما للوافدين من الحبشة، فتسللوا عائدين إلى مهاجرهم وصحبهم وتبعهم كثير من أهل الإيمان من أبناء قريش وغيرهم حتى كانوا في الحبشة جمعاً أخاف قريشاً، فأرسلت خلفهم رسلها لتردهم إليها، ولكن النجاشي أبى عليهم ذلك وسمع من المسلمين القرآن وآمن وآمن معه بطاركته ورهبانه وكثير من قومه، وراسل النبي ﷺ بإيمانه وهداياه، وفتح الله تعالى باب الهجرة إلى المدينة، فكانت نصراً وفتحاً مبيناً، أيَّد الله بها دينه وأعزّ نبيه ﷺ والمؤمنين، وعاد مهاجرو الحبشة آمنين مطمئنين إلى الله وإلى رسوله فوجدوا الفتح والنصر يستقبلهم.

وهذه الرواية الكاذبة الباطلة تتفق مع أخواتها من الروايات الكاذبات في أن الشيطان استحوذ على النبي ﷺ وألقى إليه عند ذكر الطواغيت هاتين الكلمتين الخبيثتين، وأن النبي ﷺ تلاهما عقب آيتي ذم الأوثان مُدْخِلاً إياهما في وحي القرآن، وسمعها المشركون وفرحوا وتباشروا. وتزيد هذه الرواية الباطلة على كذب أخواتها في التقوُّل على رسول الله ﷺ أنه كان على دين قومه من الشرك والوثنية - وحاشاه ﷺ - فهو الطاهر المطهَّر الذي لم يعرف عنه قط في حياته منذ ولد إلى أن شرفه الله تعالى بنبوته ورسالته أنه كان على دين قومه من الشرك والوثنية، ولا عرف عنه قط أنه مالأ قومه في شيء من عقائدهم الفاسدة الباطلة وعاداتهم الوثنية المستقبحة، بل الذي عرف عنه ﷺ واشتهر به أنه كان أبعد الناس من عقائد قومه وعاداتهم الجاهلية، وأنه اعتزلهم واعتزل محافلهم ومواسم أعيادهم، فلم يحضر لهم مشهداً، ولم يكثِّر لهم سواداً، وانفرد عنهم بنشأته الطاهرة المطهَّرة، التي لم يقارف فيها إثماً جاهلياً، في عقيدة أو خلق أو سلوك، وقد اشتهر بين قومه بالصادق الأمين حتى بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين.

الرواية الثامنة

قال السيوطي:

أخرج سعيد بن منصور، وابن جرير عن محمد بن كعب، ومحمد ابن قيس قالا: جلس رسول الله ﷺ في ناد من أندية قريش كثير أهلُه فتمنى[1] يومئذ ألّا يأتيه من الله شيء، فيتفرقوا عنه، فأنزل الله عليه ﴿والنجم إذا هوى﴾ فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان عندها كلمتين: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى فتكلم ـ أي النبي ﷺ ـ بها، ثم مضى فقرأ السورة كلها، ثم سجد في آخر السورة، وسجد القوم جميعاً معه ورضوا بما تكلم به، فلما أمسى أتاه جبريل فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: ما جئتك بهاتين الكلمتين، فقال رسول الله ﷺ: «افتريتُ على الله، وقلتُ ما لم يقل» فأوحى الله إليه: ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ إلى قوله ﴿نصيراً﴾ فما زال مغموماً مهموماً من شأن الكلمتين حتى نزلت ﴿وما أرسلنا من قبلك﴾ الآية، فسُرِّي عنه وطابت نفسه.

هذه الرواية تخالف في سياقها وأسلوبها ما سبقها من الروايات بَيْدَ أنها تشتمل على ما اشتمل عليه غيرها من الروايات الكاذبة الباطلة، فهي تقول: إن النبي ﷺ جلس في ناد من أندية قريش، وهو حافل بطواغيتهم من عتاة الكفر، وأحلاس الوثنية والشرك، فتمنى ﷺ راغباً إلى ربه ألّا يأتيه منه شيء ينفرهم عنه، ويزيد التباعد بينه وبينهم لحرصه ﷺ على إيمانهم، لما جبله الله عليه من الرأفة والرحمة لعموم الخلق، فأنزل الله تعالى عليه سورة ﴿والنجم إذا هوى﴾ وفيها الحفاوة به ﷺ، وتعظيم شأنه وشأن ما ينزل عليه من الهدى والرحمة، ليظهر للمعاندين من طغاة الشرك أنه ﷺ إنما يدعو إلى الله بوحيه، ويبلغ رسالته بأمره، وأن ما يدعون من دون الله إشراكاً به سبحانه إنما هو ضلال بيّن، وشرك فاجر، لا يقره عقل، ولا نزل به من الله سلطان فقرأ عليهم ﷺ ما نزل عليه من آيات

---

(١) هل تحتمل (تمنى) هنا معنى (قرأ ـ أو تلا). لا، ولكن معناها أحب واشتهى، فلماذا تحمل كلمة تمنى في قوله تعالى: ﴿إذا تمنى﴾ على معنى (قرأ ـ أو تلا)؟

هذه السورة حتى بلغ قوله جلّ شأنه: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان الكلمتين الفاجرتين في مدح أصنامهم، فتكلم بهما رسول الله ﷺ.

وهنا يقف القلم مدهوشاً مذهولاً متسائلاً: كيف كانت استجابة الله تعالى لتمني نبيه وحبيبه، وشدة حرصه على إيمان قومه وألا يأتيه من ربه ما ينفرهم عنه، ويباعد بينه وبينهم من شدائد الوحي بتسفيه أحلامهم، وتحقير آلهتهم بهذه الصورة الكافرة الفاجرة الغريبة التي لا يمكن توقعها؟ هذا من أمحل المحل وأبطل الباطل؛ لأن النبي ﷺ اشتهى موقفاً سلبياً ورغب في هدنة تمكنه ﷺ من أن يجد من قومه أنساً إليه، يستمعون إلى ما جاءهم به من الهدى والنور، عسى أن يكون في ذلك وسيلة إلى انفتاح قلوبهم وعقولهم لينظروا ويتأملوا وهم في مهلة من الإثارة والاستفزاز.

كان الموقف يتطلب أن يجاب تمني النبي ﷺ واشتهائه عدم تنفيرهم من سماع الحق الذي أرسل به، بأن لا ينزل عليه من شدائد الوحي ما يزيد التنافر والتباعد، لا أن يجاب بتسليط الشيطان عليه وتخلِّي العناية الإلهية عنه، فيقرئه الشيطان في ثنايا وحي الله إليه كلمات كافرة فاجرة، تمدح الأوثان، وتهدم أصل ما جاء به من التوحيد، وتجعل تلك الأوثان مرجوة الشفاعة، وهذا هو كفر المشركين الذي جاءت الرسالة لهدم بنيانه، واستئصال شأفته من الوجود.

لكن هذه الرواية الكاذبة الباطلة لا تستحي أن تقول: أن الشيطان ألقى الكلمتين الخبيثتين، وأن النبي ﷺ تكلم بهما في ثنايا ما أوحي إليه من آيات ربه في تحقير هذه الأوثان، وتسفيه أحلام عابديها، والعاكفين عليها من سفهاء المتعاقلين ومردة الوثنية على أنهما قرآن نزل إليه، ووحي من الله أتى إليه، دون أن تبدو منه ﷺ أية بادرة في إنكار هاتين الكلمتين الفاجرتين، بل مضى يتلوها مع آيات السورة حتى ختمها ثم سجد وسجد القوم جميعاً معه، ورضي الكافرون بما تكلم به من هاتين الكلمتين الفاجرتين، الخبيثتين، وفرحوا إذْ رأوا في ذلك أن محمداً ﷺ يمدح آلهتهم ويثبت لها شفاعة لهم، وهذا أقصى ما كانوا يتطلعون إليه ويرجونه من إبطال

رسالة محمد ﷺ، وتدعيم الشرك والوثنية.

ومضى من الزمن والله تعالى أعلم بقدره، والنبي ﷺ - في زعم هذه الأخلوقة - على اعتقاد أن هاتين الكلمتين مما أنزل الله عليه في وحيه بآيات القرآن الحكيم، ولم يتنبه ﷺ، لا من سياق الكلام، ولا سيما في معنى الكلمتين، الشيطانيتين من كفر وفجور حتى جاءه ملك الوحي جبريل عليه السلام، واستقرأه ما جاءه به من آيات السورة فقرأ ﷺ حتى بلغ الكلمتين الشيطانيتين، وقرأهما على أنهما مما نزل عليه من وحي الله تعالى، وعندئذ قال له جبريل: ما جئتك بهاتين الكلمتين، فأُخِذ النبي ﷺ وأصابه ما أصابه من هول الصدمة - فيما تزعم هذه الأبطولة - وقال يؤنب نفسه ويلومها افتريتُ على الله، وقلت ما لم يقل، وهذا التصوير الروائي الكذوب يقتضي - بداهة - أن النبي ﷺ وهو القيِّم على كتاب الله تعالى، وفهم مقاصده وأحكامه، وأسلوبه وبراعة بيانه واتساق نظمه، وبلوغه في استقامة معانيه الذروة، لم يفرق بين كلام الله تعالى المعجز بهدايته وحقائقه ومعانيه، وأسلوب نظمه واتساق سياق آياته وبراعة بيانه وتمييز مقاصده، وبين كلام الشيطان في كفره وفجوره، وإفساده وإضلاله، وهلهلة تلفيقاته، وأنه ﷺ مضى في السورة - وهي ليست من قصار السور في القرآن - يقرؤها ويقرأ مع آياتها هذا الغثاء الأحوى، والعصف المطروح في مساقط أقدام الشرك الوضيع، فلم يميز بين ما هو مدح للأوثان في هاتين الكلمتين الفاجرتين الكاذبتين، وبين ما هو ذم لها وتوبيخ لعابديها، وتقريع للعاكفين عليها في سياق الآيات وسباقها ولواحقها في قوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذاً قسمة ضيزى. إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ فكيف استقام عقلاً، وذوقاً، أن يأتي مدح الأوثان بما هو أعلا مقاصد مدحها - في نظر عابديها من المشركين - وبين ما هو ذمها وتوبيخ متخذيها آلهة؟ وكيف استقام عقلاً ومعرفة بحياة محمد ﷺ وبلوغه قمة الفصاحة والبلاغة أن يتوهم في حقه كإنسان عربي قرشي، تربى في أفصح قبائل العرب أن يتقبل ذوقه البياني إدخال هذه الهلهلة بين أوسق الكلام

فصاحة وأبرعه بلاغة، ويلبِّس عليه أنها منه بسبيل؟.

هذا هو الباطل المنفوش الذي لا يستقيم على قبوله وتصديقه عقل أقل الناس حظاً من التعقل، ولا يستقيم به ذوق أحط الناس تذوقاً للكلام ونسقه وباتساق نظمه؟ فكيف استقام لدى عقل وذوق سيد العقلاء، وأذوق الذائقين لبلاغة الكلام وبراعة البيان محمد ﷺ، حتى أدخل عليه بين آيات القرآن الحكيم المحكم - فيما تزعمه هذه الأكذوبة - هاتان الكلمتان الزريتان بعقل العقلاء اللتان ألقاهما الشيطان في قراءته حين أقرأه جبريل أمين الوحي سورة ﴿ والنجم إذا هوى ﴾؟.

ثم تمعن هذه الرواية في خوض غمرات الباطل ممتطية أوهام الأكاذيب فتقول: إن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ بعد أن كشف له جبريل عليه السلام أنه ما جاءه بهاتين الكلمتين الكافرتين، وأنه ﷺ تنبه بتنبيه جبريل له فجعل يلوم نفسه لوماً شديداً، واستولى عليه الغم والحزن لما وقع منه- في زعم هذه الأبطولة - ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتريَ علينا غيره وإذاً لاتَّخذوك خليلاً * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾.

وهذا افتراء على الله تعالى، وعلى رسوله ﷺ، لأن قوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبَّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾ صريح في تبرئة ساحته ﷺ عن مقاربة الركون إليهم فضلاً عن وقوع الركون، لأن جواب (لولا) يقتضي إذا كان مثبتاً - كما هنا - امتناع وقوعه لوقوع شرطه، أي يستلزم عدم وجوده لوجود شرطه، فمقاربة الركون إليهم لم تقع منه ﷺ، ولا شُمَّت رائحة الوجود الخارجي، فضلاً عن وجود الركون ذاته، لأنه ﷺ مقطوع بعصمته عن ذلك بإجماع عقلاء المسلمين.

قال الزمخشري في كشَّافه: ولولا أن ثبتناك وعصمناك لقد كدت تركن إليهم، أي لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم، وهذا تهييج من الله له، وفضل تثبيت.

وقال أبو حيان: في بحره: إن ابن عباس رضي الله عنه قال في تفسير الآية: كان الرسول ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه.

وقال البيضاوي في أنواره: والمعنى أنك كنت على صدد الركون إليهم لقوة خدعهم وشدة احتيالهم، لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب إليهم، وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هم بإجابتهم، مع قوة الدواعي إليها عندهم.

هذه أفهام حذّاق أهل القرآن في تفسير آياته، وهي نماذج لما وراءها وما قبلها مما لم نذكره، ولكن البُلْه الذين يتكثرون بالروايات، ولا يعقلون ما يصح أن يقال منها وما لم يصح أن يُروى، لا ترتفع مداركهم إلى منازل حماة الإسلام ونبي الإسلام ﷺ المعصوم، بل هم في شغل عن فقه الحقائق بتجميع الروايات.

ألا سأل هؤلاء المتكثرون في الروايات أنفسهم: كيف يصح في عقول العقلاء ما حرفت به هذه الرواية الباطلة الكاذبة من تقوّلها أن رسول الله ﷺ أدخل بهتان الكلمتين الخبيثتين اللتين ألقاهما الشيطان في آيات القرآن الحكيم، وأنه ﷺ قرأهما على أنهما من آيات الله المنزلة عليه، ومضى في قراءة السورة حتى ختمها وسجد من كان موجوداً معه حين قراءتها، واستمر على اعتقاد أنهما من آيات السورة المنزلة من عند الله حتى نبهه جبريل أنه لم يأته بهما، فاغتم رسول الله ﷺ وحزن، وجعل يلوم نفسه، وأنه قال على الله ما لم يقل؟ ثم تنزل هذه الآيات الثلاث المبرئة لساحته، المنزهة عن التقوُّل على الله لتخبر أنه ﷺ قد عصمه الله تعالى عن قرب الركون إلى المشركين؟.

وهل أبلغ في الركون إلى هؤلاء المشركين مما تقوّلته هذه الرواية المختلقة من أنه ﷺ قبل ما ألقاه الشيطان من مدح آلهة المشركين وأوثانهم، وتكلم به، وظل على اعتقاد أن هذا المدح الكفور لأوثان المشركين كان مما أنزل عليه من آيات السورة حتى أخبره جبريل أنه لم يجئه بهاتين الكلمتين الشيطانيتين.

فالله تعالى يخبر عن رسوله ﷺ أنه لم يفتن لحظة واحدة عن الذي أوحاه الله إليه من آياته، وأنه سبحانه وتعالى ثبَّته بالعصمة عن مقاربة الركون إليهم، فضلاً عن وقوع الركون نفسه، والرواية الكاذبة تتقوَّل عليه ﷺ أنه ركن إلى مدح أوثانهم وتكلم به، وظل على اعتقاده زمناً لم يكن بالقصير في مناسبته، حتى كشف له جبريل عليه السلام ما كان خافياً عليه من التلبيس والتضليل، سبحانك هذا بهتان عظيم؟؟ إن هذا لهو الضلال المبين والافتراء المفتَرى والكذب المختلق، والإلحاد المتزندق.

الرواية التاسعة

قال السيوطي:

وأخرج ابن جرير عن الضحاك أن النبي ﷺ وهو بمكة أنزل عليه في آلهة العرب، فجعل يتلو اللّات والعزّى، ويكثر ترديدها فسمعه أهل مكة وهو يذكر آلهتهم ففرحوا بذلك، ودنّوا يسمعـون، فألقى الشيـطان في تلاوته، تلك الغرانيق العلا، منها الشفاعة ترتجى، فقرأها النبي ﷺ كذلك فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ إلى قوله ﴿ حكيم ﴾.

هذه رواية تنادي على نفسها بالتهافت وضعة الأسلوب، فهي رواية مخترقة زائفة، مخرقة الإهاب، ممزقة الأديم، مشوهة المعالم، ليس لها نسق أعجمي، ولا نظم عربي، أرأيت إلى قولها: أنزل عليه في آلهة العرب، تأمل لتعرف أن هذا كلام مبرسم، لا ينطق به إلا الممخرقون، ثم تأمل قول هذه الرواية المتهافتة: فجعل يتلو اللّات والعزّى، ويكثر ترديدها، فسمعه أهل مكة وهو يذكر آلهتهم ففرحوا بذلك ودنوا يسمعون.

أما أن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه في شأن آلهة العرب وأصنامهم وأوثانهم ذماً وتسفيهاً، وتقبيحاً وبياناً لضلال عابديها، فهذا ما أفعمت به جميع السور المكية، ولم تكن سورة النجم من أول ما أنزل منها، فلا وجه لهذا القول وتخصيص سورة النجم به، وأما قول الرواية المتهافتة: فجعل يتلو اللّات والعزّى فما يُدْرَى ما تقصد الرواية بهذه التلاوة، فهل تقصد إلى أن النبي ﷺ جعل يردد على أسماع سامعيه من ملأ قريش وغيرهم اسمَيْ الصنمين اللّات والعزّى هكذا أفراداً لا إخبار فيه، يقصد إلى الإفادة،

وهل هذا يسمى تلاوة؟ وهل هذا النحو من ترديد الأسماء مفردة، ولا سيما أسماء الأوثان والأصنام يفعله عاقل، فضلاً عن أعقل العقلاء، سيد المرسلين، محمد ﷺ؟ أو تقصد الرواية المتهافتة أنه ﷺ جعل يتلو الآيات التي يذكر فيها اللات والعزى ويرددها ليُسْمع المشركين ما فيها من إزراء على عقولهم وتسفيه لأحلامهم، وذم لأوثانهم، وإذاً فما الذي أفرح المشركين، وجعلهم يدنون منه ﷺ ليسمعوا ما يقول في آلهتهم وقد سمعوا منه قبل هذا ما ضاقوا به ذرعاً؟.

وهل كان إلقاء الشيطان كلمتيه الخبيثتين في مدح الأوثان، وأنها مرجوة الشفاعة لعابديها قبل فرحهم بما سمعوا من ذكر آلهتهم بما يكرهون من ذمها أو بعد هذا الفرح؟ وتفريع الرواية المتهافتة في أسلوبها المهلهل يشعر بأن فرحهم كان قبل إلقاء الشيطان لكفرياته.

ثم تقول هذه الرواية المتهافتة متكشفة عن عوارها وعارها: فقرأها النبي ﷺ ـ أي فِرْية الزندقة على لسان الشيطان ـ كذلك ـ أي كما ألقاها الشيطان ـ فجعلها رسول الله ﷺ قرآناً، فأنزل الله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ إلى قوله ﴿ حكيم ﴾. أفٍ لهذه العقول السقيمة التي لا تعي ما يخرج من خرائب إلحادها وزندقتها... محمد سيد المرسلين، وأفصح العالمين يقرأ كلام الشيطان وهو أكفر الكفر، وأفجر الفجور، على أنه قرآن نزل إليه فيما نزل من وحي الله إليه فيدخله تلبيساً عليه في القرآن.

هذا أسخف ما جاء به المبطلون، وأتفه ما تقوّله المتقولون، وليس هو من الباطل الكذوب فحسب، ولكنه من وضيع السخف السخيف، ولا يمكن أن يقبله أو يروج إلا على البُلْه المغفلين.

الرواية العاشرة

قال السيوطي:

وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم بسند صحيح ـ كما يقول السيوطي ـ عن أبي العالية قال: قال المشركون لرسول الله ﷺ: لو ذكرتَ آلهتنا في قولك قعدنا معك، فإنه ليس معك إلا أراذل الناس وضعفائهم،

فكانوا إذا رأونا عندك تحدث الناس بذلك، فأتوك، فقام يصلي، فقرأ والنجم حتى بلغ ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ تلك الغرانيق العلى، وشفاعتهن ترتضى، ومثلهن لا ينسى، فلما فرغ من ختم السورة سجد وسجد المسلمون والمشركون، فبلغ الحبشة أن الناس قد أسلموا فشق ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ إلى قوله ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾.

هذه الرواية صريحة في بطلان الأكذوبة البلهاء، أكذوبة الغرانيق، رغم دعوى صحة إسناد إرسالها إلى أبي العالية الذي ألصقت به، وهي تنادي على نفسها بالوضع والتكذب، وضعها أعداء الإسلام من الزنادقة الخبثاء والمنافقين الجبناء، ليفتنوا بها ضعفاء العقول ذوي الإيمان الهش عن دينهم، ويشككوهم في عقيدتهم ورسالة نبيهم ﷺ، ويحرفوا كتابهم الحكيم المحكم الذي شهد له الله تعالى بأنه كتاب حكيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقبلها وأمثالها من الأكذوبات بُلَهاء الرواة من المتكثرين الجمّاعين لغثاء الأقاصيص، دون نظر يكشف ما فيها من زيف ملحد، وضلال كفور.

وأي ضلال أضلّ من التقوُّل على سيد المرسلين، محمد خاتم النبيين ﷺ بأنه لُبِّس عليه فلم يميز بين كلام الله الحكيم وترهات الشيطان الرجيم، فيدخل في قراءته سورة النجم وهو واقف بين يدي الله يصلِّي، ويتلو من آيات القرآن ما ذم الله به الأوثان والأصنام، ويوبِّخ المشركين على اتخاذها آلهة تشفع لهم عند الله ـ كلاماً خبيثاً فاجراً كفوراً تمدَّح به الأوثان والأصنام التي ذمها الله تعالى في الآيات نفسها التي قرأها رسول الله ﷺ من سورة النجم وهو قائم يصلِّي، فتتقوَّل هذه الرواية البلهاء عليه ﷺ بأنه أتبع آيات ذم الأوثان بهذيان تمدح به، وأنها مرجوة الشفاعة مرضيتها، وأن مثلهن لا ينسى لما لها من المكانة والزلفى ـ في زعم عابديها ـ فالشيطان في هذه الرواية ـ صحيحة الإسناد في إرسالها إلى راويها ـ لم يلقِ كلامه الكفور عند قراءة النبي ﷺ ـ كما في الروايات التي منع رواتها

الحياء من هذا التقوُّل ـ وإنما افتجرت هذه الرواية أكذوبة أخرى في داخل الأكذوبة الكبرى، زاعمة أن النبي ﷺ هو الذي ألحق هذا الكلام الكذوب الملحد بآيات الله تعالى التي قرأها وهو يصلي، فتقوَّلت أنه ﷺ قرأ والنجم حتى بلغ ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ تلك الغرانيق . . . الخ هذا الهراء السخيف، وقد تطوعت هذه الرواية الفاجرة فأخرجت الشيطان من مثوى الفجور والكذب، فلم تذكره ـ كغيرها من روايات الأكذوبة ـ بأنه هو الذي ألقى في قراءة النبي ﷺ هذه الكلمات الفاجرات ـ ولكنها جعلت النبي ﷺ ـ وحاشاه ـ هو الذي أدخلها في آيات الله تعالى، وقرأها على أنها قرآن منزل عليه، وقد أبت هذه الرواية الباطلة التي صُحح سند إرسالها إلا أن تمعن في الكذب، فزادت على غيرها من روايات الأقصوصة الغرنوقية كلمة لم تذكر في رواية قط، وهي قول واضعيها من الزنادقة، ومثلهم ـ أي الأوثان ـ لا ينسى، وهي كلمة مضحكة عابثة، لا معنى لها ـ حتى في زعم الزنادقة ـ وكأن الرواية لما لم تجعل هذا الكلام الخبيث من إلقاء الشيطان، بل جعلته من إلحاق النبي ﷺ، لم تشأ أن تحافظ على النص الخبيث في سائر الروايات، بل غيَّرته وجعلته (وشفاعتهم ترتضى) (ومثلهن لا ينسى)، والكذب ليس له سياج ولا لأصحابه حياء، إنهم يكذبون إلحاداً في آيات الله، لا يبالون أقالوا معقولاً أم معلولاً؟.

وأي إلحاد أكفر كفراً، وأفجر فجوراً من هذا التقوُّل الخبيث الذي يجعل من سيد الخلق محمد ﷺ أداة تتلعب برسالته وتعبث بأصل أصول هدايته؟ وتجعل من القرآن العظيم دستور هذه الرسالة الخاتمة لرسالات السماء معبثة للملحدين الزنادقة، يدخلون في آياته ما يناقض هدايته أشد المناقضة، ويفسد أسلوبه أشد الإفساد؟.

هذه الرواية التي يصحح الرواة سند إرسالها إلى أحد أئمة المحدِّثين هي أبشع فيما اشتملت عليه من تقوُّل من سائر سابقاتها، وقد تمطَّت في تعرجاتها، واستطالت في سيرها على ألسنة الأكاذيب التي بلغ صداها

الحبشة، لتُلْقى إلى المهاجرين الأولين أكذوبة أخرى تستنزلهم بها عن استقرارهم وأمنهم على أنفسهم ودينهم في هجرتهم، وتزعم لهم أن الناس في مكة قد أسلموا، وصفا الجو، فما بقاؤكم بعيدين مشردين عن وطنكم وأهلكم وعشائركم، فلتعودوا إليهم لتروا لعنات الشيطان تتساقط عليهم، وتسعر نيران فجورهم وكفرهم ويشتد أوارها على من بقي وراءكم من إخوانكم المؤمنين مع رسول الله ﷺ يشدون أزره، ويحتملون في سبيل عقيدتهم وإيمانهم صنوف الأذى والبلاء صابرين محتسبين.

وعاد المهاجرون الأولون، وهم قلة معدودة ميمِّمين شطر وطنهم، ولكنهم لم يكادوا يقربون من مكة حتى سمعوا قعقعة فوادح البلاء والأذى تزمجر فوق رؤوس إخوانهم المؤمنين، ودخلوا مكة يدفعهم الحنين إلى الأهل والولد والوطن، واستقبلهم الطغاة من قومهم، يتداولونهم بأنواع التعذيب، يصبُّونها عليهم صبًّا، وأيقنوا كذب ما صرخ به الشيطان بينهم من إسلام مشركي مكة، فتحينوا الفرص ليعودوا إلى مأمنهم في هجرتهم، وعادوا واستقروا، ولحق بهم جماعات كثيرة لم يكونوا قد هاجروا معهم هجرتهم الأولى، حتى نصر الله دينه ونبيه وعباده المؤمنين، وأذلّ الشيطان وشِرْكه، ودَحَر الكفر وحزبه، حتى كانت عودة جميع المهاجرين من أصحاب الهجرتين عودة ظافرة في ظل العزة الإسلامية والنصر المؤزر للإسلام والمسلمين.

وهذه الرواية هي الثانية من بين الروايات التي عرضنا لذكرها، تذكر بلوغ الخبر الكاذب أرض الحبشة مما كان سبباً في زعم الروايات لعودة المهاجرين الأولين، وهو سبب يكاد يجمع عليه رواة الأبطولة الغرنوقية، وقد سبقت هذه الرواية في ذكر بلوغ الخبر الكاذب الحبشة رواية ابن أبي حاتم عن طريق موسى بن عقبة.

وعودة المهاجرين الأولين من الحبشة إلى مكة حقيقة تاريخية، بيد أن ربطها بأكذوبة الغرانيق هو أكذوبة أخرى، أما السبب الحقيقي لعودة مهاجري الهجرة الأولى من الحبشة إلى مكة، وهو ما وقع في الحبشة من

الهرج والمرج، واشتعال نيران الفتن بين الشعب والملك في قصة ساقها ابن إسحاق عن طريق أم سلمة رضي الله عنها، فخاف المسلمون المهاجرون أن ينالهم من وراء ذلك سوء، يذهب بأمنهم واستقرارهم، فرحلوا عائدين إلى وطنهم، موطنين أنفسهم على تحمُّل ما يلقونه فيه من أذى الأهل والعشيرة في سبيل عقيدتهم ودينهم، حتى إذا استوثق الأمر للنجاشي في بلده وانجلت عن الحبشة سحائب الفتنة عاد المسلمون إلى الهجرة وهاجر معهم أضعاف أعدادهم، وكانوا دعاة لدينهم، مبلِّغين رسالة نبيهم ﷺ، ناشرين لدعوة الحق والهدى والنور.

الرواية الحادية عشرة

قال السيوطي:

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية، قال: نزلت سورة النجم بمكة فقالت قريش: يا محمد إنه يجالسك الفقراء والمساكين، ويأتيك الناس من أقطار الأرض، فإن ذكرت آلهتنا بخير جالسناك، فقرأ رسول الله ﷺ سورة والنجم، فلما أتى على هذه الآية ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان على لسانه: وهي الغرانيق العُلَى، شفاعتهن ترتجى، فلما فرغ من السورة سجد وسجد المسلمون والمشركون إلا أبا أحيحة سعيد بن العاص، فإنه أخذ كفاً من تراب فسجد عليها، وقال: قد آن لابن أبي كبشة أن يذكر آلهتنا بخير، فبلغ ذلك المسلمين الذين كانوا بالحبشة أن قريشاً قد أسلمت، فأرادوا أن يقبلوا، واشتد على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه ما ألقى الشيطان على لسانه، فأنزل الله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ الآية...

هذه الرواية هي الرواية السابقة سنداً وتخريجاً، وإلصاقاً بأبي العالية، فهي مثل سابقتها من إخراج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية، ولكنها تختلف مع سابقتها في سياق الأكذوبة، فالرواية السابقة تقوّلت على النبي ﷺ أنه هو الذي أدخل الكلمتين الفاجرتين، مباشرة - في آيات القرآن، وهو يصلي، ولم يأتِ فيها للشيطان ذكر بأنه هو الذي ألقى

على لسان النبي ﷺ ما ألقى من الكفر.

وهذا الصنيع أدخل في الزندقة والإلحاد، لأن كون النبي ﷺ، وهو واقف بين يدي ربه يصلي، ويقرأ ما نزل عليه من آيات القرآن الحكيم يدخل في قراءته هذا الكلام الفاجر الكفور - ويمضي يقرأ فلا يتنبه إلى ما وقع من الطامة الكبرى حتى يختم السورة ويسجد في آخرها، ويشاركه في هذا السجود المشركون، لا تفسير له إلا أنه ﷺ سلب خصائص رسالته، بل بشريته، فلم يدر - وحاشاه ﷺ - الكفر من الإيمان، ولم يدر ما نزل عليه من وحي ربه في ذم الأوثان والأصنام، مما لم ينزل عليه من مدحها، وتحقيق رغائب عابديها في شفاعتها لهم، وزادت فتقوّلت أن نص الكلام الكفور فيه ما ليس في غيره من الروايات فقالت: ومثلهن لا ينسى، وإن شفاعتهن ترتضى، وفي الرواية الأولى ربط الأكذوبة بالحبشة، وعودة مهاجريها الأولين، وفيها نص من صاحب (الدر) على صحة سندها إرسالاً إلى أبي العالية.

ولا يُدرى هل الروايتان رواية واحدة، دخلها التزيد والتصرف والاختلاق الملفّق، فحكى واضع القصة هنا نسقاً ونصاً، وذكر هناك نسقاً ونصاً ليضلل ويخدع، أو أن الروايتين هما روايتان منفصلتان ألصقتا بأبي العالية دون علم من واضع إحدى الروايتين بأن القصة محمولة على أبي العالية، فوقع التكرار والاختلاق الكذوب.

ويؤكد هذا الاتجاه أن الرواية الأولى ذكر فيها السيوطي أنها صحيحة السند، مع أن السند لم يختلف في الروايتين، فلماذا ترك السيوطي النص على صحة السند في الرواية الثانية؟.

كما لا يُدرى لماذا ساق السيوطي في (الدر) هذه الرواية عقب الرواية السابقة مباشرة؟ ولعله رأى تعدد الرواية عن أبي العالية لاختلاف السياق والنص، وهذا يحمل في طياته أن أبا العالية حُمل الإسناد إليه في الروايتين، وهو منه بريء.

وكيفما يكن الأمر فهذه الرواية ظاهرة الفساد والبطلان، لأنها كغيرها

من روايات الأكذوبة البلهاء تتقول على النبي ﷺ بأن الشيطان لبَّس عليه، وألقى على لسانه أقبح الكفر في سجع سمج، وأنه ﷺ انطلى عليه ذلك، وقرأه معتقداً أنه من وحي الله، وأنه من آياته المنزلة عليه ﷺ في سورة النجم، وأنه ﷺ مضى في تلاوة السورة بعد إدخال هذا الفجور في آياتها حتى ختمها وسجد في آخرها، وسجد معه المسلمون والمشركون. وتزيد هذه الرواية في الأكذوبة أن أحد طواغيت الشرك وأحلاس الوثنية (أبا أحيحة) أبى أن يسجد استكباراً، وأخذ كفاً من تراب رفعه إلى وجهه وسجد عليه، وقال ينبذ النبي ﷺ بالألقاب: لقد آن لابن أبي كبشة ـ يعني محمداً رسول الله ﷺ ـ أن يذكر آلهتنا بخير.

ولم تكشف هذه الرواية الكاذبة متى تنبه النبي ﷺ إلى ما ألقاه الشيطان على لسانه من البهتان، ولم تذكر هذه الرواية ما ذكره غيرها من مجيء جبريل إليه ﷺ وتبيينه له أن هذا الكلام الخبيث ليس مما جاءه به، وعندئذ تنبه النبي ﷺ واشتد عليه وعلى أصحابه الأمر حتى طيَّب الله قلبه فأنزل عليه ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ الآية، وهذا الاضطراب ما يؤكد بطلانها.

الرواية الثانية عشرة

قال السيوطي:

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي عند المقام إذْ نعس، فألقى الشيطان على لسانه كلمة فتكلم بها، وتعلق بها المشركون عليه، وقال: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فألقى الشيطان على لسانه ونعس: (إن شفاعتهن لترتجى، وإنها لمع الغرانيق العلى) فحفظها المشركون وأخبرهم الشيطان أن نبي الله ﷺ قد قرأها، فذلَّت بها ألسنتهم فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾، الآية، فدحر الله الشيطان ولقن نبيه حجته.

هذه رواية مهلهلة النسج، ممزقة الأديم، كذوبة المعنى، خبيثة المبنى، كافرة الهدف، تنادي على واضعها بتفاهة التعقل، وضحالة التفكير، فهي

تقول: بينا رسول الله ﷺ يصلِّي عند المقام إذ نعس، وهـذا معناه أن النعاس هجم عليه ﷺ وهو في حالة صلاة والنعاس ضرب من النوم، يُذهب الإحساس والشعور، فكيف يتصور وقوع ذلك من رسول الله ﷺ، في مطلع الدعوة واشتداد أزمتها، وهو ﷺ يناجي ربه في الصلاة؟.

وتقول الرواية عقب ذلك مباشرة: فألقى الشيطان على لسانه كلمة، فتكلم بها، وظاهر أسلوب الرواية يقتضي أن الشيطان ألقى كلمته على لسانه ﷺ وهو ناعس نائم، وأن النبي ﷺ تكلم بتلك الكلمة وهو ناعس نائم، وإلى هنا لم تذكر الرواية كلمة الشيطان التي ألقـاها عـلى لسان النبي ﷺ وتكلم بها، لكن الرواية تقول: وتعلق بها المشركون عليه وهذا يفيد أنها ألقيت وسمعت، وأن المشركين سمعوها وتعلّقوا بها على رسول الله ﷺ، ثم تأتي الرواية فتقول: فقال ـ أي رسول الله ﷺ ـ: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ثم تقول الرواية ـ المهلهلة ـ فألقى الشيطان على لسانه ونعس ـ وهذا قد تقدم في الرواية ـ (وإن شفاعتهن لترتجى، وإنها لمع الغرانيق العلى) وهذا نص في كلمة الشيطان مغاير لكل ما ورد في الروايات الأخرى، إذ فيه تقديم رجاوة شفاعة الأوثان عـلى وصفها بالغرانقة العلى، وفيه تغيير في هذا الوصف إذْ قيل فيه وإنها لمع الغرانيق العلى، والمذكور في الروايات الأخرى تلك هي الغرانقة العلى، فهذه الهلهلة الأسلوبية في سياق كلمة الشيطان المزعومة دليل على اضطراب النسج في وضع الأكذوبة البلهاء.

ثم تعود الرواية ـ المهلهلة ـ فتقول: فحفظها المشركون، وأخبرهم الشيطان أن النبي ﷺ قد قرأها فذلت بها ألسنتهم، وما قيمة هذه الطنطنة في إعادة ذلك، والإخبار بأن المشركين حفظوا الكلمة الشيطانية الفاجرة، وأن ألسنتهم زلَّت بها؟ أفكان متصوراً أن تعثر هذه الكلمة الكافرة على حفظ المشركين؟ أو كان من المتعاصى عليهم أن تلوكها ألسنتهم وترددها حتى يقال: ذلَّت بها ألسنتهم؟ ولكن الكذوب لحوح لجوج.

ثم لا يستحي الأبله المخدوع مختلق هذه الرواية أن يجعـل هذه

الرواية معبثة، فتقول: فأنزل الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ الآية. فدحر الله الشيطان، ولقن نبيه حجته، فأين دحر الشيطان والرواية تقول: أنه ألقى على لسان النبي ﷺ كلمته الفاجرة، وأنه ﷺ قرأها، وأن المشركين فرحوا بها وتعلقوا بها. وأين هي الحجة التي لقنها الله تعالى نبيه ﷺ؟ أهي في زعمهم إنزال آية ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ والآية - على زعمهم - في تفسير الأمنية بالتلاوة تفيد أن جميع أنبياء الله ورسله سلط عليهم الشيطان، فألقى في تبليغهم رسالات ربهم الأكاذيب المكفرة الناقضة لأصل تلك الرسالات الإلٰهية؟.

الرواية الثالثة عشرة

قال السيوطي:

أخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال: قرأ رسول الله ﷺ ذات يوم ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذن قسمة ضِيزَى﴾ فألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ: تلك إذن في الغرانيق العلى، تلك إذن شفاعة ترتجى، ففزع رسول الله ﷺ، وجزع، فأوحى الله إليه ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ ثم أوحى إليه ففُرج عنه: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلاّ إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ إلى قوله ﴿حكيم﴾.

هذه الرواية غريبة جداً في تلفيقها وتكذّبها، وهلهلة نسجها الذي يهوي بها إلى سحيق البطلان والبهتان، فليس لها بناء أسلوبي متماسك، وهي - كما ترى - قد أبعدت النجعة، وأوغلت في الخيال مخالفة سائر روايات الأخلوقة الغرنوقية، حيث وضعت كلمات الشيطان المزعومة في مكان من نصها القلق المضطرب، ينبو عنها، وتنبو عنه، لأن جميع الروايات في كذبها وبطلانها تضع كلمات الشيطان الكافرة عقب قول الله تعالى: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ وهذه الرواية المهلهلة وضعت كلمات الشيطان بعد ذلك بآيتين، هما قوله تعالى في تأكيد توبيخ

المشـركين، وتقـريعهم: ﴿ ألكم الذكـر ولـه الأنثى * تلك إذن قسمـة ضِيزَى ﴾ وهذا الوضع يدل على جهالة جاهلة، وبلاهة بلهاء.

وإذا كان وضع كلمات الشيطان المزعومة شديد النفرة في وضعه في سائر الروايات الكاذبة بعد قوله تعالى: ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ لما يبدو فيه من قلق واضطراب ونفرة، فهو في وضعه في هذه الرواية الباطلة بعد قوله تعـالى: ﴿ تلك إذن قسمة ضِيـزَى ﴾ أشد نفـرة وقلقاً واضطراباً، لأن الكلمتين الخبيثتين قد يخدع بهما لأول وهلة نظرُ غفول مغفَّل من ذوي البَله المغررين في وضعهما بعد ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ لأن التقريع في قوله تعـالى: ﴿ أفرأيتم الـلّات والعزّى ﴾ المفهـوم من الاستفهام الإنكـاري المستفتـح به فعل الاستخبار الساخر من المخاطبين المشركين ﴿ أفرأيتم ﴾ لم يستوف مؤدّاه الذي يمنع الإيهام أن يلج إلى ساحته، وقد يعمد مأفون الفكر إلى تجريده من معناه البياني في إطار البلاغة القرآنية وينقله إلى معنى سوقي عامي، فيزعم له أنه مجرد استعلام، وحينئذ يأتي وضع الكلمتين الخبيثتين متسقاً خادعاً، وإن كان هذا الإيهام لا استقـرار له عند النظر الجائل في رياض البراعة البيانية، فهو سرعان ما يذهب بدداً ويتبدد ذهاباً مع قاصفات النظر الناقد المحصص.

أما وضع كلمات الشيطان الفاجرة ـ كما جاءت في هذه الرواية المهلهلة بعد قوله تعالى: ﴿ ألكم الذكر ولـه الأنثى * تلك إذن قسمة ضِيزىَ ﴾ فهو وضع غبي جهول، يدل على أن واضعه ـ على زنـدقته وإلحاده ـ لم يشم رائحة نظم الكلام واتساق نسقه، وهو من ضعف التفكير ومهانة الرأي، ووهن المعرفة بأساليب الكلام وبراعة البيان واتساق النظم في الكلام المستقيم، فضلاً عن الكلام البليغ المعجز بمكان الإنعام بمحافل عباقرة البيان.

ذلك لأن التقريع المؤدي بهمزة الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿ أفرأيتم اللّات والعزّى ﴾ قد تأكد ورفع عنه احتمال الإبهام في إرادة مجرد الاستخبار عند أول النظر، وتعيّن لما سبق له من الإنكار المقرع المجبه

بقوله تعالى الذي أعيد فيه الاستفهام الإنكاري بأداته نفسها: ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ ثم بتسجيل أقبح الظلم عليهم ودمغهم به في الإخبار المعقب للاستفهام الموبخ ﴿ تلك إذن قسمة ضِيزَى ﴾ وحينئذ لا يلتئم في عقل قط أن يجيء بعد هذا ذلك الكلام الخبيث في مدح الأوثان وجعلها شفعاء ترتجى أو ترضى شفاعتها لما في ذلك من الكفر البواح، ولما فيه من موافقة المشركين على اعتقادهم، تلك الموافقة المتناقضة مع تقريعهم وتوبيخهم على اعتقاد أن هذه الأوثان شفعاؤهم عند الله.

ومن ثَمَّ كان سياق هذه الرواية المهلهلة عنوان كذبها وبطلانها، وبلاهة واضعيها من الزنادقة الملحدين ـ ولو رُكِّب لها ألف سند بآلاف الأسماء اللامعة بهالات الإكبار.

ولا معنى لهذا البيان التحليلي لأن نقف عند إقحام الرواية المهلهلة أن رسول الله ﷺ فزع وجزع، إذْ لا فزع ولا جزع، لأنه لا يوجد سبب للفزع والجزع، ولا معنى لإقحام قوله تعالى: ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً ﴾ لأنه لا مناسبة له إلا على حمل زندقي كفور، محال أن يجري على لسان مسلم في رواية محكمة النسج، صادقة التعبير، ذلك الحمل هو أن يكون القرآن العظيم قد جاء بتصديق المشركين في اعتقادهم أن هذه الأوثان والأصنام التي وصفها الشيطان في كلمته الخبيثة بأنها شفعاء لعابديها عند الله ملائكة تشفع لهم، ثم تناقض مع نفسه فرد عليهم بأن كثيراً من الملائكة لا تغني شفاعتهم شيئاً، وخص بذلك من في السموات ليكون ذلك أبلغ في ردع هؤلاء المشركين وإبطال اعتقادهم في زعم أن أوثانهم ملائكة تشفع لهم.

ثم تنتهي هذه الرواية الكاذبة بعد هذا التلفيق والهلهلة إلى ما انتهت إليه سائر أخواتها بالكذب والاختلاق، من أن الله تعالى أنزل قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ ليفرج عن النبي ﷺ ما نزل به من الهم والغم لتقوُّله على الله ـ في زعم الرواية الباطلة ـ ما لم يقل،

وهذا تلبيس وخداع فاجر لتغطية عوار الكذب الذي جاءت به الـرواية كغيرها من روايات الأكذوبة الغرنوقية البلهاء.

الرواية الرابعة عشرة

قال السيوطي:

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّي قال: خرج النبي ﷺ إلى المسجد ليصلي، فبينما هو يقرأ إذ قال: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فألقى الشيطان على لسانه، فقال: تلك الغرانقة العُلى، وإن شفاعتهن ترتجى، حتى إذا بلغ آخر السورة سجد وسجد أصحابه، وسجد المشركون لذكره آلهتهم، فلما رفع رأسه حملوه فاشتدوا به بين قطري مكة، يقولون نبي بني عبد مناف، حتى إذا جاءه جبريل عرض عليه، فقرأ ذينك الحرفين، فقال جبريل: معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا؟؟؟، فاشتد عليه، فأنزل الله يطيب نفسه ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ الآيات.

ليت القلم الذي أرغم على حكاية هذا الغثاء العفن في عرض هذه الروايات المهلهلة الباطلة في أكذوبة الغرانيق البلهاء ـ مستغفراً باكياً ـ يتأتى له أن يضحك في غمرة الأسى والحزن على ضياع عقول الذين فقدوا خصائص إنسانيتهم، فهرفوا بكل متهافت سقيم من الـروايات إرضـاء لعواطف الحقد الأسود، الذي أفعمت به قلوبهم المريضة، شنفاً لهذا الدين القيِّم، دين الإسلام القويم، الذي أرسل به سيد المرسلين وإمام المتقين، محمد الأمين ﷺ.

وليت هذا القلم يستطيـع أن يربِّت عـلى أكتاف البُله المغفَّلين، المتكثرين من تلقف كل سواء في روايات داحضة من كل من هبَّ ودبّ، إشفاقاً عليهم من هول ما اجترحوا، وإشفاقاً على عقولهم التي قبلت هذه الروايات الباطلة، فسوَّدوا بسوادها بيـاض غفلتهم لسلامـة صدورهم، ليت، وليت!!.

بيد أن الأمر أمر عقيدة وإيمان، وأمر دين وإسلام، وأمر أمة تنتشر في أقطار الأرض وفي أدمغتها توقير وقداسة لناقلي روايات عقيدتها وشرائع

دينها، بل هو أمر هداية هادية منجية من عذاب الله، أو ضلالة ضالة مضلَّة، موبقة، أو أمر عقول عاقلة تفقه ما تقول وما يقال لها، أو أمر نزغات شيطانية عاتهة، تطغى على الفكر فتفسده، أو أمر كتاب أنزله الله بالحق وللحق على رسول، ختم الله برسالته رسالات السماء، فعصمه أن يتقوَّل عليه شيئاً يبهت به كمال إلٰهيته.

فلا مكان للأضاحيك الماجنة، ولا محل فيه للمجانة العابثة، ولا مواضع للمجاملة والمداهنة، ولا سبيل فيه لمراعاة فلان وفلان، أو إغضاء عن هيان بن بيان، فهو جدٌّ كله، لا يقبل الهذل والهذيان، ولا هجر القول والخرافات، ولا تلج إلى ساحته الأساطير والأبطولات، ولا يُرضى بالسكوت عن المساس بأصوله الإيمانية، ولو كان ذلك المساس مغلفاً بأغلفة تحريف التأويل والإدهان، أو هالات الأسماء وطنطنة الأتباع.

هذه الرواية الممسوخة أكثر روايات الأكذوبة الغرنوقية البلهاء المتهاوية عبثاً وتلاعباً صبيانياً وتفاهة فكرية، فهي من أغرب روايات الأخلوقة الكاذبة، فيما جاءت به من الحركة البهلوانية المضحكة المبكية، السخيفة المستسخفة، التي لم تعرفها قط المجتمعات إذ ذاك، والتي لا تصدقها عقول الأطفال العابثين فضلاً عن الرجال العقلاء العالمين.

والسُّدي صاحبها وحامل لواء إرسالها، والمتولي كِبْر إسنادها إليه، قد قال فيه أئمة الجرح كلمتهم الفاصلة، وإليها المرجع والمصير إذا صح الحمل عليه، ونحن لا نعتقد أن أحداً من أهل العلم في الإسلام روى شيئاً أي شيء من أكذوبة الغرانيق البلهاء الفجور، وإنما حُمِل عليهم هذا الكذب زوراً وبهتاً لهم ليخدع به ذوو البله والغفلة المتكثرون.

يقول السُّدِّي - فيما تزعم هذه الرواية -: إن النبي ﷺ خرج ليصلي في المسجد، فبينما هو يقرأ (أي في الصلاة طبعاً) إذ قال: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فألقى الشيطان على لسانه كلمتيه الخبيثتين، ومضى رسول الله ﷺ في قراءته حتى بلغ آخر السورة، ولم يتنبه قط لما أدخل عليه الشيطان في قراءته لآيات القرآن من سورة النجم، ولما ختم

السورة وهو مكذوب عليه، ملبَّس في أمر قراءته سجد وسجد أصحابه، وسجد المشركون لذكر آلهتهم، وهذا معناه ـ بداهة ـ أن المشركين سمعوا ذكر آلهتهم والثناء على أوثانهم وأصنامهم فسجدوا لذلك، وهم متنبهون لذكر آلهتهم ومدحها والثناء عليها بأنها شفعاؤهم عند الله، والنبي ﷺ لم يتنبه لذلك، واستمر على اعتقاده أن الذي أدخله عليه الشيطان من مدح آلهة المشركين قرآن منزل عليه من عند الله حتى نبهه جبريل عليه السلام حين أتاه وعرض عليه ما جاءه به من آيات القرآن، فقرأ النبي ﷺ ـ فيما تزعم الرواية الكاذبة ـ الحرفين اللذين أدخلهما عليه الشيطان في العرض الذي عرضه على جبريل، وحينئذ قال له جبريل عليه السلام: معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا، وحينئذ فقط تنبَّه النبي ﷺ إلى أنه تقوَّل على الله ما لم يقل، وما لم ينزل به عليه الوحي، وأنه أشرك الشيطان بإدخال كلامه في كلام الله تعالى، فاشتد عليه الأمر جداً، واغتم لذلك غماً شديداً، وهنا تقول الرواية الكاذبة: فأنزل الله عليه يطيب نفسه: ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ الآيات.

إلى هنا تكون هذه الرواية زائفة ماشية في خطا أخواتها الكاذبات الباطلات ومنعرجاتها، ولكنها لا ترضى أن تقف حيث وقفن، بل تقفز لتستأثر بموقف بهلواني مضحك سخيف، فتقول مستسخفة للعقول، مستخفة لعواطف الأغمار من جهلة الغوغاء وغوغاء الجهلة: فلما رفع رسول الله ﷺ ـ أي من الصلاة ـ حملوه وطاروا به مشتدين بين قطري مكة جيئة وروحة، يتنادون في بله وبلاهة، وطيش وعبث: هذا نبي بني عبد مناف؟! ولم تذكر الرواية شيئاً عن موقف النبي ﷺ من هذه الحركة البهلوانية، ولا شيئاً عن موقف عمومته، وهم يرونه مخطوفاً محمولاً على الأعناق، مطافاً به بين جنبات مكة فكيف أسلموه؟ ولم يستريبوا في هذه اللعبة البهلوانية الطائشة المريبة، وهم يعلمون أن محمداً ﷺ مطلوب لملأ قريش، ينتظرون به فرصة تمكِّنهم منه؟.

هذا لون من عبث الروايات الأسطورية المتكثرة، سقناه لا لنردّه، فهو مردود باطل، ولكن لأننا رأينا طائفة من أهل العلم تتشبث ببعض

هذه الروايات اغتراراً بكثرتها وتعدد أسانيدها، وتحاول تأويلها لتثبت أن لأقصوصة الغرنوقية أصلاً لا يجوز معه إنكارها وتكـذيبها، فهؤلاء هم الذين نقف معهم لئلا يخدع بكلامهم ومكانتهم من ليس له تعمق البحث ومعرفة الغث من السمين، والطيب من الخبيث، والرجس من الطاهر، والحق من الباطل.

إلى هنا نكتفي بهذا القدر من هذه الروايات التي ذكرناها، منقولة عن (الـدر المنثور) لجلال الدين السيوطيَ، ويشبه أن يكون السيوطي قد استوعب بها جميع أو أكثر ما جاء في أقصوصة الغرانيق الباطلة، والذي لم نذكره من الروايات ليس فيه ما يفوت ما ذكرناه، وقـد نبَّهنا في سـوق الروايات على ما نبه عليه السيوطي من صحة إسناد بعض الروايات إلى مرسلها، وليس فيها رواية قط متصلة الإسناد على وجه الصحة، ولم يذكر في جميع الروايات صحابي قط على وجه موثق، وما ذكر فيه باسم ابن عباس منها فكلها ضعيفة واهية خلا رواية سعيد بن جبير على الشك في إسنادها إلى الحبر ابن عباس، والشك يوهيها.

وسيأتي كلام الأئمة في تضعيف جميع روايات الأقصوصة من جهة السند، والبلاء كل البلاء، والطامة الكبرى في هذه القصة إنما يكمن في متونها، وأن هالات الإكبار التي أضفاهـا واضعـو الأكـذوبة عـلى بعض أسانيدها لا يغني عن زيف متونها في جميع رواياتها شيئاً، لأن الأسانيد طالما ركبها الوضاعون الكذابون، فأقحموا فيها بعض أهل العلم من الموثَّقين، لتروج متونها على البله المغفَّلين، وهذا كثيـراً معروف في كتب الجـرح والتعديل، قام به رجال صادقـو الإيمان، حـاذقو الفهم، مهـرة النقد، منحهم الله خصائص المعرفة في تمييز الأصيل من الدخيل، والغثّ من السمين، والحق من الباطل. وليس أحد سوى الأنبياء والمرسلين بمعصوم.

رأي الحافظ ابن حجر
في هذه الأكذوبة

عرض ابن حجر لأقصوصة الغـرانيق في الجزء الثـامن من (فتح الباري) بشرح صحيح البخاري عند قول المصنف: وقال ابن عباس في (إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته): إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم آياته. قال ابن حجر: وصله ـ أي تفسير (تمنى) بحدّث ـ الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مقطعاً . قلنا: وعليّ بن أبي طلحة لم يلق ابن عباس ولم يأخذ عنه.

ثم قال ابن حجر في شرح قول البخاري: (ويقال :أمنيته، قراءته، إلا أماني يقرؤون ولا يكتبون) هو قول الفراء، قال: التمني التلاوة، قال ـ أي الفراء ـ: وقوله: لا يعلمون الكتاب إلا أماني، قال: الأماني: أن يفتعل الأحاديث، وكانت أحاديث يسمعونها من كبرائهم، وليست من كتاب الله، قال ـ أي الفرّاء ـ ومن شواهد ذلك قول الشاعر:

تمـنَّى كـتـاب الله أول لـيـلة   تمنِّي داوود الـزبـور عـلى رِسْـل

قال الفرّاء: والتمني حديث النفس، انتهى.

ثم قال ابن حجر: قال ابو جعفر النحاس في كتاب (معاني القرآن) له، بعد أن ساق رواية عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في تأويل الآية: هذا أحسن ما قيل في تأويل الآية، وأعلاه، وأجلُّه.

وتفسير ابن عباس في رواية البخاري (تمنى) بحدّث (وأمنيته) بحديثه أو قراءته مُعارض بحديثه عند عبد بن حُميد من طريق السُّدِّي ـ الكبير ـ

عن أبي صالح عن ابن عباس، إذ قال: إن أمنيته أن يسلم قومه، وهذا هو المعنى اللغوي المعروف المشهور لتفسير التمني والأمنية، فيتعين أنه المراد، وأن تفسير البخاري مؤول بحديث النفس، أي اشتهاء إسلام قومه، وإرادته، والرغبة فيه، وحبه، وحرصه على حصوله، فكان يحدث بذلك نفسه مشتهياً أن يراه محققاً، ويدل لهذا ما جاء في حديث محمد ابن كعب ومحمد بن قيس عند سعيد بن منصور وابن جرير، إذ قالا: جلس النبي ﷺ في نادٍ من أندية قريش كثيرٌ أهله، (فتمنى) يومئذ ألاّ يأتيه شيء من الله ينفِّر قومه منه، فيتفرقوا عنه، فالتمني هنا صريح في أن المراد به رغبة النبي ﷺ واشتهاؤه ألاّ ينزل عليه شيء ـ وهو في نادي القوم متمكن من دعوتهم وإسماعهم حجة الله وكلامه ـ ينفرهم منه.

وموقف البحث من كلام ابن حجر في معنى (التمني والأمنية) كما فهمه من صنيع الإمام البخاري يقتضينا أن نضع بين يدي أهل العلم ما يلفت نظرهم إلى ما فيه من احتمالات.

أولاً ـ إن رواية الإمام البخاري عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ليست نصاً قاطعاً في تفسير التمني والأمنية بحديث اللسان بمعنى التلاوة والقراءة، لاحتمال أن يراد منه: إذا حدَّث ـ أي نفسه ـ برغائبه ومحابِّه واشتهائه إسلام قومه، كما جاء صريحاً عن ابن عباس في حديثه الذي أخرجه عبد بن حُمَيد عن طريق السُّدِّي عن أبي صالح، وفيه كما ساقه السيوطي في الدر فقال ابن عباس: إن أمنيته أن يسلم قومه.

ومعنى كلام ابن عباس في حديث ابن حميد يستلزم أن يرد المبهم في رواية البخاري إلى المفسر في رواية ابن حميد، وبهذا الرد يتوحد المعنى، وينتهي إلى أن معنى الآية أن الله تعالى يحكي أن من سنته مع أنبيائه ورسله وسنة هؤلاء الأنبياء والرسل في تبليغ رسالاتهم وإراداتهم إيمان من أرسلوا إليهم، وحبهم تحقيق هذا الإيمان وشدة حرصهم عليه، إنهم يحدثون أنفسهم برغائبهم في هداية أقوامهم متمنين أن يهديهم الله إلى

الإيمان، وأن الشيطان يضع العراقيل والمعوِّقات في طريق هداية أولئك الأقوام، ويلقي الشبه والأضاليل والشكوك بوسوسته في قلوبهم وتفكيرهم ليصدَّهم عن تقبُّل الإيمان والهداية والاستجابة إلى الله ورسله، وهذه هي أمنيات الأنبياء ورغائبهم، ولكن الله تعالى يبدد شبه الشيطان وأضاليله، ويزيلها بما يفتح في قلوب من يرد الله هدايته من سبل الهداية ويحكم آياته ودلائل هدايته في أنفس المهتدين بحكمته وواسع علمه ومحكم تدبيره.

ويدلّ على قيام هذا الاحتمال في تأويل كلام البخاري لحديث ابن عباس، بل ترجيحه أن البخاري رحمه الله حكى بُعيْده بصيغة التمريض والاستضعاف القول الذي يفيد بنصه أن معنى أمنيته قراءته، فقال: ويقال: أمنيته قراءته، وهذا ذكره البخاري في مقابل القول الأول الذي يحتمل التأويل بحديث النفس ليرجع الكلام في معنى التمني والأمنية إلى نهج موحَّد.

ثانياً ـ أن تفسير الفرّاء التمني بالتلاوة ـ كما صرح به ابن حجر ـ إنما هو تفسير بما هو بصلة من المعنى اللغوي الوضعي للتمني وما تصرف منه، وليس بياناً لمعنى لغوي وضعي، ويدلّ لذلك ما ساقه ابن منظور في (لسان العرب) من قول أبي منصور: والتلاوة سميت أمنية لأن تالي القرآن إذا مر بآية رحمة تمناها ـ أي رغب فيها ـ وأحب أن تكون، وإذا مرَّ بآية عذاب تمنى أن يوقَّاه ـ أي أحب أن يجعل الله بينه وبين هذا العذاب وقاية فلا يلحقه منه شيء.

فالمعنى الوضعي اللغوي الحقيقي للتمني والأمنية هو محبة الشيء والرغبة في حصوله، وتشهِّي وقوعه. وهذا المعنى المعروف المستعمل في كلام العرب المتداول في كلامهم شعراً ونثراً.

أما تفسير التمني بالتلاوة والقراءة على أنهما معنى وضعي حقيقي فلم يعرف له شاهد قط إلا هذا البيت الفذّ من الشعر الذي تناقله الخلف عن السلف من الزاعمين أن معنى التمني التلاوة والقراءة، وبيت الشعر الذي اعتمد عليه أولئك الزاعمون منسوب في بعض الكتب إلى حسان ابن

ثابت، يقولون إنه قاله في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه: وهو قوله في زعم الزاعمين:

تمنّى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادر

وابن منظور ساق هذا البيت، وقال: إنه في مرثية عثمان، ولم يسمِّ قائله، حساناً أو غيره، ثم قال ابن منظور: والتمني التلاوة، وتمنى إذا تلا وقرأ، ثم قال: وقال آخر:

تمنى كتاب الله آخر ليلة تمني داوود الزبور على رِسْل

وهذا استشهاد لا تثبت به المعاني اللغوية الحقيقية للألفاظ وإلا فكيف تعرف العرب في لغتها هذا المعنى ـ التلاوة والقراءة ـ للتمني وما تصرّف منه، ثم لا يوجد في كلامها شعرها ونثرها شواهد سوى هذا البيت الذي تلاعب به متلاعب فجعله بيتين، بتغيير شطره الثاني بكلام لا يكاد يلتئم مع شطره الأول، إلا بمجرد إرادة التلاوة من التمني في شطري البيت.

وقصائد حسان رضي الله عنه في رثاء عثمان مشكوك في نسبتها إليه لأن حساناً قد بلغ إذ ثورة الأشرار على عثمان من الكبر عتياً، فيبعد ـ كما يقول المتشككون، ومنهم بروكلمن في كتابه (تاريخ الأدب العربي) ـ أن تكون قدرة حسان الشعرية على هذه القوة التي تجلَّت في هذه القصائد على وتيرتها في الإجادة كما كانت أيام عنفوانه ونضجه عن النبي ﷺ، ورده على تهاجي الشعراء من قريش واليهود.

وقد ساق ابن منظور في (اللسان) شواهد من الحديث والآثار وكلام أئمة اللغة تدل على أن معنى (التمني والأمنية) هو الإرادة والمحبة والرغبة في حصول الشيء واشتهاء وقوعه، فقال: والتمني سؤال الرب في الحوائج، وفي الحديث «إذا تمنى أحدكم فليستكثر فإنما يسأل ربه»، قال ابن الأثير: التمنِّي اشتهاء حصول الأمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون.

ثم نقل ابن منظور عن أبي بكر بن دريد صاحب الجمهرة قوله: تمنيت الشيء قدرته وأحببت أن يصير إليّ، ثم قال: قال الجوهري: وتمنّى الشيء أراده... وتمنى الكتاب قرأه وكتبه، وهذا النص من إمام اللغة الجوهري صريح أن معنى التمني عند الإطلاق هو الإرادة والمحبة، ولا يستعمل بمعنى القراءة والتلاوة إلا مضافاً للكتاب.

فقول ابن منظور بعد ذلك: وفي التنزيل العزيز ﴿ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ أي قرأ وتلا، لا يتمشى مع نقله معنى التمني مطلقاً ومقيداً، ثم ساق البيت الفذّ المنسوب لحسان بن ثابت، والتمني في البيت مقيد (تمنى كتاب الله) وقال: والتمني التلاوة، وتمنى إذا تلا القرآن، ثم ذكر البيت الثاني غير منسوب، وفيه تقييد التمني بالكتاب.

والخلاصة أن تفسير البخاري التمني بما نقله عن ابن عباس غير ملزم لتعين تفسير (التمني) في الآية بالتلاوة والقراءة، وهو التفسير الذي كان مفتاحاً لباب اختلاق أكذوبة الغرانيق، وما اشتملت عليه من طامات وبلايا، لأن التمني جاء في الآية مطلقاً عن قيد الإضافة إلى الكتاب، فلم يذكر له مفعول قيد به، وتفسيره - كما جاء في حديث ابن عباس عند البخاري - يحدّث محتمل أن يكون معناه حدَّث نفسه برغبته واشتهائه هداية قومه، وهذا الاحتمال يتفق مع معنى (التمني) في تفسير ابن عباس عند ابن حميد فيجب المصير إليه، لأنه تفسير لغوي لا يرد. وبهذا البيان يظهر ألا وجه لما زعمه ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان) إذ قال: ومنها أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته. قال ابن القيم: والسلف (كلهم) - عجيب - على أن المعنى (تلا) ألقى الشيطان في تلاوته ثم ساق البيت الفذ، ولم ينسبه لحسان أو غيره.

زعم ابن القيِّم في قوله: إن السلف كلهم على معنى (تمنى) تلا مجازفة يعوزها التحقيق

تمــنَّى كـتــاب الله أول لــيــلة وآخــره لاقــى حمـام المـقــادر

فأين السلف (كلهم) - يا سدنة العلم - الذين هم على أن المعنى في الآية (تمنى) أي تلا، وأمنيته تلاوته! وابن القيم لم يذكر واحداً من السلف الذين زعم عليهم (كلهم) أنهم يقولون: أن معنى (تمنى) في الآية (تلا).

والسلف هم أمة الإسلام كلها في القرون الخيِّرة الثلاثة: الصحابة والتابعون وأتباع التابعين، والذي ذكره البخاري عن ابن عباس فقط قد عرفتَ وجهه ووجوب ردِّه إلى قوله الصريح في حديثه عند عبد بن حميد من قوله: أمنيته أن يسلم قومه.

ولعل ابن القيم أراد بالسلف (كلهم) الذين أسندت إليهم مراسيل أكذوبة الغرانيق من بعض المحدِّثين والرواة، وقد عرفنا سبيل هذه الروايات الباطلة الكاذبة، وحسن الظن بأهل العلم وحَمَلَة الرواية في الإسلام يجعلنا نجزم ببراءتهم من تلك الروايات الباطلة، وأنها حُملت عليهم حملاً لا يرضونه ولا يقولون بما حُمِّلوه.

* * *

وقد دلف ابن حجر من أبواب هذه الروايات الباطلة إلى موقف في قصة الغرانيق كان حرياً به في فضله وغزارة علمه بالروايات أن لا يُرَى فيه، ذلك أنه لم يكد ينتهي من تصريف معنى التمني والأمنيةتصريفاً انتهى به إلى الوقوف عند قول ابن عباس في سياق البخاري: (إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته) إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه ـ حتى أقحم أقصوصة الغرانيق التي لم يتعرض لها الإمام البخاري من قريب أو بعيد، إقحاماً يشعر بأنه يريد أن يقول شيئاً في موضوع يتحين له الفرصة، ولو على متن أبعد المناسبات، ولو أن الحافظ ابن حجر أهمل أقصوصة الغرانيق فلم يذكرها في فتحه، ما أحسّ أحد قط أن (الفتح) نقص شيئاً يجب أن يقال في شرح الجامع الصحيح للإمام البخاري، ولكن الحافظ ابن حجر رأى ـ وهو النحرير في روايات الحديث ـ أن الأقصوصة الغرنوقية احتلت في كتب الحديث ودواوين التفسير والسيرة النبوية مكاناً جدلياً كثر فيه الجذب والشد؛ فلا يستقيم في شرعة الصنعة الحديثية أن يخلو منها مؤلف عظيم في شرح أعظم كتاب في رواية الحديث مثل (الفتح) في شرح جامع الإمام البخاري.

وقد يُلتمس حسنُ الظن بفضل الحافظ ابن حجر عذراً له في إقحامه

هذه الأقصوصة الباطلــة باعترافه ولجوئه إلى التأويل لما وقع فيها مما يستنكر، لاستحالة وقوعه من النبي ﷺ لمكان العصمة منه ـ أن الإمام البخاري ذكر تفسير ابن عباس للتمني في قوله تعـالى: ﴿إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ قال: إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه، ويقال: أمنيته قراءته.

فلعل الحافظ توهَّم أن البخاري يشير بهذا التفسير للفظ (التمني) ولفظ (الأمنية) إلى ما جاء في مراسيل القصة مما يتلاءم مع هذا التفسير، ولما كان البخـاري لا يقيم وزناً للحديث المرسل في الاحتجاج به ولم يعرِّج على شيء من مراسيل القصة، ولم يشر إلى ذكرها قط، لأنها لم تثبت عنده في حديث صحيح على طريقته ونهجه في جامعه، والذي جاء عنها مسنداً إلى ابن عباس في حديث سعيد بن جبير دخله الشك في إسناده إلى ابـن عباس من قول سعيد (فيما أحسب)، فلا تقوم به حجة لضعفه بهذا الشك.

وقد يشير إلى هذا في التماس العذر للحافظ ابن حجر لإقحامه أقصوصة الغرانيق في (الفتح) دون أن تدعو إليها ضرورة ملحة في فهم شيء يتوقف على ذكرها اعتماده على حديث سعيد بن جبير المتصل عن ابن عباس ـ وهو صاحب التفسير الذي ساقه البخاري في بيان معنى (التمني والأمنية) في آية ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ ـ إذْ يقول الحافظ: وعلى تأويل ابن عباس هذا يحمل ما جاء عن سعيد بن جبير، وقد أخرجه ابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر من طرق عن شعبة، عن أبي بشر عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكـة ﴿ والنجم ﴾ فلما بلغ ﴿ أفـرأيتم الـلّات والعـزّى ومنـاة الثـالثـة الأخرى ﴾ ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العُلَى، وإن شفاعتهن لترتجى: فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجد وسجدوا، ونزلت الآية، قلنا: وقد عرفنا أن لابن عباس رضي الله عنهما تأويلاً آخر في معنى (التمني) وهو تأويل صريح لا يحتمل غير ظاهر معناه، وهو التأويل الذي جاء في حديث عبد بن حميد في أول رواية ساقها السيوطي (في الدر) وتأويل ابن عباس هذا الذي حمل عليه ابن حجر حديث سعيد بن جبير

في قصة الغرانيق محتمل التأويل ـ كما حررناه ـ فلا وجه لحمل حديث سعيد بن جبير على أحد تأويلي ابن عباس لمعنى (التمني) وإهمال الآخر سوى أن هذا التأويل الذي فسر (التمني) بالتلاوة مَعْبر إلى قصة الغرانيق، فإن احتج لهذا التأويل بأنه من رواية البخاري، وهي أصح من كل رواية غيرها، قلنا: لا نعارض في ترجيح رواية البخاري على غيرها عند الإطلاق، لكن إذا لاح مرجِّح لغير رواية البخاري على روايته فقد وجب المصير إليها، وهنا ترجح رواية عبد بن حميد عن ابن عباس في تفسير (أمنيته) أن يسلم قومه بعدم الاحتمال لغير هذا المعنى الظاهر مع وجود الاحتمال في رواية البخاري بأن قوله: (تمنى إذا حدَّث) أي حدَّث نفسه باشتهائه إسلام قومه، وهذا المعنى هو ما ورد في حديث عبد بن حُمَيد، ولا شك أن ما لا يحتمل أولى وأحق مما يحتمل، فيجب حمل ما يحتمل التأويل على ما لا يحتمله.

ثم راح الحافظ ابن حجر يذكر مَنْ خرَّج حديث سعيد بن جبير، فقال: وقد أخرجه البزار، وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة، فقال في إسناده ـ أي الذي دخله الشك في وصله بابن عباس ـ: قال البزار تفرَّد بوصله أمية بن خالد ـ وهو ثقة مشهور ـ وقد عرفتَ أن ثقة أمية بن خالد وشهرته لا تفيد شيئاً مع التصريح بالشك في وصله بابن عباس في قول سعيد بن جبير: فيما أحسب ـ ولو أن الحافظ ابن حجر وقف عند حديث سعيد بن جبير الموصول عن طريق الثقة أمية بن خالد بابن عباس ـ مع الشك ـ في هذا الوصل لكان له بعض التعلق بما اعتذرنا به عنه؛ ولكنه مضى يسوق روايات واهية في مراسيل قصة الغرانيق، فقال بعد سوقه لكلام البزار في أن حديث ابن جبير لا يروى متصلاً إلا بالإسناد الذي تفرد فيه بوصله الثقة المشهور أمية بن خالد.

ثم قال ابن حجر: قال البزار وإنما يروى هذا ـ أي غير موصول ـ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. انتهى كلام البزار. ثم قال ابن حجر: والكلبي متروك، ولا يعتمد عليه، وقد أخرجه

النحَّاس بسند آخر فيه الواقدي، وهو ضعيف، وذكره ابن إسحاق مطوّلاً، وأسنده عن محمد بن كعب، وكذلك عن موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب الزهري، وكذا ذكره أبو معشر في السيرة له، عن محمد ابن كعب القرظي ومحمد بن قيس، وأورده من طريقه الطبري، وأورده ابن أبي حاتم عن طريق أسباط عن السُّدِّي، ورواه ابن مردويه عن طريق عبَّاد ابن صهيب عن يحيى بن كثير، عن الكلبي، عن أبي صالح، وعن أبي بكر الهذلي وأيوب عن عكرمة، وسليمان التيمي عمَّن حدثه، ثلاثتهم عن ابن عباس، وأوردها - أي قصة الغرانيق - الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس.

قال الحافظ ابن حجر: ومعناهم كلهم واحد في ذلك، وكلها سوى طريق سعيد بن جبير، إمَّا ضعيفٌ، أو منقطع - أي فلا يحتج به هذا حكم صريح - إذا ضُمَّ إليه ما جاء من الشك في وصل حديث سعيد ابن جبير، وهو شك لا يبقي شيئاً يعتمد عليه في قبوله، يقطع بوهي ووهن أقصوصة الغرانقة الباطلة.

وهي قصة تتعلق بالعقيدة من جوانب مختلفة كل جانب منها يتطلب نصاً قاطعاً لا يكفي في أعلا درجاته إلا التواتر القاطع في اللفظ والمعنى وفي أدنى مراتبه الصحية المتفق عليها في حديث متصل إسناداً إلى النبي ﷺ، وهو في هذا الموضوع أمر متفق عليه بين جميع طوائف العلماء من المفسرين والمحدثين.

هذه القصة الخبيثة
تنسف العقيدة الإسلامية من جوانب متعددة

الجانب الأول

وأول تلك الجوانب جانب العصمة في التبليغ عن الله تعالى، وهذه العصمة في هذا الموضوع متفق عليها بين جميع طوائف الأمة وفرقها، وهذه القصة الغرنوقية تهدم جانب العصمة في التبليغ عن الله تعالى في جميع رواياتها التي كان أمثلها في رأي الحافظ ابن حجر رواية سعيد بن جبير، وهي رواية صريحة في أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ أكفر الكفر،

وأن النبي ﷺ بلَّغه عن الله تعالى، واستمر على اعتقاده حتى أكمل السورة وسجد في آخرها وسجد معه المشركون لأنه ذكر آلهتهم بخير، وما بين المكان المزعوم لكلمات الشيطان من السورة وبين آخرها عدة آيات تستغرق زمناً ليس بالقصير، ولم يتنبه في هذا الزمن النبي ﷺ إلى أنه أدخل في آيات الله كلمات كافرة، ولم يعرف في هذه الرواية متى تنبه ﷺ إلى ذلك الكفر في كلمات الشيطان، فأين العصمة وهي عنصر أولي في تحقيق النبوة والرسالة؟.

الجانب الثاني

وثاني تلك الجوانب وجوب تنزيه النبي ﷺ عن وصمة عدم التمييز بين كلام الله تعالى المعجز بحقائقه التوحيدية ومعانيه الإنسانية وأسلوبه ومبانيه، وبين كلام الشيطان المكفِّر بمعناه ومبناه المهلهل في أسلوبه وألفاظه، وهذه القصة في جميع رواياتها الباطلة قوَّلت النبي ﷺ على الله ما لم يقل، وبلَّغت عنه على لسان النبي ﷺ ما لم ينزل في آيات الله تعالى، وفي ذلك مخالفة لقوله تعالى: ﴿ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين﴾.

الجانب الثالث

وثالث تلك الجوانب وجوب توطيد الثقة بالنبي ﷺ فيما يبلِّغه عن الله تعالى حتى لا تكون الأمة فريسة للشك والحيرة فيما تسمع من نبيها ﷺ وما يبلِّغه لها عن الله تعالى، وإذا سمع الناس من النبي ﷺ كلمات الشرك الوثني بالثناء والمدح للأصنام في ثنايا ذمِّها واحتقار عابديها، فماذا يبقى لهم من الثقة بعد ذلك في أي بلاغ يسمعونه من نبيهم ﷺ؟!.

الحافظ ابن حجر يحكّم الصنعة الحديثية في الحكم على قصة الغرانيق

بيد أن الحافظ ابن حجر ـ وقد غلبته الصنعة الحديثية ـ يأبى إلا أن يثبت قصة الغرانيق في رواياتها الواهية الواهنة بل الباطلة الكاذبة، فيقول بعد تصريحه القاطع في الحكم على روايات القصة بالضعف والانقطاع ـ: لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً، مع أن لها طريقين آخرين مرسَلَين رجالهما على شرط الشيخين، أحدهما ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب: حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام، فذكر نحوه، والثاني ما خرَّجه أيضاً عن طريق المعتمر ابن سليمان، وحمَّاد بن سلمة ـ فرَّقهما ـ عن داوود بن أبي هند عن أبي

العالية. ثم قال ابن حجر ممعناً في إثبات الأقصوصة الباطلة: وقد تجرأ أبو بكر بن العربي ـ كعادته ـ فقال: ذكر الطبري في ذلـك روايات كثيـرة باطلة، لا أصل لها. قال ابن حجـر: وهو ـ أي قـول ابن العربي ـ إطلاق مردود عليه، وكذا قول عياض: هذا الحَدِيث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، مع ضعف نقلته واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده وكذا قوله ـ أي عياض ـ ومَنْ حُملت عنه هذه القصة من التابعين، والمفسِّرين لم يسندها أحـد منهم، ولا رفعها إلى صاحب ـ أي من أصحاب النبي ﷺ، وأكثر الطرق عنهم ـ أي الذين حُملت عنهم القصة من التابعين والمفسرين ـ في ذلك ضعيفة واهية، وقد بيَّن البزار أنه لا يعرف ـ أي حديث في قصة الغرانيق ـ عن طريق يجوز ذكره إلا من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير مع الشك الذي وقع في وصله، وأما الكلبي فلا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه، قلنا: بل هو متهم بالكذب والسبائية، وهي زندقة مشهورة بهدم قواعد الإسلام، وقولها بإلهية عليّ رضي الله عنه، وهم دعائم الفتنة العثمانية التي انتهت بقتل ذي النورين مظلوماً شهيداً رضي الله عنه، ثم قال ابن حجر: ثم رده ـ أي حديث الغرانيق ـ عياض عن طريق النظر بأن ذلك لو وقع لارتد كثير ممن أسلم، ولم ينقل ذلك، وجميع ذلك ـ أي كلام ابن العربي وعياض في رد أقصوصة الغرانيق ـ لا يتمشى على القواعد، فـإن الطرق إذا كثـرت، وتباينت مخارجها دلَّ ذلك على أن لها أصلاً، وقد ذكرتُ ـ أي ابن حجر ـ أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض.

قال ابن حجر: وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها ـ أي في رواية القصة الغرنوقية ـ مما يستنكر وهو قوله: ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره، لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس منه، وكذا سهواً إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته. انتهى المقصود من كـلام ابن حجر، والكـلام مع الحـافظ ابن حجر في شـأن هـذه

الأقصوصة الغرنوقية يجري على وجوه.

مناقشة كلام ابن حجر في أقصوصة الغرانيق والرد عليه

الوجه الأول ـ يتعلق بروايات القصة، وقد ساقها الحافظ ـ كما ساقها السيوطي (في الدر) ـ ثم عقّب عليها بقوله: وكلها سوى طريق سعيد ابن جبير إما ضعيف، وإما منقطع ـ أي فلا تقوم بها حجة ـ وهذا نص قاطع من ابن حجر على أن روايات هذه القصة الزندقية ضعيفة السند، واهية المخرج، لا تصلح للاحتجاج بها في أدنى أمور الدين الفرعية من أحكام النجاسات، وأمثالها، فضلاً عن أعلى أصوله العقيدية التي تتصل اتصالاً وثيقاً.

أولاً ـ بعقيدة التوحيد، وهي أساس الإسلام ولبابه ودعائم شرائعه لأن هذا الإسلام في رسالات الله تعالى كلها أول ما يستهدف إنما يستهدف إقامة معالم العقيدة التوحيدية وإبطال الشرك والوثنية.

وثانياً ـ بعصمة النبي ﷺ عن مخالفة أمر الله تعالى فيما يبلّغه عنه فلا يزيد فيه شيئاً ولا ينقص منه شيئاً، لا عمداً ولا سهواً، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليه من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته ﴾ والزيادة على آيات القرآن في أثناء تلاوته تبليغ لما لم ينزله الله عليه، والنقص من آيات الله تعالى كتمان، وعدم تبليغ لما أنزل إليه من ربه، وقد ذكر الله في ذلك من الوعيد ما لم يبلغ معرفة كنهه إلا الله تعالى: وذلك قوله تعالى: ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ـ أي بالزيادة على آياتنا أو بالنقص منها ـ لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾.

وهذا كله دون أن يتسلط عليه الشيطان فيلقي على لسانه في ثنايا تلاوته آيات الله المنزلة بالوحي أخبث كلمات الكفر التي تشيد بالأوثان مدحاً وتعظيماً، في أثناء تلاوته لآيات الله الناعية على المشركين شركهم ووثنيتهم العائبة آلهتهم، المسفهة أحلامهم، فما الشأن إذا كانت الزيادة في آيات الله تعالى بتسلط الشيطان وإلقائه على لسان النبي ﷺ ما ينقض بنيان التوحيد من أساسه؟.

وثالثاً ـ الثقة في نصوص القرآن وآياته وأنها منزلة من عند الله لتقيم للناس معالم عقيدتهم، وتوطد بينهم شرائع عبوديتهم لله تعالى وحده، وتريهم حقائق الحياة في نظمها الاجتماعية قائمة على العدل والإخاء والرحمة.

ورابعاً ـ الثقة بوحي الله تعالى إلى رسله. فإذا فتح للشيطان أدنى منفذ للتسلط على رسل الله تعالى، وتلقينهم أخبث الكفر دون أن يتنبهوا إلى ما يلقى إليهم من ذلك ويبلّغوه إلى أممهم فيما يبلغونه عن الله تعالى، لم يبق للأمة ثقة فيما تسمع من رسولها، وهذا ـ بلا شك ـ هدم لدعوات الرسل وإبطال لرسالاتهم.

وخامساً ـ الثقة بنبينا سيد الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ في معرفته بأسلوب القرآن ومعانيه، معرفة لا تسمو عليها معرفة أحد، لأنه القيِّم على تمييز أسلوبه وروعة بيانه، والمثل الأعلى في العلم بحقائقه الإيمانية، فإذا جاز أن يلقي إليه الشيطان كلمات أخبث الكفر في أثناء تلاوته لآيات الله تعالى الموطِّدة لدعائم التوحيد وهدم الوثنية والشرك ـ كما تزعم أقصوصة الغرانيق ـ على سمع جموع المسلمين، وبصر ملأ المشركين ثم لا يتنبه لذلك، ولا يميز بين ما هو قرآن كريم من عند الله وما هو كفر خبيث من إلقاء الشيطان ـ فماذا بقي لهذا الرسول من ثقة في نفوس المؤمنين به؟.

فقول الحافظ ابن حجر بعد سوقه كلام القاضيَين أبي بكر بن العربي، وعياض: وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دلَّ ذلك على أنَّ لها أصلاً ـ من أغرب قضايا العلم في منهج الإسلام، فالأمر يتعلق بأقصوصة إذا سلمت كانت معولاً هدَّاماً لأصل أصول الإسلام بل أصل أصول الدين كله في جميع رسالات الله تعالى إلى جميع أنبيائه ورسله، لأنها تطعن في عصمة الأنبياء، وتقرر أن الشيطان صاحب سلطان عليهم، يستولي على معاقد الوحي إليهم، فيلقِّنهم ويلقي إليهم ما ليس من وحي الله تعالى، وإنما هو من وحيه الكفور الخبيث المناقض لما أرسلوا به إلى الخلق من التوحيد وإبطال الشرك

والوثنية بجميع صورها وأشكالها، ثم يتقبل الرسل من الشيطان ما يلقي إليهم ويلقنهم ويعتقدونه، ويبلّغونه في رسالاتهم على أنه منزَّلٌ إليهم من ربهم، حتى يُنَبَّهوا إلى أن ذلك ليس من آيات الله وإنما هو من إلقاء الشيطان على ألسنتهم، وهذا التنبيه قد يطول وقته وقد يقصر، ولا شك أن هذا يبلبل الثقة بالرسل في أنفس المؤمنين، ويزيد الكافرين رجساً إلى رجسهم وفتنة إلى فتنتهم، وإذا جاء التنبيه بتصحيح الموقف، والتفريق بين ما هو من آيات الله، وبين ما هو من إلقاء الشيطان، فأنّى لمن سمع الإلقاء من الشيطان يجري على لسان النبي في أول الأمر ثم يسمع التصحيح بعد ذلك أن يثق بأن هذا التصحيح ليس من تلاعب الشيطان وإلقائه؟ هذه مزلقة لا ينتهي من يقع فيها إلا إلى هاوية لا قرار لها.

وهذه الأقصوصة الكاذبة الهادمة لعقيدة التوحيد تأتي بها روايات واهية واهنة ضعيفة في أسانيدها التي اشتمل بعضها على أكذب الكذابين السبائيين، وأمثل هذه الروايات ما قام على الشك في وصله بابن عباس الذي دارت أكثر روايات القصة عليه وعلى تلاميذه مباشرة أو بالنقل عنهم، ولم يذكر فيها اسم واحد من الصحابة، وهم عشرات الألوف رضي الله عنهم سوى ابن عباس وهو في زمن نزول الآيات التي أقحمت عليها القصة كان في سن صغيرة جداً، أو لعله لم يكن ولد، ومعروف أن ابن عباس من شخصيات الإسلام الذين أُكثر عليهم وحُمِّلوا من الأكاذيب ما لم يُحْمل على سواهم من الصحابة، ورواية سعيد بن جبير عنه ـ وهي التي تشبَّث بها الحافظ ابن حجر ـ دخلها الشك فطاحت إلى أودية الوهن والضعف مع أخواتها من سائر روايات القصة، ومع ذلك كله يقول الحافظ ابن حجر: لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً.

نعم للقصة أصل، بل أصول لا تجمعها بأصول الإسلام إلا خيوط الوهم أو نسج العنكبوت في تلافيف أدمغة أعداء الإسلام من الزنادقة، فهي قصة تفقّأت عنها بيضة الزندقة، ثم نهدت إلى أدمغة البُله من المغرَّرين الذين أغرموا بكل غريب من أحاديث (المصاطب) والسمر يتكثرون بها للتعالي والتطاول في محافل المنافسة الباغية.

أما كثرة الطرق فلم يغب عن مختلقي القصة أن يختلقوه ليكون لهم تكأة عند الحرفيين من المتشبثين بالقواعد التي قعّدوها، فأي مانع يمنع واضعي القصة من تكثير طرقها بمخارج متباينة ليضحكوا بها من الذين يجرون وراء سراب الروايات الغريبة؟.

على أن محققي العلماء لم يغفلوا عن هذه القواعد، بل قالوا: إن قاعدة الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دلّت على أن موضوع الروايات له أصل ليست على عمومها، ففي باب العقائد لا يقبل إلا النص الصحيح الصريح القاطع بالتواتر أو بغيره من وسائل القطع والصحة، وفي غير أبواب العقائد من الأحكام الفرعية فإن هذه القاعدة مقيدة - كما يقول الإمام ابن الصلاح - بالضعف الذي يزيله ما يجبره، وذلك إذا كان الضعف ناشئاً عن ضعف حفظ الراوي، أما الضعف الذي لا يزول لقوته، وتقاعد الجابر عن جبره ومقاومته فلا وزن له، ولو جاء من سبعين طريقاً متباينة المخارج، وذلك كالضعف الذي ينشأ من كون الراوي متهماً بالكذب - كما في بعض روايات أقصوصة الغرانيق التي جاءت من طريق الكلبي وهو كذوب ولا تجوز الرواية عنه - ومثل ذلك كون الحديث شاذاً.

ثم قال الحافظ ابن حجر: وقد ذكرتُ أن ثلاثة أسانيد منها - أي من روايات قصة الغرانيق - على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض. قلنا: إن هذا التعميم في الاحتجاج بالمرسل عند من يقول به ومن لا يقول به غيرُ مسَلَّم، لأن الخلاف في الاحتجاج بالمرسل إنما هو في أحكام الفروع، ولا يمكن أن يكون جارياً في أصول العقائد، لأنها لا تثبت إلا بدليل قاطع ونص متواتر لفظاً ومعنى، والمرسل ضعيف عند جمهور المحدِّثين فكيف تثبت به عقيدة، ولا يتحقق أصل الإيمان إلا بدليل قاطع، والمرسل ضعيف وهو محل خلاف؟.

قال ابن عبد البر: فإذا حكى التابعي عمن لم يلقه لم يكن بد من معرفة الواسطة، إذ قد صح أن التابعين أو كثيراً منهم رووا عن الضعيف

وغير الضعيف. وقال ابن الصلاح في (علوم الحديث): ثم اعلم أن حكم المرسل حكم الحديث الضعيف إلا أن يصح مخرجه من وجه آخر، وما ذكرنا من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه هو المذهب الذي استقر عليه آراء جماهير حفَّاظ الحديث ونقَّاد الأثر.

ثم قال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر أن كثرة الطرق وتباين المخارج تدلّ على أن للقصة أصلاً، وبعد أن ذكر أن ثلاثة أسانيد من رواية القصة على شرط الصحيح وأنه يحتج بها من يحتج بالمرسل ومن لا يحتج به ـ: وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها ـ أي في قصة الغرانيق ـ مما يستنكر، وهو قوله: ألقى الشيطان على لسانه، تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس منه، وكذا سهواً إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته، قلنا: بل يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن سهواً كالعمد مطلقاً كانت الزيادة مغايرة لما جاء به من التوحيد أم لم تكن مغايرة، لأن العصمة فيما يبلِّغه عن الله تعالى عامة في العمد والسهو فيما وافق أو خالف، وإلا لارتفعت الثقة بسائر النصوص لجواز كون بعضها مما زيد سهواً.

ثم أخذ الحافظ ابن حجر يذكر التأويلات التي ذكرها المتأولون المثبتون للقصة الباطلة، وتبعهم في هذه التأويلات مَنْ ضعف عن حمل أمانة الحق ممن أنكروا القصة رواية ونظراً، ثم نكصوا على أعقابهم وذهبوا إلى التأويلات التي لا تتصل بنص الروايات كما سيأتي التنبيه على ذلك عند ذكر التأويلات وبيان فسادها. وكلام الحافظ ابن حجر في شأن أقصوصة الغرانيق الباطلة تضمَّن أمرين يرى البحث إبرازهما ليتبين الناظر فيه أنّ ابن حجر لم يقرر صحة هذه القصة الباطلة، وإنما نظر إلى روايات فأوهنها وحكم بضعفها، ولم يكن تشبثه بحديث ابن جبير عن ابن عباس مفيداً في نقض توهينه الروايات وإضعافها لأنه لاحق بها في الضعف بمقتضى ما دخله من الشك في وصله بابن عباس.

وليتبين الناظر في البحث أن ابن حجر يرى في القصة ما هو محال أن يقع من رسول الله ﷺ وهو الزيادة في القرآن عمداً أو سهواً، بيد أنه لم يشأ أن يقف عند هذه النتيجة التي كانت أمراً طبيعياً يسوق إليها البحث العلمي وينتهي بها إلى أن هذه الأقصوصة أكذوبة زندقية باطلة، ما كانت تستحق أن تجول ساحبة ذيولها في ساحة سيرة سيد المرسلين محمد ﷺ، ولكنه خضع لقواعد الصنعة وراح يتشبث بالتأويل فيما رآه محالاً، وحكى من ضروب هذا التأويل أقوالاً كلها بعيدة عن نص روايات القصة، ويظهر أن أصحاب التأويلات التي حكاها ابن حجر لم يلتفتوا إلى الروايات التي هي محور الإثبات والنفي لأصل القصة، وإنما فرضوا القصة واقعة وراحوا يتأولون وقوعها بما ينظمها في سلك أحداث الإسلام وتبعهم ابن حجر على ذلك. فاللّهم غَفْراً.

رأي الإمام ابن تيمية
في أكذوبة الغرانيق

الشيخ الإمام ابن تيمية أحد أعلام علماء الأمة الإسلامية اطّلاعاً على التراث الإسلامي وعلوم الإسلام ومعارفه: كتاباً وسنة، وفقهاً، واجتهاداً، وتحصيلاً، رزق حافظة في علوم الإسلام وروايات آثاره لم يؤت مثلَها إلا أفراد قلائل في تاريخ العلم والعلماء، وقد أودع حصيلة هذه الحافظة اللاقطة مؤلفاته الكثيرة التي يشبه أسلوبه فيها أسلوب الأمالي، بكثرة ما يغلب عليها من الاستطراد لأدنى المناسبات.

وقد عرض الإمام ابن تيمية لقصة الغرانيق في فتاويه التي صب فيها صيِّب علمه الغزير، ومعارفه الواسعة، في صورة استطرادية يعوزها التحقيق المتأنِّي والمستوعب للأدلة والبراهين والأسانيد وتسمية القائلين، ومصادر أقوالهم وآرائهم، ولكن الشيخ الإمام ابن تيمية اعتصم في كلامه على هذه القصة التي تفوق أهمية تحقيقها ومعرفة مدخلها ومخرجها من أصول الإسلام وحياة الرسول ﷺ كل ما وقف عنده اجتهاد الشيخ الإمام وخالف فيه مَنْ خالف من علماء عصره وتحمل في سبيله المحن وشدائدها ـ بالعمومات يلقيها قضايا مسلّمة، وهي أحوج ما تكون إلى البحث والتمحيص.

وذلك مثل قوله: والمأثور عن السلف يوافق القرآن، دون أن يذكر مَنْ مِن السلف أثر عنه هذا القول وذهب إليه؟ والسلف هم أصحاب النبي ﷺ وهم عشرات الألوف ومئاتها والتابعون، وهم ألوف الألوف

وتابعوهم من أهل القرون الثلاثة الذين شهد بخيريتهم على سائر الأمة الصادق المصدوق في الحديث الصحيح، ودون أن يعين الشيخ موضع الموافقة من القرآن ويبين وجهها.

ومثل قوله: والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة (النجم) بقوله: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، دون أن يبين الشيخ مرجع الضمير في (قوله) والمعروف في روايات القصة الغرنوقية الكاذبة أن هذه الزيادة المزعومة هي قول الشيطان ألقاها ـ كما تزعم الروايات الباطلة ـ على لسان النبي ﷺ، وتلاها النبي ﷺ في آيات الله المنزلة عليه، واعتقد قرآنيتها، وسجد في آخر السورة وسجد معه من حضره من المؤمنين والمشركين حتى نزل أمين الوحي ونبَّهه إلى ذلك.

ومثل قوله: أما الذين قرروا ما نقل عن السلف، فقالوا: هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه، دون أن يبين الشيخ من هم الذين قرروا ما نقل عن السلف، وهم بالطبع ليسوا من السلف لأنهم قرروا ما نقل عن السلف، دون أن يبين من هم هؤلاء السلف الذين نقلوا أقصوصة الغرانيق الكاذبة نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه، أهم الصحابة نقلوها عن النبي ﷺ أو شهدوا وقوعها؟ أم هم التابعون وتلاميذهم نقلوها عن أصحاب النبي ﷺ؟ وكم من هؤلاء وهؤلاء الذين قالوا بوقوع هذه الأكذوبة ونقلت عنهم نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه؟ وما طريق ثبوت ما نقلوه؟ وروايات القصة كلها مراسيل، وليس فيها حديث قط مسند إسناداً متصلاً إلى رسول الله ﷺ أنه أخبر بذلك عن نفسه، وجميع مراسيل الرواية واهية واهنة، كما قرر ذلك علماء الأمة بل ثبت أن في بعض أسانيدها أكذب الكذّابين.

فيا ضيعة الإسناد الذي هو من أفخر مفاخر الأمة الإسلامية، ويا ضيعة ثبوت النقل، ويا ضيعة السنة النبوية إن كان نقل هذه الأقصوصة الخبيثة في مراسيلها الواهية الواهنة هو النقل الثابت الذي لا يمكن القدح فيه.

ومثل قوله: والقرآن يدل عليه ـ أي على النقل الثابت الذي لا يمكن القدح فيه ـ بقوله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنَّى ﴾ الآيات. وكون هذه الآيات الكريمات دالَّة على نقل الأكذوبة الغرنوقية هو موضع النزاع؛ فكيف يستدل به على النقل الثابت ثبوتاً لا يمكن القدح فيه؟ وأين في هذه الآيات الدلالة على النقل الثابت ثبوتاً لا يمكَن القدح فيه؟ والآيات ليس فيها رائحة دلالة على شيء من قصة الغرانيق من قريب أو بعيد، ولولا ما افتراه الزنادقة، وقبله البُله المغـرَّرون من روايات أسباب النزول ورووه في مراسيل كسيحة ألصقوها إلصاقاً بهذه الآيات، وحملوها على أسماء بعض أهل العلم ما كان للآيات الكريمات صلة بهذه الأقصوصة، فضلاً عن أن تدل عليها.

وقد فسَّر الآيات الكريمات كثير من جهابذة علماء الإسلام في تفاسيرهم المتداولة بين الأمة، ولم يظهر لهم قط حاجة إلى إلصاق القصة بتفسير الآيات، ومن هؤلاء المفسرين الجهابذة أبو حيان عصريٍّ ابن تيمية في تفسيره المسمى (بالبحر) ومنهم الإمام الشوكاني في تفسيره (فتح القدير)، ومنهم الإمام أبو بكر بن العربي في (أحكامه).

ومثل قوله: فقالوا ـ أي الذين قرروا ما نقل عن السلف ـ زعموا ـ الآثار في تفسيره هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير والحديث دون أن يبين الشيخ أين هي الآثار المعروفة الثابتة في كتب التفسير والحديث، هل يقصد الشيخ بهذه الآثار روايات أسباب النزول التي اشتملت على طامات الكفر والزندقة؟ إن كان هذا هو مقصود الشيخ فهذه الآثار قد زيَّفها الأئمة إسناداً ونظراً، وفيها مرويات الطبري عن بعض أسماء السلف، وهي روايات ـ كما قال ابن العربي ـ باطلة لا أصل لها أو هي آثار أخرى لا علم لأهل العلم بها؟.

هذه أمثلة من العمومات التي اعتصم بها الشيخ الإمام ابن تيمية في كلامه على قصة الغرانيق، عجَّلنا بها أمام سوق كلامه ومناقشته بشيء من التفصيل حتى يتبين الحق مشرفاً بنوره، ولا يحجبه دوي الشهرة عن إدراك البصائر.

عرض الإمام ابن تيمية في فتاويه لأقصوصة الغرانيق بصورة استطرادية، أقحمها في كلامه وهو يجيب على سؤال يتعلق بدعوة (ذو النون)، نبي الله ورسوله يونس بن متى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام، وهذه الدعوة المباركة هي ما حكاه الله عنه وهو في ظلمات بطن الحوت فقال تعالى: ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ إذْ تكلم الشيخ الإمام ابن تيمية على عصمة الأنبياء فقال فيما يتصل بإقحام القصة: والكلام في هذا المقام مبني على أصل وهو أن الأنبياء معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه كما قال تعالى: ﴿ قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدَوا وإن تولَّوا فإنما هم في شقاق، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ وقال: ﴿ ولكنّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ وقال: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾.

ثم قال الإمام ابن تيمية: وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة. . . والعصمة فيما يبلِّغونه عن الله ثابتة، فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين، ثم أكد الشيخ ذلك فقال: والذي عليه جمهور الناس وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقاً ـ أي من الكبائر والصغائر.

قلنا: وهذا الذي نسبه لجمهور الناس، وقال إنه الموافق للآثار المنقولة عن السلف دون أن يسمِّي أحداً من السلف ودون أن يذكر نصاً واحداً من هذه الآثار المنسوبة للسلف هو عين ما قاله في صدر كلامه عن العصمة فيما يبلِّغونه عن الله، فظاهر كلامه أنه لا يفرق بين العصمة فيما يبلِّغونه عن الله، وبين العصمة عن سائر الذنوب كبائرها وصغائرها، في أن

العصمة لا تتعلق بوقوع الذنب ولكنها تتعلق بعدم الاستقرار في ذلك الذنب، أو عدم الإقرار عليه، وظاهر أن عدم الاستقرار في الخطأ، أو عدم الإقرار عليه لا يمنع الوقوع في الخطأ، ويؤيد ذلك أن القائلين بوقوع قصة الغرانيق ـ والشيخ مقرر لمذهبهم ومُسْنِدُه إلى السلف ـ زعموا أن الخطأ وقع فيما يبلِّغ عن الله، ولكنه لم يستقر بعد وقوعه، فليست للأنبياء عصمة تمنع من وقوع الخطأ، ومعنى هذا أن الأنبياء والرسل غير معصومين من وقوع جميع الذنوب كبائرها وصغائرها، سواء كان ذلك فيما يبلِّغونه عن الله أم كان في غير ما يبلِّغونه من سائر المعاصي والآثام، الكفر والكذب فما دونهما، وإنما هم معصومون من استقرار ما يقع من ذلك، فالذنوب على الإطلاق كبائر أو صغائر يجوز أن تقع منهم ويظلون على الخطأ الذي وقع منهم زمناً قد يطول أو قد يقصر، وهم في ذلك مبلِّغون لرسالات الله، آمرين بطاعته، ناهين عن معصيته، وهم متلبِّسون بما وقع منهم من خطأ في البلاغ أو في غيره حتى يُنبَّهوا ويرفع استقرار الخطأ.

وهذا من أبطل الباطل الذي لا يقول به قط أحد من أهل العلم في أمة الإسلام، لا من السلف ولا من الخلف، إلا هؤلاء الذين أُدخلت أكذوبة الغرانيق عليهم فصدَّقوها واعتقدوا وقوعها، وهي باطلة إسناداً ونظراً، بل هي من أكفر الكفر.

لكن الشيخ الإمام ابن تيمية يؤكد رأيه في أن العصمة للأنبياء والمرسلين إنما تكون عن استقرار الخطأ الذي يقع منهم، لا عن وقوعه فيقول: وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت إنما تدل على هذا القول.

قلنا: وهذا ادّعاء يفقد سنده من البرهان، لأن النظر في أقوال أعلام العلماء من الذين يقولون بالعصمة من السلف والخلف يفيد صراحة بأن العصمة ثابتة للأنبياء والمرسلين منذ اللحظة التي ينبئون فيها عن وقوع الخطأ منهم فيما يبلغونه عن الله تعالى، لا عن استقرار الخطأ بعد وقوعه ـ ـ كما يزعم الشيخ الإمام ـ، وهذا موضع اتفاق بين الأمة قاطبة ولم يعرف لأحد من أهل العلم خلاف في ذلك إلا خلاف الذين خُدعوا فتعلقوا بما

نسب لبعض أسماء من السلف ـ وهم منه براء ـ في إثبات الزيادة في سورة (النجم) بإلقاء الشيطان بعض كلمات الكفر والشرك على لسان النبي ﷺ في روايات مرسلة ليس فيها رواية واحدة مسندة إلى النبي ﷺ، ولا إلى أحد من أصحابه سوى حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقد دخله الشك بقول سعيد: (فيما أحسب) عن ابن عباس، وهذا الشك ألْحق هذا المرسل بأخواته وَهْناً وضعفاً، فلم تبق له قوة الاحتجاج به عند من يقول بالاحتجاج بالمرسل، ولا عند من لا يقول بالاحتجاج به.

وهذا الخلاف في الاحتجاج بالمرسل إنما هو في أحكام الفروع، لا في أصول العقائد التي تدخل قصة الغرانيق في صميمها، وإنما الخلاف بين علماء الأمة في العصمة عن الخطأ في سائر الذنوب والمعاصي سوى التبليغ عن الله، وسوى الكفر والكذب في الأخبار، فهذه الذنوب كبائرها وصغائرها هي التي تنازع الناس في العصمة عنها، فقال الجمهور: هم معصومون بعد النبوة عن سائرها فلا تقع منهم قط، وقال فريق: هم معصومون من الاستقرار عما يقع منها لا عن وقوعها، وهذا تقرير لنظرية العصمة عن الخطأ في غير ما يبلغونه عن الله، وفي غير الكفر والكذب في الأخبار التي اتفقت كلمة الأمة على عدم وقوعها منهم، وتقرير النظرية لا يلزم منه الوقوع في الخطأ إذْ لا يلزم من جواز الوقوع الوقوع بالفعل، وتاريخ النبوات وحياة الأنبياء أصدق شاهد على ذلك.

قال أهل العلم: لو وقع من الأنبياء والمرسلين الخطأ فيما يبلِّغونه عن الله تعالى، أو وقع الكذب في الإخبار عن الله، بالزيادة أو النقص فيما أوحي إليهم لدخلوا تحت قوله تعالى: ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ فهذا صريح في العصمة عن وقوع الخطأ فيما يبلغونه عن الله أو يخبرون به من الوحي، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته ﴾.

فوقوع الزيادة فيما يبلغ عن الله تعالى أو النقص منه افتئات على الله

وعدم تبليغ لما أنزل إليه من ربه، يجعله غير مبلِّغ لرسالة الله لأنه بلَّغ شيئاً آخر لم يوح به إليه ولم ينزل من ربه، وإذا وقع هذا الخطأ ولم تمنع العصمة منه ـ والأمة مكلفة أن تقتدي بالنبي فيما يبلِّغه عن الله وأن تتأسى به في اعتقاد ما يبلِّغه وأن تعمل به متبعة له ـ كان ذلك دعوة إلى العمل بالخطأ الذي قد يكون كفراً ومناقضة لأصل الإيمان، كالزيادة في الوحي قرآناً أو غير قرآن من كل ما يناقض مقصود الرسالة حتى يتنبه النبي إلى ذلك الخطأ ويرفع استقراره الذي هو متعلق العصمة، وهـذا التنبيه إلى أن يـرفع استقرار الواقع لا يدري متى يكون، فقد يطول الزمن قبل مجيئه وقد يقصر، وإذا طال الزمن شيئاً فقد تعبَّدت الأمة في عقيدتها وشرائع إيمانها بالباطل مدة هذا الزمن الذي يسبق التنبيه ويرفع الاستقرار في الخطأ وهذا هدم لبنيان الرسالة من أساسه، ثم إذا جاء التنبيه لرفع استقرار الخطأ فبأي وسيلة تقع الثقة في أن هـذا التنبيه على رفع استقرار الخطأ ليس خطأ ملبَّساً به على النبي كما لُبِّس عليه في وقوعه؟.

ثم سأل الإمام ابن تيمية نفسه سؤالاً فقال: ولكن هل يصـدر ما يستدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته؟ قلنا: وهذا من الشيخ الإمام صَمْد إلى قرع باب أقصوصة الغرانيق دون تمهيد، وهو تشكك فيما قرر من أن العصمة إنما تكون عن الاستقرار في الخطأ لا عن وقوع الخطأ، وهو مقتض لجواز وقوع ما يستدرك من الخـطأ في التبليغ ليـرفع استقراره بالنسخ وإحكام الله آياته؛ فلا وجه معه لهذا السؤال إلا التأكيد لإزالة التشكك، والصَمْد إلى تقرير وقوع أكذوبة الغرانيق.

وهذا السؤال من الشيخ الإمام ابن تيمية وثبة إقحامية يَندّ عنها كلام الشيخ الإمام، وإلا فما وجه الصلة بين تقريره أن الأنبياء معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى، وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ـ وهذا حق يجب اعتقاده والإيمان به ـ وبين قوله: ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان، ويحكم الله آياته وهو نص في القصد إلى أقصـوصة الغرانيق؟ واتفاق الأمة على عصمة الأنبياء فيما يخبرون به عن الله وفيما

يبلغونه عنه ـ الذي ذكره الإمام ابن تيمية ـ إنما هو في وقوع الخطأ لا في الاستقرار عليه فالأمة متفقة على أنه يستحيل أن يقع من الأنبياء خطأ فيما يبلِّغونه عن الله بالزيادة أو النقص، فجعل العصمة التي هي محل اتفاق الأمة مانعة من الاستقرار في الخطأ وليست مانعة من وقوعه رأي لم يُعرف لأحد من أهل الحق في الأمة لا من السلف ولا من الخلف.

ويظهر من إقحام الشيخ الإمام ابن تيمية لقصة الغرانيق الباطلة في كلامه على عصمة الأنبياء أن جعل العصمة مانعة من الاستقرار في الخطأ وغير مانعة من وقوعه رأي يتسنى به تقرير وقوع قصة الغرانيق، ولذلك دلف إليها من هذا السؤال الذي سأله نفسه وهو قوله: (ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ الله ما ألقى الشيطان، ويحكم الله آياته) وزعم الشيخ الإمام أن المأثور عن السلف يوافق القرآن في ذلك ـ أي في وقوع الخطأ وصدوره من الأنبياء في التبليغ فيستدركه الله وينسخ ما يلقي الشيطان، ثم يحكم الله آياته، وهذا كلام يستدعي سؤالاً مَنْ مِن السلف أثر عنه هذا الرأي؟ والسلف هم ـ كما هو معروف ـ أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون وأتباعهم الذين شهد بخيريتهم الصادق المصدوق في حديث (خير القرون)، وهؤلاء جم غفير يزيدون على مئات الألوف، أفلا كان من وثاقة العلم وصحة النقل تسمية عدد من هؤلاء السلف الذين زُعم عليهم أنه أثر عنهم ذلك الرأي؟ وسؤال آخر أين هي موافقة القرآن لهذا الزعم الذي لم يستند إلى نص صحيح، وكلام الشيخ الإمام يدل على أن المقصود بموافقة القرآن ما جاء في مراسيل الروايات التي زعم لها أنها وردت في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ الآيات، وهي روايات واهية واهنة ضعيفة، بل باطلة مكذوبة حُملت حملاً على بعض أسماء من السلف، وقبلها بعض أهل الغفلة والبله، والمتعصبون من أهل الاجتهاد المتأخر.

ويرشح استدلالنا قول الإمام ابن تيمية: والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة (النجم) ـ نعوذ بالله من تلبيس الشياطين ـ بقوله ـ أي الشيطان: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن

لترتجى، وقالوا: إن هذا لم يثبت ـ وحق له أن ينكر ـ ومن علم أنه ثبت قال: هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم، ولم يلفظ به رسول الله ﷺ ـ. ولكن مراسيل الغرانيق وأخصها وأصحها في نظر من قَبِل الأكذوبة الخبيثة حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس تقول: إن الشيطان ألقى كلماته الكافرة الخبيثة على لسان النبي ﷺ، وأنه ﷺ تلاها فيما تُلي من آيات سورة (النجم) حتى ختم السورة وسجد وسجد معه من حضره من المؤمنين والمشركين، فمن أين للشيخ الإمام ابن تيمية قول من ثبتت عنده هذه الزيادة الخبيثة أنها ألقيت في مسامعهم ولم يلفظ النبي ﷺ بها، والروايات المزعومة كلها تذكر ما نقلناه من حديث سعيد بن جبير، وإذا كان النبي ﷺ لم يلفظ بهذه الزيادة الخبيثة الكافرة ـ وهو الحق الذي لا مرية فيه ـ فكيف كانت هذه الكلمات الشيطانية زيادة في سورة (النجم) والنبي ﷺ إنما تلا السورة كما أنزلها الله عليه، لم يزد فيها حرفاً، بَلْه كلمة، بَلْه كلمات خبيثة؟ ثم كيف يكون كلام شيطاني لم يلفظ به النبي ﷺ قط خطأ ينسب للنبي ﷺ، ويقال إنه زيادة في آيات القرآن يستدركها الله تعالى بالنسخ ويحكم آياته، وآياته محكمة، تلاها رسول الله ﷺ كما أنزلها الله تعالى، لم تقع فيها زيادة حرف واحد، بَلْه كلمات خبيثة كافرة، ويقال إنه خطأ وقع من النبي ﷺ ثم يستدركه الله تعالى بالنسخ؟ هذا منطق عجيب لا يعرفه منهج الإسلام ولا ندري ما الذي حمل الشيخ الإمام ابن تيمية ـ في واسع علمه ـ على إقحامه أكذوبة الغرانيق في كلامه على عصمة الأنبياء دون أن تقتضيها مناسبة أو تدعو إليها ضرورة، وهو يعلم ـ كما نظن ـ أنها أقصوصة كاذبة لم تثبت بسند متصل خال من الوهن والضعف عن صاحب ولا تابع إلا ما جاء في مراسيل باطلة مضطربة متضاربة في أسلوبها ومعانيها، حُملت حملاً على بعض أسماء التابعين، والشيخ الإمام ابن تيمية لا يقول إن الزيادة المزعومة على سورة (النجم) تَلَفَّظ النبي ﷺ، وإنما ألقيت في أسماع الكافرين إلقاء، وإذا كان هذا هكذا عند الشيخ فما وجود قصة الغرانيق وإثباتها عن السلف، وهي لا وجود لها بالنسبة للنبي ﷺ، أفما كان يجب إغفالها والاستهانة بها وعدم تحميل السلف ثقل إثباتها والطنطنة حولها؟.

ولكن الشيخ الإمام ابن تيمية يأبى إلا الإمعان في إثبات هذه الأكذوبة وإسناد إثباتها إلى السلف، فيقول ـ بعد أن وقف وقفة عند تفسير (تمنى وأمنيته) في اللغة بما حققنا القول فيه في كلامنا مع الحافظ ابن حجر ـ: وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا: هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه.

قلنا: هذا من أعجب العجب، فما هو هذا المنقول نقلاً ثابتاً عن السلف الذي لا يمكن القدح فيه؟ إن كان هذا المنقول عن السلف ولا سند له هو أن الشيطان ألقى في مسامع أوليائه من المشركين والوثنيين كلماته الخبيثة الكافرة، ولم يلفظ النبي ﷺ قط بها لأنه معصوم عن الزيادة فيما يبلغه عن الله تعالى، ولا سمعها المؤمنون، وهذا على خلاف ما جاءت به مراسيل الروايات المسندة إلى بعض السلف، فلا وجه قط للكلام على أكذوبة الغرانيق وإثباتها أو عدم إثباتها، لأنها حينئذ لا وجود لها بالنسبة لآيات القرآن، ولا بالنسبة للنبي ﷺ وعصمته، وإن كان هذا المنقول عن السلف نقلاً ثابتاً هو الذي جاءت به المراسيل الواهنة الواهية من أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ وهو يتلو سورة (النجم) كلماته الغرنوقية، والنبي ﷺ تلفَّظ بها وتلاها زيادة على ما أنزل من آيات السورة، وهو مخالف أتم المخالفة لما قال الشيخ الإمام ابن تيمية من أن الشيطان ألقى في مسامع أوليائه المشركين والنبي ﷺ لم يتلفظ بهذه الزيادة المزعومة على ما هو المنسوب إلى الذين قرروا ما نقل عن السلف ـ فهذا نقل يحتاج إلى إثبات، ولا إثبات له فهو باطل، وإلا فأين هو النقل الثابت الذي لا يمكن القدح فيه؟ أهو في هذه المراسيل الكسيحة الواهية التي جاءت بالطامات الهادمة لأصل من أصول الدين والرسالة، الطاعنة في عصمة النبي ﷺ، وفي الثقة فيما يبلِّغه عن الله؟ وهي روايات مطعونة في أسانيدها، لم يروها قط أحد من أهل الصحة.

ثم قال الشيخ ابن تيمية: والقرآن يدل عليه ـ أي على هذا النقل الثابت عن السلف الذي لا يمكن القدح فيه ـ بقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا

من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾ الآيات إلى قوله ﴿ صراط مستقيم ﴾ فقالوا ـ أي الذين قرروا ما نقل عن السلف المزعوم عليهم إثبات وقوع قصة الغرانيق في أبشع صورها ـ: الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة، في كتب التفسير والحديث.

قلنا: المذكور في الآثار المحمولة على بعض أسماء السلف ليس منها شيء قط في تفسير الآيات المذكورة، وإنما المزعوم لها أنها أسباب نزول الآيات، وفرق كبير جداً بين سبب النزول الذي يتعلق بحادث تنزيل الآية لبيان حكمه أو حاله، وبين تفسير الآية الذي يقصد إلى بيان حقائقها ومعانيها وأحكامها وتركيب ألفاظها وبراعة أسلوبها، والمعروف المستفيض عن الإمام أحمد بن حنبل وهو إمام الشيخ ابن تيمية درج على مذهبه وتمسك باجتهاده، وإن استقل في بعض المسائل: أن أسباب النزول مما لا أصل له.

والمذكور في جميع المراسيل المزعومة على السلف إسناداً هو أكذوبة الغرانيق بصور مختلفة مضطربة بالزيادة أو النقص والتحريف، ثم تقول الرواية: فنزلت الآية، ولا يمكن أن يعتبر سوق قصة ما صحيحة أو فاسدة تفسيراً للآية التي كانت القصة سبباً لنزولها.

وما الذي يعنيه الشيخ الإمام ابن تيمية بكتب التفسير والحديث التي ثبتت فيها هذه الآثار ثبوتاً لا يمكن القدح فيه؟ أهي كتب غير الكتب التي روت المراسيل الواهية الواهنة الباطلة التي لم يعرفها علماء الإسلام وانفرد بمعرفتها الشيخ ولم يسمِّ منها شيئاً يستدل به على وزنه بين دواوين التفسير والحديث؟ أم هي تلك الكتب نفسها التي روت أباطيل المراسيل في إثبات قصة الغرانيق الكاذبة؟ وهذه المراسيل كلها مطعون فيها إسناداً من أهل العلم بالرجال جرحاً وتعديلاً، وقد وجد في بعض أسانيدها أكذب الكاذبين وفي بعضها من قيل في مراسيله إنها ريح.

ثم قال الإمام ابن تيمية: والقرآن يوافق ذلك، فإن نسخ الله لما

يلقي الشيطان وإحكامه آياته إنما يكون لرفع ما وقع في آياته، وتمييز الحق من الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها، ولم يلفظ به النبي ﷺ كما هو منزع ابن تيمية.

قلنا: إذا كان ما ألقاه الشيطان إنما كان ألقاه في أسماع أوليائه من المشركين ولم يكن ألقاه على لسان النبي ﷺ وتلاه فيما تلي من آيات السورة - كما هو صريح رواية المراسيل الواهية الواهنة المسندة إلى بعض السلف - فما الحاجة إلى نسخ كلام لم يلفظ به النبي ﷺ، ولم يدخل في آيات الله؟ وآيات الله على هذا النزع محكمة لم يدخلها من الباطل ما يحتاج إلى نسخ.

ومن ثم يجب أن يفهم من آيات الله في قوله: ﴿ثم يحكم الله آياته﴾ أنها ليست هي الآيات المتلوة من القرآن والمنزلة للتعبد بتلاوتها والتدبُّر في حِكَمها وأحكامها والعمل بشرائعها، لأن هذه الآيات محكمة محفوظة عن العبث فيها بالزيادة أو النقص، والتحريف والتبديل، بمقتضى وعد الله في قوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ إنما المراد بآيات الله دلائل توحيده، وبراهين كمالات إلهيته، وصدق رُسُلِه، وتصديقهم بما يجريه على أيديهم من المعجزات الباهرات، وهي الآيات التي يلقي الشيطان في طريق دلالاتها على ما أنزلت فيه شبهه وأباطيله وضلالاته ووسوسته، ولا شك أن أمنية كل رسول هي إسلام قومه، كما فسرها ابن عباس في حديث عبد بن حُمَيد - فهي إرادته ورغائبه واشتهاؤه، ونسخ ما يلقي الشيطان من الشبهة والأضاليل في قلوب أوليائه من المشركين أو في قلوب ضعفاء الإيمان، وهو إبطال ذلك وإزالته بتقوية حجج الإيمان ودلائل النبوة والرسالة وإحكام آيات الله هو علو كلمة الله وإظهار براهينها بما يشاء من حكمته على وفق علمه المحيط وجلال عزته لأنه عليم حكيم عزيز.

العقل والنقل متطابقان على أنه لا سبيل للشيطان إلى التسلط على أنبياء الله ورسله

والنصوص الناطقة دلَّت عقلاً ونقلاً على أنه لا سبيل للشيطان قط على أنبياء الله ورسله لعصمتهم من تسلطه عليهم.

أما من جهة العقل فلأن الأمة مأمورة بالإجماع بمتابعة الرسل فيما يبلغونه لها عن الله تعالى، فلو لم يكن الرسل معصومين عن تسلط الشيطان وتلبيسه عليهم لجاز أن يدخل عليهم من الباطل والضلال والكفر ما ينقض ما جاؤوا به من الحق والتوحيد والهدى، وحينئذ بمقتضى وجوب عموم اتباعهم فيما جاؤوا به تكون الأمة مأمورة باتباعهم فيما ألقاه الشيطان إليهم من الباطل والضلال والشرك والكذب، حتى يرفع استقرار هذا الضلال بتنبيههم إلى أن هذا من عمل الشيطان وليس من عند الله، وكون الأمة مأمورة باتباعهم على هذا الباطل ينقض رسالاتهم من أساسها محال لأنه يناقض تمام المناقضة أصل رسالاتهم.

وأما من جهة النقل، فلقوله تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ وقوله حكاية عن إبليس في نفيه استطاعة التضليل لعباد الله المخلَصين: ﴿ إلا عبادك منهم المخلَصين ﴾ وبإزالة هذه الوساوس الشيطانية والشبه الإضلالية يتميز الحق وهو ما جاءت به الرسل من الهدى والتوحيد عن الباطل وهو ما يلقيه الشيطان من الوسوسة والأباطيل في أنفس المشركين والذين في قلوبهم مرض ليصدهم عن قبول الحق، وفي صدور ضعفاء المؤمنين ليشككهم في عقائد التوحيد والإيمان والهداية، وبهذا التمييز لا تختلط آيات الله ودلائل توحيده وبراهين صدق أنبيائه ورسله ومحكم شرائعه بغيرها من أباطيل الشُّبَه الشيطانية. ثم قال الإمام ابن تيمية: وجعل ما ألقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم إنما يكون إذا كان ذلك ظاهراً يسمعه الناس لا باطناً في النفس.

قلنا: إذا كان ما ألقاه الشيطان إنما ألقاه في أسماع أوليائه من الكفرة الفجرة، ولم يلفظ به النبي ﷺ لعصمته عن تلبيس الشيطان ـ كما هو منزع الإمام ابن تيمية ـ وقد وقعت الفتنة بما سمعوه وهم بمعزل عن إحكام آيات الله ـ فلا قيمة لنسخ ما ألقاه الشيطان في مسامعهم، ولم يختلط بآيات الله الموحَى بها إلى الرسول لصونها وإحكامها عن زيادة الشيطان.

على أن قول الشيخ الإمام ابن تيمية: وجعل ما ألقى الشيطان فتنة

للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم إنما يكون إذا كان ظاهراً يسمعه الناس لا باطناً في النفس، دعوى مجردة من الدليل، لأن ما يلقي الشيطان من الشبهة والأضاليل في قلوب أعداء الإسلام أشد فتنة للقاسية قلوبهم من المشركين المعاندين والذين في قلوبهم مرض من المنافقين، لأن الشبهة والأضاليل تؤثر في القلب وتغطِّيه بالران وظلمة الكفر وحيرة الشك وتؤثر في العقل فتفسد إدراكاته، وأما ما يسمع ظاهراً ففتنته ضعيفة موقوتة بسماعه والسماع لا يستقر أثره، بل يذهب مع تيارات النسيان، ونزغات الشيطان.

ثم قال الإمام ابن تيمية: والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التي تحصل من نوع آخر من النسخ، وهذا النوع ـ أي الفتنة بإلقاء الشيطان في قراءة النبي ﷺ كلمات الكفر ومدح الأوثان، ثم نسخ ذلك بعد زمن قد يطول وقد يقصر ـ أدلّ على صدق الرسول، وبعده عن الهوى من ذلك النوع ـ أي النسخ الاصطلاحي المعروف في أصول الفقه المتفق على جوازه ووقوعه من جمهور الأئمة ولم يخالف فيه جوازاً أو وقوعاً سوى شذوذ من الناس، وقد شهر بهذه المخالفة أبو مسلم الأصفهاني ومن تقيَّله من المتأخرين.

وهذا النوع هو المعروف بإزالة حكم شرعي بحكم شرعي آخر لحكمة تشريعية؛ كتخفيف الحكم الأول، أو انتهاء زمن العمل به، أو زوال أثر الحكم الأول، أو كون الحكم الثاني أزجر منه عند كثرة الفساد وشيوعه.

قلنا: إن جعل نوع نسخ ما ألقاه الشيطان من كلمات الكفر أدلّ على صدق الرسول من نوع النسخ الاصطلاحي أمر عجيب في قياس الاستقامة العلمية ومنطق العقل، وإلا فكيف يكون نسخ ما ألقى الشيطان من كلمات الشرك والكفر على لسان النبي ﷺ في قراءته لآيات الله بعد استقراره زمناً ما ـ وهو محال ـ أدل على صدق النبي ﷺ وبعده عن الهوى، وهذا النسخ بهذا المعنى يدل على أن النبي ﷺ قبل من الشيطان كلمات الكفر وأدخلها في آيات الله على أنها وحي الله تعالى وقرآنه، واستقر عنده

زمناً حتى نسخ وأزيل بوحي جديد!! ولو صحّ هذا وما زعمه الغرنوقيون ـ فماذا بقي للنبي ﷺ من معالم العصمة وثقة الأمة المأمورة بمتابعته في جميع ما يبلغه عن الله تعالى؛ وقد بلَّغها هذا الكفر الخبيث في زعم الغرنوقيين القائلين بثبوت أكذوبة الغرانيق كما جاءت بها المراسيل الواهية الباطلة، وما هو الضمان عند الأمة في أن تقبل وتصدق أن الوحي الناسخ لأكذوبة الشيطان هو وحي صادق من عند الله وليس من تلبيس الشيطان، وما هو الضمان عند الأمة فيما ينزل على النبي ﷺ بعد ذلك من الوحي لتتقبله وتتمثل لإحكامه تحقيقاً لوجوب المتابعة؟.

أما نسخ حكم شرعي بحكم شرعي آخر لحكمة اقتضت ذلك وكلاهما ـ بالقطع ـ من عند الله فهو الدال على صدق النبي ﷺ وبعده عن الهوى؛ لأن الناسخ والمنسوخ كلاهما من عند الله تعالى بوحيه القاطع بلا افتراء، وكلاهما شرع صادق واجب الامتثال في زمنه، وليس للشيطان فيه أي مدخل، والنبي ﷺ متبع في هذا النوع من النسخ أمر الله تعالى محقق لقول الله: ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ وقوله: ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾.

ثم قال الإمام ابن تيمية: فإنه ـ أي الرسول صلوات الله عليه وسلامه ـ إذا كان يأمر بأمر ثم يؤمر بخلافه وكلاهما من عند الله وهو مصدق في ذلك، فإذا قال عن نفسه: إن الثاني هو الذي من عند الله وهو الناسخ، وإن ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك كان أدل على اعتماده للصدق وقوله الحق.

قلنا: هذا الكلام مغلق غامض، بل ظاهر التناقض، فعبارة الشيخ الإمام السابقة تقرر أن نوع النسخ فيما يلقيه الشيطان أدل على صدق النبي ﷺ وبعده عن الهوى، وعبارته هنا تقرر أن النبي ﷺ يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه، وكلاهما من عند الله، وهو مصدق في الأمرين ـ هذا مسلم في نوع النسخ الشرعي الذي هو إزالة حكم شرعي بحكم شرعي آخر لحكمة مقتضية لذلك.

أما نوع النسخ الذي أزال فيه الوحي الصادق حكماً شيطانياً بحكم إلٰهي منزل من عند الله ـ في زعم مثبتي أكذوبة الغرانيق ـ فإن النبي ﷺ لم يأمر فيه بأمر ثم أمر بخلافه، وإنما الذي زعمه مثبتو أكذوبة الغرانيق الخبيثة الباطلة أن الشيطان هو صاحب الأمر الأول بإلقائه ـ كما تقول روايات الأكذوبة ـ على لسان النبي ﷺ كلمات أخبث الكفر وأن النبي ﷺ قبل ذلك، وتلاه فيما تلا من آيات الله، واستقر ذلك عنده اعتقاداً حتى سجد في آخر السورة وسجد معه المشركون تعظيماً لآلهتهم التي مدحت بهذا الكلام الخبيث حتى نزل ملك الوحي بعد مضي قدر من الزمن، فاستقرأ النبي ﷺ آيات السورة التي جاء بها إليه فقرأ النبي ﷺ وزاد ـ في زعم مثبتي أكذوبة الغرانيق ـ كلمات الشيطان في مدح الأوثان، فنبهه جبريل عليه السلام وقال له: هذا من الشيطان فكيف ينسب للنبي ﷺ وهو المحفوظ بالعصمة من تلبيس الشيطان أنه يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه في قصة الغرانيق الكاذبة الباطلة؟ وكيف يكون مصدقاً في الأمرين؟ الأمر الأول، وهو زعم إلقاء الشيطان على لسانه أخبث الكفر، والأمر الثاني وهو إزالة هذا الضلال الكفور الذي يستحيل أن يكون النبي ﷺ قاله بَلْه أمر به، وإذا صدق في الأمرين في أكذوبة الغرانيق، فماذا يبقى له ﷺ من الثقة به في النفس لتتلقى عنه ما يبلغه من رسالته عن الله تعالى من الهداية؟.

وإذا قال بعد ذلك أنه أمر بالأمرين: أمر الحق الذي أزال به ما ألقاه الشيطان، وأمر الباطل الذي لبَّس به عليه الشيطان أن الأمر الثاني ـ أي الناسخ لما ألقاه الشيطان من الكفر والضلال هو من عند الله وأن الأمر الأول المنسوخ ليس كذلك ـ أي ليس من عند الله ـ فكيف يكون ذلك أدل على اعتماده الصدق وقوله الحق، ولا شك أن الأمر الأول كذب وافتراء على الله تعالى يستحيل وقوعه من النبي ﷺ.

فإذا قال الغرنوقيون أنه قد وقع فقد نسبوا الكذب المتعمد على الله إلى النبي ﷺ فيما بلَّغه عنه، فأين الصدق الذي يدلّ عليه؟ وإذا نسب إليه ﷺ الكذب في الأمر الأول المنسوخ فما برهان صدقه في الأمر الثاني

وهو الناسخ الذي نزل لمحو الباطل، وأنه ليس من عند الله، وإنما هو من عمل الشيطان وتلبيسه.

هذه كلها أباطيل حيكت من نسج الزندقة وأخبث الكفر، وخدع بها الأغرار ـ إن صحت بعض روايات المراسيل في أكذوبة الغرانيق ـ فكيف قبلها الشيخ الإمام ابن تيمية، وهو صاحب الرسوخ في فقه الرواية ونقد الأسانيد؟.

وقد انتهى الشيخ الإمام ابن تيمية إلى القول بأن الذين يثبتون العصمة بمعنى عدم وقوع الذنب من الأنبياء والمرسلين ولا سيما فيما يبلِّغونه عن الله تعالى تأولوا بمثل تأويلات (الجهمية) و(القدرية) و(الدهرية) لنصوص (الأسماء والصفات) ونصوص (القدر) ونصوص (المعاد)، بل أوسع الشيخ في التهمة للنافين وقوع الذنب من الأنبياء والرسل فرماهم (بالقرمطة) إلى أن قال: وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم، ويريد الإيمان بهم فيقع في الكفر بهم.

وتهمة (الجهمية) و(القدرية) و(القرمطة) تهمة تقليدية شائعة، ولا سيما في عصر الشيخ الإمام ابن تيمية على ألسنة المنتحلين لطريقته ومذهبه، يُرمى بها كل من يفهم نصوص الأسماء والصفات فهماً تنزيهياً يليق بجلال الله وكمال ألوهيته.

وإنما عرضنا رأي الشيخ الإمام وناقشناه مناقشة تفصيلية بعدما منّ الله به في إبطال أقصوصة الغرانيق، لأن دوي سمعة الشيخ وهالات الإجلال من حوله جعل كثيراً من الناس لا يتفقهون فيما قيل، ولكنهم يكتفون بمن قال، فأردنا أن ننبه على ما في إثبات أكذوبة الغرانيق من خطورة على العقيدة التوحيدية التي كان الشيخ الإمام أحرص عليها، وعلى دعائمها بنى مريدوه والآخذون بآرائه مجده التاريخي بين أعلام أئمة علماء الأمة.

وقد ناقشنا رأي الشيخ الإمام في أقصوصة الغرانيق ـ مناقشة بحث

علمي وهي أشد هدماً للعقيدة التوحيدية من كثير من القضايا والمسائل التي قُرِن بها اسمه في اجتهادياته، ولقي في سبيلها كثيراً من البلاء والمحن ـ لئلا يقع في خطئها من يتمسك بالتقليد والاغترار بهالات الأسماء.

والبحث العلمي لا يقف هيَّاباً لهالات الأسماء وإنما يقف مع الحجة والبرهان، وقد حُذِّرنا من زلّة العالم، وعثرةُ الأكابر لالعاً لها، والله يهدي من يشاء وإليه المصير.

جرأة ورأي متزيِّد أهوج
للمدعو إبراهيم الكوراني

للشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني أحد علماء القرن الحادي عشر الهجري رأي متزيِّد جريء أهوج حاول فيه تصحيح قصة الغرانيق الكاذبة الباطلة حتى كأنه هو واضعها، لم يكتف فيه بالبحث في أسانيد روايات القصة كما صنع غيره من مثبتيها، ولم يبال بما تؤدي إليه من معان خطيرة في سيرة سيد المرسلين، ولكنه تزيَّد باجتهاده، متعالماً، واختلق للقصة سبباً وحكمة لم يسبقه إليهما أحد من أهل العلم في ملة الإسلام، زعم أنها وقعت لهذا السبب بتلك الحكمة، وخف على نفسه ودينه أن يقيم منهما حَكَمًا على النبي ﷺ، ليكشف أنه ﷺ كان مفتقراً إلى (التأديب) لأنه افتات على إرادة الله وقدره، فأراد إيمان الناس جميعاً، والله لم يرد ذلك ولا قدّره، فكان - ﷺ - محلاً للتأديب والتصفية من آثار هذه الإرادة حتى تفنى إرادته في أرادة الله تعالى، فلا يريد إلا ما يريد الله ويقدِّره، فسلَّط الله عليه الشيطان ليغويه ويلقي على لسانه في أثناء تلاوته لآيات الله المنزلة من عند الله كلمات كافرة تمدح الأوثان، وتجعل منهم شفعاء لعابديهم، تُرْضى شفاعتهم وتُرْتجى، وإذا كان شيء غير أكفر الكفر يمكن أن يوصف به هذا الهوج الأحمق فليكن هذا الوصف مستعاراً لنعت موقف الكوراني، إبراهيم بن حسن، خاتمة المتزندقين في عصره.

فإذا قيل للشيخ إبراهيم الكوراني: إن الله تعالى عصم أنبياءه عن تسلط الشيطان عليهم وأخبر عن هذه العصمة في قوله تعالى: ﴿إن

عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾[1] وقوله تعالى حاكياً على لسان إبليس استثناءهم من إغوائه: ﴿ لأغوينّهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[2] قال في تأويل آيات الله في فلسفة متزندقة لم يجرؤ أحد من مثبتي أبطولة الغرانيق على القول بمثله: إن السلطان المنفي هو الإغواء، أعني التلبيس المخل بأمر الدين وهو الذي وقع الإجماع على أن النبي ﷺ معصوم منه، وأما الإغواء غير المخل بأمر الدين فلا دليل على نفيه ولا إجماع على العصمة منه. إذاً هناك إغواءان للشيطان في زعم هذا الكوراني، إغواء يخل بأمر الدين، وإغواء لا يخل بأمر الدين، قلنا: أليس هذا تحريفاً في تفسير آيات الله تعالى المنزّهة لعباده المخلَصين عن تسلط الشيطان عليهم بإغوائه وإضلاله وتلبيسه، والآيات مطلقة في نفي سلطان الشيطان وإغوائه والإطلاق هو اللائق بعصمة الأنبياء، فمن أين للشيخ الكوراني هذا التقسيم المخترق، الذي جعل من إغواء الشيطان إغواء مخلاً بأمر الدين، هو فقط محل العصمة عند الشيخ الكوراني، وإغواء لا يخل بأمر الدين فليس هو مخلاً لعصمة تمنع من وقوعه وتسلط الشيطان على الأنبياء به؟ ثم كيف يكون إغواء الشيطان غير مخل بالدين وعداوة الشيطان كلها للإنسان مرجعها إلى إفساد الدين بتزيين الكفر والفسوق والعصيان؟.

وإذْ فرض الشيخ الكوراني هذا التقسيم المبتدع واقعاً، فليكن شرعاً وديناً تسري أحكامه على الناس الأنبياء فمن دونهم، وليكن الإغواء الذي لا يُخلّ بأمر الدين ـ وإن كان لا وجود له في واقع الحياة ـ هو الذي لا تتعلق به العصمة، وبه يتسلط الشيطان عليهم فيغويهم ويضلهم ويلبّس عليهم، ويريهم أن الشيطان ملكَ، وأن الملك شيطان، وأن الأوثان آلهة تشفع لعابديها، وشفاعتها مرجوة مرتضاة.

وبهذا الإغواء ـ الذي لا يخل بأمر الدين ـ وقعت أخلوقة الغرانيق لتأديب النبي ﷺ على افتئاته على الله تعالى، وفرض إرادته في إيمان الناس

(١) سورة الحجر آية (٤٢).
(٢) سورة ص آية (٨٢ ـ ٨٣).

جميعاً، مراغمة لإرادة الله تعالى الذي لم يرد إيمان جميع الناس ولا قدره.

هكذا منطق فلسفة الشيخ إبراهيم الكوراني المتزندقة الذي أدار به الكلام في أكذوبة الغرانيق المتزندقة، فالشيطان أغوى سيد الخلق محمداً ﷺ إغواء لا يخل بأمر الدين، ولبّس عليه وأراه أنه أمين الوحي جبريل، وألقى على لسانه، وهو ﷺ يتلو آيات الله تعالى المنزّلة عليه في سورة النجم، كلمات أخبث الكفر، تمدح الأوثان، وتؤكد أن لها شفاعة مرجوة مرتضاة، فيتقبل النبي ﷺ هذه الكلمات الخبيثة الكافرة على أنها مما نزل عليه من آيات الله - من قبيل الإغواء الذي لا يخل بأمر الدين في شرعة الشيخ إبراهيم الكوراني - ويبقى النبي ﷺ على هذا الإغواء زمناً لا يُدرى مدى طوله، حتى ينزل عليه أمين الوحي جبريل فيستقرئه ما أنزله عليه من آيات الله، فيقرأ النبي ﷺ الآيات من أول سورة النجم إلى قوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ثم يقول بعدها: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، فيقول أمين الوحي جبريل: ما جئتك بهذا، هذا من الشيطان.

هذا هو الإغواء التي تزعم أخلوقة الغرانيق في رواياتها الباطلة أنه وقع للنبي ﷺ لتأديبه في نظر فلسفة الشيخ الكوراني، وأنه لم يعصم منه، لأنه إغواء لا يخل بأمر الدين في شرعة الشيخ إبراهيم الكوراني. وإذا كانت زيادة كلمات الكفر بأبشع صورة في آيات القرآن الكريم إغواء غير مخل بأمر الدين والنبي ﷺ غير معصوم منه، فأين الإغواء المخل بأمر الدين الذي يعصم منه؟.

وقد انفرد الشيخ إبراهيم الكوراني في سبيل تصحيح أكذوبة الغرانيق الباطلة بأمرين لم يقل بهما أحد من متقدمي أهل العلم ولا متأخريهم.

الأمر الأول: هذا التقسيم لإغواء الشيطان إلى إغواء لا يخل بأمر الدين، فلا يعصم منه الأنبياء فمن دونهم، وإغواء يخل بأمر الدين فيعصم منه الأنبياء، فالقسم الأول يكون للشيطان فيه سلطانه المطلق الذي يعبث

في العقائد والعبادات وسائر الفضائل يضل به الأنبياء فمن دونهم من خُلَّص المؤمنين، والقسم الثاني هو المنفي فيه سلطان الشيطان في القران الكريم، وهو الذي وقع الإجماع على أن النبي ﷺ معصوم منه.

الأمر الثاني: أن الشيخ إبراهيم الكوراني في سبيل تصحيح أكذوبة الغرانيق الباطلة ابتدع حكمة لوقوعها بصورتها التي حكتها الروايات الواهية الواهنة، ولا ندري ـ وهو العالم الذي يصفه العلاّمة الآلوسي بخاتمة المتأخرين ـ كيف خف على نفسه ودينه اختلاقها ورضيها على علمه ودينه لتصحيح أكذوبة ضالة مضلة كافرة خبيثة.

وكلام الشيخ إبراهيم الكوراني اعتمدنا في نقله ومناقشته على نقل العلاّمة المفسّر الجامع شهاب الدين محمود الآلوسي في تفسيره (روح المعاني) لأننا رأيناه يقول عنه (شيخنا)، ولكنه كان في سوق كلامه ومناقشته حر الكلمة منطقي الجدل، لا يمنعه توقير فضل (المشيخة) من الجهر بالحق.

قال الآلوسي: وذهب إلى صحة القصة ـ أي أكذوبة الغرانيق ـ الشيخ إبراهيم الكوراني ثم المدني، وذكر ـ أي الكوراني ـ بعد كلام طويل: أنه تحصَّل من ذلك أن الحديث ـ أي رواية قصة الغرانيق ـ أخرجه غير واحد من أهل الصحة ـ هذا كذب ـ وأنه رواه ثقاة بسند سليم ـ وهذا تضليل ـ متصل عن ابن عباس، وبثلاثة أسانيد صحيحة عن ثلاثة من التابعين من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة، وهم سعيد بن جبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو العالية.

قلنا: وهذا استدلال فاسد، قد أشبعنا القول في بيان فساده عند الكلام على روايات الأكذوبة الغرنوقية التي ساقها السيوطي في كتابه (الدر المنثور) وهي روايات مستوعبة، وعند الحديث مع الإمامين: الحافظ ابن حجر، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وحسبنا في هذا التذكير بقول الحافظ ابن حجر ـ وهو القائل بأن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً ـ بعد أن ساق ما تخيَّر من روايات القصة وطرقها عن ابن عباس وتلاميذه: وكلها

سوى طريق سعيد بن جبير، إما ضعيف، وإما منقطع.

وما نظن أن أحداً يعتقد أن طائر خاتمة المتأخرين الشيخ إبراهيم الكوراني يقع في أفق الحافظ ابن حجر، وهو المتفق على إمامته في فنون الحديث والأثر، وله فيها المؤلفات التي تقوم عليها دراسة علوم الحديث في معاهد الإسلام وجامعاته.

وقد بيَّنا ضعف حديث سعيد بن جبير الذي استثناه الحافظ ابن حجر من حكمه على جميع روايات القصة بالضعف أو الانقطاع مما يسلبه صحة الاحتجاج به، وبيَّنا وجه ضعف حديث سعيد هذا بما دخل في طريقه عن سعيد بن جبير من الشك في اتصاله بالحبر ابن عباس، حيث قال فيه سعيد عن ابن عباس (فيما أحسب)، والشك من أقوى دلائل الضعف وعدم صحة الاحتجاج.

وحسبنا في رد ادعاء الشيخ إبراهيم الكوراني في قوله: إن حديث القصة الغرنوقية أخرجه غير واحد من أهل الصحة، وأنه رواه ثقاة بسند سليم متصل، قول الإمام **أبي بكر البيهقي**: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، فهل يقال هذا الكلام من إمام لا يختلف الناس في سعة علمه بالحديث وفنونه، في حديث يخرجه غير واحد من أهل الصحة، ويرويه ثقاة بسند سليم متصل؟.

وإذا كان في كلمة الإمام البيهقي إجمال فلنسق قول جهبذ المحدثين الشافي من داء الإجمال في شفائه؛ القاضي عياض بن موسى اليحصبي: يكفيك في توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ـ أي من أضراب الكوراني ـ.

هذا نص مفصل الكلمات في ردّ ادعاء الشيخ إبراهيم الكوراني، فالحديث لم يخرجه أحد قط من أهل الصحة، ولا رواه قط ثقة بسند

صحيح سليم من النقد والوهن، متصل بصحابي، فضلاً عن النبي ﷺ.

ونضيف إلى كلام هؤلاء الأئمة في ردِّ ادّعاء الشيخ إبراهيم الكوراني أن حديث الغرانيق أخرجه غير واحد من أهل الصحة ورواه ثقاة بسند سليم متصل ما سبق لنا؛ وهو كلام نرد به على كل من تمسك بمراسيل الروايات ـ ولو صحت أسانيدها ـ في تصحيح قصة الغرانيق، وقد قدمناه ولكنا نعيده لنؤكد أن قصة الغرانيق أكذوبة باطلة خبيثة من وضع الزنادقة أعداء الإسلام.

ذلك أن هذه الأقصوصة الغرنوقية أكذوبة أحاديثها كلها مرسلة، وأن الحديث المرسل من قبيل الضعيف عند جمهور المحدِّثين كما صرح به ابن الصلاح، والمتصل منها بابن عباس وهو حديث سعيد بن جبير دخله الشك، وهذا قطعاً يضعفه، ويوهن الاحتجاج به، وهو مع هذه العلة القادحة له علة أخرى، هي أنه موقوف على ابن عباس لم يرفع قط إلى النبي ﷺ.

وقصة الغرانيق تدخل في صميم العقيدة، لأنها تناقض التوحيد، وتبطل عصمة الأنبياء، وترفع الثقة بالنبوة والوحي، وكل ذلك لا يقبل في ثبوته حديث مرسل ولا حديث موقوف، بل ولا حديث آحادي صحيح متصل، وإنما يقبل فيه النص القطعي المتواتر لفظاً ومعنى.

وقد ذكر الآلوسي المفاسد التي تلزم على القول بأن النبي ﷺ هو الناطق بما ألقاه الشيطان الملبِّس بالملك، ثم ذكر ردود الشيخ الكوراني عليها، ونحن نذكر هذه المفاسد ونذكر ردود الشيخ الكوراني عليها، ومناقشة الآلوسي له في ردوده، مضيفين إليه ما نوفق في فهمه، قال العلاّمة الآلوسي:

(١) **المفسدة الأولى**: تسلط الشيطان عليه، عليه الصلاة والسلام، وهو بالإجماع معصوم من الشيطان، ولا سيما في هذا من أمور الوحي والتبليغ والاعتقاد وقد قال تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان

إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون؛ إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون ﴾[2].

قال الكوراني في رده على هذا الوجه من المفسدة: ان السلطان المنفي عن العباد المخلَّصين هو الإغواء - أعني التلبيس المخل بأمر الدين، وهو الذي وقع الإجماع على أن النبي ﷺ معصوم منه، وأما غير المخل فلا دليل على نفيه - قلنا: ولا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول - ولا إجماع على العصمة منه، قلنا: هذا افتراء، وإلا فأين من خالف؟.

وما هنا غير مخل لعدم منافاته للتوحيد، بل فيه تأديب وتصفية وترقية للحبيب الأعظم ﷺ لأنه عليه الصلاة والسلام تمنى الهدى للكل، وليس عليه، عليه الصلاة والسلام حالة الإلقاء تمنى هَدْي الكل المصادم للقَدَر المنافي لما هو الأكمل، ليترقى إلى الأكمل، وقد حصل ذلك بهذه المرة، ولذا لم يقع التلبيس مرة أخرى، بل يُرْسَل بعدُ من بين يديه ومن خلفه رصداً الخ...

وقد قدمنا بعض القول في مناقشة هذه المفسدة، وها نحن أولاء نسوق ما ساقه الآلوسي في رد هذه المفسدة مع ما يسنح للفكر فنضيفه إلى كلامه.

قال العلّامة الآلوسي في نقض اعتراض الكوراني على المفسدة الأولى: إن التلبيس بحيث يشتبه الأمر على النبي ﷺ فيعتقد أن الشيطان ملَك مخل بمقام النبوة ونقص فيه، فإن الولي الذي هو دونه عليه الصلاة والسلام بمراتب لا يكاد يخفى عليه الطائع من العاصي، فيدرك نور الطاعة وظلمة المعصية، فكيف بمن هو سيد الأنبياء ونور عيون قلوب الأولياء يلتبس عليه من هو محض نور بمن هو محض ديجور،... ولذلك قال المحققون: إن الأنبياء عليهم السلام ليس لهم خاطر شيطاني، وكون ذلك

(١) سورة الحجر آية (٤٢).
(٢) سورة النحل آيتا (٩٩ - ١٠٠).

ليس منه، بل كان مجرد إلقاء على اللسان دون القلب ممنوع - وإلا فما دليله؟ - ألا ترى أنه قال تعالى: ﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾ دون ألقى الشيطان على لسانه، وتسمية القراءة أمنية، لما أن القارىء يقدر الحروف في قلبه أولاً ثم يذكرها شيئاً فشيئاً، وأيضاً حفظه لذلك ﷺ إلى أن أمسى كما جاء في بعض الروايات، فنبهه جبريل عليهما السلام - يبْعد كون الإلقاء على اللسان فقط، على أنا لو سلّمنا ذلك وقلنا: إن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ، ولم يلقِ في قلبه كما هو شأن الوحي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ وقلنا إن ذلك مما يعقل - للزم أن يعلم ﷺ من خلو قلبه واشتغال لسانه أن ذلك ليس من الوحي في شيء ولم يحتج إلى أن يعلمه جبريل عليه السلام، والقول بأنه لُبِّس عليه الحال عليه الصلاة والسلام للتأديب والترقية إلى المقام الأكمل في العبودية، وهو فناء إرادته ﷺ في إرادة مولاه عزّ وجلّ حيث تمنى إيمان الكل وحرص عليه، ولم يكن مراداً لله تعالى مما لاينبغي الالتفات إليه، لأن القائل به زعم أن التأديب بذلك كان بعد قوله: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سُلّماً في السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى؛ فلا تكونن من الجاهلين﴾(١) ولا شك أن التأديب به لم يُبق ولم يذر، ولم يقرن بما فيه تسلية أصلاً، فإذا قيل - والعياذ بالله - إن ذلك لم ينجع فكيف ينجع ما دونه؟.

وأيضاً أية دلالة في الآية على (التأديب) وهي لم تخرج مخرج العتاب، بل مخرج التسلية على أبلغ وجه عما كان يفعل المشركون من السعي في إبطال الآيات، ولا نسلم أن ترتيب الإلقاء على التمني مع ما في السياق والسياق مما يدل على التسلية عن ذلك يجدي نفعاً في هذا الباب كما لا يخفى على ذوي الألباب.

ويرد على قوله: أنه بعد حصول التأديب بما ذكر كان يُرْسَل من بين

---

(١) سورة الأنعام آية (٣٥).

يديه ومن خلفه رصد يحفظونه من إلقاء الشيطان، أنه لم يدل دليل على تخصيص الإرسال بما بعد ذلك، بل الظاهر أن ذلك كان في جميع الأوقات، فقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى: ﴿ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾[1] قال: كان النبي ﷺ إذا بُعث إليه الملك بالوحي بُعث معه ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه أن يتشبه الشيطان بالمَلَك، وقد ذكروا أن (كان) في ذلك للاستمرار.

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: ما جاء جبريل عليه السلام بالقرآن إلى النبي ﷺ إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة، وهذا صريح في ذلك، ولا شك أن الإلقاء عند من يقول به كان عند نزول الوحي، ثم ساق الآلوسي حديث ابن عباس من طريق العوفي عند ابن جرير وابن مردويه للاستدلال على أن الإلقاء كان عند نزول الوحي، وقد تقدم هذا الحديث في أحاديث الدر المنثور، ثم قال الآلوسي معقباً على الحديث: فعلى هذا ونحوه يكون الرصد موجوداً مع عدم ترتب أثر عليه... ثم أية فائدة في إنزال الرصد إذا لم يحصل به الحفظ؟ بل كيف يسمى رصداً.

(٢) المفسدة الثانية: من المفاسد اللازمة على القول بأن الناطق بما ألقاه الشيطان هو النبي ﷺ: زيادته ﷺ في القرآن ما ليس منه، وذلك مما يستحيل عليه، عليه الصلاة والسلام لمكان العصمة.

وأجاب الشيخ إبراهيم الكوراني على هذا الوجه من المفسدة فقال: إن المستحيل المنافي للعصمة أن يزيد ﷺ - أي في القرآن - من تلقاء نفسه - هذا افتراء - أي يزيد فيه ما يعلم أنه ليس منه، وما هنا ليس كذلك، لأنه عليه الصلاة والسلام إنما اتبع فيه الإلقاء الملبَّس عليه في حالة خاصة فقط تأديباً أن يعود لمثل تلك الحالة.

---

(١) سورة الجن آية (٢٧).

قال العلّامة الآلوسي : وما ذكر في هذا الاعتراض - أي على المفسدة الأولى - يعلم منه مافي - الجواب الثاني من الاعتراض، وهو ظاهر.

ونحن نقول: يالله من علم يفرق بين زيادة في القرآن، يزيدها الشيطان، ويلقيها إلى النبي ﷺ، ويتقبلها النبي ﷺ على أنها من القرآن معتقداً قرآنيتها - كما يزعم الغرنوقيون من أمثال الكوراني - بعد أن لبّس عليه الشيطان وأراه أنه ملك الوحي، ويتلوها النبي ﷺ ملبِّساً بها على الأمة، ويدعوها - بمقتضى وجوب التأسي به ومتابعته فيما يبلغه عن الله تعالى - وهو في غمرة التلبيس عليه إلى اعتقاد ما فيها من الشرك ومدح الأوثان مما يناقض عقيدة التوحيد التي هي أساس للرسالة التي بعثه الله بها، هذا منطق مأفون.

وبين زيادة في القرآن تكون من النبي ﷺ - كما زعم الكوراني - فتجعل الزيادة الشيطانية الخبيثة ممكنة الوقوع بل واقعة - في زعم الغرنوقيين - ولا تنافي العصمة، والزيادة من النبي ﷺ - وهي مستحيلة الوقوع - هي التي تنافي العصمة، فالشيطان يزيد في القرآن ما يشاء من الكفر والشرك، والنبي ﷺ يتقبل زيادات الشيطان ويبلّغها لأمته على أنها من عند الله، وتسلب عنه ﷺ خاصة العلم بالقرآن وبراعة أسلوبه ومعانيه الإيمانية، وحقائقه التوحيدية.

هذا هو البلاء الذي ليس فوقه بلاء، وارحمة للإسلام والمسلمين من هذا العلم الكفور الذي يصيب كبد الإسلام فيزهق روحه ويقضي على أصوله تحت ظلال تكوير العمائم الضخمة.

وقد لمح العلّامة الآلوسي أن ردّ الشيخ إبراهيم الكوراني على الوجه الثاني من المفاسد اللازم على صحة أخلوقة الغرانيق يحمل في طياته أن النبي ﷺ إذا قبل ما ألقى الشيطان على لسانه لم يكن على علم بإعجاز القرآن، فأخذ في بيان هذا فقال: وقد يقال أن إعجاز القرآن معلوم له ﷺ ضرورة كما ذهب إليه أبو الحسن الأشعري، بل قال القاضي: إن كل بليغ

أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة يعلم ضرورة إعجازه، وذكر أن الإعجاز يتعلق بسورة أو قدرها من الكلام بحيث يتبين فيه تفاصيل قوى البلاغة.

فإذا كانت آية بقدر حروف سورة، وإن كانت سورة الكوثر فهو معجز، وعلى هذا يمتنع أن يأتي الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً بمقدار أقصر سورة منه تشبهه في البلاغة، ومتى أتى أحد بما يزعم فيه ذلك لم تنفق سوقه عند رسول الله ﷺ، وكذا عند كل بليغ محيط بما تقدم، ولم يخف على الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا على ذلك البليغ عدم إعجازه، فلا يشتبه عنده بالقرآن أصلاً، ولا شك أن ما ألقى الشيطان على ما في بعض الروايات حروفه بقدرحروف سورة الكوثر، بل أزيد إن اعتبر الحرف المشدد بحرفين، وهو: وإنهن لهن الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن، لهي التي ترتجى، الوارد فيما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب.

فان كان ما ذكر مما يتعلق به الإعجاز، فإن كان معجزاً لزم أن يكون من الله تعالى لا من إلقاء عدوه ضرورة عجزه كسائر الجن والإنس عن الإتيان بذلك، وإن لم يكن مما يتعلق به الإعجاز فهو كلام غير يسير، يتنبه البليغ الحاذق إذا سمعه أثناء كلام فوقه بمراتب لكونه ليس منه، فيبعد كل البعد أن يخفى عليه، عليه الصلاة والسلام قصور بلاغته عن بلاغة شيء من آيات القرآن، سواء قلنا بتفاوتها في البلاغة كما اختاره أبو نصر القشيري وجماعة، أم قلنا بعدم التفاوت كما اختاره القاضي، فيعتقد أنه قرآن حتى ينبهه جبريل عليه السلام، لا سيما وقد تكررت على سمعه الشريف حلاوة الآيات، ومازجت لحمه ودمه، والواحد منا وإن لم يكن من البلاغة بمكان إذا سمع شعر شاعر وتكرر على سمعه يعلم إذا دُسَّ بيت أو شطر في قصيدة له أن ذلك ليس له، وقد يطالب بالدليل فلا يزيد على قوله: لأن النَفَس مختلف.

قال العلّامة الآلوسي: وهذا البعد متحقق عندي على تقدير كون

الملقى ما في الرواية الشائعة: وهو تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، أيضاً لا سيما على قول جماعة إنَّ الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره من الجمل المفيدة، لقوله تعالى: ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ والقول بأن النبي ﷺ خفي عليه ذلك للتأديب فيه ما فيه، ولا يبعد استحقاق قائله للتأنيب، بل أبلغ التعزير، إذا لم يكن هذا الذي قاله الكوراني داخلاً في الإطار العام للارتداد عن الدين.

ونقول إذْ فتح العلاّمة الآلوسي باب الجزاء في هذه القالة الهوجاء إن القول بأن النبي ﷺ خفي عليه ذلك لتأديبه يستحق صاحبه أقصى مراتب التعزير، الذي يصح أن يبلغ به ما تبلغ خطورة الجرم وما يترتب عليها من آثار جسام، ولو انتهى إلى عقوبة الحدود المقدرة بتقدير الشرع.

(٣) **المفسدة الثالثة**: من المفاسد اللازمة على كون النبي ﷺ هو الناطق بما ألقاه الشيطان: اعتقاده ﷺ ما ليس بقرآن أنه قرآن مع كونه بعيد الالتئام متناقضاً، ممتزج المدح بالذم، وهو خطأ شنيع لا ينبغي أن يتساهل في نسبته للنبي ﷺ.

قلنا: وشناعة خطئه تظهر فيما يأتي: .

أولاً: نسبة النبي ﷺ إلى أنه لا يفرق في أسلوب الكلام بين كلام الله المعجز ببراعة أسلوبه وروعة بيانه وهو ﷺ القيِّم الأعلى، والعقل الأول في معرفة إعجاز القرآن، ذلك الإعجاز الذي عرفه آحاد الأعراب، وأفراد العرب فسجدوا له عند سماعه ولم يكونوا قد آمنوا به، فقد روي مشهوراً أن أحد الأعراب سمع قوله تعالى: ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴾ فسجد، فقيل له في ذلك، ولم يكن مؤمناً، فقال: إنما سجدت لروعة بلاغته، وقصة الوليد بن المغيرة، وقد سمع بعض آيات القرآن فقال قولته المشهورة: (والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما هو بقول بشر) وموقف عتبة ابن ربيعة حين سمع في وفادته إلى النبي ﷺ ليعرض عليه المال والجاه، والملك، ويكف عن تبليغ رسالته التي تسفه أحلام قريش وتعيب آباءهم،

وتسب آلهتهم ـ سورة فصلت، ورجع إلى قومه بوجه غير وجهه الذي فارقهم عليه لما لحقه من الأخذة والدهش لسماعه ما لم يسبق له أن سمع مثله روعة وبراعة وبلاغة ومعانٍ وحقائق كونية، وأمثالها من الأحداث المشهورة المعروفة في تاريخ مطلع الرسالة وأيام كفاحها الأولى في نضالها المرير.

هؤلاء الأجلاف أهل الجهالة الجاهلة، والوثنية الضالة، يدركون إعجاز القرآن ويفرقون بينه وبين سائر الكلام، ومحمد سيد البشر لقانة وعقلاً وأفضلهم فضلاً، وأنبلهم نفساً، وأصفاهم طبيعة، يُدخل عليه الشيطان أقبح الكلام عقيدة، وأسقطه أسلوباً، وأحطه معاني، فيتقبله ـ في زعم الغرنوقيين ـ ويعتقده قرآناً مع تهافته وعدم التئامه بما سبقه وما لحقه في ـ زعم الغرنوقيين ـ وما فيه من التناقض وامتزاج المدح بالذم، والكفر بالإيمان، والتوحيد بالشرك، هذا الذي لم يكن ولا يكون، وهو المستحيل عقلاً ونقلاً، ولا يعتقده مؤمن، ولا يقبله إلا عقل ممرور.

أما من جهة العقل فلما يلزمه لزوماً بيّناً من نسبة الجهل بإعجاز القرآن إلى النبي ﷺ، ولما يلزمه لزوماً بيناً من الافتراء على الله وتقويله ما لم يقل، وما ينزله في وحيه، ولما يلزمه لزوماً بيناً من سلب العصمة عن النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى، والعصمة في هذا مما أجمع عليه الناس سوى الغرنوقية، ولما يلزمه لزوماً بيّناً تبليغ الكفر في مدح الأوثان إلى الأمة، وهي مأمورة بالتأسي بالنبي ﷺ ومتابعته فيما يبلغه إليها، وهذا يتضمن هدم الرسالة التوحيدية، ويرفع أعلام الشرك، ولما يلزمه لزوماً بيناً من رفع الثقة بالنبي ﷺ والوحي كله فيما يستقبل من الزمان.

وأما من جهة النقل فلقوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ولما يلزمه من تصديقه للكافرين في قولهم عن القرآن: ﴿بل افتراه﴾[1] وفي قولهم: ﴿افترى على الله كذباً﴾[2] ولقوله تعالى: ﴿ولو

---

(١) سورة الأنبياء آية (٥).

(٢) سورة الشورى آية (٢٤).

تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين﴾ ولقوله تعالى: ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾ وقوله: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ إلى كثير من النصوص القرآنية والآيات التي تتحدث عن تبليغ رسالة الله تعالى إلى الخلق صدقاً وعدلاً.

لكن الشيخ إبراهيم الكوراني وأئمته الغرنوقيين لا يقتنعون بهذا كله ويضربون به لفح الأعاصير في سبيل تصحيحهم أكذوبة الغرانيق، ولا نقتحم الغيب فنتظنن لالتقاط النيات والمقاصد وإلى الله الملتقى وهو عليم بذات الصدور.

ويرد الشيخ إبراهيم الكوراني على الوجه الثالث من وجوه المفاسد الغرنوقية، فيقول الألوسي: وما ذكره في الجواب عن الثالث من أنه لا بد من حمل الكلام على الاستفهام أو حذف القول وهو دون الأول ـ إذا صح الخبر ـ لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد، فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلاء، عارفون بالغثّ والسمين من الأخبار، وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحق فيه، فلم يرووه إلا مردوداً ومما ألقى الشيطان إلى أوليائه معدوداً، وهم أكثر ممن قال بقبوله، ومنهم من هو أعلم منه، ويغلب على الظن أنهم وقفوا على رواته في سائر الطرق فرأوهم مجروحين وفات ذلك القائل بالقبول، ولعمري إن القول بأن هذا الخبر مما ألقاه الشيطان على بعض ألسنة الرواة ـ أي المغفلين ـ، ثم وفق الله تعالى جمعاً من خاصته لإبطاله لأهون من القول بأن حديث الغرانيق مما ألقاه الشيطان على رسول الله ﷺ ثم نسخه سبحانه وتعالى كما يقوله الغرنوقيون؛ ولا سيما وهو مما لا يتوقف على صحته أمر ديني، ولا معنى آية، ولا، ولا، سوى أنها حصول شبه في قلوب كثير من ضعفاء المؤمنين لا تكاد تدفع إلا بجهد جهيد.

قلنا: وسوى أنها تفتح لأعداء الإسلام المتربصين به من الملاحدة وشراذم المستشرقين، ولمائم المبشرين المتعصبين، وهم أكثر الناس عدداً وأقواهم عدة، وأقدرهم على ترويج الباطل بما يملكون من وسائل

الترويج، ولو لم يكن من فوائد القضاء عليها ودفنها في أحشاء مختلقيها سوى سدِّ هذا الباب الشرير المفسد لكفى فضلاً للأقلام التي تشرع أسنتها لهدم باطلها وتبيين خبثها.

ونضيف إلى نقض العلّامة الآلوسي لرد الشيخ إبراهيم الكوراني دقيقة تهدم بنيان (الغرنقة) في كلام الشيخ الكوراني.

ذلك أنه يقول: لا بد من حمل الكلام على الاستفهام أو حذف القول ـ أي في رواية القصة الغرنوقية ـ ومعنى ذلك أن النبي ﷺ لم يلبَّس عليه، ولم يُلْق الشيطان على لسانه شيئاً، ولم يسلب العصمة، ولكنه ﷺ ـ فيما يتصور الغرانقة حين يتأولون في روايات القصة ـ حين تلا ﷺ آيات ذم الأوثان وعابديها من المشركين الوثنيين بأسلوب الإنكار والتوبيخ في قول الله تعالى: ﴿ أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ عجب من شناعة أمرهم وقبح اعتقادهم وسوء قالتهم، فبين عن إنكاره وتعجبه بحكاية ما يصفون به أوثانهم بجملة استفهامية إنكارية مقرعة، محذوفة أداة الاستفهام، أو بجملة إخبار تحكي قولهم بحذف القول.

وهذا الذي ذهب إليه الشيخ الكوراني يهدم أصل اختراقه لأقصوصة (التأديب) الذي زعمه حكمة لتلبيس الشيطان في إلقائه كلمات الكفر على لسان النبي ﷺ كما هو نص مرسل سعيد بن جبير، أصح ما تمسك به الغرنوقيون.

وإذا كان ذلك كذلك فلا وجه لطنطنة الشيخ الكوراني بأخلوقة (التأديب) الجافية والتصفية والترقية، لأن لاحق كلامه هنا يهدم سابقه، وعندئذ يرجع الكلام إلى مجرد النظر في ثبوت صحة الحديث، وقد أثبتنا ضعفه بل بطلانه، وقال عنه الآلوسي: ودون إثبات صحته خرط القتاد، ويؤيد عدم ثبوته مخالفته لظواهر الآيات، فقد قال سبحانه في وصف القرآن: ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[1] والمراد بالباطل ما كان باطلا في نفسه وذلك الملقى كذلك، وإن

---

(١) سورة فصلت، آية: ٤٢.

سوّغ نطق النبي ﷺ به تأويله بأحد التأويلين، والمراد بـ﴿ لا يأتيه ﴾ استمرار النفي، لا نفي الاستمرار، وقال عزّ وجلّ: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ فجيء بالجملة الإسمية مؤكدة بتأكيدين، ونسب الحفظ المحذوف متعلقه إفادة للعموم إلى ضمير العظمة، وفي ذلك من الدلالة على الاعتناء بأمر القرآن مافيه، وقد استدل بالآية من استدل على حفظ القرآن من الزيادة أو النقص.

وكون الإلقاء المذكور لا ينافي الحفظ لأنه نسخ، ولم يبق إلا زماناً يسيراً لا يخلو عن نظر، والظاهر أنه وإن لم يناف الحفظ في الجملة ولكنه ينافي الحفظ المشار إليه في الآية على ما يقتضيه ذلك الاعتناء، ثم إن قيل بما روي، عن الضحاك من أن سورة الحج مدنية لزم بقاء ما ألقى الشيطان قرآناً في اعتقاد النبي ﷺ والمؤمنين زماناً طويلاً، والقول بذلك من الشناعة بمكان، بل هو أكبر من الشناعة، وأقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان.

وقال جلّ وعلا: ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ والظاهر أن الضمير لما ينطق به ﷺ مما يتعلق بالدين، ومن هنا أخرج الدارمي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: كان جبريل ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، والمتبادر من لحن الخطاب أن جميع ما ينطق به عليه الصلاة والسلام من ذلك ليس عن إلقاء شيطاني، كما أنه ليس عن هوى.

قال العلّامة الآلوسي: وبقيت آيات كثيرة أخرى في هذا الباب، ظواهرها تدل على المدّعي أيضاً، وتأويلُ جميع الظواهر الكثيرة لقول شرذمة قليلة بصحة الخبر المنافي لها مع قول جم غفير بعد الفحص التام بعدم صحته مما لا يميل إليه القلب السليم، ولا يرتضيه الطبع المستقيم، ويبعد القول بثبوته أيضاً عدم إخراج أحد من المشايخ الكبار له في شيء من الكتب الستة، مع أنه مشتمل على قصة غريبة، وفي الطباع ميل إلى سماع الغريب وروايته.

(٤) **المفسدة الرابعة**: من المفاسد اللازمة على كون النبي ﷺ هو الناطق بما ألقى الشيطان من كلمات الكفر والشرك، أن يكون النبي ﷺ

قد اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه عليه الملك، وهو يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام على غير بصيرة فيما يوحى إليه، وفيما يبلغه عن الله تعالى، ويقتضي أيضاً جواز تصور الشيطان بصورة الملك، ملبِّساً على النبي ﷺ، ولا يصح ذلك ـ كما قال في الشفاء ـ لا في أول الرسالة ولا بعدها، والاعتماد في ذلك على دليل المعجزة.

وقال ابن العربي: تصور الشيطان في صورة المَلك ملبِّساً على النبي ﷺ كتصوره في صورة النبي ملبِّساً على الخلق، وتسليط الله تعالى له على ذلك كتسليطه في هذا، فكيف يسوغ في لب سليم استجازة ذلك؟ ولكن الغرنوقيين استجازوه وقالوا بوقوعه لسيد الخلق خاتم النبيين، لأنه لاألباب لهم.

وأجاب الشيخ إبراهيم الكوراني على هذه المفسدة فقال: إن هذا الاشتباه في حالة خاصة للتأديب لا يقتضي أن يكون النبي ﷺ على غير بصيرة، فيما يوحى إليه في غير تلك الحالة.

قلنا: أي (تأديب) هذا الذي يردده الكوراني وقد أبطل وجوده بوجود أساسه في زعمه، وكان أساسه التمسك بنص مرسل سعيد بن جبير وأمثاله من المراسيل الواهية الواهنة التي زعمت أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ كلمات الكفر الخبيث بمدح الأوثان، وأن النبي ﷺ نطق بما ألقاه الشيطان على لسانه، ملبِّساً عليه بأنه ملك الوحي، وملبساً عليه أن ما ألقاه على لسانه قرآن أوحى إليه به في البين من آيات سورة النجم، وكان هذا التلبيس (تأديباً) للنبي ﷺ وتصفية له، وترقية إلى الأكمل، لأنه ﷺ أراد إيمان الجميع، وهذا على خلاف إرادة الله وتقديره.

ثم ذهب الشيخ الكوراني في رده على الوجه الثالث من وجوه المفاسد في قصة الغرانيق إلى التملص من نص رواية المراسيل وقال: إنه لا بد من حمل الكلام الشيطاني على الاستفهام وحذف أداته، أو على إضمار القول من المشركين، وهذا بلا شك تطويح بمصدر (التأديب) إلى هاوية البطلان، لأنه حينئذ لا تلبيس على النبي ﷺ، فيكون المقام مقام (تأديب) كما زعم

من لم يرجُ لله وقاراً في عصمة الأنبياء.

على أن رد الشيخ الكوراني يحمل دلائل الإمعان والاستمساك بأن النبي ﷺ ليس معصوماً من تلبيس الشيطان، ولا من اشتباه ما يلقيه من خبيث الكلمات، وفجور الكفر بآيات القرآن، ويكون ﷺ مسلوب البصيرة في معرفة ما يوحى إليه من آيات الله وشرائعه، وليحكم على هذا أهل العقول من سائر الفرق والطوائف والنحل، لأنه أمر فوق إدراك العقول.

ولا وزن لتخصيصهم - الغرنوقيين - هذا السلب ببعض الأحوال، وهي كما يزعمون الحالة الموجبة (للتأديب) لأن ما جاز في بعض الأحوال، لادعاء سبب باطل له يجوز أن يكون في غيرها لادعاء سبب له، لأن سبب (التأديب) مختلق باطل لأنه مبني على باطل، وهو ادعاء أن النبي ﷺ أراد هدي الكل، وهذه الإرادة منافية لإرادة الله عدم هداية الكل، فاستحق النبي ﷺ - في زعم الكوراني - التأديب من أجل إرادته هدي الكل، والغرنوقيون يتحكمون في حياة النبي ﷺ، وفي إرادته، وفي تبليغ رسالته إلى الخلق، ليفرضوا كما فرض الخوارج المارقون من الدين نقائص توجب - في زعمهم - التأديب، ولا شك أن هذا منزع جاف منكر خبيث، هو بمنزع الخوارج الذين قال فيهم النبي ﷺ «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة» أشبه وألصق.

ثم قال الشيخ الكوراني: وأما قول عياض: لا يصح أن يتصور الشيطان بصورة الملك، ويلبس عليه ﷺ، فإن أراد به أنه لا يصح أن يلبس تلبيساً قادحاً فهو مُسَلّم، لكنه لم يقع، وإن أراد مطلقاً ولو كان غير مخل فلا دليل عليه، ودليل المعجزة إنما ينفي الاشتباه المخل بأمر النبوة المنافي للتوحيد، القادح في العصمة، وما ذكر غير مخل، بل فيه تأديب.

وافتراءات أن في تلبيس الشيطان تلبيساً قادحاً مخلاً بالنبوة والعصمة، وتلبيساً غير قادح ولا مخل بالنبوة والعصمة، قد بيَّنا أنها فِرىً كاذبة مختلقة، ويستحيل أن يلبِّس الشيطان على النبي ﷺ ويريه أنه ملَك الوحي، ويعتقد ذلك النبي ﷺ وأن يلبس عليه - فيلقي على لسانه كلمات

الكفر والشرك، ويعتقدها النبي ﷺ حتى ينبه على افترائها.

وقد عرضنا فيما سبق لأخلوقة (التأديب) التي اخترقها الشيخ الكوراني عند تملصه من رأيه في أكذوبة الغرانيق، إذْ هبَّ عندما سدت عليه المسالك إلى القول بأنه لا بد من حمل الكلام الشيطاني على الاستفهام أو إضمار القول، وحينئذ فلا إلقاء من الشيطان على لسان النبي ﷺ ولا تأديب لسيد الكاملين.

ثم قال الشيخ إبراهيم الكوراني: وأما ما ذكره ابن العربي فقياس مع الفارق، لأن تصور الشيطان في صورة النبي ﷺ مطلقاً منفي بالنص الصحيح، وتصوره في صورة النبي ملبِّساً على الخلق إغواء يعم، وهو سلطان منفي بالنص عن المخلصين، وأما تصوره في صورة الملَك في حالة خاصة ملبِّساً على النبي ﷺ فليس من السلطان المنفي ولا بالتصور الممنوع. نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

سبحان الله.. تلبيس يغوي النبي ﷺ ويشبِّه عليه أخبث الكفر فيما ألقاه الشيطان ـ بزعم الغرنوقيين ـ بآيات الله من القرآن المجيد جائز عند الشيخ الكوراني (للتأديب)، وتلبيس يغوي العامة ممنوع منفي بالنص عن المخلَصين؟ فهل في دنيا العقل السليم أبشع من هذا أو أقبح اعتقاداً منه؟ ولكن التعصب لا يبالي بصاحبه أن يخر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق

(٥) **المفسدة الخامسة**: من المفاسد اللازمة على كون النبي ﷺ هو الناطق بما ألقاه الشيطان على لسانه من كلمات الكفر ومدح الأوثان، التقول على الله إما عمداً، أو خطأ، أو سهواً، وكل ذلك محال في حقه ﷺ، وقد أجمعت الأمة ـ على ما قال القاضي عياض ـ على عصمته ﷺ فيما كان طريقه البلاغ من الأقوال عن الأخبار، بخلاف الواقع لا قصداً ولا سهواً.

قال الشيخ الكوراني: التقوّل تكلف القول، ومن لا يتبع إلا ما

ألقي إليه من الله تعالى حقيقة، أو اعتقاداً ـ فاسداً ـ ناشئاً عن تلبيس غير مخل، لا تكلف للقول عنده، فلا تقوّل على الله تعالى أصلاً.

هذا منطق الغرنوقيين، فهم يرون أن قولاً لبَّس به الشيطان على النبي ﷺ، وأدخله عليه على أنه من القرآن، وبلغه النبي ﷺ للأمة كذلك بعد أن قبله واعتقده، وهو أخبث القول وأشده مناقضة لعقيدة التوحيد، وأسرعه هدماً ونقضاً لأصول الرسالة لا يعد ـ في نظر الغرنوقيين ـ تقوُّلاً على الله تعالى، لأن التقوُّل تكلف القول وهذا لا تكلف فيه، وإنما ألقي إليه إلقاء أشبه بالزحلقة، فلم يميز بينه وبين كلام الله المنزل بالوحي الصادق في إعجازه الأسلوبي والمعنوي رغم ما في القول المزحلق من الشيطان على لسان النبي ﷺ من مراغمة ومناقضة لحقائق القرآن وهدايته.

لكن المفسرين والثقاة من أئمة اللغة يأبَون تخريج الغرنوقيين للفظ التقوّل في القرآن، ويقولون: التقوُّل هو الافتراء على الله، وتقويله ما لم يقل، قال أبو حيان في (البحر) ـ وهو من أساطين العربية وأئمة اللغة ـ والتقوُّل أن يقول الإنسان عن آخر أنه قال شيئاً لم يقله، فمن اتَّبع ما ألقي إليه ملبساً عليه أنه من عند الله، وليس هو من الله مفتر على الله، متقوِّل عليه لأنه قوَّله ما لم يقل.

وقال ابن منظور في (لسان العرب): وأقوله ما لم يقل، وقوَّله ما لم يقل، كلاهما ادّعى عليه... وفي حديث سعيد بن المسيب حين قيل له: ما تقول في عثمان وعليّ رضي الله عنهما؟ فقال: أقول فيهم ما قوَّلني الله تعالى، ثم قرأ ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾[1] الآية. وفي حديث عليّ عليه السلام: سمع امرأة تندب عمر، فقال: أما والله ما قالته، ولكن قُوِّلته، أي لقنته وألقى على لسانها... وتقوَّل فلان عليّ باطلاً، أي قال عليّ ما لم أكن قلت وكذب عليّ، ومنه قوله تعالى: ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل ﴾.

---

(١) سورة الحشر، آية: ١٠.

فزعم الشيخ الكوراني أنه لا تقوُّل أصلاً فيما ألقاه الشيطان من خبيث الكلم، وقبله النبي ﷺ - في زعمه - وبلَّغه إلى الأمة على أنه موحى إليه مراغمة لأهل اللغة، ومجازفة في قضايا العلم، بل هو تقوُّل منفي قطعاً وقوعه من رسول الله ﷺ بنص الآية، ومما يضحك الثكالى قياس الشيخ إبراهيم الكوراني قصة الغرانيق، وما وقع فيها من أكاذيب ومفاسد خطيرة على قصة السهو في الصلاة، ثم ختم هذه الأضحوكة فقال: فكما أن السهو للتشريع غير قادح في منصب النبوة كذلك الاشتباه في الإلقاء (للتأديب) غير قادح، ثم راح الشيخ الكوراني يتفلسف، فقال: وكما أن النطق بـ(لم أنس) مع تبين أنه عليه الصلاة والسلام قد نسي صدق، بناء على اعتقاد التمام سهواً، كذلك النطق بما يلقيه الشيطان في تلك الحالة على أنه قرآن بناء على اعتقاد أن المُلْقِي مَلَك صدق، ولا شيء من الصدق بالتقول، فلا شيء من النطق بما يلقيه الشيطان في تلك الحالة به.

أليس كذلك يقول أرسطو شيخ الفلسفة الكورانية والمنطق (الهلاهيلي)، وما بعد منطق أرسطو حجة لقائل، وقد نسي الشيخ الكوراني أن أرسطو وتلاميذه عجماً وعرباً يشترطون لصحة نتيجة القياس الأرسطي صحة قضاياه وصدقها، وقياس الشيخ الكوراني باطل، فالصغرى فيه كاذبة، لأن كون ما يلقي الشيطان من الكفر والشرك صدقاً بناءً على اعتقاد أن المُلْقي ملَك باطل، لأن المُلْقِي شيطان وليس ملكاً، والاعتقاد الفاسد لا يجعل الكذب والباطل صدقاً وحقاً، وإذ أبطلت صغرى قياس الشيخ الكوراني فقد انهدم بنيان قياسه كله، وتبرأ منه أرسطو وإخوانه من المتفلسفة العقلانيين.

(٦) **المفسدة السادسة**: من المفاسد اللازمة على كون النبي ﷺ هو الناطق بما ألقاه الشيطان على لسانه، الإخلال بالوثوق بالقرآن فلا يُؤْمَن فيه التبديل والتغيير، ولا يندفع هذا الإخلال بالوثوق بقوله: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾ لأن هذا القول ينسخ ما يلقي الشيطان يحتمل أنه - أي الناسخ - مما ألقاه الشيطان إذ لا فرق - كما قال العلاّمة البيضاوي -. قال الكوراني يرد على ذلك: لا إخلال بالوثوق بالقرآن عند

الذين أوتوا العلم والذين آمنوا، لأن وثوق كل منهم تابع لوثوق متبوعهم الصادق الأمين، فإذا جزم بأمر أنه كذا جزموا به، وإذا رجع عن شيء بعد الجزم رجعوا عنه كما هو شأنهم في نسخ غير هذا من الآيات التي هي كلام الله تعالى لفظاً ومعنى، إذ قبل نسخ ما نسخ لفظه كانوا جازمين بأنهم متعبدون بتلاوته، وبعد النسخ جزموا بأنهم ما هم متعبدون بتلاوته، وما نسخ حكمه كانوا جازمين بأنهم مكلفون بحكمه وبعد النسخ جزموا بأنهم ما هم مكلفون به، فقول البيضاوي أن ذلك لا يندفع بقوله تعالى: ﴿فينسخ الله﴾ إلخ لأنه أيضاً يحتمله ليس بشيء، لأنه إن أراد أنه يحتمله عند الفرق الأربع المذكورة في الآيات وهم الذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم، والذين أوتوا العلم، والذين آمنوا، فهو ممنوع لدلالة قوله تعالى: ﴿وليعلم﴾ إلخ على انتفاء الاحتمالين عند فريقين من الفرق الأربع بعد النسخ والإحكام، وإن أراد البيضاوي أنه يحتمله في الجملة أي عند بعض دون بعض فهو مسلم، وغير مضر لعدم إخلاله بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم، والذين آمنوا، وأما إخلاله بالنسبة إلى الفريقين الآخرين فهو مراد الله عزّ وجلّ.

قلنا: هذا الترديد فاسد، لأن قوله تعالى: ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم ﴾ إلخ محتمل أن يكون من إلقاء الشيطان، لأن جواز التلبيس والاشتباه رفع الثقة إطلاقاً وليس لنص دون نص، فكل ما يدّعي قرآنيته فالاحتمال قائم فيه، فلا ثقة عند أية فرقة من الفرق المذكورة في الآية لأن ثقة الذين أوتوا العلم، والذين آمنوا نابعة لوثوق منبوعهم، وهو في ـ زعم الغرنوقيين ـ ملبَّس عليه في المُلْقِي والمُلْقَى، فهو لا جزم عنده إلى أن يبين له بوحي جديد، وهو أيضاً موضع احتمال، وهكذا تصبح ـ الرسالة والوحي والنبي والقرآن ـ في زعم الغرنوقيين ـ معبثة وشكوكاً. قال العلاّمة الآلوسي: إنه إذا فتح باب التلبيس لا يوثق بالوثوق في شيء أصلاً، لجواز أن يكون كل وثوق ناشئاً عن تلبيس كالوثوق بأن: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى، قرآن، فلما تطرق الاحتمال إلى الوثوق جاز أن

يتطرق إلى الرجوع عنه، ولا يظهر فرق بينهما، فلا يعول حينئذ على جزم، ولا على رجوع.

وقول الكوراني فيما ذكره البيضاوي عليه الرحمة: ليس بشيء، هو ليس بشيء، لأن منع الاحتمال عند الفرق الأربع بعد القول بجواز التلبيس مكابرة، والآية التي ادّعى دلالتها على انتفاء الاحتمال عند الفريقين بعد النسخ والإحكام فيها ذلك الاحتمال، والحق أنه لا يكاد يفتح باب قبول الشرائع ما لم يسد هذا الباب، ولا يجدي نفعاً كون الحكمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ والله عليم حكيم ﴾ آبية عن بقاء التلبيس، فلا أقل من أن يتوقف قبول معظم ما يجيء به النبي ﷺ إلى أن يتبين كونه ليس داخلاً في باب التلبيس، مع أنا نرى الصحابة رضي الله عنهم يسارعون إلى امتثال الأوامر عند إخباره ﷺ إياهم بوحي الله تعالى إليه بها من غير انتظار ما يجيء بعد ذلك فيها، مما يحقق أنها ليست عن تلبيس.

ثم قال العلاّمة المفسر شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، معقِّباً على ما ساقه من أخبار هذه الأقصوصة الغرنوقية: وتوسط جمع في أمر هذه القصة، فلم يثبتوها كما أثبتها الكوراني كافأه الله بما يستحق من أنه ﷺ نطق بما نطق عمداً للتلبيس أنه وحي حاملاً له على خلاف ظاهره ـ مختلقاً ما يجافي الأدب مع رسول الله ﷺ في ادعائه أن هذا التلبيس كان (لتأديب) رسول الله ﷺ وهو سيد الكملة من الأنبياء والمرسلين الذي خصه ربه بأعظم الثناء، وبارع المدحة، فقال له يخاطبه مواجهة: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ـ ولم ينفوها بالكلية كما نفاها أجلة أثبات، قال الآلوسي: وإلى النفي كلية أميل، بل أثبتوها على وجه غير الوجه ـ الجافي المنتفج ـ الذي أثبته الكوراني، واختلفوا في إثباتهم للقصة على الوجه المغاير لإثبات الكوراني، على أوجه من التأويل وكلها أوجه مما لا ينبغي عندي أن يلتفت إليها.

ثم قال الآلوسي: وفي شرح الجوهرة الأوسط، أن حديث الغرانيق

ظاهره مخالف للقواطع. قال الآلوسي: وأقبح الأقوال التي رأيناها في هذا الباب، وأظهرها فساداً أنه ﷺ أدخل تلك الكلمة من تلقاء نفسه حرصاً على إيمان قومه، ثم رجع عنها، ويجب على قائل ذلك التوبة، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً، وأنت تعلم أن تفسير الآية أعني قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ إلخ لا يتوقف على ثبوت أصل هذه القصة.

* * *

وإنما أطلنا رشاء القول في البحث مع الشيخين الإمامين: ابن تيمية وابن حجر لمكانهما من العلم والمعرفة، ولما لهما من التوقير والتقدير بين رعيل الأئمة الأعلام، دفعاً للخشية على قلوب كثير من المؤمنين خاصة وعامة أن يخونها الاعتقاد في مكانة الشيخين، فتذهب بها إلى هاوية من الحيرة والشك فيما تقتضيه هذه الأقصوصة الغرنوقية من مخاطر ومخاطر على العقيدة التوحيدية وأصول الإيمان ومعرفة قدر القرآن العظيم، وتقدير النبي ﷺ في قداسة نبوته ورسالته وفتح باب التقوُّل على الله وعلى كتابه ورسوله عند أعداء الإسلام. ولأن نغلط بعض الرواة أو نزيف رأي بعض أصحاب الشهرة الداوية التي تحمل فوق هاماتها هالات التقديس الذي لا يقبل النقد والمناقشة عند مقلِّديهم ـ خير ألف مرة من تسليم ما ينسب إليهم في هذه الأقصوصة الخبيثة الباطلة التي تعصف بالإيمان عصفاً يلقيه في مهاب الشكوك والحيرات.

فكل أحد سوى رسول الله ﷺ يجوز عليه الوهم والخطأ والنسيان، وقد وقى الله الأمة شر هذه الأقصوصة المتزندقة فلم تثبت برواية مسندة متصلة صحيحة، فلم يتدنس بروايتها صحابي قط، ولا تابعي من ذوي الثقة الأعلام.

أما مصابرتنا للشيخ الكوراني وبيان زيف كلامه وخروجه عن جادة الأدب مع رسول الله ﷺ وتهوره في حماقة لا يعرفها أهل العلم والإيمان، فخشية أن ينخدع بأباطيله وأكاذيبه من يقرأ كلامه في سياق الآلوسي الذي

كما به جواد الحق فغلط، فقال في وصف هذا الكوراني: إنَّه خاتمة المحققين.

والله تعالى وحده العليم بالنيات، وهو المجازي بعدله على كل عمل اكتسبه عبد من عباده، والله يقول الحق ويهدي السبيل.

مذهب حذاق الأئمة في أكذوبة الغرانيق
رأي القاضي الأجل
أبي الفضل عياض بن موسى
ومناقشته

الإجماع على العصمة فيما يُبَلَّغ عن الله تعالى

كتب عياض رحمه الله في كتابه (الشفاء) فصلاً ممتعاً، تكلم فيه على عصمة النبي ﷺ، فكفى وشفى، وأقنع وأمتع.

ودحض كل شبهة تعلق بها ملحد، مريض القلب، لا يقر بالنبوات، ولا يعلم حقيقتها، ولا يقدرها قدرها، أو تشبث بأهدابها ضعيف الإيمان، واهن العقل، واهي العقيدة، جامد القريحة، سقيم الوجدان، أو تلقفها مغفل أبله ممن يحملون مخاطر العلم من طريق الرواية والتلقي عن كل تطليس أو تعمم.

وأقام منائر البرهان معالم في طريق الحق والهدى، إرشاداً لطالبيه، ودلالة لراغبيه، وأضاء مصابيح الحجة لتنير محجة السالكين إلى منازل أهل اليقين.

ومما جاء في هذا الفصل الذي جعله تمهيداً لتفنيد أكذوبة الغرانيق وإبطالها واقتلاع جذورها من أذهان مهازيل المعرفة بأصول الإسلام قولُ القاضي ـ مع بعض إيضاحات من كلام شارحيه: الخفاجي، والقاري ـ: قامت الدلائل الواضحة القاطعة العقلية والنقلية من الآيات والبراهين بصحة المعجزة على صدقه ـ ﷺ ـ فيما أخبر به، قال الخفاجي: والأصح أنها دلالة عقلية أظهر من الشمس.

وأجمعت الأمة على صدقه ﷺ، وصدق أخباره فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيما أمر بتبليغه من الأخبار عن مجيء شيء منها بخلاف ما هو به لا قصداً ولا عمداً، ولا سهواً ولا غلطاً.

أما تعمد الخلف ـ أي الكذب ـ في ذلك فممتنفٍ عنه بدليل المعجزة عقلاً، ونقلاً، القائمة مقام قول الله تعالى: صدق عبدي ورسولي فيما قال لكم وبلغكم عني بدليل معجزته التي هي برهان قاطع على صدق مدّعاه اتفاقاً بإطباق أهل ملة الإسلام، إجماعاً منهم على ذلك الإطباق الذي لم يوجد له مخالف منهم. قال الخفاجي: وسبيل تعريف الله تعالى عباده صدق رسالة رسوله بالآيات الخارقة للعادة كسبيل تعريفهم إلٰهيته بالآيات الدالة عليها، والتعريف بالقول تارة، وبالفعل أخرى كتعجيز الخلق عن معارضة القرآن المنزّل على نبيِّنا ﷺ، ودلالة المعجزة على صدقه ـ ﷺ ـ دلالة عقلية.

ثم قال القاضي: وأما وقوع خبره على خلاف ما هو عليه فيما طريقه البلاغ على الغلط والسهـو فممتنفٍ عنه بطريق انتفاء العمد عنه بالمعجزة، فلا يصدر عنه، ولا يقع منه ما يخالف الواقع، لا قصداً، ولا غلطاً، ولا سهواً بطريق من الطرق، فمعجزته ﷺ، كما دلَّت على نبوته دلَّت على صدقه، وعدم وقوع ذلك منه ﷺ ثابت بالإجماع، وورود الشرع في الآيات المتواترة والأحاديث الصحيحة الثابتة، وثبوت العصمة له ﷺ، لأنها تأبى عن نسبة ذلك إليه، لأنه نقيصة لا تليق.

لا اختلاف بين العلماء في مقتضى دليل المعجزة، والاعتماد على ما وقع عليه إجماع المسلمين أنه لا يجوز عليه ﷺ خلف في القول في إبلاغ الشريعة لا على وجه العمد، ولا على غير وجه العمـد، ولا في حال الرضى أو السخط، والصحة أو المرض، وفي حديث عبدالله بن عمرو عند الإمام أحمد، وأبي داود، والحاكم قلت: يا رسول الله، أكتب عنك كلما أسمع منك؟ قال: «نعم» قلت: في الرضا والغضب؟ قال: «نعم، فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً».

ثم قال القاضي رحمه الله تعالى: إذا قامت المعجزة على صدقه ﷺ في كل ما أخبر به عن الله تعالى، وأنه لا يقول إلا حقاً، ولا يبلِّغ عن الله تعالى إلا صدقاً، وأن المعجزة قائمة مقام قول الله: صدقتَ فيما قلتَ، وفي كل ما تذكره مخبراً به عني، وهو يقول: إني رسول الله إليكم لأبلغكم

ما أرسلت به إليكم مما أوحاه الله إلي وأمرني بتبليغه، وأبين لكم ما أنزله الله عليكم ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ و﴿ قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ﴾ ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ فلا يصح أن يوجد منه ﷺ في كل ما طريقه البلاغ عن الله تعالى خبر بخلاف مخبره على أي وجه كان، فلو جوّزنا عليه ﷺ الغلط والسهو فيما يبلغه عن الله تعالى لما تميز لنا ـ أي هذا الغلط والسهو ـ من غيره، أو لما تميز الصواب من غيره، أو لما تميز خبر النبي ﷺ عن خبر غيره، ولاختلط الحق بالباطل، فالمعجزة مشتملة على تصديقه في جميع ما جاء به من جميع أخباره وما يبلغه عن الله تعالى من غير تخصيص أمر دون أمر آخر، إذ لا دليل على التخصيص، فتنزيه النبي ﷺ عن أن يقع منه إخبار بما يخالف الواقع، قصداً أو غلطاً، أو سهواً، واجب الاعتقاد برهاناً قاطعاً، وإجماعاً متطابقاً من جميع الأمة، إهـ. ما قصدناه من فصل للعصمة.

ثم ذكر القاضي رضي الله عنه فصلاً مسهباً فصَّل فيه الكلام على أكذوبة الغرانيق البلهاء المتزندقة تفصيلاً أربى على اقتلاع أصولها، واجتثاث عروقها من نزيز مستنقعات البُلْه المتلقفين كل غُثاء وغث، بل تتبعها في مخابث منابتها، فاكتسحها فلم يبقِ لها أثراً في أضابير الكذب يدل عليها.

وإذا كان القاضي رحمه الله تعالى قد استنزل جواد قلمه، وأرخى له العنان في آخر كلامه، تنزلاً مع أهل الغفلة الذين خاضوا في آيات الله تعالى بالتأويل المحرف المنحرف بعد أن فرغ من سابغات الحجة والبراهين، فذلك نكسة سنقف معه عندما نصل إليها، كما وقفنا مع غيره ممن نكص على عقبيه بعد الظفر بالحجة والفلج بالغلبة، لنبين له أن الحق أجلّ من هالات المؤولين، والإسلام ونبيه، ونبوته، وقرآنه أقدس عند الله من الفروض والتخيلات.

سوق القاضي بعض الروايات الطاعنة في العصمة

قال القاضي رحمه الله: وقد تَوَجَّهَتْ ههنا لبعض الطاعنين في عصمة نبينا محمد ﷺ سؤالات من الملحدين. منها ما روي من أن النبي ﷺ ـ كما

أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وأبو حاتم عن سعيد بن جبير، بسند منقطع ـ: لما قرأ في الصلاة أو خارجها سورة (والنجم) قال ـ أي قرأ ـ ﴿ أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ قال ـ أي جرى على لسانه ـ أو قال قائل سمع ما قاله عند تلاوة النبي ﷺ للآية الكريمة: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى، ويروى: لترتضى، وفي رواية: إن شفاعتها لترتجى، وإنها لمع الغرانيق العلى، وفي رواية أخرى: والغرانقة العلى، تلك للشفاعة ترتجى.

فلما ختم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم السورة سجد، وسجد معه المسلمون والكفار، لما سمعوه أثنى على آلهتهم. ومن السؤالات الطاعنة ما وقع في بعض الروايات أن الشيطان ألقى على لسان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تلك الكلمات، فسبق بها لسانه سهواً منه، ثم تنبَّه أو نبهه جبريل عليهما الصلاة والسلام لها.

وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان لحرصه على إيمان قومه تمنى أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه وبين قومه، أو تمنى ألا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه من الطعن فيهم، وفي آلهتهم، ولم يزل ﷺ على تمنيه هذا حتى نزلت سورة النجم، فقرأها، وسجد في آخرها وسجد معه من حضره من المسلمين والكفار، ثم جاءه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة، فلما بلغ ﷺ في قراءته الكلمتين الشيطانيتين قاله له جبريل: ما جئتك بهاتين الكلمتين، فحزن النبي ﷺ، فأنزل الله عليه تسلية له ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ الآية.

منهج القاضي في رد فرية الغرانيق

أولاً: ردها بتوهين أصلها ورواياتها

ثم مضى القاضي في سوق الروايات إلى أن قال: فاعلم ـ أكرمك الله ـ أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين.

أحدهما: في توهين أصله، وتضعيف روايته، والثاني: مبني على تسليمه تنزلاً، وإرخاء للعنان. أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به، وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل

صحيح وسقيم، ولقد صدق القاضي أبو بكر بن العلاء المالكي، حيث قال: لقد بُلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف بعض نقلته، واضطراب رواياته وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه وقع في الصلاة، وآخر يقول: في نادي قومه، وآخر يقول: إن النبي ﷺ قال الكلمات الغرنوقية وقد أصابته سنة، وآخر يقول: بل حدَّث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه ﷺ، وأن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل عليه السلام قال له: ما هكذا أقرأتك، وآخر يقول: إن النبي ﷺ لم يقرأ كلمات الشيطان، بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال جبريل: والله ما هكذا أنزلت، إلى غير ذلك من الأقوال المؤذنة بأن الشيطان له دخل في ذلك، مع أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا، وهذا كله صدر من اختلاف الرواة، ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين كالزهري، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن هشام، وسعيد بن جبير، ومحمد بن قيس، لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب من أصحاب الرسول ﷺ، وأكثر الطرق التي رويت منها عنهم فيها واهية ضعيفة، والمرفوع منها حديث شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال فيما أحسب، الشك المذكور في متن الحديث وأصله.

قال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا الإسناد، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغير أمية يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف هذا الحديث بروايته عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس، فالحديث منقطع، فقد بين لك أبو بكر البزار أن هذا الحديث لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا الطريق الذي رواه منه شعبة، وفيه من الضعف ما نبَّه عليه البزار وغيره من الأئمة من أنه لا يعرف من طريق غيره، مع اختلاف كلماته، واضطراب رواياته، وانقطاع سنده أو إرساله، والاختلاف في مواطن قراءته وكيفيته، أكان في الصلاة أم في نادي قومه، أو في سِنَته، أو حدّث به نفسه فسها وذكره، أو قاله الشيطان على لسانه، أو

أعلمهم به، وإنكار جبريل له عند عرضه عليه، مع وقوع الشك فيه الذي لا يوثق به، ولا حقيقة معه، وأما حديث الكلبي فمما لا يجوز ذكره، لأن الكلبي لا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه وكثرة كذبه، ووضعه الأحاديث كما قال عنه ابن معين، وهو متهم في دينه، قال عنه ابن حِبَّان: أنه في الدين غير مبين وكذبه أظهر من أن يذكر.

ثم ذكر القاضي حديث البخاري في السجدة وليس فيه تعرض من قريب أو بعيد لأكذوبة الغرانيق، ونقل الخفاجي شارح الشفاء قول الكرماني: ما قيل من أن سبب ذلك إلقاء الشيطان في أثناء قراءته ﷺ وذكر آلهتهم لا يتجه عقلاً ونقلاً.

ثم قال الكرماني: وأما سجود الجن المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما فكأنه استند فيه إلى سماع منه ﷺ، لأنه لم يحضر القصة لصغر سنه، ومثله لا يطلع عليه وكشف ذلك له بعيد، ولعل الأقرب إلى الصواب أن ذلك من باب المبالغة في تعميم الساجدين. ثم قال الكرماني: والصحيح أن الشيطان ألقى ما ألقاه في أسماع المشركين، فتوهموا أنه ﷺ قاله مدحاً لآلهتهم وارتضاء لها فسجدوا معه، وهو لا ينافي عصمة رسول الله ﷺ.

قلنا: وهذا التأويل يرد عليه أنه كان يجب على النبي ﷺ عدم إقرارهم على ما توهموه، والتنبيه على أنه من الشيطان لأنه ﷺ لا يقر باطلاً ولا سيما إذا كان ماساً بالعقيدة.

ثم قال القاضي عياض: هذا توهينه ـ أي حديث الغرانيق ـ من جهة طريق النقل، وهنا ذكر الخفاجي كلام ابن حجر في نقده لكلام ابن العربي أن طرق هذا الحديث كلها باطلة ونقده كلام عياض أنه لم يُخَرِّج أحد من أهل الصحة هذا الحديث وليس له سند متصل مع ضعف نقلته واضطراب رواياته، وأن من نقله من المفسرين وغيرهم لم يسنده أحد منهم ولا رفعه لصاحب بقوله: لا وجه له وعلل ذلك بما قدمناه.

ثم قال عياض: فأما توهينه ـ أي حديث الغرانيق ـ من جهة المعنى

ثانياً: توهين القصة من جهة العقل والمعنى

فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، قال القاري: قبل النبوة ولو قبل البلوغ فكيف يتصور وقوعها بعد تمام النبوة ونظام الرسالة-لا سيما وقت التلاوة ودرجها في القراءة؟ والمراد أن هذه الخصلة القبيحة الدنيئة من الرذالة وهي الدناءة والقول على الله بما لم يقله، ولا شيء أعظم رذالة وأحط دناءة من الافتراء لا سيما على الله عزّ وجلّ.

أما من تمنيه أن ينزل مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر، أو أن يتسوَّر عليه الشيطان ويتسلط عليه ويشبِّه عليه القرآن ويلبِّسه عليه ويخلط فيه ما ليس منه، حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه، ويستمر على اعتقاده حتى ينبهه جبريل عليه الصلاة والسلام، وذلك كله ممتنع في حقه عليه الصلاة والسلام ويقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمداً، وذلك كفر لأنه افتراء على الله وتبديل لكلامه بالزيادة فيه أو سهواً وهو ﷺ معصوم عن هذا كله بالإجماع، وقد قررنا بالبرهان -أي العقلي- والدليل القاطع والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمداً، ولا سهواً أو أن يتشبه ويتلبس عليه ما يلقيه الملك بما يلقيه الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقول على الله لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه وقد قال تعالى: ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ لقد كدتَ تركن إليهم شيئاً قليلاً إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ الآية.

وجه ثان في توهين أكذوبة الغرانيق من جهة المعنى والعقل

(ووجه ثان) في توهين حديث الغرانيق، وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً؛ وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، متنافر النظم، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، يخذل بعضه بعضاً، ويضرب بعضه بعضاً، ولما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك، لكونهم بلغاء أصحاب سليقة مستقيمة وألسنة فصيحة، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل، فكيف بمن رجح حلمه واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه.

وجه ثالث في توهين هذه الأكذوبة من جهة المعنى والعقل

(ووجه ثالث) في توهين أكذوبة الغرانيق أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين، والشمات بهم الفينة بعد الفينة، وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة، ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل رواية ودراية لركاكتها وتناقضها، فلو كان ذلك وقع وصحّ لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة، كما فعلوا مكابرة وعناداً في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة، وكذلك ما ورد في قصة القضية أي قضية الحديبية، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت، ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت، فما روي عن معاند فيها كلمة، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة، فدلَّ على بطلها، واجتثاث أصلها، ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدِّثين ليلبِّس على ضعفاء المسلمين الذين لم يقفوا على ما يناسب مقام النبوة وقدرها.

وجه رابع في توهين هذه الأقصوصة الخبيثة الغرنوقية

(ووجه رابع) في توهين القصة: ذكر الرواة لهذه القصة أن فيها نزلت ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ الآيتين، وهما تَرُدَّان الخبر الذي رووه، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري على الله بخلطه في القرآن ما لم يوح إليه، وأنه لولا أن ثبته الله على الحق لكاد يركن إليهم بمدح آلهتهم واتباع هواهم، ولكنه ﷺ لم يفعل شيئاً من ذلك، فمضمون هذا أن الله تعالى عصمه من أن يفتري عليه ما لم يقله وثبَّته حتى لم يركن إليهم قليلاً، فكيف كثيراً.

ورواة حديث الغرانيق يروون في أخبارهم الواهية أنه ﷺ زاد على الركون والافتراء مدح آلهتهم ـ وحاشاه الله من ذلك ـ وأنه قال عليه الصلاة والسلام: «افتريت على الله تعالى، وقلتَ ما لم يقل» هذا ضد مفهوم الآية، وهي تضعف الحديث لو صحّ فكيف والحال أنه لا صحة له، وهذا

المذكور في آية ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ مثل قوله تعالى: ﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾[1].

مناقشة القاضي في اتجاهه إلى التأويل في روايات القصة ومخاطرها

ثم قال القاضي عياض: وأما المأخذ الثاني في الكلام على مشكل حديث الغرانيق فمبنيٌّ على تسليم الحديث لو صح وقد أعاذنا الله من صحته. قلنا: هذه ردة في الفكر ونكوص عن الحق، وفتح لباب التشكيك والبلبلة، لأننا بعد أن أثبتنا بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة العقلية والنقلية سقوط جميع روايات هذه الأكذوبة البلهاء في أودية الوهن والضعف بل في هاوية الكذب والبطلان، فلا معنى أبداً لفرض ما لم يكن، ولا هو في معرض أن يكون، ولا سيما وقد أعاذنا الله تعالى بما نَصَب لنا من الآيات والدلائل القاطعة على عصمة النبي ﷺ من هذه الرذيلة الشنيعة التي أفسدت باختراعها عقائد كثير من المسلمين، فصدقوها في بلاهة وغفلة واستغفال، وانتهض بعض من وُسِموا بالعلم منهم إلى الدفاع عنها وتأويل رواياتها وتأويل وقوعها ـ في زعمهم ـ بما وضع في أيدي الملاحدة من أعداء الإسلام وزنادقة المتربصين بهذا الدين الدوائر، سلاحاً لمحاربة الإسلام.

هذا رجوع إلى الوراء ما كان ينبغي للقاضي الفاضل أن يرد حوضه، ولا أن يرمي بنفسه في مستنقعات نزيره الوبيء المتعفن بعد أن سبح في أنهار رياض الحق وعبّ من نميرها العذب، فكان بذلك أجلّ من حمل لواء الذود عن رسول الله ﷺ وأقام منائر عصمته، لينير الطريق للسالكين إلى معرفة قدره المنيف، حتى لا يشوب إيمانهم شَوْب من نزغات الزيغ عن الهوى.

وكان القاضي بنكوصه على عقبيه واستنزاله قلمه وفكره إلى حمأة الفروض والأوهام منتظماً في عقد من أبطلوا القصة الكاذبة المتزندقة

---

(١) سورة النساء، آية (١١٣).

الغرنوقية، ثم ارتدوا على أدبارهم إلى مزالق التأويل المحرَّف المنحرف، فكانوا بعد الضياء والنور والهداية كالسالكين في متاته المضلَّات التي تشتبه معالمها وتتعرج فجاجها ومناكبها، فلا يصلون إلى نهاية إلا وهم راجعون إلى نقطة البداية، تقودهم في متائههم حيرة الباطل ومزالق الأكاذيب.

تأويلات القاضي وبطلانها

ثم قال القاضي في مأخذه التأويلي: ولكن على ذلك فقد أجاب عن ذلك ـ أي عن طامات هذه الأكذوبة الخبيثة ـ أئمة المسلمين ـ يا حسرتا ويا أسفا على جهد يبذل في باطل منهار من أئمة المسلمين ـ بأجوبة منها الغث والسمين ـ ولا والله ما فيها سمين قط ـ فمنها ما روى قتادة ومقاتل ـ لعله مقاتل بن سليمان الكذاب ـ أنه ﷺ أصابته سِنَة؟؟ عند قراءته سورة النجم فجرى هذا الكلام ـ الخبيث ـ تلك الغرانيق ـ على لسانه، أو نطق به من غير شعور ولا قصد لغلبة النوم عليه، عليه الصلاة والسلام، أفٍ لهذا العلم الجهول الضلول؟؟.

قال عياض: وهذا التأويل لا يصح إذ لا يجوز على النبي ﷺ أن يقع منه مثل ذلك في حالة من أحواله لا في يقظة ولا في منام، لأنه ﷺ كما ثبت صحيحاً تنام عيناه ولا ينام قلبه، ولا يخلقه الله على لسانه، ولا يستولي عليه الشيطان لحفظ الله له في نومه ويقظته، لعصمته في جميع ما طريقه البلاغ عن الله تعالى من جميع العمد والسهو.

وفي قول الكلبي إن النبي ﷺ حدَّث نفسه فقال ذلك الشيطان على لسانه ـ بماذا حدَّث نفسه؟ ـ قال القاري: أي خطر في خاطره ـ والسؤال باق ما الذي خطر في خاطره؟ ـ قال القاري يبين قول عياض: فقال ذلك الشيطان أي الملقى في نفسه على لسانه أي سهواً، قال الدلجي: وهو باطل، إذ لم يجعل الله للشيطان عليه كغيره من الأنبياء سبيلاً، قال القاري: وأقول: لا يبعد أن يكون مراد الكلبي أن الشيطان قال ذلك على لسانه وفق صوته وحكاية بيانه، ولو صح هذا التأويل الفاسد لارتفعت الثقة بسائر النصوص القولية لجواز وجود هذا الاحتمال فيها. ثم نقول: ما الداعي إلى حسن الظن بهذا الكلبي إلى هذا الحد وهو كذوب متهم

برقة الدين وأنه سبائي، وقوله صريح في أن النبي ﷺ ـ وحاشاه ـ حدَّث نفسه بما ألقى الشيطان على لسانه وهو كفر صريح، فلا يفيد فيه قول القاري شيئاً لأن محل الفجور فيه كون النبي ﷺ حدَّث نفسه بعين ما ألقاه الشيطان على لسانه من كلمات الكفر، وهو كفر بواح يستحيل أن يقع من النبي ﷺ سواء أكان إلقاء الشيطان محاكياً صوته وبيانه أو كان إدخالاً له في القرآن.

ثم قال عياض: وفي رواية ابن شهاب: وسها ﷺ في نطقه بذلك فلما أحس بذلك قال ﷺ: إنما ذلك من الشيطان، وكل هذا لا يصح أن يقوله ﷺ لا سهواً ولا قصداً لحفظ الله له عن مثله، ولا يصحّ أن يتقوّله الشيطان على لسانه أي ينطق به محاكياً لقوله ونطقه، فيلبس الوحي بغيره لمنع الله تعالى عن تسلّطه عليه بمثله، ولما يقتضيه من رفع الثقة في كل وحي يأتيه بعد ذلك.

وقيل في الجواب عما ذكر: لعلَّ النبي ﷺ قاله ـ أي كلام الشيطان ـ في أثناء قراءته وتلاوته لسورة النجم على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار، والاستهزاء والسخرية وهذا أُسند إلى ابن الباقلاني[1] وابن العربي.

ثم قال عياض: والذي يظهر ويترجح في تأويل هذا الحديث ـ الباطل ـ عند ابن الباقلاني أو ابن العربي، وعند غيره من المحققين ـ أين هو التحقيق؟ ـ على فرض تسليمه ـ أي تسليم وقوعه منه ﷺ وأنه نطق بكلام الشيطان، معاذ الله أن يكون شيء من ذلك وقع من سيد المرسلين ـ أن النبي ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً، ويفصِّل الآيات تفصيلاً في قراءته كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكنات، ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكياً نغمة النبي ﷺ، بحيث يسمعه من دنا منه إليه من الكفار، فظنوها ـ أي تلك الكلمات الشيطانية التي دسَّها الشيطان في تلاوة رسول الله ﷺ محاكياً لصوته ـ من قوله ﷺ، وأشاعوها ولم يقدح ذلك عند المسلمين، ولم يلتبس عليهم القرآن بغيره لحفظهم

---

(١) يراجع كتابه (نكت الانتصار).

السورة قبل ذلك ـ أي قبل اختلاق الشيطان كلماته الخبيثة ـ على ما أنزل الله، وتحققهم من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان وعيبها على ما عرف منه ﷺ. وهذا الكلام خطابي لا يفيد شيئاً، وفساده ظاهره، لأن الأمر لو كان كذلك لأدى إلى التلبيس.

قال القاري: ولا يخفى أن ما بين السكتات لا يتصور فيه جميع تلك الكلمات المختلقة، ويبعد كون كل كلمة في حال سكتة ـ قلنا: هذا كلام جيد معقول المعنى موافق لمألوف الناس، ولكن القاري أسرع فأفسد حسن هذا الكلام الجيد فقال: فالظاهر أنه بعد قراءته ﷺ ومذمته الأصنام بقوله: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ وقع له عليه الصلاة والسلام سكتة طويلة لعارض من نحو شغله أو فكره، فانتهز الشيطان الفرصة وألقى تلك الجملة وسمعها الكفار دون الأبرار.

قلنا: فليتأمل العقلاء هذا الكلام الذي أراد به (القاري) تصحيح هذا الجواب الباطل الفاسد المفسد، وما فيه من تمحل غثّ لا يقبله إلا من قبل قصة الغرانيق وصدّقها في بلاهة ساهمة، ويزعم أن كلامه ليس كما توهم الدلجي بأن هذا قول غير مرضي لإيذانه بأن الشيطان كان له عليه سبيل بتمكنه من دسه خلال تلاوته كلام ربه، وكلام الدلجي ليس له دافع لقوة وروده، وليست المسألة مسألة محققين وأسماء طنانة.

وقد زاد القاري الطين بلّة، فقال: ولا يخفى أن شيخ الإسلام، خاتمة الحفاظ ابن حجر العسقلاني في شرحه للبخاري أطال في ثبوت هذه القصة ـ نعوذ بالله من الحور بعد الكور ـ وأن لها طرقاً صحيحة، وطرقاً أخرى كثيرة صريحة تدل على أصل القضية، فلا بد من تأويلها، وهذا أحسن ما قيل في التأويل، : إن الشيطان ألقى ذلك في سكتة من سكتاته، ولم يتفطن له عليه الصلاة والسلام. أفٍ لمشيخات وألقاب تقذف بأصحابها إلى هاوية تقليد أصحاب الألقاب والهالات، ولو كان في ذلك التقليد المتبلّد هدم لبناء أصول الإيمان ـ وقد قدمنا مناقشة ابن حجر فيما ذهب إليه في روايات القصة الغرنوقية من تأويل محرَّف منحرف.

والحافظ ابن حجر بين أن روايات القصة كلها مرسلة ومنقطعة، وليس فيها حديث واحد متصل بإسناد صحيح سوى حديث سعيد ابن جبير عن ابن عباس مع الشك في متنه، وهذا الشك يُلحقه بسائر روايات القضية في الوهن والضعف، وبعض المراسيل التي صحَّحها ابن حجر إلى من أرسلوها لا تقوم بها حجة قط في الأمور الأصولية العقدية كعصمة الأنبياء والأخبار عن الله تعالى في الأمور البلاغية وعدم التقوُّل على الله في وحيه.

أما أن يكون هذا الذي زعمه (القاري) أحسن ما قيل في التأويل فهو كلام باطل كما بيَّنه الدلجي فيما حكاه عنه (القاري) وإن حاول أن يجعله غيره.

وقول (القاري): ولم يتفطن له ـ أي لقول الشيطان، تلك الغرانيق العلى ـ النبي ﷺ يحمل في طياته ما يحمل من سوء التقدير لمكانة النبي ﷺ وهو يتلقَّى القرآن من لدن حكيم عليم، ثم نتساءل ولا ننتظر جواباً: ما الذي شغل النبي ﷺ أو فكره حتى سكت سكتة طويلة تمكن الشيطان فيها من إلقاء تلك الجملة الكافرة الفاجرة؟ وكيف اختلفت عليها أسماع الأبرار عن أسماع الكفار؟ وكيف لم يتنبَّه ولم ينبه النبي ﷺ الناس إلى ما فيها من كفر وضلال، وهو بمقتضى بداهة كونه رسولاً يجب عليه ألا يسكت على ما يعلم أنه كان في مجلسه من أخبث الكفر؟.

ثم ذكر عياض عن موسى بن عقبة صاحب المغازي نحو هذا التأويل، ثم مضى القاضي عياض في تكميل كلامه على الآية ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ فقال ـ وقد عثر ـ فمعنى (تمنى) تلا، ولم يجد كغيره من جميع من ذهب إلى هذا المعنى في التمني سوى الشاهد الفذ في اللغة جاهلية وإسلاماً، وهو البيت المنسوب إلى حسان بن ثابت.

والآية التي ذكرها وذكرها غيره وهي قوله تعالى: ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ حجة عليه وعليهم وقد تعلقوا منها بأوهى من بيت

العنكبوت، واضطروا إلى حمل الاستثناء على المنقطع الذي هو في حقيقته استدراك، وهذا خلاف الأصل في الاستثناء، والأماني في الآية جمع أمنية، وهي التشهّي والرغبة فكأنه قيل في وصف أولئك اليهود: إنهم لا يعلمون كتابهم التوراة إلا تشهياً من عند أنفسهم ورغائب في بواطنهم، فيؤولون كتاب الله على مقتضاها جهلاً بالحق، ويكون الاستثناء حينئذ متصلاً لأنّ التشهّي النفسي والرغائب المحبوبة من قبيل الإدراكات، وإن كانت باطلة.

ثم ذكر عياض تأويلاً في القصة الغرنوقية عن مجاهد جاء فيه أن الكلمة هي: والغرانقة العلى عطفاً على اللاّت والعزّى، فتكون قرآناً نزل ثم نسخ. . . لتأويل المشركين على أن المراد به آلهتهم، مع أن المقصود بـه ـ على زعم الرواية الباطلة ـ الملائكة وشفاعتهم مرجوة.

قلنا: وقد قيل: كيف والمعطوف عليه مدخـول الإنكار، فيكـون المعطوف كذلك، أي مُنْكرٌ وشفاعة الملائكة لا تنكر، فهذا التأويل ـ كما قال الدلجي ـ مباين للمقام، ومنـافٍ لسياق الكـلام فلا يعـوّل عليه. وحسبك أنه من تفسير الكلبي الوضاع الكذوب، فعدّ عن ذا كيف أكلك للضب.

وهو من أفسد ما قيل، لأن علم الله تعالى المحيط بما كان وما هو كائن وما يكون يأبى أن ينزل الله تعالى قرآناً يعلم أنه سيكون لحظة نزوله وسيلة إلى التلبيس والتضليل، ثم ينسخه ساعة نزوله، ولا يجدي في دفع هذا ما زينوه من البهرج في القول من أن الله نسخ كثيراً من تلاوة ما أنزله قرآناً وأبقى حكمه ليضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، لأن أشبه بكلام أغمار العامة والغوغاء الذين لا يعلمون شأن الله تعالى في هداية من يشاء من عباده، وإضلال من يشاء منهم، لأن ذلك الإضلال والهداية وضع إلّهي يجري على سنن الله تعالى في حكمة تدبير خلقه، فلا يضل إلا من أعذر إليه، ولا يهدي إلا من آتاه توفيقاً لفهم دلائله وبراهينه.

ثم ختم عياض كلامه في هذه القصة الخبيثة الكاذبة بذكر تأويل لا يتمشى على سياق رواية من روايات القصة، وإنما هو تأويل فرض فيه

ثبوت القصة على أي نحو من الثبوت، ثم روى أن إثباتها يقدح في تفكير مثبتيها ويدل على مرض قلوبهم وفساد عقولهم، لما تؤدي إليه من مخاطر ومحذورات، أو لما يظهر فيها من كذب أبله وإلحاد مستغفل فقال: وقيل: إن النبي ﷺ لما قرأ السورة وبلغ ذكر اللآت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمها، فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمات ليخلطوا في تلاوته ويشغبوا عليه على عادتهم، وقولهم: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلكم تغلبون﴾ ونسب ذلك للشيطان لحمله لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه بين الغوغاء والدهماء، فحزن النبي ﷺ من كذبهم عليه ونسبتهم له أنه قد قاله افتراء عليه، فسلّاه الله تعالى بقوله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ وهذا التأويل من أبعد تأويلات الباطل وأوهنها.

تأمل وأسف واعتبار

وإلى هنا يلتقط القلم أنفاسه ليقف متأملاً في حكمة الله تعالى في صنع الأفكار، وتوجيه المفكرين، على ضوء ما كتب القاضي عياض في (شفائه) عامة، وفي أقصوصة الغرانيق خاصة، فهو في شفائه آية من آيات العبقرية البشرية والسمو الفكري والتحصيل الذهني والأدب المعنوي واللفظي، والإقناع البرهاني والحماسة الإيمانية، والترسل الروحي، والإشراق القلبي، والاتساق المنطقي، والتنسيق البياني. كل ذلك في (الشفاء) كأنه منائر هداية للتعريف بقدر النبي ﷺ، ومعالمُ دلالة في مهايع السالكين إلى آفاق مشارف الذرى ليشهدوا بأبصار عقولهم، وبصائر قلوبهم وإشراق أرواحهم حقائق النبوة في نبوة محمد ﷺ، وحكمة الاصطفاء للرسالات الإلٓهية في رسالة محمد ﷺ بياناً لقول العزيز الحكيم: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

وهو في قصة الغرانيق قبس من شفائه، بدأ نوراً على نور، وهدى ورحمة وفرقاناً يفصل بين الحق والباطل، وبياناً مبيناً يصور في صدق وإخلاص إيمان العالِمين وعِلْم المخلصين المؤمنين، والإيمان اتباع في محبة، ومحبة في تسليم «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»

« ولا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالديه » و« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه ممّا سواهما » وهذا الحب إيثار مطلق لا يوضع شيء قط معه في ميزان، فمجرد الاتباع لا يحقق الإيمان، وكم من متابعة خلت عن الحب أودت بالمتابعين وهوت بهم إلى قرار «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

وبهذه البداءة المنورة الهادية المهدية الصادقة المصدقة كان القاضي عياض أسوة لكل من جاء بعده من أهل الصدق والإخلاص في معرفة قدر النبي ﷺ، وفي اتباعه اتباعاً يغمره الحب العاقل، والمعرفة البرهانية، وكانت أقصوصة الغرانيق الخبيثة الكاذبة ابتلاء وامتحاناً وضع أسافيّه الزنادقة الملحدون ﴿ ولَيَعْلَمن الله الذين آمنوا ولَيَعْلَمن المنافقين ﴾، وهي قصة قديمة عاصرت هزيمة اليهود هزيمة منكرة لم تقم لهم بعدها قائمة، على أيدي طلائع المسلمين ومبادىء الإسلام وشرائعه في كتابه المبين وسنة رسوله الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه، وعاصرت هزيمة الوثنيين من الأعاجم الملحدين، وعاصرت فتنة الملاحدة السبئيين، والخوارج من الجفاة المتعربين، ثم مرت في حرائق الفتن الطائفية والسياسية تحدوها الانحرافات التأويلية في القرآن والجرأة على السنة النبوية ونصوصها من الأحاديث الصحيحة، حتى أدركها النفاق الباطني على أيدي القرامطة والإسماعيليين وإخوان الصفا ومن سعى سعيهم في إطفاء نور الله، ويأبى الله إلا أن يؤيد دينه ويتم نوره ولو كره الملحدون، وكل طائفة من هؤلاء يمكن أن تكون أكذوبة الغرانيق من صنعها أو لها إسهام في افترائها.

وانتهض عياض وقد رأى هذا الركام الإلحادي في أكذوبة الغرانيق يخدع بعض من سلمت قلوبهم وبالغوا في إحسان الظن بكل رواية ولا سيما رواية من لهم رنين أسماء في سجل العلم الإسلامي، فقبلوا هذه الروايات، أو ألصقت بأسمائهم فقبلها من بعدهم ممن يُرى فيهم أسوة الاقتداء بهم، وانتشرت بين من يتعالى بالتحديث، فيجعل همه في تلقّي العالي والنازل من الأسانيد، ولا ينظر إلى المتون والنصوص وموافقتها لأصول الإيمان

ودعائم العقيدة أو عدم موافقتها، لذلك كما انتشرت على ألسنة المفسِّرين الجمَّاعين للغث والسمين، والغثاء والزبد، والخالص والمشوب، والصحيح والسقيم، والإسرائيليات الكاذبة الملبثة بالمين والافتراء، والمؤرخين اللمامين من حاطبي الظلام الذين لا يبالي أحدهم أقبضت يده على صلّ وعقرب أو على لؤلؤة أو عقد من ذهب - ينخل ويفتش ويبحث ويناقش ويقيس ويزن، وينظر ويبرهن حتى أتى على جميع روايات الأكذوبة البلهاء فأمطرها وابلاً من سهام نقده، وأنزل عليها صيِّباً من سماء رسوخه في معرفة علوم النقد رواية ودراية حتى زيَّفها وبهرجها وفشَّ ورمها، وبطَّ دملها، فسال منها صديد الكذب والضلال، وعم ولم يخص، جمع ولم يستثن، وباءت القصَة وباء رواتها والمصدقين لها، المتشبثين برواياتها وقد صفَّرت أيديهم وخوى وفاضهم من شبهة يتعلقون بها أو وهم يتشبثون بـه في إمكان وجودها.

فما عدا مما بدا أيها القاضي الأجلّ وقد أكرمك الله بفضله وفضّلك بإكرامه حتى ترتد متقهقراً، وتنكص على عقبيك لتفرض أمراً لم يكن قط في الوجود بأنه يمكن أن يكون قد كان؟ أفكنت - أيها القاضي العليم الأجل - عابثاً في بداءتك النيِّرة الصادقة، إذ زيفت بالحجة والبرهان والأدلة العقلية والنقلية جميع روايات الأكذوبة الغرنوقية البلهاء المتزندقة، ثم بدا لك بداء، فرجعت عن تحقيقك وبحثك وحججك وأدلتك وبراهينك؟ وخضت كالذي خاضوا في تأويلات محرِّفة منحرفة، تهدم ما بذلت من جهد صادق في تقويض دعائم هذه الأكذوبة الخبيثة، وأبنت فيه للناس المحجة حتى أبصرها المؤمنون بيضاء نقية ليلها كنهارها، فاطمأنوا عـلى عقيدتهم وإسلامهم وكتابهم، وعرفوا قدر نبيهم ﷺ بما منَّ الله عليك من فضله ووفقك لإقامة صرح الحق بإنعامه وإحسانه، والله يختص برحمته وفضله من يشاء من عباده، وهو جلّ شأنه ذو الفضل العظيم.

ورأيك أيها القاضي الأجلّ في بدايتك خير للإسلام والمسلمين من رأيك في نهايتك، ولله في خلقه شؤون، وهو ولي التوفيق.

رأي القسطلاني
صاحب المواهب وشارحه الزرقاني

وقد أسهب القسطلاني في المواهب اللدنية وشارحها الإمام الزرقاني فذهبا مذهب المنكرين للقصة القاطعين بنفيهـا في فاتحة كلامهما، ثم ذهبا مع الناكصين المرتدين على أعقابهم للتأويل وفرض وقوع القصة الكاذبة، وقد اعتمدا على عياض في كلامه أولاً وآخراً وعلى نقل كلام ابن حجر في فتحه في كتاب التفسير من البخاري، وقد بيَّنا مـا في ذلك من الخـطأ والتعسف.

رأي أبي البركات النسفي

جرى العلاّمة النسفي على أن معنى (تمنى) قرأ، وذكر البيت (الفذ) المنسوب إلى حسان بن ثابت، وكذلـك مشى في معنى (أمنيته) قـال: تلاوته، ثم ذكر رواية قراءة النبي ﷺ سورة (والنجم) في نادي قومه حتى بلغ قوله (ومناة الثالثة الأخرى) فجرى على لسانه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهنّ لترتجى، ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه، وقيل نبهه جبريل عليه السلام، فأخبرهم أن ذلك كان من الشيطان، وهذا القول غير مرضي لأنه لا يخلو إما أن يتكلم النبي ﷺ بها عامداً وأنه لا يجوز لأنه كفر، ولأنه بعث طاعناً للأصنام لا مادحاً لها، أو أجرى الشيطان ذلك على لسان النبي عليه السلام جبراً بحيث لا يقدر على الامتناع منه، وهو ممتنع لأن الشيطان لا يقدر على ذلك في حق غيره بقوله تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ ففي حقه أولى، أو جرى ذلك على

لسانه سهواً وغفلة وهو مردود أيضاً لأنه لا يجوز مثل هذه الغفلة في حال تبليغ الوحي، ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله، ولأنه تعالى قال في وصفه المنزل عليه: ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ وقال: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

فلما بطلت هذه الوجوه لم يبقَ إلا وجه واحد وهو أنه عليه السلام سكت عند قوله: (ومناة الثالثة الأخرى)، فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلاً بقراءة النبي ﷺ، فوقع عند بعضهم أنه عليه السلام هو الذي تكلم بها، فيكون هذا إلقاء في قراءة النبي عليه السلام، وكان الشيطان يتكلم في زمن النبي عليه السلام ويسمع كلامه.

وكلام النسفي رحمه الله تعالى مثل كلام غيره من العلماء الذين أنكروا وقوع القصة ولكنهم نكصوا على أعقابهم أمام تعدد رواياتها، فذهبوا إلى التأويل في كيفية وقوعها تأويلاً يبعدها عن الأخطار والمحذورات اللازمة لها في نظرهم، وهذا يدلنا على أن الطامة الكبرى في دفع هؤلاء العلماء إلى التأويلات تكمن في الروايات الباطلة، تلك الروايات التي فرضت نفسها ثم فرضت وقوع القصة بمفاسدها وأخطارها على أصل أصول الإيمان في العقيدة من جميع جوانبها، وهذا مسلك لا يعرفه الفكر المسلم.

على أن تأويل النسفي لم يأت في رواية من الروايات الباطلة التي تزعم وقوع القصة الكاذبة.

رأي الشوكاني

ذكر الشوكاني في تفسيره (فتح القدير) الرواية الطويلة في سبب نزول الآية كما رواها محمد بن كعب القرظي مرسلة ثم عقَّب عليها فقال: قالوا: ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته ـ بل بطلانه ـ فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه، ومع عدم الإمام فخر الدين الرازي من دلائل القرآن على البطلان، ثم قال

الشوكاني: قال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل، ثم ذكر كلام البيهقي وطعنه في رواة القصة، ثم ذكر الشوكاني كلام ابن خزيمة كما أورده الرازي، فقال الشوكاني وقال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة، ثم ساق كلام القاضي عياض في الشفاء فقال: أجمعت الأمة فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً.

ومع ذلك كله فقد انضم الشوكاني إلى المتأولين الذين سبحوا في لجج التعسف والتأويل ـ على فرض وقوع القصة. وصحة الرواية.

ولا ندري ما الذي يحمل هؤلاء العلماء يرتدون بعد تقريرهم الحق على فرض باطل، هم الذين أبطلوه بالبراهين والدلائل الكثيرة، ثم يذهبون في متاهة التأويل المتعسف؟.

إن أدلة بطلان هذه الأقصوصة الكاذبة الخبيثة إما أن تكون صحيحة يقتنع بها موردوها، وإما أن تكون زائفة أو مشكوكاً فيها، فإن كانت صحيحة فلا معنى أبداً للعدول عنها، وفتح باب التأويل الموبق للعقيدة، وإما أن تكون زائفة أو مشكوكاً فيها، فما كان ينبغي لمن يحترم عقله وعلمه التشبث بها وإيرادها في معرض البرهنة والتدليل. ولكن الأمر بيد الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وإليه المصير.

رأي البغوي

بدأ البغوي في تفسير آية ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ بقوله: قال ابن عباس، ومحمد ابن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين، ثم ساق حديث محمد بن كعب كما ساقه الطبري والسيوطي وليس فيه قال ابن عباس، وهو حديث طويل فيه ذكر رجوع مهاجري الحبشة الأولين إثر كذبة شيطانية، ثم أخذ البغوي في تفسير الآية فقال: إلا إذا تمنى، قال بعضهم: ـ أي ممن تقدم زمناً على البغوي ـ يعني أحبَّ شيئاً واشتهاه وحدث به نفسه مما لم يؤمر به ألقى

الشيطان في أمنيته ـ يعني مراده ـ وهذا التفسير يردّ على ابن القيم زعمه أن السلف (كلهم) على تفسير (تمنى) تلا وقرأ، ثم قال البغوي: وعن ابن عباس قال: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ووجد إليه سبيلاً، وما من نبي إلا تمنى أن يؤمن قومه ـ هذا جاء في حديث عبد بن حميد ـ ولم يتمن ذلك نبي إلا ألقى الشيطان عليه ما يرضى به قومه، فينسخ الله ما يلقي الشيطان، وأكثر المفسرين قالوا معنى قوله تمنى يعني تلا وقرأ كتاب الله تعالى ألقى الشيطان في أمنيته يعني تلاوته، ثم أنشد البغوي الشاهد الفذ الذي ساقه جميع من ذهب إلى هذا المعنى وهو بيت منسوب إلى حسان ابن ثابت في شعر يزعمون أنه قاله في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنهما.

ثم أورد البغوي اعتراضاً على الرواية التي ساقها وأجاب عنه فقال: فإن قيل: كيف يجوز الغلط في التلاوة على النبي ﷺ وكان معصوماً من الغلط في أصل الدين. ثم أجاب البغوي بأجوبة لا تخرج عن التأويلات التي ذكرها المتأولون وكلها بعيدة عن نصِّ رواياتهم وهي تأويلات باطلة.

كلام صاحب الإبريز
من مقال للشيخ محمد عبده

قال القاسمي نقلاً عن الشيخ محمد عبده: قال في الإبريز: العصمة من العقائد التي يطلب فيها اليقين، فالحديث الذي يريد خرمها ونقضها لا يقبل على أي وجه جاء، وقد عدّ الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة من الأخبار التي يجب القطع بكذبها، هذا لو فرض اتصال الحديث، فما ظنك بالمراسيل، وإنما الخلاف في الاحتجاج بالمرسل وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام لا في أصول العقائد، ومعاقد الإيمان.

رأي ابن حزم
في كذب قصة الغرانيق وبطلانها

قال أبو محمد بن حزم في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل): والحديث الكاذب الذي لم يصح قط في قراءته عليه السلام في ﴿ والنجم

إذا هوى﴾ وذكروا تلك الزيادة المفتراة، وأنها لهي الغرانيق العلا وإن شفاعتها لترتجى. . . ثم قال ابن حزم: وأما الحديث الذي فيه وإنهن الغرانيق العلا وإن شفاعتها لترتجى فكذب بحت موضوع لأنه لم يصح قط من طريق النقل، ولا معنى للاشتغال به إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد.

رأي العلاّمة صدِّيق حسن خان
في كتابه (فتح البيان في مقاصد القرآن)

تلخيص ما ذكره في تفسيره (فتح البيان).

قال: ﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ معنى تمنى تشهَّى وهيأ في نفسه ما يهواه، ثم ذكر عن الواحدي ما قاله المفسرون ورواياتهم التي ذكرت قصة الغرانيق، ثم قال: ولم يصح شيء من هذا ولا ثبت بوجه من الوجوه ومع عدم صحته، بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه، وساق آيات ذكرها المحققون في رد فرية الغرانيق.

وهنا في هامش الكتاب قال رجل فاضل من أهل العلم والإيمان لم نعرف عنه إلا أن اسمه (المطيعي) ولعله مصحح المطبعة ـ وكلامه يدل على أنه من أهل العلم ـ: هذه الرواية أدخلها على الإسلام يهودي، نُجَلِّي الغموض عنه وإن وثقه بعض الناس، فإن هذه الرواية تشجب هذا التوثيق وتحجبه، ذلك أن ابن سعد في الطبقات يرويها عن رجل يدعى عبدالله بن حنطب ليس له صحبة، والطبري يرويها عن محمد بن كعب القرظي كان أبوه من بني قريظة وأن النبي ﷺ أطلقه لأنه رآه دون ـ البلوغ، فتزوج وخلَّف محمداً هذا وقد ولد بعد وفاة النبي ﷺ.

قال (المطيعي) ومن هنا ندرك أن هذه الرواية لم يجرؤ واحد على إسنادها لأحد الصحابة رضوان الله عليهم، وربما تكون قد دُسّت من طريق بني قريظة، وكان إرسالهم إياها عن طريق ابن حنطب وابن كعب.

ونحن لا نسرع بالطعن على أحد لمجرد أنه من أصل يهودي، فقد

كان في مسلمي اليهود كثير من صادقي الإيمان، ولكنا نميل إلى أن هذه الأكذوبة أُلصقت إلصاقاً ببعض أهل الصدق من أئمة العلماء.

ثم حكى صدِّيق خان كلام البزار في عدم صحة نقل الرواية وإسنادها، وكلام البيهقي وكلام ابن خزيمة وكلام عياض وابن العربي وغيرهم ممن أنكر القصة.

وكلام صدِّيق خان مأخوذ من كلام الشوكاني في تفسيره (فتح القدير) ولم يسنده إليه.

(رأي القاسمي)

قال محمد جمال الدين القاسمي في تفسيره (محاسن التأويل) في قوله: ﴿ إلا إذا تمنَّى ﴾ أي رغب في انتشار دعوته وسرعة علو شريعته: ثم قال في قوله: ﴿ ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ أي بما يصدّ عنها ويصرف المدعوين عن إجابتها. ثم قال: هذا هو الصواب في تفسير الآية، وهي غنية عن التطويل في التأويل، لولا ما أحوج المحقِّقين إلى ردِّ ما دسه بعض الرواة هنا من الأباطيل.

ثم ساق القاسمي كلام ابن تيمية كما حكيناه من فتاويه.

ثم اعترض القاسمي على رأي ابن تيمية ونقده فقال: وفي كلامه ـأي كلام ابن تيمية ـ نظر من وجوه:

أولاً: دعواه أن المأثور يوافق القرآن فإنه ذهاب إلى أن الإلقاء إلقاء في الآيات ولا تدل عليه الآية لا مطابقة ولا التزاماً، بل القول بذلك ينافي التنزيل منافاة النار للماء.

ثانياً: دعواه أن تلك الرواية نَقْلُها ثابت لا يمكن القدح فيه، فقد قدح فيها من لا يحصى من المتقدِّمين والمتأخرين، ويكفي أن تلميذه ابن كثير قال: قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح، وتعداد طرقها بعد ضعف

أصلها لا يفيد، وهذه شبهة يعتمدها كثير من الواقفين مع الروايات يظنون أن الضعيف بكثرة طرقه يقوى والحال أن الضعيف ضعيف كيفما جاء.

ثالثاً: اعتراف ابن تيمية أن السؤال وارد على تقدير ثبوتها وإلقاء الشيطان ذلك في مسامعهم مما يبرهن أن فيها مغامز تنبذها العقول كما نبذتها صحة النقول.

رأي المفسّر اللغوي المحقق
أثير الدين أبي حيان

وهو رحمة الله عليه أحسن من سلك مسلك النجاة والبعد عن مزالق التفسخ الفكري، واعتصم بالتوفيق.

قال في كتابه العظيم (البحر) ونقله عنه تلميذه ابن أم مكتوم القيسي في (الدر اللقيط): لَّما ذكر الله تعالى أنه يدافع عن الذين آمنوا، وأنه تعالى أذن للمؤمنين في القتال، وأنهم أُخرجوا من ديارهم، وذكر مسلاة رسول الله ﷺ بتكذيب من تقدم من الأمم لأنبيائهم، وما آل إليه أمرهم من الإهلاك إثر التكذيب وبعد الإمهال، وأمره أن ينادي الناس ويخبرهم أنه نذير لهم بعد أن استعجلوا بالعذاب، وأنه ليس له تقديم العذاب ولا تأخيره، ذكر له تعالى مسلاة ثانية باعتبار من مضى من الرسل والأنبياء، وهو أنهم كانوا حريصين على إيمان قومهم، متمنِّين لذلك، مثابرين عليه، وأنه ما منهم أحد إلا وكان الشيطان يراغمه بتزيين الكفر لقومه، وبثِّ ذلك إليهم وإلقائه في نفوسهم، كما أنه ﷺ كان من أحرص الناس على هدي قومه، وكان فيهم شياطين كالنضربن الحارث يلقون لقومهم وللوافدين عليهم شبهاً يثبطون بها عن الإسلام، ولذلك جاء قبل هذه الآية ﴿ والذين سعَوا في آياتنا معاجزين ﴾ وسعيهم بإلقاء الشبه في قلوب من استمالوهم ونسب ذلك إلى الشيطان لأنه هو المغوي والمحرك شياطين الإنس للإغواء كما قال ﴿ لأغوينَّهم ﴾.

وقيل: إن الشيطان هنا هو جنس يراد به شياطين الإنس، والضمير

في أمنيته عائد على الشيطان، أي في أمنية نفسه، أي بسبب أمنية نفسه، ومفعول ألقى محذوف لفهم المعنى وهو الشر والكفر، ومخالفة ذلك الرسول أو النبي لأن الشيطان ليس يلقي الخير.

ومعنى ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ أي يزيل تلك الشبه شيئاً فشيئاً حتى يسلم الناس كما قال ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ﴾ ويحكم الله آياته أي معجزاته يظهرها محكمة لا لبس فيها، ليجعل ما يلقي الشيطان من تلك الشبه وزخارف القول فتنة لمريض القلب ولقاسيه، وليعلم من أوتي العلم أن ما تمنّى الرسول والنبي من هداية قومه وإيمانهم هو الحق.

ثم قال أبو حيان رحمه الله تعالى: وهذه الآية ليس فيها إسناد شيء إلى رسول الله ﷺ إنما تضمنت حالة من كان قبله من الرسل والأنبياء إذا تمنّوا.

وذكر المفسرون في كتبهم، ابن عطية، والزمخشري فمن قبلهما ومن بعدهما ما لا يجوز وقوعه من آحاد المؤمنين منسوباً إلى المعصوم صلوات الله عليه، وأطالوا في ذلك وفي تقريره سؤالاً وجواباً، وهي قصة سُئل عنها الإمام محمد بن اسحاق جامع السيرة النبوية ـ وهذا وهم وغلط من أبي حيان، والذي سُئل عن قصة الغرانيق فقال هذه الكلمة الفاصلة هو ابن إسحاق الحافظ الإمام ابن خزيمة صاحب الصحيح ـ فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنّف في ذلك كتاباً كما صرح بذلك الرازي في تفسيره.

ثم قال أبو حيان: وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وقال: إن رواتها مطعون عليهم، وليس في الصحاح ولا في التصانيف الحديثية شيء مما ذكروه فوجب اطّراحه، ولذلك نزّهت كتابي عن ذكره فيه.

والعجب من نقل هذا وهم يتلون في كتاب الله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى، ما ضلّ صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى ﴾ وقال تعالى آمراً لنبيه ﷺ: ﴿ قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء

نفسي، إن أتبع إلا ما يُوحى إليّ ﴾ وقال تعالى: ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدتَ تركن إليهم ﴾ الآية فالتثبيت واقع والمقاربة منفية، وقال تعالى: ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ وقال تعالى: ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾.

وهذه نصوص تشهد بعصمته ﷺ، وأما من جهة المعقول فلا يمكن ذلك لأن تجويزه يطرق إلى تجويزه في جميع الأحكام والشريعة، فلا يؤمن فيها التبديل والتغيير واستحالة ذلك معلومة.

قلنا: وهذا الذي ندين الله به ونعتقده، ونرجو من كرم الله تعالى أن يثبتنا عليه حتى نلقاه، وهو ولي التوفيق.

الجَهـرُ بالدّعوَة
وكفاح النضال الصّبور

كان إسلام عمر ابن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب إرهاصاً للجهر بالدعوة

كان إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما والدعوة مستسرة في دار الأرقم إرهاصاً بدخول دعوة الإسلام الناشئة المتخفية دوراً جديداً، هو دور العلانية والجهارة، مع ما يصحبه من كفاح صبور ونضال مرير وأزمات شديدة متفاقمة، يصطدم بها محمد رسول الله ﷺ وأصحابه من القلة السابقة الذين آمنوا بالله ورسوله، متسللين تحت جنح الظلام، يمشون على أطراف أصابعهم حتى يصلوا إلى معهد الدعوة، أول معهد في الإسلام، في دار الأرقم، تحت ظل الصفا على مشهد من الكعبة المشرفة، وكان هذا المعهد الذي اختاره الله لرسوله ﷺ لبث دعوته همساً ومناجاة مصدر إشعاع الدعوة، ومشرق نورها، ومطلع هدايتها، ومنتزل إلهامها، ومَدْرس مدارساتها، ومهبط وحيها.

دار الأرقم أول معهد في الإسلام لدراسة حقائق هذا الدين القيم

يجلس فيه النبي ﷺ وحوله صفوة السُّبَق إلى الهدى ودين الحق، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بما يعلِّمه الله من وحيه وتنزيل كتابه، ويؤدبهم بأدبه النفسي الذي ربَّاه الله عليه، ونشأه على هديه، ويفقههم في الدين، ويرشدهم إلى مراشد الحياة، ومحاسنها، ويلقِّنهم بِسَمْته ودلِّه، وحركاته وسكناته، ونطقه وصمته، منازع الصبر والمصابرة، وضبط النفس، وشجاعة القلوب، ونقاء الباطن، وتحمل فوادح البلاء، والحلم مع المقدرة، والصفح والمغفرة، إعداداً لما ينتظرهم من شدائد الحياة، ومرارة الكفاح، وعنف النضال في سبيل نشر دعوتهم إلى الحق، وتبليغ رسالة نبيهم ﷺ إلى الدنيا بأقطارها، وأجيالها، أحمرها وأسودها.

مظهر قوة إيمان الرسول ﷺ برسالة نفسه

وكان هذا الدور الجديد أعظم مظهر لتجلي قوة إيمان رسول الله ﷺ برسالته، ذلك الإيمان الذي أعجزالقوى الإرهابية في دنيا الشرك والوثنية أن تقف أمام عزيمة محمد ﷺ في تبليغ دعوته وهو يحمل راية نضالها وحيداً في وجه تألُّب أشرس قوى الأرض وأعتاها، حتى خرج بها على قوى الشر والطغيان معلناً صوتها، يدوِّي في أرجاء مكة، وملؤها متحلقون حول الكعبة يتهاجرون ويعبثون متضاحكين.

إقبال الصفوة على الإيمان بالدعوة الجديدة

وقد أقبل على الدعوة وهي في استخفائها الفرد بعد الفرد، والعدد القليل بعد العدد القليل، والزمرة بعد الزمرة، من أصفياء الفطرة، يتسللون إلى ساحتها لِواذاً في استخفاء متوجس، ومناجاة هامسة، وأصوات خافتة أشبه ما تكون بالرمز والإشارة، وحركات معبرة، وقلوب واجفة، لا ترهب الموت، ولكنها تخاف الفوت.

شَرَق قريش وغصصها بإسلام حمزة وعمر والجهر بالدعوة

فلما أسلم حمزة وعمر رضي الله عنهما ـ وهما فتيا قريش جراءة وشجاعة ـ شرقت بإسلامهما قريش، **وغصّ** به ملؤها من غطاريف الكفر وأحلاس الوثنية، واشرأبت أعناق المسلمين بالعزة والقوة، وأعز الله بإسلامهما دينه، وشد بهما عضد نبيه ﷺ، وخرج المسلمون من اختفائهم بدعوتهم، وأعلنوا عن إيمانهم وظهروا إلى الملأ بإسلامهم، وجهر صوتهم بتوحيد الله وتكبيره، وانتصفوا ممن أغلظ عليهم، وطافوا بالبيت المحرم علانية، وتحلَّقوا حوله يتحدثون في أمورهم، ويتشاورون في طرائق نشر دعوتهم، وكانوا من قبل لا يستطيعون الوصول إلى البيت الحرام إلا خفية في تسلل وتوجس وحذر.

واشتدت الأزمات، وتفاقمت الأحداث، واستشرى الأمر بين الطغيان الوثني وبين رسالة محمد ﷺ، وهي رسالة تستهدف الإيمان بالله إلهاً واحداً متفرداً بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير، فلا يعبد سواه ولا يدّعي معه آلهة أخرى، وهذا هو جانبها الإيجابي، كما تستهدف إزالة جميع ألوان الكفر والضلال، وتحرير العقول من أغلال الجهل وتراث الجاهلية، والإلحاد العلمي.

كان إسلام حمزة وعمر الثمرة الجنية لاستسرار الدعوة والجهر بها

وقد كان إسلام حمزة وعمر من أعظم ثمرات السياسة الحكيمة المحكمة التي سلكها رسول الله ﷺ في استسراره بدعوته، وتبليغ رسالته إلى من يتقبلها من قريب، دون عنت في الدعوة أو مبالغة في التبليغ، تمكيناً للرسالة أن تسري إلى العقول والقلوب في جو من الهدوء المطمئن، واليقين المؤمن، وراحة النفس، وسكون الضمير. ودون إثارة للمعوِّقات التي قد يلجأ إليها مناهضو الدعوة من زعماء الوثنية ومناصب الجاهلية الذين يخشَون على تراثهم وتقاليدهم البالية، ومواريثهم المشحونة بالغطرسة والكبرياء الجوفاء، أن تذهب بها الدعوة الجديدة، التي نادت أول ما نادت بالتوحيد، ومعرفة حق جلال الله في تفرُّده بالتعبد له، وإطلاق حرية الإنسان وإشعاره بحقيقة إنسانيته، وإرشاده إلى معرفة حقه في الحياة الحرة والعيش الكريم.

فاضطربت عقول أولئك الزعماء في رؤوسهم الخاوية إلا من البغي والبأو، والتكاثر من الأموال والأولاد وزخرف الدنيا، وحب السيطرة على الحياة، واستعباد الضعفاء واستضعاف الفقراء والكادحين، ورجفت قلوبهم الفارغة إلا من التعبد للأحجار والأصنام حينما رأوا محمداً رسول الله ﷺ يدخل عليهم المسجد ـ وهم متحلِّقون في مجالسهم العابثة اللاهية ـ في صفَّين من سُبَّق المسلمين الذين كانوا يستخفون بإسلامهم لئلا يثيروا العوائق أمام دعوتهم، ولعل الكثير منهم لم يكن يعرف الكثير من المسلمين الذين فاجؤوهم بتجمعهم حول رسول الله ﷺ، وعن يمينه عمر ابن الخطاب، وعن يساره حمزة بن عبد المطلب سيدا فتيان قريش وصاحبا أيْدها، وهم يكبِّرون الله تعالى في صوت جهير موحد، تجاوبت به أكناف مكة واهتزت له أرجاؤها، فأخذ ملأها أفكل أرعدهم وحل عرى مفاصلهم، وأصابهم المقيم المقعد من الهم والغم، وكبتوا، وران على وجوههم قتر الذل والخذلان، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلمًا.

فُشُو الإسلام وتحدث الناس به

وفشا الإسلام، وتحدَّث به الناس فيما بينهم، وسرت دعوته تقرع الآذان والقلوب، وأقبل عليه من كان أحجم عنه، ودخل كثير في رحابه أرسالاً، نساء ورجالاً، واشتد ساعد المسلمين، وقويت عزائمهم، وصبروا

على احتمال الأذى أكثر مما صبروا، وتعالى جهدهم، وتماسك جمعهم، وتحقق لهم ما كانوا قصدوا إليه واستهدفوه، وأتمّ الله تعالى على رسوله ﷺ نعمة ما كان يبغي من استسراره بدعوته في مطلعها، ذلك الاستسرار الذي استمر قريباً من ثلاث سنين، كانت محضناً لتربية الرعيل الأول من كتائب الإسلام.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يجهر بدعوته، ويخرج من استخفائه، ويعلن عن رسالته، ويصدع بحقه باطل المضلِّين المبطلين، ويشقق بصوت دعوته قلوب أهل الشرك وعبيد الوثنية.

منهج الجهر بالدعوة

وكان من ألْطاف التسديد الإلّهي، وسياسة الحكمة التي جرى عليها رسول الله ﷺ في تبليغ دعوته وسير رسالته أن جعل الجهر بها يسير في طريقين متوازيين، تمشياً مع سياسة الاستسرار وتحقيقاً لحكمته في تقوية الدعوة بإقبال المستعدين بنقاء فطرهم إلى قبولها والدخول في ساحتها مسالمين، لا يثيرون العوائق في طريقها.

الطريق الأول
في الجهر بالدعوة

حكمة البدء بإنذار الأقربين

كان هذا الطريق الحكيم المحكم هو الاتجاه بالدعوة في علانيتها والجهر إلى عشيرة النبي ﷺ الأقربين، فأنزل الله عليه ﷺ بعد أن اشتد ساعد الدعوة، وبلغت أشدها، ووقفت على قدميها، تعلن عن نفسها في قوة وصبر، قوله تعالى: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم ﴾[1].

ذلك أن التوجه بالدعوة إلى الأقربين - وإنذارهم بطش الله وتخويفهم بأسه ونقمته إذا لم يستجيبوا إلى هدى الله والإيمان به، وإخلاص العبودية له تعالى، بخلع الأنداد والشركاء، والتطهر من أدران الوثنية - فيه حسم لأطماع الأبعدين، لأن الناس بمقتضى طبائعهم البشرية إذا رأوا

---

(١) سورة الشعراء، آيات: ٢١٤ - ٢١٧.

رسول الله ﷺ يبدأ أول ما يبدأ معلناً دعوته بإنذار أقرب الناس إليه، وتخويفهم، والتبري من أعمالهم إذا لم يستجيبوا إلى داعي الإيمان والهداية كان ذلك أدعى لغيرهم من الأبعدين أن لا يطمع منه ﷺ في مهادنته، فضلاً عن المداهنة، وهذا بلا شك - أقوى وأوكد للدعوة في بيان إصرارها وعمومها، وأبلغ في النفوس أثراً، لأن الإنذار والتخويف قد يدفع إليهما الإشفاق، وقد يدفع إليهما الحرص على تنبيه المشاعر والإحساسات الوجدانية في مداخل النفس الإنسانية لتوكيد أواصر القربى، وقد يدفع إليهما تحريك الحمية القومية وروابط القربى العصبية نفوراً من قبول الضيم في الصبر على أذى القريب ولا سيما في البيئات العربية التي تتعزز بنصرة القربى.

أظهر شواهد تجلي هذه الحكمة النبوية في وقائع التاريخ

وأظهر شاهد على ذلك ما وقع فكان سبباً لإسلام حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ كما بيَّنا ذلك في قصة إسلامه رضي الله عنه، فقد كان الداعي الأول إليه هو الحمية القومية الغاضبة لدفع الإساءة التي وجهت ظلماً لابن أخيه محمد ﷺ من أحد أحلاس الغرور الوثني الفاجر، ولكن الله تعالى في تقديره الأزلي وغيبه المحجوب عن رؤى الناس جعل من هذه الحمية العصبية الخير كله لحمزة رضي الله عنه وللإسلام والمسلمين، فأسلم حمزة لِما أراده الله به من المنزلة التي لم تسامها منزلة في فضلها وشرفها عند الله فكان بها حمزة سيد الشهداء.

وكذلك ما وقع في جميع مواقف أبي طالب وحَدَبه على رسول الله ﷺ وحمايته له أن تمتد إليه يد بأذى، وقد جعل نحره دون نحر رسول الله ﷺ فداء لابن أخيه بدافع العصبية القومية والحمية القبلية، وظل على ذلك إلى آخر لحظة من حياته، وهو على دين قومه، وكانت قريش كلها تهاب أبا طالب وتحترمه، وتحسب لوجوده إلى جانب ابن أخيه محمد ﷺ حساباً منعها أن تقتحم حمايته ومنعته.

ومن أظهر شواهد ذلك موقف سائر المنافيين عامة وخاصة من بني هاشم والمطّلب - إلا ما كان من أبي لهب - وكانت كثرتهم على جاهليتهم في عقيدة الشرك والوثنية التي جاءت رسالة محمد ﷺ لهدمها وتقويض معالمها.

ذلك الموقف الذي تجلّى في حادث الحصار والمقاطعة ودخول شِعْب أبي طالب، وكتابة صحيفة المقاطعة التي تعاهدت فيها بطون قريش على مقاطعة كل من دخل مع رسول الله ﷺ الشعب مقاطعة تامة، وحصرهم حتى لا يصل إليهم شيء من ضروريات الحياة.

روايات البدء بإنذار الأقربين

وقد قام رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى، فأنذر أدنى الناس قرابة منه، روى البخاري ومسلم أنه لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ الآيات صعد النبي ﷺ الصفا، ثم نادى «ياصباحاه» فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ورجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟» قالوا: نعم قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمّ، وخصّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها».

وأخرج مسلم ـ أيضاً ـ أن رسول الله ﷺ قام فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم».

وهذه الأحاديث وغيرها في معناها كثير، مروي في الصحيح وفي غيره، وهي تفسر ما قام به رسول الله ﷺ في تنفيذ أمر ربه بإنذار قرابته، وتبين أن أحداً كائناً من كان قريباً أو بعيداً لا يخلِّصه من عذاب الله وسخطه إلا إيمانه بربه، وأن الناس جميعاً في هذا سواسية، لا تنفع قريباً قرابته، ولا يضر بعيداً بعدُه، فالخلق كلهم عباد الله وعياله، فمن آمن منهم بالله ورسوله ﷺ كان عند الله براً تقياً، ومن لم يؤمن بالله ورسوله كان عند الله فاجراً شقياً.

هذا هو الميزان الذي أقامه الله لوزن عباده عنده، قرباً وبُعْداً، ورحمة وسخطاً، وهو زبدة قوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1].

وفي قوله ﷺ: «إن لكم رحماً سأبلها ببلالها» بيان أن الذي يملكه ﷺ لأقرب قرباه هو الصلة في الدنيا بمتاع الدنيا، ولهذا جاء مفسّراً في الحديث الثاني فقال ﷺ: «سلوني من مالي ما شئتم» فكان ذلك بياناً لما يملكه رسول الله ﷺ من صلة الود والقربى في الدنيا، وأن الخلاص من دينونة الله تعالى لا يكون إلا بالإيمان به إلهاً واحداً، وإخلاص العبودية له، وأما شفاعته ﷺ في الآخرة، فهي للمؤمنين خاصة، فلا يشفع النبي ﷺ لكافر قط، شفاعة تنقذه من عذاب الله، وتخرجه من النار، وتدخله الجنة، مهما تكن قرابته منه.

* * *

نظرة تحليلية في آيات البدء بإنذار الأقربين

وفي الآيات الكريمات من سياسة الدعوة إلى الله، وراء إنذار الأقربين بِرًّا بهم وتحريكاً لدوافع حمية القربى فيهم، الأمر بإلانة الجانب لعموم المؤمنين، سواء منهم من قرب في نسبه وعصبيته أو بَعُد، وهذا بيان لمكانة الخلق كلهم من ربهم، فهم جميعاً عباده، وليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب ولا قرابة حسب، وإنما هو الإيمان والعمل، وفي هذه الدائرة يختلف الناس اختلافاً واسعاً عريضاً في درجاتهم ومراتبهم من رضاء الله وإسعاده.

وفي الآيات تلطف بالذين يستجيبون إلى دعوة الإيمان، ويتبعون الرسول ﷺ تقوية لأواصر القرب الروحي وأخوة الإيمان، وأنها هي الأخوة التي اعتبرها الله تعالى صلة بين سائر المؤمنين كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[2] لأن ذلك يربط قلوبهم بالدعوة، ويملؤها بمحبة الداعي، ويعد نفوسهم للدفاع عن تبليغ الدعوة وافتداء الداعي والدعوة بكل ما يملكون من قوة وعمل.

وفي الآيات إعلان البراءة من عصيان من عصى، ولو كان أقرب

(١) سورة الحجرات، آية: ١٣.
(٢) سورة الحجرات. آية: ١٠.

القربى، فمن ساء عمله فلن يضرّ إلا نفسه، وأن قرابته من رسول الله ﷺ لا تحميه من سخط الله وعذابه.

وفي قوله تعالى: ﴿ فإن عصَوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ لطيفة بيانية من لطائف الأسلوب القرآني، فقد عُلِّقت البراءة في الآية بعمل من عصى، ولم تُعلَّق بشخصه وذاته، ولم تقل الآية فقل: إني بريء منكم، لأن ارتباط البراءة بالعمل دون ذوات العصاة وأشخاصهم لا يقطع أواصر القربى والبر بها في الدنيا، والعود إليها بالإحسان إليها في الدنيا والدين إذا عادت إلى الإيمان والطاعة للرسول، والإيمان هو الموجب للموالاة.

وفي ذلك تقرير لمبدأ اجتماعي عظيم، تقوم عليه دعائم الحياة الاجتماعية في الإسلام، لأن ربط الموالاة والنفرة بالعمل دون الأشخاص والذوات يفتح باب الأمل أمام الشاردين من دعوة الإيمان والطاعة لله ورسوله.

فالإنكار في الآية، والأمر بالبراءة إنما توجّه إلى العمل السيء، لا إلى العامل المسيء، وإن كان عمله السيء مرتبطاً به ما دام مقيماً عليه، لكن هذا الارتباط بين العامل وعمله ليس ارتباطاً تلازم، ولكنه ارتباط بأمر عارض يمكن الانفكاك عنه وتركه.

فإذا ترك العمل الموجب للنفرة، وحل محله عمل يوجب الموالاة عادت الموالاة وعاد معها، ما توجبه من التلطف وخفض الجناح وإلانة الجانب، وصفاء المودة.

وفي قوله تعالى: ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ ختاماً لآيات الأمر بالجهر بالدعوة وإنذار الأقربين إشعارٌ بما في هذا الجهر والإنذار من مشقة التبليغ، وأثقال المواجهة، وإيذان بما سيلقى رسول الله ﷺ من أذى وصد عن سبيل دعوته ومقاومة له، ومناهضة لرسالته من هؤلاء المنذَرين على قرابتهم، وتشابك أنسابهم بنسبه، وامتزاج عصبيتهم بحسبه، حتى لا يعتمد في تحمل أثقال دعوته إلى الله، وفي صبره على ما يلقى من المعاندين الشاردين عن حظيرة الإيمان والهداية ولو كانوا أقرب القربى، على غير الله

القوي القهار، العزيز الذي لا يغالب، الرحيم الذي لا يقطع إمداده عنه، وعن جميع حملة رسالاته، ووارثي عبء تبليغها، من الدعاة، الصادقين، والعلماء العاملين.

وهذا درس إلهي من أبلغ وأعمق دروس تربية الرسول ﷺ في تجرده تجرداً كاملاً من خطرات الاعتماد على قرابة أو عصبية، لأن روابط القرابة وحمية العصبية قد يعرض لها من ظواهر البيئة، واهتزازات المجتمع ما يفكها، ويزيل وصائلها، ولأن حمية العصبية قد يعرض لها من أسباب تنازعها ما يطفىء شعلتها، ويظلم قبسها، ويذيب وشائج تماسكها، ويحيلها أداة إزعاج، وذلك كما وقع من أبي لهب عم النبي ﷺ، فقد كان دون سائر بني عبد المطلب أعدى أعداء الدعوة الإسلامية، وأشد أعدائها أذى لرسولها ﷺ، لأن قرابة أبي لهب من رسول الله ﷺ تعرَّضت لظاهرة أفقدتها حيويتها في نفسه وشعوره وحسه، تلك الظاهرة ـ في رأينا ـ هي ارتباطه بالأسرة الأموية أو العبشمية ارتباطاً امتزاجياً، فقد كانت تحته زوجةً له وأماً لأولاده العوراء أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب الذي ظل قائداً لجيوش مناهضة الدعوة الإسلامية طوال زمن الكفاح والنضال، حتى أرغمته انتصارات الإسلام على الدخول فيه، ومات أبو لهب مراغماً مقهوراً، وكانت العوراء امرأة أبي لهب أسوأ مثل لأخبث عداوة لرسول الله ﷺ، وكان آلها من العبشميين عامة والأمويين خاصة هم حاملي لواء مناهضة الإسلام ورسالته، يكيدون لرسول الله ﷺ، ويؤذونه، فانزلق أبو لهب بحكم سيطرة زوجه العوراء على تفكيره ومشاعره، فأهدر عصبيته النسبية، وأمات في نفسه نخوة الحمية البيتية، وانفرد عن سائر أخوته وبني عمومته من الهاشميين بإعلان أخبث العداوة لابن أخيه محمد ﷺ الذي كان أعزّ وأحبّ إلى أعمامه من أنفسهم وأولادهم، فقد نشر هذا المتبوب لواء العداوة للإسلام ونبيه ﷺ منذ اللحظة التي اصطفاه الله نبياً، ثم بعثه إلى العباد رسولاً.

وقد تجلى ذلك في أول موقف وقفه النبي ﷺ لتنفيذ أمر الله تعالى له بالجهر بالدعوة، وكان المتبوب أبو لهب شر خلق الله موقفاً من الدعوة الإسلامية، كان يتبع النبي ﷺ وهو يمشي إلى منازل الناس ومحافلهم في

المواسم يدعوهم إلى الله تبليغاً لرسالته ليصدهم عن الاستماع إليه، ولو لم يكن لهذا الخبيث المتبوب من مواقف الخزي والعار سوى موقفه الذي يدلّ على فقدانه الشعور بالنخوة الهاشمية، والحمية العصبية، والغَيْرة النسبية والعزة البيتية بانحيازه إلى بطون قريش وتركه إخوته وبني عمومته يحصرون في شعب أبي طالب حصاراً اقتصادياً قاتلاً لكان حسبه هواناً وذلة في دنيا الأعزة الأكرمين.

الطريق الثاني

عموم الجهر بالدعوة وقوة أسلوبه

الجهر العام بالدعوة لكل من يستطيع صوتُ الدعوة أن يصل إليه من الناس، وفي ذلك أنزل الله تعالى قوله: ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين ﴾[1]. وبادى رسول الله ﷺ سائر قومه، وساكني بلده ومن يردها في الأسواق والمواسم بدعوته إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأنداد وترك عبادة الأصنام، وصدع بحقه باطلَهم، وشقق بقوة عقيدته وتوحيد ربه إهاب وثنيتهم، ولطم بتبليغ رسالته وجه شركهم، فسمعوا منه، وتحدثوا عنه، ولم يبعدوا عنه في أول ما أعلنهم بدعوته، ودعاهم إلى رسالته، ولم يردوا عليه أمره، ولم يعالنوه بشديد العداوة حتى عاب عقائدهم، وسخر من عقولهم، وهزأ بآلهتهم، وحط من شأن آبائهم الذين ورّثوهم عبادة الأوثان، فاتخذوها آلهة مع الله، وتلا عليهم في ذلك من بيان القرآن ما لم يكن لهم به عهد.

وما لم يكن لهم معه من صبر، فأعظموا ذلك وأنكروه أشد الإنكار، وحاولوا معه ﷺ أن يكف عن عيب آلهتهم، والسخرية من عقيدتهم، فلم يعتبهم ﷺ، ولم يقم لعتبهم وزناً، ولا ألقى إلى إنكارهم عليه بالاً، ومضى رسول الله ﷺ يقرع آذانهم ويدق أبواب قلوبهم، ويغمز عقولهم بقوارع آيات الله تعالى ونذره وزواجره، من السور المكية من القرآن العظيم، وفيها من التجبية والسخرية بهم، وقواطع البراهين على فساد عقولهم ومرض قلوبهم وباطل عقائدهم ما أثارهم على رسول الله ﷺ،

---

(١) سورة الحجر، آيات: ٩٤ ـ ٩٥.

فتذامروا عليه وانتهضوا لمقاومته، والوقوف أمام دعوته.

ولكنهم كانوا يرون حَدَب عمه أبي طالب عليه، ودفاعه عنه، وحمايته له، وهم يعلمون مكانة أبي طالب فيهم، ويعلمون أن بني هاشم وأخوتهم بني المطلب لا يخالفون عن أمره ولا يخذلونه في مواقف الجد ونوازل الأحداث، وأنهم مناصروه على من ناوأه، أو حاول النيل منه، وهم أشد شكيمة في قومهم على من نابذهم العداوة واللدد.

لقاءات بين أبي طالب وزعماء قريش

فعمدت بطون قريش من العبشميين والمخزوميين، والسهميين والأسديين وغيرهم إلى أبي طالب، يلقّونه شاكين إليه ابن أخيه، ومشى إليه منهم رهط من رؤوسهم وزعمائهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة العبشميان، وأبو البختري، العاص بن هشام الأسدي، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزوميان، ونبيه ومنبِّه ابنا الحجاج، والعاص ابن وائل السهميون وغيرهم، فقالوا له: يا أبا طالب: إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّل آباءنا، فإما أن تكفَّه عنا، وإما أن تخلِّي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال أبو طالب لهم قولاً رفيقاً وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه.

ولم يبدُ منه لرسول الله ﷺ شيء يصده عن دعوته... وتبليغ رسالته، ومضى رسول الله ﷺ قُدُماً في طريقه بقوة لا تقهر، وعزيمة لا تفل، فزاد ذلك ملأ قريش سوءاً على سوئهم، وشري الأمر بين رسول الله ﷺ وبينهم، واشتد التأزم، وملأ الحنق قلوبهم، وتباعد الرجال، وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، وشنفوا له، وحض بعضهم بعضاً عليه ورأوا أن عمَّه أبا طالب لم يعتبهم في شأنه، وازداد حدبه عليه، وحرصه على منعه وحمايته.

فمشوا إليه مرة ثانية، يذكِّرونه بأمرهم معه، وما قالوه له في شكايتهم أول مرة، ويضيفون إلى ذلك لوناً من التهديد والوعيد، فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا،

وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثم تركوه وانصرفوا عنه.

حيرة أبي طالب بين حميته وإرضاء قومه

وفكَّر أبو طالب ودبَّر، وقلَّب الأمر، وعظم عليه هذا الموقف، وكبر عليه فراق قومه، وتمثَّل طاقته بحربهم، وتبين له أنه لا طاقة له بمنازلتهم، وهم جميعاً إلْب عليه، مجتمعين متكالبين، ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله ﷺ إلى هؤلاء السفكة، ولم يرض ضميره بخذلان ابن أخيه الذي أحبه وصبّ به صَبابة لم يكن شيء مثلها لأحد من ولده، وربَّاه في كنفه، وحنا عليه حنواً جعله لا يطيق فراقه، وأعزه فوق معزة كل عزيز عنده.

وأي خذلان يكون وراء دعوة ابن أخيه إلى الكف عن تبليغ رسالته؟ ودارت. . الحيرة بأبي طالب، تشده تارة إلى اليمين، وأخرى إلى الشمال، وعُمّي عليه أمره، واشتبكت في تفكيره مخارج الرأي، ثم اختار مضطراً مكرهاً أن يبقي على نفسه مع قومه، وأن يدعو ابن أخيه إلى الكف عن الإساءة إلى قومه، وأن يترك ما يغضبهم ويثير حفائظهم من عيب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، وتضليل آبائهم.

أما رسالة محمد ﷺ فما يكون شأنها عند أبي طالب، وهو على دين قومه؟ وما مدى ما يبلغ إدراك أبي طالب ـ في شركه ووثنيته ـ من حقيقة رسالة محمد ﷺ؟ أيبلغ هذا المدى أن يجعلها في نفسه فوق إرضاء قومه، والإبقاء على نفسه معهم، فلا يفارقهم من أجل أمر هو لا يدين به؟ لا، ذلك طمع في غير مطمع، وخُلَّب برق بين السراب يلمع.

فليعرض الأمر على ابن أخيه، وليشعره بوعيد قومه وتهديدهم، عسى أن يلين جانبه، فأرسل إليه، وقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا، وكذا، وأشار إلى تهديدهم وتوعدهم إياه، وإنذارهم له بالمنازلة والحرب المبيرة التي لا تبقي عليه وعليهم، ثم استعطفه فقال: فأبقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

أخرج الطبراني وأبو يعلى عن عقيل بن أبي طالب قال: جاءت

عزيمة النبوة أنقذت أبا طالب من حيرته

قريش إلى أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يأتينا في أفنيتنا ونادينا فيسمعنا ما يؤذينا به، فإن رأيت أن تكفَّه عنا فافعل، فقال لي: يا عقيل: التمس لي ابن عمك، فأخرجته من كبس - بيت صغير - من أكباس أبي طالب، فأقبل يمشي معي، يطلب الفيء، يمشي فيه، فلا يقدر عليه، حتى انتهى إلى أبي طالب، فقال أبو طالب: يا ابن أخي، والله ما علمتُ أن كنت لي مطيعاً، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم، وفي ناديهم، تسمعهم ما يؤذيهم، فإن رأيت أن تكفّ عنهم؟ فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: «والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثتُ به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار».

فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط، ارجعوا راشدين.

وأخرج البيهقي في الدلائل نحو ما ذكره ابن إسحاق في سيرته، وفي هذه الرواية أن أبا طالب قال للنبي ﷺ بعد أن ذكر له قومه في شكايتهم: فأبقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، فأكفف عن قومك ما يكرهون من قولك.

فظنَّ رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه في شأنه أمر وأنه خاذله ومسلمه، وأنه ضعف عن القيام معه، وعن حمايته، ونصرته، فقال له رسول الله ﷺ: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري؛ على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته».

ثم استعبر رسول الله ﷺ، فبكى، ثم قام، فلما ولّى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال له أبو طالب: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

العجز عن التعبير أبلغ من التعبير العاجز

وهنا يقف القلم عن الحركة، فيجمد بين أناملي، ويجف مداده، ثم تعود إليه الحياة فيرتجف ارتجاف الطائر الذبيح، وعهدي به طيّع سلس القياد، ريان الفؤاد، بليل المداد، جوَّال سيال، لا يتوقف إذا أريد على الحركة، يجوب آفاق الفكر، ولاَّج إلى مداخل خباياها، صعَّاد إلى شواهقها، عليم بأوديتها، فما له هكذا يَجفُّ ويضطرب تارة؟ وما له يجمح

ويستعصي عن المقادة تارة أخرى؟.

رويدك يا (قلم) أفتراني أكرهك على أن تملك فوق طاقتك فتصور مرآة الوجود في قرطاس الحياة؟ أم تراني أستنزل لك الشمس من عليائها لتكتب بمداد أضوائها خلجات أعظم نفس في الوجود في أحرج لحظة تمر بالحياة؟.

هوِّن عليك يا (قلم) وهدِّىء من روعك فلا تضطرب بين أناملي، فليس عيباً أن تعجز عن تصوير ما ليس في دائرة الإمكان تصويره، ولا أن تعجز عن أن تبرز ما ليس بمستطاع إبرازه، ولئن عجزت أسلاتك عن تصوير ما يدور في روعك من خلجات الإعجاز الكوني ممثلاً في طوايا شخصية محمد الأمين ﷺ، فلك أسوة في الفكر، وهو أرحب منك منطلقاً في عجزه عن تصوير ذرة من خلجات هذا الموقف المعجز في تعبيره عن نفسه بمنطق صمته.

إي. وقَهْر الله لخلقه إن ذلك لحق؟؟ وماذا يكتب القلم؟ وماذا... يستطيع القرائح القرّح أن تملي عليه من حقائق الغيب المستقرة في ضمير محمد ﷺ ساعتئذ؟.

أترى لو كانت خيوط أشعة الشمس أقلاماً ولعابها الملتهب مداداً لهذه الأقلام أفكانت مستطيعة أن تعبِّر عن موقف محمد ﷺ في تلك اللحظات تعبيراً يصور بعض ما جال في خواطره، وسبح في حنايا نفسه؟.

عزائم المرسلين أرسخ من الرواسي الشامخات فكيف بعزيمة سيدهم؟

محمد رسول الله ﷺ يأمره الله تعالى أن يصدع بما يؤمر، وأن يعلن دعوته، ويجهر بتبليغ رسالته، ويأمره أن يعرض عن المشركين المستهزئين به وبدعوته، وأن يجعلهم نبذاً ملقىً وراء ظهره، ومواطىء أقدامه، فلا يبالي بهم، ولا يقيم لزمجرة طغيانهم وزناً، ولا يفرض لوجودهم أمام عزيمته قدراً، ولا يحسب لهم حساباً يصده عن المضي في عزيمته، مبلِّغاً رسالة ربه، منذراً بطشه ونقمه لمن لم يستجب لندائه ودعوته.

فيمضي محمد ﷺ قُدُماً معلناً عن دعوته بكل ما يملك من وسيلة

يعرفها الإعلان والجهر في مجتمعه وبيئته وبلده وقومه، يناديهم وجه النهار من ذرى الجبال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

سبحات في رياض هذا الموقف الفريد

وكان له ﷺ في حدب عمه عليه وقيامه معه، ودفاعه عنه وحمايته له، ومنعته أن يؤذى عزاء وقوة، فيمشي إلى هذا العم ملأ قريش وطغاتها وذوو رأيها وغطارفها وزعماء دينها ودنياها، وهذا العم كان على ما هم عليه من باطل الكفر وضلال الشرك والوثنية، يطلبون إليه وهو في سنه وشرفه فيهم أن ينهى ابن أخيه عن قوله في عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ودعوتهم إلى عبادة الله وحده وخلع الأنداد والشركاء، أو يخلّي بينه وبينهم فيكفونه مؤنة هذا الموقف الآزم.. بقتل محمد ﷺ ويسدل الستار على الرواية، وينتهي العرض، ويتفرق المتفرجون إلى مجالس سمرهم، يهجرون بما كان وما يكون، وهذه دائماً نهاية كل تفكير يستمد جذوره من الجوع والشبع، وأصحابه يعيشون ببطونهم لبطونهم، فهو تفكير ضحل ساذج، بل تفكير طفلي، لا يعدو أن يكون عبثاً من «أعباث» الإنسان في مهد الحياة، فلا وزن عند أصحاب هذا التفكير البليد للرسالات الإلهية، ولا علم عندهم لحقائق هذه الرسالات وأهدافها في الحياة، ولا أدنى معرفة لديهم لمكانة رسل هذه الرسالات في الحياة، ولا تقدير لعزائم أولئك الرسل التي يولدون بها، وينشأون عليها، ويعملون بقوتها.

ويسمع أبو طالب ما عرضه عليه عباهلة قومه، فتأخذه الحَيْرة، ويملكه الذهول، فلا يدري أيقدم أم يحجم، فهؤلاء قريش، وغطارفة الحرم وعظماء مكة، وسدنة أموالها وتجارتها، يأتون إليه في إجماع يخيرونه بين خصلتين الموت أهون من قبول إحداهما.

يخيرونه بين أن ينهي ابن أخيه نهياً يصدّه عن قوله في تسفيه أحلامهم، وعيب آلهتهم، وهذا يعني في نظر الواقع أن يترك محمد ﷺ رسالته، ويتخلّى عن دعوته، وهذه هي التي لا شوى لها، أو يسلمه إليهم يقتلونه، وهذه ـ في نظر أبي طالب ـ هي الموت الأحمر.

وبين أن ينازلوه بالحرب حتى يهلك الفريقان أو أحدهما، وهذه التي

لا يطيقها أبو طالب وهو في مكانه من بني هاشم سناً وشرفاً وعزاً وطاعة.

وتذهب الحيرة بأبي طالب مذاهب من الشك والتردد، والضعف والتخاذل تارة، ومن العزم والقوة تارة أخرى، فقد عظم عليه فراق قومه ومنازلتهم وعداوتهم فضعف واستخزى، ثم داخلته نخوة العصبية الهاشمية فلم تطب نفسه بإسلام ابن أخيه الذي أحبه وأعزه، ورباه، وقام معه وحماه، إلى القوم يقتلونه.

وأي أرض تقلّه؟ وأي سماء تظله؟ وأي دار تؤويه؟ وأي حياة له ولبني أبيه بين قريش إذا أسلم محمداً ابن أخيه لأعدائه؟.

وفي حومة هذا الموقف الآزم أصابت الشيخ في غمرة الهرم نفحة من عذاب الحيرة الخانعة، والشك المذل، ودعا بابن أخيه محمد رسول الله ﷺ، وقال له: إن قومك جاؤوني، فخيَّروني بين موتتين: موتة ذليلة، يبقى ذلها ما بقيت الحياة، لا يفارق عارها هاشمياً أبد الآباد، وموتة عزيزة، يبقى عزها ما بقي الخلود.

ثم زاده في حديثه فكشف له عن ميله ورأيه في تفادي الموتتين، فقال خانعاً متخاذلاً وهو يحشرج: فابقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

وكان طبيعياً أن يحس محمد ﷺ أمام حشرجة عمه بهذا الرأي الذليل المتخاذل ضعف موقف عمه، فتبادر إليه أن عمه قد بدا له رأي جديد في موقفه منه، ومن نصرته، ومنعته وحمايته التي كان يحوطه بها، وأنه خضع لبعض الأمر فيما عرضه عليه قومه.

محمد ﷺ يملي على الحياة كتاب إنقاذها من ذل الاستعباد

لحظة واجمة كأنما أحسَّت الحياة فيها أن الفلك قد توقف عن دورانه، فعبرت فيها خواطر محمد ﷺ محيط دنيا الناس والأشياء إلى عِبْر الوجود اللانهائي، ورأى وسمع، ثم أملى على الكون، وهو يصغي إليه كلمته الفذّة المعبرة، التي ترجمتها إحساساته، وعبَّرت عنها مشاعره أصدق تعبير، ودمعه يتحلب من عينيه، مستعبراً يبكي رثاء ورحمة لهذه الحياة

المظلمة، التي جاءها لينيرها فتأبى إلا أن تعيش في الظلام أبد الدهر.

بيد أن محمداً ﷺ كان قد أعطى المصباح مضيئاً فلا يطفأ حتى تستنزل الشمس فتوضع عن يمينه، ويستنزل القمر فيوضع عن يساره، ويتغير مسار الكون في مواقع شموسه وأقماره ونجومه وأفلاكه، وهذا فوق المحال بمحالات.

ولكنها عزيمة محمد ﷺ تأبى إلا أن تقول لحياة الظلام: لا، وفي يدي المصباح مشتعلاً بضوء الهداية، لا بدّ لهذا الظلام أن يتبدد، وأن يملأ نور الله آفاق الحياة فيضيء السهل والجبل، ويغمر الأودية والشواهق، ويدخل البيوت، ويسري في الطرقات، ويتولّج في حنايا النفوس، وزوايا الضمائر، ويدلف إلى القلوب والعقول، ويوقظ الحياة من سباتها، ويصبح الكون ـ كما أراده الله ـ مسخراً للإنسان يستخرج آياته، ويكشف أغطية الجهل وظلام الوثنيات عن أسراره، ويعرف الإنسان حقيقته في هذه الحياة، ويعرف ربه حق معرفته، ويكفر بالطاغوت، ويؤمن بالحق والعدل، ليصحح وجوده ووجود الحياة كلها لتخوض بحار العلم والمعرفة، وتسبح في محيطاتها، وتطير في أجوازها بأجنحة من فيض الله وأمره.

دمعة محمد ﷺ كانت مداداً لكتاب إنقاذ الحياة من مهانة الذل

لقد كانت عَبْرة محمد ﷺ وهو يسمع من عمه صوت حشرجته ذليلاً خزيان مستسلماً لتلك الأشباح النخرة من رؤوس الكفر والضلال أعظم تعبير عن موقف كان فيه الحد الفاصل بين أن تمضي الدعوة إلى توحيد الله، وتطهير الأرض من رجس الشرك، في طريقها راسخة الدعائم، قوية العزائم، لا ترهب الموت تلقاه وهي في مسيرها، ولا تبالي الفوادح تصيبها وهي تسري دؤوبة إلى القلوب والعقول، لا يعوّقها عن مسيرها أصوات ارتطام الغثاء بشاطىء الفناء، وهو مدفوع بمد أمواج البأو الأجوف والغرور الأخرق، ولا يصدها عن وجهها حشرجة الاستسلام والاستخزاء تنكص بهذا الشيخ المعنّى الذي كان تكأة لحماية الدعوة حتى تقف على قدمين، وتسري بقوتها الذاتية إلى المشرقين والمغربين، وإذا به في لحظة وعيد وتهديد من الأشباح النخرة، يتخاذل، ويتخلى عن مكانه في شرف

الحمية العصبية والعزة القومية.

وبين أن تقف هذه الدعوة عن سيرها وتعجز عن الحركة وتتبدد مقوماتها، ويتركها حامل أثقالها وأمين أمانتها هملاً وعجزاً عن أدائها في غير حماية العصبية المتهاوية على لسان الشيخ المتآكل هرماً، وهو ينظر إليها يكنفها الظلام حتى يواريها الفناء.

وهكذا كان يتصور أعجاز النخل الخاوية التي تحملها أعناق الملأ من عباهلة قريش وغطارفها الذين مشوا إلى أبي طالب متوعدين مهددين، يتحرجونه ويضيقون عليه الخناق لينفض يده من حماية ابن أخيه الذي قام ليهدم بمعول دعوته صرح وثنيتهم المتداعية في بلادتها، المتهاوية بجهالتها المتهالكة بحماقتها.

ولكن «دمعة» محمد ﷺ وهو يسمع من عمه الشيخ كلمته المتخاذلة كانت مداداً لكتاب، معبراً أبلغ تعبير وأعمقه وأقواه عن عزيمة ماضية في قهرها لقوى الشر، لا تعرف التوقف والتردد، ولا تعرف المداهنة ولا المهادنة، بل تمضي قدماً، تنشر رايتها خفاقة على آفاق الحياة.

لقد أملى محمد ﷺ «سطراً» من كتاب إنقاذ الحياة بمداد «دمعته» في كلمته التي أجاب بها عمّه، فكانت عنواناً لكتاب عزيمته، وطوى سائر صفحات الكتاب في صدره ليلقيها على مسامع الكون في مناسباتها كلمة، كلمة، وسطراً، سطراً، وصفحة، صفحة في مجالات عزائمه القاهرة وإرادته المصممة الباهرة.

وانصرف محمد ﷺ عن عمه الذي كان يترنح ذهولاً يتفاعل في مداخل نفسه فيذيبها ألماً وحسرة، مولّياً عنه لا يأسى على فائت، ويترك عمه غارقاً في بحار تأملاته في كلمة محمد ﷺ التي لم يسمعها من قبل، ولم يعش جوها الأعلى قط، وسرعان ما يتغير الموقف وتسري نفحة من عزيمته ﷺ التي سطرت كتابها «بدمعته»، وينتفض الشيخ المترنح في ذهوله وكأنما خلق خلقاً جديداً، وزايلته كبرة الهرم، وعاد فتيّ العزيمة وامتلأ قلبه قوة، وإرادته أنفة، وراجعته عزة العصبية، فنادى ابن أخيه، وقال له: اذهب

يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

العظماء لا يبكون خوفاً ولكنهم يبكون رحمة وإشفاقاً للإنسانية المعذبة في الأرض

وي!! أهكذا تصنع (دمعة) تنهمل من عين باكية رحمة لقطيع الإنسانية تسوقه وحوش الطغيان، يحدوها نَهَم التكالب المادي وجشع التزاحم على حطام الدنيا وسحتها الذي تمتص به دماء القطيع حتى تنشفه، فتجعله أشباحاً من جلود تكسو عظاماً نخرة، قبل أن تسلمه إلى الجزار في مجزر الظلم والطغيان والفجور.

ولكن الفارغين من معاني الحياة، الجاهلين بأقدار عبرات العظماء ودموعهم؛ فضلاً عن عبرة أعظم العظماء ودموعه، محمد ﷺ، يسكبها حسرات على هذه الإنسانية المعذبة في الأرض، وهو رسول إنقاذها ينغضون رؤوسهم جهالة وتعجباً، ويقولون في أنفسهم: ما هذا الخيال الفضفاض؟ ولا والله ما خِلْت ولا تخليت، ولكني عرفت وتحققت، وإلا فأي فرق بين دمعة تنهمل من عين كسيرة، ذليلة، خانعة، تسام الخسف فترضى ودمعة من عين تخلّت عنها جميع قوى الأرض، منحازة إلى وادي الظلم والظلام، وتحالفت ضدها كتائب شياطين الأرض ومردة الآفاق، وصاحب هذه الدمعة الحسرى وحيد منفرد، واقف على شفير هذا الوادي الظلوم المظلم، يعج بأشباح الفجور والطغيان، بيده شعلة الحياة مشرقة مضيئة يتلألأ نورها، ينادي نسائم الحياة هلمّوا إلي أهدِكم سبيل الرشاد، فيكون جزاؤه منه أن يرسلوا عليه وحوشهم ليأخذوه ـ لو استطاعوا ولن يستطيعوا ـ إلى واديهم الظلوم المظلم، فيأسى لهم، وتكاد نفسه الكريمة تذهب حسرات عليهم، وتنهمل من عينه (دمعة) راحمة مشفقة، يسري أثرها إلى من كان قد همّ أن يرمي بنفسه إلى ملأ الكفر والفجور ناسياً حميته ونخوته، وإذا به ينتشي من رشح تلك الحمية، وتثور نخوته المدافعة، ويتبدل في إراداته وعزيمته خلقاً جديداً، تتقمصه قوة عارمة، لا تبالي جموع الطغيان وشياطين الأرض، وكأنه بهذه العزيمة يمسح أعز «دمعة» من أعز عين، ويقول: يا ابن أخي، اذهب في مسالك الأرض وفجاجها، وقل ما أحببت على سمع من كره ومن أحب، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

قوة عزيمة رسول الله ﷺ تقلب الموقف على زعماء الوثنية

ويسرّى عن النبي ﷺ ما كان قد ألمّ به وتزداد عزائمه قوة وإرادته صمْداً إلى أهدافها، ويمضي قوياً قادراً ومقدِّراً في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته، يؤم القبائل والبطون في منازلهم ومحافلهم، وفي الأسواق والمواسم ومجامع الناس يدعوهم إلى الله، وتملأ صيحة الحق آذان قريش فتصكّها صكاً يذيب صماخها، ويذهب بها الحنق والتغضب كل مذهب إلا أن تذكر وعيدها وتهديدها أبا طالب بمنازلته إن لم ينهَ ابن أخيه عن تسفيه أحلامهم، وسب آلهتهم وعيب آبائهم، فهذا شيء نسيته أو تناسته أو جبنت أن تذكره أمام نفسها لئلا يغري بها سفهاءها وتكون لهم عليها به حجة.

وازدادت حمية أبي طالب في حَدَبه على رسول الله ﷺ وحمايته والقيام معه والوقوف إلى جانبه ومنعه من أعدائه وأعداء دعوته، وأشعل موقفه هذا نار الحمية في صدور بني هاشم، ووقفوا إلى جانبه عصبية لشيخهم أبي طالب.

ذكر ابن إسحاق أن أبا طالب قام في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبي لهب عدو الله.

ولكن بلادة الطبع في ملأ الوثنية المادية من غطاريف قريش، وجمود عقولهم، وتحجر مشاعرهم وإحساساتهم، وتلوث فطرهم، وموت قلوبهم، وعمى بصائرهم وجهالة مجتمعهم عدلت بهم عن موقف الشدة مع أبي طالب، وقد فقدوا شجاعة المواجهة بمنازلته إذ رأوه يجمع أمره على الاستهانة بوعيدهم الأجوف، وزمجرتهم الكاذبة، لأن.. كفكفة «دمعة» ابن أخيه أعز وأغلى وأرفع ميزاناً في حياته، وأجل قدراً عنده من قريش وعباهلتها، وأقوى أثراً في نفسه من قوتها وجبروتها، فلتفعل قريش بقوتها وغطرستها ما تشاء، فلن تستطيع أن تنال من محمد ﷺ منالاً، وأبو طالب حي يمشي على أرض مكة، وفي رجال بني هاشم عين تطرف.

وتخاذلت قريش، وداخلها الجبن والهلع، وراح ملؤها في تفكير بليد، وعقول مأخوذة عن سلامة التفكير، مستغرقة في جهالة جاهلية، لا تعرف من الدنيا إلا أن تأكل وتتجشأ، وترابي وتضارب، وتتكالب على الثراء السحوت، الذي تقيس به أقدار الرجال، فالرجل فيهم مهما عظم شأنه وزنه دية، تقدر بقطيع من الإبل والخراف، وليس للإنسان عندهم باعتبار إنسانيته ولا باعتبار فضائله النفسية، وشمائله الخلقية أية قيمة أو تقدير.

ومشَوا مسربلين بهذه البلادة المتعفِّنة يهزون رؤوسهم لغير شيء، يجرون وراءهم فضضاً من لعنة الله، تحلب من صلب لعين، أُطعم فأشبع فتجشأ تيهاً وغروراً ولان جلده، وبضض لحمه، ولمع شحمه من خلف إهابه، كأنه قعود تفرد بلبن حلوبة سائمة، ترتع في حمى كليب ربيعة، فحسبوه شيئاً في وزن الحياة، وتقدير القيم والأقدار، وجاؤا به إلى أبي طالب في شموخ مأفون، تكسو وجوههم ذلة التخاذل، يقولون له: هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه، فلك عقله ـ ديته ـ ونصره، واتخذه ولداً، فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك، ودين آبائك وفرَّق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

أفٍ لهذه العقول البليدة المتحجِّرة و. . . . على تلك الرؤوس الخاوية والوجوه الذليلة: أين وعيدكم يا أحلاس الجبن بمنازلة أبي طالب؟ هل خلعت عزيمته قلوبكم من صدوركم فأصبحتم أشباحاً لا تفقهون؟.

إعجاز في التعبير عن قوة إيمان محمد ﷺ برسالته

لا، ولكن ضياء الحق أعشى أبصاركم، وقد كنتم من قبل عُمي البصائر، فلم تعرفوا للحق حقه، بل أرعبتكم قوته القاهرة ممثلة في قوة إيمان محمد ﷺ برسالة نفسه، إيماناً لا يعدله في الكون كله شيء هذا الإيمان الذي عبَّر عنه محمد ﷺ وهو يقابل أفدح محنة في حياة الدعوة، أصدق تعبير، بكلمته الفذة التي لم تعرف الحياة لها مثيلاً، والتي لم ينطق بها قبله بأية صورة من روايتيها لسان، ولا صُوِّرت بها عزيمة، على مدى ما عرف

التاريخ من أحداث، إذ يقول فيما أخرجه الطبراني رداً على عمه في كلمته المستسلمة حين أخذه الهلع الجزوع: فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق: «والله - يا عم - ما أنا بأقدر أن أدع ما بُعِثتُ به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار» وإذ يقول فيما رواه ابن إسحاق في سيرته والبيهقي في دلائله: «والله - يا عم - لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

هذا الإيمان الذي امتزج بروح محمد ﷺ وعقله ومشاعره وإحساساته لم تعرف الحياة له نظيراً في قوته وسطوته، وعلو جهرته.

هذا الإيمان هو الذي ردَّ على أبي طالب شجاعته التي افتقدها في لحظة ضعف أذلَّته، فقال تلك المقالة المستسلمة المستخزية، فجاء هذا الإيمان مصوراً في كلمة محمد رسول الله ﷺ المعبِّرة عن عزيمته ليطهر أبا طالب من وضر الاستخزاء والاستسلام، فرجع إلى ابن أخيه بأعظم وأوفر وأقوى مما كان يوليه من الرعاية والحب، ويضفي عليه من الحماية والمنعة.

عودة أبي طالب إلى حميته زلزل أقدام الطغيان الأجوف في ملأ قريش

ولا بد أن يكون قد ترامى إلى الرؤوس الخاوية من ملأ الطغيان الأجوف في قريش ما كان بين أبي طالب وابن أخيه من محاورة انتهت إلى عهد موثق قطعه أبو طالب على نفسه لابن أخيه، بأن لا يسلمه إلى أحد وهو يتنفس في جو مكة.

ولا بد أن الرؤوس الخاوية قد شعرت بالقوة التي تجددت لدعوة محمد ﷺ في تبليغ رسالته، ولا بد أنها شعرت بالخطر يتهددها في وثنيتها وشركها، وفي طغيانها المادي، وسحتها وربوياتها وتجارتها ومضارباتها، فرجفت بهم الأرض من تحتهم، وهم في مجالسهم وأنديتهم، ونظر بعضهم إلى بعض بعيون زائغة، تدور نظراتها في سهوم وذهول كالذي يغشى عليه من الموت، وتملكهم الهلع والجزع، واستولى عليهم الرعب، واستحوذ على قلوبهم الجبن ومهانة الضعف، وضراعة الذل الحائر، فلم يفكروا قط في تنفيذ وعيدهم وتهديدهم أبا طالب بمنازلته وابن أخيه حتى يتفانى الفريقان،

ولكنهم دفنوا رؤوسهم الخاوية في رمال المهانة، وتكلموا بغير ألسنتهم بما ليس في قلوبهم، ثم استيقظوا من غطيط نومهم على فحيح الشيطان، وهو يدير رؤوسهم بهذه الأقصوصة السخيفة، أقصوصة عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، هذا الفتى المأفون المأفوك الذي أوقعه أفنه بين فكي الدهاء العَمْري الماكر في أحاديث الهجرة إلى الحبشة حتى قتله شر قتلة.

تقدير الرجولية في نظر الفارغين من فضائل الإنسانية

أهذا منتهى تقدير الرجولية في نظركم يا بقايا نفايات فتات الإنسانية المتعفن؟ تباً لهذه الحياة إن كان مثلها الأعلى في شبابها ورجوليتها وفتوة فتيانها جسامة بضّة، وجمال مظهر مائع، وميعة شباب تافه، وتمايل أعطاف مرذول.

مشى ملأ الوثنية المادية إلى أبي طالب منتفخة أوداجهم يقودون فتاهم بشحمه وبضاضة جسمه وهم يقولون له: قد جئناك بفتى قريش جمالاً ونسباً ونهادة، ندفعه إليك، فيكون لك نصره وميراثه، فخذه وادفع إلينا ابن أخيك نقتله، فإن ذلك أجمع للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة، ورجل برجل!!.

ونظر أبو طالب إلى هذه الأشباح النخرة التي تكلمه منذ اليوم، وهي تقود فتاها بنسعة الغرور الكذوب، وحدَّث أبو طالب نفسه هامساً متعجباً من هذه الرؤوس التي لم تركب في تلافيفها أدمغة تعقل، ولا دُسّ في صدورها قلوب تفقه، وما قيمة جسامة فتاكم وبضاضة جسمه وجماله وميعة شبابه، وتمايل عطفيه، وتضاحك شدقيه في ميزان الرجولية الجادة؟ وما قيمة ذلك في ميزان الفضائل الإنسانية التي تعتز بها الحياة في حساب مفاخرها فيمن تدخرهم لإنقاذها من شروركم؟ أفلا تعقلون؟ بل ما قيمة فتاكم البض التياه في شرعة وشائج الطبيعة؟ أفلا تفقهون؟.

وكان أبو طالب قد استجمع أطراف عزائمه وراجعته حميته لابن أخيه، وزاده هذا العرض السخيف الأبله قوة وشموخاً، وتبدى له خذلان الطغيان وابتلاع الملأ من قريش تهديدهم ووعيدهم بمنازلته، وأنهم جاؤوه بدَنيّة الدنايا، ورذيلة الرذائل، وحطيطة الجبن.

ردُّ ألقم الفارغين حجراً غصوا به

وانتهض أبو طالب للرد عليهم رداً بدّد غرورهم الأبله وغمز قناة بلاهتهم، فقال لهم: لبئس ما تسومونني: أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً.

وفي رواية ذكرها القسطلاني في المواهب عن الإمام مقاتل بن سليمان أن أبا طالب قال لهم: رداً على عرضهم السخيف الأبله: حين تروح الإبل، فإن حنّت ناقة إلى غير فصيلها دفعته لكم، ثم قال لهم أبو طالب: إنكم تسومونني سوم العرير ـ أي الغريب، الدخيل، الذليل.

وكان المطعم بن عدي، وهو أنف من آناف الكفر الوثني، وطغيان الشرك والجحود، يشهد هذا الموقف ضمن ملأ قريش، فقال لأبي طالب: والله لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً، فقال له أبو طالب: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك.

وشري الشر، وحقب الأمر، وتنابذ الرجال، وبادى بعضهم بعضاً، وتذامرت قريش على أصحاب رسول الله ﷺ، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسولـه ﷺ بعمه أبي طالب، وقام أبو طالب حين رأى شنف قريش وتغضبها وما تصنع بأبنائهم وأخوتهم الذين أسلموا، ليستعـد ـ حرصاً على رسول الله ﷺ ـ أن تمتد إليه يد بسوء، وقرأت قريش على وجه أبي طالب عزمته التي سيلقاها بها إذا حدثتها نفسها بما زعمت من منازلته وحربه، فعدلت إلى المداهنة والاستعتاب.

ذكر ابن سعد في الطبقات عن شيخه الواقدي بأسانيد متعددة أن قريشاً قالت لأبي طالب بعد أن أعلن لها عزمته الصارمة في رده على بلاهتها بعرضها أقصوصة فتاها عمارة بن الوليد التي باءت بالخيبة والخسران: فأرسل إلى ابن أخيك فلنعطِه النَّصَف، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فجاء رسول الله ﷺ: فقال له عمه ـ على سمع رهط قريش ـ هؤلاء عمومتك، وأشراف قومك، وقد أرادوا ينصفونك، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا اسمع» قالوا: تدعنا وآلهتنا، وندعك وإلهك وقال أبو

طالب ـ وكان هذا منتهى علمه برسالات الله ـ: قد أنصفك القوم فاقبل منهم. فقال رسول الله ﷺ: «أرأيتم إن أعطيتكم هذه، هل أنتم معطيّ كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم»؟: فقال أبو جهل ـ وكان سفيه القوم ومتكلمهم ـ: إن هذه الكلمة مربحة نعم وأبيك، لنقولنّها وعشراً أمثالها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله». فاشمأزوا، ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون: اصبروا على آلهتكم إن هذا الشيء يراد، ثم قال بعضهم لبعض: لا نعود إليه أبداً ـ وما خير من أن يغتال محمد، فلما كان مساء تلك الليلة فقد رسول الله ﷺ، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع أبو طالب فتياناً من بني هاشم وبني المطلب، ثم قال لهم: ليأخذ كل منكم حديدة صارمة، ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظلية ـ يعني أبا جهل ـ فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل، فقال الفتيان: نفعل، فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال: يا زيد: أحسست ابن أخي؟ قال: نعم كنت معه آنفاً، فقال أبو طالب لا أدخل بيتي أبداً حتى أراه، فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ، وهو في بيت عند الصفا، ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخبر، فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي طالب، فقال يا ابن أخي: أين كنت؟ أكنت في خير؟ قال «نعم» قال أبو طالب: ادخل بيتك، فدخل رسول الله ﷺ بيته، فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي ﷺ فأخذ بيده، فوقف به على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون، فقال يا معشر قريش: هل تدرون ما هممت به؟ قالوا: لا، فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان: اكشفوا عما في أيديكم، فكشفوا فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة فقال: والله لو قتلتموه ما بقّيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم، فانكسر القوم، وكان أشدهم انكساراً أبو جهل لعنة الله عليه ما طلعت شمس.

عِبَر لمن يفقه ويعقل

في هذه القصة ـ وهي تفصيل في بعض جوانبها لما أجمل في غيرها من قصص الأحداث وإجمال لما فصل في غيرها ـ مجالات للعبرة تستأهل

الوقوف معها لبيان أوجه الاعتبار فيها.

أولاً: إنها تصور ما أصاب قريشاً من هلع وتخاذل بعد أن تيقَّنت أن محمداً ﷺ لم يبال بغضبها، وبعد أن تجلّى لها موقف أبي طالب في عزمته القوية المجدَّدة، اشتداد حميته في مناصرة ابن أخيه، والتفاف بني هاشم وبني المطلب حوله في حميته ومناصرته، وأنه لم يقم وزناً لوعيدها وتهديدها فراحت تستعطف أبا طالب بعد ذلك التهديد المرعد، والوعيد المرعب، وتطلب إليه أن يصلح بينها وبين ابن أخيه، حتى تخرج من محنتها معه.

وقالوا لأبي طالب: أرسل إلى ابن أخيك لنعطه النَّصَف فأرسل أبو طالب فجاء رسول الله ﷺ يحمل في قلبه إيماناً برسالة نفسه لو وزن بجبال الأرض لوزنها، وكان هذا الإيمان هو عُدَّته في جميع المواقف والأزمات، وعرض عليه عمه في أسلوب استعطافي قائلاً ان أشراف قومه وعمومته أرادوا السواء معه والعدل بينه وبينهم.

فأجاب رسول الله ﷺ - وهو الذي لا يستهدف من رسالته ودعوته إلا أن يهدي الله به أول من يهدي من عباده قومه إلى النور الذي جاء به لهداية الإنسانية على أيديهم وراثة منه في تبليغ الرسالة والدعوة إليها - جواب الرسول الذي آمن برسالة نفسه إيماناً ليس وراءه متنفس لغيره.

فقال للقوم في ثقة مطمئنة، وأناة هادئة «قولوا أسمع» أي هاتوا ما عندكم مما زعمتموه سواء وَعَدْلاً بيني وبينكم، وأنا أسمع سماع تقدير لما تقولون.

فقالوا في بلادة جاهلة، وجهالة بليدة، وذلة مستخذية: تدعنا وآلهتنا، وندعك وإلهك، وهذه قولة كافرة جاحدة، تحمل إلى جحودها ذلة الرجوع عن العناد في مقاومة الدعوة إلى الله والتربص برسول الله ﷺ وأصحابه، وتحمل في أسلوبها لوناً من خزي التخاذل ألبسوه ثوباً من المهادنة المداهِنة.

وبدر عمه أبو طالب لأول سماعه كلام قومه: فقال معبِّراً بتفكير

وثنيته عن تهافته للخروج من مآزق مغاضبة قومه، أو التخلِّي عن نصرة ابن أخيه والقيام معه: قد أنصفك القوم فاقبل منهم.

هذا الحكم من أبي طالب تحكمه العجلة المتلهفة على وقف الأزمة بين محمد رسول الله ﷺ ـ الذي وقف إلى جانبه يحميه ويدافع عنه حمية له وعصبية لها ـ وبين الملأ من زعماء قريش، تلك الأزمة التي استخزى لها في بعض مواقفه لولا عزيمة محمد ﷺ التي تجلَّت في التعبير عن قوة إيمانه برسالة نفسه إيماناً خلق في نفس أبي طالب نخوة الحمية بعد أن صوّحت نبعتها، وجدَّد عنده قوة العصبية بعد أن كاد يفقدها، وبدل ضعفه قوة، واستسلامه شجاعة، فعاد إلى مكانه من الحمية المناصرة لابن أخيه، ووقف لملأ قريش يكيل لهم بكيلهم، ويسدّ عليهم منافذ النيل من محمد ﷺ وهو يمضي في نشر دعوته وتبليغ رسالته.

وأنَّى لأبي طالب وهو على ملّة الأشياخ من قومه، يشاركهم وثنيتهم أن يدرك النَّصَف بين قوم جعلوا عنوان نصفهم وعدلهم الاستمساك بوثنيتهم وشركهم في بلادة عقلية بلهاء. وبين رسالة إلهية أساسها هدم هذه الوثنية البليدة، وتحرير العقول من أغلالها، وتطهير القلوب من أوضارها، وإقامة صرح توحيد الله، وإقراره بإخلاص في التعبُّد له وحده.

ولكن ملأ قريش هشُّوا لقول أبي طالب، وتوهموا أن الأمر قد تقارب، وأنهم خارجون من محنتهم، وأن أبا طالب ـ وهو السند لابن أخيه في نظرهم ـ قد أذعن لبعض أمرهم وأن محمداً ﷺ لا يخالف عن أمر عمه.

بَيْدَ أنهم جهلوا شأن محمد ﷺ في إيمانه برسالة نفسه، وجهلوا شأن رسالات الله وعزائم حاملي ألويتها، وأسرع محمد رسول الله ﷺ إلى كتاب رسالته يوجزه كله في كلمة واحدة، لا يريد من الدنيا ومن فيها غيرها.

هذه الكلمة هي خلاصة رسالات الله لجميع أنبيائه ورسله، وجميع ما وراء هذه الكلمة من شرائع وأحكام ونظم أمر متروك للأحداث

تفصِّله، وهي تجري في واقع الحياة وتستجيب له العقول السليمة والفِطر النيرة بعد استقرار خلاصة الرسالة وهدفها الأعظم في حنايا القلوب ومدارك العقول.

وجاء رده ﷺ على كلمة عمه وهشاشة القوم لها كاشفاً الغطاء عن خداع القوم وأنهم لا يريدون نَصَفاً ولا عدلاً، وإنما يريدون التحايل لوقف سير الرسالة وتعويق الدعوة عن مسيرتها التي أقلقت قريشاً سرعتُها وانتشارها.

وأراد رسول الله ﷺ أن يبين لهم أنهم إن كانوا جادِّين في زعمهم السَّواء والعدل، فليستجيبوا إلى كلمة واحدة إن تكلموا بها ملكوا بزمامها الدنيا شرقاً وغرباً، عجماً وعرباً، وهذه الكلمة الواحدة هي رسالة محمد ﷺ، ولا رسالة له غيرها، وهي دعوته، لا يدعو أحداً قط إلى أمر سواها، وهي هي رسالة جميع الأنبياء والمرسلين، فإن ارتبتم ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

واستخفَّ الطيش والغرور أشقى القوم وأخبثهم أبا جهل سفيه القوم ومتكلمهم فقال في رعونة البطر، وفجور الغرور: نعم، وأبيك، لنقولنَّها وعشر أمثالها.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلّا الله» فاشمأزّ القوم، وقاموا شُرَّداً (كأنهم حمر مستنفرة. فرَّت من قسورة) وهم ينفِضون رؤوسهم جهالة وتعجباً، وينفضون ثيابهم بأواً واستكباراً، فكانوا كما صورهم القرآن الكريم حاكياً قولهم: ﴿أَجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب* وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد* ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلّا اختلاق﴾.

وفي الآيات المجيدة من مطلع سورة (ص) بيان لمنتهى جهالات أحلاس الوثنية وعبيد المال، وأنهم بلغوا من بلادة العقل أنهم يقلدون الملل المنحرفة عن الحق، يتخذونها إماماً في عقيدتهم الإلحادية المشركة ممن حرفوا كلم الله عن مواضعه، وجعلوا للكون آلهة، فلما قيل لهؤلاء الذين يعيشون

بعقلية مستعارة لا يملكون منها سوى ترداد ما سمعوا بغير تعقُّل ـ قولوا «لا إلَه إلا الله» لم تتسع بلادة عقولهم التقليدية المستعارة أن يكون إلَه الخلق إلَهاً واحداً، وعجبوا مما قيل لهم تقريراً لوحدانيته وتفرده بالإخلاص في التعبد له، ولهذا قالوا في تعجبهم من توحيد إلَه الكون: فكيف يسع الخلق كلهم إلَه واحد، وهم أمم وشعوب، وقبائل وبطون؟! فأنزل الله تعالى في تسفيه أحلامهم وبيان بلادة عقولهم هذه الآيات من سورة (ص) تنعي عليهم ما أهدروه من معالم إنسانيتهم وما فضَّلهم الله به عن البهائم من نعمة العقل.

ثانياً: إن النبي ﷺ لما سمع مقالتهم، وأدرك مخادعتهم وأنهم لا يريدون بما طلبوه سَواء ولا نَصَفة، وإنما يريدون تعويق الدعوة عن سيرها، أراد أن يضع أمام عقولهم صورة واضحة لحقيقة رسالته في أسلوب بيِّن موجز أشد ما يكون إيجازُ الإعجاز، لأن هذا هو واقع رسالة محمد رسول الله ﷺ، لعل هذا الأسلوب الموجز البيِّن يقتلع من قلوبهم سدود الجهالة البليدة المقلِّدة التي تعيش عالة على عقليات منحرفة ضالة، وتنزع من عقولهم حواجز البلادة التي تحجب عنهم ضياء الحق، فقال لعمه ـ في رواية ـ رداً على ما يطلبه ملأ قريش: «يا عم: أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟» فقال له عمه: وإلامَ تدعوهم؟ فقال ﷺ: «أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم» فعجَّل خبيث القوم أبو جهل من بين القوم وسأل عن هذه الكلمة التي ستجعل من قريش في ظل الإيمان برسالة محمد ﷺ ملوك الأرض، وسادة الدنيا؟ فلما دلَّهم رسول الله ﷺ على هذه الكلمة التي هي في حقيقتها روح رسالة محمد ﷺ وحقيقتها الأصلية الكاملة ـ استغضبوا ونفروا، وقاموا ينفضون ثيابهم تبرؤاً أن يكون قد علق بها شيء من نور التوحيد الذي يغشي أبصارهم ويزيدهم رجساً على رجسهم، وقالوا: سلنا غيرها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها».

فالنبي ﷺ في هذا الموقف لم يطلب منهم شيئاً أكثر من أن يخرجهم

مظهر من قوة إيمان النبي ﷺ برسالة نفسه

من ظلمات الجهالة العقلية وضلالات الوثنية إلى بؤرة الضياء الفكري والإشراق الروحي، ومنبع الهداية، فهو ﷺ لم يدعهم إلا إلى كلمة واحدة هي رأس الأمر كله في رسالته التي يدعو إليها، لأنه ﷺ لم يتعرض في موقفه هذا إلى مآثمهم الخُلقية، ولا إلى مفاسدهم الاجتماعية، ولا إلى مظاهر الطغيان وعتو الاستبداد التي يعيشون في ظلها، ولم يسألهم مالهم وثرواتهم، ولا سألهم شرفاً فيهم، فهم أعلم الناس برفعة شرفه وسمو حسبه، ولا سألهم أن يملكوه عليهم، وإنما عرض عليهم الدعامة العظمى التي تنبثق منها جميع فضائل رسالته سلباً وإيجاباً، لتيسير تقبلها والإيمان بها، ولكن الهدى هدى الله، فلم يقبلوا ما عرضه عليهم وانصرفوا وهم أشد عداوة له ولدداً بخصومته، وأضرى سفاهة، وأشرس أذى، وأخبث طوية.

عزيمة محمد ﷺ في تبليغ رسالته لم تعرف المهادنة، بلْه المداهنة

ثالثاً ـ إن هذه القصة ومثيلاتها تبين أن هذه المرحلة من الدعوة كانت مرحلة العزيمة الماضية القوية التي لا تتزحزح، والصبر الذي لا ينفد، والكفاح الذي لا يتردد، لأنها مرحلة التأسيس للعقيدة وبناء صرح الرسالة وإقامة دعائم الدعوة إلى الهدى والحق، فلو وهنت عزيمة المبلِّغ شيئاً من الوهن، فمالت إلى المهادنة، وتخلّى الصبر المكافح لحظة عنها، وتخففت من النضال نَفَساً واحداً لوجد خصومها مداخل إلى تعويقها عن سيرها وعرقلة مسيرتها.

وقد كان النبي ﷺ على أتم العلم بهذا كله، وقد أعدّ نفسه له ولأكثر منه، ومن وراء هذا العلم علمه ﷺ بما يملأ قلوب زعماء الوثنية من شرور ومفاسد، وبما تنطوي عليه جوانحهم من الحقد الأسود والشنآن الكظيم، فزاده ذلك صَمْداً في قوة إيمانه برسالته إيماناً تمثل إعجازه ومتانة نسجه وقهر عزته في كلمته المعجزة في إيجاز مُعَبِّر عن قوة هذا الإيمان بصورها المختلفة التي أخرجتها في إطارها الروايات الصحيحة في مناسباتها المتعددة، وكلها تنتهي إلى التعبير عن قوة إيمان محمد ﷺ برسالة نفسه قوة لو تجمعت عليها قوى الأرض على أن تثنيه عن وجهه في تسيير دعوته

وتبليغ رسالته ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ذلك قوله ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» ولكن زعماء الوثنية المادية يعيشون ببطونهم لبطونهم وبشهواتهم لشهواتهم، فلا عقول تفكر، ولا قلوب لهم تفقه، فهم في حياتهم المادية المتحجرة لا يعرفون من وجوه الحياة وجوانبها إلا المال وجمعه، والاستكثار منه، ولا يعرفون منها إلا شهوات البهائم والاستغراق فيها، أقصى أمل أحدهم أن يأكل فلا يشبع، لا شرف لهم في تفكير، أشرف الشرف عندهم سيادة قبيلة، أو زعامة قرية، ومن ثم توهموا: أنّ محمداً ﷺ ممن تغريه هذه الماديات الحقيرة مهما عظم حجمها واعرضّت صورها، فعدلوا عن العناد الأجوف واللدد الخادع إلى الملاينة المستضعفة والمداهنة الفاجرة.

سفارة عتبة بن ربيعة لمفاوضة محمد ﷺ ليترك دعوته ورسالته لدنياهم الفاجرة

روى ابن إسحاق في سيرته عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله عليه السلام جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، وفي رواية ابن أبي شيبة عن عبدالله بن عمر، ورواية أبي يعلى الموصلي عن جابر بن عبدالله بسند جيد أن نفراً من ملأ قريش اجتمعوا، فقالوا أنظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأتِ هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه. قالوا: لا نعلم أحداً غير عتبة ابن ربيعة.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقتَ به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع حتى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلَّك تقبل منا بعضها، فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا

الوليد أسمع» قال عتبة: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

رد النبي ﷺ على تفاهات سفير ملأ قريش عتبة بن ربيعة

فلما فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني» قال عتبة: أفعل، قال رسول الله ﷺ: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فُصِّلت آياتُه قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ إلى قوله: ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾.

ومضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال له رسول الله ﷺ: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك» ثم رجع عتبة إلى أصحابه من ملأ الوثنية والشرك، فلما رأوه قال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني، واجعلوها بي، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه: قال عتبة: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

ما قاله عتبة لقومه فيما سمعه من النبي ﷺ

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره هذا الحديث منسوباً إلى مسند عبد ابن حُمَيد من طريق الزيال بن حرملة الأسدي عن جابر بن عبدالله رضي الله

رواية أخرى في القصة ذكرها ابن كثير وعقَّب عليها مرجحاً رواية ابن إسحاق

عنهما، وعقَّب عليه ابن كثير بقوله: وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى المَوْصلي في مسنده عن الزيَّال بن حرملة الأسدي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما فذكر الحديث إلى قوله: ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده الرَّحِم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صَبَا إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلاَّ من حاجة أصابته، فانطلِقوا بنا إليه، فانطلقوا إليه، فقال أبو جهل: ياعتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد، وأعجبك طعامه، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة، وأقسم ألاَّ يكلم محمداً أبداً، وقال: والله لقد علمتم أنَّني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسكت بفيه، وناشدته الرحم أن يكفَّ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب.

قال ابن كثير: وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يَعْلىَ. وابنُ كثير يقصد بهذا التعقيب ما ساقه من طريق عبد بن حميد في مسنده بالسند الذي ساقه به البغوي مع بعض الاختلاف، في الأسلوب والألفاظ، ففي عبارات رواية عبد بن حميد ألفاظ غريبة منكرة.

ثم قال ابن كثير: وقد أورد الإمام محمد بن إسحاق بن يسار هذه القصة على خلاف هذا النمط، ثم ذكر رواية ابن إسحاق كما ذكرناها، وقال معقِّباً: وهذا السياق أشبه من الذي قبله.

رواية ثالثة تذكر أسماء الملأ الذين أشاروا بالمفاوضة مع النبي ﷺ

وقد أخرج هذه القصة العلاّمة مُغلطاي في سيرته منسوبة إلى ملأ قريش مجتمعين وفيهم عتبة، كما أخرجها ابن إسحاق بعد روايته قصة عتبة منفرداً عن الملأ، فقال: عن سعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة،

وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث بن كلدة، وأبو البختري ابن هشام، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد ابن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أن قد بَدَا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان حريصاً عليهم، يحب رشدهم، ويعِز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد؟ إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرَّقت الجماعة، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد مُلكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم».

واختلاف الروايتين في سياق القصة سنداً أو حالاً وأسلوباً وإجابة يفيد تكرار القصة وأنها وقعت مرتين أو أكثر، مرة في لقاء زعماء قريش مجتمعين وفيهم عتبة، ومرة في لقاء عتبة منفرداً عن الملأ، سواء كان هذا اللقاء الانفرادي باقتراح عتبة أو كان باقتراح الملأ، وفي كل من اللقاءين حكمة تتجلى في سياسة توجيه النبي ﷺ لسير دعوته وتبليغ رسالته، ولا مانع من وقوع اجتماع آخر بين رسول الله ﷺ وملأ طغاة قريش.

عِبَر القصة في رواياتها تصور أعمق منازل إيمان النبي ﷺ برسالة نفسه

لا يزال في هذا الموقف الذي طلبت فيه قريش مصالحة النبي ﷺ وإعطاءه النِّصَف والمعدلة ـ كما زعموا ـ عِبَر تنطق بقوة إيمان محمد ﷺ برسالة نفسه قوة لا توزن بها قوة في الأرض، ولا يزحزحها عن هدفها ترغيب ولا ترهيب، ولا يقف أمامها وعد ولا وعيد، كما تنطق بصدقه ﷺ في دعوته ورسالته، وكما تنطق بصرامة عزيمته في هدوء الثقة ويقين الإيمان لتبليغ أمر ربه، وكما تنطق بما فطره الله عليه من سمو المكارم وعلو الخلق في مخاطبة محاوريه مهما كانت ضراوة عداوتهم، في أناة من التفكير وسداد الرأي والصبر الحليم والحلم الصبور، وكما تشهد بما آتاه الله من علم ومعرفة بدخائل النفوس وطبائعها والطب لأمراضها مما كان أساساً لدعائم نجاح سياسته في القيام بموجبات تبليغ رسالته، ونشر دعوته في هذه المرحلة التي كانت أشق مراحل الدعوة وتبليغ الرسالة، لأنها مرحلة الكفاح المرير والنضال الشديد، والأزمات الفادحة المتوالية بالأحداث المستعصية المستصعبة.

أحداث اللقاءات دروس تربوية

إن أحداث لقاءات زعماء قريش مع رسول الله ﷺ تارة ومع عمه أبي طالب تارات أخرى ليوقفوا تيار الإيمان بالدعوة إلى الله تعالى وتوحيده، ويعوِّقوا سير الرسالة إلى أودية الحياة وساحات القلوب والعقول كانت دروساً تربوية، تلقاها رسول الله ﷺ فيما تلقى من تربية ربانية وتعليم إلٰهي ليعده لتحمُّل أثقال القيام بواجبات تبليغ رسالته، ويعده إعداداً كاملاً، يستجمع به شجاعة الإيمان، وقوة الصبر، وبراعة العرض، وسداد الرأي، وجودة التفكير، وروعة البيان، دون أن تقوده إلى النجاح في القيام بموجبات رسالته معجزات مادية قاهرة، لا يملك معها العقل إلا الخضوع والاستسلام دون فهم ونظر.

رسالة محمد ﷺ رسالة عقل وتفكير وشعور وعدالة

ذلك لأن رسالة محمد ﷺ رسالة عقل وتفكير، وشعور وإحساس يوقظ الوجدان، ويحرِّك العواطف الإنسانية، حركة تقوم على الاقتناع والاطمئنان، رسالة لا تعرف إكراه العقل على أن يؤمن بما لا يقتنع به، ولا تعرف قسر الفكر على أن يدرك أو يتقبل ما لم يفهم، ولا تعرف خداع

الشعور ليؤمن بما لم يمس جوانب الرضا من العقل والقلب والروح ويستقر في شغافها.

رسالة لا تُدخل في قلب المؤمن بها إلا ما يثلج فؤاده، ويرضي ضميره، ويضيء جوانب روحه فيملؤها نوراً وهدى ويقيناً وحباً.

فهذا عتبة بن ربيعة رأس من رؤوس عباهلة قريش وسيد من سادتها في مكانه منهم رجلاً وعقلاً وتفكيراً وثراء وبيتاً وعشيرة، يرى ما تورط فيه قومه من أزمات ساحقة ماحقة تكاد تأتي على كل ما لقريش من مقومات في مكانتها عند العرب، لأن رجلاً منهم خيرَهم نسباً وحسباً ورجولية وخُلقاً وفضلاً وأمانة وصدقاً جاءهم بالهدى من عند الله بعد أن بلغ فيهم سن الكمال البشري الذي لا يرتد فيه الرجل عن سواء فطرته التي نهد عليها.

هذا الهدى الذي جاء به رسول الله ﷺ لا تعرفه وثنيات قريش وديانات العرب قاطبة، ومن ورائهم أمم الأرض وشعوبها التي تدين بألوان من الوثنية المغلّفة وضروب من الشرك الملحد، تقوم كلها على الظلم والاستبداد والبغي والطغيان الكفور.

فجاءهم محمد ﷺ - وقومه أعرف الناس به صدقاً وأمانة ومكارم أخلاق - برسالة جماعها كلمة واحدة (لا إله إلا الله)، وطلب من الإنسانية كلها أن تتوحد في عقيدتها وسلوكها على أساسها، فإذا قالها الناس واعتقدوا وعلموا حقيقتها، وعملوا بمضمونها، واستهدفوا غايتها كانوا كما خلقهم الله إخوة متساويين في الحقوق والواجبات، لا يظلم قويُّهم ضعيفَهم، ولا يستبد قادرُهم بعاجزهم، ولا يطغى غنيُّهم على فقيرهم، ولا يستأثر أحد منهم بفضل في عيش كريم وحياة حرة عزيزة.

ولكن قريشاً ومِنْ ورائهم جميع الماديين الملحدين في دين الله، الذين تعبدوا أنفسهم للدنيا وادياتها، واستغرقوا تفكيرهم في التفنن في طرائق حيازة حطام الدنيا والاستئثار به على الآخرين عُلُوّاً واستكباراً في الأرض؛ كانوا يعيشون على نظم ابتدعوها بغياً وعدواً تجعل من جمهرة المجتمع

الإنساني وكثرته الغامرة، وهم يموجون في بحرهم البشري الزاخر عبيداً لا يملكون من شأن الحياة شيئاً، ولا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً، ويَمْلكهم كلُّ شيء.

وتجعل من قلة ضئيلة، وحفنة بشرية قليلة في عداد البشرية سادة يملكون في الحياة كل شيء، يملكون القوت ومصادره، ويملكون الماء وموارده، ويملكون الأرض وأرجاءها، ويملكون الهواء وأجواءه، ويملكون الفكر وخلجاته، ويملكون الحكم وسلطانه، ويملكون المال والثراء يملؤون بطونهم من دماء البشرية المصنوعة خبزاً ولحماً وفاكهة أو خمراً، ينامون على تجشؤ الأكراش الكظيظة، ويستيقظون على أنات المحرومين، وهي تلعنهم وتستنزل مقت الله وغضبه عليهم.

فكيف يريد هذا الرجل - محمد ﷺ - وحده منفرداً عن الدنيا بما فيها وما فيها أن يحوّل وجه الحياة إلى وجه جديد لا تعرفه حياة أولئك الطغاة في الأرض؟ وكيف يريد هذا الرجل وحده أن يغير وجه الحياة إلى وجه جديد لا تعرفه حياة أولئك الطغاة في الأرض؟ وكيف يريد هذا الرجل وحده أن يغير وجه التاريخ إلى وجهة لا تعرفها الوثنية المادية في عنجهيتها الجاهلية وإلحادها الوثني الأبله؟ ولا تعرفه معها شعوب الأرض وأممها المرتطمة في أوحال الشرك والوثنية المتعالمة.

صورة الحياة في نظر الوثنية المادية

محمد - ﷺ - هذا الذي ولد يتيماً، وشبّ مُقِلاً في حطام الدنيا، كادحاً يعمل ويكسب قوته من كدِّ يديه، وعرق جبينه، فليس عنده من المال والثراء، وكنوز الدنيا وتجاراتها ومضارباتها ومرابحاتها شيء من الذي نملكه ونستعبد به الناس، ونسوقهم إلى طاعتنا بسياط الحاجة إليه وهو في أيدينا؟.

محمد - ﷺ - هذا يريد أن يسلبنا ملكنا وحياتنا الفارغة من المتاعب، ويسلبنا ما نحن فيه من شرف مترهل بطين، ويريد أن يبطَّ كروشنا بحد دعوته إلى الإخاء والمساواة؟ وأي إخاء هذا الذي يدعو إليه محمد ﷺ وجاءت به رسالته، الإخاء الذي يجعل من عبيدنا وخدمنا أخوة لنا،

يتساوون معنا في الحقوق والواجبات، يكون لهم بهذا الإخاء حقوق في أعناقنا، ويتكوَّن لهم علينا واجبات اجتماعية إنسانية، يجب أن نؤديها إليهم؟؟.

وأية مساواة تلك التي تنهض بهؤلاء المدقعين الفقراء المتهالكين جوعاً وعرياً إلى آفاق حياتنا شبعاً كظيظاً وسيادة متغطرسة متعالية، تشير ولا تتكلف الكلام فتستجيب الحياة لإشارتها؟.

حقد حانق ومادية بلهاء وتفكير كفور

تجمع أحلاس الشرك وغثاء الوثنيات من غطاريف قريش ونظروا في أمر محمد ﷺ وائتمروا بينهم ودبروا واستكبروا، وشنعوا به وشمروا لمقاومة دعوته بعد أن جهر بها، ودخل أصحابه المسجد، وصلوا عند الكعبة، وتحلقوا حولها، وقد كانوا يَسْتَخْفُون بإسلامهم، لا يستطيعون المعالنة بدعوتهم، وبعد أن كان محمد ﷺ لا يتعرض لآلهتهم يعيبها، ولا لأحلامهم يسفهها، ولا لآبائهم يضللهم، وإذا هو اليوم يعيب آلهتهم، ويسفه أحلامهم، ويضلل آباءهم، فلا صبر لهم على ذلك، وكيف يصبرون على أمر فيه فناؤهم والقضاء عليهم؟.

واتفقوا على أن يبعث ملؤهم إلى محمد ﷺ يستعتبونه لعله يعتبهم، ويترك معالنتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم وعيب آلهتهم، ولكن محمداً ﷺ لم يبالهم، ولم يقم لعتبهم وزناً ولا جعل له شيئاً من تقدير.

عزيمة محمد ﷺ تقلب الموقف على ملأ قريش

ومشوا إلى عمه أبي طالب، وهم يرون حدبه عليه ومنعه أن يضام، وقيامه معه ونصره له، يتوهمون أن أمر ابن أخيه بيده، يملك أن يصده عن معالنة قومه بما هم عليه من سفه وبلادة في عقائدهم وأسواء مجتمعهم، فاستعتبوه ملاينة ثم مزجوا بالعتب التهديد والوعيد، فخضع أبو طالب لبعض أمرهم ولم تطب نفسه بفراقهم.

ووقف محمد ﷺ أمام ملأ قريش بعزيمة لا تفل وإيمان لا يوزن به إيمان أحد قط في السماء ولا في الأرض في ثباته ورسوخه وقوته، وقال لعمه ـ الذي كان يجتر ضعفه أمام عرض القوم ما زعموه نصفة وعدلاً

وهو ﷺ يستعبر باكياً رحمة لقطيع الإنسانية المعذبة في الأرض - كلمته التي تَصَنَّت لها فلك الكون وهو يجري، تلك الكلمة التي خلقت من عمه قوة بعد ضعفه أمام طغيان ملأ الوثنية المادية، حتى رد على وعيدهم بوثبة أعدَّها وأعد لها في شباب بني هاشم وبني المطلب، وثبة من حمية كاد يفتك بهم فيها فلا يبقي على أحد منهم أو يهلك هو وشباب بيته وأسرته.

وعرفت الوثنية المادية جدّ العزيمة في تدبير أبي طالب فنكصت على أعقابها، وتراجعت عن غرورها وتهديدها وراحت إلى أبي طالب تلاينه وتحاسنه، وتطلب منه أن يهادن بينها وبين ابن أخيه ويعطونه النصف والعدل، وأرسل أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فجاءه وعرضت قريش على لسان ملئها نَصَفَها الكفور، وعدلها الظلوم، ولم يترك رسول الله ﷺ هذه السانحة تمر دون أن يضع قريشاً وجهاً لوجه أمام خلاصة من رسالته وجماع دعوته في كلمة واحدة إذا قالوها مسلمين إليها وجوههم خالصة لحقّيتها اعتقاداً وعملاً دانت لهم بها الدنيا، فلما أظهرها لهم - بعد أن هشوا لسماعها واستجمعوا مشاعرهم وإحساساتهم لتعيها - نفروا واشمأزوا وقاموا منكسرين مدحورين، وراحوا يدبرون أمراً غير ما كانوا دبروا ومكروا ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾.

أول سفارة بين محمد ﷺ وقريش

وجلسوا في ناديهم وتآمروا فيها بنيهم، وكان رسول الله ﷺ جالساً وحده في المسجد مجانباً لهم، وانتهض عاقلهم عتبة وعرض عليهم خطة أدارها في رأسه ينهي بها أزماتهم مع محمد ﷺ التي شغلتهم عن تجاراتهم ومضارباتهم، وردوا على عتبة في لهفة المتورط يستنشق نسيم النجدة من سمائم الجحيم أو الغريق الذي يغشاه الموت من كل مكان فيتشبث بقشة يتوهمها متشبِّثاً ينجيه، فقالوا في صوت واحد: افعل أبا الوليد ما بدا لك وما رسمت في رأسك من خطة فيها إنقاذنا من هاويتنا التي ارتطمنا فيها.

وقام عتبة يمشي في تيه البأو الكذوب حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فحدَّثه - صادقاً - عن نبعة محمد بن عبدالله في الحسب والنسب، والبر والخير، ثم راح عتبة يكذب ويكذب - جاهلاً عنيداً - ويزعم على

دعوة محمد ﷺ ورسالته ما خيل له شيطان شركه ووثنيته المادية البليدة، وطلب إلى رسول الله ﷺ أن يصغي إليه يعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فتحل أزمة قريش، ويبوء عتبة عاقل قريش ببطولته الوثنية والإلحادية الكنود، فقال له رسول الله ﷺ في أناة وريث وهدوء والثقة المطمئنة بالإيمان الذي لا يداخله أدنى ريب: «قل يا أبا الوليد أسمع».

وتكلم عتبة يعرض أموره التي رسم خطتها في رأسه، وقام من نادي قومه إلى مجلس رسول الله ﷺ ليعرضها عليه. لعله يقبل بعضها فتنفذه له قريش وينتهي ما بينها وبينه من أزمات وشدائد.

عقلية أرضية بليدة

عرض عتبة على رسول الله ﷺ أربعة أمور أيّها شاء أعطيه في سبيل أن يكف عنهم، ويتوقف عن عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم.

أولها: إن كان محمد ﷺ يريد بما جاء به من دعوته إلى توحيد الله وخلع الأنداد، وترك عبادة الأصنام، مالاً جمعوا له من المال حتى يكون أكثر قريش مالاً وثراء.

ثانيها: إن كان محمد ﷺ يريد بما جاء به من رسالته شرفاً ولّوه عليهم وبايعوه سيداً لهم، فلا يقطعون أمراً من أمورهم دون أن يكون محمد ﷺ شاهده وصاحب الكلمة العليا فيه.

ثالثها: إن كان محمد ﷺ يريد بما جاء به ملكاً ملكوه عليهم، وجعلوا على مفرقه تاج الملك وبايعوه ملكاً على سائر قريش ومن ورائها جميع العرب الذين يدينون بتعظيم قريش التي جعلوا إلى بيتها بيت أبويها إبراهيم وإسماعيل حجهم وأكبر مواسمهم.

رابعها: وإن كان هذا الذي يأتي محمداً رِئياً وتابعاً من الجن، تسلط على مشاعره فلا يستطيع رده عنه وغلب عليه فلا يستطيع مقاومته والانفكاك عنه بذلوا في طلب الطب له من أموالهم حتى يبرؤه منه.

أفٍ لهذه الأدمغة التي نخرها سوس الوثنية البليدة المتهافتة، فأفسدها

حسـاً ومعنى، فلم يبقَ في تلافيف خلاياها ذرة من تعقل وتفكير مستقيم.

يا ويح قريش من عقلائها؟ أهذا كل ما تمخضت عنه عقلية عتبة عاقل قريش لينهي به أزمتها مع محمد ﷺ.

ومرة أخرى أفٍ لهذه الجماجم النخرة التي تحملها رقاب عريضة الأقفية، ما هذا يا أبا الوليد؟ وأنت من أقرب قريش نسباً إلى محمد ﷺ وأعرف الناس بمدخله ومخرجه....

حياة محمد ﷺ مرآة للكمال البشري والسمو الروحي

محمد ﷺ رسول رب العالمين إلى البشرية كلها أمره الله تعالى أن ينذر أول من ينذر عشيرته الأقربين، فدعاهم وأبلغهم رسالة ربه أكمل وأرفق ما يكون التبليغ، ولم يسألهم أموالهم وما سألهم إلا المودة في القربى، وما كان محمد قط في حاجة إلى شرف فوق شرفه في قومه وبيته، وقريش كلها تعرف لـه هذا الفضل، وتذعن به لبيته ونبعته.

ولم يعرف عنه قط أنه تطلّع إلى ملك الدنيا، فلم يحفظوا عنه قط أنه طلب إليهم أن يرأسوه عليهم أو يملكوه على بلدهم وبطونهم.

وما قدر الملك عليهم وعلى قريتهم وبلدهم، وهي التي يملكـون أمرها، وأي ملك هذا؟ ملك قرية متقاربة الأكتاف، ويقطعها الرجل مشياً في زمن لا يستغرق ساعة من نهار، ليس فيها من مظاهر الرياسة بله الملك سوى هذه العنجهيات الجوفاء تملأ الأدمغة النخرة، فمحمد ﷺ عاش منذ مهده وشبوبيته ورجوليته على سمع قومه وبصرهم، فلم يطلب من أحد منهم شيئاً مما يتصل بالدنيا، ولما بعثه الله تعالى برسالته رحمة للعالمين، لم يعنّت قومه ولم يسألهم دنياهم ولا زاحمهم عليها، وكان أبعد الناس عن زخرفها وحطامها والتكثر منها.

وإنما سألهم أن يطهروا أنفسهم وعقولهم وقلوبهم من رجس الوثنية، ووضر الشرك، سألهم أن يوحدوا الله في تعبدهم، وأن يخلعوا من أعناقهم عبادة الأحجار والأوثان، كل ذلـك في كلمة واحـدة إذا قالـوا وعملوا بمضمونها وحقيقتها ملكوا الدنيا بها.

ما مكة والعرب والأرض بمن عليها وما عليها في وزن رسالة محمد ﷺ؟

ولم يكن في دنيا مكة، ودنيا العرب، صاعدين ونازلين مشرِّقين ومغرِّبين، ولا كان في دنيا سائر الناس وراء العرب شمالاً وجنوباً رجل أصحّ عقلاً وأسدّ فكراً، وأطهر قلباً وأنور روحاً، وأكمل جسماً، وأعلا في نقاء البشرية وصفائها كعباً من محمد بن عبدالله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي الذي اختاره الله تعالى في أكمل البشرية سناً وعقلاً، وفكراً وقلباً وروحاً نبياً ورسولاً إلى العالمين، يدعوهم إلى الهدى، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

ولكن ملأ المادية الوثنية من طواغيت قريش لم تقنعهم سفارة عتبة ابن ربيعة إلى محمد ﷺ بل شكّوا في صباءة عتبة، إذْ لم يرجع إليهم من سفارته أمماً، بل وَجّه إلى بيته، ولم يخرج إليهم معتزلاً مجلس ناديهم فذهبوا إليه، وسألوه عن اعتزاله عنهم، وعنتوه في موقفه منهم، حتى أكرهوه على شيء لم يكنْ ليختاره لو كان له خيار، أكرهوه على أن يحلف أن لا يكلم محمداً ـ ﷺ ـ أبداً؟؟ عجب... عاجب، ومنطق منكوس.

أهذا منطق العقل ـ يا عاقل قريش، ومختارها لحل عقدة حياتها في أشد أزماتها؟ وما شأن محمد ﷺ في موقفك مع قومك، وموقف قومك منك؟ ولا سيما موقف غميز الرجولية، وطريد الكرامة، ولعين المروءات صاحبك أبي جهل، إذْ أحرجك وعنتك بكلماته الفاجرة حتى تخرج عن عقلك، وتقسم أن لا تكلم محمداً ﷺ أبداً؟ وهل خِلْتَ يا عاقل قريش فتخيلت أن محمداً ﷺ في حاجة إلى مكالمة عبيد المادية الوثنية، وأنت أحد ساداتهم، إن لم يؤمنوا بالله، ويكفروا بالطاغوت ويستمسكوا بعروة دعوته الوثقى، ويحرروا عقولهم وقلوبهم من التعبد للمادية الوثنية بشتى أشكالها؟.

أفما كانت العزة العربية والكرامة القرشية، والشهامة العبشمية تقتضيك بداهة أن يكون موقف المقاطعة، هذا الذي اتخذته لنفسك أو حُملت عليه حملاً، فوقفته من محمد ﷺ وهو لا دخل له في حرجك ـ أن يكون حريّاً به منك صاحبك غميز الرجولية أبو جهل، فهو الذي عيَّرك بالبطنة والبؤس والحاجة إلى طعام محمد ﷺ وطعام محمد ﷺ غير مضنون

به على عامة أو خاصة، وغير محجور على غني أو فقير، ولا ممنوع منه عاجز أو قدير، ولا يذاد عنه مسكين أو طريد، وكل طعام في ميزان الجود والمروءة علالة الدنيا وسد رمقها، فلا يقدره فوق ذلك إلا شح زريّ، وبخل شريّ، وضن بغيّ.

ولكنها المادية الوثنية في كل زمان ومكان وعصر ومصر لا تؤمن إلا وهي مشركة، ولا تعقل إلا وهي آفنة، ولا تتصرف إلا وهي مأفونة مخذولة.

وأين شجاعة عاقل قريش عتبة بن ربيعة التي كانت تحلّيه وفي ظلها اختارته قريش ليسفر بينها وبين محمد ﷺ ليخلصها من أزماتها؟.

تلك الشجاعة التي تبددت هباء في أعاصير الجبن والهلع عندما لقيه لعين الرجولية أبو جهل وهو يجبهه ويسخر منه ويهزأ به، حتى استنزله من أفق تَعَقُّله إلى مهاوي العصبية الجهول والعناد الكفور.

لقد عبَّر عتبة لقومه حين سألوه عن سفارته إلى محمد ﷺ وقد سمع منه ما سمع من آيات القرآن الحكيم تعبيراً أزكم أنوفهم حتى قال لهم صادقاً غير مصدَّق: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

فكرة ترابية واحدة للملأ الوثنية مجتمعين أو منفردين

وقد صنع ملأ المادية الوثنية من طواغيت قريش ما بدا لهم، فاجتمعوا في ناديهم، ونظر بعضهم إلى بعض، وطالت نظراتهم: لم يشفنا عتبة، وسحره محمد بكلامه، ولن يقدر على أن يسحرنا جميعاً، فلنلْقَه مجتمعين، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ يسعى مجدّاً، وهو يظن أن قد بدا لهم في أمر دعوتهم بداء من الخير والهداية، وكان ﷺ حريصاً عليهم يحب رشدهم، ويعزّ عليه عنتهم.

وكان الذي عرضوه عليه مجتمعين هو عين ما عرضه عتبة منفرداً؛ بَيْدَ أن النبي ﷺ قد أجاب الملأ مجتمعين بغير ما أجاب عتبة منفرداً.

وهنا يقف القلم متأملاً ليستبين وجه مغايرة إجابة النبي ﷺ في الموقفين؛ لأن في ذلك حكمة تمثل سياسة سير الدعوة وتبليغ الرسالة بما يدل

على سداد التفكير الذي حبي به رسول الله ﷺ، ومعرفته بما قامت عليه الطبائع البشرية من اختلاف في الإدراك في حالتي الاجتماع والانفراد.

كان القصد من الرد على عتبة منفرداً إزعاج ضميره ليستيقظ

أولاً: كان جواب النبي ﷺ على عرض عتبة في لقائه منفرداً سفيراً من ملأ المادية الوثنية أن قرأ عليه سورة فصلت، وهي من سوابق سور القرآن الكريم المكيات، وطلائع التنزيل، وهي نموذج من أرفع نماذج البيان القرآني في روعة الأسلوب وبراعة الإعجاز الشامل لإعجاز الأسلوب، وطرائق الأداء واتساق الصياغة البيانية، والشامل لإعجاز الهداية والحقائق الكونية، والمعاني الإصلاحية، والمعارف الفكرية، والعلوم العقلية، بما اشتملت عليه من عرض لآيات الكون في بعض جوانبه، وما تضمنته من رهبة الإنذار، وروعة الإرهاب للذين يلحدون في آيات الله، ويكفرون بما أنزل الله من كتاب يدعوهم إلى الرشد والخير، وبما حوته من حوار وحجاج، وقصص وأحداث، مليئة بالعبر التي توقظ الضمير، وتوجه العقل إلى النظر في آيات الله حتى يتبين للناظرين بعين الاعتبار أنّ الذي أنزل على محمد ﷺ هو الحق، جاءهم به من عند ربهم، مما يقتضينا أن نجمل في إيجاز معبر بيان حقائق هذه السورة الكريمة ومعانيها التي تجلَّت فيها حكمة اختيار رسول الله ﷺ لها جواباً على عرض ما عرضه سفير طواغيت المادية الوثنية عتبة بن ربيعة عليه ﷺ ليقنعه باختيار مايشاء من لعاعات الدنيا فيعطاه، ويكف عن قريش ودعوتها إلى الله وتوحيده، فلا يسمعها في أنديتها قوارع رسالته، ولا يزعجها بشآبيب إنذاراته.

ومن البيِّن الذي لا يحتاج إلى توقف متأمل أن الأمور التي عرضها سفير قريش عتبة بن ربيعة على رسول الله ﷺ ليختار منها ما يشاء، فتعطيه إيـاه قريش ثمناً لكفِّه عنها، وتركها غارقة في أرجاس ماديتها الوثنية وشركها الكفور ـ كانت أرفع مناصب الدنيا وأجلّ ما يطلبه الطامعون في زخارفها، الطامحون إلى مشارفها وعلوها.

فهي أمور مادية أرضية، ليس فيها رائحة من شرف العقل وكرامة الفكر، وإشراق الروح، انتزعها عباهلة المادية الوثنية من أعظم ما تسمو

إليه حياتهم المادية الظالمة المظلمة.

وقد أراد رسول الله ﷺ بقراءة هذه السورة الكريمة على مسامع سفير قريش عتبة بن ربيعة، وجعلها جواباً له عن عروضه المادية التي عرضها عليه ليختار منها ما يشاء أن يزعج ضميره ليستيقظ من غطيط نومه الوثني، ويفيق من سكرته الجاهلية، ويصحو من غفلة عنجهيته، وضلالات مواريثه، عسى أن يكون في ذلك فتح مغاليق قلبه وقلوب من وراءه من غطاريف الوثنية المادية، فتؤمن قلوبهم بما يتجلّى لها من الحق، وبما تعرف من حججه ودلائله، وبما تفقه من براهينه التي جاءهم بها رجل أميّ من أنفسهم، وهم أعرف به من معرفتهم بأبنائهم وأنفسهم.

ولا شك أن الحديث إلى رجل مفرداً أدعى إلى الأناة والتفهُّم وتعمُّق الفكر وبسط الحوار وتنوعه في أودية الإقناع والتثبت، ولا سيما إذا كان المتحدَّث إليه يحمل مخايل التعقل وحكمة التدبر لما يسمع، وقد كان الظن كذلك بعتبة، فقريش بعثته سفيرها إلى النبي ﷺ، لأنها رأته أعقلها وأعلمها بما هنالك من علومها ومعارفها التي تشفُّ لها عما تريد معرفته من محمد ودعوته.

ولعل سيدنا رسول الله ﷺ رأى بحكمة تسديد الله له في سير رسالته، وتوجيهه في تبليغ دعوته أن إسماع عتبة وحده شيئاً من آيات القرآن الحكيم فرصة لا تتاح مع الجموع المختلطة التي تَغْلب عليها أصوات الغوغاء، فترتفع على أفكار المتعقلين، وغالباً ما تكون الجموع الجماهيرية المختلطة جامعة إلى جانب الرجل المتفكِّر أعداداً من الحمقى والسفهاء المتسرعين بالكلمة يلقونها دون مبالاة بما تنتهي إليه والغوغاء لا يضبط لها رأي، ولا يقام لنعيقها ميزان، ولا يعرف لها تدبُّر في فكر أو رأي.

ومن هنا كانت الحكمة في إجابة عتبة عن مساءلاته وعروضه في اختصاصه بقراءة هذه السورة الكريمة، وقد تحقق مرمى نظر رسول الله ﷺ في تحقق أثر قراءة السورة في عقل عتبة وتفكيره، فنقله إلى قومه وملئهم،

وتأثر العقل ليس من وصائل تأثر القلب الذي يتولد منه الإيمان وتنبع من أرومته الهداية، فلم يؤمن عتبة ولكنه صدقهم إذ قال لهم: أنه سمع من محمد - ﷺ - كلاماً لم يسمع مثله قط.

بيان موجز في بعض معاني سورة فُصِّلَت

وسورة فصلت هي السورة الثانية من الحواميم السبع، وهي السورة الحادية والأربعون من سور القرآن الكريم في ترتيب المصحف الإمام الذي تداولته الأمة مجمعة عليه منذ نقله عثمان بن عفان بمشهد من أصحاب رسول الله ﷺ من صحف الصدِّيق أبي بكر، التي أخذها بإجماع الصحابة رضي الله عنهم مما كتب في صحف رسول الله ﷺ بأمره تحت سمعه وبصره.

والناظر في هذه السورة بعين التأمل البصير يرى أنها سورة تغلب على آياتها البرهنة الكونية، فهي قد بدأت بأن القرآن تنزيل من الرحمن الرحيم، وهو الله رب العالمين الذي تولى تربية خلقه، ووصف الرحمة المستمد من هذين الاسمين الكريمين في مفتتح السورة اللذين يستوعبان التفضل **بالإنعام** ابتداء، ودوام الإحسان من غير انتهاء، فيه إشعار يستقبل المؤمن من أول وهلة بأن ما جاء في هذا الكتاب المجيد عامة وفي هذه السورة خاصة من أمر ونهي، ووعد ووعيد وترغيب وترهيب، وقصص وأحداث وآيات وعجائب، وتوجيه نظر إلى دلائل القدرة الإلهية في آيات الكون الآفاقية والأنفسية، إنما هو رحمة من الله تعالى بعباده يدعوهم بها لينقذهم من الظلمات إلى النور، ثم ويخرجهم من ضلالات الجهالة إلى هدى العلم والمعرفة.

ثم بيَّنت السورة أن هذا القرآن فصلت آياته بأسلوب عربي بيِّن يبشر وينذر، ثم تتحدث عن فريق من الناس صموا آذانهم عن سماع الحق، وأغلقوا دون هدايته قلوبهم عناداً واستكباراً في الأرض بغيرالحق، وأقاموا على عنادهم، وظلوا في طغيانهم يعمهون، فلم تتألفهم البشائر ولم تَرْدَعهم النذر، ثم ذكرت السورة أن محمداً ﷺ بشر مثل سائر البشر في

طبيعته البشرية، لا يمتاز عنهم بشيء سوى أنه رسول من الله يوحى إليه بتوحيد الله تعالى، فلا يطلب بما جاء به مالاً، ولا سيادة، ولا شرفاً، ولا ملكاً مما يتطلع إليه عبيد الدنيا، وإنما يطلب من عباد الله أن يستقيموا مع ربهم، فيفردوه بالعبادة ويستغفروه من الذنوب والآثام.

والسورة تخاطب هؤلاء المعـاندين بـأسلوب تعجّبي، ينكر عليهم موقفهم المتبلد بالجمود من قوارع الآيات ليوجه عقولهم إلى النظر في الآيات الأرضية.

أولاً: لقربها إلى نظر المخاطبين ثم تنتقل السورة إلى توجيه النظر.

ثانياً: إلى الآيات السماوية لظهور دلائلها لأبصارهم وسائر منافذ حسهم وحاجتها إلى التأمل الصادق المتعمق ببصائرهم، وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءللسائلين * ثم استـوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهنّ سبع سموات في يومين * وأوحى في كل سماء أمرها * وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾[1].

والآيات تذكر خلق الأرض في يومين برهاناً على التوحيـد وخلع الأنداد، وأن الله تعالى الذي أبدع بقدرته هذه الأرض هو رب العالمين، الذي رباهم على موائد فضله وإحسانه، وأنه تعالى حفظ الأرض بما جعل فوقها من الرواسي، وأنه بارك فيها بما أمدها من رحمته، وبما أنشأ فيها من ثمرات وزروع، جعلها قوتاً لعباده، وحفظاً لحياتهم، وتم ذلك في يومين، وقامت الأرض بما عليها وما فيها في أربعة أيام من أيام الله التي لا يعلم قدرها غيره سبحانه وتعالى.

ثم بينت الآيات أن الله تعالى بعلمه المحيط وقدرته القاهرة قصد

---

(١) سورة فصلت، آيات: ٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢.

قصداً تكوينياً، فجعل السماء التي كانت دخاناً لا يتماسك ولا يستقر فسواها بقدرته بناء متماسكاً وسقفاً محفوظاً، في يومين من أيامه، وبذلك تم عدة أيام الخلق للسموات والأرض ستة أيام، وقد تكررت هذه العدة في القرآن الكريم، ثم قال لها بما شاء من كيفيات القول والإفهام، ومعها الأرض ائتيا بما فيكما من آيات وعجائب، وثمار وزروع وأنهار وعيون ومعادن وخيرات، وسائر مخلوقات الله من ملائكة وإنس وجن طوعاً، بإخراج ما أودعنا فيكما من أسرار وآيات لتكون دلائل لعبادنا على قدرتنا ورحمتنا وإنعامنا ليقوموا بحق شكر ما يكشفون منها ويتمتعون به في حياتهم.

وليست الأيام المذكورة في هذه الآيات ظرفاً لخلق الأرض والسموات والأقوات هي أيام حياتنا المعروفة في حساب الناس وأعرافهم بأسمائها وأقدارها الزمنية، ولكنها تقدير إلٰهي يُقرّب الله به إلى العقول تصور تسخير القوى الكونية للقدرة الإلٰهية بما تأنس به وتألفه في متعارفها.

أخرج أبو عبيد من طريق ابن أبي مليكة قال: سأل رجل ابن عباس رضي الله عنهما عن (يوم كان مقداره ألف سنة) فقال له ابن عباس: فما (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)؟ فقال الرجل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما، وهذا من الحبر ابن عباس نظر متعمق في فهم القرآن وفي آياته.

ولما استتمت الآيات ذكر براهين القدرة الإلٰهية الحسية والعقلية السماوية والأرضية المقتضية ببداهة العقل توحيد الألوهية وتفريد الله تعالى خالق الأرض والسموات وما جعل فيها من آيات وأسرار بالتعبُّد له، ولم يبقَ لهؤلاء المعاندين الذين خوطبوا بالآيات المذكورة بالأسلوب التعجيبي عذر، ولم تقم لهم في كفرهم وجحودهم حجة ولا شبهة، جاءهم الوعيد يجلجل بالتهديد، والوعيد تخويف وإنذار لكل من يسلك مسلكهم، ويمشي في طريق إلحادهم وكفرهم ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ في تفصيل مرعب مخيف لما حلّ بالمتمردين المعاندين من الأمم

السابقة، والعرب كانوا أقوم الناس بفهم القرآن وأعرفهم بحقائقه ومراميه، وزواجره ونواهيه، لأنه على سنة مخاطباتهم ومجاري أساليبهم نزل، وبلغتهم وطرائق صياغاتهم خاطبهم.

ولأمر مّا اختار رسول الله ﷺ هذه السورة الكريمة لتكون جواباً على محاورة عتبة له ﷺ في سفارته إليه إجابة لاختيار قريش له، لعلمه بالسحر والكهانة والشعر، فكان لها أثرها العميق في نفس عتبة.

ذكر القرطبي وابن كثير وغيرهما أن الزيال بن حرملة روى عن جابر بن عبدالله قال: قال الملأ من قريش وفيهم أبو جهل ـ وهو صاحب الكلام ـ: قد التبس علينا أمر محمد ـ ﷺ ـ فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلمه، ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر، وعلمت من ذلك علماً لا يخفى عليّ إن كان ذلك، فقالوا: إيته فحدثه، فأتى عتبة النبي ﷺ، فقال له: يا محمد أنت خير أم قصي بن كلاب؟ أنت خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبدالله؟ كل ذلك ورسول الله ﷺ ساكت لا يرد عليه، ثم قال عتبة إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبتَ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقّت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبتَ ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم إن في قريش ساحراً، وإن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى.

أيها الرجل: إن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك.

فقال رسول الله ﷺ: «قد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم قال: «فاسمع مني» قال: يا ابن أخي قل أسمع، فافتتح النبي ﷺ سورة حم

السجدة، وهي سورة فُصِّلَت فقرأها على عتبة حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي ﷺ، وناشده الله والرحم ليسكتنَّ.

وهنا تختلف الرواية، فابن كثير ومن معه، يقولون: فرجع عتبة إلى قريش، فقالوا له: ما وراءك؟ قال ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلّمون به إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ قال نعم، لا والذي نصبها بنيَّة ما فهمت شيئاً مما قاله، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك؟؟ يكلمك الرجل بالعربية ولا تدري ما قال، قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة.

والقرطبي ورواية أخرى لابن كثير وغيره تقول: أن عتبة بعد أن سمع من رسول الله ﷺ ما سمع رجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صَبَأَ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فقال أبو جهل: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه؟ فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلّم محمداً أبداً، ثم قال: تعلمون والله أني من أكثر قريش مالاً، ولكني لما أتيته وقصصت عليه القصة أجابني بشيء ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ثم تلا عليهم عتبة ما سمع من رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسكتُ بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فوالله لقد خفتُ أن ينزل بكم العذاب.

وقد قدَّمنا الرواية التي تذكر أن عتبة لما رجع إلى قريش في ناديها رأوه متغير السمت والسحنة، وأنهم لما سألوه انتهى بهم إلى قوله: فأطيعوني في هذه، وأنزلوها بي: خلُّوا محمداً وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكوننَّ لما سمعت من كلامه نبأ، فإن أصابته العرب فقد كفيتموه بأيدي غيركم،

وإن كان مَلِكاً أو نبياً كنتم أسعد الناس به، لأن ملكه ملككم، وشرفه شرفكم، فقالوا هيهات: سحرك محمد يا أبا الوليد، قال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما شئتم.

ثم تابعت السورة الكريمة هذا التهديد الدنيوي بتهديد أخروي، فصلت فيه بعض ما يحيق بالمعاندين الظالمين يوم القيامة من الفضوح وكشف الأستار بشهادة أعضائهم وحواسهم، وأردفت السورة ذلك كله ـ جرياً على سنة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد، والإنذار بالتبشير ـ بذكر ما أعدَّه الله لأهل الاستقامة من ضروب الكرامة في دار النعيم، ثم عادت إلى تتميم ما بدأته من ذكر الآيات الكونية لتوكيد براهين القدرة الإلّهية ودلائل التوحيد في لون آخر من الأسلوب والأداء ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾.

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ـ يابسة مقفرة ـ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ـ أي انبعثت فيها الحياة بعد مواتها ـ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾.

ثم وجهت السورة الكريمة نظر المفكرين إلى الذين يلحدون في آيات الله بتحريفها عن مواضعها من الصدق والحق إلى الأكاذيب والأباطيل، أو يلهمون النظر فيها ويعطلون حقائقها ومعانيها عن القيام بدورها في تكييف الحياة وتوجيهها، وصبَّت عليهم سياط تهديدها ووعيدها بأسلوب الإبهام الذي يطوي تحته ألواناً من العذاب ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفَون علينا ﴾.

ثم ختمت السورة هذا الاتجاه بقانون عام يقوم على أساسه نظام الحياة في ربط الجزاء بالعمل على أساس من العدل المطلق، الذي لا يحابي ولا يحيف ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾.

ثم عرضت السورة الكريمة نموذجاً للإنسان في أثرته وحبه لنفسه،

وبطره بالنعمة، ويأسه عند حلول النقمة، فإن قدر طغى واستكبر، وإن عجز ذلَّ وتصاغر، وهو في حاليه معرض عن الحق إعراض سفه وجهالة ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط﴾ ثم ذكرت هذا المعنى في أسلوب آخر ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾.

ومن ثَمّ خوطب الإنسان في نماذجه الضالة عن سواء السبيل فقالت السورة الكريمة: ﴿قل: أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضلُّ ممن هو في شقاق بعيد﴾ قال الإمام الرازي في تفسيره: **وتقدير** هذا الكلام: أنكم أيها المخاطبون المعاندون كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه ولم تنظروا فيه، وبالغتم في النفرة عنه، حتى قلتم: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر، ومن المعلوم بداهة أن العلم بكون القرآن باطلاً - كما زعمتم - ليس علمًا بديهياً، فقبل ذكر الدليل والتأمل فيه يحتمل أن يكون صحيحاً، وبتقدير ذلك يكون إصراركم على دفعه وعدم قبوله من أعظم موجبات العقاب لأن العقل يوجب النظر في الدليل لمعرفة الحق.

ولما استكملت السورة وجوه الدلائل القاطعة مبثوثة في السموات والأرضين على وجود الله ووحدانيته وعظيم قدرته، وظهر أن هؤلاء المعاندين كانوا نماذج للفطرة الفاسدة والعقول الجامدة على تقليد موروث الآباء في جهالة جاهلة، وأنهم لم يستفيدوا من كتاب الكون الذي عرض آياته القرآن الكريم عليهم، واستنهضهم للنظر فيها - نبهت السورة في خاتمتها إلى أن الله تعالى سيجعل من سلائل الإنسانية نماذج أخرى، يضيء عقولهم، فيكشف لهم بها عن آياته في آفاق الحياة، وجوانبها العلوية والسفلية، وعن آياته في أنفسهم وما انطوت عليه بنيتهم البدنية من أسرار التركيب، وبديع الخلق فيما ظهر منها وما بطن، وعن آياته فيما أودع أرواحهم من الأسرار النورانية، وما جعل في عقولهم من الإشراقات الفكرية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وظاهر أن المراد بآيات الآفاق التي سيكشف الله

عنها للعقول التي ستأتي في نماذج المستقبل من سلائل الإنسانية (المتطورة)، والتي سيريهم إياها حتى يعلموا علم يقين عن تجربة وبرهان صادق هي الآيات الفلكية والكوكبية، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والظلمات، وآيات عوالم العناصر، وآيات المواليد في أنواع المخلوقات السماوية والأرضية مما لا يزال مخبوءاً في غيب الإبداع الإلهي، وليس المراد هذه الآيات والأسرار التي عرفها العقل الإنساني وكشف عنها ـ كما يدل على ذلك تعبير القرآن بقوله ﴿ سنريهم ﴾ لأن هذا يدل على أن الله تعالى سيطلعهم على آيات وأسرار من عناصر الكون لم يكونوا قد رأوها، وهذا تسجيل قرآني (للتطور) الذي ينتاب الحياة كلها نتيجة لعمل العقل وتجارب العلم.

وإذا كان المسلمون قد جهلوا هذا وأهملوا سبله، وتركوه لغيرهم حتى ظهرت آثاره من آفاق غير آفاقهم، فهو حقيقة قررها القرآن ودعا إليها، والعلم لا وطن له، ولعل الله تعالى بمنه ولطفه يفتح عقول المسلمين وقلوبهم لينهضوا من كبوتهم حتى يلحقوا بقوافل الحياة، وهي تضرب في مسالك العلم صاعدة ونازلة، مشرِّقة ومغرِّبة.

والمراد بآيات الأنفس ما أودع الله فيها من بدائع عجائبه، وأسرار خلقه وإبداعه ولطيف حكمته.

يقول الإمام الرازي: والعجائب التي أودعها الله تعالى هذه الأشياء مما لا نهاية لها، فهو تعالى يطلع عباده على تلك العجائب زماناً فزماناً وحالاً بعد حال.

وقد أكثر القرآن الكريم جداً من ذكر آيات الله في الآفاق والأنفس، ونبَّه العقول والبصائر على النظر فيها والتأمل في بدائعها وما وراءها من بدائع محجوبة، ولكنها بمعرض الكشف الذي يقوم به العلم في وثباته التجريبية، يقول الله تعالى: ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون * وفي السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه

لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[1].

فآيات هذه السورة الكريمة جامعة لجوانب متعددة من أصول رسالة محمد ﷺ، ففيها بيان أساس العقيدة بتوحيد الله، وفيها بيان الرسالات الإلٰهية، وأن الرسل لم يخرجوا عن كونهم بشراً كسائر البشر، ولكن الله تعالى ميَّزهم بمنه عليهم أن اختارهم لرسالاته بتوحيده، وفي آيات هذه السورة الكريمة بيان أصول العبادات والمعاملات، وفيها التنويه بأصول الفضائل الخلقية، والآداب الاجتماعية ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم ﴾.

وفيها من الآيات والإشارة إلى وثبات العلم ما جعل العقل الإنساني كفيلاً بالكشف عنه في مستقبل الحياة وتوالي العصور والأزمنة، وتتابع الأجيال، وفيها بين ذلك وعد، وترهيب وترغيب، وفيها بيان لما حل بالمكذِّبين لرسالات الله المعاندين لرسله من الغابرين، ليكون في ذلك عبرة وذكرى لأولي الألباب.

وفي الحديث عن الآيات الكونية إشارة إلى انطلاق العقل ليفكر ويعمل بكل ما لديه من وسائل العلم وأساليب المعرفة، وينهض بكل ما أوتي من قوة ليكشف عن عجائب الكون وأسراره التي لا تزال محجبة في ضمير الغيب، وقد وعد الله تعالى بالكشف عنها عن طريق هذا العقل المتحرِّر من أغلال الجمود، كلما استقامت له وسائل علمية جديدة.

وهذه الآيات والعجائب الموعود بالكشف عنها في مستقبل زمن الخطاب المباشر وقت نزول القرآن المفهوم من قوله تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا ﴾ يجب أن تكون شيئاً جديداً غير ظواهر الآيات المشهورة المعروفة لأولئك المخاطبين، كالليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والسماء والأرض في ظواهرها.

فهي إما خصائص في هذه الآيات المشهورة وراء تلك الظواهر، لم

---

(١) سورة الذاريات، آيات: ٢٠ - ٢٣.

تصل إليها عقول الغابرين، أو هي آيات في عوالم أخرى يخلقها الله ويكشف عنها العلم بأساليبه وطرائقه المتجددة ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾.

* * *

هذه السورة الكريمة من سور القرآن في إطارها الموجز الذي صوَّرنا به حقائقها ومعانيها كما تضمنتها آياتها، كانت هي الجواب عن مساءلة عتبة بن ربيعة، سفير ملأ قريش إلى النبي ﷺ لمكالمته، وعرض أموراً اتفق عليها ملأ قريش ليختار محمد ﷺ منها ما يشاء فيعطاه، ويكف عنها.

ولنهمل ـ قصداً ـ الحديث عن فوارق أدب المحاورة في تسامي المكارم، وكريم الخلق في ذرى الفضائل، مما تجلّى في موقف النبي ﷺ، وهو يستمع إلى عتبة بن ربيعة أحد سادات قريش وسفير ملئها إلى رسول الله ﷺ، ليكلمه ويعرض عليه ما يستكفه عنهم، ومما تجلى في أسلوب الجهالة والعنجهية الذي اختاره عتبة في مكالمة رسول الله ﷺ منتزعاً من عقليته الجاهلية المادية الوثنية.

لأن محمداً رسول الله ﷺ الذي تولّى الله تعالى تربيته وتأديبه وتعليمه لا يسوغ في شرعة الإنصاف والحق أن يوضع في ميزان مع غير الأنبياء والمرسلين، بَلْه رجلاً من طواغيت الكفر وأحلاس الوثنية البليدة يستغرقه الغرور الجحود بمواريث الجاهلية.

ولكنا نمر إذ نمر على هُجْر عتبة ـ وهو يسائل النبي ﷺ عند فلان، وفلان أهوـ أي محمد ﷺ ـ أفضل أم هـذا الفلان، أو ذاك العـلّان، ونصب عتبة من قبض الريح في بطحاء مكة ميزاناً يقيس به التفاضل بمقياس الجاهلية الدابرة ـ صامتين كما مر عليه سيدنا رسول الله ﷺ، وهو ساكت لا يرد على ما يسمع من تساؤل جهول، حتى فرغ عتبة من مكالمته وعروضه، فلم يزده رسول الله ﷺ على قوله: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟ فاسمع».

وأرهف عتبة سمعه، وأعدّ مشاعره وحواسه لتصغي وتسمع، وتلا عليه النبي ﷺ هذه السورة الكريمة، وأخذ عتبة عن نفسه بتأثير ما يسمع مما لم يسمع مثله من قبل، وذهل وتحيَّر ووجم محاولاً أن يتماسك ليستجمع شعوره وإحساسه، ونقف وقفة تأمل في موقف عتبة بعد أن استكمل سماع ما قرأ عليه رسول الله ﷺ من آيات السورة الكريمة.

فهو:

أولاً: قد فزع فزعاً شديداً، وانزعج انزعاجاً مرعباً دفعه بغير حسّ أو شعور إلى أن يندفع ليضع يده على فم رسول الله ﷺ يناشده الرحم أن يكف عن قراءته، وكان رسول الله ﷺ قد بلغ منها إنذارهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، خشية أن ينزل عليه وعلى قومه عذاب الصاعقة، ولإيقانه بأن محمداً - ﷺ - لا يكذب قط، وأنه إذا أخبر عن شيء وقع كما أخبر.

ثانياً: لما انصرف عتبة عن رسول الله ﷺ بعد أن أنهى مهمة سفارته اختلفت الروايات في كيفية انصرافه.

فقد روي أنه رجع أَمَماً إلى ملأ قريش وهم مجتمعون في انتظاره، ليسمعوا منه ما قال لمحمد - ﷺ - في محاورته إياه، وما قال له محمد - ﷺ - في رده عليه، فرأوه راجعاً إليهم بوجه غير الوجه الذي ذهب به من عندهم، وكأنه في ذهول عن نفسه، تكتنفه الحيرة من جميع جوانبه، فلما جلس إليهم ابتدروه بالسؤال: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني ما تركت شيئاً أرى أنكم - لو رأيتموه - تكلَّمون به إلا كلمته به، قالوا: فهل أجابك؟ قال: نعم، لقد سمعت منه قولاً ما سمعت مثله قط، **والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة، غير أني لم أفهم مما قال شيئاً غير** أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فأمسكت بفيه، وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب فقالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية، لا تدري ما قال!.

قال عتبة: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزته عزتكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال عتبة: هذا رأيي فيه **فاصنعوا ما بدا لكم**.

وقد روي أن عتبة لما انصرف من عند النبي ﷺ رجع إلى أهله واحتبس في بيته ولم يخرج إلى ملأ قريش، فشكّوا في أنه صبأ إلى محمد ﷺ، وتخوَّفوا ذلك لأن عتبة أحد ساداتهم، ولو قد أسلم لتبعه كثير، وأراد غميز الرجولية وألدّ أعداء النبي ﷺ أبو جهل بن هشام أن يثير حمية الجاهلية في نفس عتبة، ويشعل نيران العصبية في صدره، فذهب إليه في بيته وعيَّره بالفقر والحاجة، ولمزه بالبطنة والدناءة حتى استغضبه، وثار عتبة لحميته الجاهلية، وعاد إلى ملأ قريش أسوأ جاهلية وكفراً.

وظاهر من موقف عتبة ـ على أية رواية ـ أنه كان على اقتناع تام بصدق محمد ﷺ، وأنه فهم مما قرأ عليه رسول الله ﷺ ما يمكن لعربي مثله أن يفهمه من إفحام أسلوب القرآن، وروعة بيانه، وإعجاز أدائه، وما يبدو للناظر لأول وهلة من حقائقه القريبة في العقيدة ودلائلها والآداب وفنونها، ومعانيه السافرة في الأخلاق ومظاهر السلوك وطرائق التربية.

أما آياته الكونية وحقائقه العلمية فهي أبعد من أن تقع لفهم عتبة وأمثاله، وهذا هو الذي أوقع عتبة في الحيرة والدهش، فلم يفهم منه شيئاً سوى أنه ليس في متناول متكلم قط أن يقول مثله، وأنه ليس من قبيل ما تعارفوه بينهم في قوة التأثير، كالشعر والسحر، والكهانة، وإنما هو قول غريب على أسماعهم، لم يسمعوا مثله قط، مع أنه بلغتهم ولسانهم، وقد كان عتبة صادقاً في قوله: ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة، والذين لاموه، وعنَّفوه على عدم فهمه شيئاً مما سمع كانوا في جاهليتهم يعيشون مع لغتهم وأشعارها وخطبها ولم تقرع أسماعهم آيات القرآن، ولو سمعوا

ما فهموا، لأنهم لا يريدون أن يفهموا.

حكمة اختلاف الموقف مع ملأ قريش عنه مع عتبة بمفرده

ثالثاً: كان جواب النبي ﷺ لملأ قريش الذين لم تقنعهم سفارة أحد ساداتهم، عتبة بن ربيعة، بينهم وبين محمد ﷺ، ليكلمه ويعرف ما عنده، ويعرض عليه ما يستكفه به عنهم، فاجتمعوا وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم ليكلموه، فأسرع إليهم ظانّاً أن قد بدا لهم بداء فيما كلمهم من أمر دعوته ورسالته، ولعلهم يكونون قد ثابوا إلى رشدهم، وكان ﷺ حريصاً على هدايتهم محباً لرشدهم عزيزاً عليه عنتهم.

ولعل سيدنا رسول الله ﷺ رأى بحكمة تسديد الله له، وتوجيهه في سير دعوته وتبليغ رسالته أن إسماع عتبة منفرداً عن غوغاء قريش شيئاً من جوامع آيات القرآن فرصة لا تتاح مع الجموع المختلطة التي تجمع الغث والسمين، والأحمق والرزين، والسفيه والمتعقّل.

والغوغاء لا زمام لها تقاد به فكرياً، ومن العسير أن يضبط لها رأي، أو يعرف لها تدبير في فكر، وعتبة اختارته قريش لتعقله، ومعرفته بمظاهر جاهليتها العقلية، وكانت فيه أناة وبعد عن السفه والطيش.

وكانت محاورة الملأ للنبي - ﷺ - في صميم موضوعها هي عين ما تحدث به عتبة وعرضه على رسول الله ﷺ، فأجابهم بقوله: «ما بي ما تقولون»، وأفهمهم في صراحة هادئة وثقة مؤمنة وإيمان راسخ، وعزم وطيد، أنه ﷺ لا يطلب أموالهم، ولا الشرف فيهم ولا السؤدد والملك عليهم، وإنما جاء بما جاءهم به من الهدى لأن الله تعالى بعثه إليهم رسولاً، وأنزل عليه كتاباً منيراً، وأمره أن يكون لهم بشيراً بملك الدنيا ونعيم الآخرة إن استجابوا لربهم وخالقهم، وخلعوا الأنداد والشركاء، وآمنوا برسالات الله، وصدّقوا رسوله فيما جاءهم به وآزروه حتى يبلّغ رسالته كما أمره أن يكون نذيراً لهم، يخوفهم نقم الله وبطشه إن أعرضوا وتولّوا مدبرين، وأقفلوا قلوبهم دون إشراق الحق، وغلّفوا عقولهم بالجهالة والسفه، ولم يسمعوا كلام ربهم مؤمنين به مهتدين بهديه، مثل ما وقع للأمم الغابرة قبلهم الذين كذبوا رسلهم وآذوهم، وسفهوا عليهم، فأنزل

الله بهم نقمتــه، وأرسـل عليهم الصــواعق وصنــوف العــذاب حتى استأصلهم، فلم تُر لهم على ظهر الأرض من باقية.

وأفهم رسول الله ﷺ ملأ قريش أنه بلّغهم رسالات ربه، ونصح لهم، ودعاهم إلى الله تعالى، حريصاً على هدايتهم، محباً لرشدهم، وهذا أقصى ما يملكه لهم، فليس في طوقه أن يقسرهم على الإيمان برسالته، ولا أن يكرههم على قبول دعوته، وهم بعد هذا البلاغ أحرار، فإن قبلوا منه ما جاءهم به من النور والهدى والخير فهو حظهم في الدنيا والآخرة، وليس وراء هذا الحظ ذرة من خير، وإن ردّوه عليه صبر لأمر الله، في غير قلق ولا ضجر، ثابت العزيمة راسخ اليقين في إيمانه برسالة نفسه حتى يحكم الله بينه وبينهم بما يشاء، فقد يهديهم ويهدي بهم، أو يخرج من أصلابهم معاقل للهداية، وكتائب لتبليغ الرسالة، وجنوداً لحمل ألوية الدعوة إلى الله تعالى في أقطار الأرض وفجاج البلاد.

تعنّت ملأ الوثنية وعناد المشركين

ولما يئس ملأ قريش من استجابة النبي ﷺ لمطالبهم المادية الأرضية، ووقف مع إيمانه برسالة نفسه عند معاقد عزته وجميل صبره، مستمراً في تبليغ رسالته، قوّاماً بأمر دعوته، لا يفتر ولا يستحسر ـ لجأوا إلى التعنت واقتراح المطالب التي دفعهم إليها العناد الكفور، والحسد الحقود، فقالوا له: فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فلا تريد مالاً وثراء، ولا تريد شرفاً وسؤدداً، ولا تريد ملكاً وسلطاناً، فاسأل الله لنا أن يوسع علينا ديارنا وبلادنا، فَيُسَيِّر عنها الجبال التي تخنقها، ويفجر فيها الأنهار والينابيع، فلم يتحول رسول الله ﷺ عن موقفه في وثاقة إيمانه برسالة نفسه، وسمو أدبه في عبوديته لربه ومعرفته بجلاله، ولا اهتزت نفسه ذرة عن دعائم صبره ومضـاء عزيمتـه، فقال لهم: «مـا بهذا بعثت إليكم» وأقام ﷺ في عزم مصمم على ما قاله لهم إذْ عرضوا عليه دنياهم في الشرف والسيادة والملك والمـال والثراء، فـأبى أن يقبل منهم شيئـاً من أمورهم، فلما استيأسوا منه خلصوا نَجّيا، ينـزعون عـلى ركيّ الدهش والحيرة بقرب غريبة، فأدخلوا أنفسهم على حياة رسول الله ﷺ الخاصة، وأقحموا تافهات أفكارهم على عيشه وشأنه في صورة عاطفية مرذولة زائفة

مزورة، فقالوا له: فإذْ لم تقبل منا ما نطلب لأنفسنا وديارنا فخذ لنفسك، وسل ربك أن يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه.

رد رسول الله ﷺ على هذا التعنت الكفور يصور رحمته التي أرسل بها للعالمين

فقال لهم رسول الله ﷺ يرد عليهم هذا التطفل العاطفي الكذوب الأبله: «ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا» وكرر عليهم ما قاله في بيان هدف رسالته وصبره على فوادح تبليغها مهما يلقى في سبيلها من عنت وبلاء.

ولم يقف الحمق وخرق الرأي وسفه التفكير بملأ المادية الوثنية عند هذا الحد، ولكنهم اشتطُّوا على أنفسهم، وركبوا شيطان الجهالة وفجور الوثنية، فاستنزلوا على أنفسهم سخط الله ولعناته، فقالوا وهم في غمرة بأسهم: فأسقط السماء علينا كِسَفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فرد عليهم رسول الإيمان والرحمة ﷺ هذا الشطط المعتوه فقال: «ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل».

شطط العناد يؤدي إلى ذهاب العقول فيقول أصحابها ما لا يعون

وقد حكى الله عنهم أبشع من هذا فقال: ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[1] ولكن اللطيف الودود الذي أرسل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ولم يرسله لعنة على المعاندين الجاحدين، جعل وجوده حصناً حصيناً من تنزل عذاب الاستئصال في الدنيا بهؤلاء المعاندين الجاحدين، فقال له عقيب تصوير بشاعتهم يرفع ذكره وينوّه بمقامه عنده: ﴿ وما كان الله ليعذِّبهم وأنت فيهم ﴾[2] وجعله أماناً ولو ظلُّوا على كفرهم وشركهم، ثم جعل توبتهم بالإيمان واستغفارهم لما سلف من كفرهم أماناً بعد النبي ﷺ فقال: ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾[2].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٣٣.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وإذْ قالوا اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ الآية. قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها، فعاد الله بعائدته ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلتها.

وجود النبي ﷺ بين أمته أمان لها من عذاب الاستئصال

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان فيهم أمانان، النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار.

ألوان وضروب من تعنت المشركين يذكرها القرآن العظيم تبكيتاً لهم وفضحاً لتفاهة تفكيرهم

وقد ذكر القرآن الكريم تعنتاتهم في اقتراحاتهم المشتطة في مواضع متعددة من سوره وآياته، وأجاب عنها فأفحمهم وأبان عن جهالتهم وعنادهم، وركونهم إلى سفاف الدنيا في أعلا درجات طموحهم، وأرفع مراتب مطامعهم، وكشف عن خبيء نفوسهم، وأنهم قوم لا يعيشون إلا لبطونهم وشهواتهم، لا يرتفعون عن الأرض إلا ليقعوا على رؤوسهم في مهاويها، أخلدوا إلى الأرض لا يريمون عنها، فكانوا كالمعنيين بقول الله تعالى: ﴿ واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلاً القوم الذين كذَّبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون * من يهدِ الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون * ﴾[1].

حكى عنهم القرآن في سورة الإسراء صوراً من هذه الاقتراحات المتعنتة فقال: ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزِّل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً * ﴾[2].

والمتأمل فيما تعنَّتوا به رسول الله ﷺ واقترحوه عليه يرى الحماقة

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٨.

(٢) سورة الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣.

ماثلة في كل حرف مما قالوا، وفي كل كلمة مما اقترحوا، ويرى خرق الرأي، وتفاهة التفكير تتنزى من رؤوسهم وتتقاطر من عقولهم صديد غباء، ويرى دناءة الطموح، وطموح الدناءة تتعرى مكشوفة السوءات بادية العورات في مقترحاتهم المتعنتة، فهم لم يطلبوا إلا ينابيع ماء تجري في أوديتهم، ولم يطلبوا إلا جناناً وحدائق من نخيل وعنب وأنهار تجري خلال تلك الجنات تسقيها، ويأكل منها تنابلة مكة وهم قعود يهجرون.

فإن لم يك هذا ولا ذاك فصواعق تُسقط السماء عليهم قطعاً تدمرهم كما دمرت إخوتهم الماديين الوثنيين قبلهم إذْ كذَّبوا رسل الله وكفروا برسالاته.

فإن لم تستجب ـ يا محمد ـ لبطوننا وهوس أفكارنا المادية المظلمة فخذ لنفسك من ربك، واطلب منه أن يغنيك عن النَّصَب والكد في سبيل المعاش كما ينصب ويكد سائر الناس، فليعطِك ربك عزاً دنيوياً، وترفاً في العيش، وتنعماً يرفِّهك في بيت منضَّد مزخرف بالزينة، مموَّه بالذهب مرقَّش بالفضة، منمنم بمتاع الدنيا وزينتها.

ويحكي عنهم القرآن في سورة الفرقان قولهم: ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لولا أنزل إليه مَلَك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها﴾[1].

فعقولهم المظلمة لا تستسيغ فهم رسول من عند الله يدعو الناس إلى توحيد الله تعالى وإقامة موازين العدل في الأرض يعيش ببشريته كما يعيش سائر البشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ليكسب عيشه من كده وعرق جبينه كما يكسب جميع الشرفاء في أرض الله أرزاقهم وأسباب عيشهم.

وهؤلاء الماديون الوثنيون لا يفهمون ما يقولون لأنهم يتناقضون مع أنفسهم، فهم قد عجبوا أن جاءهم رسول يأكل الطعام، وهم أرادوه أن يأكل كما يأكل سائر الناس، ولكن أرادوه أن يأكل من جنة دانية القطوف،

(١) سورة الفرقان، آيتا: ٧ ـ ٨.

يأكل منها وهو مستلقٍ على ظهره يناغي نجوم الليل، لا يتعب ولا يتحرك، فإن لم تكن جنة فكنز من الذهب ينفق منه ما يشاء، فلا ينفد ولا يبيد.

بلادة عقلية، وعقليات بليدة، لا تعرف من الحياة إلا الأكل والطعام والشراب، وحتى هذا الذي تعرفه وتعيش عليه وله لا تريده إلا عسلاً يقطر في أفواههم وهم نائمون، فهم كما قال الله تعالى: ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾(1) وكما قال عزّ شأنه: ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾(2).

ومن غلو هؤلاء الماديين الوثنيين، وإغراقهم في الطيش والسفه الجهول، وطمس بصائرهم عن معرفة جلال الله وقدرته حق قدرة تجاوزهم في تعنتهم كل حد بطلبهم من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالله تعالى تحيط به الملائكة جهرة حتى يعاينوه معاينة بأبصارهم، كأنما الله تعالى كائن يملكه الزمان والمكان كما يملك أصنامهم وأوثانهم المادية، تعالى الله عما يقول الجاهلون الظالمون علوًّا كبيراً.

تصوّرٌ ماديٌّ ترابيٌّ جهول، لا يدين به إلا عبيد الوثنية في كل عصر ومكان من الحياة، لأنهم لا يعرفون إلا المادة وصورها وأشكالها.

ومن هذا الغلو الجهول الفاجر ما رواه ابن إسحاق، قال: فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي - وهو ابن عمة رسول الله ﷺ أمه عاتكة بنت عبد المطلب - فقال لرسول الله ﷺ: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله - كما تقول - ويصدقوك ويتبعوك، فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون أنه فضلك عليهم، ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجِّل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل.

---

(1) سورة محمد، آية: ١٢.

(2) سورة الأعراف، آية: ١٧٩.

فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلّماً ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتيني معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايْمُ الله لو فعلتَ ما ظننت أني أصدقك.

جنون وعته؟ وطغيان وسفه، فالماديون الوثنيون في كل زمان ومكان وجيل، لا يريدون بمقترحاتهم المتعنتة أدلَّة على صدق دعوة الحق، ولكنهم يريدون العناد الكفور، والكفر العنيد، تملَّكهم الحسد والحقد فعميت أبصارهم، وانطمست بصائرهم، وضلّوا عن رؤية الشمس وهي تخطف بأضوائها أبصارهم، وتحرق بلهبها أفئدتهم.

وقد أرشد الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد على تعنتاتهم المعبِّرة عن سفه عقولهم وفساد تفكيرهم أبلغ رد وأوجزه، وأقطعه لحجة المعاندين فقال له: ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ فهذا رد برهان قاطع، يتضمن:

أولاً ـ: تنزيه الله تعالى عن أن يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو ربّ الخلق الذي ربَّاهم في أطوار خلقهم، وأطوار حياتهم، وهو رب محمد ﷺ الذي ربَّاه لرسالته فأحسن تربيته وأرسله للناس هادياً، وعلَّمه ألا يسمع إلى تعنتاتهم التي لا تعرف لله وقاراً.

ثانياً: بيان أن محمداً ﷺ عبد من عباد الله، لا يزيد في بشريته على أي فرد من أفراد الناس، يجري عليه في بشريته ما يجري على سائر البشر، وإنما امتيازه الأعلى في اصطفاء الله تعالى له نبياً ورسولاً، يهدي إلى الحق ويدعو إلى الله، فليس له أن يتحكم على ربه فيسأله ما لم يأذن له به وما لم يكن داخلاً في إطار رسالته.

والذي تعنَّت به المعاندون بمقترحاتهم الفاجرة أمور لا يقدر عليها أحد من البشر، محمد ﷺ فمن دونه، وإذا كان سؤالهم يقصد إلى أن يطلب محمد ﷺ من الله أن يظهر هذه الأمور التي اقترحوها لتكون معجزة له تدل على صدقه فيما جاءهم به من عند الله ودعاهم إليه في رسالته ودعوته.

فهذا إمعان في التعنُّت لأن دلالة المعجزة قاطعة على صدق الرسول في أية معجزة يأتي بها متحدِّياً، وقد أتى محمد ﷺ بأعظم معجزة تحدّى بها العالمين، وهي القرآن الكريم الذي يتضمن الإعجاز، بما تضمنه من التحدِّي وتجبيه المعاندين فقال لهم: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ـ ولن تفعلوا ـ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين﴾[1] وقال جلّ شأنه: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[2] وقال عزّ وجهه: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[3].

فهذا التحدي، وهذا التجبيه مع إبلاس المعاندين ونكوصهم على أعقابهم خائبين دليل قاطع على أن محمداً ﷺ استوفى أرفع درجات التحدي بمعجزته العظمى، ولم تظهر مطلقاً بادرة من بوادر المعارضة، فكان ذلك برهاناً قاطعاً على صدق الرسول، فلا معنى إذاً لطلب معجزات أخرى، والمعجزات المادية كالتي طلبها المعاندون تعنتاً ليست من مراقي الإعجاز في رسالة محمد ﷺ، لأن رسالته ﷺ رسالة علم وفكر وهدى وخلود، فمعجزتها يجب أن تكون معجزة عقلية علمية هادية خالدة، لا ينقطع التحدي بها زمناً من الأزمان، ولا جيلاً من الأجيال.

ولو كان كل متعنت يقترح شيئاً على الرسول تجب إجابته إلى اقتراحه لفتح باب العناد، واقترح كل معاند كفور العناد في كل وقت مقترحات يعنّت بها الرسول، فيصبح الأمر عبثاً وفوضى، وهذا إفساد للحياة.

وقد تعلق بعض الملاحدة بما في هذا الرد من إيجاز بليغ، فلم يفهم ما تضمنه من البرهان القطعي على صحته فقال: إن هذا جواب غير

---

(١) سورة البقرة، آيتا: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) سورة يونس، آية: ٣٨.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

مقنع. قال الإمام القرطبي: وقد غلطوا لأنه أجابهم فقال: إنما أنا بشر، لا أقدر على شيء مما سألتموني، وليس لي أن أتخيَّر على ربي، ولم تكن الرسل قبلي يأتون أممهم بكل ما يريدونه ويبغونه، وسبيلي سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجز لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولجاز لكل إنسان أن يقول: لا أؤمن حتى أوتى خلاف ما طلب غيري مما يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس، وإنما التدبير إلى الله تعالى.

ومن لطيف هذا الرد القاطع المحكم، البليغ المفحم أنه جاء في المتواتر مقروءاً بالفعل الماضي: ﴿قال سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ وعلى هذه القراءة البديعة الحكيمة يكون المعنى في الرد على المعاندين المتعنتين أن رسول الله ﷺ يخبرهم عن نفسه وهم يتعنتونه بمقترحاتهم المادية المظلمة، معرضين عن الهدى إذ جاءهم أنه ما هو إلا بشر له خصائص البشر ومقوماتهم، ولكن الله تعالى اصطفاه رسولاً منه يدعو إلى توحيده، فهو عبد تدعوه عبوديته لله الواحد الأحد أن يقف من ربه موقف الأدب الأكمل، فلا يسأله إلا ما يأذن له في طلبه.

وهو رسول من عند الله تدعوه رسالته إلى أن يرتفع بأدبه مع الله تعالى إلى مقام التسليم والرضا بما يحكم ويريد، ولا معقِّب لحكمه، ولا راد لإرادته.

فالرسول ﷺ في هذا الرد على هذه القراءة المحكمة يبدأ رده على المعاندين المتعنتين بتنزيه الله تعالى عن توهمات المعاندين... ويضيف هذا التنزيه إلى اسم (الربّ) بإضافة الإكرام والتكريم، والشرف والتشريف فكأنه قيل: أنزِّه بربي الذي تعهدني بتربيته وفضله منذ خلقني، وأدَّبني برسالته منذ بعثني رحمة للعالمين عن تعنتات المتعنتين، لأنه الفعَّال لما يريد، إذا شاء شيئاً كان كما شاء، لا يعجزه شيء، يبدع الأشياء من غيب العدم بقدرته وبعثني رسولاً هادياً ومبشراً ونذيراً، وقد أنذرت المعاندين وحذَّرتهم

بطش الله ونقمته كما حذَّر الأنبياء من قبلي أممهم، وبشَّرتُ المؤمنين برحمة الله وفضله ورضوانه.

* * *

نهاية المفاوضة مع ملأ طغاة قريش ملأت قلوبهم حقداً وعتواً

انتهى موقف الحوار والمكالمة بين رسول الله ﷺ وملأ المادية الوثنية ممثلة في زعماء قريش، وهو الموقف الذي طلبه الملأ بعد أن تشكّكوا في موقف سفيرهم عتبة بن ربيعة واتهموه بالصباءة إلى محمد ﷺ، وأنه سحره بلسانه ـ على هذه الصورة التي رسمناها رواية وتحقيقاً، وتحليلاً وشواهد، فحقب أمر الناس، وشري الشر بينهم، وتنابذ القوم، وتضاغنوا، وتباعدوا، وتذامرت قريش على رسول الله ﷺ، واشتد إيذاؤها له ولأصحابه، نتيجة لما أفعم نفوسهم من اليأس وخيبة الأمل، وأثراً لما ملأ قلوبهم من الحقد والاضطغان والحسد.

فقد يئست المادية الوثنية ممثلة في ملأ الطغاة من عباهلة قريش، بعد أن تجلّى لها موقف رسول الله ﷺ في حوارها معه ومكالمتها إياه، أن تجد عنده هوادة في عزيمة القيام بأمر دعوته، وصلابته في تبليغ رسالته، كما يئست أن تجد لها منفذاً فيما عرضته عليه من مظاهر دنياها في شتّى أشكالها، وأبلغ ما تطمح إليه النفوس (الترابية) من صورها وأشكالها وألوانها.

فأعرض عنها متسامياً في عبوديته ربه، مترفعاً برسالته عن دناءات دنيا المادية الوثنية من مال وثراء، وكنوز، وجنات وعيون، وزخرف وزينة، وشرف وسيادة، وملك وسلطان، وأبى عليهم إلا أن يقولوا كلمة واحدة (لا إله إلا الله)؛ فإذا قالوها ملكوا بها الدنيا من أطرافها، والحياة من أقطارها شرفاً حقيقياً، وسؤدداً وملكاً مؤثلاً.

موقف رسول الله ﷺ وأصحابه من فجور قريش كان أرفع مواقف الصبر الجميل

وقد قابل رسول الله ﷺ وأصحابه سفه قريش وإيذاءها بأجمل الصبر وأعلى مراتب العفو والغفران، والإعراض عن المجازاة، والصفح عن الإساءات مع المحاسنة والمصابرة. روى صاحب العيون، وأسنده في الفتح للزبير بن بكار والدار قطني، عن عروة بن الزبير، قال حدثني عمرو ابن

عثمان بن عفان عن أبيه عثمان بن عفان، قال: أكثر ما نالت قريش من رسول الله ﷺ أني رأيت يوماً ـ قال عمرو: ورأيت عيني عثمان بن عفان تذرفان من تذكر ذلك ـ قال عثمان بن عفان: كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده في يد أبي بكر، وفي الحجر ثلاثة نفر جلوس: عُقْبَة بن أبي مُعَيط، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، فمر رسول الله ﷺ، فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره، فعرف ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فدنوت منه حتى وسطته، فكان بيني وبين أبي بكر، وأدخل أصابعه في أصابعي حتى طفنا جميعاً، فلما حاذاهم قال أبو جهل: والله لا نصالحك ما بل بحر صوفة وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا، فقال رسول الله ﷺ: «أنّ ذلك».

موقف لعثمان ابن عفان يوزن بألف موقف من مواقف الشجاعة والإيمان

ثم مضى عنهم فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان في الشوط الرابع ناهضوه، ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه، فدفعت في صدره، فوقع على أسته ـ واحدة لعثمان رضي الله عنه بألف ـ ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبي مُعَيط، ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ، وهو واقف، ثم قال: «أما والله لا تنتهون حتى يحلّ بكم عقابه عاجلاً».

قال عثمان: فوالله ما منهم رجل إلا أخذه أفكل، وهو يرتعد، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «بئس القوم أنتم لنبيكم» ثم انصرف إلى بيته، وتبعناه حتى انتهى إلى باب البيت ووقف على السدة، ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «أبشروا فإن الله عزّ وجلّ مظهر دينه، ومتم كلمته، وناصر دينه، إن هؤلاءُ الذين ترون مما يذبح الله بأيديكم عاجلاً».

موقف من أشد فجور طغاة قريش وشجاعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

ثم انصرفنا إلى بيوتنا، فوالله لقد رأيتهم قد ذبحهم الله بأيدينا. وروى البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ؟ قال: بينما النبي ﷺ في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله ﷺ،

ثم قال: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله). وقد ذكر البخاري هذا الحديث مرة أخرى عن عمرو بن العاص عن طريق هشام بن عروة عن أبيه عروة، والرواية المتقدمة من طريق يحيى بن عروة عن أبيه عروة، وقد جمع بين الروايتين الحافظ ابن حجر في الفتح، فقال: فيحتمل أن يكون عروة سأل ابن عمرو مرة وسأل أباه عمراً مرة أخرى.

رواية أخرى أتم في تفصيل هذه الواقعة

وذكر ابن إسحاق حديث يحيى بن عروة مجوّداً مطولاً فقال: حدثني يحيى بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبدالله بن عمرو ابن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرون من عدوانه؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، قد سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا، وسبّ آلهتنا. لقد صبرنا على أمر عظيم.

فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفاً، فلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك على وجه رسول الله ﷺ، ثم مضى فلما مرَّ بهم ثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك على وجه رسول الله ﷺ، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح» فأخذت القومَ كلمتُه، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه الطير واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً، فانصرف النبي ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول: كذا، وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: «نعم أنا الذي أقول ذلك»، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه، فقام أبو بكر رضي الله

عنه دونه، وهو يبكي، ويقول: (أتقتلون رجلاً يقول ربي الله) ثم انصرفوا عنه. قال ابن عمرو: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط.

وأخرج البخاري من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة قال: حدثني عمرو بن العاص: قال: ما رأيت قريشاً أرادوا قتل رسول الله ﷺ إلا يوماً أغروا به وهم في ظل الكعبة جلوس، وهو يصلي عند المقام، فقام إليه عقبة بن أبي مُعَيط، فجعل رداءه في عنقه، ثم جذبه به حتى وجب لركبتيه، وتصايح الناس، وأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضبع رسول الله ﷺ من ردائه وهو يقول: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) ثم انصرفوا عنه، فلما قضى صلاته مرّ بهم فقال: «والذي نفسي بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح» فقال له أبو جهل: يا محمد: ما كنت جهولاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنت منهم».

روايات مختصرة في تصوير فجور ملأ قريش

وأخرج البيهقي في الدلائل من حديث ابن عباس عن فاطمة الزهراء عليها السلام، قالت: اجتمع المشركون في الحجر، فقالوا: إذا مر محمد ضربه كل رجل منا ضربة، فسمعت فاطمة عليها السلام، فأخبرته ـ أي أباها رسول الله ﷺ ـ فقال لها: «اسكتي يا بنية» ثم خرج فدخل عليهم فرفعوا رؤوسهم ثم نكسوا، قالت فاطمة عليها السلام: فأخذ النبي ﷺ قبضة من تراب فرمى بها نحوهم، ثم قال: «شاهت الوجوه» فما أصاب رجلاً منهم إلا قتل يوم بدر كافراً.

وأخرج أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح عن أنس بن مالك قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ حتى غُشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم ؟؟ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، فتركوه وأقبلوا على أبي بكر.

وأخرج أبو يعلى من حديث أسماء بنت أبي بكر عن عروة بن الزبير، عن عمرو بن العاص قال: سُئلت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: ما أشد ما رأيت من المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان

المشركون قعوداً في المسجد يتذاكرون رسول الله ﷺ وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ أقبل رسول الله ﷺ فقاموا إليه بأجمعهم، فأتى الصريخ إلى أبي بكر رضي الله عنه: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا وإن له لغدائر أربعاً، وهو يقول: ويلكم: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبيِّنات من ربكم) فَلَهوا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر، فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد اشتدت عليهم المحن، وعظم البلاء، وتذامرت قريش على من في القبائل والبيوتات منهم، يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، ويحبسونهم ويضربونهم ويجيعونهم، ويعطِّشونهم، ويوقعون بهم كل بلاء يرون أنه يمكن أن يصدهم عن دينهم، ويردهم عن عقيدتهم التوحيدية إلى كفر الوثنية والشرك المادي العنيد.

فكانوا يُلْقونهم في رمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، ومن قوي وصلب، فالمستضعفون كانوا لا يطيقون العذاب فيجيبونهم إلى الفتنة، والأقوياء كانوا أصبر على ما يصيبهم من التعذيب، متحمِّلين فادح البلاء وعظيم الإيذاء.

روى ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنه من طريق سعيد ابن جبير، قال: قلت لعبدالله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما كانوا يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم، والله إنْ كانوا ليَضربون أحدَهم ويجيعونه ويعطِّشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة افتداء منهم بما يبلغون من جهده.

فدائية بلال لدينه وعقيدته ومواقفه الفذة في الصبر على أفدح البلاء

وقد اشتهر من هؤلاء المعذَّبين الصابرين أبطال كانوا غرة اليقين في جبين الإسلام، وأشهر من شهر منهم سيدنا بلال بن رباح مولى أبي بكر ومؤذن رسول الله ﷺ، فقد كان أمية بن خلف الجمحي يخرجه إذا حميت الظهيرة في رمضاء مكة، ويطرحه على ظهره في سعير البطحاء، ثم يأمر

بالصخرة العظيمة، وهي تتقد من شدة الحميم والحر، فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللّات والعزّى، فيقول صادق الإيمان وطاهر القلب بلال وهو في حومة ذلك البلاء: أحد، أحد.

وقد مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه ببلال مرة وهو على هذه الحال من العذاب، وكانت دار أبي بكر في بني جمح، فقال لأمية ابن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟؟.

وقال لعين المادية الوثنية أمية بن خلف لأبي بكر: أنت الذي أفسدته **فأنقذه** مما ترى، فاهتبلها أبو بكر نهزة سانحة، فقال: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، وهو على دينك أعطيكه به، قال أمية: قد قبلت: فقال أبو بكر: هو لك وأعطاه الغلام الأسود، وأخذ بلالاً فأعتقه لحظة أن ملكه.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعظِّم بلالاً ويقدِّر إيمانه وصبره حتى قال: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا ـ يعني بلالاً ـ رضي الله عنهم أجمعين.

ممَّن شُهروا بأجمل الصبر النهديتان وحررهما أبو بكر

ومن شهر في بطولة الصبر واحتمال الأذى وشديد البلاء النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار، فمرّ بهما أبو بكر وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها، وهي تقول لهما: والله لا أعتقكما أبداً، فسمع أبو بكر كلامها، فقال لها: حلٍّ يا أم فلان ـ أي تحللي من أليتك وقسمك ـ فقالت حل، أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال الصديق رضي الله عنه: فبكم هما؟ قالت العبدرية: بكذا، وكذا، قال الصديق رضي الله عنه: قد أخذتهما، وهما حرتان، أرجعا لها طحينها، قالت النهديتان المعذبتان: **أو نفرغ منه يا أبا** بكر، ثم نرده إليها؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: وذلك لكما إن شئتما.

أما صنيع أبي بكر فهذا أمر فوق طاقة التقدير القلمي واللساني، وهو خلق في أبي بكر وُلد به مع إسلامه، وكان رضي الله عنه يتتبع

المستضعفين من العبيد والموالي فيشتريهم ويعتقهم لحظة شرائهم تقرباً إلى الله تعالى ونشراً للإسلام، حتى قال له أبوه عثمان أبو قحافة: يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت، أعتقت رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت إني أريد ما أريد! قال العلماء: يقصد أبو بكر أنه لا يريد شيئاً من أمور الدنيا، وإنما يريد وجه الله تعالى وهو خير حافظاً، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ وسيجنبها الاتقى * الذي يؤتي ماله يتزكّى * وما لأحد عنده من نعمة تُجزَى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى ﴾[1].

وروى أبو الحسن الواحدي عن ابن عباس من طريق عطاء: أن بلالاً لمّا أسلم ذهب إلى الأصنام فلحّ عليها وكان عبداً لعبدالله ابن جدعان، فشكى إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم، ومائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم، فأخذوه وجعلوا يعذبونه في الرمضاء وهو يقول: أحد، أحد، فمرّ به رسول الله ﷺ، فقال: «ينجيك أحد، أحد»، ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر أن بلالاً يعذب في الله، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب فابتاع به بلالاً، فقال المشركون ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليدٍ كانت لبلال عنده، فأنزل الله تعالى: ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تُجْزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى ﴾.

وذكر القرطبي هذا الحديث مختصراً، ولم يذكر فيه عبدالله ابن جدعان، وإنما ذكر موافقة لابن إسحاق أمية بن خلف، فقال: روى عطاء عن الضحاك عن ابن عباس قال: عذَّب المشركون بلالاً، وبلال يقول: أحد، أحد، فمرّ به رسول الله ﷺ فقال: «أحد ـ يعني الله تعالى ـ ينجيك» ثم قال لأبي بكر: «يا أبا بكر، إن بلالاً يعذَّب في الله» فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله ﷺ فانصرف إلى منزله، فأخذ رطلاً من ذهب ومضى به إلى أمية بن خلف، فقال: ألا تبيعني بلالاً؟ قال: نعم، فاشتراه فأعتقه، فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلا ليدٍ كانت له عنده، فنزلت: ﴿ وما لأحد

---

(١) آخر سورة (والليل إذا يغشى).

عنده من نعمة تُجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى﴾.

وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر: أتبيعنيه؟ فقال: نعم أبيعه بنسطاس، وكان نسطاس عبداً لأبي بكر صاحب عشرة آلاف دينار، وغلمان وجوار ومواش، وكان مشركاً، فحمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون له ماله، فأبى، فباعه أبو بكر ببلال، فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليدٍ كانت لبلال عنده فنزلت: ﴿ وما لأحدٍ عنده من نعمة تُجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى ﴾.

أدب إسلامي في مقابلة فجور وثني

وأما صنيع النهدية وابنتها، وقد أذاقتهما سيدتهما العبدرية سوء العذاب، وهي ترسلهما بطحينها وتتوعدهما مهددة بأنها لا تطلقهما من العذاب والرقّ أبداً، ويسمعها الصديق فيستحلّها يمينها، فتقول له: أنت أفسدتها فخلصهما إن شئت، فبادر الصديق يسألها عن ثمنهما في تقديرها، فطلبت ما طلبت، فلم يماكسها أبو بكر فيما طلبت، بل أسرع فقال: قد أخذتهما وعجّل، فأتبع ذلك قوله: وهما حرّتان، ثم أراد أبو بكر أن يشعر الجاريتين بما نالاه من حرية ويذيقهما سعادتها متعجلاً، فقال بعد أن حررهما: أرجعا لها طحينها.

وإلى هنا كانت الطبيعة البشرية المنطلقة من أغلال العبودية، المخلَّصة من بلاء العذاب المنقَذة من ذل الاستعباد مهيئة أن تستبد بها الفرحة، ويستفزها شعور الحرية وإحساس المساواة في الحقوق والواجبات بهاتين الجاريتين اللتين كانتا من لحظة تُفرض عليهما أحكام العبودية في صلف واستكبار من سيدتهما الظالمة، وهي تتهدد وتتوعد، وتزمجر، وتنذر متحفزة للوثبة للرد على الظلم والتعالي على الظالمين، ولا أقل من أنهما كانتا ترميان بطحين هذه السيدة الظالمة التي ساوياها في الحرية وتساميا عليها بالإسلام بين يديها معرضتين ازوراراً، تنظران إليها شذراً.

ولكن أدب الإسلام ومكارم الأخلاق التي قامت دعائمه عليها ومعرفة الله تعالى بجلال وحدانيته أبت عليهما إلا أن يكونا متفضلتين

بالإحسان على من طالما أساءت إليهما، فقالتا لأبي بكر رضي الله عنه وهو يقول لهما بعد أن حررهما أرجعا إليها طحينها ليعجل لهما مذاق الحرية: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها؟ فوسعهما خُلُق الصديق ورد ذلك لمشيئتهما فقال: ذلك لكما إن شئتما.

لله هذا الدين الحنيف في آدابه وفواضله، وشمائل فضائله، ولله قوم ادّرعوه عقيدة وعملاً، فهو دين يجعل من الفضائل قوى في طبيعته التي يقوم عليها التعامل بين الناس.

صبر خباب بن الأرت على أفجر البلاء

ومن شُهر بالبطولة الصابرة، والعفو الصفوح في هذه الفترة القاسية سيدنا خباب بن الأرت رضي الله عنه. روى ابن سعد في الطبقات عن الشعبي، قال: دخل خباب بن الأرت رضي الله عنه على عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فأجلسه في متكئه وقال: ما على وجه الأرض أحد أحقّ بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد، قال خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: بلال: فقال خباب: ما هو أحق مني، إن بلالاً كان له في المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لي أحد يمنعني، فقد رأيتني يوماً أخذوني فأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري فاتقيت الأرض بظهري، وعند أبي نعيم، أن خباباً قال لعمر: أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ودك ظهري.

من سادة الصابرين على أفدح البلاء أسرة ياسر أبي عمار

وقد كتبت أسرة ياسر بن عامر: ولديه عمار وعبدالله وأمهما سمية في سجل البطولة الفدائية آيات من الصبر الصبور واحتمال أشد الأذى والعذاب، وأفدح البلاء، كانت أسطراً من النور الفدائي والتضحية بالنفس في سبيل العقيدة التي استناروا بضيائها، ومات ياسر رضي الله عنه تحت العذاب، وماتت سمية رضي الله عنها بطعنة فاجرة من غميز الرجولية أبي جهل، ورمي عبدالله فسقط ولم يبق منهم إلا عمار رضي الله عنه فكانت له آثار الصدق في جميع مواقف الإسلام والجهاد التي شهدها.

وكان يمر بهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون فيقول: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» وقد كانت مواقف النبي ﷺ في قوة احتماله وعظيم

صبره على بلاء المعاندين من طغاة قريش وشدة أذاهم وسفه سفهائهم تثير في أنفس أصحابه مشاعر التصبُّر والمصابرة وألوان الرضا بما ينالهم من المحن والشدائد تأسياً به ﷺ، وكان إذا رأى من بعضهم ركوناً إلى الضجر وعدم الاحتمال أثار في قلوبهم قوة اليقين وفي نفوسهم قوة الصبر والاحتمال بما يضرب لهم من الأمثال، وما يقص عليهم من أنباء الذين أوذوا في سبيل الله من السابقين المؤمنين في القرون الخوالي والأمم الماضية، ويبشرهم بقرب الفرج والنصر والعزة.

روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال أتيت النبي ﷺ وهو متوسد برده، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة وقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال: «قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله عزّ وجلّ، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

* * *

كان ما يلقى رسول الله ﷺ من شدة البلاء أقوى الدوافع على المضي قدماً في تبليغ رسالته

مضى رسول الله ﷺ في النهوض بدعوته، وتبليغ رسالته قوياً معزوماً له لا يبالي ما يلاقي من بلاء وعناء، أو سفه وإيذاء، لم يفتر لحظة، ولا وَنَى فترة.

وكان موقف العناد الكفور، والتعنُّت الجهول الذي وقفه منه ملأ قريش في مكالمتهم الجماعية المتعنتة حافزاً من حوافز الإقدام ودافعاً من دوافع القوة، وعاملاً من أقوى عوامل الإصرار الحازم والعزم الصارم، دفع رسول الله ﷺ إلى بسط مدى دعوته في أكناف مكة وما حولها من محلات العرب ومنازلهم ومجتمعاتهم ومحافل مواسمهم وأسواقهم.

فكان ﷺ لا يسمع برئيس قبيلة أو زعيم بيت أو عشيرة من بيوتات وعشائر العرب وبطونهم في منزل من منازل الوافدين على مكة للتجارة أو الحجّ إلا ذهب إليه يدعوه وقومه إلى الله ويناديه إلى الهدى ائتنا، ويسمعه

من آيات القرآن ما فيه شفاء للقلوب والأفئدة ونور للبصائر والأفكار، وكانت قريش بعد فشلها في مكالمته ﷺ، وما عرض عليه ملؤها من أمور الدنيا المادية تتبعه أينما ذهب، وحيثما ولّى لله وجهه أو نزل، فإذا سمعوه يدعو إلى الله تعالى بادروه بالتكذيب والاستهزاء، ورمَوه بالجنون والسحر، وكان أشدهم عليه في ذلك عمه المتبوب أبو لهب، يمشي وراءه وهو يقول للناس: إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم وهذا عار عليكم. وكان هذا من أشد ما أوذي به رسول الله ﷺ، لأن الناس كانوا في جاهليتهم أشد تمسكاً بمواريث الآباء والأجداد، وأشد حرصاً على التشبث بمراسم المادية الوثنية، لا يفهمون لأول وهلة إلا ما وافق تراثهم الجاهلي وعاداتهم التقليدية.

فإذا دعاهم رسول الله ﷺ إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأنداد، وإخلاص العبودية لله وحده والتحرر من أغلال التعبُّد للأصنام والزعماء والرؤساء، وبدر أبو لهب بتكذيبه والتحذير من قبول دعوته، سألوا عنه، فقالوا: من هذا وراءه يكذبه، فيقال عمه، وتسري هذه في الغوغاء والجماهير التي تعيش بعواطفها وشعور التبعية لكل ناعق، فيقولون معرضين عن هداية الإسلام: قوم الرجل أعلم به، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما أوذي أحد ما أوذيت» لأن كل أذية تلحق شخصه ﷺ في بدنه مهما عظمت وفدحت واشتد أثرها لا توضع قط في ميزان مع أية أذية تعترض طريق الدعوة، وتعوق تبليغ الرسالة مهما ضؤلت.

ومن هنا كان ما أوذي به اخوانه الأنبياء والمرسلون وأتباعهم في أبدانهم مع تناهي شدته وقسوته لا يقع موقع ما أوذي به ﷺ في تعويق رسالته، ووضع العقبات أمامها.

بيد أن جماهير القبائل العربية، وفيهم عقلاؤهم وحكماؤهم، وذوو رأيهم كانوا يرجعون من مواسمهم ولا حديث لهم إلا في شأن رسول الله ﷺ، وشأن دعوته من بعثه رسولاً من عند الله من الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق وعليا الشمائل.

وكان صدى ذلك يرجع في آفاق مكة فيصك آذان ملئها وزعمائها، ويلج إلى قلوبها وأفئدتها فيحرقها، فرعبت قريش رعباً شديداً، وداخلها خوف أقلقها، فأقامها وأقعدها، فهي قد فشلت في كل ما دبَّرت وقدَّرت في مناهضة دعوة محمد ﷺ، فقد مكرت به لتقتله، وقد دبَّرت له كل ما تمخَّضت عنه قرائح ملئها من السوء والتعذيب والإيذاء، ولكنه ها هي ذي ترى بأعينها دعوته تسري إلى العرب في منازلهم، ويتحدث الناس عنها، ويتجاوز الحديث عنها الغوغاء والجماهير إلى الحكماء والعقلاء وذوي الرأي من الشعراء والخطباء والحنفاء الذين أدركوا ذرواً من الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، فتعلَّقوا به انتظاراً لبعث خاتم الأنبياء والمرسلين.

رأي سوء من زعيم سوء: الوليد بن المغيرة

واجتمع ملأ قريش وعباهلتها إلى طاغيتهم، شيخ الكفر، أشيب بني مخزوم، ومديان العرب وصاحب ثرائهم، ومالك ناصية تجارتهم، وصاحب خزائن ربوياتهم وسحتهم: الوليد بن المغيرة، وكان الوليد قد عَتَا في سنه، فبلغ من الهرم عتياً، فقال لهم:

يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً.

قال الملأ من قريش: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأياً نقول به.

قال الوليد: بل أنتم فقولوا أسمع - يريد أن يفيل آراءهم لتكون له الكلمة الأخيرة. قال الملأ من غضارف قريش: نقول: هو كاهن.

قال الطاغية الوليد: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قال الملأ من عباهلة قريش فنقول: هو مجنون.

قال الطاغية الوليد: ما هو بمجنون: لقد رأينا الجنون، وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته.

قال ملأ قريش: فنقول: هو شاعر.

قال الطاغية: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه، وهزجه، وقريضه ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قال الملأ وقد ملأتهم الدهشة والحيرة: فنقول: هو ساحر.

قال الوليد: ما هو بساحر، لقد رأينا السحَّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. **قال الملأ وقد فرغ صبرهم،** ونفد تفكيرهم، وعييت عقولهم، فما نقول ياأبا عبد شمس؟ فنطق الحق على لسان الطاغية في غيبة عتو الكفر والجحود فقال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا - أي الذي زعمتموه شيئاً - إلا عرف أنه باطل.

لكن شيطان العتو الجحود، وفجور المادية الوثنية الكنود التي يعيش في بلهنيتها أشيب قريش وعاتيها لم يلبث أن صحا في نفس الطاغية العنيد حتى أملص الوليد من خيوط النور التي شعشعت لحظة في أفق الحق، فأنطقت جدار الكفور العنيد بما أملته السماء من وصف دعوة محمد ﷺ ورسالته ومكانها الأدمغ من الوجود، وما تنزَّلت به آياتها من حلاوة دانية القطوف للعقول والقلوب والأرواح، فعاد إلى عناده كفوراً يقول:

وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذَّروه إياه، وذكروا لهم أمره.

ورد الله كيدهم في نحورهم فكانوا بما دبروا ومكروا أحمرة تحمل على ظهورها الدعوة إلى الله تنشرها في آفاق العرب

فصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، وانتشر ذكره في الآفاق، وسارت دعوته مع الشمس إلى كل منزل من منازل العرب، ودخلت كل حي من أحيائهم، وحلَّت بكل محلة من محلاتهم، وانقلب مكر ملأ قريش وتدبير طاغيتها العنيد وبالاً عليهم وخيراً وبركة لمحمد ﷺ.

وهكذا إذا أراد الله أمراً من الخير والهدى أتاح له منافذ الظهور من بين براثن أعتى مقومات الشرور، وذكر القرطبي أن عثمان بن مظعون قال: ما أسلمت ابتداء إلاّ حياء من رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ وأنا عنده، فاستقر الإيمان في قلبي فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: **يا ابن أخي** أعد؟ فأعدت، فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر.

كاد أن يؤمن لولا عناد الكفر وسبق القدر

والوليد بن المغيرة: وهو من هو في عتو المادية الوثنية، وعناد الشرك، وتعاقل المحنّكين ـ يقرر في غير مواربة ولا مداورة أن محمداً ﷺ أبعد ما يكون أحد عن الكهانة وزمزمتها، وعن الجنون وخنقه ووسوسته، وعن الشعر وهزجه، وعن السحر ونفثه، وأن لقوله لحلاوة يتذوقها الأبْيناء فصحاء العاربة، وأنه قول ثابت الأصل في أرض الحقيقة، راسخ الدعائم في آفاق الصدق والهدى، فهو كالعـذق ـ وهي النخلة التي ثبت أصلها ودنا جناها، وطاب فرعها ـ وصارح الوليد قومه بأن أي شيء من أباطيلكم في اتهام محمد بالسحر والجنون والكهانة والشعر أنتم قائلوه للناس باطل لا يقبل.

لكن عناد الكفر أبى على هذا العتل الجوّاظ أن يثبت على قالة الحق شيئاً من ثبات في لحظة من زمن، فسرعان ما نكص الوليد على عقبيه كما نكص الشيطان عن لهزمتيه ـ وكان قابضاً عليهما يقوده بهما إلى حتفه ـ إذ قال ما قال من الحق في وصف محمد رسول الله ﷺ، ووصف قوله الذي يتلوه على الناس بأن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة، وما هو بقول بشر، وناقض نفسه، فعاد يقوده الشيطان كالجمل المخشوش بزمام العناد الكفور والكفر العنيد، وقد فكّر وقدّر، وعبس وبَسَر، وأدبر معرضاً عن الحق، مستكبراً عن الإذعان له وقال: إن ما يقوله محمد ﷺ ما هو إلا سحر أثير لا يستطيع أحد أن يقول مثله، ألستم ترونه يفرّق بهذا القول بين المرء وأبيه والمرء وأخيه والمرء وزوجه والمرء وعشيرته؟.

أخرج الحاكم وصحّحه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي

الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك له منكر، وأنك كاره له، قال: وماذا أقول: فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، والله ما يشبه هذا الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه قولاً: قال الوليد: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، فنزلت ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾.

قال ابن كثير: والمذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش لعنه الله، وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج الوليد على قريش فقال يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة - يعني رسول الله ﷺ، وأبو كبشة لقب أبيه رضاعاً - : فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذي مجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال له: ألم ترَ إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ قال الوليد: ألست أكثرهم مالاً؟ فقال له أبو جهل: إنهم يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا ابن أبي كبشة وما قوله إلا سحر يؤثر.

فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ - إلى قوله - ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾.

وذكر القرطبي قصة الوليد بن المغيرة مسندة فقال: لما نزل ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ إلى قوله ﴿ إليه المصير ﴾

ـ أي أول سورة غافر ـ وغيره يقول: حم السجدة أي سورة فصلت؛ سمعه الوليد يقرؤها فقال: والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما هو بقول بشر، فقالت قريش: صبأ الوليد لتصبون قريش كلها، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فمضى إليه حزيناً، فقال له: مالي أراك حزيناً؟ فقال أبو جهل: ومالي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك، ويزعمون أنك زينت كلام محمد وأنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما، فغضب الوليد وقال: أنا أحتاج إلى كِسَر محمد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالي، واللاّت والعزّى، ما بي حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا: لا، والله، قال: وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا، والله، قال: فتزعمون أنه كذّاب، فهل جربتم عليه كذباً قط؟ قالوا: لا، والله قال: فتزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه تكهَّن قط؟ ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً، فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا، والله.

وكان النبي ﷺ يسمّى الصادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليد: فما تقول فيه؟ ففكر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس وبسر، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه.

تكرار قصة سماع الوليد القرآن وقوله في مدحه ما قال أرجح من وقوعها مرة واحدة

وقصدُ الوليد بن المغيرة باستماعه للقرآن، وقوله فيه لأول ما قرعت آياته قلبه وعقله ما قال من مدح وثناء ثم إنكاره كذباً بعدما فكَّر في دنياه ومكانته من قومه، وتعيير أبي جهل له قصة تحتمل التكرار، وأنها وقعت له أكثر من مرة، وهذا هو الأظهر والأقرب إلى التوفيق بين روايات القصة، ولا سيما أنها روايات تختلف اختلافاً جوهرياً في تسمية من سمع منه الوليد القرآن، فبعض الروايات يقول: إن الوليد سمع رسول الله ﷺ يقرأ ﴿ حم ﴾ السجدة، أو ﴿ حم ﴾ غافر، وبعضها يقول أن الوليد سمع أبا

بكر يقرأ فأصغى إليه، وبعضها يقول: إنه سمع عثمان بن مظعون، فهذا الاختلاف فيمن سمع منه الوليد القرآن اختلاف أساسي في القصة يؤكد تكرارها وأنه سمع من كل هؤلاء، وقد كان يعيش في لجج الحيرة والشك، وهذا يقتضيه أن يكرر سماعه لآيات القرآن، وأن يعدِّد الأشخاص يسمع منهم ليخرج من حيرته المظلمة وشكه المريب.

ويؤكد تكرار القصة اختلاف الروايات في الآيات التي سمعها الوليد، فبعض الروايات يذكر أنه سمع أول سورة (غافر) وبعضها يذكر أنه سمع أول سورة (فُصِّلت) كما سمعها عتبة في سفارته عن قريش إلى رسول الله ﷺ، وبعضها يذكر أنه سمع قول الله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[1].

وتكرار قصة سماع الوليد للقرآن يشبه أن يكون أمراً طبيعياً؛ وخصوصاً أن الوليد في عتو كفره وجحوده ومكانته الراسية من المادية الوثنية لا يتعجل الحكم، ولا بد له من تكرار السماع وتعدد مصادره، لينظر مقدار الاختلاف والتوافق بين هذه المصادر في أسلوب ما يسمع وحقائقه ومعانيه ومقاصده، فلما وجد ما سمع أسلوباً ومعاني في الهداية وحقائق في التوحيد وأصول الفضائل جاء كلامه في جميع الروايات عن القرآن ووصفه متوافقاً متناسقاً، وجاء كلامه عن رسول الله ﷺ في معرفته بالصدق والأمانة، ومكارم الأخلاق، وبعده عن جميع ما زعمه عليه أعداؤه أعداء رسالته ودعوته من ملأ قريش موحَّداً لوثيق معرفة سائر قومه به.

الوليد في آيات القرآن نموذج للشر الخبيث في كل زمان ومكان

وقد جعل القرآن الحكيم على سنته ونهجه في تصوير الطبيعة البشرية في جانبيها جانبي الخير والشر، في نماذج من الأفراد والجماعات تمثل جوانب الخير والشر لتكون تلك النماذج مُثُلاً حية مضروبة للأجيال في كل زمان ومكان، ترى فيها نفسها، ليكون ذلك أدعى للتأسي في الخير، وأردع عن الوقوع في حمأة الشر- من هذا الطاغية العنيد، الوليد ابن المغيرة نموذجاً لأخبث نوع من الشر الأثيم في طبيعة البشر، ولا سيما وهو

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٠.

في مكانته من زعامة قومه وبلده، فنزل فيه وفي كل من كان على شاكلته في أجيال البشرية المتعاقبة من عناد للحق. وطغيان الكفر، وفجور الاستبداد، أينما وجد من أرض الله قول الله تعالى من سورة ﴿المدَّثر﴾: ﴿ ذَرْني ومن خلقت وحيداً ﴾ إلى قوله ﴿ إنْ هذا إلا قول البشر ﴾.

ثم أتبع القرآن الحكيم ذلك بذكر الجزاء العادل الذي ينتظر هؤلاء الأئمة الفجرة يقدمهم الوليد وأضرابه من نماذج الشر الأثيم، والعناد الكفور، فقال: ﴿سأصليه سقر﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لواحة البشر﴾.

أقوال بعض المفسرين أن الوليد هو المراد من قوله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾

وكونُ الوليد بن المغيرة هو النموذج المقصود فيما جاء في هذه الآيات من خبائث الصفات، وأرذل الرذائل محل اتفاق إجماعي من المفسرين.

قال الإمام فخر الدين الرازي: أجمعوا على أن المراد هنا ـ أي باعتباره نموذجاً ـ الوليد بن المغيرة، وقال القرطبي: والمفسرون على أن المقصود هو الوليد بن المغيرة المخزومي وقال ابن كثير: وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش لعنه الله.

كان موقف الوليد ومن ورائه ملأ قريش بعد أن أنهى الوليد قصته لسان دعاية للنبي ﷺ ولرسالته

ولما انتهى الوليد إلى ما انتهى إليه من قول الزور والافتراء على الله ورسوله ﷺ فرح البلهاء من ملأ قريش وتفرقوا إلى السبل والطرقات، ومنافذ القادمين إلى مكة للتجارات أو للحج، يذكرون لهم أمر رسول الله ﷺ، ويحذِّرونهم منه، ولكن الله تعالى جعلهم ألسنةَ نشر ودعاية لدعوة الإسلام ورسالته، وسرى الحديث عن رسول الله ﷺ في الناس، يدخل إلى منازلهم، ويلج عليهم محافلهم وأنديتهم، وارتفع الهمس إلى جهرة القوة عن دعوة محمد ﷺ ورسالته التي جاء بها من عند الله ليقوم الناس فيما بينهم بالقسط في ظل عقيدة التوحيد، وخَلْع الأنداد، وإخلاص العبودية لله وحده، والتحرر الفكري والاجتماعي الذي يعطي كل إنسان حقه في العيش الكريم وحقه في إطلاق عقله وإضاءة قلبه وإشراق روحه.

واشرأبَّت الأنظار هنا وهناك تتطلع إلى رؤية النبي ﷺ والاستماع لما أُنزل عليه من القرآن المبين، فلما خرج إليهم بنفسه داعياً إلى الله، مبلِّغاً

رسالة ربه بعد أن سدَّت قريش منافذ قبول الهداية على نفسها، خرج مهيئاً للاستماع إليه، ولقي ﷺ الناس ودعاهم إلى الهدى، فكانوا بين مباعد، ومقارب، وقليل منهم من يفتح قلبه للهداية فيقبل الحق مؤمناً به، وكثير معرض ينظر ويتفكَّر.

جولة في هذه الآيات كما عرف عن معالم الشر الفاجر في نماذج الخبث البشري أينما كان

والآيات التي أجمع المفسرون على أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ـ باعتباره نموذجاً لأخبث لون من شرور البشرية التي تنتابها في أجيالها المتعاقبة، وبيئاتها الاجتماعية المختلفة تأسياً بهؤلاء الشريرين من نماذج الانحراف البشري، الذين أوتوا من أسباب الدنيا مصادر قيادة الجماهير والغوغاء قيادة طغيان كفور، وفجور مستكبر، واستبداد ظلوم ـ تصف هذا الطاغية العنيد بأوصاف لا تقصد إلى اختصاصه بها، ولكنها تستهدف تصوير الشكول والصور في الأفراد والجماعات التي تصب في قوالبها هذه النماذج الخبيثة وتوضع في إطارها معالمه.

والآيات الحكيمة المحكمة تبدأ بلون من التهديد المرعب، زجراً لغرور الفجور الذي أفعمت به نفس هذا الطاغية العنيد، فيقول الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ـ وهو الذي واجه عتو طغيان هذا الكفور وطغيان أمثاله من أحلاس المادية الوثنية ـ: ﴿ ذَرْني ومن خلقت وحيداً ﴾ ليكون تهديد نماذج الفجور الوثني بما يصب عليهم من النكال والوبال وشدة العذاب مصحوباً بإشراق الأمل في نفس الداعي إلى الله رسوله الصادق الأمين محمد ﷺ، وحافزاً من حوافز الصبر على مكاره الطغاة وإذايتهم، ودافعاً من دوافع مضاء العزائم في المضي قدماً بسير الدعوة وتبليغ الرسالة، ووعداً بالنصر المؤزر على جند الباطل مهما تجمَّعوا وتألَّبوا، وعاملاً من عوامل تثبيت اليقين في نفوس عامة المؤمنين وهم في غمرة البلايا والمحن.

والتهديد في هذه الآية بيِّن في أسلوبها المعجز بروعة بيانه مع الإيجاز المحكم، فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ يسلِّيه ويخفف عنه عبء ما لقي ويلقى من شدائد المحن في دعوة هؤلاء الفجار من عبيد الوثنية المادية المتهاوية، فكأنه قيل له ﷺ: لا تحمِّل نفسك نصب التفكير في صد تيار الطغيان في

هذا الفاجر الأثيم، ولا يمتلئن قلبك همًّا بدفع سفاهته وغروره، ولا تشغلنَّ بالك به، وامض في طريقك هادياً مرشداً، ودعني وإياه فأنا وحدي كفيل بردعه ردعاً ينزل به نكال الآخرة والأولى.

أسلوب الآيات في تهديده المرعب جرى على المعهود في المخاطبات عند مناسباتها

وأسلوب الآيات في التهديد المزمجر جرى على المعهود في طرائق تخاطب الناس بعضهم مع بعض، وهو نهج القرآن في مخاطباته جرياً على السَّنَن المألوف، ليكون أفهم وأبلغ في الوصول إلى الغرض المقصود.

يقول الرجل القوي الحامي ذمار أمته، وهو يرى فاجراً يقتحم حماها، ويثلم شرفها، ويخدش كرامتها لمن يغار ولا يتمكن من ردِّ الفجور: دعني له وحدي، فأنا قدير على قهره وإذلاله والتنكيل به، ولله المثل الأعلى. ثم ذكرت الآيتان الثانية والثالثة ﴿وجعلتُ له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً﴾ إن هذا الطاغية الفاجر في كفره لم يكن طغيانه وفجوره عن مظاهر في حياته تدعوه إليهما، وإنما كان فجوره وطغيانه عن فطرة خبيثة مولودة معه تكفر الإنعام، وتنكر الإحسان، فهو قد أحسن الله إليه إحساناً غامراً، وأنعم عليه إنعاماً فائضاً، فجعل له مالاً ممدوداً، لا ينقطع، عمّ أصناف المال، وطمّ أرجاء الحياة، وكثر وغمر، ورزقه بنين كثيرين، يحتفون به، فلا يفارقونه لحاجة، فهم أغنياء بثراء أبيهم، وهو مأنوس بهم، فرح بوجودهم حوله، مستقر الرضا برؤيتهم.

كل وصف ورد في الآيات هو مَعْلم من معالم الفجور النموذجي الخبيث

وفي تخصيص الإنعام عليه بالبنين نكتة لطيفة بالنسبة لهذا الطاغية وبيئته ومجتمعه، وما كان معروفاً مشهّراً لدى قومه من كراهية إنجاب الإناث وحب إنجاب البنين، فكان حريًّا في شرعة الإنصاف أن يكون شكَّاراً بنعمة الله عليه، ولكنه لخبيث فطرته وسوء نحيزته بدل نعمة الله عليه كفراً، وأحلّ نفسه وقومه دار البوار، فاستكبر وتجبر، وطغى بنعمة الله وفجر، وناهض الحق، وقاوم دعوة رسول الله ﷺ، فقد أفادت أن الله تعالى بسط له الجاه العريض، ومدّ له المال الكثير، ووطّد له الرياسة في قومه، وأطال عمره فيهم وأعلى كلمته عندهم، فأتم عليه نعم المال والجاه والولد، وهذا هو الكمال عند أهل الدنيا، ولا سيما الماديون الوثنيون.

ثم جاءت الآية الخامسة: ﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ تقرر أن هذا الطاغية العنيد ـ مع هذا السوء الذي أثقل طبيعة حياته ـ شره النفس، جموعاً للدنيا، منوعاً لا ينفقها في خير قط، طموع منهوم لا يشبع، لا يكاد يفرغ من جمع حتى يتجه إلى جمع، يطلب ذياه من عنده من المال والبنين وبسط العيش.

ثم جاءت الآية السادسة ﴿ كلّا إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ تزجره عن الانسياق مع مطامع نفسه الخبيثة، وهو على ما هو عليه من خبث الطوية ومكر السوء، ثم تقرر الآية الكريمة بعد هذا الزجر بيان الحكمة في إنكار طمعه في الزيادة، والتعجيب من حاله، وغروره في فجره وكفوره.

وفي الآية تيئيس له من الزيادة، ووعيد بالنقصان، ولهذا قال المفسِّرون لم يزل الوليد في النقصان بعد قول الله تعالى: ﴿ كلا ﴾ حتى افتقر، وخرف، ومات كفوراً فقيراً.

خصائص هذا النموذج المعاند الخبيث

ووصفه في الآية بالعنيد لآيات الله بيان لشدة فجوره وطغيانه ومجاوزته كل عتو وإثم، فالعنيد مبالغة من العناد وهو مجاوزة الحد، وأريد به هنا الذي عرف الحق بقلبه وعقله وأنكره بقوله وفعله واعتقاده، استكباراً وغلواً في الجبروت والكفر، وفي تقديم المتعلق، ﴿ لآياتنا ﴾ على متعلقه ﴿ عنيداً ﴾ تخصيص، كأنه قيل وإنه عنيد لآياتنا نحن الذين أنعمنا عليه بشتى النعم، لا لآيات غيرنا ممن لم يكن في استطاعته أن ينعم عليه بشيء، وفي هذا التخصيص تسجيل لبالغ كفره، وشدة عتوه وفجوره وسوء عناده، قال الإمام الرازي: وفي هذه الآية إشارة إلى أمور كثيرة من صفاته: إحداها ـ أنه كان معانداً لجميع الدلائل الدالة على التوحيد والعدل والقدرة الإلهية وصحة النبوة، وصحة البعث، منكراً لها.

ثانيها ـ إن كفره كان كفر عناد، كان يعرف هذه الأشياء بقلبه، إلا أنه ينكرها بلسانه، وكفر المعاند أفحش أنواع الكفر.

ثالثها ـ إن قوله تعالى: ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ يدل على أنه من قديم الزمان كان على هذه الحرفة والصنعة الخبيثة.

رابعها ـ إن قوله تعالى: ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ يفيد أن تلك المعاندة كانت منه مختصة بآيات الله تعالى وبيناته، فإن تقديره إنه كان عنيداً لآياتنا، لا لآيات غيرنا، فتخصيصه هذا العناد لآيات الله تعالى، مع كونه تاركاً للعناد في سائر الأشياء يدل على غاية الخسران وفساد الجبلّة.

ثم جاءت الآية السابعة ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ تقرر ما أعده الله لهذا الطاغية من سوء العذاب في الآخرة إلى جانب ما أرهقه به من سلب ما أنعم به عليه في الدنيا، كما أفادته كلمة الزجر ﴿ كلا ﴾ عن الطمع في الزيادة، وأنه سيعامل بنقيض مقصوده من النقصان والسلب بعد العطاء، والإرهاق تحميل الشدائد وتكليفه إياها، (الصَّعود) مثل لما يلقى المرهق من أثقال العذاب ومشاقه وصعائده مما لا يطاق مثله، وهو مأخوذ من قولهم عقبة صعود وكؤود أي شاقة المصعد، والمعنى أن الله تعالى توعَّد هذا الطاغية بأنه سيجد عذاباً شديداً لا يطيقه جزاء عناده في كفره وجحوده بإنعام الله عليه.

ثم ذكر الله تعالى حال هذا الطاغية في عتوه وعناده في كفره، وأن كفره كان كفراً مهيئاً مقصوداً مرتباً، قائماً على التفكير والتقدير، فالطاغية العنيد قد فكَّر وتدبَّر لا ليستبين الحق فيعتقده، والهدى فيتبعه، ويؤمن به، ولكنه فكَّر ودبَّر، وقدَّر وهيَّأ أموراً يرد بها الحق الذي عرفه، واعترف به، فقال تعالى: ﴿ إنه فكَّر وقدَّر ﴾ ثم عجب العقلاء من أمره في تفكيره وتدبيره، سخرية واستهزاء منه لأنه زعم أنه بتفكيره وتدبيره، وتهيئته ما هيىء في نفسه من لغو وفساد مما يؤثر في سير رسالة الحق، قال تعالى: ﴿ فقُتل كيف قدَّر ﴾ أي هلك وأهلك، وقُهِر وغُلِب على أمره، وذل بعد عزة في قومه، وافتقر بعد الثراء والغنى، وطرد طرداً أبدياً من رحمة الله. ﴿ كيف قدَّر ﴾ على أي حال هيأ ما هيأ من الزور والبهتان وركيك التفكير وسفساف التدبير، ثم أكد الله تعالى قهره ولعنته وما باء به من الخسران، فقال جلّ شأنه: ﴿ ثم قتل كيف قدَّر ﴾ أي مع كونه هيأ في نفسه كلاماً يرد به على قومه في أمر محمد ﷺ يأثرونه عنه ويلقون به وفود

العرب محذِّرين، لم يستطع أن يقنع نفسه بما فكَّر وقدَّر ودبَّر وهيَّأ، فرجع وهو مغيظ محنق ينظر ويفرغ النظر في أمره ﷺ، ويطيل التفكير والتدبير، فيزداد غيظاً وحنقاً، وكلما اشتد غيظه وحنقه ضاقت به الدنيا، وضاق بها، وقهره الغيظ (عَبَس) وقطَّب جبينه، واسودَّ وجهه، واكفهرَّ سمته، وتغيَّر رسمه، و(بسر) كالحاً ممسوخاً عن إنسانيته، وأخذ عن نفسه وتفكيره، واستولى عليه الدهش، وتملكته الحَيْرة، فلم يدر ما يقول في أمر محمد ﷺ وهو قد أعلن على قومه جهراً، وأوهم من حوله وهَم يتسقطون رأيه، ويستنزلون وحي شيطانه أنهم ما من شيء يتهمون به محمداً ﷺ ممَّا زعموا عليه إلا عرف أنه باطل، وكأنه قد سدت دونه منافذ التفكير والتدبير والتقدير، فولَّى عن قومه معرضاً مستكبراً مغيظاً محنقاً، قد أحرق الحق قلبه، وهو يقول كمن يرمي بالقول رمياً لغير قصد، لا يبالي أن يكذب نفسه، ولا أن يكذبه قومه، ﴿ إنْ هذا إلا سحرٌ يؤثر ﴾ وكان قد قال لقومه وهو يحاورهم ويستطلع ما عندهم في أمر محمد ﷺ فيما قال لهم: يزعمون أن محمداً ساحر، لا، والله ما هو بساحر وقد رأينا السحَّار وسحرهمْ، فما هو بنَفْثهم ولا عَقْدهم.

لحظة من الخجل تغير رأي هذا الطاغية العنيد

وكأن الطاغية قد تداركه شيء من نفحات الإنسانية، فأخذه من الحياء والخجل ما يؤخذ الذين بقيت فيهم بقية من عقل، وتذكر أنه كان قد نفى السحر عن محمد ﷺ، فقال ما حكاه الله عنه: ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾.

قال الإمام الرازي: والمعنى إنّ هذا قول البشر، ينسب ذلك إلى أنه ملتقط من كلام غيره، ولو كان إلّا كما قال لتمكنوا من معارضته، إذ طريقتهم في معرفة اللغة متقاربة.

العناد أكبر طرائق الفجور

ثم قال الرازي: واعلم أن هذا الكلام يدل على أن الوليد إنما كان **يقول هذا الكلام عناداً منه، لأنه روي عنه أنه لما سمع من رسول الله ﷺ** (حم السجدة) وخرج من عند رسول الله ﷺ قال: سمعت من محمد ﷺ كلاماً ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه

لطلاوة، وإنه يعلو ولا يُعلى. فلما أقر بذلك في أول الأمر علمنا أن الذي قاله ههنا من إنه قول البشر إنما ذكره على سبيل التمرد والعناد لا على سبيل الاعتقاد، وفي سورة (ن) ـ وهي من طلائع السابقات المكيات في سور القرآن ـ آيات أقرب ما تكون في معانيها وأهدافها إلى آيات سورة (المدَّثر)، قرباً يكاد يكوِّن وحدة تؤلف نموذجاً متكامل الصورة في إبراز نوع من الطبائع البشرية، يمثل في الحياة أخبث أنواع الشرور الكامنة في نفوس بعض الأفراد والجماعات على مرّ الزمان واختلاف الأجيال وتطور الأفكار.

وقد نقلنا إجماع المفسِّرين على أن المقصود بآيات (المدَّثر) التي سقناها مبتدئة بقوله تعالى: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ باعتباره نموذجاً لأخبث أنواع الشرور النفسية والاجتماعية والعقلية هو الوليد بن المغيرة المخزومي.

وعلى أساس هذا النقل، وما توحي به الآيات، وما يعطيه جوها وأحداثها جرينا في تحليلنا للآيات وفي تفسيرها بما يظهر صورة النموذج البشري الشرير، فيجعله مثلاً مضروباً في شاهد الحياة ووقائع الأحداث في كل زمان، وكل مكان، وكل جيل من البشر.

وآيات سورة (ن) نزلت في الوليد عند الجمهور

بَيْد أن المفسِّرين اختلفوا في المراد من الآيات في سورة (ن) باعتباره نموذجاً لمعانيها وحقائقها وأهدافها وآثارها، قال الإمام القرطبي: ومعظم المفسِّرين على أن هذا أنزل في الوليد بن المغيرة وكان يطعم أهل منى حيساً ثلاثة أيام، وينادي: ألا، لا يوقدنّ أحد تحت برمة، ألا، لا يدخننّ أحد بكراع، ألا ومن أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة، وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفاً وأكثر، ولا يعطي المسكين درهماً واحداً، فقيل (مناع للخير) وفيه نزل ﴿وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾[1].

وإذا كان هذا الوصف ﴿ منَّاع للخير ﴾ وصفاً من أوصاف سورة (ن) تدمغه به القصة المذكورة التي تبين أنه ينفق ماله رئاء للناس،

---

(١) سورة فصلت، آيتا: ٦ ـ ٧.

جولة تحليلية في تفسير آيات سورة (ن) وما فيها من معالم نموذج الشر في البشر

وتسميعاً بذكره، فإن سائر الأوصاف المذكورة فيها منطبقة عليه، قال الله عزّ شأنه: ﴿ ولا تطع كل حلَّاف مهين * همَّاز مشَّاء بنميم * منَّاع للخير معتد أثيم * عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم. أن كان ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾.

هذه الآيات تضمنت عدة أوصاف وصف بها طاغية المادية الوثنية. وكان خاتم هذه الأوصاف يشبه أن يكون تعييناً بأخص الصفات للوليد بن المغيرة وأنه هو المراد هنا في آيات سورة (ن)، كما كان هو المراد هناك في آيات سورة (المدَّثر) باعتباره نموذجاً في الموضعين لأخبث أنواع الشر النفسي والاجتماعي في الطبائع البشرية، وهذا الوصف المعين بالاختصاص هو قوله تعالى: ﴿أَنْ كان ذا مال وبنين﴾ فلم يُعرف من طواغيت الوثنية في قريش بشهرته بكثرة المال والبنين مثل ما عرف وشهر الوليد بن المغيرة، وقد كان هذا الوصف محور فجوره وطغيانه الذي دارت عليه معاني آيات (المدَّثر) كما بيناه في تفسيرنا التحليلي لها.

وقد افتتحت آيات سورة (ن) بنهي النبي ﷺ نهي تعليم وتشريع عام عموم الأزمنة والأمكنة والأجيال والأحداث بعد تمهيد بنهي عام، أُجمل تحته أقبح وصف اتصف به إنسان، فقيل: ﴿ فلا تطع المكذِّبين ﴾ والمكذبون لرسالات الله هم الذين لا يرعون في حياتهم عهداً ولا يعرفون قانوناً، ولا يستمسكون بدين من أديان الحق وشرائع الهداية، ولا يطوون صدورهم على ضمائر تردعهم عن الانغماس في موبقات الحياة ومظالمها ومفاسدها.

وهذا النهي قصد به إلهاب شعور رسول الله ﷺ، وتهييج وجدانه؛ ليكون في موقفه من مداهنة الكافرين كعهد الحياة به أشد وأصلب، وأسمى من أن يتنزَّل إلى خداع رغائبهم.

المعلم الأول من خصائص نموذج الفجور

ثم جاء تفصيل بعض هذا الإجمال بتعيين نموذج الطبيعة البشرية بوصفه وخصائصه الشريرة المعينة له فقيل: ﴿ ولا تطع كلّ حلَّاف مهين ﴾ والحلّاف مبالغة في كثرة الحلف وامتهان القسم فيما رخص وسفل وهان

واستهين، ولا يقع ذلك إلا ممن تولى حياة الدناءات وعاش فيها وهانت عليه إنسانيته وانثلمت كرامته، وانعدمت من النفوس الثقة به، وشهر بينهم بالكذب والغش والخداع والخيانة، وخبث الطوية، وملاحاة الناس في معاشرتهم والتحايل عليهم بما يكون وما لا يكون، وما ينبغي وما لا ينبغي.

وليس وراء ذلك وضاعة أو مهانة أو زراية بالنفس أو حقارة، أو ذلة ودناءة أو رذالة أو نذالة، فالتلازم بين المبالغة في الحلف وكثرته وامتهان القسم، وبين الوضاعة والمهانة في جميع صورها من رذائل الطباع وسفالة الأخلاق تلازم لا تنفك روابطه النفسية، حتى صار عنواناً على فساد الفطرة ودنس الطبيعة.

المعلم الثاني من خصائص هذا الطاغية

ثم جاء بعد هذا الوصف وصف آخر يحمل خصيصة دامغة لهذا الطاغية في صورته النموذجية ومعه قرينه الذي لا يفارقه، فكانا في تمثيل نموذج الإفساد في الأرض كأنهما غصنان من عوسجة الشر الوخيم، يرتبطان بما قدمته الآية الأولى من وصفي المهانة والمبالغة في كثرة الحلف ارتباط الفرع بأصله فقيل: ﴿همّاز مشّاء بنميم﴾ والهماز هو العيّاب الذي يتسقط العيوب فيلصقها بالبرآء، ويتلقطها من أفواه الشريرين ليضعها على هامات الخيِّرين، حتى يتساووا معه في شرِّيته، كما قال تعالى في وصف طبيعة هؤلاء الباغين للناس التورط في حمأة الشر والفساد معهم، حتى تعالَوا في سوء أطماعهم أن يتناولوا الشمس بأيديهم ليطفئوا نورها بأفواههم، فعَتوا عتواً كبيراً، وودّوا لو أن رسول الله ﷺ مالأهم ليمالئوه، وداهنهم فيداهنوه بعد أن دمغهم بتكذيب الأنبياء والمرسلين ﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ وقد فسره أئمة السلف من أحبار الأمة بنحو هذا، فقال الربيع بن أنس: ودّوا لو تكذب فيكذبون، قال ابن عباس وعطية العوفي، والضحّاك والسُّدِّي: ودُّوا لو تكفر فيتمادون على كفرهم لتكون معهم على سواء حتى لا يروا لك فضلاً عليهم، عن ابن عباس: ودُّوا لو ترخص فيرخصون.

وقد أخبر الله تعالى في سورة نزلت برسم هؤلاء المفسدين العيابين،

الهمازين للناس، بأن لهم الويل، أي الخزي والنكال في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ ويل لكل هُمَزة لمزة ﴾ قال ابن عباس: هم المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة، ومعناه: أنهم الباغون للبراء العيب، الطعّانون في الأعراض، النهاشون للأنساب، الغمّازون للأخلاق، لهم ألسنة غذيت بالبذاء وسوء القول، لا يسلم منهم جليس ولا صاحب، مبغضون لكل من يعرفهم، كالمجزّم يفر منهم كل من يراهم، ففي مسند الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكر الله عز وجل».

ولا يهمز الناس ويعيبهم إلا من كان في نفسه شريراً حقيراً، دنيء الطبع، ليس له من خلائق الخير شيء. ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت» ليس لهم من الشرف ما يردعهم عن الوقوع في الناس، لا يبالون أن يكون ما قد قالوا حقاً أو باطلاً.

والذي يشغل نفسه بتسقط ما يعيب به الناس ليشينهم في مجتمعهم، ويحقرهم بين قومهم، ويسقط مروءاتهم في بيئاتهم لا يزال رأيه وهجيراه الإفساد بين كل متوافقين، والتفريق بين كل متحابين، والتعكير بين كل متصافيَين، لأن ارتباط الناس بالتوافق والمحبة ومعاشراتهم بالمصافاة والمودة يغيظ الهماز المشاء بالنميمة، لسوء مخبره، وكراهيته لكل خير يرى عليه الناس.

وهذا هو المشاء بالنميمة الهمّاز اللّماز، وصاحب هذه الخليقة الدنيئة مبغض محقور في الدنيا، مطرود من رحمة الله في الآخرة، لا يريح رائحة الجنة، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتّات» والقتات: النمام، وروى الإمام أحمد في مسنده قال: مر رجل على حذيفة بن اليمان فقيل إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء، فقال حذيفة: سمعت رسول

الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمام».

المَعْلَم الثالث من خصائص نموذج الفجور والعناد

ثم عقبت الآية الكريمة من سورة (ن) هذه الأوصاف بثلاثة أوصاف تصم الطاغية العربيد بأخبث أوصاف نماذج الطبيعة الشريرة في طبائع البشر، فقيل: ﴿ منّاع للخير﴾ وهو قادر عليه يمسكه عن مواضع البر والإصلاح، وينفقه تبذيراً وإسرافاً في مواطن السوء والإفساد، فهو في حقيقته شحيح بخيل، لا تنتفع الحياة الصالحة من وجوده بشيء، ولا يصل إلى أحد منه خير يصدّ عن الحق، ويعاند الهدى، ثم هو بعد ذلك ﴿ معتد أثيم﴾ ظلوم كفار، لا يقف في ظلمه وتعدّيه عند حد، بل هو في بطشه واستبداده متجاوز لكل حد، مبطل كذوب، فاجر عنيد، كثير الإثم في محاربة الله ورسوله، لا يتوقى شراً، ولا يتحذر من* بغي ولا يتحرز من عتو، فهو مجمع القبائح والفضائح، وموئل الدنايا والرذائل.

المَعْلَم الرابع

ولا تنهي الآيات وصفها بهذه الأوصاف المهينة حتى تتلقّاه مما شوه خلق الله له في صورته وسمته وسحنته الخلقية، فقيل ﴿عُتُلٍّ ﴾ أي جاف، غليظ الطبع، شره، بطين، أكول شروب، فاحش العشرة، متفحش سيء المعرفة، لئيم النفس، خبيث الطبع، حقود كنود، يخاصم في غير حق فيفجر، ويعتدي فلا يبالي أن يخون ويغدر، ثقيل الظل جحود، كفور لكل نعمة، نكّار لكل إحسان، وهو بعد ذلك الذي تقدم من أوصاف السوء والقبائح ﴿ زنيم ﴾ أي مشهر بلؤم الطبع ودناءة النفس، وسوء الخلق، يتحامى الناسُ القرب منه اتقاء بغيه وعدوانه وبذائه، وهذا الوصف القبيح الذي أربى في فحشه على فحش ما سبقه من نعوت الخبث والشر يجعل المتصف به يستشعر المهانة في نفسه، فيتكلف التعاظم الكذوب ليداري سوءاته، ويشمخ مستكبراً ليخفي مهانته، ويسرع إلى الظلم يرتكبه وإلى الطغيان يدّرعه ليغطي حقارته وضآلة شخصيته، فالزنيم هو الشرير الظلوم عظيم الشر الفَجور، الذي يأكل فلا يشبع، ويمنع الخير أن يصل إلى غيره، ولو كان آتياً من غيره، يمنع غيره أن يصل في سعيه إلى خير، وفي حديث زيد بن أسلم أن النبي ﷺ قال: «تبكي السماء من رجل أصح الله

المَعْلَم الخامس من خصائص نموذج الفجور

جسمه، ورحب جوفه، وأعطاه من الدنيا بعضاً، فكان للناس ظلوماً، فذلك العتل الزنيم».

وهذان الوصفان ﴿عتل زنيم﴾ متلازمان في وجـودهما، فـالزنيم عتل، والعتل زنيم، وهما جماع الرذائل والقبائح، روى مسلم في صحيحه عن حارثة بن وهب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟» قالوا: بلى، يا رسول الله قال: «كل عتل جواظ مستكبر» وفي رواية عنه «كل جواظ زنيم متكبر».

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة جوّاظ ولا جعظري، ولا العتل الزنيم» فقال رجل: ما الجـواظ؟ وما الجعظري؟ وما العتل الزنيم؟

تفسير النبي ﷺ ليس بعده تفسير

فقال رسول الله ﷺ: «الجوّاظ الذي جمع ومنع، والجعظري: الغليظ والعتل... الزنيم: الشديد الخَلْق، الرحيب الجوف، المصحح، الأكول الشروب، الواجد للطعام، الظلوم للناس».

قال القرطبي: فهذا التفسير من النبي ﷺ في العتل قد أربى على أقوال المفسرين، وكان من الحق على الإمام القرطبي أن يضيف إلى وصف ﴿العتل﴾ قرينه في الآية والواقع وصف ﴿الزنيم﴾ وهذا صـريح في حديث مسلم في روايتيه، وفي حديث ابن مسعود، فالنبي ﷺ كما فسر (العتل) فسر الزنيم، وعند تفسيره ﷺ يجب الوقوف لغة ومعنى وحقيقة، ولا يصح مطلقاً تجاوزه إلى غيره من الآراء والأقوال.

تفسير الزنيم بمن ولد لغير رشدة لا يفسر به القرآن

ومن ثم أبى بعض أهل العلم تفسير ﴿الزنيم﴾ في الآية بالدَّعي الذي ولد لغيره وأُلحق بنسب رجل فعدّ في أبنائه، وقد أُبِن بهذا الوليد ابن المغيرة المخزومي، والذين أبَوا هذا التفسير من أهل العلم قالوا كما عبّر عنهم الإمام محمد بن إسحاق في سيرته: ولم يقل الله تعالى: زنيم لعيب في نسبه لأن الله لا يعيب أحداً بنسب، وهذا كلام حسن مستقيم الطريقة، يتلاءم مع أدب الإسلام وشرائعه.

وأنكاح الجاهلية فيها أشياء لا تدخل تحت ضابط اجتماعي يضبطها، ولا تتقيد بوضع ديني يوجهها، ففيها الصحيح المشروع، وفيها السفاح الباطل، فلا معنى لتخصيص إنسان بعينه، وتعييره بذلك، ومن ثم كان الأنكحة الموثوق بصحتها عرفاً وشهرة موضع شرف وفخر وفضيلة، ولذلك قال النبي ﷺ: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح، ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء».

أسلوب القرآن يشعر بأن هذا الوصف مجمع الخبائث ورذائل البشر

وفي قول الله تعالى: ﴿ بعد ذلك ﴾ إشارة إلى أن وصف هذا الطاغية بالعتل الزنيم بعد وصفه بما تقدم من النقائص والقبائح قد جمعت له مخابث الصفات ومقابحها. ويقول الإمام الرازي: قوله: (بعد ذلك) معناه أنه بعد ما عد له من المثالب والنقائص فهو عتل زنيم، وهذا يدل على أن هذين الوصفين، وهو كونه عتلاً زنيماً أشد معايبه، لأنه إذا كان جافياً غليظ الطبع قسا قلبه واجترأ على ارتكاب كل معصية.

المَعْلَم السادس

ثم جاء بعد هذه الأوصاف والمثالب ما يبين أن ما أوتيه هذا الطاغية من النعم فكفره وجحد إحسان الله إليه فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَنْ كان ذا مال وبنين ﴾ هو الوصف الذي كان مظهر طغيانه وفجوره، واغتراره بما أوتي من نعم، وكفران النعمة إذا انضم إلى كفران المنعم كان من أعظم النقم الموجبة لمساخط الله وبطشه، والتي تودي بصاحبها فتهلكه من حيث يريد السلامة، وتذله من حيث يريد العزة.

وهذا الوصف كان هو الوصف المعين هنا في آيات سورة (ن) لإرادة الوليد بن المغيرة بموضوعيته لأوصاف الآيات كإرادته بموضوعية أوصاف آيات (المدثر)، لأن هذا الوصف كنفسه إذ جاء هناك في أوصاف الطاغية بصورة الامتنان في قوله تعالى: ﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ﴾ ولم يشتهر في قريش بكثرة المال والبنين أحد شهرة الوليد بهما، وكل الذين ذكرهم المفسرون لنزول آيات (ن) فيهم: الأخنس بن شريق، والأسود ابن عبد المطلب الأسدي، وعبد الرحمن بن الأسود، وأبا جهل، لم يكن فيهم من عرف بما عرف به الوليد في كثرة المال والبنين.

فالوليد بن المغيرة هو نموذج الأوصاف والقبائح التي ذكرت في السورتين، سورة (المدثر) وسورة (ن)، فلا ينبغي العدول عن هذا الظاهر إلى أقاويل أخرى.

ثم عقَّبت الآيات هذه الأوصاف وما ختمت به من الغرور الفاجر بنعمة الله التي أضفاها عليه من المال الوفير وكثرة البنين ـ وهما نعمة النعم في الدنيا وزينتها التي يتنافس عليها أهلها ـ بما كان نتيجة طبيعية لتلك المثالب والنقائص الخُلُقية والخَلْقية والقبائح الاجتماعية، من اجترائه على خبيثة الخبائث بوصف آيات الله إذا تليت عليه وسمعها بأنها أساطير الأولين وخرافاتهم وتكذبهم في أسمارهم، وهذا كالذي جاء في سورة (المدثر) من قول الطاغية فيما حكاه الله عنه: ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر۝ إن هذا إلا قول البشر ﴾.

وهذا التوافق في المعنى بين ما جاء في سورة (المدثر) من وصف القرآن باطلاً بأنه سحر يؤثر، وأنه قول البشر، وبين ما جاء في سورة (ن) من وصفه باطلاً بأنه أساطير الأولين هو الدليل على أن الآيات في السورتين تعني نموذجاً واحداً للشرور، تمثل في شخص الوليد بن المغيرة المخزومي لما كان متوافراً فيه من عتو الطغيان وفجور الكفر والاغترار بما أوتي من مال وبنين.

إشهار نموذج الشرور والرذائل بما تشهر به البهائم

ثم بعد أن أنهت الآيات وصف الطاغية في عناده بالقبائح التي لازمته في حياته، ووصمته في تاريخه، وطاردته بعد هلاكه ذكر الله تعالى ما توعده به باعتباره نموذجاً لتلك القبائح من الخزي في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة، فقال: ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾.

ومعنى النموذجية في تصوير من اتصف بهذه القبائح أن كل ما يتصور أن يقع على الصورة الفردية لهذا النموذج هو واقع في الدنيا والآخرة بجميع من كان على شاكلته من الماديين الوثنيين، أينما وجدوا وحيثما كانوا في أي زمان ومكان ومن أي جيل.

والوسم في اللغة العلامة المحسوسة، تكون في الحيوان من كية

بالنار، أو خدش في عضو من أعضائه، أو قطع في أذنه يُعْلَم بها ليعرف، والخرطوم هو أنف الحيوان، ثم استعير لأنف الإنسان كما يستعار المشفر للشفة، وهذا لتقبيح الوصف به.

قال أبو العباس المبرد: وقد ذكر هنا ـ أي الخرطوم ـ على سبيل الاستخفاف، لأن التعبير عن أعضاء الإنسان بالأسماء الموضوعة لأشباه تلك من أعضاء الحيوانات يكون استخفافاً، كما يعبر عن شفاه الإنسان بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر.

والأنف أكرم موضع في وجه الإنسان، والوجه أشرف وأكرم عضو في جسم الإنسان، فالأنف أكرم وأشرف عضو في جميع أعضاء الإنسان، ولهذا كان مكان العزة، والأنفة والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وهي العزة والتسامي عن الدنايا والصغائر، وإباية الضيم والاستنكاف من الرذائل، ومن ذلك قولهم: الأنفة في الأنف، وقالوا: حمي أنفه، أي عز وتأبّى على المهانة، ومدحوا به فقالوا: فلان شامخ العرنين، والعرنين الأنف، وهذا كما قال القائل: شم العرانين، أخذاً من قول الشاعر شم الأنوف كريمة أحسابهم، كما ذموا به، فقالوا في الذليل المهين، الذي لا يدفع الضيم عن نفسه ولا عن حرمه: جدع أنفه، ورغم أنفه، أي ذل وخضع وقبل ما لم يكن مقبولاً.

والآية من قبيل الكناية، فالمقصود التعبير بالوسم وإرادة لازمه، وهو الشهرة، وهي هنا شهرة بالمذام والقبائح، لإفادة غاية الإذلال والمهانة في الدنيا والنكال والخزي وسوء العذاب في الآخرة.

قال الإمام الرازي: وعندي في معنى الآية احتمال، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة النبي ﷺ، وفي إنكار الدين الحق، والطعن فيه بسبب الأنفة والحمية، فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية، فعبَّر عن هذا الاختصاص بقوله: ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾.

فالمقصود بهذا الوعيد إشهار قبائح الطاغية وكسر شوكة عنجهيته

وغروره بتعرية نقائصه وكشف سوءاته؛ حتى يتعالمه الناس ويعرفونه بما دفعه به القرآن، فلا يخفى أمره على أحد كما لا تخفى الحيوانات الموسومة على خراطيمها.

قال القتيبي: تقول العرب للرجل يسب سبة قبيحة: قد وسم ميسم سوء، والمراد أنه ألصق به عار لا يفارقه.

ولا شك أن هذه المبالغة في مذمة هذا الطاغية العنيد بقيت على وجه الدهر تلازمه وتلاحقه بالخزي والإذلال في حياته، وباللعنات والنكال بعد هلاكه.

قال القرطبي: وكل هذا أنزل في الوليد بن المغيرة، ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة.

وقد جرينا في عرض معاني هذه الآيات من سورة (ن) وبيان حقائقها في تحليل أبرز شخصية نموذجها بقبائحه ورذائله على قول معظم المفسرين الذين قالوا: إن المقصود بها هو عين المقصود بآيات سورة (المدثر) وهو الوليد بن المغيرة المخزومي، وقد رجحنا هذا بما بيناه في الآيات هنا وهناك من توافق في المعنى، ولا سيما في الوصف الموحد في السورتين، بأنه صاحب مال وفير وبنين كثيرين، يتعزّز بهم وبمشاهدتهم، فإن هذا الوصف معين لإرادة هذا الطاغية في الموضعين، ومهما يكن من أمر فإن المقصود رسم صورة لنموذج من نماذج الطبيعة البشرية الشريرة في عتوها وعنادها للحق وصدِّها عن سبيله، ليكون هذا النموذج مثلاً مضروباً على مدى الأزمان والأجيال وتطور الأفكار.

من زعم أن نموذج الشرور والخبائث هو الأخنس بن شريق في سورة (ن) لم يبعد

فالذين يقولون من المفسرين: إن المقصود بآيات سورة (ن) هو الأخنس بن شَريق كما جنح إليه ابن إسحق، ورواه في السيرة عن الشّعْبي والسُدِّي إنما قصد تعيين شخص بلغ من فساد الفطرة الإنسانية، ولؤم النحيزة، وعتو الجبرية، وفجور الغرور الوثني، والاستكبار العنجهي ليكون نموذجاً تتمثل فيه قبائح الطبيعة البشرية ورذائلها كما تمثلت في الوليد ابن

المغيرة الذي كان نموذجاً للخبائث التي وصفته بها آيات سورة (المدثر).

والأخنس بن شَريق من أكابر مجرمي أشراف ملأ المادية الوثنية المتعالية بسلطان فجور الكفر، وكان من النفر الذين عرفوا بالمبالغة في إيذاء رسول الله ﷺ، وإيذاء أصحابه، وكان مسموع الكلمة بين طواغيت الوثنية، فليس باطلاً أن يكون نموذجاً من نماذج هذه القبائح التي ذكرت في آيات سورة (ن)، لكنه لم يكن معروفاً بكثرة البنين ووفرة المال وغمرة الثراء الفاحش كما عرف بذلك الوليد بن المغيرة، فذكر هذا الوصف في خاتمة أوصاف نموذج الشر والإفساد يعكّر على إرادة الأخنس أو غيره من طواغيت قريش سوى الوليد بن المغيرة.

وكان الأخنس عديداً في بني زهرة، حليفاً لهم، وليس من أنفسهم، فلعل مَنْ ذكره نموذجاً للمثالب والنقائص المذكورة في آيات سورة (ن) وَهَل مغتراً بوصف (زنيم) باعتبار بعض معانيه، وهو اللصيق بالقوم الذي يعد فيهم وليس من دمهم وعصبتهم.

وكان الأخنس يجمع إلى فجور الكفر مكر النفاق وخبث المنافقين، قال جمع من المفسرين وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾[1].

والأخنس لقب لقب به هذا الطاغية الكفور، واسمه أُبيٌّ، وإنما لقب بالأخنس كما قيل لأنه خنس بحلفائه بني زهرة يوم بدر عن قتال رسول الله ﷺ.

قال القرطبي: وكان الأخنس رجلاً حلو القول والمنظر، فجاء بعد خنوسه بحلفائه إلى النبي ﷺ فأظهر الإسلام، وقال: الله يعلم أني

---

(١) سورة البقرة، آيات: ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦.

صادق، ثم هرب بعد ذلك، فمر بزرع قوم من المسلمين وبحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر.

قال المهدوي: وفيه نزلت ﴿ ولا تطع كل حلَّاف مهين * هماز مشاء بنميم ﴾[1]، و ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾.

أما غير الأخنس من طغاة الوثنية الذين كانوا يتزعمون فجور الكفر ممن قيل فيهم إنهم كانوا نماذج للنقائص والقبائح التي عددتها آيات سورة (ن)، فهم أقل صولة من الأخنس في منافسة الوليد بن المغيرة وعناده وعتوه، وإن كانوا يغالبونه في سوء العداوة وفجور الظلم العاتي في الوقوف أمام تبليغ رسالة الله تعالى إلى عباده، وقد عُدَّ بعض هؤلاء الذين قيل إنهم نماذج القبائح في آيات (ن) في المستهزئين الذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ فهلك طغاتهم بمهلكات عاجلة قضت عليهم وطهرت الأرض من شرورهم.

قال أبو عمر بن عبد البر: وكان المستهزئون الذين قال الله فيهم: ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾[2]عمه أبا لهب، وعقبة بن أبي معيط، والحكم ابن أبي العاص، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن وائل، والحارث بن الغيطلة السهمي، فكان جبريل مع رسول الله ﷺ فمر بهما من المستهزئين الوليد بن المغيرة، والأسود ابن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الغيطلة، واحداً بعد واحد، فشكاهم رسول الله ﷺ إلى جبريل، فقال: كُفيتهم، فهلكوا بضروب من البلاء قبل الهجرة.

وقد رجّحنا في تحقيقنا أن الوليد بن المغيرة كان هو أحق بتلك المخازي وأهلها من الأوصاف التي صورته نموذجاً للفجور العنيد والكبرياء العاتية في سورتي (المدثر) و(ن)، لأن بعض الأوصاف كانت في

---

(١) سورة (ن)، آيتا: ١٠ ـ ١١.

(٢) سورة الحجر، آية: ٩٥.

واقعها خصيصة به، لا يزاحمه فيها الأخنس ولا غيره من طغاة المادية الوثنية.

منافسة النضر ابن الحارث الوليد ابن المغيرة في أخبث رذائل الشرور

وإذا انفرد الوليد بن المغيرة بغمرة الشر والفساد حتى جعلت منه نموذجاً لدنس الطبيعة البشرية، لكنه لم يُترك له الميدان يجول فيه ويصول وحده، مسعنجراً على أريكة الغرور في زعامة العتوّ والفجور، بل برز له قرن، يجاذبه رداء الطغيان حسداً أن ينفرد الوليد بن المغيرة بنقمة الحياة في معاداة الحق، وأن يستحوذ على لعنات الله تعالى وسخطه وحده دون مزاحم، فانبرى له شيطان الإفساد والفساد: النضر بن الحارث، الذي لم يرض له حسده وفجور كفره أن ينفرد الوليد بن المغيرة بزعامة الوثنية، فتجتمع له قريش ممثلة في ملئها ومن ورائهم سفهاؤها وغوغاؤها يستمعون إليه، وهو يملي عليهم ما يقابلون به وفود العرب الذين يؤمون الموسم، وهم يحدثونهم في شأن محمد ﷺ، ودعوته ورسالته خشية أن تسري هدايته إلى قبائل العرب في منازلهم ومجامع أحيائهم ومحافل مجتمعاتهم.

انتهض النضر بن الحارث بعد أن انفض سامر ملأ قريش الذين اجتمعوا فيه لمكالمة النبي ﷺ وعرضهم عليه ما عرضوا من علياء دنياهم: مالاً، وثراء، وشرفاً، وسيادة، ومُلكاً وسلطاناً، في سبيل أن يكف عنهم.

وكان النضر بن الحارث بعد أن سمع مقالة الوليد بن المغيرة لملأ قريش التي يلقون بها وفود العرب قد سمع غميز الرجولية أبا جهل يقول ستراً لموقف عمه الطاغية: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسنَّ له غداً بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك، أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبداً، فامضِ لما تريد.

فلما أصبح غميز الرجولية أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ لما كان يغدو إليه، فقام يصلِّي، وجلست قريش في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ

احتمل غميز الرجولية حجره، وأقبل به نحو رسول الله ﷺ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً، منتقعاً لونه مرعوباً، قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يديه، وقامت إليه رجال قريش فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا، والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قَصَرته، ولا أنيابه لفحل قط، فهمَّ بي أن يأكلني.

تكذّب غميز الرجولية أبي جهل

وأبو جهل عربيد، يتكذّب، ورعديد يتكثَّر، ويدّعي ما ليس في طاقته، ولا يكون منه، وأنّى لغميز الرجولية أن يتماسك، ويتشاجع، ويسترجل، وسوابقه في الجبن والخور مع رسول الله ﷺ مروية عنه في حادث الأراشي الذي ظلمه حقه، وفي حادث صاحب الأجمال القرّح الذي سامه عليها سوماً ظلوماً ومنع الناس من سومه فوق ما ساومه عليه من وكس وتكسيد، فاستغاث الأراشي وصاحب الأجمال برسول الله ﷺ، فأغاثهما، وأرغم أبا جهل على إعطائهما حقهما وهو صاغر ذليل خزيان مخذول.

وقد رويت هذه القصة بصورة أخرى تجعلها عرضة للشك في بطولة أبي جهل الفاشلة التي تضفيها عليه الرواية السابقة، يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾[1] قيل: نزلت في أبي جهل ابن هشام وصاحبيه المخزوميين، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلِّي ليرضخنَّ رأسه بحجر، فلما رآه ذهب فرفع حجراً ليرميه به، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه، والتصق الحجر بيده، فهو على هذا تمثيل أي هو بمنزلة من غلت يداه إلى عنقه، فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى.

فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة: أنا أرضخ رأسه، فأتاه وهو يصلي على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته

---

(١) سورة يس، آية: ٨.

ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه، فقال: والله ما رأيته، ولقد سمعت صوته.

فقال الثالث: والله لأشدخنَّ أنا رأسه ثم أخذ الحجر وانطلق، فرجع القهقرى، ينكص على عقبيه حتى خرّ على قفاه مغشياً عليه، فقيل له: ما شأنك؟ قال: شأني عظيم، قال: رأيت الرجل فلما دنوت منه، وإذا فحل يخطر بذنبه ما رأيت فحلاً قط أعظم منه، حال بيني وبينه، لو دنوت منه لأكلني.

ومهما يكن من أمر هذه القصة فهي تمثل في روايتها ظاهرة من ظواهر فشل ملأ المادية الوثنية في طغيانها وعتوها وغدرها ممثلاً هذا الفشل في عربدة غميز الرجولية أبي جهل بن هشام، أو غيره من ألد أعداء محمد ﷺ.

ولم يكن ذلك الفشل والعربدة المخزومية بخافية على شيطان شياطين قريش، النضر بن الحارث، لأن هذا النضر في خبثه وشيطنته كان أعرف قريش بلؤم أبي جهل وتكذبه وخوره وجبانته.

موقف النضر من أبي جهل وعمه الوليد

وعرف النضر أن أبا جهل كان في هذه الأقصوصة كدأبه متكذباً، خادعاً مخدوعاً، يتكثر متنفجاً، يحاول أن يغطّي سوءات رجوليته على قومه، فقام النضر إلى قريش ليخرجها من ورطتها في الخضوع لزعامة الوليد ابن المغيرة، وتكذبات أبي جهل، فقال: يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ـ وهذا غمز لما أشار به الوليد على قريش في تحذيرها وفود القبائل من محمد ﷺ، وغمز لأقصوصة أبي جهل ـ قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم الشيب في صدغيه، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا، والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا، والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا، والله ما هو بشاعر، وقد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا، والله ما هو

بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش: فانظروا في شأنكم. فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم.

وانتهى النضر من حديثه إلى ملأ قريش وقد بيّن لهم أن محمداً ﷺ ولد، ونهد، وشبّ بينهم على أكمل ما كان رجل من مكارم الأخلاق، وفضائل الشمائل، وهم جميعاً يعرفون له ذلك ولا ينكرونه، فلما استوى كهلاً، واكتمل عقلاً، وجاءهم بالهدى قالوا فيه ما تقوّلوا عليه من أمور ما هو منها في سبد ولا لبد.

بيد أن النضر لم يعرض على ملأ قريش شيئاً يقولونه في شأن محمد ﷺ كما عرض الوليد عليهم أن يقولوا: إن ما جاء به محمد ﷺ ما هو إلا سحر يؤثر.

وكأن النضر بعد أن فنّد كل أبطولة تتقوّلها قريش على محمد ﷺ كما فنّد الوليد ذلك من قبله لم يجد من متقبلات العقول أن يكذّب نفسه ويناقض قوله، كما كذب الوليد نفسه وناقض قوله، فهو قد نفى أن يكون محمد ﷺ ساحراً، وهذا يلزمه عقلاً ووضعاً أن لا يكون ما جاءهم به من القرآن الحكيم سحراً، فقولُ الوليد ـ بعد أن فكر، وقدّر: ونظر، وتدبر، وعبس وقطب، وبسر وكلح. . ـ: إن هذا إلا سحر يؤثر، تكذيب لنفسه وتناقض في قوله.

والنضر بهذا الموقف يغمز الزعامة المخزومية في شخص طاغيتها، ويفيّل رأيه، ويسخر من عمله ويهزأ بقوله الذي أشار به على قومه.

وسكت النضر، وترك الحيرة تسعى إلى عقول ملأ قريش لعلهم إليه يرجعون، وكان قد أضمر في نفسه أمراً منكراً أوحى به شيطان الفجور الوثني ليجرّ به قريشاً إلى الاعتراف بزعامته، ويقودها بمقود الخداع إلى أن تخليع زعامة مخزوم في شخص طاغيتها الوليد.

قال محمد بن إسحاق: وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي النبي ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسبنديار، فكان إذا

جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكّر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسنُ حديثاً منه فهلمَّ إليّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن كل ما في القرآن من ذكر الأساطير - أي في وصف آياته بها - قد نزل في النضر بن الحارث.

والنضر بن الحارث بهذا الموقف يقف مزاحماً للوليد بن المغيرة زعيم الرجس والكفر في قريش عامة، وبني مخزوم خاصة في افترائه الكذب على الله، وتكذيب النبي ﷺ وزعمه أن القرآن الحكيم أساطير الأولين، وأحاديث الأقدمين في خرافاتهم وقصص أسمارهم، كما ذكر ذلك عنه القرآن الكريم، فقال: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملَى عليه بكرة وأصيلا﴾[1] وقائل ذلك هو هذا الشيطان المريد، النضر بن الحارث، وإنما نسب إليهم معه لموافقتهم له وتأثرهم أثره في الافتراء والكذب، محاكاة له فيما يزعم ويفتري.

وقد استحوذ هذا الشيطان اللعين بهذه الخرافات والأباطيل المعسولة على عقول السذج من سفهاء قريش وظنوا به العلم والمعرفة، ومن ورائهم ملأ الطغيان الوثني من أهل العتو والعناد وفجور الكفر، يسخرون بهم ويضحكون من بلاهتهم، ولكنهم لا يكذبونهم وهم يعلمون أنهم كاذبون.

وفادة النضر على رأس نماذج الشر إلى أخابث أحبار اليهود ليسألوهم عن محمد ﷺ

ولهذا لما جلس الشيطان المريد يقص عليهم أحاديث الخرافات والأباطيل قال له ملأ قريش: إن أحبار يهود أهل الكتاب الأول، وعندهم علم من علم الأنبياء ليس عندنا، وبعثوه إلى يهود المدينة، ومعه أشقى عتيّ كفور عقبة بن أبي مُعَيط، ليسألاهم عن محمد ﷺ وعن دعوته ورسالته، فذهبا إليهم، وقالا لهم: أنتم أهل التوراة فأخبرونا عن صاحبنا هذا؟ فقالت أحبار يهود لهما: اسألوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنّ، فإن أخبركم

(١) سورة الفرقان، آية: ٥.

بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فَرَوْا فيه رأيكم.

١ - سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجب.

٢ - وسلوه عن رجل طوَّاف، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟

٣ - وسلوه عن الروح، ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتّبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وصاحبه عقبة، تحفهما لعنات الله ومساخطه بعد أن قاما بمهمتهما مع أحبار يهود حتى قدما مكة على قريش فقالا - وقد ملكهما الغرور الفاجر، والزهو العتي لإتيانهما بما لم يأت به الطاغية الأفجر، الوليد ابن المغيرة -: يا معشر قريش، لقد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، فقد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، وقالوا: فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فَرَوْا فيه رأيكم، فجاءت قريش بملئها وسفهائها، تجرر أذيال الغرور التياه، وتدَّع البطر والاستكبار، يقدمها الخبيثان، شيطاناها، وأشقياها: النضر وعقبة - إلى رسول الله ﷺ، نافجة أحضانها، منتفخة أوداجها، وذكروا له مسائل يهود مستخبرين عنها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثن أي لم يقل ﷺ: إن شاء الله.

درس تربوي لتوجيه النبي ﷺ إلى الاعتصام في جميع أحواله بمشيئة الله

وهنا نجد درساً تربوياً إلّهياً، فيما يتعهد به الله تعالى نبيه ورسوله ﷺ في تعليمه وتأديبه وتربيته حتى يكمله في خصائص الدعوة إلى الله تعالى، ليكون أسوة لأمته عامة وللقائمين بوراثة تبليغ رسالته عنه ﷺ من علماء الأمة وأعلام خاصة المصلحين.

فعدم ذكر رسول الله ﷺ المشيئة وهو يَعِد القوم بالرد على استخبارهم عن أسئلتهم التي لقنها لهم أهل العلم بالكتاب الأول من أحبار يهود، لم يكن منه ﷺ عن قصد متعمد، وإنما لعله كان عن نسيان دعت إليه دهشة المفاجأة، وجو الموقف، وشدته، ولم يكن يتوقع رسول الله ﷺ أن تأتيه قريش في جهالتها الوثنية المادية بمثل هذه المسائل

التاريخية العلمية الغامضة إلا على الذين لهم علم ومعرفة.

ويرشح هذا أن الله تعالى بعد أن أنهى درس تعليم نبيه ﷺ أن يكون رأيه في جميع أفعاله تعليق ذلك على مشيئة الله، لترتبط أعماله كلها بإرادة الله المطلقة التي لا تتقيد بزمان أو مكان أو مكانة شخص مهما كان مقامه من الله تعالى - قال لنبيه ﷺ: ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾[1] لتكون في جميع أحوالك مستمداً أمداد الفَلَج والفوز من ربك القوي العليم الحكيم.

والنبي ﷺ في تبليغ رسالته قدوة لأمته في طرائق دعوتها إلى الله قياماً منها بوراثة التبليغ عنه ﷺ، ورسالته ﷺ علم وعمل، فالله تعالى يعلمه ما لم يكن يعلم، وقد امتن عليه بذلك في قوله تعالى: ﴿ وأنزل عليك الكتاب والحكمة، وعلّمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾[2] ويهديه إلى صالح العمل ليقف عنده، لا يجاوزه، لتكون أمته مهتدية بهديه، سائرة على قدمه.

حكمة احتباس الوحي لعدم ربط الوعد بالمشيئة

وهذه هي السبيل التي تلتمس في منعرجاتها الحكمة في احتباس الوحي عن رسول الله ﷺ فترة، فلم ينزل عليه بالإجابة عن أسئلة القوم في الموعد الذي حدّده رسول الله ﷺ دون أن يربطه بمشيئة الله تعالى، ثم جاءت الإجابة محكمة سديدة موفقة مستوفاة لما ينبغي أن يعلم في موضوعاتها.

فقد جاءت مفصلة مسهبة فيما يقتضي العلم تفصيلها كقصة الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول، وما فيها من أعاجيب وغرائب ودلائل على عظمة القدرة الإلهية. وكقصة الرجل الطوّاف في الأرض وما بلغ من مشارقها ومغاربها، وما لقي من أقوام وما أصلح من أمور، وما أقام من عدل وما أسدى من رحمة وإحسان.

وجاءت مجملة فيما يجب فيه الإجمال مما لا تطيق العقول إدراك تفاصيله، وهو الروح، وأنزل الله تعالى في قصة الفتية والرجل الطوّاف سورة بأكملها،

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٤.

(٢) سورة النساء، آية: ١١٣.

من متوسط سور القرآن التي لا تعد في طواله، ولا تقرب أن تذكر في قصاره، هي سورة الكهف، وأنزل في مسألة الروح بعض آية ثم كمل الآية بالتنبيه إلى غرور الإنسان بما يعلم، وهو أقل من القليل في جنب ما لم يعلم، حتى يكفكف من هذا الغرور، ويبعثه ذلك إلى البحث والتعلم ليزداد علمًا ومعرفة مابقي في الحياة، وما بقيت له الحياة، فقال تعالى: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[1].

وهذه إجابة فهمها من أعدّ الله تعالى عقله وقلبه وروحه لفهمها، واستغلقت على من حاول أن يقحم عقله مستقلاً منفرداً على مكنونات غيب الله في خلقه.

ومن هنا اتسع الخلاف جداً، وكثرت الآراء والأقاويل والمذاهب في الروح المسؤول عنها، ثم اتسع أكثر وأكثر في بيان معنى الروح وحقيقتها، الروح التي تكون بها حياة الانسان، حتى بلغت المذاهب فيها أكثر من مائة قول ورأي ومذهب.

والذين خاضوا في لجة هذا البحث دون أن يعتمدوا في سبحهم على هداية من الله تعالى قد ضلُّوا السبيل، فمنهم من غرق في اللجة، ومنهم من نجا عرياناً من اليقين.

وفي قصة الإجابة عن أسئلة أحبار يهود التي لقّنوها لشقيي قريش اللذين بعثتهما إليهم ليسألاهم عن محمد ﷺ وصدقه في رسالته ـ كثرت الروايات واستطال رشاؤها واعرَضّ أديمها، ولا سيما في مقدار المدة التي حبس فيها الوحي عن رسول الله ﷺ حتى قدرت في أشهر الروايات بخمسة عشر يوماً، وقد جاءت الإجابة وعرف صدقها، ولكن ملأ المادية الوثنية من طغاة قريش ظلُّوا على عتوهم الكفور حتى أذن الله تعالى بتطهير الأرض من أوضار من عَلِم الله منهم أنه عنيد الكفر، لا يؤوب إلى هدى، ولا يثوب إلى رشد.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٥.

مَنحٌ في ثنايا المِحَن

كانت هذه الفترة من سيَرْ الرسالة مشحونة بشدائد المحن، وفوادح البلاء وقف فيها رسول الله ﷺ وحده، يكافح في سبيل دعوته، وتبليغ رسالته صابراً محتسباً، لا يكل له عزم، ولا تعيى له إرادة، ولا يمل ولا يفتر، ولا يهاب جموع أعدائه على كثرتهم الهائلة، ولا يبالي طغيان قوتهم الفاجرة، ولا يهتم بفجور مقاومتهم الطاغية. ولكنه عليه الصلاة والسلام كان نفّاذاً إلى هدفه، لا يكاد يخرج من محنة حتى يدخل في بلاء أشد وأعظم، ولا يلبث أن يودِّع حادثاً حتى تواجهه أحداث، وقوى الشر والجبرية الطاغية تتابعه أينما حلّ وحيثما توجه بدعوته، وأصحابه قلة يسومها طغاة المادية الوثنية سوء العذاب، ويذيقونها شديد الأذى، وهم صابرون محتسبون تأسياً برسول الله ﷺ في صبره وقوة عزمه، وانتظاراً للفرج من الله في وعده.

كان الإرجاف لوناً من ألوان معوقات سير الرسالة

وقد استنفد المشركون معهم كل لون من ألوان العذاب، فلم يصرفهم ذلك عن دينهم وعقيدتهم كما استنفدوا مع رسول الله ﷺ كل عتو فاجر، وكل حيلة وتهاون، وكل ترغيب وترهيب، فلم يقعده ذلك عن المضي قدماً في نشر دعوته وتبليغ رسالته، حتى استيأس الطغاة من عزيمته أن تقف دون غايته، فعمدوا إلى تعويق سير الرسالة بنشر الإشاعات الكاذبة، والإرجاف الخبيث، يذيعونه في وفود القبائل العربية الوافدة على مكة لحضور الموسم، ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد، فجعل من تدبير شرورهم وإفسادهم خيراً وإصلاحاً، وعادت الوفود إلى قبائلها وبطونها،

وعشائرها في منازلهم ومواطنهم، ومعهم ذكر من رسول الله ﷺ وما يدعو إليه من الخيــر والهدى ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وإقامة موازين العدل، وإخلاص العبادة لله تعالى وحده.

وسرى مع ذلك الحديث عناد قريش وطغيانها إلى الآذان في المواسم والمحافل التي تجمع جموع الخطباء والشعراء والتجار والمتحنفين، وتسربت إليهم الأنبـاء عن هَدْي رسـول الله ﷺوسمته، ومقـابلة الأذى بالعفـو والصفح الجميل.

وسدت قريش بطغيانها على نفسها منافذ الإيمان وتقبل الحق، وعتت عن أمر ربها ورسالته، وبغت في الأرض بغير الحق، فلم يبقَ لديها مسرب للاهتداء، فأيأس الله تعالى رسوله ﷺمن رجاء إيمانهم، وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي الى الأذقان فهم مقمحون• وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون• وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾[1].

وكان هذا بياناً من الله تعالى يعلن على مسامع الدنيا أن هؤلاء الأخابث من طغاة المادية الوثنية قد طبع الله على قلوبهم، فلن يهتدوا إذاً أبداً، وختم على سمعهم فلن يسمعوا سماع هداية ورشد أبداً، وطمس على أبصارهم فلن يبصروا دلائل عظمة الله ووحدانيته قائمة في مظاهر الطبيعة وآياته الكونية، وهي تنادي بلسان حالها قوية قاهرة، فهم عُمْيٌ، بكم، صم، لا يرجعون عن غيهم، وعتو كفرهم. وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعرض عنهم، وأن يتركهم إلى ما أقاموا أنفسهم له، وما وقفوا حياتهم عليه من العكوف على إرادة الدنيا وحطامها لا يريدون غيرها، فهم لا يرغبون في هدى، ولا يريدون حقاً، ولا يرضون أن يسود حياة الناس عدل ولا أن تتداركها رحمة، لأن الدنيا وجمعها كانت مبلغ علمهم بالحياة، ومنتهى غاياتهم منها، فهم في جهالـة جاهلة ، ووثنيـة بليدة، ومـادية

---

(١) سورة يس، آيات: ٨ ـ ٩ ـ ١٠.

مظلمة، فقال الله عز شأنه لنبيه ﷺ: ﴿ فأعرض عمَّن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم، إن ربك هو أعلم بمُن ضَل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾[1] قيل: نزلت في النضر بن الحارث، شيطان الأساطير والخرافات والوليد بن المغيرة طاغية السحر المأثور، وهي من باب النماذج الممثلة لصور الشر والفساد الركيز في بعض الطبائع البشرية.

توجيه إلهي لسير الدعوة وتبليغ الرسالة

وكان هذا توجيهاً لرسول الله ﷺ إلى الانتقال بدعوته وتبليغ رسالته بعيداً عن عنجهية غطارفة قريش وهم غارقون في وثنيتهم الفاجرة التي يتاجرون بها العرب من وراء أسوار التنفج المستكبر، والتعالي العتي بأنهم سدنة البيت الحرام، ومطعمو الحاج. وكان هذا التوجيه نقطة تحول في سير الرسالة، انطلقت منه إلى آفاق أرحب من آفاق مكة وقريشها، وإلى جو أفسح من جو الطغيان الفاجر التي كانت تعيشه قريش في بلدها، فخرج رسول الله ﷺ يعرض نفسه ودعوته على الناس في منازلهم ويبلغهم رسالة ربهم في مجتمعات مواسمهم وأسواقهم، وقد أصبحوا في ذكرٍ منه ﷺ، وذكر من دعوته بما أحدثه طيش ملأ قريش في ترصدهم لقبائل العرب يحذرونهم منه ومن سحر كلامه، وفي الناس عقول، وللعقول وزن لما تسمع وما ترى، وقد أبى على كثير من العقلاء كرم إنسانيتهم أن يلغيَ عقله من أجل صيحات حاقدة تطلقها حناجر بعض الدعاة الى الشيطان من سفهاء قريش هنا وهناك، يعيبون بها محمداً ﷺ ويشوِّهون بها دعوته وما جاء به من الهدى والإصلاح، فليسمع العقلاء من محمد ﷺ ثم يحكموا له أو عليه، أما أن يقول الحاقدون من غثاء المادية الوثنية قولاً ثم يطلب إلى الناس من غير إعطائهم فرصة النظر الفاحص، والتدبر الباحث أن يأخذوا هذا القول مقطع الفصل؛ فهذا ما لا ينبغي للعاقل أن يقبله وأن يأخذ به نفسه.

---

(١) سورة النجم، آيتا: ٢٩ ـ ٣٠.

وقد كان لهذا التوجيه بالخروج بالدعوة إلى مجالها الفسيح ومواجهة العقول بها مواجهة مباشرة، بعيدة عن التأثير التقليدي لمواريث الوثنية المتحمسة في قريش وملأ طغاتها أثر واسع المدى، عظيم الخطر، وإن كان مختلفاً اختلافاً بعيد الأطراف، ولكنه كان ـ على ما لقي فيه رسول الله ﷺ وأصحابه من شدة ومحن كانت في بعض صورها أشد وأعنف مما لقوه من قريش في مكة ـ مليئاً بالخير والتقدم بالدعوة إلى خطواتها القوية الرصينة التي كانت أساساً لدعائم تكوين المجتمع المسلم، وتحديد خصائصه، وتحصين كيانه، وحماية وجوده.

وكان هذا التوجيه منفذاً من منافذ سريان الدعوة إلى العقول والقلوب اتخذ فيه سَيْرُ الرسالة سَمته إلى تثبيت أقدامها راسخة هادئة في صبر لا ينفد، وعزائم لا تفتر.

قصة الطفيل الدوسي
أثر من آثار هذا التوجيه

قال الإمام محمد بن إسحاق في سيرته: وكان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه، يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه، وجعلت قريش ـ حين منعه الله منهم ـ يحذرون الناس، ومن قدم عليهم من العرب.

كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدِّث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش ـ وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً ـ فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وأبيه، والرجل وأخيه، والرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلّمنه، ولا تسمعنّ منه شيئاً.

ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين

قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه؛ حتى حشوت في أذنيّ كرسفاً حين غدوت إلى المسجد فرقاً من

أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه، فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثكل أبي؟؟ والله إني رجل لبيب شاعر، وما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يقوله حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته، فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا، وكذا ـ للذي قالوا ـ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددتُ أذني بكُرْسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرضْ عليَّ أمرك، قال: فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا القرآن عليّ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه.

آية إعجاز للطفيل مع قومه جمعهم الله بها على الإيمان

فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادعُ الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم، فيما أدعوهم إليه فقال ﷺ: «اللهم اجعل له آية».

قال الطفيل: فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر وقع نور بين عينيّ مثل المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنها مُثْلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم، فتحول فوقع في رأس سوطي، فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق وأنا أهبط إليهم من الثنية حتى جئتهم فأصبحت فيهم.

فلما نزلت أتاني أبي، ـ وكان شيخاً كبيراً ـ، فقلت: إليك عني يا أبت، فلست منك ولست مني. قال: ولم يا بني؟ قلت: فإني أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ، فقال أبي: أي بني.. فديني دينك، فقلت: فاذهب فاغتسل، وطهِّر ثيابك، ثم تعالَ حتى أعلمك ما علمت فذهب، فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

قال الطفيل: ثم أتتني صاحبتي، فقلت: إليك عني، فلست منك، ولست مني، قالت: لمَ؟ بأبي أنت وأمي.. قلت: قد فرق الإسلام بيني وبينك، وتابعت دين محمد ﷺ، قالت: فديني دينك، قلت لها: اذهبي إلى حمى ذي الشرى فتطهري منه فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام، فأسلمت.

ثم دعوت دوساً إلى الإسلام فأبطئوا عليّ، ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة فقلت: يا رسول الله.. غلبتني دَوْس فادع الله عليهم، فقال: «اللهم اهد دوساً، ارجع الى قومك فادعهم وارفق بهم».

فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي ورسول الله ﷺ بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين.

* * *

الخير ينبت في أرض جدباء فتخصب وتشرق بها شمس الهداية

هذه القصة ـ التي اتفقت كلمة رواة أحداث السيرة النبوية على حقائقها ومعانيها، ووقائعها فأثبتوا بهذا الوفاق ثبوتها وصحة وقائعها ـ واحدة من الأحداث التي كانت أثراً من آثار العتو الوثني الذي ادّرعه ملأ قريش وطغاتها في موقفهم من النبي ﷺ وهم يحذرون الناس منه، فجعلهم الله تعالى وهم راغمون كارهون ألسنة دعاية ونشر لدعوته وتبليغ رسالته، فانقلب عليهم قصدهم، ورد الله كيدهم في نحورهم.

وكان الطفيل الدوسي واحداً من ألبَّاء العرب وعقلائهم الذين لم يرضوا لأنفسهم الذلة والخنوع لطغيان ملأ قريش إذ تلقفوه في قَدَماته مكة وهم يعرفونه لبيباً حكيماً، ذا مكانة مرموقة في قومه وكلمة مسموعة فيهم، فخافوا عليه وعلى قومه أن تبلغهم دعوة محمد ﷺ وهداية رسالته، وأن يسمعوا شيئاً مما يتنزل عليه من كلام ربه نوراً وهدى للناس ورحمة

للعالمين، وهم أعلم الناس بروعة البيان القرآني، وسحر هدايته، وأثرها في العقول والقلوب.

فاستقبلوا الطفيل محذِّرين، مخوِّفين، مرجفين بالباطل والزور، واشتدوا في تخويف الطفيل وتحذيره من رسول الله ﷺ، ومن آثار الاستماع إليه، حتى خُدع الرجل في بادىء الرأي عن عقله، وهو يصف ذلك فيقول: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني كُرْسفاً (قُطْناً) فَرَقاً من أن يبلغني شيء من قوله.

ولكن الخداع المضلل إذا غشَّى بصيرة العقل المستبصر لحظة أو لحظات فسرعان ما ينبلج في آفاقه ضوء الحقيقة مبدداً هذا الغشاء الأسود، ناشراً نور هدايته، فاتحاً أمام العقل أبواب الرغبة في معرفة حقيقة ما حُذِّره وخُوِّفه ليخبر الأمور بإدراكه ووسائله، لا بإدراك المحذِّرين المخوِّفين ويعرف الحقيقة بقلبه لا بقلوب الملقنين.

نور الهداية ينفذ إلى قلب الطفيل فيضيء قلوب قومه

وثاب الطفيل إلى نفسه، وأفاق من غشيته، وراجعه رشده، وأبى عليه عقله أن يستسلم لنزعة يغلفها الحقد الكفور في قلوب قوم يحاولون تضليل العقول، يصدونهم عن الهدى إذ جاءهم، وأبى الله إلا أن يقذف في عقل هذا الرجل اللبيب الحكيم نور التطلّع إلى المعرفة الكريمة المتحررة من ذل التحذير وضعف التخويف، فأسمعه بعض قول رسول الله ﷺ.

قال الطفيل: فسمعته قولاً حسناً، وهنا تندّم الطفيل وتحزن ولاوم نفسه، كيف وهو الرجل اللبيب الحكيم الذي لا يخفى عليه التمييز بين الحسن والقبيح؟ فما يمنعه أن يسمع من محمد ﷺ ما يقول، ثم يحكم عليه أو لَهُ بعد ذلك بما يمليه عليه عقله الحكيم، فإن كان الذي سمع حسناً قبله ودان به، ولو ورمت آناف الملأ من قريش تغضُّباً عليه.

وانتظر الطفيل حتى انتهى رسول الله ﷺ من صلاته وانصرف إلى بيته، فتبعه الطفيل إليه ومعه عقله ولبابته حتى دخل عليه بيته، وحدّثه

حديث الملأ من طغاة قريش وتحذيرهم إياه من سماع قول رسول الله ﷺ، وأن الله تعالى أبى إلا أن يذهب بقولهم وتحذيرهم مع تصاريف الرياح، فتذروه حتى كأن لم يكن شيئاً، وأسمعه الله قول رسول الله ﷺ، فسمع قولاً حسناً، ما سمع قط قولاً أحسن منه ولا أمراً أعدل منه.

وطلب الطفيل بعد أن اقتنع عقله، وطابت نفسه، وتنوّر قلبه من رسول الله ﷺ أن يعرض عليه أمره، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلم الطفيل مكانه، وشهد شهادة الحق، وباءت قريش بالخيبة والخسران المبين، ووقع ما كانت تخافه وتحذره، وانفلت من عقال خداعها الرجل اللبيب الشاعر الذي تخشى لبابته وشاعريته، وأسلم الطفيل الدّوْسي الذي لم يكتفِ بأن يسلم وحده، ولكنه أراد الخير والهدى لأهله وقومه وهو زعيمهم المطاع فيهم، وأخبر رسول الله ﷺ أنه راجع إلى قومه، وداعيهم إلى الإسلام، وسأل رسول الله ﷺ أن يجعل الله له آية تعينه على قومه فيما يدعوهم إليه من الإيمان بالله ورسوله، ودعا له رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اجعل له آية» فاستجاب الله دعاء نبيه محمد ﷺ، وجعل للطفيل آية نورانية، وبدأ الطفيل إذ حلّ بين قومه بدعوة أبيه وصاحبته إلى الإسلام، فأسلما وعلّمهما شرائع الدين التي عُلِّمها، ثم عمد إلى قومه وعشيرته فدعاهم إلى الإسلام فأبطؤا عليه، ورجع إلى رسول الله ﷺ بمكة، يشكو إليه غلبة قومه له وعدم استجابتهم لدعوته، وطلب من رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم، ولكن رسول الله ﷺ ـ وهو المرسل رحمة للعالمين وهو الرؤوف الرحيم، وهو الرحمة المهداة إلى الحياة ـ أجاب الطفيل بغير ما يترقب، فدعا لقومه دوساً أن يهديهم الله وقال: «اللهم اهد دَوْساً» ولم يدعُ عليهم بهلاك يدمرهم أو عذاب ينزل بهم لإبطائهم في إجابة الداعي إلى الله، ثم أوصى الطفيل بأخص خصائص الدعاة إلى الله وما يجب عليهم أن يتخلّقوا به في حملهم راية الدعوة وتبليغ الرسالة، ذلك هو الرفق بعباد الله والشفقة على خلق الله، والرأفة بهم، والرحمة لهم، فقال له: «ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم» ورجع الطفيل إلى قومه بوصية رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله، وإلى دينه، وكان بهم رفيقاً، فأجابوه،

قضهم بقضيضهم، رجالهم ونساؤهم، كبارهم وصغارهم، وأسلموا، ثم هاجروا، وأدركوا رسول الله ﷺ وقد فرغ من فتح خيبر، قائماً على غنائمها يقسمها بين جند الله وكتائب الجهاد في سبيل الله، وعرف سيدنا رسول الله ﷺ للطفيل وقومه مكانتهم في الإسلام بين صفوف المجاهدين لإعلاء كلمة الله تعالى، فأكرمهم وأسهم لهم من غنائم خيبر كإخوانهم المقاتلين في سبيل الله.

وبهذا كانت دَوْسٌ وزعيمها الطفيل كتيبة من كتائب الإسلام التي شاركت في هزيمة المادية الوثنية هزيمة منكرة، ونشرت راية التوحيد، وكسرت قناة الطغيان في ملأ قريش كسرة لم تقم لهم بعدها قائمة، فقد أخذتهم السيوف المسلمة في وقائعها المنتصرة، وطهرت البلد الحرام من رجس طغيانهم، وتعطَّف الله تعالى فأخرج من أصلابهم بطولات الدعوة والهداية والفتح المبين، وهكذا يخرج الله الحي من الميت وهو على كل شيء قدير.

مضاء عزيمة رسول الله وصبره
كانا أعظم عوامل نشر دعوته

هذا نموذج من سياسة الحكمة التي انتهجها رسول الله ﷺ في تبليغ رسالته ونشر دعوته بعزيمة لا تعرف التردد في الأمور، وصبر يحتمل ما لا تحتمل شم الراسيات، أوذي ويؤذى فصبر، ويصبر على أذى السفهاء من غوغاء قريش، وسيم بالبلاء من ملئها فلم تفل له عزيمة، ومضى قُدُماً في عزيمة ماضية وصبر صبور، فكان ذلك من أعظم عوامل نشر الدعوة بين مجتمعات العرب في مواسمهم وأسواقهم ومنازلهم.

وكان هذا الصبر قوة تدفع بالدعوة إلى آفاق أوسع وأفسح من آفاق مكة وقريشها، وكأنما كان هذا الصبر المكافح يحمل الدعوة إلى الله في أشد أزماتها على أجنحة النصر المؤزر على رغم قوى الشر المؤلبة لمقاومتها.

وكان هذا الصبر الصبور مدداً من القوة لا ينفد، يمد الدعوة بقوة العزائم التي تنهض بها لتبلغ غايتها من العقول والقلوب في غير عجلة متسرعة.

وكان هذا الصبر الجميل يزيد قريشاً طغياناً وكفراً، وعتواً وعناداً، ويضاعف من أحقاد ملأ الطغاة واضطغانهم على رسول الله ﷺ، وعلى أصحابه، ولكنه كان يزيد في قوة إيمان المؤمنين، ويشجع رسول الله ﷺ على الخروج بدعوته من حصار مكة وأهلها وعشائرها التي تقودها الوثنية المادية العمياء بزمام العتو الكفور.

روى ابن سيد الناس في عيون الأثر بسنده عن جابر بن عبدالله

قال: كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموقف ويقول: «ألا رجل يعرض عليّ قومه؟ فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي».

وفي حديث محمد بن المنكدر أنه سمع ربيعة بن عباد الدؤلي يقول: رأيت رسول الله ﷺ يطوف على الناس قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول: «يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» ووراءه رجل يقول: يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم، فسألت من هذا الرجل؟ فقيل: أبو لهب.

وقد لقي رسول الله ﷺ كثيراً من وفود العرب، ورؤساء قبائلهم، وزعماء بطونهم وعشائرهم، فدعاهم إلى توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده، فكانوا بين مقارب مهذّب الطبع لينّ المقادة، سهل المأخذ، حكيم اللسان، عَقول القلب. وبين بعيد مجانب، جوّاظ جاف، غليظ الطبع، ضيق العطن، عسر المسلك، سريع التغضب، نفور جهول.

حوار عَقُول

وكان ﷺ يصابر القوم، ويصبر على جفوة الجفاة منهم، ويقدِّر المهذبين منهم قدرهم، ويعرف لهم مكانتهم، ولو لم يجيبوه إلى دعوته تشرعاً بمكارم الأخلاق.

وكان كثيراً ما يصحبه في لقاءاته وفود العرب في منازلهم من الموسم أبو بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، ففي حديث عبدالله بن عباس عند صاحب العيون وغيره من رواية ابن إسحاق عن علي أنه خرج هو وأبو بكر رضي الله عنهما مع رسول الله ﷺ ليعرض نفسه ويبلغ رسالته إلى الناس في منازلهم، وقد لقوا قوماً من وجوه العرب ورؤساء عشائرهم فجلسوا إليهم، قال علي رضي الله عنه:

فضل أبي بكر في علمه وشمائله

وكان أبو بكر في كل خير مقدماً، وتكلم أبو بكر ـ وكان نسيج وحده في معرفة أنساب العرب وشمائلهم ـ وسأل: ممن القوم؟ فقالوا: من شيبان ابن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي . .

هؤلاء غرر في قومهم، وفيهم مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالاً ولساناً، وكانت له غديرتان، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر رضي الله عنه، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لنزيد على الألف، ولن تغلب الألف من قلة، فقال أبو بكر رضي الله عنه: كيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: علينا الجهد، ولكل قوم جد، فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى، وإنا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللِّقاح، والنصر من عند الله، يديلنا مرة، ويديل علينا أخرى، لعلك أخو قريش. فقال أبو بكر: أوقد بلغكم أنه رسول الله، فها هوذا.

فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، فإلامَ تدعو يا أخا قريش؟

عرض الإسلام واستطعام مفروق لمبادئه وزكانة عقله

فتقدم رسول الله فقال: «أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وأن تأووني وتنصروني، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد».

فقال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ: «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم: أن لا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلك وصاكم به لعلكم تعقلون»[1].

فقال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش:؟ فقال رسول الله ﷺ ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكَّرون﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٢) سورة النحل، آية: ٩٠.

فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذَّبوك، وظاهروا عليك.

أدب العشرة في تضافر الزعامات العاقلة

وكأن مفروقاً أراد أن يشرك في الكلام هانىء بن قبيصة، فقال: هذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، فقال هانىء: قد سمعنا مقالتك، يا أخا قريش، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا، ليس له أول ولا آخر زلة في الرأي، وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن نرجع وترجع، وننظر وتنظر.

وكأنه أحبّ أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى ابن حارثة، شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا دينك لمجلس جلسته إلينا، ليس له أول ولا آخر، وإنما نزلنا بين صيري اليمامة والسماوة.

فقال رسول الله ﷺ: «ما هذان الصيران؟» فقال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وإنا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدِثاً، وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعونا إليه أنت، هو مما يكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم في الصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم؛ أتسبحون الله وتقدسونه. ؟».

فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذا، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿يا

أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1].

ثم نهض رسول الله ﷺ. قال علي: فأخذ بيدي فقال: «يا أبا بكر. . يا أبا حسن. أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية؟ ما أشرفها، بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم».

بين رياض هذه القصة وحوارها

آيات من العبر

هذه القصة من غرر أحداث السيرة النبوية في مرحلة الكفاح الصبور والصبر المكافح؛ لأنها في إطارها الواقعي تصور خطوات من سير الرسالة، وهي في طريقها إلى الإعلان عن نفسها وأهدافها بين وفود العرب القادمين على مكة لحضور الموسم، بعد أن سبقها ذكرها إلى الناس بما أتته قريش من طيش أحمق ورعونة بلهاء في ترصدها القادمين أفراداً وجماعات، تحذِّرهم رسول الله ﷺ أن يسمعوا منه، أو يكلموه، خشية أن يجتذبهم حديثه إلى متابعته والإيمان بدعوته، وتصديق رسالته.

وكأنما كان ذلك الطيش الأرعن الذي تورط فيه ملأ قريش بشؤم مشورة طاغيتهم الوليد بن المغيرة، وشيطانهم اللعين: النضر بن الحارث، وغميز الرجولية، فرعون هذه الأمة أبي جهل بن هشام ـ إيذاناً من الله تعالى أن تنطلق دعوة محمد ﷺ من حصار قريش، فتطرق أبواب العقول والقلوب على رغم أنف العتو العنيد الذي سيطر على عقلية ملأ قريش وطغاتها من أحلاس المادية الوثنية.

وقد حاولوا بكل ما يملكون من قوى مادية شريرة، وفجور دعائي عاتٍ عنيد أن يعوّقوا سير الرسالة ويوقفوا مدّ انسياح الدعوة إلى الله تعالى، وسلكوا في سبيل ذلك كل طريق استطاعوا أن يسلكوه، ولم يتركوا أمراً تخيلوه عائقاً يمكن أن يصدّ دعوة محمد ﷺ ويرد تيارها عن زحفه مزمجراً بقوة الحق وقهره إلا أتوه وفعلوه.

---

(١) سورة الأحزاب، آيتا: ٤٥ ـ ٤٦.

ولكن محمداً ﷺ وقد حمّله الله تعالى مصباح الهداية مضيئاً، ينير له الطريق، ويكشف له مسالك السير برسالته قدماً لم يزل دؤوباً وهو منفرد وحيد، يجول في ميدان الكفاح وحده في قلة مستظلمة مستضعفة من أصحابه آمنوا به وبدعوته على خوف من بطش قومهم وجبروتهم ـ على نشر دعوته إلى توحيد الله ودينه القويم، يدعو إليه كل من لقيه ويلقاه من الناس في أي مكان وزمان ومجتمع.

ولما استيأس رسول الله ﷺ من قومه بعد أن بذل في سبيل هدايتهم كل جهد، فصبر على أذيتهم، وصابرهم، وحاسنهم، وأغضى على سفاهة سفهائهم، وفجور طغاتهم ـ خرج في أيام الموسم ومعه صاحبه وصدِّيقه أبو بكر، وربيبه، رضيع ثدي النبوة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، يعرض نفسه ودعوته إلى التوحيد والعدل على الناس، ويدعوهم إلى الإيمان به وإلى أن يؤوه، وينصروه على ظلم قريش وافترائها الكذب على الله، وتظاهرها على رسوله وهو قائم بأمر الله، ينشر دعوته، ويبلغ رسالته، فأفكت عليه وكذبته، واستغنت بالباطل من الكفر الفاجر، والوثنية المادية البليدة الظالمة المظلمة، وطرحت الحق وراءها ظهرياً ولم ترفع له رأساً، وأقامت على عتوها وعنادها تتربص برسول الله ﷺ الدوائر وتمكر به وبأصحابه وتؤذيه وتؤذيهم أبشع الإيذاء، متفننة في الإساءة إليهم وتعذيبهم، وهم صابرون محتسبون.

ولقي رسول الله ﷺ فيمن لقي من وفود الموسم وزعماء القبائل ورؤساء العشائر هؤلاء الغر البهاليل من شيبان بن ثعلبة، الذين يصفهم الصديق أبو بكر ـ وهو أعرف العرب بأنساب العرب وشمائلهم ـ فيقول وقد التفت إلى رسول الله ﷺ بعد أن استخبرهم فانتسبوا له: هؤلاء غرر في قومهم، وهذا التعبير في صدقه ودقته مليء بالصور التي تسترعي الانتباه، فهو لم يقل: غرر قومهم، تحفظاً أن يوغر صدر من عسى أن يكون في مستواهم أو أرفع قدراً منهم ولم يشهد مشهدهم.

وهو بهذا الأسلوب البارع قد أدى حق الروعة البيانية التي تفتح

قلوب هؤلاء الغر لما يرد عليهم من أحاديث الهداية والحق والعدل ومكارم الأخلاق، ولا توصد باب النظر دون غيرهم.

وكان مقدّم القوم مفروق بن عمرو، وهانىء بن قبيصة، والمثنى ابن حارثة، والنعمان بن شريك، وبدأ أبو بكر فأدار الحديث مع مفروق ابن عمرو، لغلبته على القوم جمالاً وبياناً، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر، ورسول الله ﷺ يصغي ويسمع، ولا يتكلم، وقرناء مفروق في زعامة قومهم في تنبه يقظ يسمعون.

وسأل أبو بكر مفروقاً عن عدد قومه، وهو لا يريد بالطبع إحصاء عددياً لهم، ولكنه يريد أن يتعرف على مصدر القوة فيهم وفي حروبهم ليسمع رسول الله ﷺ حتى يعلم علم ما إليه قصد من منعة وحماية ونصرة وإيواء.

ومن البداهة أن مصدر القوة لتحقيق هذا الهدف إنما هم الرجال الأشداء، ذوو البأس والقوة وصدق اللقاء في معمعان الوغى ومواقع النضال.

وأجاب مفروق بأن عدد المنعة والحمية فيهم يزيد على الألف ـ ولن يغلب الألف من قلّة ـ وكان لعدد الألف عند العرب روعة في التزيد به والتكثر، وهذا ما كانت بيئاتهم تقتضيه، فهم لم تكن لهم حروب عامة جامعة، وإنما كانت حروبهم جزئية محصورة متكافئة الأعداد.

وسأل أبو بكر رضي الله عنه مفروقاً عن المنعة والحمية فيهم ليعرف مقدار حرصهم على غيرة الجوار وحماية البيضة وحفظ الذمار.

فأجاب مفروق جواب الرجل العاقل الذي لا يستفزه الغرور الأهوج، ولا يتوثبه الطيش الأرعن، ولا تملكه الكبرياء الحمقاء، فلم يندفع إلى التكذب والادّعاء لما ليس هو بكائن عنده وعند قومه، فقال: علينا أن نبذل ما نستطيع من جهد وصبر، وإذا كان لكل قوم جد يدّرعونه في مواقفهم، فلنا جدنا في جهدنا وصبرنا.

وسأل أبو بكر رضي الله عنه مفروقاً عن الحرب بينهم وبين عدوهم، ليستبين خصيصة قومه في لقائهم عدوهم، فوصف مفروق قومه وصفاً من أبدع ما يوصف به قوم في ميدان البطولة والشجاعة التي لا تتهور، ولا تتقاعس، ولكنها بطولة جد ساعة الجد، فتربو على أمدها في توجيه رحى الحرب إلى مصافِّهم في مصافِّ الأبطال.

فهم غضاب أشد ما يكون الغضب إذا لاقَوا عدوهم، والغضب شعلة من النار، وهم أشد ما يكونون اندفاعاً إلى اللقاء حين يغضبون، فلا يقوم لهم عدو، ولا يهزمون وهم سالمون، وزاد مفروق في وصف قومه وصفاً يعرّف به أنهم قوم يحبون الوغى في حومته، وأنهم يستعذبون الاقتحام فيه وتقبيل السيوف عند اللقاء، نشأة عليها نشأوا وتربية بها تربوا، يحبون السلاح والجياد أكثر من حبهم أفلاذ الأكباد.

وكان مفروق رجلاً عاقلاً رزيناً، لا تستفزه رعونة الزعامة في قومه، ولا يغره شرف محتده، بل يعلن أن النصر من عند الله، لا يجلبه قوة ولا شجاعة، ولا تجربة، وهو إلى أصحاب الجهد الصبور أقرب منه إلى أصحاب القوة الرعناء، والله تعالى يداول بين الناس، فيوم لك ويوم عليك، يديلنا مرة فينصرنا، ويديل علينا مرة أخرى، فينصر عدونا علينا، سنة الله في خلقه.

ثم التفت مفروق إلى أبي بكر بعد أن أنهى حديثه معه، وقال له: لعلك أخو قريش؟ - يعني رسول الله ﷺ - ولم يكن مفروق قد سبق له أن عرف رسول الله ﷺ قبل هذا المجلس، ولكن مفروقاً بدر أبا بكر بهذا التوقع لما كان قد بلغه من ذكر رسول الله ﷺ وذكر دعوته ورسالته.

وهنا تتجلى براعة أبي بكر رضي الله عنه في استرعاء الأنظار إلى التعرف على رسول الله ﷺتعرفاً يمكِّن له في القلوب والأبصار، حتى إذا أجرى الحديث معه جرى في واديه وقصده إذ يتولاه صاحب دعوته، فقال أبو بكر رضي الله عنه ليؤكد هذا التعرف، ويوجه الأسماع إلى الهدف الذي كان له هذا اللقاء، فقال: أوقد بلغكم أنه رسول الله؟ فها هوذا

مشيراً إلى رسول الله ﷺ.

فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك وفي هذه الجملة يتجلى صدق اليقين، وأدب النفس ورصانة العقل، وامتلاك زمام الأمر، لأن أبا بكر رضي الله عنه إذْ قال: أوقد بلغكم أنه رسول الله كان يتكلم بمنطق الإيمان الذي وقر في قلبه برسالة محمد ﷺ.

أما مفروق بن عمرو إذ قال: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، فإنما كان يتكلم بمنطق عقله وأدبه، فهو لم يؤمن على كلام أبي بكر بأنهم بلغهم أن محمداً رسول الله، ولم ينفِ ما بلغهم من رسالته، ولم يصف رسول الله ﷺ بما يخدش ذكره أنه رسول الله، ولكنه قارب الصدق مع نفسه فقال: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، وهذا لا يُدخل مفروقاً في ساحة الإيمان برسالة محمد ﷺ ولا يخرجه من ساحة صدق الإخبار.

ثم أخذ مفروق في استكشاف حقيقة ما بلغه عن رسول الله ﷺ من ذكره أنه رسول الله، أرسله ليدعو الناس إلى توحيده، وخلع الأنداد والشركاء، بعد أن عرف شخص رسول الله ﷺ، فقال: إلى أي شيء تدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ ليأخذ بزمام الحوار الذي وصل إلى جوهره وغايته، فقال ﷺ: «أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له، وأني رسول الله، وأن تؤووني وتنصروني».

وهذا تصديق وتأكيد لقول مفروق: قد بلغنا أنه يذكر أنه رسول الله، وها هوذا صلّى الله عليه وسلم يذكر على سمع القوم وبصرهم، بل على سمع الدنيا وبصرها أنه رسول الله، ولكن الظالمين جحدوا آية الله في رسالته، فكذبوه، وتظاهروا على أمر الله، واستغنّوا بالباطل عن الحقّ.

وهذا هو ما دعا إليه قومه، لم يدعهم إلى شيء غيره، وهو ما دعا إليه الناس جميعاً، هي كلمة إذا قالوها سعدوا وأفلحوا، فهو ﷺ لم يطلب بدعوته مالاً وثراء، ولا شرفاً ولا سيادة ولا ملكاً وسلطاناً، ولكن الظالمين تظاهروا على أمر الله، فكذبوا رسوله إذْ دعاهم إلى توحيد خالقهم، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

أيهما العجاب أمركم الذي تعبدون فيه آلهة شتى، أم أمر محمد ﷺ الذي يدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد؛ ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾.

ورسالة الله دعوة إلى الحق، لا تقف إذا نُوهضت من أعداء الحق، ولا تستكين إذا حوصرت، بل يجب على الرسول أن يبحث لرسالته عن أرض خصبة التربة، ليحرثها بدعوته، ومِنَ الله تعالى الإنبات والزرع ﴿ أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾.

وهكذا كان هذا اللقاء بحثاً عن التربة الخصبة التي تأوي الرسول، وتنصر الرسالة إذا آمنت واهتدت.

وسمع مفروق وصحبه من رسول الله ﷺ الأساس الذي قامت عليه دعائم دعوته، وسمعوا الأساس الذي له خرج من بلده، وعن قومه، ليلقى الناس به في منازلهم، ليجد من يأويه وينصره على من ظلمه وكذبه وتظاهر على أمر الله، واستغنى بالباطل عن الحق.

وكأن مفروقاً وصحبه في بلادة وثنيتهم لم تهزهم هذه الدعوة إلى توحيد الله تعالى، فلم يرد متحدثهم على دعوة الإيواء والنصرة، ولكن مفروقاً انطلق يسأل ويستكشف ما وراء هذه الدعوة التوحيدية التي تخلعهم من وثنيتهم، فقال: وإلى أي شيء آخر تدعو يا أخا قريش؟

فانتقل به رسول الله ﷺ وبالحديث والحوار، وبمن يسمع من الشاهدين إلى أمر جامع بين دعوة التوحيد، والأمر بعليا الفضائل ومواطن الإحسان، وإلى النهي عن أصول الرذائل والشرور في المجتمع، فتلا عليه رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم ﴾ الآية، وظل مفروق وصحبه على موقفهم مع وثنيتهم وتقاليدهم الجاهلية جامدين، لا تهتز مشاعرهم، ولا تتحرك عواطفهم.

وانتقل مفروق يستزيد من أمور دعوة رسول الله ﷺ، فقال يسأل: وإلى أي شيء ـ أيضاً ـ تدعو يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله

يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون».

وهنا ـ فقط ـ اهتزت أريحية كرم النحيزة في الرجل، وثارت عواطفه وتحرّك وجدانه وتأثرت مشاعره استطعاماً لمعاني الآية الكريمة، وتذوقاً لمكارمها وآدابها، فقال وهو منفعل بأثر ما مسّ قلبه: دعوت ـ والله ـ إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد كذّب قوم كذبوك وظاهروا عليك.

ولكن هذا الانفعال بمعنى الآية شيء والإيمان بالرسالة شيء آخر، لأن الإيمان بالرسالة يعتمد على إسلام الوجه لله تعالى، والإذعان المطلق لأمره ونهيه والدخول في ساحة طاعته دخولاً لا يخالجه شك، ولا تردد، ولا يحتاج إلى مشورة أحد، ولا الى استئذان أحد.

وموقف مفروق بن عمرو إلى هنا موقف تكرم مع نفسه، وأدب خلقي مع حياته، بيد أنه لا يرقى إلى آفاق الإيمان بالله ورسالاته، ولذلك التفت إلى صحبه وقرنائه في زعامته، وبدأ بصاحب دينهم وسادن وثنيتهم: هانىء بن قبيصة، لأن الأمر في هذا الحوار كان أمر دين ودعوة إلى رسالة إلهية، جاءت إلى الناس بدين جديد، يقتضيهم إذا آمنوا به أن يتركوا دينهم الذي هم عليه والذي تقلدوه وراثة عن آبائهم، فكان لا بد من مشاركة صاحب دينهم في الحوار والحديث، ليعرف رأيه فيما سمع من صاحب الدعوة الجديدة الذي سمعوا أنه يذكر عن نفسه أنه رسول الله، وأنهم سمعوا في هذا المجلس يدعو إلى جانب توحيد الله تعالى أنه رسول الله.

وها هم أولاء يرون رأي العين والقلب فيه، وفي سَمْته، وفيما يدعو إليه جديداً كل الجدة على ما اعتنقوه من وثنية بليدة مظلمة، وعلى ما ألفوه وعرفوه في الناس من أخلاق وشيم، فما عسى أن يكون رأى صاحب دينهم فيما رأى وفيما سمع. ؟

فليتكلم هانىء بن قبيصة شيخ شيبان في سنه، وصاحب دينهم في

معرفته وعلمه بتقاليد جاهليتهم وشدة حرصهم على التمسك بوثنيتهم، وقد قدّمه مفروق إلى النبي ﷺ فقال: وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، ولعل مفروق بن عمرو أراد مع ذلك أن يستبين أثر ما جرى من الحوار بينه وبين رسول الله ﷺ في أنفس قرنائه في زعامة قومه، ولعله كان يطوي بين جوانحه شيئاً من الرضا بالدعوة الجديدة والدين الجديد، ولم يكن وهو مغلل بسلاسل الوثنية والزعامة يستطيع أن يبوح جهرة بمكنون سره، فأراد أن يعرف ما اختلج في أنفس أصحابه دون أن ينفرد بخلافهم.

وتكلم هانىء بن قبيصة، وكان عاقلاً، متأنياً، متزناً، حكيماً، أحكمته التجارب، فقال: إن تركهم دينهم الذي نهدوا في ظله، وشبُّوا على تقاليده، وشابوا عليه، إلى دين جديد، مهما يكن شأن ما جاء به من مكارم الأخلاق ومحاسن العمل لمجرد مجلس جلسه إليهم رسول الله ﷺ وعرض عليهم دعوته؛ وأبان عن شمائلها، وفضائل أصولها ومحاسن آدابها ـ لم تكن له مقدمات ممهدات ولا كانت له نهاية ينتهي إليها، وإنما كان أشبه بمجلس تعارف وتلاق، جمعتهم فيه برسول الله ﷺ المصادفة التي لم يكونوا هم يقصدونها، وقد سمعوا منه وسمع منهم، وقالوا وقيل لهم، وعرفوا وعرف منهم، ولم يكن ذلك بكافٍ ـ في نظرهم ـ لبتِّ الحكم في أمر قد يكون من أخطر أمور حياتهم وحياة قومهم يرونه زلة في الرأي وقلة نظر في العاقبة، والأمر أكبر من أن يأخذ بالسرعة لاحتياجه إلى أناة وريث وتلبث ونظر، تُقلَّب فيه وجوه الرأي ويجول في أنحائه العقل جولات توزن فيها الأمور بأشباهها، وتقاس المنافع بالمضار، وإنما تكون الزلة مع العجلة.

ثم بيَّن هانىء أن هذا الأمر لعظم خطره لا يعنيهم وحدهم، ولا يخصّهم من بين قومهم، بل هو أمرهم وأمر قومهم من ورائهم، والزعامة العادلة هي التي لا تفتات على الجمهرة فيما يعنيها من الأحداث في حياتها، ولا تستبد في تقرير مصير من قلّدوهم قلائد زعامتهم.

ولعل هانىء بن قبيصة أراد أن يعطي رسول الله ﷺ صورة تمثل زعامتهم لقومهم، وأنهم إن كانوا مطاعين فيهم، ولكنهم لا يفتاتون عليهم فيما يعمّهم، ولذلك قال: ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً، لم يشهدوه ولم يبدوا فيه رأياً، لأن ذلك من المفاسد الاجتماعية التي تشتت جمع الجماعة، وتفرق شملها، وتبدد وحدتها، وتفتأ روابط الزعامة، وتحل عقدتها.

وكان هانىء كما كان صاحبه مفروق وقافاً مع وثنيته لم يقارب الإيمان بالدين الجديد، ولم يشرد منه، وسكت عن (لا) و(نعم)، ولكنه أخذ لنفسه الحيطة وأعطى لرسول الله ﷺ النَّصَف في عرف تقاليدهم الجاهلية، وهو في هذا العرف لا تثريب عليه لأنه رجل ما يزال سابحاً في غمرة زعامته الوثنية، فقال: ولكنّا نرجع إلى مستقرنا بين قومنا، ومستودع أسرارنا في ديارنا، وننظر فيما سمعنا منذ اليوم، وينظر معنا قومنا، ويرجع رسول الله ﷺ إلى رأيه في عرض دعوته وتبليغ رسالته إلى كل من يلقاه من الناس أداء لموجبات القيام بحق التبليغ وينظر فيما سمع منا، فلعل الله يجعل له منا رِدْءاً يصدقه ويجمع بيننا وبينه في ظل رأي قد غبَّ واستوى، والله من وراء ذلك بحكمته وعلمه وتدبيره.

ولم ينس هانىء ـ وهو حكيم القوم، وصاحب دينهم ـ أن النبي ﷺ ذكر أنه يدعوهم إلى أن يؤووه وينصروه، لأن قريشاً قومه وقفت منه موقف العداوة العنيدة، فلا يمكن أن ترضى بغير حرب مبيرة لمن يؤوي محمداً وينصره عليهم، فكان لا بد من سماع رأي القوة الحربية ممثلة في شخص قائدهم وصاحب حربهم، وحامل لواء كتائبهم في معاركهم، فليشركه في الرأي المثنَّى بن حارثة شيخهم وصاحب حربهم.

وتكلم المثنى ـ وقادة الحروب من أقل الناس كلاماً في غير اختصاصهم ـ ولذلك أمَّن المثنى على كلام هانىء، ولكنه زاد على كلام هانىء عرض ما يخصه في معرفته تقدير القوة الحربية التي يخشونها إذا أجابوا دعوة رسول الله ﷺ أن يؤووه وينصروه، وبيَّن المثنى أن منازل قومه تقع بين

أنهار كسرى ومياه العرب، وأن أنهار كسرى لا سبيل الى اقتحامها والاعتداء على حرمتها وكسر حدودها، فذلك إذا وقع كان ذنباً لا يغفر، ولا يقبل فيه عذر لمعتذر، وأما مياه العرب فأمرها سهل، وذنبها مغفور، وعذرها مقبول، والقوة عليها مقدورة.

ثم بيّن المثنى السبب في صعوبة أمر أنهار كسرى، وأنها جاءت من قبل الوفاء بالعهد والمحافظة على زمام العقد، فهم قد نزلوا منازلهم على عهد أخذه عليهم كسرى: أن لا يحدِثوا حَدَثاً وأن لا يؤوا محدِثاً، والعرب من أوفى الأمم بعهد، وأحفظهم لحرمة عقد، وأبعدهم عن الخيانة والغدر.

ثم بيَّن المثنى أن دعوة رسول الله ﷺ بما قامت عليه من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده، وخلع الشرك والوثنية بكافة ضروبها وسائر ألوانها، وإقامة موازين العدل والمساواة بين أبناء البشر في أرجاء الأرض وأقطارها - أمر يكرهه الملوك وخاصة الأكاسرة الذي كانوا يستعبدون شعوبهم استعباد عبودية، يتألّهون بها عليهم فكسرى كان في قومه معبوداً من دون الله تعالى، وكان ملكه قائماً على الاستبداد المطلق.

والعرب ولا سيما المصاقبون للفرس يعلمون ذلك ويعلمون شدة حرص الأكاسرة على ملكهم في صورته الاجتماعية القائمة التي خضع لها شعبهم، وارتضاها حياة لهم، حتى أخرجهم الإسلام من ضيقها إلى سعة عدل الله ورحمته.

وقد حفظ تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد رسول الله ﷺ صورة من هذا الفجور الاستعبادي، وذلك حينما كتب النبي ﷺ إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام فيمن كتب إليهم من ملوك الأرض، فكبر على كسرى أن يقوم لله تعالى قائم من العرب يدعو إلى توحيده ويأتي بدين جديد، يجعل هذا المستكبر على أسوة مع سائر البشر في المساواة والعدالة، فمزق كتاب النبي ﷺ، وتغضَّب وثار وانتفخت أوداج الكبرياء فيه، وزمجر، وهدر وأرعد وأزبد، وبلغ النبي ﷺ موقفه هذا فدعا عليه أن يمزِّق الله ملكه، فكان أن سطا عليه ولده فقتله، ومزق الله ملك كسرى، وصارت فارس

ملكاً إسلامياً، يحمل راية العلم الإسلامي والمعرفة الإسلامية، والدعوه إلى الله تعالى.

والكلام الذي ذكره المثنى في صدد أنهار كسرها وتهيبهم لها يقصد به في صراحة لا تعـرف الالتواء والمـواربة، وهي خلق يغلب عـلى القادة الحربيين، بعد أن مهد له بوجوب المحافظة على العهد أن قوتهم لا تستطيع أن تقف أمام قوة كسرى في جبروته، والعهد الذي بينه وبين جيرانـه العرب، يعطيه حق أخذ من تحدثه نفسه بالاعتداء على أنهاره وما وراءها من أرض كسروية.

وكأن هذا جاء اعتذاراً قدمه المثنى صاحب حرب شيبان وقائدهم عن عدم إمكان إيواء محمد ﷺ وحمايته ونصرته على كسرى وقومه فيما يقع على حدود أنهاره وبلاده.

أما إذا كان الأمر خاصاً بمياه العرب فهم قادرون على حمايته في دائرتها، وهم على أكمل استعداد لإيوائه في ديارهم، وحمايته، ونصرته على من يناوئه من كافة العرب، قريش فمن سواها.

وهنا موقف. للنبوة، يصور عظمتها، ويصور قوة إيمان الرسـول برسالته، التي لا تتوقف عند حد أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب، أو جنس من الأجناس، أو طائفة من البشر، أو نظام من النظم الاجتماعية في أي شكل من شكول الحكم، فذلك كله يجب أن يدخل في دائرة رسالة محمد ﷺ، فيجب أن تكون في سيرها منطلقة في وجوه الأرض تنشر دعوتها مهما كانت العقبـات التي تتكاءدهـا في طريقهـا، ومهما تكن قـوة العتو والجبروت التي تحاول تعويقها عن أهدافها.

ولهذا لما بيَّن المثنى بن حارثة صاحب حرب شيبان أنه لا سبيل إلى القدرة على اقتحام أنهار كسرى، وحماية من يتخطاها بأية دعوة ـ ولا سيما إذا كانت دعوة يكرهها الملوك، وفي طليعتهم الأكاسرة كـدعوة رسـول الله ﷺ، فإن حماية شيبان إذا آووه إلى ديارهم تكون حماية جزئية خاصة

بمياه العرب ـ تجلت عظمة النبوة وتعاظم جلال الرسالة، وترجم إيمان الرسول برسالة نفسه عن قوته ونفاذ عزيمته، وهذا الإيمان هو المعجزة العملية الخالدة لتبليغ الرسالة بلاغاً كاملاً واضحاً، والسير بها إلى غايتها، لتخرج الناس من ظلمات الجهالة والاستعباد إلى نور العلم وحرية العقيدة والعمل في الحياة.

وقد كان بيان المثنى صريحاً، متعقلاً، مقدراً للموقف من وجهة نظرهم، فكان صورة صادقة في صورته المعبِّرة عن صدق القصد، بأنه وقومه لا يستطيعون إيواء رسول الله ﷺ وحمايته ونصرته على كسرى، وهو ـ كما يعلمون ـ في قوته الحربية الهائلة، لكنهم قادرون على حمايته ونصرته مما يلي مياه العرب، وهذه حماية جزئية لا سلطان لها إلا على أضعف جوانب الحماية والنصرة.

ودعوة محمد ﷺ ورسالته دين الله الذي يعمّ أقطار الأرض في شرقها وغربها، ويعم جميع الأمم والشعوب والأجناس البشرية وممالكهم ودولهم، ويعم مقاومة القوى التي تقف في سبيل نشر الدعوة، مهما كانت، وكيفما كانت، ولا يمكن أن تتحقق نصرة دين الله وهو بهذا العموم إلا بحياطة عامة شاملة، لا تهاب أعظم القوى، ولا ترهب سلطاناً لأحد في الأرض غير سلطان الله تعالى.

ولهذا جاء رد رسول الله ﷺ على المثنى ردّاً جميلاً حازماً، مقدِّراً للقوم صدق صراحتهم، وهم يعلمون موقفه في وحدته، والتماس الإيواء والنصرة أينما وجد لها سبيلاً، فقد حدَّد ﷺ في ردِّه مهمة من ينبري لنصرة دين الله، وأنها يجب أن تكون عامة شاملة قوية قاهرة، لا تهاب قوة من قوى الأرض والبشر.

فالنبي ﷺ قدَّر للقوم إحسانهم في أسلوب حوارهم معه، وردَّهم عليه، وبين لهم أن جهدهم الجزئي في نصرة دين الله تعالى لن ينصره في دعوته وتبليغ رسالته، لأن دين الله في عمومه وخلوده وقوة سلطانه، وما جاء به من توحيد الله تعالى، وإخلاص العبودية له، وطرح عباده

المخلوقين كيفما كانوا، لن ينصره نصراً يحقق له أهدافه إلا من حاطه من جميع جوانبه لا يترك منه جانباً مكشوفاً، ولا ثغرة مهدرة، لا تحرسها قوة قادرة، تملك الدفاع عنها وترد اعتداء من يحاول اقتحامها مهما كانت قوته وسلطانه.

وقد أراد النبي ﷺ أن يعالج بحكمته مرض الخوف الذي ملأ صدور زعماء شيبان من كسرى وعتوه وجبروت قوته الحربية، ويهوِّن عليهم شأن هذه القوة التي يرهبونها، ويخافون سطوتها وبطشها، لينزع من قلوبهم المهابة منهم، فهي قوة منهارة أمام قوة الإيمان بعقيدة الحق، بل هي قوة ينخر فيها سوس الفناء، وستتهاوى أمام قوة الحق والعدل.

ولعل هؤلاء العرب الذين استضعفوا أنفسهم أمام قوة الأكاسرة سيكون لهم شرك وإسهام في كسر حدَّة هذه القوة المادية الباطشة بزمجرتها، الجوفاء في حقيقتها، لأنها لا ترتبط بقوة الإيمان بعقيدة الحق والعدل والإصلاح، وتحرير الإنسانية من براثن الاستعباد، وكذلك كل قوة لا تملك في روحانيتها هذا الارتباط العلوي محكوم عليها بالتفتت والزوال، وسيرثها الذين يقيمون دعائم قواهم على أسس من الإيمان والحق والعدل والإصلاح.

وقد حلَّق رسول الله ﷺ في آفاق الغيب، وقرأ في كتاب الكون وسنن الله في حياة المجتمع الإنساني أن قوى الشر لا بقاء لها، وقد أراد ﷺ أن يرفع هؤلاء القوم الذين أخلدوا إلى الأرض لا يريمونها على أجنحة الأمل الفسيح، ليعدهم نفسياً ليوم يأتيهم وهم يخوضون معارك الشرف والكرامة مع هؤلاء الأكاسرة باسم الإسلام والعدل، وأنهم سيكسرونهم ويورثهم الله تعالى أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشهم نساءهم، يستولدونهم جيلاً يجري في عروقه دمهم من أكرم ناحيتيه، ولا يكون ذلك إلا بقوة الإيمان بعقيدة الحق التي لا تطلب من صاحبها إلا حَوْطها بما يحفظها ويستديم صلتها بالله القوي الأعلى، مالك الملك، الذي يؤتي ملكه من يشاء من عباده، وينزعه ممن يشاء، ويعزّ من يشاء، ويذل من يشاء،

فسبحانه تقدس، بنعمه وحمده، لا يطلب من عباده على إنعامه غير تسبيحه وتقديسه، فهل أنتم كذلك؟

وهنا بدر النعمان بن شريك ـ وكان يصغي ويسمع، ويعي ولا يتكلم ـ ورأى أن الحوار بلغ نهايته بهذه البشرى الكريمة، فقال: اللهم لك ذا.

وعند ذلك أراد النبي ﷺ إنباءهم إعجازاً ليجعل ذلك واقعاً وعداً من الله تعالى، فتلا عليهم ما خصه الله به من نعوت الحمد والكمال والمجد والنصر المؤزر في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[1].

وقد تحقق ما أخبر به رسول الله ﷺ، وفتحت فارس، وكان قائد فتحها الأول قائد شيبان وصاحب حربها المثنى بن حارثة، وكان أبو بكر الصديق في خلافته، تأتيه أخباره في غمرة حياة فارس بغاراته عليها واقتطاع أرضها فيعجب به قبل أن يعرفه.

ولما انتهى هذا المجلس إلى غايته نهض رسول الله ﷺ طيب النفس بما سمع ورأى من القوم، ليترك أثر المجلس يعتلج في صدورهم، لعلهم، وعساهم.

وقد أعرب ـ ﷺ ـ في أروع بيان وأبلغ أسلوب وأصدق كلام عن محاسن الأخلاق التي رآها في القوم، وهي من أخلاق العرب في جاهليتهم، وعن أدبهم الاجتماعي بعضهم مع بعض في حوارهم وإصغائهم وحسن استماعهم لما يجري من الحديث، وفي أسلوب مخاطبتهم له ﷺ وهم لمّا يؤمنوا به بعد، وحسن تناولهم للحديث معه ﷺ وفي صدق صراحتهم، وصراحة صدقهم، وفي تعقلهم، وتأتّيهم للأمور من مداخلها في ريث وأناة، فقال ﷺ وهو يشد على يدي صاحبيه: الصديق أبي بكر، وعلي بن أبي طالب: «أية أخلاق كانت للعرب في الجاهلية؟ ما أشرفها.. بها

(١) سورة الأحزاب، آيتا: ٤٥ ـ ٤٦.

يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم».

هذا لون من الأحداث التي عرضت للنبي ﷺ وهو يعرض نفسه على الناس في منازلهم يدعوهم إلى توحيد الله، ويبلّغهم رسالات ربهم، وقد اخترنا ونختار منها ما كان له أثر قوي في دفع سير الرسالة إلى أهدافها، أو كان له أثر في بيان صور الكفاح الصبور الذي درج عليه رسول الله ﷺ في أطوار دعوته، ليكون من ذلك نماذج لورثة تبليغ الدعوة من بعده، يحتذونها، ومُثُلاً يتقلدونها، أداء لما قُلِّدوه من وجوب القيام بنشر دين الله في أرجاء الأرض.

محنة الحصار الاقتصادي

المقاطعة الظالمة

قوة عزيمة النبي ﷺ على المضي قُدُماً في المسير بدعوته أحفظت ملأ الكفر فأتمروا بقتله

لم يفتر رسول الله ﷺ لحظة واحدة عن القيام بأمر ربه في تبليغ رسالته، ونشر دعوته، وهو يلقَى من محن البلاء وفوادح الإيذاء وسفاهة السفهاء، وإقامة العقبات في سبيل سير الدعوة إلى أهدافها، والوصول بها إلى غايتها، صابراً محتسباً، عفواً صفوحاً، كريماً حليماً، مما جعل دعوة الحق والهداية تدخل إلى كل مجتمع ومحفل وناد في مواسم العرب وأسواقهم، حتى أصبح لها في كل قبيلة ذكر، وعند كل قوم أثر ومشهد، وتحدّث الناس عن هذه الدعوة بين موافق معجب ومخالف مقلد.

وقد أحفظ ذلك عتاولة الشرك وغطارفة الوثنية، وملأ الكفر من المستكبرين في قريش، فاشرأبت أعناق الحقد الأسود في قلوبهم، وتعرّجت طرائق المقاومة، وأبلسوا في متاثه الحيرة، وعُمِّي عليهم الرأي، وغُميت عليهم دلائل الهداية، فلم يعرفوا إلا الشر وذرائعه، وإلّا سوء المكر ووسائله، وانتهَوا إلى مجثم الشيطان يستنزلون أوامره، وتلقوها من وحيه سوداء مظلمة، حاقدة مضطغنة، وراحوا يمكرون ويدبرون لينفذوا أبشع جريمة غادرة خئون، بعد أن أعيتهم مواقف العزيمة الصارمة الماضية التي لا ينحسر مدها، ولا يتوقف توثبها في ثبات ورسوخ من الإيقان الذي ملأ حياة محمد ﷺ، وحياة أصحابه معه، فاستهانوا بكل بلاء، واحتملوا كل إيذاء وتعذيب، وسخرية واستهزاء، فلم يبقَ أمام ظلم ذوي القربى إلا قاصمة الظهر، فقد طرقوا كل باب من أبواب الشر والفجور، فلم يُجْدِهم شيئاً، وانتثروا آخر سهامهم، فلم يجدوا فيها إلا سهماً واحداً لم يجربوه،

ذلك أن يقتلوا محمداً ﷺ علانية ليجعلوا قومه بني هاشم أمام عاصفة لا قبل لهم بالوقوف أمام زمجرتها وتدميرها.

أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب الزهري فيما رواه عنه تلميذه موسى بن عقبة صاحب المغازي، قال: ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية

تدبير أبي طالب لحماية رسول الله ﷺ من الاغتيال

فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك، مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً، وذلك في المحرم من السنة السابعة من النبوة.

ثم أمر رسول الله ﷺ من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى الحبشة، وهذه هي الهجرة الثانية، ومن قوي على البقاء بمكة دخل مع النبي ﷺ وقومه الحصار بالشعب.

سبب كتابة الصحيفة الظالمة وغايتها

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ، واجتمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش، فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم إلا أن يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

وكتبوا بمكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق ألّا يقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا محمداً ﷺ للقتل، فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركون طعاماً يقدم مكّة، ولا بيعاً، إلا بادروهم إليه فاشتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ.

شدة حرص أبي طالب على حماية رسول الله ﷺ وتدبيره لذلك

وكان من شدة حرص أبي طالب على رسول الله ﷺ وبالغ حياطته وحفظه أنه كان مدة زمن الحصار إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه المعدّ لنومه حتى يرى ذلك من أراد به ﷺ مكراً لاغتياله، فإذا نوّم الناس أمر أحد بنيه أو إخوته، أو بني عمه

فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه.

فلما كان رأس ثلاث سنين - أي من ابتداء دخولهم الشِّعْب - تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن بني قصي، ورجال سواهم من قريش، قد ولدتهم نساء من بني هاشم، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم، واستخفوا بالحق، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر، والبراءة منه.

آية الله في صحيفة المقاطعة الظالمة

وبعث الله عز وجل على صحيفتهم التي كان المكر فيها برسول الله ﷺ الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق.

ويقال: كانت معلقة في سقف البيت، ولم تترك اسماً لله عز وجل فيها إلا لحسته، وبقي ما كان فيها من شرك أو ظلم، أو قطيعة رحم.

وفي رواية لصاحب العيون عن ابن هشام قال: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: «يا عم إن ربِّي قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسماً لله إلا أثبتته، ونفت منها القطيعة والظلم والبهتان».

سعي أبي طالب بما أخبره به رسول الله ﷺ من آية الله في صحيفة المقاطعة

قال أبو طالب: أربك أخبرك بهذا؟ قال (نعم) قال أبو طالب: فوالله ما يدخل عليك أحد، وأطلع الله عز وجل رسوله على الذي صنع بصحيفتهم، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب، فقال أبو طالب: لا والثواقب ما كذبني، فانطلق يمشي بعصابة من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد وهوحافل من قريش، فلما رأوهم عامدين إليهم أنكروا ذلك، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء، فأتَوهم ليعطوهم رسول الله ﷺ، فتكلم أبو طالب، فقال: قد حدثت أمور بينكم لم تذكر لكم، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح - وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة، قبل أن يأتوا بها - فأتوا بالصحيفة معجبين بها، لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم، فوضعوها بينهم،

وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم وعشيرتكم، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم.

فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه نَصَف.

إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني أن الله عز وجل بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم، ومحا كل اسم هو له فيها، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا، وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا، فوالله لا نسلمه أبداً حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم.

قالوا: رضينا بالذي تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب، قالوا: والله إن كان هذا قط إلا سحر من صاحبكم فارتكسوا، وعادوا بشرِّ ما كانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله ﷺ، وعلى المسلمين.

كاتب الصحيفة وما صبَّه الله عليه من بلاء

وهذه الرواية تقول: إن الصحيفة كانت عند هشام بن عمرو ابن الحارث العامري، وقيل هو كاتبها، والمعروف أن الصحيفة عُلِّقت في جوف الكعبة تأكيداً للتمسك بما فيها من عهود ومواثيق، وفي كاتبها بعد هذا القول اختلاف، قيل: إنه منصور بن عكرمة، وقيل: إنه بغيض ابن عامر، وقيل: إنه النضر بن الحارث، وفي هؤلاء الثلاثة قيل: فشَلَّت يده أو أصابعه.

قال السهيلي في «الروض»: وذكر أن منصور بن عكرمة كان كاتب الصحيفة فشَلَّت يده، وللنسَّاب من قريش في كاتب الصحيفة قولان، أحدهما أن كاتب الصحيفة هو بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، والقول الثاني أنه منصور بن عبد بن شُرَحْبيل بن هاشم من بني عبد الدار، وهو خلاف ابن إسحاق الذي ذهب فيه إلى أن كاتب الصحيفة هو منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي.

قال السهيلي: ولم يذكر الزبير في كاتب الصحيفة غير هذين القولين، والزبيريون أعلم بأنساب قومهم.

شدة الحصار واحتمال المحاصرين وفجور المحاصرين

وقد كانت المحنة في هذا الحصار الظلوم شديدة، قاسية، موجعة، مؤلمة، قابلها المؤمنون بالصبر الجميل، والتحمل الكريم.

قال السهيلي: إنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق السمر، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص، روي أنه قال: لقد جعت حتى إني وطئت على شيء فوضعته في فمي وبلعته، وما أدري ما هو إلى الآن.

وفي رواية يونس: أن سعداً قال: خرجت ذات ليلة لأبول، فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها، ثم رضضتها وسفسفتها بالماء، فقويت بها ثلاثاً.

وكان طغاة المشركين وهم مستغرقون في عتوهم وفجورهم إذا قدمت العير مكة يأتي أحد هؤلاء المحصورين السوق ليشتري شيئاً من الطعام لعياله، فيقوم المتبوب بلعنة الله أبو لهب عدو الله فيقول: يا معشر التجار، غالُوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغَون من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيزكّيهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وعرياً.

كاتبها ماحيها

ومن عجائب حكمة العليم الحكيم عز شأنه أن أحسن القوم بلاء، في كشف هذه الغمة ونقض الصحيفة الظالمة الفاجرة هو أشدهم لها في بدء أمرها حماسة، كاتبها كما قيل - والأمين على حفظها - كما قيل أيضاً - هشام بن عمرو بن لؤي، وأبوه عمرو أخو نضلة بن هاشم لأمه، الذي بدّل الله شدته على المؤمنين رأفة ورحمة، وجفاءه عطفاً، وقطيعته وصلاً، فكان من أوصل القوم للمؤمنين ومن معهم، وكان شريفاً في قومه ذا مروءة ونخوة.

كان ـ كما يقول ابن إسحاق ـ يأتي بالبعير ليلاً قد أوقره طعاماً حتى إذا أقبل به فم الشِّعب خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه، فيدخل الشِّعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره بزاً أو براً فيفعل به مثل ذلك.

تحرك عواطف الحمية والقربى مزق صحيفة المقاطعة الظالمة

قال محمد بن سعد: كان هشام بن عمرو العامري أوصل قريش لبني هاشم حين حصروا في الشِّعْب، أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أحمال طعاماً، فعلمت بذلك قريش، فمشَوا إليه حين أصبح فكلّموه في ذلك، فقال: إني غير عائد لشيء خالفكم فانصرفوا عنه، ثم عاد الثانية فأدخل عليهم ليلاً حملاً أو حملين، فغالظته قريش وهمت به، فقال أبو سفيان ابن حرب: دعوه رجل وصل أهل رحمه، أما إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن بنا.

وهو أول من نهض في نقض الصحيفة الظالمة، جمع إليه من صناديد قريش ثلة لم يزل يفتل لهم في الذروة والغارب حتى استنزلهم إلى رأيه، فمشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، أخت أبي طالب، وعمة رسول الله ﷺ، وهذه سياسة في الرأي تدل على ثقوب فكره، وذكاء قريحته، وتأتِّيه للأمور من قبلتها ووجهها، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت لا يباع لهم، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم، أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً.

فانظر إلى معرفته بدخائل النفوس وإثارة حفائظها لتقدم على ما تريد غير مبالية بما يكون من كوائن الأخطار في سبيل الوصول إلى الهدف.

فقال له زهير وقد استهواه منطقه: ويحكم يا هشام!! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها، قال هشام: قد وجدت رجلاً قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال زهير: ابغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب هشام إلى المطعم بن عدي، فقال له: يا مُطعِم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه، أما واللهِ لو أمكنتموهم من هذه لتجدنَّهم إليها منكم سراعاً، قال مطعم: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانياً، قال: من هو؟ قال أنا، قال: ابغنا ثالثاً، قال قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعاً، فذهب هشام إلى أبي البَخْتَري ابن هشام، فقال له نحواً مما قال لمطعم بن عدي، فقال أبو البختري، وهل من أحد يعين على ذلك؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال ابغنا خامساً، فذهب هشام إلى زمعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابته وحقهم، فقال زمعة: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمّى له القوم. فاتعدوا خَطْم الحَجُون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدَوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشقق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة!!

لؤم نحيزة أبي جهل جعله يقف موقفاً لئيمًا

قال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبتَ والله لا تُشق! قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، مارضينا كتابتها حيث كتبت، قال أبو البختري، صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به، قال المطعم ابن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك، فقال المخذول الفاجر أبو جهل: هذا أمر قُضي بليل، تُشووِر فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم).

وكانت تلك الوثبة في القيام لنقض الصحيفة الظالمة القاطعة بعد أن

أخبر رسول الله ﷺ عمه أبا طالب بما أخبر به بالوحي في شأن الصحيفة، وتحدث به أبو طالب إلى ملأ قريش، فوجدوه كما قال الصادق المصدوق، عندما أتوا بالصحيفة ونظروا فيها، فقالوا عناداً وفجوراً: هذا سحر، وعزموا على المضي في عتوهم وعنادهم ولكنهم فوجئوا بهشام بن عمرو ومن قام معه من صناديدهم ينكرون ما في هذه الصحيفة القاطعة من الظلم وغلظ الأكباد، وهمَّ المطعم بتشقيق الصحيفة، فلم يجدوا فيها إلا (باسمك اللهم) وباء ملأ قريش بالخزي والخذلان، ونصر الله رسوله ﷺ.

وقد استفحل فجور أبي جهل في هذه المحنة، فكان يترصد كل شيء يدخل إلى الشعب ليمنع ما عسى أن يكون فيه بعض الإسعاف للمحصورين، وهم يقاسون مع نسائهم وأطفالهم مرارة الجوع والعري في محبسهم وعزلتهم، فقد ذكر سائر الرواة أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام ابن خويلد، ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة، وهي في الشعب، فتعلق به، وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري بن هشام، فقال: ما لك وله، قال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، قال أبو البختري: طعام كان لعمته عنده، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خَلِّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ له أبو البختري لحي بعير فضربه به فشجه ووطئه وطأً شديداً، وحمزة رضي الله عنه يرى ذلك، ويكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، فيشمتوا بهم، ورسول الله ﷺ على ذلك دائب يدعو قومه ليلاً ونهاراً سراً وجهراً.

عودة النشاط إلى سير الدعوة

فلما انتهى أمر هذه الصحيفة الظالمة القاطعة وأفسدها الله بحكمته وتدبيره وجعل فسادها على أيدي قوم من صناديدهم وغطاريفهم، وفتَّ ذلك في أعضادهم، وفرق كلمتهم وجللهم بالعار والشنار خرج رسول الله ﷺ ورهطه، فعاشوا وخالطوا الناس، وعادت دعوة الإسلام إلى سيرتها الأولى، يحملها رسول الله ﷺ إلى مضارب القبائل ومجتمعات الناس في المواسم والأسواق، وكان ﷺ يخرج إلى محافل العرب يسأل عن أشراف الناس وساداتهم، ويجلس إليهم يدعوهم إلى إيوائه حتى يؤدي رسالة ربه،

فما كان يجد عند أحد منهم خيراً، يقولون له: وهم يردُّونه أقبح الرد: قوم الرجل أعلم به، حتى قيّض الله له من ادَّخرهم في أزل الغيب لنصرة دينه والتشرف بإيواء نبيه ﷺ، أولئك أنصار الله وأنصار رسوله وكتائب الإسلام.

عــام الحـُـزن

وتوالي اشتداد المحن

كان خروج النبي ﷺ من محنة الحصار، وتقاسم المشركين على فجور الكفر، هو ومن معه من المؤمنين الذي بَقوا في مكة، ولم يهاجروا مع إخوانهم أصحاب الهجرة الثانية إلى الحبشة ومن دخل معه من بني هاشم والمطلب حمية قومية، وهم على دين قومهم من الشرك والوثنية في السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة بثلاث سنين.

وقد كان الدخول إلى الشِّعْب وبدء الحصار هلال المحرم سنة سبع من النبوة وكانت مدة هذا الحصار الظلوم ثلاث سنين في رواية موسى ابن عقبة، أو سنتين في رواية محمد بن سعد، وقد ذكر ابن إسحاق الروايتين على الشك، فقال: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً، وقد كانت هذه المحنة لوناً من ألوان التربية التي تعهد الله تعالى بها نبيه محمداً ﷺ، ليعدّه لتحمل أثقال الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالاته، بما كان فيها من شدائد ومحن وتمحيص لعزائم أهل الإيمان.

كان خسران ملأ قريش وفجار عتوها غصصاً في حلاقيمهم زادهم عناداً وفجوراً

وقد حزَّ في أنفس طغاة الشرك أن يبوء بالخسران المبين تدبيرهم السيء، ومكرهم الحقود، إذْ ردّ الله تعالى كيدهم في نحورهم، وأحاق بهم سوء مكرهم، فشرقوا بما دبّروا وازدادوا عتواً في كفرهم وفجوراً في عتوهم، فافتنوا في تعذيب من تمكنوا من تعذيبه من المؤمنين، ومنعوهم من كل ما يحفظ عليهم ذماء الحياة ويسد الرمق، والمؤمنون صابرون محتسبون، لا يزيدهم هذا الطغيان إلا رسوخاً في يقينهم، وإيماناً بدينهم، واستمساكاً بعقيدتهم، واستشرى الحقد في صدور أحلاس الوثنية فأحرق قلوبهم، وزئر

كل قبيل منهم بكل من كان يمت إليهم من المؤمنين بصلة قرابة، أو ولاية أو حلف، فلم ينل ذلك من إيمانهم شيئاً، فكان هذا الثبات على الإيمان تحت أسواط التعذيب أغيظ لملأ الكفر من عتاة المشركين، ولا سيما أن النبي ﷺ بعد أن خرج بمن معه من المؤمنين من محنة الحصار مظفّراً قوياً، ماضي العزيمة، لا يصده عن المضي في نشر دعوته فادح البلاء، ولا يثنيه عن تبليغ رسالته زمجرة الطغيان ـ ازداد تحركه وازداد اتصاله بالناس في مجتمعاتهم ومحافلهم وأنديتهم، يدعوهم إلى الله، ويسمعهم آياته، فلم يكن ﷺ يسمع بمنزل شريف من أشراف العرب إلا جاءه ودعاه وقومه إلى الله، فازداد بذلك انتشار الدعوة، وتسامعوا بتفاصيل محنة الحصار وتقاسم الطغاة على الكفر والقطيعة، وعرفوا تأييد الله تعالى لنبيه ﷺ في نقض تلك الصحيفة الظالمة التي تعاهد فيها الظالمون، وتقاسموا على القتل والفتك بأبشع صوره، وذاع في أسواق العرب ومواسمهم ما وقع في الحصار من معجزات باهرات وآيات قاهرات.

مواقف الجمهرة من الدعوة

فمن الناس من كان يسمع النبي ﷺ ويُؤْخَذ بما يسمع من هداية فيحسن الرد، ويقف حائراً لا يخطو إلى ساحة الإيمان، ومنهم من كان يستمع إليه ﷺ ويسيء الرد في جفوة جاهلة وعنجهية فاجرة، وبأو مغرور، فيقول لهم النبي ﷺ: «إني لا أكره أحداً منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه، فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنما أريد أن تحرزوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالة ربي، وحتى يقضي الله عز وجل لي ولمن صحبني بما شاء الله» فلم يقبله أحد منهم.

إن في هذه الكلمات النبوية الشفافة من وداعة العرض وسموّ الإشفاق ما ينطق الشم الرواسي، ولكن الهدى هدى الله.

ومن الناس من طمع واشرأب للدنيا، ورأى في عرض النبي ﷺ نفسه عليهم في مضاربهم ومنازلهم يدعوهم إلى أن يؤوه ويحرزوه حتى يبلغ رسالة ربه فرصة سانحة لتحقيق مآربه من العلو في الأرض، فكان النبي ﷺ يفهمهم في هدوء ويقين أن أمره وأمر دعوته ورسالته ليس أمر

دنيا تحاز، ولا مطامع فيها تنجز، ولا مآرب من مظاهرها تحقق، وإنما أمره أمر دعوة إلى الله الحق، مالك الدنيا والآخرة، وهو ﷺ ليس له من الأمر شيء، والأمر كله بيد الله يضعه حيث يشاء، وهو ﷺ في أشد الحاجة إلى من يحرزه ويأويه ويحفظه مما يراد به من القتل والفتك، لكنه رسول الله ـ ﷺ ـ، ليس عليه إلا بلاغ رسالة الله، وليس له أن يعد أحداً بأن الأمر بعده له، لأن الملك لله تعالى يؤتيه من يشاء، وليس وراء ذلك منزلة من منازل الصدق والأمانة والإخلاص.

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري أنه ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم يقال له (بَيْحَرة) بن فراس: واللهِ لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال للنبي ﷺ: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال النبي ﷺ: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» قال (بَيْحَرَة): أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك، فأبَوا عليه.

قال ابن إسحق: فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كانت أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما كان في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر هل لها من تلاف؟ هل لذناباها من مطلب؟ والذي نفس فلان بيده ما تقوّلها إسماعيلي قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟.

محن في دروس ودروس في محن ذاك هو منهج الدعوة إلى الله

هذه المحن القاسية كانت صيقلاً لعزائم المؤمنين، ومدداً لعزيمة رسول الله ﷺ، ودروساً للتربية في مستقبل الدعوة القريب والبعيد، وتأسيساً لمنهج الوراثة في الدعوة إلى الله.

ومن ثَمَّ لم تكن هذه المحن سوانح تمر، ولكنها كانت ثوابت تتوالى

صورها وتتتابع ألوانها، فلم تكن تمضي محنة حتى تتبعها شدة، ولم تكد تذهب شدة حتى تليها محنة، وكان الاعتصام بالصبر الصبور هو الدرع الحصينة التي يَئِل إليها رسول الله ﷺ وأصحابه، ولم يعرف أن موقفاً من هذه المواقف استفزه ﷺ، فغير من هدوئه ووداعته، ولم يعرف أن أحداً من أصحابه الأولين آثر العافية على مرارة الصبر، والرضا بمحن البلاء.

ولهذا كان لا بد أن تستوفي المسيرة نصيبها من التمحيص الذي يصنع حياة المجتمع المسلم، ليقوى على الإمساك بزمام القيادة الإنسانية إلى آفاق العزة وصادق الإيمان بالله إلهاً واحداً، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

رُزْء الإسلام ونبيه ﷺ
بوفاة خديجة رضي الله عنها

كانت خديجة رضي الله عنها أعرف الناس وأقدرهم على وزن ما حُمل رسول الله ﷺ من أمانة رسالته

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها وزيرة صدق للنبي ﷺ على دعوته، تواسيه وتخفف عنه مواجع ما يلقى من الناس، فيسكن إليها، وتطمئن نفسه إلى مواساتها، ويستعيد نشاطه بما تصبه في قلبه من حنان الزوجة التي تَقْدُر حياة هذا الزوج الأكرم قدرها، وتعرف له مكانته في حمله أعظم أمانة حملها كاهل بشر في الحياة، وقد شهدت منه في مشرق رسالته ما لم يشهده غيرها من الناس، فآمنت به وصدقته رسولاً أميناً لله تعالى، يتلقّى وحيه ويبلّغ رسالته، فيلقى من البلاء ما تنوء تحت ثقله ثوابت الرواسي، فَتُنفِّس عنه وتشجعه وتعينه على الصبر، وتفتح له باب الأمل، وتمسح عن صدره ضائقات الصدور، وتعيد إليه البسمة الحانية، وتهمس له بلواطف العواطف، فينهض من عندها وهو أكمل الناس يقيناً وأرضاهم نفساً وأرهفهم حساً، وأقواهم عزيمة، وأصدقهم صبراً، وأرسخهم إيماناً برسالته، وأعرفهم بموجبات حمل هذه الرسالة وأرضاهم بتحمل أثقالها.

وقد قضت السيدة خديجة رضي الله عنها في كنف رسول الله ﷺ أشق مراحل الدعوة، فكانت حياتها معه أوفى حياة زوجة لزوجها، وأبر حياة شريكة لشريكها، كانت تشاركه مباهجه ومسراته، وتهيىء له أسباب تفرغه لعبادة ربه، تخدمه في بيته بقلبها وعقلها وروحها وبدنها، وترد عنه

عاديات الحياة بين قومه، حتى إذا جاءته النبوة بطلائعها ووحيها كانت أول من آمن به وصدقته وزادته من حبها وحنانها ما كان له نعم المعين في هذه المرحلة التي كانت مرحلة إعداد للرسالة الخاتمة الخالدة.

صورة وصفية للرسالة الخاتمة الخالدة

ورسالة محمد ﷺ ليست كالرسالات التي سبقتها في المنهج العملي، لأنها رسالة عامة خاتمة لجميع الرسالات الإلٓهية، بدأت بعنف التصفية لعلائق البشرية بالطبيعة الروحانية التي يتلقى بها وحي التبليغ عن الملأ الأعلى ـ كما فصلناه عند الحديث عن بدء الوحي ـ، فارتاع النبي ﷺ من هذه المفاجآت العنيفة، ورُعِب لفرط ما لقي من الشدة وغرابة اللقاء والتلقِّي، وعاد إلى كنف الحنان والإشفاق التعاطفي في حياطة الوفاء الزوجي عند هذه الزوجة الوفية، وحدَّثها بما رأى، ولقي وتلقَّى، فعرفت بفراستها الواحية، وحسِّها المرهف، وشعورها المستشرف أن أمر هذا الزوج الأكرم لم يعد أمر حياة زوجية يملؤها الحنان والوفاء، ولكنها وثبت إلى حياة جديدة في معالمها التي تنبىء عنها إرهاصاتها، إلى حياة رسالة ورسول، حياة دعوة إلى ما لم تعرفه البيئة التي يعيش فيها محمد ﷺ، وما لم يعرفه المجتمع العام الذي يتقلب بين جنباته محمد ﷺ، إلى حياة تهدم وتبني، تهدم الشرك والوثنية، وتبني التوحيد، تهدم الظلم وتبني العدالة، تهدم الباطل في جميع صوره ومظاهره وتبني الحق بأدلته وبراهينه، تهدم الاستعباد المادي وتبني الحرية الروحانية، تهدم الشر وتبني الخير، تهدم التقليد البليد الأبله، وتبني انطلاق العقل إلى المعرفة والهداية.

تسامي خديجة بحياة الزوجية الوفية إلى حياة الصديقية المؤمنة

فلترتفع خديجة الصدّيقة الأولى بحياة الزوجية الوفية إلى حياة الصدّيقية العظمى حياة الإيمان بالرسالة والرسول، ولتنهض بالعبء المثقل في حياتها الجديدة مع زوجها رسول الله ﷺ، ولتكن معه وزيرة صدق، ورفيق إخلاص وفداء، ولتكتشف الطريق بأسلوبها الخاص لتزيده تثبيتاً في النهوض بحياته الجديدة، ولتضاعف له حبّها وحنانها وقد ذكر لها ﷺ مخاوفه من أن لا يستطيع النهوض بعبء ما حُمِّله في حياته الجديدة، فكشفت له ﷺ ما يعلمه من نفسه من أنه مجمع مكارم الأخلاق، وموئل الفضائل، ومنتجع

الشمائل، ومنبع المحامد، ومصدر الخير، هو الصادق الأمين، الـذي لا يُخْزى ولا يخذل، سنة الله في الحياة، فليفرغ روعه، وليزداد إيماناً بأنـه المنصور المنتصر، وليزداد يقيناً بأنه سينهض بعبء رسالته، لأن الله اجتباه لها و ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

ورقة يؤكد فراسات خديجة وتوسماتها في رسول الله ﷺ

وهؤلاء أهـل العلم الأول فلتـذهب خديجـة إلى عليمهم وقارىء الكتاب الأول: ورقة بن نوفل، ليخبرها بما عنده بعد أن تحدثه بما رأت وسمعت، وكان تصديق ورقة آية من فراسة خديجة رضي الله عنها، وأنبأ ورقة محمداً ﷺبالنبأ العظيم، نبأ الرسالة الخاتمة وأثقالها، فكان ذلك إيذاناً لخديجة بأن حياة الدعة والراحة قد ولّت، وأن حياة الجهاد والنضال والشدة قد بدأت، فلتكن وقفتها إلى جانب محمد ﷺ في حياته الجديدة، حياة الرسالة والرسول وقفة تتسامى إلى مستوى ما ينتظره من شدة وكفاح، وَصَدقت خديجة ما عاهدت الله عليه، بسبقها إلى الإيمان سبقاً لم يشاركها فيه أحد ولا يلحقها فيه أحد، ومضت رضي الله عنها في طريق هذا السبق تقفو أثر رسول الله ﷺ، وتتبع خطواته، لتحيط بخبره علماً، حريصة عليه أشد ما يكون حرص زوجة أمينة وفية على زوج حبيب، حفيظة عليه أشد ما يكون الحفظ من صدِّيقة راسخة اليقين برسالة رسول كريم.

ومرّت الحياة في ظل وفاء الزوجية وصدِّيقية الايمان بين محمد الزوج الحبيب، ومحمد الرسول الكريم، وبين خديجة الزوجة الوفية، وخديجة الصدّيقة المؤمنة، برسالة هذا الرسول الكريم.

عمل خديجة في بيتها بالوفاء الزوجي وتربية أولادها ونشر لواء الصديقية المؤمنة كان أعظم عمل تؤيد به الدعوة إلى الله

وبدأ الكفاح الصارم، والنضال العتيّ بين الحق والباطـل، الحق الذي تمثله رسالة محمد ﷺ والباطل الذي يصوره فجور الشرك والوثنية في ملأ الكفر، ولم يكن لخديجة في هذا الكفاح المرير صوت يسمع، لأنها رضي الله عنها كانت معتصمة بأدب أدبها الله به، وعلم علمها الله إياه، فهي زوج محمد ﷺ وأم ولده قبل أن تأتيه رسالة ربه، فعملها في البيت وهو عمل كبير عظيم، يسدي للرسالة فضلاً ويمدها بقوة، تستجدُّ بها ثباتها أمام عتو الكفر، لأن محمداً الرسول ﷺ أحوج ما يكون وهو يخوض نضالاً

مريراً في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته إلى عاطفة الوفاء في زوجة صادقة الإيمان برسالته، تنسكب في قلبه برداً وسلاماً إذ يؤوب إلى بيته، فيحدث ويتحدث في جو عاطفي يظلله الإيمان والحب، وتهون عليه الصعاب وتجدد عزائمه، ويقوى صبره، ويجتمع أمره، ويخرج إلى حياة الناس مجتمع الإرادة، سوي الشخصية، مسيح الآلام، فسيح الآمال، رَويّ الفؤاد بالصفح والعفو والإحسان.

وبهذا الأدب الإلهي الذي اعتصمت بعواصمه خديجة رضي الله عنها عاشت في كنف محمد الزوج ﷺ، ومحمد الرسول ﷺ، تتقاسم معه الشعور بالسعادة في التطلع إلى آمال المستقبل في آفاق الحياة، وتقاسمه الإحساس بأعباء الحاضر وآلامه في ظل أثقال نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، معتصمة بالصبر الجميل تأسياً به ﷺ في مجالات الحياة فيما ترى بين يديها من حاله ﷺ بعد إذ أنزلت عليه الرسالة بشدائدها، وقوة دفعها الذي استحوذ على إحساساته ومشاعره وسائر قواه الفكرية والروحية والبدنية.

حتى إذا بلغ طغيان أحلاس الشرك من ملأ الكفر ذروة الفجور العتيّ، إذ تعاقدوا فيما بينهم، وتعاهدوا بعد أن يئسوا من أن ينالوا من رسول الله ﷺ نيلاً، وكتبوا بهذا التعاهد وثيقة في صحيفة ظالمة، ضمنوها مقاطعة بني عبد مناف ممن يقف إلى جانب محمد ﷺ لنصره وحمايته من سوء ما يريد الطغاة الفجّار وسائر المؤمنين بدعوته المصدِّقين برسالته من غيرهم، فلا يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ويمنعون عنهم كل ما يرفقهم في حصارهم، وأن لا تأخذهم بهم رأفة أبداً حتى يسلموا محمداً للقتل أو يموتوا صبراً.

ودخلت خديجة رضي الله عنها حصار الشعب مع زوجها محمد رسول الله ﷺ تشاركه آلام المحنة ومرارتها راضية صابرة محتسبة، وظلت معه تواسيه وتخفف عنه وقع هذا الظلم الفاجر بما تبديه من احتمال ورضا، وهو ﷺ ساكن القلب إلى وفائها ومودتها وحبها له حب جِدّ وإجلال، وحرص وحفاظ.

حتى قضى الله تعالى قضاءه في هذه المقاطعة الظالمة التي مكثت سيفاً مصلتاً على أعناق كل من يئل إلى محمد ﷺ إيماناً به وتصديقاً برسالته أو حمية قومية له، فمزقت صحيفتها بعد ثلاث سنين مِن كَتْبها بأيدي مَنْ كتبها، وقيام من عاهد على ما فيها من ظلم وفجور وقطيعة.

وخرج رسول الله ﷺ من هذا الحصار ظافراً منصوراً بما صنع الله له من تدبير حكيم مُحْكَم، يتابع سيره في نشر دعوته وتبليغ رسالته، وخرجت معه زوجه الوفية خديجة إلى بيتها تتابع سيرها في الحياة زوجة أمينة، مستظلة بظل الوفاء وصادق الإيمان.

موت خديجة وتسليم الله عليها وتبشيرها بالنعيم المقيم

ولكنها رضي الله عنها لم تلبث إلا قليلاً بعد الخروج من الحصار حتى لبّت نداء ربها راضية مرضية، مبشرة من سيد الخلق زوجها الحبيب الرسول الكريم بالنعيم المقيم في فراديس الجنان، روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ وهو بغار حراء ـ كما عند الطبراني في رواية سعيد بن كثير ـ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام، أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبَشِّرْها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

قال ابن حجر في الفتح: زاد الطبراني في رواية سعيد بن كثير المذكورة: فقالت: هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام. وعند النسائي زيادة: وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته.

معرفتها بعظمة الله في ردها على سلامه عليها

قال ابن حجر في الفتح: قال العلماء: في هذه القصة دليل على وفور فقهها، لأنها لم تقل وعليه السلام كما وقع لبعض الصحابة حيث كانوا يقولون في التشهد: السلام على الله، فنهاهم النبي ﷺ، وقال: «إن الله هو السلام فقولوا: التحيات لله» فعرفت خديجة لصحة فهمها أن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين.

وقد مكثت عند رسول الله ﷺ زوجة أمينة وفية، رزقه الله منها جميع

ولده إلا إبراهيم عليه السلام فأمه السيدة مارية القبطية رضي الله عنها ـ خمساً وعشرين سنة.

قال الحافظ ابن حجر: وقد تقدم في أبواب بدء الوحي بيان تصديقها للنبي ﷺ في أول وهلة، ومن ثباتها في الأمر ما يدل على قوة يقينها، ووفور عقلها وصحة عزمها، لا جرم كانت أفضل نسائه، ثم قال ابن حجر: وروى الفاكهي في كتاب (مكة) عن أنس أن النبي ﷺ كان عند أبي طالب، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة، فأذن له، وبعث معه جارية يقال لها (نبعة) فقال لها: انظري ما تقول له خديجة؟ قالت (نبعة) فرأيت عجباً، ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب، فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها، ثم قالت: بأبي وأمي، والله ما أفعل هذا لشيء، ولكن أرجو أن تكون أنت النبي الذي ستبعث، فإن تكن فاعرف حقي ومنزلتي، وادعُ الإله الذي يبعثك لي، قالت (نبعة) فقال لها: والله لئن كنتُ أنا هو قد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبداً، وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً.

والظاهر أن هذه القصة ـ إذا صحت ـ كانت في فترة رغبة عمِّه في زواجه بها.

وإلى هنا يقف القلم قليلاً ليستشف مستشرفاً لآفاق الغيب ليرى ما نال رسول الله ﷺ من شديد الأسى وبالغ الحزن على فقد لون من الوفاء الصدوق، والحب العقول الأمين، بفقد أوفى زوجة وأصدق صدّيقة بموت خديجة رضي الله عنها، وليعلم أية دعامة من دعائم الإخلاص الوفي، وقوة اليقين، ووفور العقل كانت في إهاب هذه الشخصية الصامتة الفريدة في حياة هذه الزوجة الأمينة الوفية والصدّيقة المؤمنة، وما كان لها من أثر في سير الرسالة فترة شدتها ومطلع إشراقها، بما كانت تضفيه على النبي ﷺ من حنان، يمسح عن جبينه عرق المشقة، مما كان يجده في تلقّيه وحي الرسالة وفي طريق تبليغه ما يوحي إليه، من الأذى وفادح البلاء.

ترى ماذا يستطيع القلم أن يكتب وهو سابح في آفاق هذه الحياة

الجديدة ليستشف ويرى ليسجل؟ أجل، إنها خديجة زوج محمد رسول الله ﷺ وأم ولده، وأول المؤمنين والمؤمنات به نبياً ورسولاً، الطاهرة الكاملة، وكفى، إذْ لا فخر وراء ذروة المجد والسؤدد الذي لا يتكرر في الحياة أبداً.

رُزْء الحمية القومية
بفقد أبي طالب

كان أبو طالب ـ واسمه عبدُ مناف بن عبد المطلب ـ عم رسول الله ﷺ، أخو أبيه عبدالله بن عبد المطلب شقيقه لأبيه وأمه ـ ووريث مكانة أبيه عبد المطلب في زعامة بني عبد مناف وهاشم سادة قريش القوّامين على خدمة البيت الحرام بمكة.

كفالة أبي طالب محمد ﷺ

وكان أبو طالب وصيّ أبيه في كفالة حفيده محمد بن عبدالله ـ ﷺ ـ بالقيام على رعايته وحفظه وحمايته، وكانت سن محمد ﷺ يوم مات جده عبد المطلب ثماني سنوات، وقد ضم أبو طالب ابن أخيه محمداً ﷺ إلى حضن كفالته، وجعله مع عياله، يحوطه ويحفظه ويحرص على راحته أشد الحرص، وقام بكفالته أحسن القيام، وأحبه حباً لم يحبه أحداً من ولده، وصبّ به صبابة شديدة. لم يكن يطيق معها أن يفارقه، فكان ملازماً له في غدوه ورواحه وحلِّه وترحاله، وسفره وإقامته، ونومه ويقظته، وقد ثبت أنه صحبه معه في بعض أسفاره للتجارة وهو غلام يَفَعة، حتى شب محمد ﷺ في ظل هذه الكفالة شباباً روياً، ونشأ نشأة عزيزة كريمةحبيبة، واشتد ساعده، وبدرت رجوليته مبكرة، وشارك عمومته وأبناءهم في العمل ليكسب رزقه، وأبو طالب لا يغفل عنه لحظة، يسدّده في عمله ويوجهه في سعيه، راعياً، أو تاجراً، أو مقارضاً، واستوى شباب محمد ﷺ في ظل هذه الكفالة الموفقة، رجلاً ضرباً من الرجال لا تعرفه الجاهلية، في أخلاقها، وعاداتها، ومعارفها، فكان فيهم الأمين الصدوق، الوفي، الكريم الودود الألوف، وكان أبو طالب كثير العيال، قليل المال، وكان يهوي أن يرى ابن أخيه محمداً ﷺ يعيش عيشة سوية، لا يشعر فيها بضائقات الحياة وشظف العيش مع عياله.

تزويج محمد ﷺ خديجة بعد إتجاره في مالها

وكان أبو طالب يعرف أن خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية، الطاهرة الكاملة، وهي كثيرة المال واسعة الثراء، تقارض بعض من يقوم لها على الاتجار بمالها، وعرض على ابن أخيه محمد ﷺ أن يقوم على هذه المقارضة فيتجر لها في مالها على جُعْل تجعله له أفضل مما تعطي غيره، وأشار عليه بالذهاب إليها، وعرض نفسه عليها للقيام بمقارضتها في الاتجار بمالها، فأبت عليه عزة نفسه أن يقف في حياته من أجل كسب دنيوي موقفاً يشعر فيه بشيء ينزل به عن تساميه بالعزة والكرامة، وقرأ عمه على وجهه ذلك، فأرسل إلى خديجة في شأنه، فأسرعت مستجيبة تلبي طلب أبي طالب لما كانت تسمعه عن أمانة محمد ﷺ وصدقه وكرم أخلاقه، وأضعفت له في مكافأته على عمله في تجارتها، وكان ذلك مفتاحاً لخزائن الغيب التي ادخرها الله لمحمد ﷺ، وصدَّق الخُبْر الخَبَر، وعرفت خديجة عن محمد ﷺ ما لم يعرفه أحد غيرها، فخطبته لنفسها، وزوجه بها عمه أبو طالب، وأصدقها عنه صداق مثلها من العليَّات الشريفات، فكانت معه ﷺ كما كانت وفاء، وإخلاصاً، وحباً، ومواساة ثم إيماناً ويقيناً، وتطلعاً وفراسة قبل الرسالة وبعدها، حتى توفيت رضي الله عنها، حميدة رضية مرضية، مكرمة، لم يتزوج رسول الله ﷺ معها غيرها في مدى خمسة وعشرين عاماً عاشتها في كنف الزوجية معه، إكراماً لها، وحفاظاً على حبها، وصيانة لقلبها من الغَيْرة ونكد الضرائر، دلالة على عظم قدرها عنده ﷺ، ومزيد فضلها.

مواقف أبي طالب في حماية محمد ﷺ وهو يبلغ رسالة ربه

ولما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً إلى الناس كافة وقف ملأ الشرك والوثنية موقف العناد المستكبر، والمكابرة العاتية، والفجور الطاغي، فكذّبوه، وآذَوه وأتمروا به ليقتلوه، ووقف عمه أبو طالب يذود عنه، وينصره ويحميه، بكل ما أوتي من وسيلة وقوة، جعل نحره دون نحره، وحياته فداء لحياته كما فصلنا ذلك في مواقفه الكثيرة، فلم ينالوا من رسول الله ﷺ نيلاً إلا في غيبة من عمه ونصيره، ورسول الله ﷺ دائب النهوض في نشر دعوته إلى الله وتوحيده، لا يصده عن سيره شيء، فلا يهاب وعيداً ولا يرهب زجرة، واشتد حقد المشركين، وتعددت شكاواهم إلى أبي طالب

من ابن أخيه الذي سفَّه أحلامهم، وضلَّل آباءهم، وسب آلهتهم، وعاب ديانتهم، فكان أبو طالب يردهم ردّاً رفيقاً ويكلم النبي ﷺ فيما كلَّموه في شأنه، فيرى منه عزيمة ماضية، لا يصدها عن وجهها صاد، ولا يردها عن مضيها راد، إيماناً منه ﷺ برسالة نفسه، ووجوب تبليغها إلى الناس، مهما تكن الحوائل والعقبات، فكانت هذه القوة القاهرة في عزيمة رسول الله ﷺ تنفض عن كاهل أبي طالب ما يثقله من أعباء الذود عن ابن أخيه في دعوته ورسالته، وتغسل عن قلبه ما يعتريه من الضعف والوهن أمام تألب قومه عليه، وتَّجَمّعهم ضده فيشتد في نصرة رسول الله ﷺ، ويعلن ذلك في شعره القوي الرصين، لا يبالي غضبة ملأ الشرك وتهديدهم.

ولأبي طالب في مواقفه هذه قصائد مشهورة تعد من غرر أجود الشعر العربي في أقوى عصوره، ومن أشهر ذلك لاميته الذائعة التي يقول فيها في مدح رسول الله ﷺ وحوطه وحمايته وحقيقة ما جاء به من رسالة خالدة.

كذبتم ـ وبيت الله ـ نُبْزَى محمداً ولمّا نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نُصرَّع حوله ونُذْهَل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم في الحديد إليكم نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وما ترك قوم ـ لا أبا لك ـ سيداً يحوط الذمار غير ذرب مواكل

إلى أن قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمةٌ للأرامل
يلوذ به الهلاّك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل
لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد وإخوته دأب المحب المواصل

إلى أن قال:

فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها وزيناً لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله في الناس أيُّ مؤمَّل إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم، رشيد عادل غير طائش يوالي إلهاً ليس عنه بغافل
لقد علموا أن ابننا لا مكذَّبٌ لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

إلى أن قال:

فـأصبح فينـا أحمـد في أرومـة　　تقصّــر عنـه سَــوْرةُ المتـطاول
حَـدِبت بنفسي دونـه وحميتـه　　ودافعت عنه بالذُّرى والكلاكل
فــأيــده رب العبــاد بنصــره　　وأظهــر ديناً حقـه غير بـاطـل

ومن قوله في قصيدة طويلة:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم　　حتى أوسَّـدَ في التـراب دفينـا

هذه صورة من مواقف أبي طالب في حياطته رسول الله ﷺ وحمايته ومناصرته والغضب له، إذا ضمت إلى مواقفه العظيمة منذ كفالته له ﷺ شاباً يافعاً، وغلاماً فارهاً، ورجلاً مسدداً عاملاً في الحياة، ثم نبياً ورسولاً، ائتلفت من ذلك كله صورة كاملة في إطار كفاح أبي طالب ونضاله دونه ﷺ للذود عنه وحمايته.

وقد توج أبو طالب مـواقفه بـأشرف مـوقف، وأنبله، وأشجعه، وأقواه، وأوجعه لقلوب الملأ الوثني عن طغاة المشركين.

ذلك هو موقفه في النهوض لكبح جماح المستكبرين المتمردين من عتاة الكفر وقد تقاسموا على قتل محمد ﷺ علانية، وموقفه للقضاء على صحيفة الفجور التي تعاهدت فيها قريش على استئصال شأفة بني عبد مناف صبراً في حصار الشعب لوقـوفهم جانب أبي طـالب، ينصرونـه في مناصـرته لمحمد ﷺ ـ بتجميعه رجالات قومه من بني هاشم الذين انضم إليهم بنو المطلب، ودخلوا معهم في هذا الحصار الظلوم مدة ثلاث سنين، وبتدبيره حياطة رسول الله ﷺ والحفاظ عليه وحمايته من الاغتيال والفتك به، حتى قضى الله أمره بنقض الصحيفة الفاجرة، وتمزيقها شر ممزق.

وخرج أبو طالب مع قومه ومن ناصرهم بخروج رسول الله ﷺ من الشّعب ظافراً منصوراً، مؤيداً من الله تعالى بما أيده به من معجـزاته القاهرة، وآياته الباهرة، يتابع سيره في نشر دعوته وتبليغ رسالته إلى الناس في محافلهم ومجتمعاتهم ومواسمهم وأسواقهم، يعرضها على كل شريف قوم يذكر له، لا يناله من الأذى ما يصده عن قصده وغايته، تهيباً لعمه وناصره أبي طالب، السيد المطاع في قومه، القوي في حميته وحمايته، الشجاع في

غضباته، الجسور في مواقفه.

كانت خديجة وأبو طالب دعامتين من دعائم سير الرسالة في أزماتها

وهكذا كان رسول الله ﷺ في مدى عشر سنوات من نبوته بين حماية قوية من قومه بزعامة عمه أبي طالب، وبين سكون ووفاء، وصدق مؤازرة من زوجه الأمينة الوفية السيدة خديجة رضي الله عنها.

ذاك يدفع عنه الأذى وينصره، ويحوطه ويحميه، وهو يجول بدعوته بين مجتمعات الأقوام، وتلك تمسح عنه بحنانها ووفائها وصدق مؤازرتها ـ إذا عاد إليها من جولاته داعياً إلى الله ـ ما عسى أن يكون قد ألم به من مساقط جهالة الجهلاء، أو من سفاهة السفهاء، حتى قضى الله عز وجل قضاءه الذي لا يرد، وتوفيت الزوجة الوفية الصديقة الأمينة خديجة رضي الله عنها بعيد الخروج من الحصار الظالم، ثم أعقبت وفاتها وفاة حامي حمى الحمية القومية، الناصر القوي لرسول الله ﷺ، وهو في عنفوان النضال ومرارة الكفاح بأيام قلائل، فاجتمع على رسول الله ﷺ من الهم والحزن بوفاتيهما على التوالي ما لا تطيق حمله الراسيات الشوامخ، وطمع في الإساءة إليه اليوم من لم يكن بالأمس طامعاً، ونال منه اليوم من لم يكن بالأمس نائلاً، ولهذا سمّى عام وفاتهما عام الحزن.

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد قبل الهجرة بثلاث سنين، وكانت خديجة وزير صدق على الإسلام، وكان أبو طالب عضداً وناصراً على قومه، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً، فدخل رسول الله ﷺ بيته يقول: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب» وعند البيهقي فرجع إلى بيته، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي، فجعل يقول لها: «أي بنية!! لا تبكي، فإن الله عز وجل مانع أباك» وفي حديث هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «ما زالت قريش كاعين عني حتى مات أبو طالب.»

ولم ينس رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب فضل مواقفه في الذود عنه

وحياطته ونصره، وكان ﷺ يحب إسلامه، ولكن الهداية بيد الله تعالى يؤتيها من يشاء بفضله، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾[1].

روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب منتعلاً بنعلين يغلي منهما دماغه» ولم يأله دعوة إلى الإسلام رجاء أن يوفق فيؤمن غير أن القدر كان قد سبق بما شاء الله، روى البخاري في الصحيح عن ابن المسيِّب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ ـ وعنده أبو جهل ـ فقال: «أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا بكلماته حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملّة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنه» فنزلت: ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾[2] ونزلت: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾.

وصية أبي طالب لقومه

وقد ظل أبو طالب على حدبه وحرصه على رسول الله ﷺ إلى آخر لحظة من حياته، بل أراد أن يبقى أثر ذلك له بعد وفاته، قال السهيلي في الروض: وحُكي عن هشام بن السائب أو ابنه أنه قال: لما حضرت الوفاة أبا طالب جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدّم الشجاع، والواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلكم بذلكم على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب، وعلى حربكم أَلْب، وإني أوصيكم

---

(١) سورة القصص، آية: ٥٦.

(٢) سورة التوبة، آية: ١١٣.

بتعظيم هذه البَنِيَّة فإن فيها مرضاة للرب، وقواماً للمعاش، وثباتاً للوطأة، صِلُوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل وسعة في العدد، واتركوا البغي والعقوق، ففيهما هلكة القرون قبلكم، أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة والممات، عليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام. وإني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصدّيق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وايْمُ الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل البر في الأطراف، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته، وعظّموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصغت له فؤادها، وأعطته قيادها، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم، كونوا له ولاة ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة، ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي. ثم هلك أبو طالب.

سعي رسول الله إلى الطائف لتبليغ رسالته

لقد سدت منافذ تبليغ الرسالة بمكة بعد وفاة خديجة وأبي طالب

بعد وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ الذي كان القوة البشرية القاهرة في حمايته ﷺ، والذود عنه، ومناصرته، خلا الجو لأحلاس الشرك، وفجار الوثنية في مكة التي أظلمت فجاجها أمام الدعوة إلى الله تعالى، وضاقت بمواسمها، وأسواقها، ومحافلها ومجتمعاتها، وأنديتها ومضارب القبائل في بطحائها على رسول الله ﷺ؟ فلم يجد فيها متنفساً لدعوته، ولا منتجعاً لتبليغ رسالته، لأن سفهاء قريش، ومن ورائهم من أهل العتو والطغيان طمعوا فيها لم يكونوا يطمعون فيه حياة أبي طالب، ونالوا من رسول الله ﷺ ما لم يكونوا نائليه منه، وهم يرون عمه أبا طالب ينهض بحميته الهاشمية لحمايته ومناصرته.

وكان لا بد لرسول الله ﷺ من السير قدماً في القيام بنشر دعوته وتبليغ رسالة ربه، وأرض الله واسعة وهي بجميع أرجائها ومواطنها منازل للدعوة إلى الحق والهدى، وأينما يُشْرِق النور فهناك الأفق الذي تطلع منه شمس الهداية، فلتذهب الدعوة إلى الله عز وجل مذاهبها في الأرض، حيث يتاح لها، ولتفارق مكة إلى عودة ظافرة، تطهرها من أرجاس الفجور في أشباح البأو العنيد والاستكبار البليد.

والنبي ﷺ - في حدود أقصى استطاعته، وأبلغ مدى طاقته عليه أن يدأب في تبليغ وحي الله تعالى إلى عباد الله، لا يني، ولا يتوقف، فإذا سدّت منافذ التبليغ في جانب من الأرض بقيت سائر الجوانب والمواطن مَهْيَعاً يجب سلوكه.

فمكة بمن فيها من العتاة المعاندين، والفجّار المستكبرين، وما فيها من مهانة الشرك، وأوثانه أبت أن تستجيب إلى الإيمان بـدعوة الحق، وأبت أن تقبل هداية الله، وأعرضت مدبرة ماكرة، ووقفت سداً عنيداً دون نشر الدعوة إلى الحق، والخير، بل طغت وتجاوزت كل حد من العتو والفجور، ودبرت مؤتمرة لتفتك بالنبي ﷺ وتقتله غيلة وغدراً، لا لشيء إلا لأنه ﷺ يدعوهم إلى أن يقولوا ربنا الله وحده، لا ندّ له ولا شريك في ملكه ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾[1]

سوء رد زعماء الطائف على رسول الله ﷺ

ومن ثم سعى رسول الله ﷺ إلى الطائف ـ وفيها «ثقيف» وكانوا ـ كما قال المقريزي ـ أخواله، ولم تكن بينه وبينهم عداوة ـ يلتمس من أهلها النصرة والمنعة والاستجابة إلى توحيد الله وهدايته، فأقام فيهم ﷺ شهراً، يجتمع بساداتهم وأشرافهم، يدعوهم إلى قبول الحق ونصرته، قال ابن إسحاق: خرج إليها وحده، وقال محمد بن سعد: كان معه مولاه وحبه زيد بن حارثة، وكان يقيه بنفسه، ولما انتهى ﷺ من سبرها فلم يجبه إلى ما دعا إليه أحد عمد إلى نفر ثلاثة أخوة من سادتها وأشرافها، عبد يا ليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو، فجلس إليهم، ودعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من النصرة على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فردوا عليه أقبح رد، في عنجهية جافية، وجهالة جاهلة، وغرور مستكبر، فقال له أحدهم: هو يمرط ـ أي يسرق ـ أثواب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

كانت ثقيف في كفرها ألأم قوم في مكارم العرب

ثم قالوا له، وقد خافوا على أحداثهم منه: يا محمد اخرج من بلدنا، والحق بمحابك من الأرض، فقام رسول الله ﷺ، وقد يئس من

---

(١) سورة التوبة، آية: ٣٢.

خيرهم وخير بلدهم وطلب إليهم ﷺ إذْ تنكروا له ولدعوته ونصرته، وأساؤا الرد عليه أن يكتموا أمره وأمرهم، وما كان منهم إليه من الغلظة وسوء الخلق وتنكب سبل المروءة والنخوة العربية، لئلا يبلغ الخبر قريشاً فيزئرهم عليه، ويشمتوا به، ويزيدهم عتواً وفجوراً، فكانوا في هذه ألأم قوم في مكرمة عربية إذ أفشوا في قومهم ما كان منهم إليه من سوء اللقاء، وزادوا في مقابحهم فأغروا به عبدانهم وسفهاءهم، يسبونه، ويصيحون به سخرية واستهزاء، حتى جمعوا عليه غوغاءهم وأشرارهم ودعّارهم، وقعدوا له صفين على طريقه وهو ﷺ خارج من بلدهم، فلما مرّ بين صفّيهم جعل لا يرفع رجليه، ولا يضعهما إلا رضخوه بالحجارة، حتى اختضبت نعلاه بالدماء.

وقد أمعنوا في لؤم الفجور، فكانوا إذا أزلقته الحجارة، واشتد به الألم قعد إلى الأرض ليتنسم شيئاً من الراحة، فيأخذون بعضديه فيقيمونه إمعاناً في القسوة والفجور، فإذا مشى عادوا إلى بشاعتهم في الإيذاء ورميه بالحجارة وهم يضحكون، حتى خلص منهم، إذ عمد إلى حائط من حوائط الطائف، واستظل بظل حبلة من شجر العنب، وهو مكروب موجع، تسيل رجلاه دماً.

تحرك الرحم عند عتبة وشيبة

وإذا في الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، فلما رآهما ﷺ كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله، فلما رأياه تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قِطْفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عدّاس ما أمراه به، ثم أقبل على رسول الله ﷺ حتى وضع الطبق وفيه قطف العنب بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ يده ليأكل قال: «بسم الله» ثم أكل.

قصة عداس مع رسول الله ﷺ على مشهد من عتبة وشيبة

فنظر عدّاس في وجهه ثم قال: والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أي البلاد أنت يا عدّاس؟ وما دينك؟» قال عدّاس: نصراني، وأنا من أهل نينوى، فقال له رسول

الله ﷺ: «من أهل قرية الرجل الصالح يونس بن متى» قال له عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متى، والله لقد خرجت من نينوى، وما فيها عشرة يعرفون ما متى، فمن أين عرفته وأنت أمي من أمة أمية، قال ﷺ: «ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي» فأكب عدّاس على الرسول ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

وعند البيهقي في الدلائل: وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً، فقال لعدّاس يبلغه رسالة ربه: «أنا رسول الله، والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى» فلما أخبره ﷺ بما أوحى الله عز وجل من شأن يونس بن متى خر عدّاس ساجداً لرسول الله ﷺ، وجعل يقبل قدميه وهما يسيلان الدماء، فلما أبصر عتبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكتا حتى جاءهما، فقالا له: ما شأنك سجدت لهذا الرجل وقبلت قدميه، ولم نرك فعلت هذا بأحد منا؟ قال عدّاس: يا سيديّ ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أعلمني بأمر عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا، يدعى يونس بن متى، فضحكا به، وقالا له: لا يفتننك عن دينك، فدينك خير من دينه.

وفي روض السهيلي أن عدّاساً لما أراد سيداه الخروج إلى بدر أمراه بالخروج معهما فقال: أقتال ذلك الرجل الذي رأيت بحائطكما تريدان؟ والله ما تقوم له الجبال!

كان موقف اللؤم من كفار ثقيف أشد ما لقي رسول الله ﷺ

وفي صحيح البخاري في بدء الخلق - ومسلم في المغازي - والنسائي - في البعوث - من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال النبي ﷺ: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وأنا ملك الجبال، وقد

بعثني إليك ربك لتأمرني بما شئت وإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً».

وقوله في الحديث (يوم العقبة) قال الزرقاني في شرح (المواهب) جزم المصنف بأنها التي في منى، وفيه ما فيه، فأين منى والطائف؟ ولذا قال شيخنا: لعل المراد بها هنا موضع مخصوص، اجتمع فيه بعبد يا ليل لا عقبة منى التي اجتمع فيها مع الأنصار.

دعاء كشف الكرب

قال ابن إسحاق: فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: فيما ذُكر لي.

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، ياأرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.»

قال الزرقاني في شرح المواهب: ورواه ـ أي هذا الدعاء ـ الطبراني في كتاب (الدعاء) وكذا في معجمه الكبير عن عبد الله بن جعفر، وقال: وهذا مرسل، لأن عبد الله بن جعفر ولد بالحبشة، فلم يدرك ما حدث به لقوله: لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ ماشياً إلى الطائف، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه فأتى ظل شجرة من عنب، فصلى ركعتين، ثم قال: «اللهم إليك أشكو» فذكر الدعاء بنحو ما ذكره ابن إسحاق.

جبن الأخنس وسهيل وشجاعة المطعم

ولما انصرف ﷺ عائداً إلى مكة بعد أن أقام بنخلة أياماً ذهب إلى حراء، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فكعَّ الأخنس فَرَقاً من قريش، فأبى أن يكون صاحب هذا الشرف العربي، وتعلّل بعذر ملفوف

في غلالات الجبن والرعب، فقال: أنا حليف والحليف لا يجير، فبعث ﷺ إلى سهيل بن عمرو يطلب إليه أن يجيره، فاعتذر سهيل كذلك بما لم يكن له فيه معتذر، فقال: إن بني عمرو لا تجير على بني كعب، فبعث ﷺ إلى المطعم بن عدي، فأجابه إلى ما يريد في نخوة وشجاعة، ثم تسلح المطعم هو وأهل بيته، وخرجوا في أهبتهم إلى المسجد، فقال له أبو سفيان ابن حرب، وقد رأى منه استعداده القتالي: أمجير أم تابع؟ فقال المطعم: بل مجير، قال أبو سفيان: إذاً لا تخفر، قد أجرنا من أجـرت، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلّى عنده، ثم انصرف إلى منزله.

قال الزرقاني: وفي جواب الأخنس وسهيل نظر، لأنهما لو لم يكونا ممن يجير لما سألهما رسول الله ﷺ ذلك ـ أي لمعرفته ﷺ لأعـراف قومـه وعاداتهم ـ كيف وعامر الذي هو جد سهيل، وكعب أخوان، أبوهما لؤي، فهما سواء في مكانهما، يجير أحدهما على الآخر.

وفاء لو وجد موضعاً للخير

وقد حفظ ﷺ للمطعم هذه البادرة المعبِّرة عن شجاعته ونخوتـه ـ وتغاضى رسول الله ﷺ عن سيئاته، ولا سيما شتمه له ﷺ صبيحة الإسراء بقوله: «كل أمرك قبل اليوم كان أمماً، هـو يشهد أنك كاذب، فقال ﷺ: «لو كان المطعم بن عدي حيّاً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له».

وقد تحيّر بعض الناس في فهم حكمة دخول النبي ﷺ مكة في جوار كافر، كما تحيروا في فهم قوله ﷺ في المواسم: «من يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي» لأن النبي ﷺ سيد المتوكلين على الله وسيد الموقنين بنصر الله له وحمايته.

وهؤلاء غفلوا عن أن النبي ﷺ بشر من الناس، احتاج إلى أن ينزل الله عليه قوله تعالى: ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ وقد كان قبل نزولها يتخذ حرساً، فلما نزلت صرف الحرس، كما غفلوا عن أن النبي ﷺ مشرِّع، وله أصحـاب سيموا من العذاب ألواناً، فلو لم يكن ﷺ بفعله أسوة لهم لتعرضوا للفناء ولوقف سير الدعوة إلى الله، ولما أتيح له أن يلقى

الأنصار ويبايعهم على إيوائه ونصرته، فكانوا كتيبة الإسلام الأولى التي حقق الله على يديها أعظم انتصار فتح أمام الدعوة أبواب الدنيا، ولم يكن ذلك لينقص من يقين رسول الله ﷺ، وصدق اعتماده على الله شيئاً.

وهذه المرحلة المكية للدعوة كانت مرحلة كفاح ونضال تربى في أحضانها السابقون الأولون الذين ذاقوا مرارة الابتلاء؛ وذاقوا معها حلاوة الصبر والاحتمال، ولم تكن مرحلة معجزات تقهر الناس على الإيمان، وقد أبى رسول الله ﷺ ما جاء به إليه ملك الجبال من أمر الله له أن يكون في طوع أمر رسول الله ﷺ بإطباق الأخشبَيْن على أعداء الله الذين بالغوا في إيذائه ﷺ وقال: «ولكني آني بهم ليخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

وقد ذهب ابن الجوزي في إبراز حكمة الرضا بجوار الكافر، وحكمة قوله ﷺ في المواسم: «من يؤويني حتى أبلِّغ رسالة ربي» مذهباً لا يخلو من غموض متعسف، فقد ذكر لذلك حكمتين: إحداهما اختبار المبتلَى، أي معاملته معاملة من يختبر، ليسكن قلبه إلى الرضا بالبلاء، فيؤدي القلب ما كلف به من ذلك، والحكمة الثانية بث الشبهة في خلال الحجج لثبات المجتهد في دفع الشبهة.

حَفاوَة الحبَيبْ بالحبَيبْ
الإسراء والمعراج

أعظم آيات الإعجاز الكوني لنبينا محمد
صلى الله عليه وسلم
بحث وتحقيق في رواياتها وأحداثها

كان الإسراء نفحة من نفحات الفرج بعد اشتداد الأزمات والمحن

هذه الآية العظيمة هي المعجزة الفريدة الخطيرة الحسية المادية التي كُتب بمداد نورها الحرف الأول في سطر الحفاوة الربانية الذي افتتحت به نفحات الفرج وانكشاف غمم المحن والبلاء، وضائقات المعوِّقات التي كان يقيمها طغاة الشرك وعتاولة الوثنية أمام رسول الله ﷺ في طريق تبليغ رسالته ونشر دعوته، دعوة الهدى والنور، إعلاءً لكلمة الله، كلمة الحق والعدل والخير والإصلاح، والإخاء بين أبناء الإنسانية كافة، وزرع المحبة بين الناس من كل جنس ولون وجيل أينما وجدوا من أرض الله، لأن هذه الآية العظيمة جاءت بعد مقتضياتها التي كان من أظهرها عام الحزن، ذلك العام الذي ابتلي فيه رسول الله ﷺ بفقد زوجه ومأنس قلبه ومطمئن فؤاده، وزيرة الصدق له في دياجير المحن، وهي تخفف عنه آلامه، وتمسح عن نفسه ما كان يلمُّ به من حزن لما يلقاه من عتو الشرك وفجور الوثنية على أيدي أحلاسها من المستكبرين الطغاة ربائب الجهل الظلوم من ملأ قريش الذين كان يدعوهم إلى النجاة ويأبون إلا أن يكون مأواهم النار، لا يخفف عنهم من عذابها وما منها بمُخرجين.

تلك زوجه الصدِّيقة المصدِّقة الأمينة الطاهرة، سيدة نساء العالمين، السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

ثم بفقد الحفيّ القوي، الحميّ الجريء، المطاع في قومه، العظيم في

جاهليته، الحدب المدافع عن رسول الله ﷺ حميةً قومية، العزيز في حسبه، الفارع في نسبه، الذي إذا دعا لنضال الحماية لدفع مذلة الضيم أجابته السيوف المنافية الهاشمية شاكية تأبى أن تقرّ في أغمادها حتى يُقضى بينها وبين من يتلمظ لعداوتها ويتعرض لملاقاتها وسخطها.

ذلك الفحل لا يقدع أنفه، ولا يطمع في مهادنته إذا استغُضِب، ولا ترام مداهنته إذا خودع: أبو طالب بن عبد المطلب سيد البطحاء، عم رسول الله ﷺ صنو أبيه، صاحب المواقف التي أرعبت أفئدة ملأ قريش، وروعت أمنهم، وذهبت باستقرارهم، وأذلت استكبارهم دفاعاً عن سياج العزة الهاشمية التي أبى عليها تعززها بالسؤدد والمجد والشرف في العرب قاطبة أن تقبل ضيماً في شخص وحيد الدنيا في عليا المكارم محمد الأمين ﷺ، حفيها، ونور حياتها ولباب أفئدتها، يهبُّون إذا أهبهم شيخهم أبو طالب، ويسكنون متحفزين إذا سكّنهم، فهم طوع إرادته ورهن إشارته.

كانت هاتان المحنتان المتعاقبتان في زمن يسير من أشد ما لقي رسول ﷺ من أحزان الدنيا، لأنه ﷺ فقد بفقدهما حنان الأنس، وعاطفة الحب في الزوج المحبة الأمينة، وفقد القوة الحامية والحدب في عمه الذي وقف إلى جانبه يدافع عنه ويقوّي عزيمته، ويرد عنه سفه السفهاء، وعتو الطغاة، وفجور الفجار.

ولا سيما قد كان فقدهما عقيب محنة مريرة قاسية، تجلّت فيها بشاعة اللؤم العتيّ وفظاعة الحقد الوثني، والاستكبار العنيد، تلك هي محنة الحصار الاقتصادي، والمقاطعة الصارمة، والإجاعة المميتة ثلاث سنين، بين البؤس والحرمان وأنين الأطفال ودموع النساء، وهذا الحصار الذي تعاهدت عليه قريش وأفقدها كل عاطفة حيوانية، بله إنسانية كان أشد على النبي ﷺ وأصحابه ـ ومن دخل معهم حمية من الهاشميين والمطّلبيين إيلاماً ومضاضة وقسوة ـ من سني يوسف، وكانت أيامها أظلم الحوالك في دنيا الظلم والفجور، حتى أكل المحصورون ما لم يؤكل، وصبروا على ما لم يصبر عليه الصُّبَّر من أولي البلاء والمحن، مع ما سبق ذلك من سفه سفهاء قريش

وفجور ملئها في إيذاء النبي ﷺ وأصحابه في صور متعددة وأشكال مختلفة تدل على حنق مغيظ وغيظ حانق حقود.

وكان من آثار فَقْد مأنس الوجدان في تبليغ الرسالة، وفقد قوة الحمية القومية أن خرج رسول الله ﷺ بعد يأسه من استجابة طغاة الوثنية البليدة لدعوة الحق والهدى، ويأسه ﷺ أن يتركوه يبلغ رسالات ربه ويخلّوا بينه وبين الناس في محافلهم وأسواقهم ومواسم تجمعاتهم ليدعوهم إلى الله الواحد الأحد الذي يجب أن يفرد بإخلاص العبادة ـ إلى الطائف حيث ثقيف ولفّها ليؤوه وينصروه حتى يبلِّغ رسالته، فلقي منهم أفراداً وجماعات السفه الطائش، ولؤم الضيافة وشراسة الخلق ورذالة الطبع وخسة المروءة، فقد فَظِع بكبرائهم أن يسمعوا منه أنه رسول الله، وأنه يدعو إلى توحيد الله، وخلع الأصنام والأوثان، فأساؤا رده من أول وهلة، وتنمّروا له من أول كلمة، وأعلنوه بالخروج من بلدهم، وسلّطوا عليه عبدانهم وغلمانهم وسائر سفهائهم، فوقفوا له في طريق خروجه سِمَاطَين، يرمونه بالحجارة حتى أعيا من سوء ما لقي، فإذا قعد ليستريح من أوصاب الآلام أخذوا بضَبُعَيه وأقاموه إمعاناً في دناءة الهمة ولؤم الطباع، حتى بلغ مأمناً يهابه جبناء ثقيف، فرجعوا عنه، وعاد ﷺ إلى مكة وملؤها وسفهاؤها على أخبث ما كانوا من غيظ حقود.

وهكذا تجمعت غمامات الآلام عليه ﷺ وتكاثفت سحب العوائق أمام نهوضه بتبليغ رسالة ربه، وانتشر الشر في آفاق الحياة واحلولك الظلام في جنباتها، وتقاصر الأمل عن غايته، وضاقت حلقات العزائم عند كثير، واستحكم الشر في نفوس الشريرين، وتثاءب اليأس المظلم، وبقي رسول الله ﷺ وحيداً يقلِّب وجهه في السماء انتظاراً للفرج وترقباً لانجلاء غمامات المحن والبلايا.

لقد كانت هذه المرحلة الكفاحية غير المتكافئة تمحيصاً للمؤمنين، ودروساً لتربية صدق العزائم عند طلائع السابقين، وإعداداً لكتائب الدعاة إلى الله تعالى في التأسِّي برسول الله ﷺ، صبراً جميلاً، واحتمالاً لنوازل

البلاء، وتوجيهاً للأحداث بفكر حكيم محكم، وسياسة رحيمة، تجعل من العدو صديقاً حميماً، ومن السفيه الجهول حكيماً عليماً.

نداء القرب وتباشير النصر في ليلة الإسراء

وهنا سمع الأمين الحبيب محمد خاتم النبيين ﷺ صوت الأمل يجري في آفاق الحياة نغماً نشوان بحب الحق، وصريف أقلام الغيب في الملأ الأعلى يجري باستقدام الحبيب إلى سدّة التشريف الأعظم، والتكريم الأكرم، بأجلّ ما شُرِّف به المشرَّفون، ونزل الأمين جبريل عليه السلام سفيراً إلى الحبيب، يحمل إليه رسالة الدعوة الطلبية الحفية المباركة، وأشرقت شمس الفرج تملأ بأشعتها السموات والأرض، وتوالت تباشير النصر في بدء بيعات اليثربيين الذي ادّخرهم الله تعالى لنصرة دينه وتأييد نبيه ﷺ حتى تمت البيعة الكبرى التي كانت شَجاً في حلاقيم عتاة المشركين من ملأ قريش وطغاتهم، فغصُّوا بها حقداً حانقاً تمثَّل في جنون تصرفاتهم مع أنصار الله الذين بايعوا رسول ﷺ على أن يكونوا كتائب دعوته جهاداً في سبيلها وجنداً لتبليغ رسالته.

وفي خضم هذا التباشير أسرى الله بعبده محمد ﷺ، وكان هو سبحانه وتعالى الذي أخذ بيد الحبيب فأبلغه منازل القرب كما شاء، وأحله مكانة لا مطمع لمخلوق فيها، بله فوقها كما أراد عز شأنه، وأراه من آياته وعجائب ملكه وملكوته ما لم يُرِه أحداً من خلقه، وعلّمه ما لم يعلم، وزاده رفعة وشرفاً، وأعطاه لنفسه ولأمته ما أرضى فؤاده وأثلج قلبه وبلّج بأنوار المعارف الخاصة روحه، وجعله أعلم العالمين بجلال الله وعظمة سلطانه، وخصّه من الحفاوة والحباء ما لا تستطيع الأقلام تسطيره، فهدى به وهدى له، وجعل له من لدنه سلطاناً نصيراً.

وهكذا كانت آية الإسراء في جوها الخاص والعام بلسماً لجراح بشرية محمد ﷺ التي نالها أعداء الحق والخير بالإيذاء، وكانت سراجاً وهّاجاً أضاء الطريق أمام دعوته إلى الله الحق المبين، وكانت نوراً تبلج من آفاق العناية الربانية علماً ومعرفة، وشرفاً وفضلاً، ليقيم له ﷺ ولدعوته ورسالته الخالدة الخاتمة معالم الطريق الذي أسس على الكفاح الصبور في سبيل الحق والخير

والهدى والإصلاح، بغير إعجاز مادي يكره الناس على الاستجابة إلى الإيمان بالدعوة، ليكون ذلك رسماً لطريق الدعوة إلى الله أينما كانت، ومَعْلَماً للدعاة إلى الله حيثما كانوا وكيفما كانوا.

وهكذا كانت أيضاً آية الإسراء في حقيقتها ومقاصدها صورة جامعة للقدوة في العلم والمعرفة، والعمل لإصلاح الحياة، وبشرى بإنقضاء عهد البلاء والمحن، وابتداء عهد البناء والمعرفة، ومطالعة آيات الله في ملكوت السموات والأرض المسخرة للإنسان، وتحقيقاً لخلافة الأمة التي يربيها نبي الإسلام ﷺ بعقيدته وتعبداته وشرائعه وأحكامه، وسياسته، وآدابه، ونظمه ومناهجه في الحياة، لتقيم من هذه العقائد والتعبدات والشرائع والآداب والنظم والمناهج بناءً شامخاً تأوي إليه الإنسانية إخوة متحابين لتكون خير أمة أخرجت من ضمير الغيب للناس.

آية الإسراء تشريف وتكريم لسيد المرسلين

ومن ثَمّ كانت آية الإسراء أشرف آية مادية حسية أوتيها نبي من رسل الله، وهي أجلّ ما أعطيه محمد الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين من الآيات الحسية والكرامات المادية، وهي في فضلها وعظمة الحفاوة تالية للقرآن الكريم في روعة دلالتها على صدق نبوة محمد ﷺ، وعموم رسالته وخلودها، وماله عند الله من مكانة ورفعة شأن، ممّا فُضِّل به على جميع الأنبياء والمرسلين بعد القرآن العظيم.

وقد كانت آيات الأنبياء والمرسلين التي جعلها الله برهان صدقهم في دعواهم أنهم رسل من عند الله إلى أقوامهم، يدعونهم إلى توحيد الله وإلى الهدى والخير ـ آيات مادية حسية تخرق نواميس نظام الترابط المادي بصورة قاهرة لا طاقة للبشر ولو اجتمعوا بعلومهم وأفكارهم وتجاربهم وحيلهم على معارضتها بوسائلهم البشرية المادية، فلا يجدون ذريعة لردِّها وأعناقهم لها خاضعة إلا المكابرة والعناد.

وقد بيَّنا في بحث (محمد من نبعته إلى بعثته) الذي طبع مستقلاً، ثم جعلناه تمهيداً لهذا الكتاب (محمد رسول الله) أن آيات الأنبياء والمرسلين ومعجزاتهم إنما تجري على مقتضى سنن إلٰهية خاصة، لا سبيل لتحكم العقل

فيها وفي إدراك حقائقها وتعرف أسبابها، والعقل بمعزل تام عن تحكيمه في ثبوتها، وأوضحنا أن مدار التصديق بها على صحة ثبوتها هو الإخبار بها في واقع الوجود بسند صحيح، لا يعتريه، ريب، ولا يعارض متنه أصل أثبت منه وأدخل في أصول الإسلام.

آيات الأنبياء والمرسلين كانت حسية مادية كما ذكرها القرآن العظيم

وقد ضرب الله تعالى المثل في القرآن لهذه الآيات الحسية المادية التي أوتيها مَنْ ذكروا في القرآن من أكابر المرسلين، وكان من أبينها وأكثرها ذكراً آيات موسى وعيسى عليهما السلام، وآياتهما أهدى الآيات الحسية المادية سبيلاً، وأظهرها إعجازاً، وأقواها حجة، وأبلغها أثراً، فعصا موسى عليه السلام، لها خصائص سائر العصي في بعدها عن حلول نوع من الحياة فيها، وقد أخبر عنها موسى حين سئل من رب العزة ـ سؤال تأنيس وتمهيد، لا سؤال استخبار ـ بقوله: ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ بما يعلمه عنها من حقيقتها الأصيلة ومن الأسباب التي اتخذها لها فقال: ﴿ هي عصاي أتوكأ عليها وأهشُّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ﴾[1] من كل مأرب تؤديه عصا، فيدفع بها عن نفسه صولة عدو، ويقيمها عموداً ليسدل عليها ما يقيه الحر والبرد، ولكنها حينما أريد لها أن تجري على السنن الإلٓهية الخاصة خرجت عن طبيعة العصا التي لا تحلها الحياة إلى طبيعة أخرى قابلة للحياة، فانقلبت جانّا يتحرك، وثعباناً يلقف ما يأفك سحرة فرعون بكل ما فيه من وسائل مادية، وإلى أن ضرب بها موسى البحر فانفلق فلقتين، فكانت كل فلقة منه كالطود العظيم في قوة تماسك ذراته، والماء طبيعة سيّالة يستحيل عليه هذا التماسك في نواميس السنن العامة للكون. وإلى أن يضرب بها الحجر الصلد فينبجس منه الماء اثنتي عشرة عيناً لكل قوم من بني إسرائيل شرب معلوم منها.

وتصوير عيسى عليه السلام قطعة من الطين الذي له خصائص الطين، بكل ما فيها من بعد ومنافاة للحياة على هيئة طائر، ثم ينفخ فيه فيصير طائراً بإذن الله، يتحرك، ويطير، ويذهب ويجيء، ويأكل ويشرب،

---

(١) سورة طه آيتا (١٧، ١٨).

ويغرِّد ويرفرف. ومسُّه بيده الأكمه الذي لم ير النور ببصره قط يجعله بصيراً بإذن الله. ومسحه على الأبرص الذي ابتلي بداء عجز عنه طب عصره يشفيه من مرضه العضال، ونداؤه الميت الذي غبر عليه من الزمن ما غبر يقيمه من قبره بإذن الله إنساناً حياً، يتحرك ويمشي ويتكلم ويفكر ويخبر ويرشد ويسترشد. والمقصود بذكر هذه الآيات التي وقعت على يد هذين الرسولين الكريمين بيان أن سنن الله في الكون لا يقيدها نظام الترابط الكوني في نواميس السنن العامة، وهكذا كانت آيات الأنبياء والرسل قبل رسالة محمد ﷺ حسية مادية لأن مدارك الإنسان وقوى تفكيره كانت مجذوبة إلى الأرض بقوة التماسك العنصري في ترابط ذرات الكون.

تآخي النبوة والعقل جعل آية رسالة محمد ﷺ فكرية عقلية علمية خالدة

فلما بلغت النبوة مداها في التآخي مع العقل الإنساني ـ وهو قوة لا سلطان للمادة عليها ـ وبلغ العقل رشده واستوى تفكيره أرسل الله تعالى محمداً ﷺ برسالة كاملة المعالم في أصول العقائد والتعبدات وأنظمة الحياة ختم بها رسالات المرسلين، قامت على دعائم من القواعد والأصول العامة المحكمة جعلها هادية للعقل في مسيرته مع الحياة، يسترشد بها ليستخرج من أصولها أحكام الأحداث والوقائع المتجددة التي لا تتناهى، دون حاجة إلى الوقوف عند نص قد لا يفي بالمقصود.

ومن ثَمّ كانت خصيصة هذه الرسالة الخاتمة في خلودها بخلود الحياة في تآخيها مع العقل الإنساني الذي اكتمل رشده وشبّ عن طوق المحاكاة والتقليد والتبعية.

ومن هذه الخصيصة لهذه الرسالة الخاتمة في تآخيها مع العقل كان لا بد في آيات صدقها، وبراهين حقِّيتها، ودلائل إعجازها من أن تكون ملايمة لهذا التآخي العقلي، مناسبة له في منابعه الإدراكية، هادية له في أسس التشريع، مهتدية به في تطبيق الوقائع على تلك الأسس والأصول، وعندئذ لم يبقَ للإعجاز الحسي وآياته المادية قوة دلالته على حقّيّة ما جاءت به من الهدى والخير، فكانت آيتها العظمى ومعجزتها الكبرى التي وقع بها التحدي والاستدلال على صدق حامل أمانتها آية عقلية، علمية، فكرية، يجد فيها

كل عقل مجاله الإدراكي، ويجد فيها كل عالم طريقه إلى المعرفة واليقين، ويجد فيها الفكر (المتطور) مجالاً لسبحات أطواره بعيداً عن الجمود المادي، ليستصفي من أصولها الحقّ خالصاً من شوائب الخداع والتضليل.

جاءت الرسالة الخالدة فكان القرآن العظيم هو آية التحدي العظمى لما فيه من مناهج الهداية

تلك هي آيات الكتاب المبين، القرآن العظيم، الجامع لمنازل الخير وجوامع الهدى والنور، الذي تحدّى بذاته وإعجازه كل عَيْلم عليم، وكل عقل محكم حكيم، وكل فكر غوّاص عميق، بما جاءت به آياته من حقائق ومعان هادية، ومقاصد مستهدفة للحق، كما تحدّى كل فصيح بليغ، وكل ذي بيان وبراعة في روعة الإحسان، بأسلوبه ونظمه وجزالة ألفاظه، ونصاعة جمله وكلماته، ونسق آياته، فكان آية الصدق على دعوى الرسالة الخالدة، بما فيه من ألوان الهداية، فهو معجزتها الكبرى وآيتها العظمى التي كانت به خاتمة الرسالات الإلٰهية، فلا رسالة لله تعالى إلى الخلق بعدها، ولا كتاب ينزل بعد كتابها من السماء، وقد صب الله تعالى فيض إحسانه في آيات كتابها، خالدة لا تنتهي وباقية لا تنفد.

ومن هنا كانت فيوضات الله لا تنقطع ولكنها مستمرة سرمدية عن طريق آياتها في كتابها الحكيم المحكم، فالنظر فيه، وتدبر حقائقه ومعانيه، ومعرفة هدايته، والغوص على حِكَمه هي طرائق الإيمان، وهذه سبيل ممهدة للعقل، وطريق موطأة للفكر، يهتدي بها السالكون إلى مشارع الإيمان، وهي عامرة بالسائرين فيها الذين أقيمت لهم منائر الحق، ونصبت لهم معالم الهداية، وأنيرت لهم آفاقها، ليهتدوا بها في دياجير أوهام العلم التجريبي وتخيلاته وتخرصاته وظنونه إلى نور الحق واليقين.

لا تتوقف مسيرته، ولا تخلو عن الراغبين مشارعه، فهو داع مستجاب، وهادٍ خِرِّيت لا يضل الطريق أبداً، ومرشد لا يمل ولا يعيا، مشارعه مفعمة بالواردين، ومسالكه مليئة بالقاصدين، وروّاده قوافلهم متواصلة لا تنقطع، وداخلو ساحته متوافدون، لا قوة تدفعهم إليه إلا قوة الحق فيه، ولا وسائل تجذبهم إليه إلا وسيلة الرغبة فيه.

وإلى هذه الحقائق والمعاني أشار النبي ﷺ في قوله الجامع: «ما من

نبي من الأنبياء إلا أوتـي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ».

وإذا كان القرآن العظيم هو الآية العظمى والمعجزة الكبرى التي وقع بها التحدي للدلالة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ، ولا يزال هذا التحدي قائماً به إلى يوم القيامة في كل زمن ومكان وجيل من الناس مهما بلغت الحياة من أطوار التقدم العلمي، لما فيه من أبدية الهداية التي لا تنتهي كما انتهت الآيات الحسية المادية التي أوتيها رسل الله تعالى برهاناً على صدق دعواهم في رسالاتهم ـ فقد أوتي نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية وعجائب خرق نواميس الترابط المادي في عناصر الكون ما لم يؤتَ مثله كيفاً وكّماً نبي من الأنبياء عليهم السلام.

لقد أوتي نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية ما لم يؤت مثله نبي رسول من رسل الله للتشريف والتكريم لا للتحدي

وجميع ما أوتيه نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية التي لم تدخل في إطار التحدِّي بها ثابتة مروية بروايات مسندة، وهي وإن اختلفت في أسانيدها قوة وصحة لكنها في جملتها بالغة مبلغ التواتر المعنوي القاطع الذي لا يستطيع أن يجادل في مجموعه مجادل أو ينكره منكر.

بيْد أن منها آحاداً أُثبتت بأصح الأسانيد التي لا تقبل الطعن والمعارضة، وفي هذه الآحاد ما أشار إليه القرآن إشارة واضحة يجب الإيمان بظاهره، وليس هنا صارف يقضي بصرفها عن ظاهرها سوى تحكم عقول بعض «العقلانيين» الذين يؤلِّهون العقل، ولا يقفون به عند مخلوقيته التي تعزله عن التحكم المطلق في ملكوت الله تعالى، وذلك كآية انشقاق القمر؛ فقد أثبتها القرآن الكريم صراحة في قوله تعالى: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وقد جاءت بها أحاديث مسندة من أصح الصحيح بروايات الثقاة الضابطين المأمونين في إيمانهم وديانتهم، وهي مروية عن عدد من الصحابة يبلغ في جملته حدّ التواتر، فلا وجه لإنكارها سوى التعبد للعقل ونواميس الترابط في عناصر الكون، وهذه النواميس مخلوقة لله تعالى يفعل بها ما يشاء.

من هذه الآيات آية انشقاق القمر

وفي هذه الآحاد من الأحاديث ما لم يرد له ذكر في القرآن، ولكنه ثبت وقوعه بصحيح الأسانيد ثبوتاً لا يحتمل التأويل ولا يعتريه الشك وذلك:

آية نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ

أولاً ـ كأحاديث نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ على مرأى ومشهد من الصحابة في مرات مختلفة، وقد شرب منه العدد الكثير الذي لم تَجْرِ به عادة في زمن من الأزمان، ولا وقع مثله لأحد من الرسل والأنبياء، وتطهروا منه وملؤوا أوعيتهم وإداواتهم وأوانيهم وقربهم، وشاهده حديث قتادة عن أنس عند الشيخين، قال أنس: أتي النبي ﷺ بإناء وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم، قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاثمئة أو زهاء ثلاثمئة.

وحديث جابر عند البخاري في الحديبية، قال جابر: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله ﷺ «ما لكم؟» قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ونشرب إلا ما في ركوتك، قال: فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال: فشربنا وتوضأنا، قال الراوي عن جابر، فقلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة. وفي هذه الآية، آية نبع الماء من أصابعه ﷺ حديث أبي قتادة عند مسلم وحديث معاذ عند مسلم أيضاً وفي بعضها طول لا يحتاج لذكره.

ويعلّق القاضي عياض على أحاديث هذه القصة فيقول: هذه القصة رواها الثقاة عند الكثير عن الجم الغفير عن الكافة متصلة بالصحابة، وكان ذلك في مواطن اجتماع الكثير منهم في المحافل ومجمع العسكر، ولم يرد عن أحد منهم إنكار على راوي ذلك، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته.

آية تكثير الطعام القليل حتى أشبع العدد الكثير

ثانياً ـ ومن هذه الآيات المعجزة الثابتة بأصح الأسانيد تكثير الطعام القليل حتى أشبع العدد الذي يستحيل عادة أن يشبع مثلهُ بمثله، وشاهده حديث أم سُلَيم وأبي طلحة عن أنس عند الشيخين، وهو متعدد الطرق والسياق.

روى الشيخان عن أنس قال: قال أبو طلحة لأم سُلَيم: لقد سمعت

صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً لها فلفت الخبز ببعضه ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ. قال أنس: فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ « أرسلك أبو طلحة؟ » فقلت: نعم، قال « بطعام » قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه «قوموا» فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سُلَيم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلمِّي يا أم سُلَيم ما عندك» فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ فَفُتَّ وعصرت أم سليم عكّة فأَدَمَتْه، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأكل القوم كلهم حتى شبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً.

وحديث جابر في حفر الخندق عند الشيخين أيضاً، قال جابر: لما حفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خَمَصاً شديداً، فانكفأتُ إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً، فأخرجت إليّ جراباً فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتُها وطحنت الشعير، وفرغت إلى فراغي وقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه. فجئته فساررته، فقلت: يا رسول ذبحنا بهيمة لنا وطحنّا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ: «يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع سُؤراً فحيّ هلاً بكم» فقال رسول الله ﷺ: «لا تنزلُنَّ برمتكم ولا تخبُزنَّ عجينكم حتى أجيء» فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتي فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلتِ، فأخرجتُ له عجينها فبصق فيه

وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق، وبارك، ثم قال: «ادعي خابزة فلتخبز معك، وقدمي من برمتكم ولا تنزلوها» وهم ألف.

قال جابر: فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغطُّ كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو.

آية حنين الجذع

ثالثاً ـ روايات حنين الجذع الذي كان يخطب إليه رسول الله ﷺ قبل أن يُعمل له المنبر، روى الشيخان عن جابر قال: كان جِذْع يقوم إليه النبي ﷺ، فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار، حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه، قال القاضي عياض: وحديث حنين الجذع مشهور منتشر، والخبر به متواتر، قال الشهاب الخفاجي، في بيان تواتره: لكثرة طرقه الصحيحة ونقل جماعة لا يمكن تواطئهم على الكذب، وقد رواه أصحاب الصحيح مسنداً كالبخاري ومسلم، وابن حبّان، وابن خزيمة، وما وصل إلى مثلهم بطرق متعددة صحيحة يكون متواتراً حقيقة لإجماع مَنْ بعدهم على صحتها، كما قاله ابن حجر رداً على ابن الصلاح في دعواه أن التواتر لا يكاد يوجد، ولعل ابن الصلاح يقصد التواتر اللفظي، أما التواتر المعنوي فهو محقق الوجود في السنّة، متعدد الوقائع.

وقال السهيلي في روضه: حديث خُوار الجذع وحنينه منقول بالتواتر، لكثرة من شاهد خواره، وكلهم قد نقل ذلك أو سمعه من غيره فلم ينكره أحد، قال عياض: ورواه من الصحابة بضعة عشر منهم: أبيّ بن كعب، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري، وأم سلمة، والمطّلب بن أبي وداعة، كلهم يحدِّث بمعنى هذا الحديث، وبعضهم يطنب في حديثه وبعضهم يوجز القول، ففي حديث أنس أن النبي ﷺ لما قعد على المنبر خار الجذع حتى ارتج المسجد لخواره، وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لِمَا رأوا به، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت، وفي رواية أبي بن كعب فقال النبي ﷺ: «إن هذا بكى لِمَا فقد من الذكر، والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تحزناً على رسول الله ﷺ وآله وسلم» ثم أمر به

نبي الله ﷺ فدفن تحت المنبر. قال البيهقي عن الإمام الشافعي: ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمداً ﷺ، فقيل له: أعطى عيسى إحياء الموتى، فقال أعطى محمداً الجذع الذي كان يخطب إلى جنبه حتى هُيِّيء له المنبر، فلما هُيِّيء له المنبر حنّ الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك.

استجابة الجمادات لدعائه لها وإتيانها له

رابعاً ـ أحاديث استجابة الجمادات لدعائه وإتيانها له، وشاهده استجابة الشجرة له حين دعاها لتستره وقد أراد قضاء حاجته، فجاءت إليه تخد الأرض ثم رجعت إلى مكانها كما كانت، روى مسلم عن جابر قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطىء الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «انقادي عليّ بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال «انقادي عليّ بإذن الله» فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لاءم بينهما يعني جمعهما فقال: «التئما عليّ بإذن الله» فالتأمتا، قال جابر، فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي، فيبتعد، فجلست أحدث نفسي، فحانت مني لفتة فإذا برسول الله ﷺ مقبلاً وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق.

وأخرج البغوي عن ابن أحمد، عن منيع، عن عبدالله بن عمر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فَدَنا منه أعرابي، فقال له: «يا أعرابي أين تريد؟» قال: إلى أهلي: قال النبي ﷺ: «هل لك إلى خير؟» قال: وما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله» قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: «هذه السَّمُرة» وهي بشاطىء الوادي، فأقبلت تخدّ الأرض حتى وقفت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً فشهدت ثم رجعت إلى مكانها. وهذا الحديث رواه الدارمي والبيهقي والبزار.

وفي حديث بريدة بن الحُصيب عند البزار مسنَداً: سأل أعرابي النبي ﷺ آية، فقال له: «قل لتلك الشجرة: رسول الله يدعوك، فمالت

الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقها، ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت: السلام عليك يا رسول الله، قال الأعرابي: مُرْها فلترجع إلى منبتها، فرجعت، فدلّت عروقها فاستوت، فقال الأعرابي: ائذن لي أسجد لك، قال رسول الله ﷺ: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» قال الأعرابي: ائذن لي أقبل يديك ورجليك، فأذن له.

آيات إبراء المرضى ورد ما انفصل من أعضاء الإنسان

خامساً ـ أحاديث إبراء المرضى ورد ما انفصل من أعضاء الإنسان مما لا يمكن إعادته في العادة إلى مكانه صحيحاً، وشاهده ردّه ﷺ عين قتادة ابن النعمان حين أصيبت في غزوة أحد بسهم أسالها على خده وهو يقي رسول الله ﷺ بنفسه، فأتى بها رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول إن لي امرأة أحبها وأخشى إن رأتني أن تقذرني، فأخذها رسول الله ﷺ بيده وردَّها إلى موضعها، وقال: «اللهم اكسه جمالاً» وفي رواية: أنه أتى بها النبي ﷺ، فقال له ﷺ: «ما هذا يا قتادة؟» فقال: هذا ما ترى يا رسول الله، فقال له رسول الله ﷺ: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت رددتها ودعوت الله لك، فلم تفقد منها شيئاً» فقال: يا رسول الله إن الجنة أجر جزيل، وعطاء جليل جميل، ولكني أكره أن أعيّر بالعور، فرُدَّها إليّ واسأل الله لي الجنة، فردها رسول الله ﷺ فكانت أحسن عينيه، وأحدّهما نظراً، ولا ترمد إذا رمدت الأخرى. وأخرج الطبراني وأبو نعيم عن قتادة قال: كنت يوم أحد أتّقي السهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ، فكان آخرها سهماً ندرت منه حدقتي، فأخذتها بيدي وسعيت إلى رسول الله ﷺ، فلما رآها في كفي دمعت عيناه، فقال: «اللهم قِ قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه، واجعلها أحسن عينيه وأحدَّهما».

وهذه القصة رويت موصولة عند ابن عدي والبيهقي، ومرسلة عند ابن اسحاق، ورواها أبو سعيد الخدري عن قتادة فهي من رواية الأكابر عن الأصاغر، ويروى أن حفيد قتادة عاصم بن عمر بن قتادة وفد على عمر ابن عبد العزيز، فقال له عمر: من أنت؟ فأجاب بديهة:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينهُ   فـرُدّت بكف المصـطفى أيّما رد
فعـادت كما كـانت لأول أمـرهـا   فيا حسن ما عين ويا حسن ماردّ

فقال عمر بن عبد العزيز:

تلك المكـارم لا قعبان من لبن   شِيبـا بمـاء فعـادا بَعْـدُ أبؤالا

حديث الأعمى الذي لقنه رسول الله ﷺ دعاء لرد بصره

وروى الترمذي، والحاكم والبيهقي وصحّحوه، والنسائي عن عثمان ابن حنيف: أن أعمى قال: يا رسول الله، ادع الله لي أن يكشف عن بصري، فقال له رسول الله ﷺ: «انطلق فتوضأ ثم صلِّ ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يـا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري، اللهم شفِّعه فيّ» قال عثمان ابن حنيف، فرجع الأعمى وقد كشف الله عن بصره.

قال الخفاجي في شرح الشفاء: وهذا الحديث مسند صحيح، أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما، وكان ابن حنيف وبنوه يعلمونه الناس، وقد أخرجه البرهان الحلبي من طرق متعددة فلم يبق فيه شبهة فاحفظه.

وفي إيراد روايات هذه الأحاديث القاطعة ـ في دلالـة مجموعها على ما أوتيه نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية كثير منوع باهر ـ طول لا تقتضيه ضرورة، ويكفي فيه الشاهد والمثل، وهي مروية مشهورة في كتب الأئمة، وإنكارها مكابرة.

التحدي وقع قطعاً بالقرآن العظيم

غير أن هذه الآيات المعجزة والعجائب الخارقة للعادة على كثرتها وتنوعها، وصحة وقوع حوادثها لم يقع بها التحدِّي العام لإثبات دعوى الرسالة كما وقع بالقرآن الكريم الذي تحدّى العالمين، فكان هو بذاته ونصِّه موطن الدعوة والشاهـد على صـدقها شهـادة بلغت مبلغ اليقين، فقد أهاب القرآن الكريم بغطارفة المشركين الوثنيين، وكانوا أرفع البشر فصاحة وأبلغهم بياناً، وأروعهم بلاغة، وأبرعهم منطقاً وأذربهم ألسنة، وأهداهم إلى طريق البراعة البيانية سبيلاً، وكانوا يدلُّون على الناس بصفاء قرائحهم وحدّة مداركهم، فتحداهم أن يأتوا بحديث مثله، آية فما فوقها، وقد تدرّج

معهم التحدي بعشر سور من مثله، ثم إلى سورة واحدة، ولم يتركهم بعد هذه المراتب المتدرجة حتى غمز قناتهم، وأذلّ استكبارهم، وسخر بغرورهم، وهزأ بتنفجهم وغطرستهم، فأنبأهم وهو يتحدّاهم بأنهم عاجزون عن معارضته عجزاً لا تواتيهم فيه قدرة على هذه المعارضة في آية صور التحدي المتدرج فقال لهم: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين﴾[1] ثم أيأسهم بما وخز عنجهيتهم وخزاً موجعاً لا أمل من ورائه قط في المعارضة، فقال الله عز شأنه لرسوله محمد ﷺ: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[2] وذكر الجن في هذه الآية بيان لبلوغ التحدي والتعجيز غاية يقف عندها غرور التفاصح الأجوف ذليلاً خزيان لا يبين.

فالآيات الحسية المادية التي أعطيها نبينا محمد ﷺ كانت تشريفاً وتكريماً له، وإشارة بمنزلته عند ربه، وتنبيهاً للغافلين الذين لم تتبوأ عقولهم مكانتها من الرشد في الإدراك، حتى تتكامل له ﷺ دعائم تبليغ رسالته في عمومها وخلودها ليجد فيها وفي وسائل عرضها كل عقل إنساني طلبته الملايمة لاستعداده، حتى إذا نهض من كبوة جهله واستشرف آفاق العلم والمعرفة وجد أمامه القرآن العظيم كتاباً محكماً حكيماً، صدوق الدلالة، عميق البرهنة، سيّال الفكرة، منطلق الحقائق، غزير المعاني، لطيف المأخذ، خالد التحدِّي، أبدي الإعجاز بهدايته، مهيمناً على كل ما جاء به الأنبياء والمرسلون من آيات قاهرة على مثلها يؤمن البشر ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[3] ﴿كتاب فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً﴾[4].

* * *

(١) سورة البقرة آيتا (٢٣، ٢٤).
(٢) سورة الإسراء آية (٨٨).
(٣) سورة فصلت آية (٤٢).
(٤) أول سورة فصلت.

آية الإسراء أرفع مراتب التشريف والتكريم لمحمد ﷺ وجحودها مخرج عن ملة الإسلام لثبوتها بنص قرآني صريح

وقد كان فيما أوتيه نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية آيات جمعت أرفع مراتب التشريف، وأعلى درجات التكريم، وأبلغ منازل التعظيم، لم يعط مثلها نبي من الأنبياء، انفردت بنص قرآني، أثبتها منوّهاً بخطر قدرها، وهو نص صريح لا يقبل التأويل، ولا يحتمل الجدل ذلك هو آية الإسراء، التي يقول الله تعالى في شأنها ممجداً ذاته المقدسة: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾(١).

ومن ثَمّ كان كان جحود وقوع آية الإسراء وإنكار وجودها مُخْرِجاً عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، لأنه إنكار لنص قرآني صريح، وخرق لإجماع الأمة إجماعاً لم يعرف له مخالف من كافة المسلمين، عامتهم وخاصتهم، والتأول في كيفية وقوع هذه الآية العجيبة العظيمـة، وكونُها وقعت بالجسد والروح معاً، أي بالصورة البشرية التي يطلق عليها لفظ (عبد) كما هو اعتقاد جمهور المسلمين من عهد الصحابة، وهم مئات الألوف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أو وقعت بالروح فقط، أو رؤيا منامية رآها ﷺ كما نسب إلى آحاد في روايات لا تقوم لها أسانيد ـ لا يخدش إجماع المسلمين على أن الله تعالى أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى بإيلياء من أرض فلسطين بالشام في جزء من الليل، وهذا القدر هو المجمع عليه، وفيه النص القاطع بوقوع الإسراء وإرادة الله تعالى نبيه محمداً ﷺ ما رأى من آيات ربه فى ملكه وملكوته.

ولا شك أن قطع مسافة تضرب أكباد الإبل لقطعها شهراً مصعدة، وشهراً آيبة في جزء من الليل أمر خارق لنواميس الطبيعة وقوانينها ونظمها التي أقامها الله على سنن عامة في ترابط ذرات الكون وعناصره، تسير عليها منذ أوجد الله تعالى بقدرته هذا الكون العظيم.

والأمة مطبقة ـ إلا بعض روايات لم تثبت صحة أسانيدها عن أم

---

(١) أول سورة الإسراء.

الإجماع قائم على ثبوت الإسراء بالجسد والروح، أي بمحمد ﷺ وهو في أكمل كمال بشريته قبل أن تحدث روايات الروح والمنام

المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه من الصحابة، وقولة عن الحسن بن أبي الحسن البصري ـ على أن الإسراء الذي أخبر به رب العزة مفتتحاً له بعَلَم التقديس الذي يرمز إلى عظمة الاقتدار الإلهي، وأن قدرة الله تعالى لا يتعاظمها شيء ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾[1]، والافتتاح بالتقديس لا يقال إلا في الأمور المستبعدة عادة لتعاظمها، والتي لا تألفها مدارك العقول في متعارف الحياة وقد تنكرها لأول وهلة نظراً للسنن العامة التي قام عليها نظام الكون وطبيعة الترابط بين عناصره ومكوّناته، فإذا رُميت بسهم التأمل ومعرفة اقتدار الله تعالى وقهره لكل مخلوق له من مادة أو نظام رجعت العقول إلى التصديق والقبول ما لم يصدّها العناد المستكبر، وآمنت بأن لله تعالى في عظمة اقتداره وقهر سلطانه سنناً خاصة لها أسبابها ومناسباتها وأزمانها وأحداثها ودواعيها؛ لأن الألوهية الحقة القاهرة القادرة المدبرة الحكيمة لا تقيدها سنن مخلوقة لها مرئية أو معلومة لدى العقول أو معتادة في متعارف الحياة ومألوفاتها، بل إن هذه الألوهية الحقة تقتضي أن يكون الإطلاق الكامل حقاً لها في مشيئة كينونة ما تشاء كونه.

ولكن ذلك يجري على نظام خاص مقدّر ـ وهو ما سميناه بالسنن الخاصة التي تقتضيها مناسباتها في أزمانها وأشخاصها وأحداثها ـ شُرِّف به نبينا محمد ﷺ ووقع له بحالته الطبيعية الكاملة بشرية وروحاً، فلم تفقد روحُه جسمَه، ولم يفارق جسمُه روحَه، بل أسرى بهما رب العزة، وهذه الحالة الكاملة لشخص النبي ﷺ التي لا تفارق فيها الروحُ جسمَها المقدور لها الحياة به ومعه في تلازم امتزاجي لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى هي التي يطلق عليها في لغة العرب عند التفاهم، وفي عرف الناس كافة عند التعامل تعريفاً لها لفظ (عبد) كما جاء في آية الإسراء، ويتأكد ذلك بإضافة التشريف والتكريم لهذا العبد المكرّم التي خصه الله بها في هذا المقام، فقال: ﴿أسرى بعبده﴾ لاستشعار وقوع ما لم يكن في حسبان العقول، وقد جرى عرف

---

(١) سورة يس آخر آياتها.

القرآن الأسلوبي على ذلك فقال تعالى: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ والقائم الذي يدعو الله هو الشخص المؤلف من روح وجسد، ويزيد ذلك تأكيداً تحديد مبدأ الإسراء ونهايته، وهذا في المتعارف لدى العقول لا يقال إلا في أمر مادي يفيده الانتقال من مكان إلى مكان.

فالإسراء كان قطعاً بمقتضى منطوق الآية الكريمة ومفهومها وإشاراتها ولوائحها بأكمل ما يطلق عليه لفظ (عبد) وهو شخص النبي ﷺ المكوّن من روحه وجسده، لم تفارق روحُه جسدَه، ولم يفقد جسدُه روحَه في جميع لحظات الرحلة المباركة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ذهاباً وأوبة، فلا وجه مطلقاً لصرف هذه الحقيقة عن وجهها الذي تدل عليه الآية دلالة بينة.

ارجح الأقوال في وقت وقوع الإسراء كما توحي به المناسبات

وقد اختلف أهل العلم في زمن الإسراء الذي وقع فيه اختلافاً عريضاً، والتحقيق الذي ذهب إليه حُذّاق الأئمة أنه كان قبل الهجرة إلى المدينة بنحو سنة، ولم تكن آية الإسراء في أعاجيبها، وخرقها لنواميس الطبيعة، وما وقع فيها للنبي ﷺ من مشاهدة أسرار الكون والملكوت، وما تجلّى له فيها من مكنون الغيب المحجوب بأنوار الجلال الإلّهي عن خاصة المقربين مجرد رحلة عجيبة وآية معجزة، وإنما كانت مكرمة فريدة أتحف بها النبي ﷺ، وحفاوة من الألطاف الإلّهية شرف بها الحبيب، ودرساً تربوياً لبيان معالم مسيرة الرسالة في مستقبلها بعد أن بلغت من التمحيص مبلغاً أعدها للسير قُدُماً في طريق الجهاد المتكافىء؛ بل الجهاد القاهر الغلّاب في مقدمة التلطف الرباني بفتح أبواب الفرج والخلاص من مشاق الأذى وفوادح البلاء التي لقيها النبي ﷺ وأصحابه في فترة الكفاح الصبور من قومه في مكة من أحداث فردية وجماعية، كان من أشدها الحصار الظلوم، والخروج إلى الطائف والعودة منها بأثقال الآلام ووجيع الجراح، وفي محافل العرب في مواسمهم وأسواقهم، ومضارب خيامهم، وهو ﷺ يدعوهم إلى الله تعالى إلّهاً واحداً يجب أن يفرد بالعبادة والتقديس، وأن تخلع الأنداد من الأصنام والأوثان والزعامات، فيلقى منهم من شديد الإيذاء وضروب

السفاهة قولاً وفعلاً ما كان يقابله بالصفح والعفو والصبر الجميل، مما ختم بعام الحزن الذي فقد فيه ﷺ مأنس الفؤاد ووزير الصدق، والولي الناصر، والحفي الحمي، في وفاة زوجه الأمينة الصديقة، وزيرة الصدق، سيدة نساء العالمين خديجة رضي الله عنها، وفي وفاة عمه الذائد عن عرين قوميته حمية في مواقفه إلى جانب النبي ﷺ وهو يبلغ رسالة ربه.

كان الإسراء بقهره لقوى الطبيعة درساً إلهياً في صقل عزائم الدعاة إلى الله تعالى تأسياً بالنبي ﷺ

وقد كان هذا التشريف بالإسراء وما رأى فيه النبي ﷺ من الآيات الإلهية المبثوثة في ملكوت الله نقطة تحول في توجيه مسيرة الرسالة، وتقوية عزيمة النبي ﷺ في المضي بها قدماً، متخطياً العوائق والعقبات، مما انتهى في مكة تحت سمع وبصر غطارفتها وطغاة ملئها ببدء النصر المؤزر الذي كانت أولى حلقاته بيعة الأنصار الكبرى، والهجرة إلى المدينة حيث بدأ الجهاد الأعظم، وبدأ معه بناء الشريعة وتأسيس الدولة الإسلامية على يد رسول الله ﷺ، يحف به الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار.

وقد تضافرت النصوص القرآنية والحديثية على أن آية الإسراء كانت ضرباً من ضروب القهر الإلهي لنواميس الطبيعة ونظام ترابط عناصر الكون المادي، فهي رحلة بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بإيلياء.

ثم أعقبتها رحلة والية لها متصلة بها، بدأت من المسجد الأقصى إلى السموات العلا، إلى سدرة المنتهى إلى حيث سمع محمد ﷺ صريف أقلام الغيب وهي تكتب مقادير الأشياء في حياة هذا الكون الذي لا يحيط به علماً إلا مكوّنه وخالقه وهو الله الذي لا إله إلا هو، وهذا المقام التشريفي ـ الذي أريد به إلباس النبي ﷺ خِلَع التكريم لتمسح عنه يد الإنعام الإلهي أثر ما لقي من فادح البلاء وشديد الأذى من قوم هم قومه ولكنهم فقدوا معالم الرحمة من قلوبهم ـ لا يحقق المعنى المقصود منه إلا إذا كان قد وقع بصورة تنفرد بإعجاز لا سبيل إلى أن يقع مثلها لأحد من البشر، وذلك أن يكون الإسراء كما هو صريح النصوص قد وقع لشخص النبي ﷺ وهو في كمال تكوينه جسداً وروحاً، يقظة في أجلى صورة من التنبه والإدراك الذي لا

آية الإسراء والمعراج لا تبلغ مداها في الإعجاز التشريعي إلّا إذا انفردت بصورة من الإعجاز لا يبلغها أحد من الخلق غير المشرَّف بها محمد ﷺ

تفوته لمحات الحفاوة في رؤية عجائب الملكوت، وإشاراتها ومقاصدها، لتكون منائر في سير الرسالة تنير لها وللسالكين إليها وحامليها والمهتدين بهديها الطريق، وهي تمسك بيدها زمام الإقدام لأمة حمّلها الله أمانة خلافة الأرض لتقيم عليها موازين العدل والرحمة، كما يشير إلى ذلك إشارة تكاد أن تكون تصريحاً لمّاحاً قوله تعالى في وصف ثبات رسول الله ﷺ على أرفع مقامات الأدب السامي في مقام الشهود: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾[1].

وهذا ما أثبته القرآن الكريم، وفصلته الروايات الصحيحة المتضافرة، وأجمعت الأمة عليه زمن وقوعه، وهم الذين شاهدوا أحداثه، تصديقاً من المؤمنين وتكذيباً من الكافرين.

فالقول بأن الإسراء كان مناماً أو بالروح فقط قول مستحدث بعد انعقاد الإجماع قبله وليس لرواياته أسانيد ثابتة فلا وجه لذكره

فالقول بأن الإسراء كان مناماً في رؤيا رآها النبي ﷺ وهو نائم، كما هو منسوب للحسن بن أبي الحسن البصري ـ قول مستحدث لم يكن على عهد الصحابة والتابعين، ولم يثبت في روايات تُوازَن أسانيدُها في الصحة بأسانيد الروايات التي أخذت بها جماهير الأمة من أن الإسراء كان يقظة بجسد النبي ﷺ وروحه وهو في كمال بشريته يقظة وتنبّها.

وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ـ وهي طليعة من نقل عنهم القول إن الإسراء كان بروح رسول الله ﷺ ـ لم تكن في زمن وقوع الإسراء على أي قول قاله العلماء في سنها وتوقيت الإسراء زوجة لرسول الله ﷺ، ولا كانت في سن من يضبط ضبط إتقان وحفظ، ورسول الله ﷺ لم يدخل بها إلا في المدينة في السنة الثانية، والإسراء كان بمكة، فسنها على أقرب الأقوال في زمن الإسراء من دخول النبي ﷺ بها لم تتجاوز السابعة، وعلى غير هذا القول في توقيت الإسراء لم تكن قد ولدت بعد، أو كانت في سن الطفولية، قريبة المهد.

والرواية عنها مضطربة في محط الاستدلال منها، إذ روي أنها قالت: ما فَقَدتُ جَسَدَه ببناء فعل فقدت للفاعل مسنداً إلى ضميرها، وهذه الرواية

---

(١) سورة النجم آية (١٧).

وهي أشهر الروايات غير مقبولة لأنها قطعاً لم تكن زوجه حين وقع الإسراء حتى يسوغ أن ينسب إليها أن تقول: ما فقدتُ جسد رسول الله ﷺ، وروي أنها قالت: ما فُقِد جسدُ رسول الله ﷺ ببناء فعل فُقِد للمجهول، وهذا يدل على أنها روت عن غيرها، ومن هذا الذي يستطيع أن يعم الأحوال والأوقات ويجزم بعدمٍ فقد جسد رسول الله ﷺ زمن الإسراء؟ ومن أين يأتي هذا الجزم إذا لم يكن مروياً عن رسول الله ﷺ، كما هو الواقع إذ لم يزعم أحد قط أن رسول الله ﷺ قال ذلك. وروي لم يفقد جسد رسول الله ﷺ بفعل مضارع مبني للمجهول، قال الخفاجي: قال التلمساني: وهي الأشبه بالصواب فهو إخبار منها عن غيرها، لأنه حينئذ لم تكن زوجته، بل لعلها لم توجد، قال القاضي عياض: فإذا لم تشاهد زمن الإسراء عائشة دل على أنها حدثت بذلك عن غيرها، فلم يرجح خبرها على خبر غيرها؟. فليس حديث عائشة بالثابت عنها، قال الخفاجي: لما في متنه من العلة القادحة وفي سنده محمد بن إسحاق، وقد ضعّفه مالك وغيره والأحاديث الأخرى أثبت منه.

حديث عائشة في الإسراء موضوع لرد الحديث الصحيح

قال الزرقاني في شرح المواهب بعد أن ذكر قول عياض: حديثها ليس بالثابت عنها: لما في متنه من علّة قادحة، وفي سنده من انقطاع وراوٍ مجهول، ثم قال الزرقاني: وقال ابن دحية في التنوير: إنه حديث موضوع عليها، وقال في معراجه الصغير، قال إمام الشافعية ابن سريج: هذا حديث لا يصح، وإنما وضع رداً للحديث الصحيح.

وإذا انتهى خبر عائشة رضي الله عنها في أن الإسراء كان بالروح فقط، وأنه لم يفقد جسد رسول الله ﷺ إلى هذه النتيجة ظهر أنه ليس لعائشة رضي الله عنها قول في الإسراء بالروح فقط أو بها مع الجسد، قال الزرقاني: بل الذي يدل عليه صحيح قولها أن الإسراء كان بجسده الشريف لإنكارها رؤيته لربه رؤية عين، ولو كانت عندها مناماً لم تنكره.

وإذا بقيت عائشة مع إجماع الصحابة، أو لم يكن لها قول في الموضوع بقي الإجماع صحيحاً ثابتاً، ولا يخدشه ما نسب إلى معاوية رضي الله عنه من قوله: إن الإسراء كان رؤيا رآها رسول الله ﷺ إذْ كان الإجماع منعقداً

قبل أن يدخل معاوية وسائر مسلمة الفتح في الإسلام، على أن الرواية عنه لم تثبت بسند صحيح وهي من رواية محمد بن إسحاق وقد عُرف حاله، وعلى فرض ثبوتها فهي اجتهاد متأخر عن الإجماع غير ملزم ولا ناقض للإجماع.

أما ما حُكي عن الحسن بن أبي الحسن البصري فهو أحرى بعدم الإلزام، بل بعدم القبول، لأن المروي عنه أنه كان يقول: كان ذلك في المنام رؤيا رآها، ومع القطع بأن رؤيا الأنبياء وحيٌ صادق، لكنها لا تخرج عن عموم الرؤى في أنها لا تستبعد في العقول، ولا يستغرب فيها رؤية الآيات والعجائب الغريبة، ولا تقتضي التكذيب، لأن آحاد الناس تقع منه ويرى من العجائب والغرائب أشياء يحدث عنها ولا يكذّب في أنه رآها في رؤياه المنامية، ولا يستنكر منه ما يحدث به، وقد ثبت أن كفار قريش أنكروا الإسراء، وكذّبوا النبي ﷺ إذ حدثهم أنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلاً، وها هوذا يصبح معهم يحدثهم بما رأى مما يعرفونه، فلما عرفوا صدقه فيما أخبرهم به أعرضوا وقالوا: هذا سحر مبين، وهذا مما يرد به على رواية ما نسب لمعاوية رضي الله عنه، لأن الإسراء لو كان رؤيا منامية رآها رسول الله ﷺ ما أنكر عليه الإخبار به ولا كذب فيه ولا ارتد بعض حدثاء الإيمان من ضعفاء العقيدة.

والذين قالوا عن الحسن ما نسب إليه ذهبوا إلى أنه نزع بآية ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ وهذه الآية قد اختلف العلماء في المراد بالرؤيا فيها، فقيل: إنها رؤيا عام الحديبية، حين رأى رسول الله ﷺ أنه دخل المسجد الحرام فسافر قاصداً مكة معتمراً فصدّه المشركون، وافتتن الناس وتحيروا، ولم يثبت سوى الصدِّيق رضي الله عنه، لأن رؤياه ﷺ وحي صادق، فثبتهم ﷺ بقوله: «أقلت لكم في هذا العام»؟.

وقيل: إن المراد بالرؤيا في الآية رؤيا بدر، أراه جبريل مصارع القوم في غزوة بدر فأراها ﷺ الناس بقوله لهم واضعاً يده على الأرض: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان» وكان كما قال.

وإذا احتملت الرؤيا في الآية هذه الأوجه فلا تصلح متمسكاً للقول

بأن الإسراء كان مناماً، على أنه روي عن الحسن رحمه الله خلاف هذا القول، قال عياض: والمشهور عنه خلافه، قال الخفاجي: أي له قولان: أشهرهما أنه كان يقظة.

التحقيق أن الإجماع الصحيح قائم بلا نكير على أن الإسراء كان بمحمد ﷺ وهو في أكمل حالات بشريته روحاً وجسداً

وإذا تحرر هذا التحقيق لم يبق قائماً على دعائم الصحة التي لا مطعن فيها إلا إجماع الأمة، الصحابة ومن بعدهم من سلف العلماء ومن تبعهم في اعتقاد أن الإسراء من المسجد الحرام بمكة إلى **المسجد الأقصى** بإيلياء كان بشخص النبي ﷺ الكامل في بشريته وروحانيته، أي بجسده الشريف وروحه الأعظم، فإذا جاء بعد ذلك من ينتحل مذهباً مستحدثاً لم يصح عن أحد من الصحابة وهم قدوة الإسلام والمسلمين، فيرى أن الإسراء كان رؤيا منامية أو كان بالروح على مقتضى مذهب الانسلاخيين من المتصوفة والفلاسفة فلا يقام لانتحاله وزن ينقض به الإجماع.

أما المعراج من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى، بل إلى ما فوق ذلك مما استأثر الله بعلمه وخص به نبيه محمداً ﷺ فلم يأت عنه في القرآن نص صريح يوقف عنده، وقد يكون في سورة النجم إشارة إليه بقوله تعالى:

المعراج ثابت بالروايات الصحيحة المشار إليها في سورة النجم مع الاختلاف في سياقاتها وحوادثها

﴿ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى﴾ والاتفاق قائم على الرائي، وهو محمد ﷺ وعلى المرئي وهو جبريل عليه السلام، وعلى أن سدرة المنتهى في السماء السادسة أو السابعة بمقتضى صريح الروايات الصحيحة التي رواها الأئمة الأثبات، الشيخان وغيرهم.

وقد جاءت الروايات الكثيرة التي تبلغ في جملتها مبلغ التواتر على أن الصلاة فرضت على النبي ﷺ ليلة المعراج، ولكن هذه الروايات وقع فيها اختلاف بالزيادة والنقص، والتأخير والتقديم، والإسهاب والإيجاز، وذكر ما رآه النبي ﷺ من عجائب الملك والملكوت، وما أُتحف به من مظاهر الحفاوة والتلطف كصلاته ﷺ إماماً بالأنبياء، فقد أثبتتها روايات كثيرة، ونفتها روايات دونها في الكثرة، وقد أنكرها حذيفة بن اليمان وهو من خواص الصحابة رضي الله عنهم، وكالاختلاف في عدد الأواني التي جيء له بها وما فيها من شراب بين اللبن والماء والخمر والعسل، كما اختلفت الروايات في

مكان إتيانه بها ﷺ هل كان في الأرض ببيت المقدس، أو كان في السماء، وكالاختلاف في أمكنة الأنبياء من السموات، وغير ذلك مما حَمَل بعض العلماء على القول بتعدد الإسراء والمعراج في ليال مختلفة وأزمنة متعددة.

محاولة التوفيق بين الروايات لتفادي القول بتعدد الإسراء والمعراج

وقد حاول كثير من العلماء التوفيق بين الروايات المختلفة ليجعل الاختلاف بينها شكلياً فقال ابن كثير: وكان بعض الرواة يحذف بعض الخبر للعلم به أو ينساه، أو يذكر ما هو الأهم عنده، أو يبسط تارة فيسوقه كله، وتارة يحذف عن مخاطبه بما هو الأنفع عنده، وهذا كما يرى تمحل لا يدفع الاضطراب في الروايات، وهو توفيق قائم على التخيل لا يستند إلى واقع مسنود بنص من هؤلاء الرواة أنهم قصدوا ذلك.

ثم رد ابن كثير على من ذهب إلى تعدد الإسراء لاختلاف الروايات، فقال: ومن جعل كل رواية إسراء على حدة، فقد أبعد جداً، وذلك أن كل السياقات فيها السلام على الأنبياء، وفي كل منها يُعَرِّف بهم، وفي كلها تفرض عليه الصلوات، فكيف يمكن أن يُدَّعى تعدد ذلك؟ هذا في غاية البعد والاستحالة.

وهذا الكلام أصله لابن القيم في الهدى النبوي، لا ندري أخذه ابن كثير منه أو هو من قبيل توافق الخواطر المتعاصرة؟

رد ابن القيم على الذين زعموا تعدد الإسراء والمعراج

قال ابن القيم يرد على الذين عددوا مرات الإسراء نظراً لاختلاف الروايات: وكان الإسراء مرة واحدة، وقيل مرتين: مرة يقظة، ومرة مناماً، وأرباب هذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك، وقوله: ثم استيقظت وبين سائر الروايات، ومنهم من قال: بل كان هذا مرتين، مرة قبل الوحي لقوله في حديث شريك: وذلك قبل أن يوحى إليه، ومرة بعد الوحي كما دلت عليه سائر الأحاديث، ومنهم من قال: بل ثلاث مرات، مرة قبل الوحي ومرتين بعده.

ثم قال ابن القيم: وكل هذا خبط، وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل، الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات

جعلوه مرة أخرى، فكلما اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع.

والصواب الذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة، ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلاة خمسين ثم يتردد بين ربه وموسى حتى تصير خمساً، ثم يقول: أمضيتُ فريضتي وخفّفتُ عن عبادي، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطُّها عشراً عشراً.

وقد غلّط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه ثم قال: وأخّر وزاد، ونقص ـ أي شريك ـ ولم يسرد الحديث ـ أي مسلم ـ فأجاد رحمه الله.

تشييد ابن القيم للقول بأن الإسراء كان بالروح بكلام فلسفي لا يوائم أسلوب الإسلام في الأحداث والوقائع

وابن القيم صرّح بأن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة يقظة بشخص رسول الله ﷺ، جسده وروحه.

ولكن ابن القيم شيّد القول بأن الإسراء والمعراج كانا بالروح فقط في محاولة حريصة تؤذن بميله إلى هذا القول، قال في الهدى: وقد نقل ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا: إنما كان الإسراء بروحه، ولم يفقد جسدُه ـ هذا النقل منسوب إلى عائشة رضي الله عنها، أما النقل عن معاوية رضي الله عنه فهو كما ذكره ابن كثير في البداية أنه كان إذا سئل عن ذلك قال: هي رؤيا صادقة رآها ـ قال ابن القيم: ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك ـ أي أن الإسراء كان بالروح فقط، كما هو المنسوب إلى عائشة رضي الله عنها، والمعروف عن الحسن تصريحه بأن الإسراء كان مناماً، وفرق كبير جداً بين ما نسبه ابن القيم إلى معاوية والحسن، وبين ما نسبته إليهما الروايات عنهما عند ابن إسحاق، وقد بيّنا ضعف الرواية بهذه الصورة عنهم، بل ذكرنا قول من قال: إن حديث عائشة موضوع عليها ـ.

ثم قال ابن القيم يشيّد هذا القول ويدعمه بكلام فلسفي، لا يجري على طرائق الشريعة في الملة الإسلامية: ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً ـ وهذا هو المنسوب في رواية ابن إسحاق الوحيدة

إلى معاوية والحسن وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده - أي كالمنسوب إلى عائشة رضي الله عنها - وبينهما فرق عظيم.

وعائشة ومعاوية لم يتفقا على القول أنه كان مناماً - بل هذا هو المنقول عن معاوية في رواية ابن إسحاق الوحيدة عنه أنه كان إذا سئل عن ذلك قال: هي رؤيا صادقة رآها، والرؤيا لا تكون إلا مناماً، فضم معاوية إلى عائشة في أنهما لم يقولا كان مناماً، وإنما قالا: أسري بروحه لا يتفق مع قولها: ولم يفقد جسده، كما لا يتفق مع المروي عن معاوية - قال ابن القيم: وفرق بين الأمرين، فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة، فيرى كأنه قد عُرج به إلى السماء، أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض، وروحه لم تصعد، ولم تذهب وإنما ملك الرؤيا ضرب المثال.

والذين قالوا: عرج برسول الله ﷺ طائفتان، طائفة قالوا: عرج بروحه وبدنه، وطائفة قالت: عرج بروحه، ولم يفقد بدنه - قلنا: بل الذين قالوا: عرج برسول الله ﷺ ثلاث طوائف بمقتضى الروايات المنسوبة إليهم: طائفة قالت: عرج برسول الله ﷺ بروحه وبدنه يقظة، وهذا ما انعقد عليه إجماع الصحابة، لأن حديث عائشة موضوع عليها لرد الحديث الصحيح كما قال إمام الشافعية ابن سُرَيج، وطائفة نُسِب إليها القول بأنه عرج برسول الله ﷺ بروحه ولم يفقد جسده، وهذا باطل من القول نسب إلى عائشة رضي الله عنها، وهي في سن غير ضابطة أو هي لم تكن قد ولدت، فنسبة هذا القول الباطل إليها لا يحل عروة إجماع الصحابة قبل أن تظهر نسبة هذه القولة إليها، وطائفة ثالثة نُسِب إليها أنها قالت: كان الإسراء رؤيا رآها كما هو المنسوب إلى معاوية، أو رؤيا منامية كما هو المنسوب إلى الحسن البصري، وهذه الطائفة لم تَثْبت الرواية عنها بسند يعوّل عليه وينقض به الإجماع، لأنها لم يروها غير محمد بن إسحاق.

ثم أخذ ابن القيم يدير الكلام على القول الذي قيل فيه: إنه عرج برسول الله ﷺ بروحه فقط ولم يُفقد جسدُه، وهو قول لا وجود له إذ لم يقله أحد، بعد أن تبين أن حديث عائشة موضوع.

قال ابن القيم: وهؤلاء ـ أي الذي قالوا: عرج بروحه ولم يُفْقد بدنُه، وهم لا وجود لهم، بعد ثبوت وهن الحديث المنسوب إلى عائشة أو وضعه عليها، وهي الوحيدة التي نسب إليها الإسراء بالروح فقط ـ لم يريدوا أن المعراج كان مناماً ـ بل أرادوه وصرّحوا به في رواية ابن إسحاق الوحيدة منسوباً إلى معاوية والحسن، ولم يذكر عنهما أنهما قالا: عرج بروح رسول الله ﷺ، فنفي ما نسب إليهما وتقويلهما إن العروج كان بالروح فقط تبديل للقول وتحريف للرواية ـ وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسري بها وعرج بها حقيقة وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة، وكان حالها في ذلك كحالها بعد المفارقة في صعودها إلى السموات، سماء سماء حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة فتقف بين يدي الله عز وجل، فيأمر فيها بما يشاء، ثم تنزل إلى الأرض.

ثم قال ابن القيم: فالذي كان لرسول الله ﷺ ليلة الإسراء ـ على هذا القول المزعوم ـ أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة، ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم، لكن لما كان رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد حتى شق بطنه وهو حي لا يتألم بذلك، عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة ـ قلنا: ما دام رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد، فلماذا يصرف الإسراء عن كونه ـ كما هو الواقع ـ كان بالجسد والروح معاً، وهو الشخص الكامل بشرية وروحاً المعبر عنه في الآية بلفظ (عبدنا)؟ وبقاؤه على هذا المعنى المفهوم للعامة والخاصة أدخل في خرق العوائد ـ ومَنْ سواه لا ينال بذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة، فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك في حال الحياة ثم عادت، وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء، ومع هذا فلها إشراف على البدن وإشراق وتعلق به بحيث يرد السلام على من سلَّم عليه.

سؤال يهدم بناء ابن القيم من أساسه

ولا بد من التساؤل حينئذ أمام هذه الحماسة المتدفقة في تشييد بناء هذا القول المتداعي: هل كان هذا التصور للإسراء على قول القائلين بالروح

ولم يفقد جسَدُه ﷺ موجوداً في ذهن رسول الله ﷺ حين أخبر مجتمع الكفر من قريش برحلته الإعجازية، فاستمعوا له ما بين مصفق وضاحك وساخر، إنكاراً وتكذيباً لما قال لهم، وحين استوصفوه المسجد الأقصى، وكان رسول الله ﷺ لم يثبت في ذاكرته بعض أشياء منه فكرب كرباً شديداً، فجلّاه له رب العزة في الحِجْر، فجعل ينظر إليه ويخبر عمّا يسألون، فلما وافق وصفه ما عندهم مما عرفوه عن المسجد الأقصى لكثرة ترددهم عليه للتجارة وغيرها قال قائلهم: أما الوصف فقد صدق فيه؟

وهل المسلمون وهم يستمعون إلى نبيهم ﷺ يتحدث عن رحلته الإعجازية يفهمون أنها رحلة روح فقط تركت جسدها وانسلخت منه ثم عادت إليه؟ ففيم إذاً كان ارتداد المرتدين، وهم يعلمون أن الروح لها شأنها الخاص الذي لا تقيده الماديات، فتنطلق إلى أقصى المشرق ثم تعود إلى أقصى المغرب في لحظات من الزمن، وتُبَاشر من الأمور المادية ما يقتضي أعواماً وشهوراً لو كان حصوله حصولاً مادياً؟ وهل كان ملأ قريش حين استمعوا إليه ﷺ وهو يحدثهم عن رحلته وعجائب ما رأى فيها من آيات الله في ملكوته في طريقه ذهاباً وجيئة يفهمون أنها رحلة روح انسلخت عن جسدها وتركته حياً حتى عادت إليه وامتزجت به كما كان حالها قبل الرحلة؟ وإذاً ففيم كان الإنكار والتكذيب والاستسخار، وهم يعلمون أن الأرواح لا ينكر عليها قطع المسافات البعيدة جداً في زمن يسير، وقد قالوا في إنكارهم: إننا نضرب لها أكباد الإبل شهراً مصعدة وشهراً آيبة وأنت تقول: إنك ذهبت إليها في لحظة من ليل ثم عدت إلينا تحدثنا؟

وهل لهذا الطراز من التخيلات سند من أمثاله وشواهده في آثار الأنبياء ومعجزاتهم مثل ما وجد من الشواهد لنقل جسم عظيم من مكان قصيّ البعد في لحظة من ارتداد طرف العين، كنقل عرش ملكة سبأ، وهو ثابت بنص القرآن الكريم؟

وانسلاخ الروح عن الجسم وبقاؤه حياً ينتظرها هوس إشراقي متفلسف انتقل إلى بعض الفارغين من أدعياء التصوف الإشراقي الفلسفي،

وقد جاء في بعض شروح عينية ابن سينا أن بعض متقدمي متفلسفة الإشراق الوثنيين قال: انسلخت عن بدني فعرفت من أنا، فهل هذا الهوس المأفون يتفق في شيء مع منهج الإسلام وشريعته؟!

ومن العجيب أن الإمام ابن القيم افتتح حديثه عن الإسراء في كتابه (زاد المعاد في هَدْي خير العباد) بقوله: ثم أسري برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكباً على البراق صحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام.

فقوله على الصحيح دليل على أن مقابله ليس صحيحاً، وإذا كان ذلك كذلك ففي أي شيء كانت الحماسة لتشييد قول غير صحيح، وإهمال القول الصحيح لمجرد السرد وقصص الروايات؟

إن آية الإسراء والمعراج كانت إعجازاً من الله تعالى كرّم به نبيه وحبيبه محمداً ﷺ، أسرى به من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بإيلياء من الشام بروحه وجسده وهو ﷺ كامل البشرية، فأراه من عجائب آياته في ملكوته ما أراه، حفاوة به وتشريفاً له ولأمته، وعرج به ﷺ جسماً وروحاً في كامل بشريته، فسما في عروجه حتى سمع صريف أقلام الغيب تجري بمقادير الخلق في الكون، وفرضت عليه الصلاة، وأوتي من المنح الإلٰهية علماً وعملاً وبهاء ما لم يؤت مثله أحد من العالمين. هذا اعتقاد كافة المسلمين، وهو ما ندين الله عليه ونعتقده، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

اختلاف الروايات في وقائع الإسراء والمعراج

وقد اتسع اختلاف الروايات في حادث الإسراء والمعراج ووقائعه وأحداثه اتساعاً استعصى على المهرة من أئمة العلم في الإسلام ـ قديماً وحديثاً، مفسّرين ومحدِّثين ونظّار ومتكلمين ومؤرخين ـ الجمعُ والتوفيق بين هذه الروايات، لما وقع فيها من زيادات ونقصان، وتقديم وتأخير، وإسهاب وإيجاز، وتناقض في الحوادث.

مجموع روايات البخاري في الإسراء والمعراج

فقد بلغ مجموع ما رواه البخاري في صحيحه نحواً من عشرين رواية عن ستة من الصحابة بين رواية للقصة كاملة، تجمع بين الإسراء والمعراج، وبين رواية مقتطعة من رواية أخرى، ورواية تفرد الإسراء عن المعراج، وأخرى تفرد المعراج عن الإسراء.

حديث أنس بن مالك من طريق إبراهيم ابن طهمان، ومن طريق شريك

ومن هذه الروايات حديث أنس بن مالك من طريق إبراهيم ابن طهمان، وهو مختلف مع حديث أبي هريرة من طريق عبدان في عدد الأقداح التي جيء بها إلى رسول الله ﷺ، وفي مكان إتيانه بها، ففي حديث أنس أنها ثلاثة أقداح، وأنه أُتي بها عند سدرة المنتهى، وأنها كانت من لبن وعسل وخمر، وفي حديث أبي هريرة أنها كانت قَدَحين من خمر ولبن وأنه أُتي بها في الأرض بإيلياء.

ومنها حديث أنس من طريق شريك بن عبدالله بن أبي نمر، وهو مختلف مع سائر الطرق والروايات في أمور جوهرية في الموضوع، لأن فيه أن الإسراء كان قبل البعث قبل أن يوحى إلى النبي ﷺ، أي قبل أن يُنبأ

ويبعث رسولاً، وفيه النص صراحة على أن الإسراء كان مناماً لقوله فيه، ثم استيقظ، وهو اختلاف مشهور وقد غلّط الأئمة شريكاً فيه، ولم تقبل هذه الزيادات لأنها تخالف ما عليه جمهور الأمة من الصحابة ومن بعدهم من أئمة العلم.

حديث أبي ذر الطويل وفيه قصة شق الصدر

ومنها حديث أبي ذر الطويل، وفيه قصة شق الصدر الشريف وغسله بماء زمزم، وأن العروج إلى السماء كان بعد حادثة شق الصدر وغسله، ولم يذكر فيه النزول ببيت المقدس ولا الصلاة فيه لا منفرداً ولا إماماً بالأنبياء، ولم يُثْبت فيه مكان أحد من الأنبياء سوى آدم في السماء الأولى، وإبراهيم في السادسة، وسائر الروايات تثبت إبراهيم في السابعة مع إثبات أمكنة غيرهما من الأنبياء في السموات سماء، سماء.

حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة

ومنها حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أحد الأنصار، وفيه قصة شق الصدر وأن جبريل انطلق به إلى السماء الدنيا، ولم يذكر نزوله بالمسجد الأقصى ولقاء الأنبياء والصلاة إماماً بهم، فهو في هذا كحديث أبي ذر، وفي حديث مالك بن صعصعة بكاء موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل من أمتي، وقد تكلم العلماء في هذا البكاء، وفي وصف النبي ﷺ بأنه غلام، وفي كثرة من يدخل من أمته ﷺ بالنسبة إلى من يدخلها من أمة موسى عليه السلام بما يبرىء ساحة النبوة عن توهم مالا ينبغي بالنسبة لموسى رسول الله وكليمه.

حديث شريك من طريق عبد العزيز ابن عبدالله

ومنها حديث شريك من طريق عبد العزيز بن عبدالله، وفيه أن الكوثر نهر في سماء الدنيا، وفيه أن موسى في السماء السابعة بفضل كلام الله، وفيه: فقال موسى رب لم أظن أن ترفع عليّ أحداً، وقد وجّه العلماء هذا القول توجيهاً يليق بمكانة موسى عليه السلام وينفي توهُّم ما عسى أن يعلق بقلب ضعيف النظر في المعاني والحقائق من عامة المؤمنين.

وفيه: جاء نبينا ﷺ سدرة المنتهى، ودنا الجّبار رب العزة فتدلّى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وفيـه عند مراجعة موسى: فعلا به إلى الجبار وهو مكانه، وفي الهدي النبوي لابن القيم: فعلا به جبرائيل حتى أتى به الجّبار

تبارك وتعالى وهو في مكانه، وقد علّق عليه ابن القيم فقال: هذا لفظ البخاري في بعض الطرق، وقد بين بعض الأئمة أن الضمير في قوله: وهو في مكانه عائد على النبي ﷺ، أي مكان مناجاته ربه عز شأنه.

مجموع روايات مسلم في الإسراء والمعراج

أما الإمام مسلم فقد بلغ مجموع ما رواه في الإسراء والمعراج نحواً من ثماني عشرة رواية عن سبعة من الصحابة، منها حديث ثابت البُناني عن أنس بن مالك، وهو أجود الروايات في آية الإسراء والمعراج سياقة وترتيباً وجمعاً.

حديث أنس عن أبي ذر

ومنها حديث أنس عن أبي ذر من طريق حرملة بن يحيى التجيبي، وفيه: فأدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك، وفيه: فقال أنس بن مالك: فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وعيسى، وموسى وإبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين، ولم يثبت كيف منازلهم فيها، وفيه: قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبّة الأنصاري كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عُرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام».

وفيه بعد مراجعة موسى أن رسول الله ﷺ قال: «ثم انطلق بي جبريل حتى نأتي سدرة المنتهى».

حديث أنس من رواية محمد بن المثنى

ومنها حديث أنس من رواية محمد بن المثنى، وفيه: بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، وهو حديث مالك بن صعصعة وفيه: إذْ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأُتيت فانطُلِق بي، ثم ذكر قصة شق الصدر وغسله بماء زمزم، وفيه ذكر البراق ووصفه، وفيه فحملت عليه، ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الدنيا، وظاهر ذلك أن العروج إلى السماء كان مباشرة بعد شق الصدر وغسله، وأنه كان على البراق وفيه: ثم رفع لي البيت المعمور، وأنه أُتي بإناءين في أحدهما لبن، وفي الآخر خمر.

ومنها حديث ثابت البناني وسليمان التيمي من طريق هدّاب بن خالد وشيبان بن فروخ عن أنس بن مالك، وفيه أن النبي ﷺ قال: «مررت على

موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره».

حديث ثابت البناني عن أنس من طريق هداب بن خالد وشيبان بن فروخ

وإذا اكتفينا من الصحيحين، وهما قمة الصحة في الإسناد، بهذا القدر من الاستشهاد على اختلاف الروايات، وكلها بأسانيد صحيحة لا مطعن في رواتها وجدنا في غيرهما اختلافاً أوسع وأعمق وأكثر أحداثاً ووقائع.

حديث ابن عباس عند أحمد من طريق قابوس عن أبيه

ففي مسند أحمد تجد حديث ابن عباس من طريق قابوس عن أبيه، وفيه بعض وقائع لم تذكر في غيره من الأحاديث، وفيه أن النبي ﷺ لما دخل المسجد الأقصى قام ليصلي فالتفت ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه، وفيه ذكر قَدَحين أتي بهما ﷺ في أحدهما لبن وفي الآخر عسل.

حديث حذيفة عند أحمد

وقد روى الإمام أحمد في مسنده حديث حذيفة بن اليمان، وفيه محاورة بينه وبين زرّ بن حُبَيش، وفيه إنكار حذيفة دخول النبي ﷺ المسجد الأقصى والصلاة فيه، وكان حذيفة يقسم أنهما لم يزايلا البراق، وهذا إنكار لربطه في الصخرة كما في كثير من الروايات، وإنكار لدخوله ﷺ المسجد الأقصى، وإنكار للصلاة فيه.

في دلائل البيهقي روايات كثيرة مسهبة أمثلها حديث شداد بن أوس، وهو عند البزار والطبراني في الكبير، وهو خاص بالإسراء.

وفي دلائل البيهقي روايات كثيرة مطولة مسهبة جداً مشتملة على أحداث ووقائع لم تذكر في الصحيح، ومن أمثل ما رواه البيهقي في دلائله حديث شداد بن أوس ورواه البزار والطبراني في الكبير، وخرجه صاحب مجمع الزوائد وهو مقصور على الإسراء لم يذكر فيه شيء عن المعراج، وهو جواب سؤال من الصحابة، كيف أسري بك يا رسول الله، فقال: «صليت لأصحابي العتمة بمكة معتماً» وفيه أن النبي صلّى ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام، وصلّى بمدين، عند شجرة موسى، وصلّى بيثرب طيبة. وفيه أنه ﷺ رأى جهنم بوادي المدينة - أي مدينة بيت المقدس فوصفها لأصحابه، وفيه أنه ﷺ مرّ بعير قريش، وأنهم أضلوا بعيراً لهم جمعه فلان، وأنه سلم على أهل العير فعرفوا صوته، وفيه أن أبا بكر أتاه فسأله: أين كنت الليلة، فحدثه أنه أتى بيت المقدس الليلة، فعجب أبو بكر وقال: مسيرة شهر، فصفه لي فإني أعرفه، فوصفه له، وصدقه في كل كلمة حدثه بها، وقال: أشهد أنك رسول الله، وشاع الأمر في المشركين وظهر تكذيبهم،

فأخبرهم ﷺ أن من آية ذلك مروره بعيرهم ووصفها لهم وأنه يقدمها جمل أسود، عليه غرارتان سوداوان، وأخبرهم بوقت قدوم العير، فقدمت في الوقت الذي عيّنه لهم.

وقد علّق البيهقي على هذا الحديث فقال: إسناد صحيح، مع أن فيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء ضعّفه النسائي، وقد روى ذلك مفرقاً في أحاديث غيره، ومن تفاريقه ما رواه البخاري عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: سمعت جابر بن عبدالله الأنصاري يحدِّث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش قمت في الحِجْر فجلّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»

* * *

هذا الاختلاف الواسع بين روايات الأحاديث لا يمكن التوفيق فيه إلاّ بالترجيح بين هذه الروايات

هذا الاختلاف العريض في سياقات الأحاديث، وأساليبها، وأحداثها ووقائعها بالزيادة والنقص والتقديم والتأخير لا يكفي فيها، ولا يشفي ظمأ المتطلِّعين إلى حقائق العلم والدين، وقضايا المعرفة، ودعائم الإيمان بها ـ وقضيةُ الإسراء والمعراج من كبريات هذه القضايا العلمية الدينية، لأن الله تعالى لم يذكر آية مادية حسية مما كرّم به نبيه محمداً ﷺ بمثل ما ذكرها من التمدح بها وتعظيمها ورفع شأنها ـ ما حاوله بعض العلماء من التوفيق بينها، لأن بعض هذه الاختلافات تدخل في صميم الحقائق التي اشتمل عليها حادث الإسراء والمعراج، وهو من أعظم ما شرف الله به نبيه محمداً ﷺ من الآيات الحسية والكرامات المادية والمعجزات الصادقة المصدِّقة لدعوته في رسالته الخالدة العامة عموم الزمان والمكان والأجيال.

فهي آية من أعجب ما أوتي الأنبياء والرسل، رسمت في إطارها الإعجازي طريق مسير الرسالة في تشريعها وتطبيق أحكامها، بما شاهد فيها رسول الله ﷺ ورآه من آيات ربه في ملكوته رأي عين من عجائب الكون التي أوتيها رسول الله ﷺ في صور من عالم الغيب، تتضاءل أمام جلالها وعظمتها كل صور المشاهد الأرضية.

وهذه الإرادة لعجائب الملكوت هي في الحقيقة موطن الحفاوة

رؤية عجائب الملكوت بلسم لجراح الأزمات والشدائد ورسم لطريق الكفاح في مسير الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته

بالنبي ﷺ، ليمسح الله بها كل أثر لقيه ﷺ من آثار الفجور الوثني، وطغيان الشرك وعتو العناد، وبأو الاستكبار والبغي في معاملة هؤلاء الفجرة له ﷺ ولأصحابه، ليزداد ﷺ علماً بأن رسالته في عمومها الأشمل وخلودها المؤبد رسالة كفاح صبور أبدي مستمر ما قامت الحياة على هذه الأرض، وأنها دعوة نضال لا يعرف التوقف والمهادنة، لأنها دعوة تستهدف إخراج الإنسانية من ظلمات الظلم والجهل إلى نور العدل والعلم، وتطهير هذه الإنسانية من أوضار الشرك ورجس الوثنيات في كافة صورها وأشكالها مهما ألبست من لبوس العلم الزائف والمعرفة المتهافتة، وإنقاذ الحياة من ظلم الطغيان الممثل في جبروت المستعبدين للبشرية في صورة زعماء وحكام وأباطرة، وثراء في المال، يسخِّرونهم لقضاء شهواتهم الفاجرة، ويعملون على سرمدة الجهل فيهم لتدوم لهم طاعتهم وتسخيرهم عبيداً لا يعرفون طعم الحرية في حياتهم، حتى يعلم الناس كل الناس في مشارق الأرض ومغاربها أن التأسّي به ﷺ يتمثل في إقامة منهجه في رسالته علماً وعملاً وصبراً وجهاداً، وحتى يعلم وارثو منهجه في الدعوة إلى الحق من حملة أمانة دعوته ورسالته المنتصبين للدعوة لها أنهم يحملون أثقال ما حُمّل رسول الله ﷺ في تطبيق منهجه على أنفسهم وأقرب المقربين إليهم، وأبعد الأبعدين عنهم، ليكونوا مُثُلاً حيَّة لحياته ﷺ في تبليغ رسالته، ونشر دعوته، تتحرك بين الناس حاملة لواء الوراثة النبوية يخفق في آفاق الأرض، منادين باسم السماء التي تنزلت منها تلك الرسالة الهادية: أن رسالة محمد ﷺ عقد لواء انتصارها على عتو المعاندين المستكبرين في الأرض في ظل سدرة المنتهى ليلة شرّفه الله بالإسراء والمعراج، وما عقد في السماء فلن يحلّ في الأرض، فلتسمع الدنيا بمن فيها وما فيها صوت الحق والخير والهدى في هذه الرسالة السرمدية، وليستجب الذين يسمعون إلى دعوة العدل والحب والإخاء الإنساني لله ولرسوله ﷺ، وهو يدعوهم لما يحييهم.

وعندئذ تتحقق لهؤلاء الدعاة إلى الله وراثة منهج محمد ﷺ في مشاهدة آثار آيات الله وأعاجيب ملكوته وأسرار ملكه في خزائنها من قلوب العباد، لأن كل قلب يفتح للحق والخير والتراحم الإنساني هو سماء من سماوات

البشرية، تنحدر منه غيوث بشائر الإيمان والهدى والإخاء المواسي، بل الإخاء المُؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة.

هكذا كان واقع رسالة محمد ﷺ في الحياة، بعد أن شرّفه الله تعالى بآية الإسراء والمعراج، لأنها كانت مبدأ التمكين في التطبيق العملي، وهكذا كان تطبيق منهجه ﷺ الذي رجع به من رحلة السماء بين الناس والأشياء.

الدعاة إلى الله في شرعة الإسلام هم الوارثون لمفاتيح القلوب لإدخال الهداية إلى حظائرها

فالدعاة إلى الله بأيديهم مفاتيح القلوب التي أنزلت مع محمد ﷺ من سماء العزة ليلة الإسراء والمعراج أمانة يتقلدها العلماء بالله في أعناقهم؛ ليؤدوها إلى أهلها منهجاً وسلوكاً كما أداها سيد المرسلين في حياته المباركة.

ويوم يتقاعس حاملو أمانة الوراثة في تبليغ الرسالة ونشر دعوة الحق والنور والهدى، مُخْلِدين إلى الأرض تلمظاً للدنيا وغروراً بزخارفها وشهواتها، وليس لهم منها إلا ما يتساقط من فتات موائد المفتونين بها من المترفين - لم يبق لهم من هذه الوراثة إلا عبء التحمل في الدنيا وعسير الحساب في الآخرة، وقد ضُربت ليلة الإسراء والمعراج لهم الأمثال لو كانوا يعقلون ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[1].

هذه حقائق يجب أن تستخلص من واقع آية الإسراء والمعراج ووقائعها وأحداثها في الأرض وفي السماء، والروايات في مجموعها على اختلافها تصور ذلك أكمل تصوير، ولكن الاختلافات الجزئية بينها توقع من لا تعمق له في فقه الدين في الحيرة، والحيرة قد تكون طريقاً إلى الشك، والشك هناك لا يقع في جملة الحوادث، لأن هذه الجملة قد تضافرت عليها الروايات، فلا سبيل إلى الشك فيها، والشك في بعض الجزئيات لا يمس جوهر الموضوع باعتباره آية من آيات الله التي امتن بها على نبيه محمد ﷺ ليطلعه من عوالم غيبه على ما يزداد به رسوخاً في يقينه، وما يكون له عوناً في طريقه.

ومن ثمّ لم نتتبع الجزئيات جزئية جزئية، لأننا وجدنا النفي والإثبات قد يتعاوران بعض الجزئيات، وليس في أيدينا ما نرجّح به بعض الروايات

---

(١) سورة العنكبوت آية (٤٣).

على بعضها الآخر ووجدنا أن هذا التتبع يطول في غير طائل، وقد ذكرنا بعض الاختلافات في روايات الصحيحين، وهما في أعلى قمة الصحة السندية، ولن يصل غيرهما إلى درجتهما.

من أصح وأجود ما جاء من الروايات جامعاً بين الإسراء والمعراج في قرن واحد وزمن واحد

لذلك آثرنا أن نكتفي من هذه الروايات برواية من صحيح مسلم، جاءت جامعة بين وقوع الإسراء والمعراج في ليلة واحدة في سياق محرر سوّي الترتيب، ثابت الوقائع والأحداث، على ما هو اتفاق جمهرة المسلمين من السلف والخلف، وقد اختار هذه الرواية القاضي عياض.

وهو حديث جمع بين الإسراء والمعراج في سياق واحد وليلة واحدة، وقد ضبطت فيه الوقائع والأحداث والآيات التي أريها النبي ﷺ في الأرض وفي السموات على حد سواء.

حديث ثابت البناني عن أنس عند مسلم

ذلك هو حديث ثابت البُناني عن أنس بن مالك، وثابت من الحفاظ الضابطين المجمع على توثيقهم وضبطهم وجودة حفظهم وهو من أئمة المسلمين ديانة وصلاحاً وزهادة في الدنيا، والإمام مسلم روى هذا الحديث من طريق شيبان بن فرّوخ عن حمّاد بن سلمة قال: حدثنا ثابت البناني ـ قال الشهاب الخفاجي ـ رأس العلماء العابدين في عصره، أي عصر التابعين ـ عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقال: من أنت ؟فقال: جبريل، قيل: ومن معك قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عُرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا عليهم الصلاة والسلام، فرحّبا بي ودَعَوا لي

بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل؟ ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي، ودعا لي بخير. ثم عُرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بادريس، فرحب بي ودعا لي بخير، قال الله عز وجل: ﴿ورفعناه مكاناً عليّا﴾.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عُرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح، فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال، قال: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: «خمسين صلاة» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب خفف عن أمتي، فحطَّ عني خمساً، فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى، حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هَمّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن همّ

بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها كتبت له سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال ﷺ فقلت لموسى: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه». وقد ساق القاضي عياض في شفائه هذا الحديث، ثم علّق عليه بما قاله شيخه القاضي الحافظ ابن سكرة: جوّد ثابت هذا الحديث عن أنس رضي الله تعالى عنه ما شاء، وقد خلّط فيه غيره، لا سيما من رواية شريك بن أبي نمر، فقد ذكر شريك في أول حديثه قصة مجيء الملك وشق صدره وغسله بماء زمزم، وهذا إنما كان وهو صبي، وقد روى ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه من رواية حمّاد بن سلمة أيضاً مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وهو يلعب مع الغلمان عند ظئره، وشقه قلبه، تلك القصة منفردة من حديث الإسراء كما رواه الناس، فجوّد في القصتين، وفي أن الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سدرة المنتهى كان قصة واحدة، وأنه وصل إلى بيت المقدس وصلّى فيه، ثم عرج به من هناك في نفس الليلة، فأزاح ثابت بروايتيه كل إشكال أوهمه غيره، كحديث يونس الأيلي القرشي عن ابن شهاب عن أنس قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي فنزل جبريل ففرج صدري» الحديث، وكحديث قتادة بن دعامة السدوسي عن أنس، عن مالك بن صعصعة، وفي هذه الرواية تقديم وتأخير، وزيادة ونقص وخلاف في ترتيب الأنبياء في السموات وحديث ثابت عن أنس أتقن وأجود.

تعليق ابن سكرة شيخ القاضي عياض على هذا الحديث بجودة السياق

ويليه في الجودة حديث قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن مالك بن صعصعة، وهو في البخاري، ولم يذكر فيه النزول بالمسجد الأقصى، ثم حديث أنس عن أبي ذر وهو أيضاً ليس فيه ذكر للإسراء بل هو خاص بالمعراج.

* * *

إلى هنا ونكف عنان القلم عن الاسترسال في تعاريج الروايات الكثيرة التي رويت في قصة آية الإسراء والمعراج بأسانيد لا تقوى على النقد

المحص، ولا تدعو إليها ضرورة في أداء حق الوفاء بالموضوع باعتباره أعظم آية حسية أكرم الله بها حبيبه ورسوله محمداً ﷺ، وفيها ذكرنا غنية لمن ألقى السمع وهو شهيد.

مواكب الخير
تجني بواكير النصر

في لقاءات الطلائع اليثربية

المرحلة المكية لرسالة الإسلام كانت مرحلة كفاح صبور

كانت المرحلة المكية من مراحل رسالة الإسلام أشق مرحلة مر بها النبي ﷺ والسابقون من أصحابه وأشدها ابتلاء، وأعظمها محناً، وأقساها احتمالاً، لأنها كانت مرحلة تربية وإعداد، وكفاح ونضال، وصبر واحتمال، تحمّل فيها النبي ﷺ وأصحابه من السابقين الأولين ـ الذين جعلهم الله طلائع لكتائب الإيمان والجهاد، واتخذ منهم شموساً في آفاق الهداية وأنوارها ـ من صنوف البلاء والمحن وضروب الآلام والأذى وألوان الظلم الكفور، والعتو الأثيم والطغيان الفاجر، والفجور العنيد، والبأو المستكبر، والتنفج الكذوب، وسفاهة الغرور، وجهالة الغوغاء، ما لم تكن تحتمله الشامخات من الشم الشداد.

فهذه المرحلة لم تكن مرحلة إعجاز تتأيد به النبوة الخاتمة الخالدة، بتنزل القهر بما يستنزل الناس من آفاق عقولهم إلى التصديق كرهاً بما لم تفقهه عقولهم وهي منكوسة الإدراك، وما لم تؤمن به قلوبهم وهي غارقة في خضم عنادها العتيّ الظلوم واستكبارها الجهول الغشوم، ولكنها كانت مرحلة حِجَاج يخاطب العقول المبرأة من جهالة التقليد البليد، والعصبية الجاهلية الحمقاء.

ومن ثم لم يفقه رسالة الإسلام أولئك الذين عاشوا أصناماً في أشباح أناسي، وأنعاماً في هياكل آدمية لا يعنيهم من الحياة إلا إشباع شهواتهم، وعرضنة بطونهم، وانتفاخ كروشهم، وإلا أن يتكثروا في غرور أبله من زينة الدنيا وزخارفها، حتى عجبوا حين جاءتهم رسالة التوحيد مما لا يمكن أن يعجب منه عقل لم تستأسره مخابُّ الدنيا وحطامها، فقالوا إذ قيل لهم: ﴿إنما

إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علمًا﴾: ﴿أَجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

وقد ذكرنا من أحداث البلاء، وفوادح الإيذاء التي كانت تصب على النبي ﷺ وأصحابه على أيدي الفجّار من الكفرة في هذه المرحلة المكية أمثلة وشواهد كثيرة في مناسباتها، تدل دلالة قاطعة على ما كانت تنطوي عليه جوانح هؤلاء الطغاة من الحقد والضغن، وما كانوا عليه من غلظ الأكباد، وقساوة القلوب، وعتو الفجور، وعلى ما كانت تنطوي عليه جوانح رسول الله ﷺ من عظيم الرأفة والرحمة، وسماحة الخلق، وكرم السجايا، والعفو والمغفرة، والصفح والإحسان إلى من أساء إليه، وعلى ما كان من تأسي أصحابه بأخلاقه من الصبر والتجلد للبلاء والإغضاء عن فجور السفهاء وجفوة الجهلاء، والتجاوز عن الإساءة، لأن الله تعالى أراد أن يجعل من هذه المرحلة المكية، محضناً لمكارم الأخلاق عند المؤمنين، فلم يأذن لهم سبحانه في رد الاعتداء باعتداء مثله، وإنما أمروا بالإعراض تكرماً، والإغضاء تفضلاً، وأن يقابلوا السيئة بالحسنة، والعذاب بالمغفرة ليتأسّى بهم من بعدهم من الدعاة إلى الله وحَمَلة أمانة نشر رسالة هذا الدين القيِّم، حتى يبلِّغوه إلى العالمين كما تلقَّوه من نبيهم ﷺ نوراً وهدى ورحمة، وشفاء من أمراض الأرواح والقلوب، وجمحات النفوس وشطحات العقول وشطط الغرائز، ووثبات الغرور.

وقد ظلت هذه المرحلة المكية على شدتها ومرارة قسوتها مدة ثلاثة عشر عاماً، وهي المدة التي أقامها رسول الله ﷺ منذ اصطفاه الله لنبوته، ثم اجتباه لرسالته، لم يهدأ لهيب أوارها، ولم تخمد شعلة نارها، والمؤمنون طوال هذا الزمن طيبو القلب رضا بما يصيبهم من نصب وبلاء وما ينزل بهم من محن وعذاب، لقوة يقينهم ومضاء عزائمهم، وما يرون على رغم ذلك من انتشار دعوتهم، والكافرون يضيقون ذرعاً، يكاد يبخعهم القلق النفسي والاضطراب الفكري وبلبلة الحياة مما يرون من عظم احتمال المؤمنين وصبرهم، ومما يرون من انتشار دعوة الإسلام ورسالة النبي ﷺ بين الخاصة والكافة.

ولقد كان من أشق وأقسى ما لقي النبي ﷺ في هذه المرحلة المكية على شمول شدتها وعموم قسوتها، وتوالي محنها، وتتابع أحداثها بما تحمّل من

البلاء والإيذاء محنة الطائف وسوء لقاء أهلها ـ أشرافاً وسفهاء ـ له ﷺ، وزاد في إيجاعها، وشدة إيلامها أنها جاءت والية لمحنة الحزن الموجع ـ بعد الحصار الباخع الظلوم ـ بوفاة الزوجة الوفية الأمينة الصدّيقة وزيرة الصدق، وسكن الفؤاد السيدة خديجة رضي الله عنها، ووفاة الحميم الحمي، الذائد القوي، الناصر الأبي، عم رسول الله ﷺ أبي طالب، الذي جعله الله تعالى بحكمته وفضله سنداً سنيداً وعماداً عميداً، ودعامة صليبة لحماية رسول الله ﷺ دون أن يؤمن به، ويذعن في تصديقه برسالته، بل ظل ـ وهو نهّاض بمناصرة رسول الله ﷺ ـ على دين الأشياخ من قومه، ولكنه لم يفتر لحظة عن حمايته، ورد عادية المتجبِّرين وسفاهة الجاهلين عنه وعن أصحابه.

تلك المحنة الحزينة المحزنة، الموجعة المؤلمة، التي حلَّت برسول الله ﷺ بوفاة هذين الحميمين اللذين لم يسد فراغهما في حياة النبي ﷺ جعلت سفهاء الغوغاء من قريش وفجار الوثنية من ملئها يمدُّون أيديهم بالأذى، وألسنتهم بالسوء إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، لا يردهم عن هذا الفجور راد، ولا يردعهم رادع، ولا يزجرهم زاجر، لأن عرين الحمية الهاشمية قد خلا من أسده بفقد أبي أشبالـه، وحامي حمى ذماره، فلم يعد لصوت زئيره زمجرة في وجه ذؤبان قريش وضبعانها، ولم تسمع له صيحة تفلق قلوب الطغاة المستكبرين.

ولئن كان القلم قد عجز عن وصف أهوال هذه المحنة الثقفية الطائفية المريرة التي جددت آلام محنة الحزن الوجيع بما لقى فيها رسول الله ﷺ من شدائد وأهوال على أيدي طغام أهلها من العبدان والغوغاء، وعلى أيدي سادتها من أبناء عبد كلال: عبد ياليل، وأخويه، مسعود وحبيب، وهو ﷺ بين بيوتهم في بلدهم يدعوهم إلى الله تعالى، وإلى توحيده، وإخلاص العبادة له، ويطلب إليهم أن يؤوه وينصروه على من خالفه من قومه حتى يبلغ رسالة ربه، أو وهو خارج من بلدهم مفارق لهم بعد أن يئس من خيرهم، وإبائهم أن يكتموا أمره معهم ـ فلقد كان المخرج منها معبراً إلى آفاق من مشارق الأمل المشرق بطلائع النصر المظفَّر في بدء مرحلة جديدة للرسالة الخالدة، تأوي فيها إلى كنف قوي، وركن شديد، يرهبه المتغطرسون من صنائع التعزز بمفاخر الوثنية الذليلة، ومهانة الشرك الأبله البليد.

الباكورة الأولى
من طلائع النصر
طَلٌّ نديّ في لقاء
الكامل في قومه سويد بن الصامت

قرابة عاطفة بين سويد وعبد المطلب وأسرة عمر بن الخطاب

سويد بن الصامت أوسي نجاري أنصاري، أمه ليلى بنت عمرو النجارية، أخت سلمى بنت عمرو أم عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ، فسويد بن الصامت ابن خالة عبد المطلب، وكان سويد يُدعى في قومه الكامل، لقوة جَلَده، وبراعة شعره وحكمته، وتعقله، وشرفه في قومه، وبلده، وأصالة حسبه ونسبه، وزكانة تفكيره.

قال السهيلي في (روضه) وبنت سويد: زينَب أو جليسة، أم عاتكة، أخت سعيد بن زيد امرأة عمر بن الخطاب، فسويد بن الصامت جد عاتكة لأمها.

وهذا الارتباط القوي القريب بجد رسول الله ﷺ عبد المطلب ابن هاشم، ثم بعمر بن الخطاب وأسرته ارتباط نسبي له قدره ومكانته في حياة الأفراد والجماعات، لأنه يمثل حلقة من حلقات التقارب الحسِّي والمعنوي القائم على وشائج الدم بين سادة يثرب وسادة مكة، يمكن أن يكون له اعتباره في تهيئة جو لدعوة محمد ﷺ ورسالته، يختلف عن جو مكة وموقفها من هذه الدعوة الكريمة والرسالة الخالدة، اختلافاً يسرع بالدعوة إلى الانتقال من حال الكفاح غير المتكافىء بين عصبة الحق ومجتمع الإيمان ممثَّلَين في رسول الله ﷺ والسابقين الأولين من أصحابه، وعصبة العصبية القومية الحمقاء، ممثَّلة في ملأ المستكبرين من أحلاس الوثنية الفاجرة من طغاة قريش - إلى حال النضال المحسوب في نظر أولئك الملأ من المعاندين، لما يعرفون عن

أبناء يثرب من صدق اللقاء في الحروب التي عاشوا بين أحضانها وتربَّوا في ساحاتها وميادينها.

وكان سويد بن الصامت رجلاً عُرف بين قومه بالتعلق بشيء من إشراق العقل والتجمل ببعض الفضائل، وهو أول من لقيه رسول الله ﷺ من اليثربيين في وفادتهم إلى مكة حاجِّين أو معتمرين، أو مستحلفين، أو تجاراً موسميين، أو روّاد أسواق ومحافل منافرين ومفاخرين، أو مكثّرين لسواد الوافدين.

عرفان رسول الله ﷺ لفضل أخوال جده بني النجار

وكان النبي ﷺ يعرف هذا الفضل لأخوال جده عبد المطلب، ويعظِّم قرابتهم ويكرمهم لهذه القرابة، ففي حديث الهجرة عند الشيخين والإمام أحمد أن البراء بن عازب قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه، حتى قدمنا المدينة وتلَّقاه الناس، فخرجوا في الطرق على الأجاجير ـ أي الأسطح ـ واشتد الخدم والصبيان في الطرق يقولون: الله أكبر، جاء رسول الله ﷺ، جاء محمد. قال أبو بكر: وتنازع القوم أيّهم ينزل عليه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الليلة على بني النجار، أخوال عبد المطلب، أكرمهم بذلك».

يقول العلاّمة ابن كثير: وكذلك نزوله عليه الصلاة والسلام في دار بني النجار واختيار الله له ذلك منقبة عظيمة لهم، وقد كان في المدينة دور كثيرة تبلغ تسعاً، كل دار محلّة مستقلة بمساكنها ونخيلها، وزروعها وأهلها، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم، وهي كالقرى المتلاصقة، فاختار الله لرسوله ﷺ دار بني مالك بن النجار، وفي حديث أنس عند الشيخين قال رسول الله ﷺ: «خير دور الأنصار بنو النجار».

تعقل سويد ودماثة خلقه أشعر رسول الله ﷺ بشيء من الراحة النفسية

وكان لقاء رسول الله ﷺ سويد بن الصامت أول لقاء وجد فيه النبي ﷺ شيئاً من التعقل، ولين الجانب، وتسهل الحديث مما أدخل على قلبه ﷺ شيئاً من الراحة، وبعث في نفسه الأمل في أن تجد دعوته إلى الله تعالى وتوحيده قبولاً عند من يُصغي إليها، ويفقهها مستطعماً لما يسمع من آياتها، بعد طول ما لقي من الجفاء، وسفاهة الجهالة، وقسوة الغرور، وسوء

الرد، وشناعة المواجهة وضروب الإيذاء، وفادح البلاء، وكثرة السخرية والاستهزاء، فقد كان ﷺ يعرض نفسه الكريمة على الناس متخيراً أشراف العرب الوافدين إلى مكة وساداتهم، فكان ﷺ لا يسمع بشريف قوم إلا أتاه وعرض نفسه عليه، ودعاه إلى الله تعالى، وقرأ عليه آيات القرآن الحكيم، وطلب منه أن يحمله إلى قومه ليؤوه وينصروه ويحرزوه مما يراد به من القتل حتى يبلِّغ رسالة ربه.

وكان سويد بن الصامت ممن قدم الموسم بعد رجوع رسول الله ﷺ من الطائف إلى مكة، وهو ﷺ مثقل بالآلام، يحمل من الهم والحزن ما يحمل لما صنعه معه أهل الطائف من سوء اللقاء، وقبح الرد عليه، وشدة ما أنزلوه به من فادح البلاء، وقد عُرض عليه ﷺ أخذُهم بذنوبهم لينزل الله عليهم بأسه، ويصب عليهم نقمات بطشه وسخطه، فأبى ﷺ تكرماً إلا أن يستأني بهم، رجاء أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً.

وخرج ﷺ إلى الناس في الموسم يدعوهم إلى الحق والهدى، والنور الذي أنزل عليه، ويقول كما جاء في حديث جابر عند البيهقي في الدلائل: «هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي» فكان ذلك مما ذخر الله تعالى للأنصار، وأكرمهم به.

تلطف رسول الله ﷺ بسويد وحسن رد سويد عليه

وتصدى رسول الله ﷺ لسويد بن الصامت إذ علم بمقدمه ومكانه من قومه، فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام، فقال سويد لرسول الله ﷺ: لعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك؟» فقال سويد: مجلة لقمان ـ يعني حكمة لقمان ـ فقال رسول الله ﷺ «أعرضها عليّ» فعرضها سويد على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ بعد ما سمع من سويد ما عرضه عليه من حكمة لقمان: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل منه، قرآن أنزله الله عز وجل عليّ، هو هدى ونور» وتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام، فأحسن سويد الرد، ولم يبعد من رسول الله ﷺ، وقال: إن هذا القول حسن.

ثم انصرف سويد عائداً إلى بلده يثرب، فقدمها على قومه، وفي نفسه

كان لقاء سويد لرسول الله وتحدثه إليه نافذة من نوافذ الهداية الصامتة

ما فيها من تأثر بما سمع من القرآن الكريم، ومن تأثير ما رأى من سمت رسول الله ﷺ وسمو أدبه، ومكارم أخلاقه، ومحاسن دعوته، وجلال رسالته.

وقد رأى قوم سويد منه ما رأوا من تأثره بما رأى من رسول الله ﷺ وما سمع منه مرتسمة على وجهه، وفي نظراته وسبحات فكره، وتسامعوا بلقاء رسول الله ﷺ له واجتماعه به، وقد كان له عندهم صدى يرجع إلى أسماعهم ما تردد في مكة وعلى ألسنة العائدين من الموسم عن بعثة محمد ﷺ، ودار بينهم الهمس والرمز، وهم يشيرون إلى حكيمهم سويد ابن الصامت وما بدا عليه منذ قدم إليهم عائداً من الموسم من نظرات ساهمات، توحي بعمق التفكير فيما رأى من محمد ﷺ وما سمع منه، ومن همهمات يرددها، لا يدرون ما يقول فيها سوى أنهم وجدوا أنفسهم في خلواتهم يذكرون محمد بن عبدالله بن عبد المطلب سيد قريش وابن أختهم، وأنه مبعوث من الله تعالى برسالة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

بَيْدَ أن أهل يثرب من عرب الأوس والخزرج كانوا يعيشون في شحناء مبيدة، ويحيَون في بغضاء مدمرة، مما أرّث نيران التفرق والعداوة بين القبيلتين، فاحتربوا وتقاتلوا حتى كادوا يتفانون، وقد أدركت هذه الحروب سويداً فقتل فيها على يد الخزرجيين.

وكان رجال من قومه ممن يعرف ما كان عليه سويد من التعقل والحكمة، وممن عرف ما عاد به من مكة بعد لقاء رسول الله ﷺ، وممن تسمّع إلى همساته وهمهماته ونجواه إلى نفسه يقولون بعد أن أسلموا، وأصبحوا أنصار الله: إنّا لنرى سويداً قتل وهو مسلم، ومهما يكن من أمر هذا الرجل الحكيم فقد كان لقاؤه رسول الله ﷺ باكورة نصر الله تعالى لدعوة الإسلام، فتح الله بها نافذة من نوافذ عهد جديد، بدأت به الدعوة الإسلامية سيرها في طريق البناء والعمل لإقامة حياة عامة شاملة، يسودها العدل والرحمة والمواساة والإخاء.

الباكورة الثانية
من طلائع النصر بَرْقَة غيث
في لقاء إياس بن معاذ

أول لقاء أوسي كان قطرة الغيث الأولى

واشتدت الشحناء بين القبيلتين، وتعاظمت العداوة بين الفريقين، وتنادى كل قبيل منهم مستصرخاً يا لثارات الملأ، وسروات الرجال، واشتعلت نيران الحرب ضروساً، تأكل منهم الأخضر واليابس، وتفني الأبطال والشجعان من شيبهم وكهولهم، وعاش بقية السيف من الفريقين شباباً وبقايا أشباح ممن حطمتهم دائرات الحروب الطاحنة بين يتم مذل وترمل مُقِلّ، ملأ عرصات ديارهم بالأحزان، وفكر كل قبيل في الاستنصار على أعدائه بعقد المعاهدات الحربية، والتماس الأحلاف العسكرية ممن يرون فيهم قوة تزيد في قوتهم.

إياس بن معاذ كان لمعة برق الهداية التي انهمر غيثها

وكان الأوسيون قد بعثوا وفداً من رجالهم إلى مكة بزعامة أبي الحَيْسر، أنس بن رافع التماساً للحلف من قريش، لما بينهم وبين القرشيين من صلات نسبية، وكان مع أبي الحيسر فتية من قومه بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، وكان أحدث فتيان الوفد سناً، ولكنه كان أصفاهم فطرة، وأطهرهم نفساً، وأزكاهم عقلاً، فسمع بهم النبي ﷺ، وكانت عنده صورة من تعقّل سويد ولين جانبه، وهو أوسي مثلهم فأتاهم، وجلس إليهم وقد علم الذي جاؤا له من التماس الحلف على إخوانهم الخزرجيين من قريش، فقال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له؟» قالوا: وما ذاك؟ قال ﷺ: «أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب» ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فابتدر حصيفهم إياس بن معاذ في حماسة الفتوة، وفتوة الشباب وكان غلاماً حَدَثاً،

فقال: يا قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر حفنة من تراب البطحاء وضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دَعْنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم ثم انصرفوا إلى المدينة، ولم يتم لهم حلف.

وكانت بعد ذلك وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، وهي أشهر وقائعهم، وأضرى حروبهم، وأعظم أيامهم أثراً عليهم، قتل فيها أشرافهم وكبراؤهم وسَرَواتهم، وذوو الكبرياء والأنفة منهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل.

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يوم بعاث يوماً قدّمه الله لرسوله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد افترق ملؤهم وقُتل سَرَاتهم.

وقد هلك إياس بن معاذ قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وظهور الإسلام بها، فلم يدرك رسول الله ﷺ، ولم يلقه بعد مجلسه في مكة حين لقي وفدهم بزعامة أبي الحيسر لالتماس الحلف من قريش، وقد دعاهم فيه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وأظهر إياس بن معاذ يومئذ ما وقر في صدره من ميل إلى دعوة النبي ﷺ، وقال كلمته المعبرة عن ميله مخاطباً الوافدين من قومه: يا قوم هذا ـ أي ما عرضه النبي ﷺ ـ والله خير مما جئتم له، ـ أي التماس الحلف من قريش.

قومه أعلم به

ذكر السهيلي في روضه، والبيهقي في دلائله، وابن كثير في بدايته عن محمود بن لبيد قال وهو يؤكد ما في قلب إياس من قبول الإسلام واستقراره عليه: فأخبرني من حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلّل الله تعالى، ويكبّره، ويحمده، ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.

ومن ثَمَّ كان لقاء النبي ﷺ إياس بن معاذ، وموقف إياس من

دعوته ﷺ له وللوافدين معه إلى الإسلام أشبه ببرقة الغيث، التي تلمع في الأفق، لتؤذن العطاشى المقفرين بما يكون بعدها من الغيث المغيث، ينهمر فجّاجاً، فيفعم الشعاب والوديان، ويسقي الوهاد والكثبان، متنزلاً من ذرا الشم الراسيات، يهز الأرض، لتخرج أجنتها من بطونها ثماراً يانعة، وقطوفاً دانية، وحَباً متراكباً، وجنات من نبات شتّى، متشابه وغير متشابه، تجري من تحتها الأنهار، ريّاً للظامئين وطعاماً شهيّاً للساغبين، وفاكهة للمتخيرين، ومتعة للناظرين.

تتابع اللقاءات اليثربية وبدء البيعات

وكذلك كانت خطوات الدعوة إلى الله عز وجل في سيرها بعد لقاء إياس بن معاذ، فقد انهمر غيثها في لقاءات إيجابية، ومعاهدات عملية، ومبايعات صادقات مع الوافدين اليثربيين الذين كانوا أنصاراً لله وأنصار دينه، وأنصار نبيه ﷺ يحمونه وينصرونه حتى يبلغ رسالة ربه، يحاربون مَنْ حارب، ويسالمون مَنْ سالم، وقد جعلوا نحورهم دون نحره، يفدونه بأنفسهم وأموالهم وأبنائهم، فلقبهم رسول الله ﷺ بأفخر لقب، وسماهم بأعز اسم في دنيا الإسلام بعد لقب الهجرة وعزها، سماهم الأنصار، وسميت (يثربهم) المدينة المنورة، وعاصمة الإسلام، وحصن كتائب الفتوح، وقلعة جحافل المجاهدين، وقاعدة دولة الإسلام.

الباكورة الثالثة
من طلائع النصر
انهمار الغيث بالبيعة الأولى

ارتفع الهمس فكان بين القوم نغمًا سرياً، وصوتاً ندياً

مات إياس بن معاذ وللإسلام ذكرٌ هامس بين أهل يثرب، ولرسول الله ﷺ متحدَّث أشبه بالرمز والإشارة، يتحدث عنه من سمع به ولم يره، فهو مشوق لرؤيته وسماع حديثه، ويتحدث عنه مَنْ رآه ولم يسمع منه فهو ريان الرغبة في سماعه، ويتحدث عنه من رآه وسمع منه فهو مأخوذ بحبه وحب ما جاء به، ولكنه وقف متأملاً فيما سمع، لا يتقدم ولا يتأخر، لا يُقبل فيؤمن، ولا يأبى فيعرض ويدبر، وسمع منه من إذْ رآه فازورَّ وأبى مستكبراً فلم يؤمن، ومات حسيراً مدحوراً.

وكل ذلك قد كان بعد أن آب إلى يثرب وفد أبي الحيسر، وفيهم إياس ابن معاذ، وهذا يوحي بالتشوف والتطلع إلى كشف الغطاء عن الحقيقة فيما يتهامس به الناس، ومضى موسم، وأقبل موسم، وأراد الله إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز موعده له.

وخرج رسول الله ﷺ كدأبه يعرض نفسه الكريمة على وفود قبائل العرب في محافلهم ومجتمعاتهم، ومضارب إقامتهم، يكلم كل شريف قوم يلقاه، ويذهب إلى كل سري من سَرَواتهم يسمع به، يدعوهم إلى الله، ويذكر لهم الإسلام وشرائعه، ويتلو عليهم القرآن رجاء أن يقبلوا منه ما جاء به من الهدى والنور، فيحملوه إلى أقوامهم لينصروه على من ناوأه، ويؤوه ويحرزوه مما يراد به حتى يبلِّغ رسالة ربه التي منعته قريش من تبليغها، فكانوا يختلفون عليه فمنهم من كان يجفو ويسفه، ومنهم من كان يجهل ويسخر،

ومنهم من كان يمد يده ولسانه بالأذى وسوء الأدب، ومنهم من كان يستحي ويتقي قالة السوء، ولكنه لا يدفعها.

كان تنافس الأوس والخزرج في السبق إلى الهداية مما صنع الله لرسالته

وكان من أثر هذا الهمس بذكر الإسلام ونبيه ﷺ في جو يثرب ـ الذي استأثر به الأوسيون إثر عودة كاملهم وحكيمهم سويد بن الصامت، وعودة فتاهم العقول صفي الفطرة إياس بن معاذ من مكة، وما ارتسم على محياهما، ونمت عنه خفقات قلبيهما ـ أن انبعثت روح التنافس القبلي في أنفس الخزرجيين حتى لا ينفرد إخوتهم الأوسيون بمفاخر المستقبل في حياة الدعوة إلى الله، فنهض الخزرجيون إلى مكة في وفد يمثلهم، وهم على عزيمة الإيمان بهذا الداعي الأمين، الذي تهامس بالحديث عنه الأوسيون في دورهم، والذي كانت له في نفوسهم صورة من كثرة ما كانوا يسمعون عنه من مواليهم وحلفائهم اليهود أهل العلم بالكتاب الأول، الذي بشّر بالنبوة الخاتمة والرسالة الخالدة، ونعت نبيها ورسولها بما كان له من النعوت والخصائص المميزة له.

بدايات المنح نهايات المحن

وبينما كان رسول الله ﷺ عند العقبة الأولى، عقبة الجمرة، يدعو الناس إلى الإسلام، إذ لقي رهطاً من اليثربيين الخزرجيين أراد الله بهم الهداية، وذخر لهم الخير، فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج، فقال ﷺ: «أمِن موالي يهود؟» أي حلفائهم، قالوا: نعم، قال ﷺ: «ألا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: من أنت؟ فانتسب اليهم رسول الله ﷺ، وأخبرهم خبره، قالوا: بلى، فجلس إليهم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان من صنع الله لهم، وحكمته ولطف تدبيره لرسوله ورسالته أن اليهود كانوا مع هؤلاء الخزرجيين وإخوتهم الأوسيين، يساكنونهم في بلادهم ويشاركونهم حياتهم في معاملاتهم، وكان اليهود أهل كتاب وعلم، وكان الخزرجيون وإخوتهم الأوسيون أهل شرك وأوثان، على كثرة عددهم وتعززهم بهذه الكثرة، وكانت لا تزال نيران الحروب مشتعلة بينهم وبين اليهود، فإذا قهروا اليهود وعزّوهم قال لهم اليهود يتوعدونهم: إن نبياً

سيبعث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، حتى نستأصلكم، كما قصَّ القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿ولمَّا جاءهم كتاب من عند الله مصدِّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾[1].

علم اليهود مع الحسد كان براق السرى في فوز الأنصار بالهداية

قال الحافظ السيوطي في (الدر المنثور): أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم ابن عمر بن قتادة الأنصاري، حدثني أشياخ منا، قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منّا، كان اليهود معنا، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب أوثان، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا: إن نبياً يبعث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله تعالى رسوله - ﷺ - اتبعناه، وكفروا به، ففينا وفيهم أنزل الله: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾. الآية كلها، ثم قال الحافظ السيوطي: وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

اجتمع رسول الله ﷺ بهؤلاء الرهط الخزرجيين، فكلمهم ودعاهم إلى الله عز وجل، فعرفوا نعته، مما عندهم من أقوال اليهود وأحاديثهم عنه، وأيقنوا به واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه عن الإسلام وشرائعه، وعرفوا حقيّة ما كانوا يسمعون من مواليهم وحلفائهم اليهود، فقال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله أنه للنبي الذي كانت توعدكم به اليهود، فلا يسبقنَّكم إليه، فأجابوا رسول الله ﷺ إلى ما دعاهم إليه وصدّقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وكانوا هم أول غيث النصر المنهمر بنشر الدعوة في بلدهم وبين أقوامهم، فأسلموا، وهم ستة نفر، أو ثمانية.

وكان فيهم رافع بن مالك بن العجلان الزرقي، وهو أول من أعلن

---

(١) سورة البقرة آية (٨٩).

أول مسجد بالمدينة قرىء فيه القرآن هو مسجد بني زريق

إسلامه، قال ابن إسحاق: هو أول من قدم المدينة بسورة يوسف، ومسجدهم، مسجد بني زريق أول مسجد قرىء فيه القرآن، وكان النبي ﷺ يعجبه اعتدال قِبْلته، وكان رافع بن مالك حريصاً على أخذ القرآن من النبي وتلقِّيه عنه منذ لقيه بالعقبة، فقد أعطاه رسول الله ﷺ ـ كما حكاه الزرقاني في شرح المواهب ـ ما أنزل عليه في العشر سنين التي خلت، فقدم به رافع المدينة وجمع قومه، فقرأ عليهم في موضع مسجدهم قبل أن يقام المسجد.

عقلاء حكماء ملؤوا دور الأنصار بالحديث عن الإسلام

وأخذ رسول الله ﷺ على من بايعوه من الخزرج أن يمنعوا ظهره حتى يبلِّغ رسالة ربه ـ أي إذا قدم عليهم ـ فقالوا: يا رسول الله قد علمت الذي بين الأوس والخزرج من الاختلاف وسفك الدماء ونحن حراص على ما أرشدك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا نشير عليك برأينا، فامكث على اسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله عز وجل أن يصلح ذات بينهم، ويجمع لهم أمرهم، فإنا اليوم متباغضون، متباعدون، وإنك إن تقدم علينا ولم نصطلح لا يكون لنا جماعة عليك، ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل.

فرضي رسول الله ﷺ بذلك منهم، فرجعوا إلى قومهم، فدعوهم سراً وأخبروهم برسول الله ﷺ، والذي بعثه الله به، وتلوا عليهم القرآن، حتى قل دار من دور الأنصار إلا قد أسلم فيها أناس.

وفي مواهب القسطلاني وشرحها للزرقاني أن النبي ﷺ لما قال لهم: «تمنعوا ظهري حتى أبلِّغ رسالة ربي» قالوا له: يا رسول الله إنما كانت «بعاث» عام أول، يوم من أيامنا، اقتتلنا فيه، فإن تقدم علينا ونحن كذلك لا يكون لنا عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعلَّ الله أن يصلح ذات بيننا، وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه، فعسى الله أن يجمعهم عليك، فإن اجتمعت كلمتهم عليك، واتبعوك فلا أحد أعزّمنك، وموعدك الموسم العام المقبل.

وانصرفوا إلى المدينة، فدعوا قومهم، وأخبروهم خبر رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الله ورسوله، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر رسول

الله ﷺ، وظهر الإسلام وانتشر، وتحدّث به الناس حديثاً معلناً جهيراً بعد الهمس والاستسرار.

والصحيح أن يوم (بُعاث) كان قبل الهجرة النبوية بخمسة أعوام، قتل فيه كبراؤهم الذين يأنفون أن يتبعوا غيرهم، والذين عسوا في الكفر على عادات الجاهلية وموروثاتها مستكبرين في الأرض، فأفناهم الله في وقائعهم التي كان آخرها وأفظعها يوم بعاث، ولم يبق إلا من لا يدفع عن نفسه ولا يسمع قوله، ولا يستضاء في المُدْلَهمات برأيه.

وخلا جو يثرب من الإغراء والتحريض على الحرب، وتأريث نيران الآثار، وأسرع شبابهم إلى الإسلام يدينون به ابتهاجاً بما منّ الله به عليهم من نعمة الهداية والتوفيق، وحلت الإلفة والإخاء محل التباغض والشحناء، فكانوا حملة لواء الدعوة إلى الله الذين أعز الله بهم نبيه ودينه، وسارت بهم فُلْك الهداية في يَمّ العزة لله ورسوله والمؤمنين.

الباكورة الرابعة
من طلائع النصر
بيعة العقبة الثانية

كانت هذه البيعة اللبنة الأولى في مسير الرسالة إلى المدينة المنورة

كان لقاء رسول الله ﷺ هؤلاء الرهط الخزرجيين، وإسلامهم، وبيعتهم النبي ﷺ على أن يمنعوا ظهره إذا وصل إليهم، وصدقُهم النصح له ﷺ في إخبارهم له بما هو واقع في قومهم بين قبيلتيهم من الأوس والخزرج من العداوة والشنآن والحروب المدمرة التي استباحت بيضاءهم، وأفنت خضراءهم، والتي كان أقربها ذكراً منهم أشهر أيامهم، وأشدها ضراوة فيهم، وقسوة عليهم بما أثخنوا فيه - من أعظم آيات الله وأبدع صنعه بما قدّمه الله تعالى لرسوله ﷺ من فضله وحكمة تدبيره، وخفّف به عنه شدة ما كان يلقى من الناس وهو يعرض نفسه الكريمة عليهم في مجتمعاتهم يدعوهم إلى الله، ويطلب إليهم أن يؤووه، ويحرزوه حماية له مما يراد به حتى يبلِّغ رسالة ربه التي منعته قريش من تبليغها.

فاستبشر رسول الله ﷺ بذلك اللقاء، وقرّت به عينه واستيقن أن الله ناصره، ومنجز له وعده، لأنه سبحانه جعل له أنصاراً ساقهم إليه بحكمته في صورة متدرجة نامية، بدأت وليدة تكلؤها رعاية الله وتحوطها عنايته، ورسول الله ﷺ يرقبها من وراء سعيه الدؤوب لنشر دعوته وتبليغ رسالته، حتى نهدت مشتدة السواعد، قوية الوثبة، عظيمة الانتشار، فكانت فتحاً مبيناً، ونصراً مؤزراً.

انصرف الرهط الخزرجي إلى يثربهم بعد هذه البيعة الممهدة، وبين قومهم ما بينهم من العداوة، فتحدثوا إلى قومهم حديثاً بعيداً عن غمرات الحروب وسفك الدماء، وثارات الأبطال الذين أفنتهم الحروب، بل

حدّثوهم عن محمد ﷺ، ومكارم أخلاقه، وسمو دعوته، وجلال رسالته، وما أخذه عليهم وما حدثوه به من صدق الحديث عن حال قومهم، وما بينهم من التباغض، والتباعد والفتن والحروب، والأخذ في إعداد أسباب التفاني تمسكاً بموروثات الجاهلية، وبما أمرهم به رسول الله ﷺ من نشر الهداية بين قومهم، والدعوة إلى إصلاح ذات بينهم، وإسماعهم آيات الله بتلاوتها عليهم ليستشعروا فضل الله عليهم، عسى أن يثوبوا إلى رشدهم، وينيبوا إلى ربهم، ويقلعوا عن مطاوعة الشيطان، ويفقهوا ما جاءهم به هذا الرسول الأمين من الخير والهدى، فيؤمنوا به ويجعلوا جهدهم في سبيل دعوته ونشر رسالته، عاملين بشرائعها، مستمسكين بآدابها وأخلاقها.

فصدقوا ما عاهدوا الله ورسوله عليه، ووفوا بما وعدوا، وتتابع الغيث هطّالاً من سماء الهداية، فلم يكد يمر العام بموسمه، ويقبل العام الجديد بموسمه حتى وافى مكة اثنا عشر رجلاً، فيهم خمسة من الرهط الأول أهل البيعة الأولى الخزرجيين وسبعة قدموا معهم، فكان لقاؤهم رسول الله ﷺ أول لقاء لهم، فيما عدا أبو الهيثم بن التيِّهان، فإنه مذكور في رجال اللقاء الأول على رأي من ذكر أن الرهط كانوا ثمانية.

ومهما يكن من شيء فإن هؤلاء الاثني عشر رجلاً الخزرجيين بايعهم رسول الله ﷺ بيعة أوسع إحكاماً، وأوكد توثقاً من بيعة من سبقهم الذين لم يذكر في بيعتهم سوى أن يمنعوا ظهره إذا قدم عليهم، أما هؤلاء الاثنا عشر فقد بايعهم ﷺ بيعة على وفق بيعة النساء التي نزلت آيتها بعد ذلك، إما في فتح مكة ـ كما يقول أبو حيان في (بحره) ـ أو في عام الحديبية ـ كما يقول ابن كثير ـ أخرج الشيخان عن عبادة بن الصامت ـ وكان أحد الاثني عشر ـ: بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحدِّه فهو كفارة لـه، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله، إن شاء عذَّب، وإن شاء غفر».

مصعب القارىء المقرىء وأثره في إعداد المدينة لاستقبال رسول الله ﷺ

قال ابن إسحاق: فلما انصرف القوم عنه بعث معهم ﷺ مصعب ابن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين. وفي عيون الأثر قال: فلما انصرفوا بعث رسول الله ﷺ معهم ابن أم مكتوم، ومصعب بن عمير، يعلِّم من أسلم منهم القرآن، ويدعو من لم يسلم إلى الإسلام.

قال البيهقي في الدلائل بعد أن ذكر كلام ابن إسحاق المتقدم في بعث مصعب بن عمير معهم، قال ابن إسحاق: فحدّثني عاصم بن عمر أن رسول الله ﷺ إنما بعث مصعب بن عمير بعدهم، وإنما كتبوا إليه: أن الإسلام قد فشا فينا، فابعث إلينا رجلاً من أصحابك يقرئنا القرآن، ويفقهنا في الإسلام، ويقيمنا لسنته وشرائعه ويؤمنا في صلاتنا.

قال البيهقي في الدلائل: ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء، ورافع بن مالك: أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك يفقهنا ويدعو الناس بكتاب الله، فإنه قَمِنٌ أن يُتَّبع.

فبعث ﷺ مصعب بن عمير، وكان مصعب ينزل على أبي أمامة أسعد ابن زرارة، وكان مصعب يسمى بالمدينة المقرىء، وكان أبو أمامة يذهب بمصعب إلى دور الأنصار، يدعوهم إلى الإسلام، وتفقيه من أسلم منهم.

وقد لازم مصعب أسعد بن زرارة، يقيم معه في منزله، ويتساند معه في الدعوة إلى الله، يدخل به أسعد بن زرارة دور الأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله، ويذهب به إلى مجتمعاتهم، يصلِّي بهم إماماً، ويعلمهم شرائع الإسلام، ويتلو عليهم القرآن ويدعو من لم يكن قد أسلم إلى الإسلام.

وكان مصعب رضي الله عنه عظيم البركة والخير على الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الإسلام، حصيف الرأي، صبوراً على ما يلقى من الأذى، عقولاً متأنياً، متأتياً للأمور من مداخلها، فهو من أعظم الدعاة إلى الله الذين ربّاهم رسول الله ﷺ،كان بعثه إلى المدينة المنورة مقرئاً معلماً، هادياً، داعياً إلى الخير، فتحاً مبيناً لانتشار الدعوة وتبليغ الرسالة.

فقد دخل على يديه من أهل المدينة المنورة أوسها وخزرجها عدد لا يحصى من الرجال والنساء، ودوّى صوت الإسلام في أرجائها جهيراً قوياً ببركة إخلاصه، وقوة إيمانه وحبه الله ورسوله، وهو أول من صلّى الجمعة في الإسلام بمن آمن من أهل المدينة، بإذن رسول الله ﷺ، كتب إليه النبي ﷺ يأمره بذلك.

كتاب النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير يأذن له في إقامة الجمعة بمن معه من المسلمين

وقد روى الإمام الدارقطني عن ابن عباس: أَذِن النبي ﷺ بإقامة الجمعة لأهل المدينة قبل هجرته ﷺ إليها، قال الزرقاني في شرح مواهب القسطلاني: ولفظ الحديث عن ابن عباس: أذن رسول الله ﷺ بالجمعة قبل أن يهاجر ولم يستطع يجمع بمكة، ولا يبدي ذلك، فكتب إلى مصعب ابن عمير: «أما بعد: فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم»، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا زال النهار عن شطره فتقربوا إلى الله بركعتين، قال ابن كثير: هذا حديث في إسناده غرابة.

ونسبة التجميع بأهل المدينة إلى أسعد بن زرارة يقول عنه البيهقي في التوفيق بين قول ابن شهاب الزهري، وقول عبد الرحمن بن كعب بن مالك: وكأن مصعباً جمع بهم بمعونة أسعد بن زرارة فأضافه كعب إليه.

روى البيهقي بسنده عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي حين كُفَّ بصره، فإذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها استغفر لأبي أمامة أسعد بن زرارة، فمكثت حيناً أسمع ذلك منه، فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لعجز، ألا أسأله؟ فقلت: يا أبتِ مالك إذا سمعت الأذان للجمعة صلَّيت على أبي أمامة؟ فقال: أي بني، كان أسعد أول من جمّع بنا بالمدينة في هَزْم النبيت عند حرّة بني بياضة في بقيع يقال له بقيع الخضمات، قلت: وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً، قال ابن كثير: وقد روى هذا الحديث أبو داود، وابن ماجه.

من مواقف مصعب الخالدة في الدعوة إلى الله

ومن أبرع وأجل وأشجع مواقف مصعب رضي الله عنه التي فتح بها الطريق أمام الدعوة إلى الله فتحاً تسامت به، حتى دخلت القلوب وحررت العقول، وأشرقت بنورها الأرواح ما حدّث به الثقاة من رواة السيرة

والمتتبعون لسير الرسالة في مراحلها.

قالوا: خرج أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير يوماً إلى دار بني عبد الأشهل- وكانوا أهل إيمان ويقين وإخلاص، لم يعرف فيهم منافق أو منافقة- فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر، فجلسا فيه، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم.

قال صاحب (العيون): وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا بهما قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك!! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما من أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدّماً.

فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رأى أسعد بن زرارة أسيد بن حضير مقبلاً إليهما قال لصاحبه مصعب: هذا سيد قومه، قد جاءك فاصدق الله فيه، فقال مصعب في هدوء رسوخ اليقين، وثقة الإخلاص: إن يجلس هذا أكلمه، فوقف عليهما أسيد بن حضير متشتِّماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

إسلام أسيد بن حضير على يد مصعب ابن عمير

فقال له مصعب في ثقة الإلهام: أو تجلس فتسمع إن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره، قال أسيد متعقلاً: أنصفت، ثم ركَّز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا: - أي مصعب وأسعد بن زرارة -: والله لقد عرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، ثم تكلم أسيد فقال: ما أحسن هذا وأجمله!! كيف يصنع من أراد الدخول في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطَّهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلِّي، فقام أسيد بن حضير، فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتّبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن، وهو سعد بن معاذ، ثم أخذ أسيد حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر

إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بوجه غير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمتُ الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من أمر بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، وقال: والله ما أراك أغنيت عنا شيئاً.

ثم خرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتِّماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمتَ مني هذا، أتغشانا في دارنا بما نكره؟

وكان أسعد بن زرارة قد قال لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيّد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته عزل عنك ما تكره، قال: سعد بن معاذ: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه مصعب بن عمير الإسلام، وقرأ عليه القرآن قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطَّهر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تركع ركعتين.

إسلام سعد بن معاذ وسائر بني الأشهل على يد مصعب بن عمير

ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه، ومعهم أسيد بن حضير، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

قال أبو عمر بن عبد البر: حاشى الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت ابن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم واستشهد، ولم يسجد لله

سجدة، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

قال البيهقي في الدلائل من رواية موسى بن عقبة: فبينما مصعب ابن عمير يحدثهم ويقرأ عليهم القرآن أخبر بهم سعد بن معاذ، فأتاهم في لأمته معه الرمح حتى وقف عليهم، فقال لأبي أمامة: علام تأتينا في دورنا بهذا الوحيد الغريب الطريد، يسفّه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم إليه، لا أراك بعدها تسيء من جوارنا، فقاموا ورجعوا.

ثم إنهم عادوا مرة أخرى لبئر بني مرق أو قريباً منها، فذكروا لسعد ابن معاذ الثانية فجاءهم، فتوعدهم وعيداً دون وعيده الأول، فلما رأى منه أسعد بن زرارة ليناً قال له: يا ابن خالة استمع من قوله، فإن سمعتَ منكراً فاردده بأهدى منه، وإن سمعت حقاً فأجب إليه، فقال سعد بن معاذ: ماذا تقول؟ فقرأ عليه مصعب بن عمير: ﴿ حم * والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾.

فقال سعد بن معاذ: ما أسمع إلا ما أعرف، فرجع وقد هداه الله ولم يظهر لأسعد بن زرارة ومصعب إسلامه حتى رجع إلى قومه، فدعا بني عبد الأشهل إلى الإسلام، وأظهر لهم إسلامه، وقال: من شك منكم فيه فليأت بأهدى منه، فوالله لقد جاء بأمر لتُحَزَنّ فيه الرقاب، فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلام سعد بن معاذ ودعائه، فكانت أول دار من دور الأنصار أسلمت بأسرها.

ثم إن بني النجار أخرجوا مصعب بن عمير، واشتدوا على أسعد ابن زرارة فانتقل مصعب بن عمير إلى سعد بن معاذ، فلم يزل عنده يدعو آمنا، ويهدي الله على يديه حتى قلّ دار من دور الأنصار إلا قد أسلم أشرافها، وأسلم عمرو بن الجموح وكسرت أصنامهم وكان المسلمون أعز أهل المدينة.

الباكورة الخامسة
من طلائع النصر
فتح الفتوح: بيعة العقبة الكبرى

انتشر الإسلام في يثرب على يدي مصعب بن عمير، والذين بايعوا رسول الله ﷺ من الخزرجيين الاثني عشر على أن يمنعوه إذا قدم عليهم، وفي طليعتهم أحدثهم سناً أبو أمامة أسعد بن زرارة الذي كان ساعد مصعب الأيمن، وعضده القوي، وكان مصعب قد اختاره فنزل عليه، فأحسن نزله، وكان يتنقل به بين دور الأنصار، فيدعو إلى الله من لم يكن أسلم، ويقرىء القرآن، ويعلم الشرائع والأحكام من كان قد أسلم، حتى أصبحت يثرب دار الإسلام المهيئة لتلقي أعظم حدث في تاريخ الدعوات الإلهية وتاريخ النبوات والرسالات بل في تاريخ الحياة.

وأدرك مصعب رضي الله عنه ومن معه من المؤمنين أن أفق الحياة في يثرب قد عمّه نور الهداية، وأشرقت في مطالعه شمس الرسالة الخالدة، وأن الأرض التي يقفون فوقها، وهم يحملون ألوية النصر قوية، صلبة، لا تسيخ فيها قدم، مؤمنة، وأن نسائم الأمل تسري من يثرب لتنعش النفوس التي أضناها الألم، وأن يثرب تفتح ذراعيها مرحبة بهجرة أولئك الذين يتقلبون على جمر المحن، ويكتوون بسعير فادح البلاء، وهم صابرون محتسبون، يرجون رحمة الله وفرجه، ويتطلعون إلى يثرب بعد بيعتيها اللتين مهدتا لدعوة الإسلام أرضاً خصبة تنبت فيها الهداية ويثمر فيها الإيمان.

وتصوّر مصعب رضي الله عنه ومن معه من المؤمنين رسول الله ﷺ وهو لا يزال في بطاح مكة الظالم أهلها يتبع الناس في منازلهم ومجتمعاتهم الموسمية، يقول لهم: «من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلِّغ رسالة ربي، وله

تشوف مصعب ومن معه من المؤمنين إلى هجرة رسول الله إليهم

الجنة» فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره، وهو ﷺ يمضي متنقلاً بين رحالهم، يشيرون إليه بالأصابع حتى بعث الله له طلائع النصر، تحمل رايات الأمل السريّ من الأوسيين، ثم إخوتهم الخزرجيين الذين بايعوه وعاهدوه على أن ينصروه وينصروا دعوته؛ نصراً يعزه ويعز رسالته ويفتح أمامه وأمامها أبواب المسير بكتائب الجهاد في سبيل نشر الخير والحق والهدى.

وها هي ذي دارهم (يثرب) لا تصبح ولا تمسي إلا على ذكر لرسول الله ﷺ، وذكر لدعوة الإسلام، وتلاوة للقرآن، وتبيين هدايته، وليس بين بيوتها بيت إلا وفيه مسلمون ومسلمات، كلهم يحبون الإسلام، ونبي الإسلام، وشرائع الإسلام، يفدون هذا الدين بأرواحهم وأموالهم، وفلذات أكبادهم.

فماذا بقي وراء ذلك مما يمنعهم من استقدام رسول الله ﷺ إليهم، وإلى بلدهم حيث يأوي ـ بعد الله عز وجل ـ إلى ركن شديد من محبتهم له وحرصهم عليه، ليفوا له بما عاهدوه عليه من النصرة والحماية والمنعة؟.

وماذا بقي وراء ذلك مما يحول بين بلدهم وبين أن تكون قلعة الإسلام الحصينة، وحصنه القوي الذي يأوي إلى كنفه المؤمنون المضطهدون، ليجدوا فيه عند إخوانهم أنصار الله المحبة والأثرة والإخاء المواسي، والمواساة المؤثرة، والحماية القوية، والقوة القاهرة للأعداء؟.

لا شيء، لا شيء بقي وراء ذلك، فالطريق ممهد والمنائر منصوبة، والمعالم واضحة، ولهفة اللقيا تملأ كل قلب، فليس إذاً إلا توجيه العزائم اليثربية إلى مكة الظالم أهلها لتفتح أبواب الشعاب والمغاور أمام أولئك المستضعفين في أرض البأو الكفور، والعتو الفجور، ليستنقذوهم من ظلم المستكبرين في الأرض، مهاجرين إلى إخوانهم أنصار الله ورسوله ﷺ، وإلى البلد الذي ادخر الله له هذا الخير العظيم، والذي أقبل على دعوة الإسلام فاحتضنها، فدوى صوته بين جنباتها قوياً نفاذاً.

وليس إذاً إلا أن يضعوا بين يدي رسول الله ﷺ صورة صادقة للإسلام في بلده وبين قومهم، في إطار يبين مدى انتشار الإسلام فيهم،

ومدى قوته في نفوسهم وإفعام القلوب بحبه والتنافس في التفقه في شرائعه وأحكامه.

وليس إذاً إلاّ أن يلقوا رسول الله ﷺ في جمع من صفوة مؤمنيهم يمثل كل هذه الحقائق والمعاني ليضعوا بين يديه ﷺ صورة اللهفة المتطلعة إلى رؤية رسول الله ﷺ يطأ بقدمه الحبيبة أرضهم، ويدخل عليهم ديارهم هادياً مهدياً، داعياً إلى الله رسولاً نبياً، ويمشي بين أيديهم معلّماً رائداً إلى الخير والنور والهداية، مطمئناً مكفول المنعة عزيز الجانب، مرهوب الكلمة في الحق وللحق.

عزائم ماضية يقدرها رسول الله ﷺ حق قدرها

فليجمعوا أمرهم، وليأتمروا فيما بينهم ومعهم أستاذ الدعاة، أستاذهم القارىء المقرىء المجتبى من رسول الله ﷺ لإقرائهم وتعليمهم، وقد قرأوا وتعلموا، ولم يبق إلا أن يرحلوا إلى رسول الله ﷺ في جمع منهم مع أستاذهم ومعلمهم مصعب بن عمير ليطلبوا إلى رسول ﷺ أن يقدم إليهم ليتبوأ مكانه العلي الأعلى في آفاق قلوبهم، لينشر دعوته، ويبلّغ رسالته آمناً مطمئناً، عزيزاً قوياً، تحوطه كتائب المنعة وتفديه أرواح المؤمنين.

قال العلامة ابن كثير في «البداية»: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين مع حجّاج قومهم، وكانوا ـ كما قال الحاكم وغيره ـ خمسمائة من أهل الشرك حتى قدموا مكة، فواعد المسلمون رسول الله ﷺ العقبة من أواسط أيام التشريق حين أراد الله بهم من كرامته والنصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله.

وفي حديث جابر عند الإمام أحمد: أن المسلمين من الأنصار ائتمروا فيما بينهم وقالوا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة، ويُخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا، قال ابن سعد: يزيدون رجلاً أو رجلين، وامرأتان، نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، وعند الحاكم: خمسة وسبعون نفساً، وليس هذا بخلاف لأن بعض الرواة يترك الكسر الذي فوق العقد، وبعضهم يذكره، ويترك النساء وبعضهم يذكره كاملاً.

وفي حديث كعب بن مالك من رواية ابنه عبدالله عنه وكان عبدالله ابن كعب من أعلم الأنصار.

قال: فلما كانت الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ بمنى أول الليل نمنا مع قومنا في رحالنا، فلما استثقل الناس في النوم تسللنا تسلل القطا مستخفين حتى إذا اجتمعنا بالعقبة أتانا رسول الله ﷺ.

قال عروة بن الزبير وموسى بن عقبة: كانوا سبعين رجلاً وامرأة واحدة، منهم أربعون من ذوي أسنانهم، وثلاثون من شبابهم، أصغرهم أبو مسعود، وجابر بن عبدالله.

خطبة العباس بن عبد المطلب من رواية ابن إسحاق

وكان مع رسول الله ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس رسول الله ﷺ كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها - **إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو** على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده.

خطبة العباس من رواية ابن سعد

قال ابن سعد: فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: (يا معشر الخزرج، إنكم دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه، ومحمد من أعز الناس في عشيرته، يمنعه والله منا من كان على قوله، ومن لم يكن منا على قوله، منعة للحسب والشرف، وقد أبى محمداً الناسُ كلهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجَلَد وبصر بالحرب، واستقلال بعداوة العرب قاطبة،

ترميكم عن قوس واحدة فارتئوا رأيكم، ولا تفرّقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع، فإن أحسن الحديث أصدقه).

ثم قال ابن سعد: فقال البراء بن معرور: قد سمعنا ما قلت: وإنا والله لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ.

ثم قال ابن سعد: ويقال إن أبو الهيثم بن التّيهان أول من تكلم، فأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، فقال: نقبله على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف.

ولغطوا، فقال العباس وهو آخذ بيد رسول الله ﷺ: أخفوا جرسكم فإن علينا عيوناً، وقدّموا ذوي أسنانكم فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم. ثم بايعوا رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً، فلا يَجِدَنّ منكم أحد في نفسه أن يؤخذ غيره فإنما يختار لي جبريل» قال مالك بن أنس: حدثني شيخ من الأنصار: أن جبريل عليه السلام كان يشير له إلى من يجعله نقيباً، قال مالك: كنت أعجب كيف جاء من قبيلة رجلان ومن قبيلة، رجل حتى حدثني هذا الشيخ في أن جبريل كان يشير إليهم يوم البيعة، يوم العقبة.

وعند ابن سعد في الطبقات: فخرجوا وهم سبعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو رجلين، حضر الأوس والخزرج ـ أي جماعتهم ـ وهم خمسمائة حتى قدموا على رسول الله ﷺ بمكة، فسلموا عليه، ثم وعدهم منى أوسط أيام التشريق ليلة النفر الأول إذا هدأت الرجل أن يوافوه في الشعب الأيمن، إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة، وأمرهم ألا ينبهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً، فخرج القوم بعد هدأة يتسللون الرجل والرجلان، وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى الموضع، معه العباس بن عبد المطلب ليس معه غيره.

فلما نظر العباس إلى القوم قال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي!! لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاؤوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب وهؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحداث.

شرائط بيعة العقبة منهج وعهد

وفي حديث جابر فقالت الأنصار: يا رسول الله، علام نبايعك؟ فقال ﷺ: «بايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة على العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله، لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم بيثرب، تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

عزائم تدك لقوتها الشمّ الرواسي

فقمنا نبايعه وأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو أصغر السبعين رجلاً إلا أنا - فقال أسعد بن زرارة: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن إخراجه اليوم - أي من بلده مكة وقومه إلى يثرب بلدنا - وانحيازه إلينا مفارقة للعرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مسّتكم، وعلى قتل خياركم، وعلى مفارقة العرب كافة، فخذوه، وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله عز وجل.

فقال القوم: أمِط يدك يا أسعد بن زرارة، فوالله لانذر هذه البيعة، ولا نستقيلها وفي رواية عند ابن كثير في البداية: ولا نُسْلَبها أبداً، فقمنا إليه ﷺ نبايعه رجلاً، رجلاً، يأخذ علينا شرطه، ويعطينا على ذلك الجنة.

وفي رواية أنهم قالوا: تكلم يا رسول الله، فتكلم رسول الله ﷺ ودعا إلى الله عز وجل، وتلا القرآن، ورغَّب في الإسلام، فأجبناه بالإيمان به، والتصديق له وقلنا له: يا رسول الله، خذ لربك ولنفسك، فقال ﷺ: «إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم» فأجابه البراء ابن معرور، فقال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرَنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحَلْقة، ورثناها كابراً عن كابر.

قول رسول الله للأنصار: أنا منكم وأنتم مني

فعرض في الحديث أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين أقوام حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن الله أظهرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم» فقال

البراء بن معرور: يا رسول الله ابسط يدك نبايعك، فقال النبي ﷺ: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً» فأخرجوهم وصرخ الشيطان بأنفذ صوت وأبعده، فقال: يا أهل الجباجب ـ أي يا أهل المنازل ـ هل لكم في مذمَّم، ـ ما يقول محمد ـ والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم.

وعند ابن سعد في الطبقات: يا أهل الأخاشب هل لكم في محمد والصباة، قد اجتمعوا على حربكم.

فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزب العقبة ـ أي شيطانها ـ هذا ابن أَزْيَب، أما والله لأفرغن لك يا عدو الله، ارفضُوا إلى رحالكم» فقال العباس بن نضلة، أخو بني سالم: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نؤمر بذلك ارفضُوا إلى رحالكم» فرجعنا إلى رحالنا، فاضطجعنا على فرشنا، فلما أصبحنا أقبلت جلّة من قريش فيهم الحارث بن هشام، فتى شاب، وعليه نعلان جديدتان حتى جاؤونا في رحالنا فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا لتستخرجوه من بين أظهرنا، وإنه والله ما من العرب أحد أبغض إلينا أن تنشب الحرب فيما بيننا وبينهم منكم، فانبعث مَنْ هناك من قومنا من المشركين يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء، وما فعلناه، وأنا أنظر إلى أبي جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام وهو صامت وأنا صامت، فلما تثوّر القوم لينطلقوا قلت كلمة، كأني أريد أن أشركهم في الكلام: يا أبا جابر أنت سيد من ساداتنا وكهل من كهولنا، لا تستطيع أن تتخذ مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ فسمعني الفتى، فخلع نعليه فرمى بهما إليّ، وقال: والله لتلبسهما، فقال أبو جابر: مهلاً! أحفظت لعمر الله الرجل ـ يقول أخجلته ـ اردد عليه نعليه، فقلت: والله لا أردهما، والله إني لأرجو أن أستلبه.

ثم انصرف المشركون فأتوا عبدالله بن أبيّ فسألوه وكلموه فقال: إن هذا الأمر جسيم وما كان قومي ليتفّوتوا علي بمثله، فانصرفوا عنه.

بَلَه مخدوع وغفلة بلهاء

قال ابن اسحق: فلما تفرق الناس عن بيعة رسول الله ﷺ ليلة

العقبة، وكان الغد فتّشت قريش عن الخبر وتنطسته فوجدوه حقاً، فانطلقوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة ومنذر بن عمرو، فأما منذر فتفلّت منهم وفاتهم فلم يقدروا عليه، وأما سعد بن عبادة فأوثقوه وشدّوا يديه بنسعة رحله إلى عنقه، وكان سعد بن عبادة كثير الشعر، فطفقوا يجذبونه بجمته ويصكونه ويلكزونه إلى أن جاءه مطعم بن عدي، والحارث بن أمية، بعد أن هتف باسميهما بإشارة أبي البختري، وكان المطعم والحارث يعرفان سعد ابن عبادة وذكرا له فضله عليهما في حراسة تجارتهما إذا مرّت بيثرب، فخلّصا سعداً من أيدي مشركي قومهما، وأطلقاه وخليّا سبيله.

قصة استقبال البراء بن معرور الكعبة باجتهاده ورجوعه إلى قبلة رسول الله ﷺ بعد سؤاله في أمر هذا الاستقبال

في دلائل البيهقي من حديث عبدالله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: خرجنا في الحجة التي بايعنا فيها رسول الله ﷺ بالعقبة مع مشركي قومنا، ومعنا البراء بن معرور كبيرنا وسيدنا، حتى إذا كنّا بظاهر البيداء قال: يا هؤلاء تعلمنَّ أني قد رأيت رأياً والله ما أدري توافقون عليه أم لا، فقلنا: وما هو يا أبا بشر؟ قال: إني قد رأيت أن أصلي إلى هذه البنيّة ولا أجعلها مني بظهر، فقلنا: لا والله لا تفعل، وما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلِّي إلا إلى الشام، قال: فإني والله لمصلٍّ إليها، فكان إذا حضرت الصلاة توجه إلى الكعبة، وتوجهنا إلى الشام حتى قدمنا مكة، فقال لي البراء: يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا، فلقد وجدت في نفسي منه بخلافكم إياي.

قال كعب: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ، فلقينا رجل بالأبطح فقلنا، هل تدلنا على محمد بن عبدالله بن عبد المطلب، فقال: وهل تعرفانه إن رأيتماه؟ فقلنا: لا والله ما نعرفه، ولم نكن رأينا رسول الله ﷺ، فقال: هل تعرفان العباس بن عبد المطلب؟ فقلنا: نعم، وقد كنا نعرفه، كان يختلف إلينا بالتجارة، فقال: إذا دخلتما المسجد فانظرا العباس فهو الرجل الذي معه، فدخلنا المسجد فإذا رسول الله ﷺ والعباس ناحية المسجد جالسين، فسلمنا ثم جلسنا، فقال رسول الله ﷺ: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟» قال العباس: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ:

(الشاعر؟) قال العباس: نعم، فقال البراء: يا رسول الله إني كنت رأيت في سفري هذا رأياً، وقد أحببت أن أسألك عنه لتخبرني عما صنعت فيه قال رسول الله ﷺ: «وما ذاك»؟ قال البراء: رأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت إليها، فقال رسول الله ﷺ: «قد كنت على قبلة لوصبرت عليها» فرجع إلى قبلة رسول الله ﷺ.

* * *

بيعة العقبة الكبرى ومكانتها في الإسلام

عاد أنصار الله إلى بلدهم بعد أن تقلّدوا في أعناقهم هذه البيعة العظمى، مؤمنين أشد ما يكون الإيمان في قلوب ملأها الإخلاص واليقين، قوّامين بموجبات بيعتهم، أوفياء لعهودهم أكمل ما كان الوفاء بعهد، لا يشغلهم إلا ترقب وصول رسول الله ﷺ ليكونوا من حواليه سامعين مطيعين، يفدونه، ويفدون أصحابه بكل ما يملكون من وسائل الحياة.

فتح الفتوح

لقد كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التاريخي «فتح الفتوح» لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقاتها في صور متدرجة، مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله الذين كانوا أعرف الناس بقدر مواثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله ورسوله عليه من التضحية مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال.

فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي في ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة تقف متألبة عليها، لم يغب عن أنصار الله قدرها ووزنها في ميادين الحروب والقتال.

وهي في آثارها تشمير ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي في سبيل إعلاء كلمة الله على كل عالٍ مستكبر في الأرض حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صدق وعدل ونصر واستشهاد، وتبليغ لرسالة الإسلام.

لقد أخذ رسول الله ﷺ على هؤلاء الأنصار في هذه البيعة الكبرى ما

لم يأخذه على أحـد غيرهم قط، لا من جلدتهم من الذين سبقت لهم الحسنى فبايعوا رسول الله ﷺ على الإيمان قبل هذه البيعة الكبرى بيعات كانت توطئة وتمهيداً لها، ولا من غير جلدتهم من الذين سبقوا إلى الإيمان منذ إشراق شمس هدايته في أفق مكة.

وبهذا كله كانت هذه البيعة العظمى حجر الأساس في بناء صرح دولة الإسلام على دعائم القوة المؤيدة للحق الناشرة لنور الهداية في الدعوة إلى الله تعالى، المقيمة لمنائر التوحيد في الأرض، المقوضة لركائز الظلم والاستبداد، الحاملة لألوية العدالة الاجتماعية، الداعية إلى التآخي بين الأمم والشعوب والجماعات والأفراد، المنادية بالمواساة والتراحم.

وبهذا كله كانت هذه البيعة الكبرى اللبنة الأساسية في تكوين كتائب الجهـاد لرد العـدوان والتناصف من الـظلمة المتجبـرين، ودفع الـظلم والاضطهاد الذي كان يصب على المؤمنين المستضعفين في مكة من الفجرة المستكبرين، جلاوزة الوثنية، وعتاولة الشرك.

قصة إسلام عمرو بن الجموح ودلالتها على قوة يقين الأنصار ومضحكات الوثنية

هذه القصة من أدل الدلائل على قوة يقين أهل البيعة الكبرى من الأنصار ورسوخ إيمانهم ووفائهم بما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ، من إفراد الله بالعبودية له وحده، وتطهير أنفسهم وبيوتهم وأهليهم من رجس الشرك ووصمة الوثنية.

روى البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق من طريق عاصم بن عمر ابن قتادة قال: كان معاذ بن عمرو بن الجموح قد شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها، وكان أبوه عمرو سيداً من سادات بني سَلِمة وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له مناة ـ وهذه خصيصة من خصائص السيادة الجاهلية ـ فلما أسلم فتيان بني سلمة، معاذ ابن جبل، ومعاذ بن عمرو، وغيرهما كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة، وفيها عذر الناس ـ أي ما يخرج منهم من الفضلات ـ منكساً على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا في هذه الليلة، ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهّره وطيّبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من يصنع هذا بك لأخزينّه، فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك، فلما ألحُّوا عليه استخرجه من حيث ألقوه فغسله وطهّره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلّقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك، فلما أمسوا ونام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة،

فيهـا عذر الناس، وغدا عمرو فلم يجده فخرج يتبعه حتى وجده في البئر منكساً مقروناً بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه من أسلم من قومه فأسلم عمرو بن الجموح فحسن إسلامه، وقال حين أسلم، وعرف من الله ما عرف يذكر صنمه.

تـالله لــو كـنتَ إلهـاً لم تـكـن   أنت وكلبٌ وَسْطَ بــير في قــرن

في أبيات تبين ما أضاء الله من بصيرته، وما هداه إليه من الإيمان، وما أنقذه من ضلالة الجاهلية، وأوضار الشرك، ورجس الوثنية.

وفي هذه القصة دلالة على ما كان قد بلغت إليه تفاهة مهزلة الوثنية وسخافة التفكير المشرك، كما تدل على ما صنعه الإيمان في قلوب الأنصار، ولا سيما شبابهم وفتيانهم الذين فتحت عيون بصائرهم على نور العقيدة التوحيدية بأول لقاء رأوا فيه النبي ﷺ وسمعوا منه من آيات القرآن المجيد، وما دعاهم إليه من الهدى والخير.

* * *

الإذن بجهاد الدفاع عن الحق ورد الاعتداء

وكان أول ما أنزل الله تعالى في جهاد الدفاع ورد الاعتداء قوله تعالى: ﴿أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ لأن المسلمين قد تغيّر وضعهم الاجتمـاعي بقدوم الأنصار إلى مكة ولقاء رسول الله ﷺ لهـم المرة بعد المرة، والعام بعد العام، ومبايعتهم له ﷺ بيعة بعد بيعة ـ وأصبحوا في منعة وقوة يستطيعون بها الدفاع عن أنفسهم وحرية عقيدتهم وإسلامهم ودعوتهم إلى الحق، ومواجهة أعدائهم بالقتال لرد عدوانهم.

وهذا الإذن الدفاعي لم يكن إيجاباً للجهاد القتالي، بل هو كما سماه الله تعالى إذن لدفع العدوان يتقلد تطبيقه كل قادر على ردِّ ظلم الظالمين من الأفراد والجماعات، وليس فيه رفع لما تخلّق بـه المؤمنون من التسـامح والتغاضي عن سفاهة السفهاء وجهالة الجاهلين، وإيذاء المؤذين، لأنه إذن لم يتجاوز مرتبة الجواز لما كان ممنـوعاً عليهم، والجـواز لا يرفـع التفضل

والإحسان وهما من أخص أخلاق أهل الإيمان في شرعة الإسلام.

وهذا هو ظاهر الآية في تعليل الإذن للمؤمنين بدفع العدوان بأنهم ظُلِموا وهم مستضعفون، وأن الله تعالى أقدرهم بما تفضل به عليهم جزاء صبرهم واحتمالهم وتسامحهم بما جعل لهم من نصراء يمنعوهم من الظلم، ومهجر يأمنون فيه، ويرشح ذلك إبهام المأذون فيه للمؤمنين ليكون محطاً للاجتهاد والتقدير للمناسبات وما يحتف بها، وحساب عواقبها بالنسبة للدعوة إلى الله عز وجل.

وقد كان المسلمون الأولون مأمورين بالكف عن رد العدوان، ومأمورين بالصفح والمغفرة والعفو عن جهالة الجاهلين، والصبر على إيذاء المؤذين، لأن القوى الإسلامية كانت لا تزال في مهدها لم تشتد سواعدها للمقاومة والدفع، وكانت مشتتة لّما تتجمع بعدُ في إطار نظام موحد، وكانت الضرورة المقتضية لعدم إثارة المعارك الجانبية، لا تزال قائمة في مجتمع مكة الظلوم، تتطلب الكثير من الصبر والاحتمال وضبط الأعصاب الثائرة، ليسد المؤمنون بصبرهم واحتمالهم ما ينزله بهم من فادح البلاء طغاة الفجور الوثني، والعتو المادي من المشركين ـ باب فتنة داخلية، لو اشتعلت نيرانها بمقابلة العدوان بمثله لعصفت بالمسلمين قبل أعدائهم، لأنهم كانوا قلة مستضعفة، وكان الكثير منهم من أبناء البيوتات القرشية، مما جعل أهليهم وعشائرهم متمكنين من تعذيبهم وصب صنوف البلاء عليهم، فلو لم يعتصم المسلمون بصبرهم واحتمالهم، وعدم المسارعة لرد العدوان لكان من أول نتائج هذه الفتنة الجائحة وقف سير الرسالة، وتعريض شباب الإسلام من السابقين الأولين للإفناء تحت سياط العذاب في داخل البيوت بين شراسة العشائر وضراوة المتجبرين، ولا سيما أنَّ كَلَب الطغاة وشنفهم في تعذيب المؤمنين قد ضوعف واشتد إثر البيعة الكبرى للأنصار، وتواصي الطغاة بتضييق الخناق والافتنان في تعذيب المؤمنين، خشية أن ينفلتوا من قبضتهم إلى الهجرة لإخوانهم الأنصار الذين تخشاهم قريش، وتقدِّر لهم قدرتهم في الحرب والقتال.

كان الإذن برد الاعتداء مدخلاً للأمل في أنفس المؤمنين

ولكن هذه الشدة الفاجرة فتحت أعين المستضعفين المعـذبين إلى التطلع لإخوانهم الأنصار في بلدهم (يثرب)، وقد كان حالهم وما يلقَون من التعذيب وألوان البلاء يرمض رسول الله ﷺ ويحزنه أشد الحزن، ولا يجد سبيلاً للدفاع عنهم وحمايتهم، بيد أنه ﷺ كان منذ تمت له بيعة العقبة الكبرى يترقب الفرج يأتي منزلاً من عند الله، وكان يتطلع إلى مخرج ينقذ به أصحابه من هول ما يلقون من شدائد المحن، وقد أطمعهم الإذن في رد الاعتداء ودفع العدوان، فأدخل الأمل في قلوبهم، وبدا مَنْ قَوي منهم على رد العدوان يرده بأقوى منه وأشد، وخشي رسول الله ﷺ أن يندفع الفجّار المتجبرون من أعداء الإسلام وأحلاس الشرك وبأو الغرور إلى قاصمة الظهر، فيحاط بأصحابه في إطار صور فنائية، ففتح لهم باب الهجرة وقال لهم: «إني أُريت دار هجرتكم» وأمرهم ﷺ بالخروج إلى يثرب والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم أنصار الله، وأنصار دينه ورسوله وقال لهم: «إن الله قد جعل لكم إخواناً، وداراً تأمنون بها».

وكان النبي ﷺ يقدر حق التقدير ما في البيعة الكبرى من عهود صادقة على بذل كل ما يملك الأنصار من قوى روحانية ومادية وتضحيات بالأرواح والأموال في سبيل الوفاء ببيعتهم وعهودهم التي عقدوها مع رسول الله ﷺ، على أنهم حرب لمن حارب، وسلم لمن سالم من جميع أهل الأرض عرباً أو عجماً.

كما كان رسول الله ﷺ يقدر حق التقدير ما في هجرة أصحابه من السابقين الأولين من المستضعفين المعذبين في مكة إلى إخوانهم الأنصار من توحيد جهود المسلمين وتجميع قواهم في مواجهة الطغيان الأحمق المغرور، والفجور الأرعن المفتون اللذين دأبت عليهما قوى الشر من المشركين.

ومن هنا كانت هذه البيعة الكبرى بيعة لا تعرف المداهنة، ولا تعترف بالمهادنة، لأنها بيعة على الحرب بين الحق والباطل، الحق في أعم وأضوأ صوره، والباطل في أحط وأرذل أشكاله، وهي حرب بين الدعوة إلى الله تعالى وتوحيده، وبين سماجة الشرك وبلادة الوثنية، حرب بين الظلم الظلوم

والعدل المواسي الرحيم، حرب بين الحرية الفاضلة والاستعباد المستكبر العنيد، حرب بين الروحانية الشفيفة التي يشرق نور الإيمان من آفاقها والمادية الحاقدة المظلمة التي تغشى قلوب الطغاة من المشركين.

لم يغب عن الأنصار ما تحمل بيعة العقبة من آثار جسام

وكان الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ هذه البيعة الكبرى الفاصلة بين عهدين متباعدين يقدِّرون ما عاقدوا عليه رسول الله ﷺ من تعريض أنفسهم لأفدح البلاء، الموت فما دونه من محن الحياة، وكانوا يقدِّرون أنهم بايعوه على حرب الأحمر والأسود في سبيل نشر الدعوة إلى الله عز وجل، والذود عنها بكل قوة يملكونها، وإعلان كلمة الحق مدوية في آفاق الأرض وأقطارها لتكون كلمة الله هي العليا، وأنهم بايعوه ﷺ على منعه إذا قدم إليهم مما يمنع منه أعز ما تبذل دونه الأرواح والأموال.

فإذا قلنا أن هذه البيعة في دوافعها وآثارها وواقعها التاريخي هي (فتح الفتوح) فإنما قلنا ونقول حقاً واقعاً في حياة الإسلام، تشهد به الدلائل التاريخية في جهاد الإسلام، فهو حق لا تجوّز فيه، والتاريخ الإسلامي في تدرج وقائعه الجهادية يؤمن بذلك، ويعرف لهذه البيعة العظمى مكانها من سطوره التي كتبتها أقلام النصر المؤزر بمداد من النور والتضحية والفداء.

والقرآن الحكيم والسنة النبوية المطهّرة، وهما أصل الإسلام بيّنا ذلك وسجّلاه في نصوصهما، فآية الإذن بالدفاع للذين يقاتلون بسبب ما وقع عليهم من الظلم الفادح، وإخراجهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله كانت أول آية نزلت لتفتح باب المدافعة للعدوان مع بقاء فضيلة التسامح، ثم أنزل الله أول ما أنزل بعد ذلك آية الانتصاف في القتال ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ فهذا التناسق الذي جاءت به الآية قيّده النص في جانب إلزام المسلمين بأنه يجب أن يكون القتال (في سبيل الله) فإذا لم يكن القتال (في سبيل الله) لقصد إعلاء كلمة الله لا يكون قتالاً جهادياً يُنْصَر به (الله) ولكنه يكون قتالاً دفاعياً، يدفع به العدوان والاعتداء، فيكون من قبيل ما انطوى تحت آية الإذن في المدافعة ورد العدوان.

وآية الانتصاف هذه قيل أنها نزلت ـ في قول بعض المفسرين ـ بعد آية الترغيب في الجهاد إذا توافرت أسبابه، وهي قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ التي نزلت لتأكيد البيعة الكبرى، وقد فرح بها الأنصار فرحاً شديداً، وهي وإن كانت في نظام التلاوة موضوعة في سورة التوبة وهي من آخر ما نزل من القرآن فذلك لا يمنع أنها مكية النزول، وهذا كثير في القرآن، وإنما تحكمه المناسبات المعنوية في سياق الآيات في نظم التلاوة.

القتال لحماية العقيدة والحق الإلهي الذي كانت به أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس

ثم حسم أمر الجهاد القتالي بعد أن هاجر من هاجر من مكة إلى المدينة من السابقين الأولين، وتوحدت صفوف المسلمين، وقويت سواعدهم، واشتدت قناتهم، فنزل قول الله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ فهذا أمر بالقتال غير مشروط إلا بشرط أن لا تكون فتنة للمؤمنين عن دينهم وعقيدتهم تلك الفتنة التي كان يباشرها طغاة المشركين في صور بلغت النهاية في شناعة التعذيب، ومعنى هذا الشرط أن يُقْهر أعداء الإسلام قهراً يُذل غرورهم ويطامن من استكبارهم ويذهب بقوتهم، ويبدِّد شملهم، ويرعبل جماعتهم، فلا يملكون أسباب فتنة المؤمنين عن دينهم وعقيدتهم، وبهذا تتحقق وحدة الدين في ظل التوحيد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ويكون الدين لله﴾ بإذلال الشرك وأهله، واستخزاء الإلحاد وشيعته متوارياً وراء آفاق الفناء، ويبقى الإسلام، وهو الدين الحق وحده وهو دين الله الذي لا يدان إلا به، ولا يعبد إلا بما شرع به من أحكام ونظم وآداب وأخلاق.

وليس هذا القتال المأمور به في هذه الآية الحاسمة قتال دفاع لرد العدوان كما في آية الإذن الدفاعي، ولا هو قتال انتصاف كما في آية ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ ولكنه قتال قهر للطغيان، وإذلال للعتو المتجبر والعناد المستكبر، وليّ لعنق الظلم الفاجر، وتحرير للعقل البشري من أغلال الجهالة المتبلدة في جمود التقليد لموروثات الآباء والأجداد، وبتر لسواعد الظلم الفاجر، والاستبداد الأثيم، والتحكم في مصائر الأفراد والجماعات، وتوجيه للحياة البشرية إلى آفاق العزة والكرامة، وميلاد جديد

للإنسانية على يدي رسالة الإسلام، دين الله القويم، في مهاد كتابه الحكيم، وتسديد رسوله الصادق الأمين، ميلاد تتذوق فيه الإنسانية طعم الحياة الحرة العزيزة الكريمة، وتشعر بحقيقة وجودها وقدرها بما جاءت به هداية الإسلام من نظم عادلة، وتشريعات حكيمة وأخلاق كريمة، وآداب رفيعة، وسياسات محكمة، وتوجيهات رشيدة.

أخرج ابن سعد في الطبقات عن عبادة بن الوليد، بن عبادة ابن الصامت أن أسعد بن زرارة أخذ بيد النبي ﷺ فقال لقومه من الأنصار: أيها الناس، هل تدرون علام تبايعون محمداً؟ إنكم تبايعونه على حرب العرب والعجم، والجن والإنس كافة، فقالت الأنصار: نحن حرب لمن حارب، وسِلْم لمن سالم، فقال أسعد بن زرارة: يا رسول الله اشترط علينا، فقال ﷺ: «تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وتقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، والسمع والطاعة، ولا تنازعوا الأمر أهله، وتمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم وأهليكم» قالوا: نعم، وفي حديث عبدالله ابن رواحة عند السيوطي في (الدر المنثور) من طريق محمد بن كعب القرظي وغيره، قال عبدالله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال ﷺ: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فما لنا إن فعلنا ذلك؟ قال ﷺ: «الجنة» قالت الأنصار: ربح البيع، لا نُقيل، ولا نستقيل، فنزلت ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ الآية.

ثم قال السيوطي في (الدر): وأخرج ابن المنذر من طريق عيّاش ابن عقبة الحضرمي عن إسحاق بن عبدالله المدني، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ دخل على رسول الله ﷺ رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله نزلت هذه الآية؟ فقال ﷺ: «نعم» فقالت الأنصار: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل.

وتنزيل آيات القتال في ترتيب نزولها على الوجه الذي قلناه هو ما يتفق مع طبيعة سير الدعوة في مراحلها، قال أبو حيان في (البحر): وأكثر علماء

وضع آيات القتال مواضعها في الترتيب التدريجي

التفسير على أنها ـ أي آية ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ ـ أول آية نزلت في الأمر بالقتال، آمر فيها بقتال من قاتل والكف عمن كف. وهذا لا ينافي ما روي عن أبي بكر: أن أول آية نزلت في القتال ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ لأن هذه الآية ليس فيها أمر بالقتال، ولكنها إذن بالقتال لدفع العدوان، والأولية في آية ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ إنما كانت بالنسبة للأمر بالقتال.

وقد رتب الراغب مراتب الجهاد ترتيباً بديعاً يتفق مع الواقع فقال: أمر الله أولاً بالرفق والاقتصار على الوعظ والمجادلة الحسنة، ثم أذن في القتال، ثم أمر بقتال من يأبى الحق بالحرب، وذلك كان أمراً بعد أمر على حسب مقتضى السياسة.

وأصل ذلك عند ابن إسحاق قال: وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب، ولم تحلل له الدماء، إنما يأمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل.

وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم. ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون في دينه، ومن بين معذّب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفي كل وجه.

فلما عتت قريش على الله عز وجل، وردُّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذّبوا نبيه ﷺ وعذّبوا ونفوا من عَبَده ووحده وصدّق نبيه، واعتصم بدينه أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أُنزلت في إذنه له بالحرب، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى:

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ إلى قوله: ﴿ولله عاقبة

الأمور﴾ قال ابن إسحاق في تفسيرها أي أني أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، - يعني النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين - ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ أي حتى لا يفتن مؤمن عن دينه، وحتى يعبد الله لا يعبد معه غيره.

ولم يذكر ابن إسحق في آيات ترتيب القتال قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ وهي أسبق نزولاً وتلاوة من قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ وقد بيّنا ذلك فيما ذكرناه من ترتيب آيات القتال إذناً، وأمراً مشروطاً، وأمراً مغيّاً وغير مشروط.

هجرة الصحابة من مكة المشرفة
إلى المدينة المنورة

بعد أن تمت بيعة السبعين من الأنصار، وهي بيعة العقبة الكبرى التي سميناها بحق (فتح الفتوح) وكانت ثالثة بيعات الأنصار، التي نقلت الدعوة الإسلامية من مضايق الحياة ومنعرجاتها إلى وسيع آفاقها ومنفسحاتها، فكانت بيعة حرب العالمين أسودهم وأحمرهم في سبيل إعلاء كلمة الحق، ونصرة دين الله، ومنع نبيه ﷺ وأصحابه وحمايتهم، وافتدائهم بالأرواح والأموال، وهما أعز وأغلى ما يقع به الافتداء - طابت نفس رسول الله ﷺ، كما جاء في حديث عائشة وأبي أمامة بن سهل الذي ذكره الزرقاني في شرح المواهب فقال: لما صدر السبعون من عنده ﷺ طابت نفسه، وقد جعل الله له منعة أهل حرب، ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين، لما يعلنون من الخروج، فضيقوا على أصحابه وأتعبوهم، ونالوا منهم مالم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكوا للنبي ﷺ، فقال لهم ﷺ: «قد أُريت دار هجرتكم سبخة» ثم مكث ﷺ أياماً، ثم خرج مسروراً فقال: «قد أُخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد منكم أن يخرج فليخرج إليها» فجعلوا يتجهزون ويترافقون، ويتواسون، ويخرجون، ويخفون ذلك، فخرجوا أرسالاً، وفرادى، فاستقبلهم أخوتهم الأنصار أطيب استقبال وأكرمه، وأنزلوهم من أنفسهم منازل الحب والايثار والوفاء والتكريم، وقد خلّد الله تعالى هذا الموقف الأكرم للأنصار، فأنزل فيه قرآناً يتلى ويُتعبَّد به، وجعله أسوة في أكرم مكارم الأخلاق ومثلاً يُحتذى فقال تعالى: ﴿والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في

صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة﴾.

وإذا كان لهذه البيعة الكبرى (فتح الفتوح) هذا الأثر الغامر في تفريج كرب المسلمين المعذَّبين في مكة، وكان لها من الفضل في تجمعهم، وتوحيد مجتمعهم وشد سواعدهم وصلابة قناتهم ما جعلهم قوة مرهوبة، يخافها أعداء الإسلام، وكان لها من إدخال البهجة على قلب رسول الله ﷺ ما جعله يظهر سروره لأصحابه ويبشرهم بأنه ﷺ قد أخبر بدار هجرتهم وهي يثرب دار الأنصار الذين بايعوه على أن يكونوا حرباً لمن حاربه وسلماً لمن سالمه من العالمين ـ فقد كان لما سبقها من بيعات ـ كان عدد المبايعين فيها له ﷺ أقل من عدد من بايع في بيعة (فتح الفتوح) وهي البيعة الكبرى بيعة السبعين ـ أثر قوي، بعيد النفاذ، عمق الغور، قامت على دعامته بشائر الدعوة إلى الله في دور يثرب وعشائرها، حتىٰ صار في كل دار من دور الأنصار ذكر لرسول الله ﷺ ولدعوته ورسالته، مما جعل بعض أباة الضيم من السابقين للإسلام في مكة ـ قبل أن يؤذن لهم في القتال الدفاعي ـ يتطلعون إلى الهجرة حيث يأمنون على عقيدتهم وأنفسهم، فرأوا أن بلدة يثرب هي المكان الآمن الأمين الذي تطمئن فيه قلوبهم لأنه يجمعهم إلى إخوانهم في الإيمان من أنصار الله، وأنصار رسوله ودعوته.

أول المهاجرين
إلى المدينة المنورة

هجرة أبي سلمة مثل يحتذى في الشجاعة وقوة الإيمان

كان في صدر هؤلاء الأباة الشجعان أبو سلمة، عبدالله بن عبد الأسد المخزومي أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، أسلم بعد عشرة أنفس، وأحد ذوي الهجرتين: هجرة الحبشة، وهجرة المدينة المنورة، أبت عليه شجاعته ورسوخ إسلامه أن يُسِر هجرته ويستخفي بها، بل هاجر مستعلناً تحت سمع وبصر قومه، الذين كانوا ينالون منه ويؤذونه، ويمنعه إسلامه أن يرد عليهم عدوانهم عليه، لأن السابقين إلى الإسلام كانوا مكفوفين عن الانتصاف من خصومهم ورد اعتدائهم، مأمورين بالصبر والعفو والاحتمال السمح المتكرم، وقد كانت هجرة أبي سلمة إلى المدينة المنورة قبل بيعة العقبة الكبرى بنحو سنة.

ومن هنا كانت قصة هجرة أبي سلمة، وهجرة زوجه السيدة النبيلة أم سلمة التي شرّفها الله بعد استشهاد أبي سلمة فصارت أماً للمؤمنين، إذ تزوجها رسول الله ﷺ - مثلاً مضروباً ونموذجاً يحتذى، وأسوة تؤتسى في مواقف الشجاعة وقوة العقيدة، والوفاء.

أم سلمة رضي الله عنها تكشف عن روائع الإيمان وقوة اليقين في هجرتها وهجرة زوجها أبي سلمة

قال ابن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبدالله ابن عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيتك صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟.

قالت أم سلمة: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، فقالوا: لا، والله لا نترك ابننا عندها إذ انتزعتموها من صاحبنا.

فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، ففرقوا بيني وبين زوجي وبين ابني، فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى حالي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها، وبين ولدها؟ فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، ورد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حِجْري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله، فقلت أتبلّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي.

ذروة وفاء المروءة وقمة نخوة الرجولية

حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ فقلت: لا والله، إلا الله وبني هذا، قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحطَّ عنه ثم قيَّده في الشجرة، ثم تنحَّى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

فكانت أم سلمة رضي الله عنها تقول: والله ما أعلم أهل بيت في

الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة.

وقد صدقت رضي الله عنها، فما قاسته في التفريق بينها وبين زوجها، وما رأته في نزع ابنها من حجرها حتى خلعت يده، وما لزمته من خروجها إلى الأبطح نهارها تبكي سنة أو قريباً منها، أمور عظيمة، لا يتعاظمها إلا احتمالها بالصبر عليها، وقد احتملت وصبرت صبراً جميلاً حتى قيّض الله لها فرجاً.

وما رأته من عثمان بن طلحة العبدري، وهو مشرك - وليس من بيتها بيت آل المغيرة ولا من عشيرتها وقبيلتها بني مخزوم - من كرم النفس، ونخوة الرجولية، وتحمل المشقة البالغة في سبيل النجدة، وفتوة المروءة، أخلاق لا تجتمع إلا في الرجل بعد الرجل، وفضائل لا توجد إلا في الأكرمين أحساباً، وقد منّ الله تعالى على عثمان بن طلحة العبدري بنعمة الإسلام فأسلم إسلاماً كريماً في هدنة الحديبية، وكان ثالث ثلاثة من الأبطال الذين اتفقوا على الهجرة إلى رسول الله ﷺ: وهم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فلما رآهم رسول الله ﷺ قادمين عليه مسلمين قال: «رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها» وإلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة بن أبي عثمان بن ابي طلحة دفع رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة وقال: «خذوها تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم» وهي إلى اليوم لا تزال في أيدي بني شيبة.

ثم تتابعت أفواج المهاجرين إلى المدينة تتأمها أرسالهم ويقصدها وحدانهم، فالرجل وأهله، والرجل وصحبه، والرجل وحده، يجدّون في سيرهم، ويجتهدون في تحملهم، ويخفون نأمتهم، ويستسرون بحركتهم، يركبون متن الليل سُرى، ويناهضون الشمس ضحى، ويسابقون النجوم وهي تجري في أبراجها دجى، وكان فيهم من أوعبوا رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً وغلقوا أبواب دورهم في مكة هجرة إلى الله ورسوله، وقد ذكر ابن إسحاق سبعة عشر رجلاً، وثمان إمرأة من مهاجريهم.

ومن أشهر هؤلاء في تاريخ الهجرة وأحداثها بنو غَنْم بن دودان آل عبدالله بن جحش، أخي أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، وفي ذلك يقول أبو أحمد عبد بن جحش وكان شاعراً مجيداً، مرهف الحس، ضرير البصر، وكان يطوف مكة، أعلاها وأسفلها وحده بغير قائد:

إلى الله يوماً وجهه لا يخيّب | إلى الله وجهي والرسول ومن يقم
وللحق لما لاح للناس ملحب | دعوت بني غنم لحقن دمائهم
إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا | أجابوا بحمد الله لما دعاهم

قال ابن إسحاق: ولم يوعب أهل هجرة من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله ﷺ إلا أهل دور مُسَمَّوْن: بنو مظعون من جمح، وبنو جحش بن رئاب حلفاء بني أمية، وبنو البكير من بني سعد ابن ليث حلفاء بني عديّ بن كعب، فإن دورهم غُلّقت بمكة هجرة ليس فيها ساكن.

هجرة عمر ابن الخطاب في ركب من أصحابه

ثم جاءت هجرة القوي الأمين فاروق الإسلام، وعز المسلمين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في عشرين راكباً، فيهم أخوه زيد بن الخطاب، وابنه عبدالله بن عمر، وعيّاش بن أبي ربيعة الملّقب بذي الرمحين لشجاعته.

قال الزرقاني في شرح المواهب: أخرج ابن عساكر وابن السمان في الموافقة عن علي رضي الله عنه قال: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا متخفياً إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانفض يُدْنه - أي أخرج أسهماً من كنانته - وجعلها في يده للرمي بها، واختصر عنزته - أي حملها مضمومة إلى خاصرته - ومضى قبل الكعبة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلّى ركعتين، ثم وقف على الحلق، حلقة، حلقة، واحدة، واحدة، فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته فيلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه أحد من أهل الحِلَق.

وفي حديث عبدالله بن عمر عن أبيه عند ابن إسحاق، قال عمر: اتعدنا لما أردت الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام ابن

العاصي التناضب من أضاة بني غفار فوق سرف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس، فليمض صاحباه، قال عمر: فأصبحت أنا وعياش عند التناضب، وحبس هشام، وفتن فافتتن.

عياش بين وفاء الإيمان وغدر الفجور

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل ابن هشام والحارث بن هشام إلى عيّاش، وكان أخاهما لأمّهما وابن عمهما حتى قدما المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلما عيّاشاً، وقالا له: إن أمك قد نذرت ألّا يمسّ رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرقّ عياش لأمه، فقلت له: إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حرُّ مكة لاستظلت، فقال عياش: أبُر قسم أمي، ولي هنالك مال فآخذه، فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك قلت له: أما إذْ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانجُ عليها، فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا على الأرض عدوا عليه، فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة نهاراً موثقاً، ثم قالا: يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا.

دعاء النبي ﷺ لعياش وصاحبيه في القنوت

وكان رسول الله ﷺ - كما في الصحيحين عن أبي هريرة - يدعو لعيّاش وللوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام في قنوت صلاة العتمة يقول: «اللهم أنجِ الوليد بن الوليد، اللهم أنجِ سلمة بن هشام، اللهم أنجِ عيّاش ابن أبي ربيعة، اللهم أنجِ المستضعفين من المؤمنين» الحديث، قال ابن القيم في الهدي: قال أبو هريرة: وأصبح ذات يوم فلم يدع لهم، فذكرت ذلك له، فقال: «أو ما تراهم قد قدموا؟».

شجاعة الوليد ابن الوليد

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: «من لي بعيّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص؟» فقال الوليد ابن

الوليد بن المغيرة: أنا لك بهما يا رسول الله، فخرج الوليد بن الوليد إلى مكة مستخفياً، فلقي امرأة تحمل طعاماً، فقال لها: أين تريدين يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين، تعنيهما، فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسوّر عليهما، ثم أخذ مروة فوضعها تحت قيديهما، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما ثم حملهما على بعيره، وساق بهما حتى قدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة.

وهذه الرواية مخالفة بالنسبة لهشام بن العاص لحديث عبدالله بن عمر عن أبيه الذي جاء فيه: فكنّا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً، ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفرِ لَبلاء أصابهم، وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم.

أثر رغائب القرآن العظيم في دخائل النفس الإنسانية

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾[1].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثتها إلى هشام بن العاص، قال هشام: فلما قدمت عليّ خرجت بها إلى ذي طوى ـ وعند السهيلي ففاجأتني وأنا بذي طوى ـ فجعلت أصعِّد بها وأصوِّب لأفهمها، فقلت: اللّهم فهِّمْنيها، فعرفت أنها إنما نزلت فينا، كما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، فرجعت فجلست على بعيري، فلحقت برسول الله ﷺ.

وفي هذه الرواية أن الوليد بن الوليد استجاب الله فيه دعاء رسول الله ﷺ فأنجاه قبل أخويه، وكان هو سبباً في إنجائهما، وهكذا كان الإخاء الإيماني يفرض على أهله التعاون والمواساة في سبيل عقيدتهم، وافتداء دينهم بأرواحهم.

(١) سورة الزمر آية (٥٣، ٥٤، ٥٥).

هجرة صهيب وشراؤه لإيمانه وعقيدته بجميع ما يملك من حطام الدنيا

وكان ممن هاجر وحده، وفدى نفسه وعقيدته وهجرته بجميع ما له، ـ وكان ذا مال ـ صهيب بن سنان المشهور بصهيب الرومي وهو عربي صليبة، ومن بيت رفيع في قومه، ناله سباء في الروم، وهو صغير، فأخذ لسانهم فعرف بذلك، قال ابن عبد البر في الاستيعاب:

وهو نمري، من النَّمِر بن قاسط، لا يختلفون في ذلك، ثم قال ابن عبد البر: وفي كتاب البخاري عن محمد بن سيرين قال: كان صهيب من العرب، من النَّمِر بن قاسط، وقال موسى بن عقبة قال: ابن شهاب: وممن شهد بدراً مع رسول الله ﷺ من النمر بن قاسط صهيب بن سنان.

ذكر ابن كثير في البداية عن الحافظ أبي بكر البيهقي بسنده إلى سعيد ابن المسيب عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «أُريتُ دار هجرتكم سَبْخة بين ظهراني حرتين، فإما أن تكون هجر، أو تكون يثرب» قال صهيب: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخرج معه أبو بكر، وكنت قد هممت معه بالخروج، فصدني فتيان من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم، لا أقعد، فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه ـ ولم أكن شاكياً ـ فناموا فخرجت، ولحقني منهم ناس بعدما سرت، يريدون ليردوني، فقلت لهم: إن أعطيتكم أواقي من ذهب، وتخلوا سبيلي، وتوفوا إليّ، ففعلوا، فتبعتهم إلى مكة، فقلت: احفروا تحت أسكفة الباب فإن بها أواقي، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين، فخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ بقُباء قبل أن يتحول منها، فلما رآني قال: «يا أبا يحيى ربح البيع» فقلت يا رسول الله ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام.

وذكر ابن كثير عن ابن هشام قال: وذُكر لي عن أبي عثمان النَّهْدي أنه قال: بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً فقيراً لا مال لك، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بما لك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب».

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: يقال أن صهيباً لما هاجر تبعه نفر من المشركين فقال لهم: يا معشر قريش إني من أرماكم، ولا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه، فرضوا، فعاهدهم ودلّهم على ما له، فرجعوا فأخذوا ما له، فلما جاء إلى النبي ﷺ قال: «ربح البيع» فأنزل الله ﴿ومن الناس يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾.

بيد أن الحافظ ابن حجر جزم في الإصابة بأن صهيباً رضي الله عنه هاجر في رفقة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر من هاجر من أصحاب رسول الله ﷺ.

عليّ رضي الله عنه يلحق بالنبي ﷺ بعد تنفيذ وصيته

ولا شك أن هجرة علي رضي الله عنه كانت بعد هجرة رسول الله ﷺ. حكى البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق قال: آخر من قدم المدينة من الناس لم يفتن في دينه أو يحبس علي بن أبي طالب، وذلك أن رسول الله ﷺ أخّره بمكة وأمره أن ينام على فراشه، وأجّله ثلاثاً، وأمره أن يؤدي إلى كل ذي حق حقه، ففعل ذلك علي ثم لحق برسول الله ﷺ.

وقد أدرك عليّ رضي الله عنه النبي ﷺ بقُباء لما يَرِم منها، وكان رسول الله ﷺ قد نزل على كُلثوم بن الهدم أخي بني عمرو بن عوف، وكان ﷺ يجلس للناس في بيت سعد بن خيثمة، وكان سعد عزباً، لا أهل له، وكان منزله منزل العزاب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين.

قال ابن إسحاق: وأقام عليّ رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ فنزل معه على كُلثوم بن هدم بقباء.

قصة طريفة لسهل ابن حنيف مع امرأة مسلمة

وفي هذه المدة القصيرة وقعت له هذه الحادثة الطريفة التي يرويها عنه ابن إسحاق، فيقول: فكان علي بن أبي طالب يقول: كانت بقباء امرأة لا زوج لها مسلمة، فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه، فيعطيها شيئاً معه فتأخذه.

قال علي رضي الله عنه: فاسترببت بشأنه، فقلت لها: يا أمة الله؟ من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة، فتخرجين إليه، فيعطيك شيئاً، لا أدري ما هو؟ وأنت امرأة مسلمة، لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل ابن حنيف بن وهب، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا. فكان عليّ رضي الله عنه يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف حتى هلك عنده بالعراق.

استكمل المجتمع المسلم قوة وحدته في دار هجرته ليستقبل بالمدينة سيد المرسلين

استوعبت دار الهجرة عامة المؤمنين من المهاجرين والأنصار قبل هجرة رسول الله ﷺ إليها، ولم يبق بمكة يوم أن هاجر رسول الله ﷺ إلا مفتون في دينه أو محبوس حيل بينه وبين الهجرة لينضم إلى إخوانه المؤمنين، وقد منّ الله على بعض هؤلاء فتخلّصوا بعد هجرة رسول الله ﷺ من الفتنة، فتاب الله على المفتونين في دينهم، وعادوا إلى إيمانهم وعقيدتهم، وهاجروا لينضموا إلى إخوانهم المؤمنين، وقوّى الله المستضعفين فأنجاهم من أيدي الظالمين المشركين، وهاجروا إلى إخوانهم ليحملوا لواء الدعوة إلى الله تعالى في صفوف جند الله من المجاهدين.

واستكمل المجتمع الإسلامي في دار الإيمان عناصر القوة، واستعدت المدينة المنورة برسوخ إيمانها، ويقينها ووحدة مجتمع الإيمان فيها، وقوته المادية والمعنوية لتستقبل أخطر وأعظم حادث في تاريخ الحياة.

هِجرة النبيّ ﷺ
من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة

كانت الهجرة النبوية نقطة تحول في تاريخ الحياة

كانت الهجرة النبوية من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة أعظم حدث حوّل مجرى التاريخ، وغيّر مسيرة الحياة ومناهجها التي كانت تحياها، وتعيش محكومة بها في صورة قوانين ونظم وأعراف وعادات وأخلاق وسلوك للأفراد والجماعات، وعقائد وتعبدات وعلم ومعرفة، وجهالة وسفه، وضلال وهدى، وعدل وظلم.

وقد كانت مكة مطلع شمس التوحيد في رسالة الإسلام، وملتقى آفاق السماء بأقطار الأرض، ومشرق نور الهداية، ومهبط أول وحي إلهي ختمت به رسالة الخلود، ومنزل أول كلمة شُرِّفت بها الحياة، وأول خطاب شرف به أكرم خلق الله على الله محمد خاتم النبيين ﷺ.

تلك الكلمة الأبدية الجامعة لصنوف الخير مادة ومعنى (اقرأ)، التي عنونت رسالة الخلود بأعظم ما أشرقت به الحياة من نور وهداية، منذ كانت الحياة، إذْ جعلت من العلم بأعم معانيه وأشمل حقائقه الدعامة الأولى، والركيزة العظمى التي قام عليها بناء رسالة الخلود صرحاً أشم شامخاً.

هذه الرسالة العامة زماناً، الشاملة مكاناً، المحيطة أجيالاً، الشافية قلوباً، المشرقة أرواحاً، الكافية هدياً ورشداً، الباقية حسّاً ومعنى، البانية لحضارات الخير الناضرات، الفاتحة لأبواب السعادة في الدارين، المنبِّهة للإنسانية من غفلاتها، الموقظة لها من سباتها، المحررة للعقل البشري من ربقة الجمود، النافخة فيه روح الحيوية الثائرة، السالكة به سبيل النظر

البحوث في عناصر الكون، ليعرف منه ما لم يكن يعرف من قَبْلها، ويعلم من أسراره ما لم يكن يعلم من غيرها الغالبة القاهرة، المؤيدة بروح الله، الظافرة بصادق وعده وتبشيره ﴿اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

وصارت المدينة المنورة بإشراق نور النبوة بكل معالمها وآياتها مسرى هذه الرسالة الخاتمة الخالدة إلى آفاق العالم شرقه وغربه، شماله وجنوبه، غيثاً مغيثاً أسال وديانها وشعابها بمنهمر من الخير الذي أبت مكة بملئها العتيّ العنيد أن تتقبله استكباراً في الأرض بغير حق، وكانت حرية أن تعبّ من سلسبيله عبّاً، تروي به ظمأها، وتبلل بنداه نشف ريقها، لأنها كانت صديانة الروح، محرقة الكبد، يكاد يقتلها أوار العطش وهي في نار الشرك والوثنية تخور كما تخور ثيران الفيافي وقد منعت الورود إلى غدران الماء.

لقد حولت الهجرة النبوية عنها روادف هذا النمير السلسل إلى المدينة المنورة، فجرى في أوديتها أنهاراً، سبح في غمراتها، وغاص في أعماقها المذخورون في سجل الأزل لحمل أمانة الحقيقة الكبرى في قيادة الإنسانية إلى آفاقها المقدورة لها في لوح العلم الإلّهي المحيط بما كان وما يكون، رافعين ألوية الحق والخير والهدى، حاملين مشاعل النور ليضيئوا للسالكين مهايع الرشد ـ من الأكرمين السابقين الأولين الذين وفدوا مهاجرين إلى طيبة الطيبة دار الإيمان، ومن الأنصار الذين باعوا أنفسهم لله عز شأنه يوم أن بايعوا رسول الله ﷺ على أن يكونوا حرباً لمن حارب وسلماً لمن سالم، يفدونه ويفدون ما جاء به من الحق والهدى، يبلّغونه إلى الأحمر والأسود ما قامت أفئدتهم بين جوانحهم عامرة باليقين، وما ثبتت سيوفهم في أيديهم لتقويم عوج العناد في أخادع المستكبرين من أهل العتو والفجور.

وقد وفوا بما عاهدوا الله عليه، وصدقوا رسول الله ﷺ فيما بايعوه عليه، فكانوا كتيبة الجهاد القوية القاهرة، وكانت مدينتهم قلعة الإسلام الحصينة، وحصنه القوي الأمين.

الهجرة النبوية

كيف بدأت . . . وكيف تمت؟

تحقيق يكشف غموض بعض الوقائع والروايات

رجفت مكة ـ وقد تجاوبت شوامخ رواسيها بأصداء البيعة الكبرى بيعة الفتح الأكبر (فتح الفتوح) في دنيا الإسلام ـ رجفة تزايلت من هول وقعها أوصالها، وتزلزلت لشدة نكايتها بطواغيتهم أركانها.

نضال مرير غير متوازن بين القلة المسلمة السموح والكثرة الفاجرة الجموح

تلك البيعة التي ختمت للرسالة مرحلة، وفتحت بها مرحلة، ختمت مرحلة كفاح مرير غير متوازن في عنصَرَيْه المتكافحين، عنصر العتو الفاجر ممثلاً في مشركي مكة وملئها، وعنصر الإيمان الموحد ممثلاً في القلّة المسلمة من السابقين الأولين، يقودها رسول الهدى محمد ﷺ.

فالقلة المسلمة، كانت في مدى هذه المرحلة بين شقي الرحى، تطحنها الأحداث ويأخذ منها البلاء والتعذيب كل مأخذ، وهي صبور محتسبة لا ترد اعتداء، ولا تملك منجىً ولا تجد مهرباً، مروعة مفزعة في غدوها ورواحها، وصحوها ونومها.

والكثرة العاتية من طواغيت الشرك كانت تتعامل مع هذه القلة المسلمة بقلوب قُدّت من الصخر والحديد، تصب صنوف العذاب عليهم صباً، لا ترحم ولا تمل، يضحكها أنين الألم يخرج مع زفرات ضحاياها، ويسكرها منظر الدماء تنساب من جراحهم، والسياط على أجسامهم نازلة صاعدة، ويغيظها صبرهم على العذاب، فيزداد عليهم حقدها وحنقها، فتفتن في ابتداع أفانين الفوادح وفنون التعذيب، تصهرهم بها صهراً، فإذا انفلت بعضهم في غفلة سياط العذاب إلى مهرب آمن لاحقتهم برسلها

ورُشاها لتردهم إلى جحيم الفجور، وعتو الاستكبار الظلوم، حتى قضى الله أمره، ومنّ على المستضعفين في الأرض، ومكّنهم، وجعلهم أئمة يهدون بأمره، وقادة للإنسانية، ليخرجوها من الظلمات إلى النور، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لا يحقدون على من مضى بما مضى، سليمة صدورهم، لا تنطوي على حزازات وأضغان، نسوا الماضي القاسي المرير، وداسوا على ما كابدوه فيه من شدة وقهر وطغيان بأقدام التسامح، فلم يذكروه إلا ليحمدوا الله على فضله عليهم.

وفتحت بيعة (فتح الفتوح) مرحلة انطلاق بالدعوة إلى الله في نضال متحرر من الخوف والرهبة لا تعوقه عن سيره قوى الشر التي كانت تترصده بالقهر والجبروت، فهو انطلاق نضالي يستهدف تبليغ رسالة الحق والهدى، وتأسيس نظام يجمع شعوب الأرض في إطار العقيدة الموحدة والإخاء الإنساني الكريم.

بيعة غصت بها الوثنية في مكامنها من الحياة

وقد كانت بيعة (فتح الفتوح) حجر الزاوية في بناء المجتمع الإسلامي على ركائز القوة المادية والمعنوية، وهي القوة التي أرعبت طواغيت مكة، وملأت قلوبهم هلعاً، وهزّت كيانهم جزعاً، واستفزّت عقولهم فزعاً، فاختلّت لديهم موازين المقاومة لهذه القوة العارمة الجديدة التي أحاطت محمداً ﷺ ودعوته بسياج من المنعة التي لا تنال، بل وضعت في يده زمام السير بدعوته وتبليغ رسالته إلى آفاق عريضة، ليس لمكة وطواغيتها طاقة في مواقفتها والتعرض لسيرها، لأنهم يعلمون أن هذه البيعة التي أشجتهم فغصوا بشجيها كانت بيعة نسج خيوطها الوفاء والتضحية، أخذ فيها رسول الله ﷺ وأعطى، أخذ على بني قَيْلة ـ أنصار الغد أوسهم وخزرجهم ـ وهم أبناء الحرب وأبطال الوغى، نهدوا بين أحضانها، ونشأوا في ميادينها، وشبوا وشابوا تحت ظلال سيوفها.

أخذ فيها رسول الله ﷺ عليهم لربه ولنفسه، وأعطى فيها من نفسه بإذن ربه، أخذ فيها عليهم أن يحملوا لواء التوحيد، يعبدون الله، لا يشركون به شيئاً ويقولون في الله، لا يخافون لومة لائم، ويرفعون راية الفداء والتضحية بالنفس والمال لحماية دعوة الحق، وتبليغ رسالة الإسلام، وأعطاهم ﷺ ما ثامنهم به الله (الجنة)، فباعوا رابحين، وبايعوا موقنين، لا يقيلون ولا يستقيلون.

ولم تكن مكة بطواغيت ملئها قط أهيب لقوم في العرب قاطبة، ولا أبغض لحربهم من هؤلاء الأبطال الغر الميامين الذين ظفر بهم رسول الله ﷺ في لحظة تحت جنح الظلام من ليالي التشريق، لحظة كتب فيها القدر الموفق تحول التاريخ البشري عن مسيرته الجاهلية إلى أَمَمَ من طريق العلم والهداية، انتصبت على جوانبه منائر النور لتضيء للسالكين معالم الحق.

ذيوع ذكر رسول الله ﷺ ودعوته على ألسنة الوافدين إلى الحج من قبائل العرب أفزع الطغاة

وموسم الحج يعج بحشود العرب القادمين إلى مكة وأسواقها ومحافلها من كل فج، ولم يكن في وفود قبائلهم وبيوتاتهم أحد إلا كان عنده ذكر لرسول الله ﷺ ولدعوته ورسالته، رجل أو امرأة، فتى في عنفوان تفتِّيه، أو فتاة من وراء خدرها تختلس النظرات إلى جموع الوافدين إلى الموسم، وترهف آذانها إلى أصوات الحشود الصاخبة، تتسمع إلى الكلمات تتهاوى من أسلات الألسن في عصبية مجنونة، يختلط فيها زئير الغضب بعواء الذئاب إلى همس ذاهل مذهول، لا يدري صاحبه ما يقول، ولكنه يتسقط الكلمات من أفواه أصحابه ليتفهم ما يريدون، وما هم بمريدين شيئاً، ولكنهم يتكلمون بما لا يوعون، ويهرفون بما لا يعرفون، زائغة أبصارهم، تائهة عقولهم، يحسون في موسمهم هذا شيئاً لا يعرفونه، ويشعرون بأمر لا يقدرونه، ويرون في جو الموسم غموضاً قاتماً، وظلاماً ينشر سواده المتجهم على مكة وطواغيت ملئها؛ بَيْدَ أنهم يلمحون من وراء سجف هذا الظلام لمعات برق هامس تتخلله، يضيء ويخبو، وإذا فاق الإصباح ينبؤهم بالنبأ العظيم، ويخبرهم بالحق المبين.

وأصبحت مكة في رجفتها الرادفة وقد صك آذانها صوت أجشّ عربيد ينادي ملأها بما انتزع قلوبهم من صدورهم: يا أهل مكة، هل لكم في محمد والصبأة من بني قَيْلة قد أجمعوا على حربكم، وإذا بهذا الصائت المصوِّت أزب العقبة وشيطانها يصطرخ مدحوراً وهو يسمع قول النبي ﷺ يلاحقه في قراره: «أما والله يا عدو الله لأفرغن لك».

وجن جنون قريش، وفزع ملؤها مذهولاً مرعوباً، تلتف سيقانه على سيقانه هلعاً، وتصطك أسنانه كالمقرور جزعاً، وراحوا يستكشفون سر رجفة مكة، وسر ظلامها، وسر وجوم الموسم وتجهمه، وقد ساخت أقدامهم في مواقفهم، وذهبوا يستطلعون النبأ عن أشباههم ممن عسا في الكفر العنيد،

والشرك البليد، والفجور العنيّ، والغرور المستكبر، متلطخاً بأقذار الوثنية وأرجاس الضلال من بقايا هامات نَخِرة، أنفت سيوف البطولة اليثربية أن تجذَّها حصداً.

وكذب هؤلاء على هؤلاء، ثم ارتفعت شمس الحياة في الآفاق مشرقة مضيئة، وقد سالت بأعناق المؤمنين الأباطح، قافلين إلى يثربهم، فرحين بما آتاهم الله من فضله، مستبشرين بنعمة الله عليهم، يتذاكرون بيعتهم رسول الله ﷺ، وما تتقاضاهم من استعداد لاستقبال قوافل التاريخ تحدوها حداة الإيمان في حياة جديدة جادة.

وعادت مكة من جباجبها بعد خيبتها خزيانة مخذولة، تجر أذيال الخسران المبين، متسربلة بالذل والمهانة لتأتمر بمحمد ﷺ الذي بخع كبرياءها الأجوف في لحظة لا تكاد تعرف في حساب سير الفلك، ولكنها كانت لحظة غيّرت وجه الحياة.

ومكرت مكة في تآمرها ومكر الله بها والله خير الماكرين، وها هي ذي ترى بملء أبصارها أصحاب محمد ﷺ الذين كانت تذيقهم العذاب ألواناً قد نجوا من قبضتها، وهاجروا إلى موئل القوة والمنعة والاستقرار والأمن، فأوعبوا حتى لم يبق منهم في متناول طغيانهم إلا مفتون في دينه، أو محبوس عاجز عن الهجرة إلى إخوانه المؤمنين.

فهل تترك مكة بملئها وطواغيتها من ذوي الفجور العتي محمداً ﷺ حتى يلحق بأصحابه وقد نزلوا أكرم منزل، وحلوا أمنع حصن، ليناصبها الحرب فيقضي عليها وعلى وثنيتها وزعامتها قوياً قديراً، قضاء مبرماً، لا تقوم لطغيانها بعدها قائمة وهو بين يديها تستطيع أن تأخذه بغدرها ومكرها وجبروتها.

هذا ما لا تطيق مكة بملئها المستكبر العنيد الحقود صبراً عليه، فلتسرع إلى كيدها تجمعه ومكرها تحوكه، وغدرها تبطش به، ولتحكم التدبير والعمل، ولتستعين بشياطين الإنس ومردة الأباليس قبل أن تفلت منها الفرصة، فيذهب كيدها إلى جحيم البوار، وتبوء بالخسران المبين.

عوامل الهجرة النبوية ودوافعها

لم يكن الفرار من التعذيب هو العامل الوحيد في هجرة الصحابة إلى الحبشة

تحدثنا فيما سبق عن عوامل هجرة الصحابة ودوافعها في هجرتيهم إلى الحبشة وهجرتهم إلى المدينة المنورة، وأوضحنا في أفانين ذلك الحديث أن عوامل هجرة الصحابة ودوافعها في موطنيها من المرحلة المكية كانت ترجع في أساسها إلى عوامل ودوافع سياسية، تستهدف نشر الدعوة وتبليغ الرسالة حيثما أمكن ذلك.

بيد أننا لم نستبعد أن يكون من عواملها ودوافعها التفكير أن يكون فريق من هؤلاء السابقين إلى حظيرة الإيمان بالله تعالى والتصديق برسالة رسوله محمد ﷺ بمنأى عن الاضطهاد وصنوف البلاء والتعذيب التي كان طواغيت الشرك وأحلاس الوثنية تصبها عليهم دون استشعار رحمة، وفي هؤلاء السابقين من المؤمنين بعض المستضعفين الذين لا يأوون إلى ركن شديد من العصبيات القبلية، أو الحمية البيئية، أو العزّة الأسرية يحميهم، ويرد عنهم ما ينزل بهم من شديد الأذى وفادح البلاء، وهم لا يستطيعون توقياً للأذى ولا يستطيعون رداً للاعتداء، لأنهم مأمورون بالكف والصبر والاحتمال، بل كانوا مأمورين بالعفو والصفح والمسامحة.

كما أننا لم نستبعد أن يكون من عوامل هجرة أولئك السابقين ودوافعها التفكير في الانتشار في أرجاء الأرض، بعيداً عن جبروت الملأ في مكة لنشر الدعوة إلى الله عملياً بأسلوب التأسي بهم في سلوكهم وآدابهم وحسن معاملاتهم، وطيب معاشرتهم مع الوفاء والصدق والبر ولطف اللقاء ووداعة الخلق ولين الجانب وخفض الجناح مع العزّة والتعفف، ودعائياً بأسلوب

البشاشة، والكلمة الطيبة، والحكمة المنبهة، والموعظة الحسنة، والحب والرحمة والمواساة، واستشعار الإخاء الإنساني مما علمهم الإسلام وأخذوه عن أخلاق نبيهم ﷺ، مع إتاحة الفرصة بهذه الهجرة للتخفيف عن النبي ﷺ من أعباء شغل فكره بهم لتدبير مواطن التوقي لهم مما ينالهم من الأذى، وتقوية نفوسهم على الصبر واحتمال شدة العتو وقسوة الإيذاء، ليتفرغ ﷺ إلى واجبه الأول والأهم بتبليغ رسالته للناس في منازلهم ومحافلهم، ومجتمعاتهم في المواسم والأسواق.

وهذا أمر ما كان يمكن أن يتحقق، وتتاح فرصته للنبي ﷺ لو كان أصحابه كلهم متجمعين حوله في مكة، وهم مكفوفون عن ردِّ الاعتداء، مأمورون بالصبر والاحتمال، والعفو عن إساءة المسيئين، والصفح عن جهالة الجاهلين، وسفه السفهاء، وعتو الفاجرين.

ذلك أن النبي ﷺ كان يرمضه رؤية أصحابه يسامون سوء العذاب، وهو ﷺ مكفوف عن الدفع عنهم، ووقايتهم مما ينزل بهم في حياتهم غادين ورائحين، معلنين ومسرين، لأنه ﷺ لم يؤذن له في القتال يرد به العدوان، وقد تحمل ﷺ في نفسه من شديد الأذى وسفه السفهاء مالم يعمد إلى رده بمثله، وكان على ذلك قديراً.

ولما عظم الخطر على أصحابه، وكاد يشغله حالهم عن القيام بواجب تبليغ رسالته أشار عليهم ـ أولاً ـ بالهجرة إلى الحبشة، لأن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، فهاجر إليها منهم قلة كانوا اثني عشر رجلاً، ثم تكاثروا في الهجرة الثانية حتى جاوزوا المائة رجالاً ونساءً، حينما ضاق الأمر واستحكم الخناق على الذين حوصروا في الشعب من بني هاشم والمطلب وغيرهم من المسلمين الذين دخلوا معهم ذلك الحصار الظالم.

كانت الهجرة إلى الحبشة أول عامل من عوامل نشر الدعوة إلى الله

وقد بيّنا أن الهجرة إلى الحبشة في مرّتيها كانت أول عامل من أقوى عوامل نشر الدعوة إلى الله في خارج الجزيرة العربية، لأن أولئك المهاجرين كانوا في كثرتهم من أبناء البيوتات وشبابها من قريش وغيرهم.

وقد جرى بينهم وبين النجاشي ملك الحبشة في مجالس حافلة ببطارقته

ورؤوس شعبه وزعمائهم حوار طويل مفصّل استهدف بيان دعوة الإسلام في عقائدها وأخلاقياتها، وآثارها على الأوضاع الجاهلية التي كان يعيشها العرب قبل دعوة الإسلام؛ مما كان له أكبر الأثر في نقل الدعوة من مجال مكة الضيق الخانق إلى مجال أوسع منطلقاً، وأصلح متنفساً، وأنجح مقصداً.

لولم يكن من آثار الهجرة إلى الحبشة إلاّ إسلام عمرو ابن العاص لكفى

لقد كان من أعظم آثاره دخول الإيمان برسالة الإسلام إلى قلب عمرو ابن العاص وهو مَنْ هو عقلاً ودَهْياً، وكان مجيئه إلى الحبشة رسولاً من قريش ليرد هؤلاء المهاجرين إليها لتفتنهم في دينهم وعقيدتهم، فالتقطه منها المهاجرون، وإن لم يظهر إسلامه إلا بعد أمدٍ من ذلك.

قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب من طريق الواقدي قال: وفي سنة ثمان قدم عمرو بن العاص مسلماً على رسول الله ﷺ، قد أسلم عند النجاشي، وقيل: إنه لم يأتِ من أرض الحبشة إلا معتقداً للإسلام، وذلك أن النجاشي قال له: يا عمرو، كيف يعزب عنك أمر ابن عمك؟ فوالله إنه لرسول الله حقاً، قال عمرو: أنت تقول ذلك؟ قال النجاشي: أي والله، فأطعني، فخرج من عنده مهاجراً إلى النبي ﷺ.

وذكر الحافظ ابن حجر عن الزبير بن بكّار والواقدي بسندين لهما أن إسلامه ـ عمرو بن العاص كان على يد النجاشي وهو بأرض الحبشة.

ثم قال الحافظ: وأخرج البغوي بسندٍ جيد عن عمرو بن إسحاق أحد التابعين، قال: استأذن جعفر بن أبي طالب النبي ﷺ في التوجه إلى الحبشة، فأذن له، قال عمرو بن إسحق: فحدثني عمرو بن العاص قال: لما رأيت مكانه ـ أي مكان جعفر ـ قلت: لأستقلن لهذا ولأصحابه، فذكر قصتهم مع النجاشي، قال عمرو: فلقيت جعفراً خالياً ـ فأسلمت، وبلغ ذلك أصحابي فعنّفوني وسلبوني كل شيء، فذهبت إلى جعفر، فذهب معي إلى النجاشي فردّوا علي كل شيء أخذوه.

وقد أبى النجاشي رد المهاجرين، وازدادهم بعد الحوار إكراماً، وأظهر إيمانه برسالة محمد ﷺ، وكتب إلى رسول الله ﷺ بذلك، وزوجه السيدة أم

حبيبة أم المؤمنين وأمهرها عنه، وأرسلها إليه مكرمة مع أخص قومها، وآمن معه من بطارقته وقومه من هدى الله قلبه للإيمان، كما فصلناه في مناسبته.

ولمّا مات أبو طالب عقب خروجه وقومه من حصار الشِعْب ـ وكان حفياً بالنبي ﷺ، وسنداً لحمايته، ورد الاعتداء عليه، والدفاع عن دعوته، وقد قام معه في ذلك بنو هاشم والمطّلب حمية وعصبية قومية ـ اشتد عليه ﷺ الأمر، وتعاظم الخطر، وكان أصحابه رضوان الله عليهم قد كثروا، وازدادت قريش في عتوها وقسوتها وأخذت عليهم مسالك الخروج من مكة، واشتدت في اضطهادها لهم، فشكى بعض المستضعفين إليه ﷺ ما يلقونه من عتو وفجور طواغيت قريش، وجاءت محنة الطائف بشراستها وأسوائها فطمَّ البلاء، واستشرى الخطر على الدعوة والقائمين على صراطها، وعاد ذلك يشغل رسول الله ﷺ عن متابعة نشر دعوته في المواسم وهي أعظم مجتمعات العرب، تفد إليها وفودهم، ويتخذون من أسواقها متجولاتهم.

وكانت هذه المحن والشدائد تزيد في عزيمة رسول الله ﷺ قوة، وتزيده إيماناً برسالة نفسه التي تستهدف إخراج الحياة من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة، فليدأب داعياً إلى الله، وليمض مبلّغاً رسالة ربه، وخرج كما كان يخرج إلى مضارب القبائل، لا يلقى شريف قوم إلاّ دعاه إلى الإيمان وعرض عليه الإسلام وتلا عليه القرآن، وإذا ببارقة من يثرب تضيء أفق مكة المظلم، وتتم بيعات الأنصار بيعة إثر بيعة وعهداً إثر عهد، وختمت ببيعة (فتح الفتوح)، بيعة السبعين من البهاليل الخزرجيين وإخوانهم الأوسيين أنصار الله وكتائب الفتح المبين، فقويت عزيمة رسول الله ﷺ بهذه البيعة التي كانت نقطة تحول في سير الدعوة، وانفرجت ضوائقه ﷺ، وتنفَّس أصحابه تنفس الروح والأمل وأُري رسول الله ﷺ دار هجرته وهجرة أصحابه رمزاً ومثلاً، لا يحدد مكاناً، ولا يعينّ بلداً إلا بالوصف العام الذي لا يوصد باب المشاركة، ففي الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: «رأيت أني مهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهْلِي إلى اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب».

وعند البيهقي من حديث صهيب قال ﷺ: «رأيت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرّتين، فإما أن تكون هَجَر أو يثرب» قال العلماء: أُري ﷺ دار هجرته بصفة تجمع بين المدينة وغيرها، ثم أري الصفة المختصة بالمدينة فتعينت.

واستأذنه أصحابه في الهجرة إلى إخوانهم أنصار الله، فأذن لهم لينقل مجال الدعوة إلى موقعها من القوة في مسيرة التاريخ.

فليس الفرار من قسوة التعذيب وفظاعة الاضطهاد هو العامل الأول في هجرة أصحاب محمد ﷺ، وليس الهرب من فادح البلاء وعتوِّ الفجور هو الدافع الوحيد على مفارقة الظلم والظالمين إلى حيثما وجد الأمن والاستقرار لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة.

لأن الفرار والهرب إذا استقاما أن يكونا عاملاً من عوامل الهجرة ودافعاً من دوافعها بالنسبة إلى بعض المستضعفين فلا يستقيم في شرعة الإنصاف ومعرفة أحوال المهاجرين ومكانهم في قومهم بالنسبة للكثرة منهم، وهم من صفوة شباب قريش وأبناء أشرافها أن يكونا هما العامل الأساسي على الهجرة، ومن يمعن النظر في أسماء وأنساب المهاجرين وما احتف بهجرتهم وخروجهم يعلم حق العلم أن نشر الدعوة في جو بعيد عن المضايقات الفاجرة كان عاملاً قوياً من العوامل التي دخلت في حساب المهاجرين في هجرتيهم إلى الحبشة، وهجرتهم إلى المدينة المنورة، والالتحام مع إخوتهم الأنصار في وحدة إيمانية تنطلق في إطارها الدعوة إلى الله قوية قاهرة، تدفع عن نفسها ولا تهاجم من لا يتعرض لها في طريقها، معوقاً لها عن سيرها.

وإذا تحقق في هذه الهجرة منتأى عن الاضطهاد وشدة الإيذاء، وتحقق بها الأمن والاستقرار فلا ضير على أصحاب محمد ﷺ أن يدخل ذلك في قصدهم، لأن بقاءهم بمكة تحت وطأة الصبر المرير، والاحتمال الوجيع، وقد وجدوا مجالاً فسيحاً للحركة الآمنة في سبيل نشر دعوة الحق والنور، التي آمنوا بها واحتضنوها بين جوانحهم تعريض لأنفسهم للهلكة وتعريض للدعوة

إلى التجمد والوقوف بها عن التقدم، أو على الأقل يكون فيه تسليم لزمام نشـر الدعوة وتبليغ الرسالة إلى من لم يكونوا سابقين إليها. ولا شك أن الصحابة كانوا على أتم العلم أن انحيازهم إلى إخوانهم الأنصار يزيد في قوة تناصرهم ولا سيما وهم يعلمون أن النبي ﷺ سيهاجر إلى دار هجرته التي أريها في منامه بوحي من الله ـ كما هو صريح حديث الصحيحين ـ وليس من المعقول أن يتخلّفوا عن رسول الله ﷺ ويستسلموا للبقاء في دار أجمع أهلها على ظلمهم وتعذيبهم ليفتنوهم عن دينهم إن استطاعوا.

ومن ثَمّ توافت عزائمهم قوية ماضية على أن يكونوا في شرف استقبال رسول الله ﷺ يوم يحل بدار هجرته آمناً مطاعاً إلى جانب إخوانهم أنصار الله وأنصار الرسول، فخرجوا يتسللون لواذاً، وتركوا وراءهم مكة، وطواغيتها ينعق في طرقاتها بوم اليأس فوق رؤوس الملأ من الطغاة والمستكبرين، إلى أن يجيء وعد الله بالفتح المبين، فتح مكة، وتطهيرها من رجس الوثنية البليدة، والشرك الأثيم على أيدي هؤلاء الصفوة الذين أخرجتهم مكة منها ليعودوا إليها ظافرين منتصرين، يهدون بالحق، ويدعون إلى الله ورسالته.

* * *

تصوير الهجرة على حقيقتها ينأى بها عن الفرار والهرب من شدة الإيذاء

وإذا كان هذا هو التصوير الحق الذي يؤيده الواقع، وتعزّزه الوقائع، وتنصره الأحداث في بيان عوامل هجرة الصحابة رضوان الله عليهم أولاً وآخراً، وبيان دوافعها التي توافقت على تحقيقها، فكانت أعظم آية من آيات الله التي نصر بها هذا الدين القيِّم، وفتح بها الطريق لنشر دعوته في الخافقين، ورفع لواءه في آفاق العالمين، على أيدي هؤلاء الذين تركوا ديارهم وأعز ما فيها من مال وولد في سبيل إعلاء كلمة الله، كلمة الحق والتوحيد لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ـ فإن هجرة النبي ﷺ أحق أن تكون هجرة فتح للدعوة وانطلاق بالرسالة إلى أرجاء الأرض في حرية فكرية لا تكره أحداً على قبولها والإيمان بها.

فالذين يترخَّصون من ذوي البلاهة والغفلة المنتسبين إلى زمرة أهل العلم في ذكر الفرار عاملاً من عوامل هجرته ﷺ من مكة المشرفة إلى المدينة

المنورة، ودافعاً من دوافعها أولئك لم يقدِّروا مواقف النضال المرير، والكفاح الوجيع التي وقفها رسول الله ﷺ طول مدة إقامته بمكة، لا يخشى جبروت ملأ مكة، ولا يخاف بطش طواغيتها ـ حق قدرها، وهم بهذه البلاهة والغفلة يفتحون منافذ التقوّل بالباطل على رسول الله ﷺ من أعداء الإسلام وملاحدة الاستشراق والتفلسف القديم والحديث، لأن هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة كانت اللبنة الأولى في بناء صرح الإسلام على دعائم القوة الموجهة لمسيرة الحياة على مدى سير التاريخ البشري في مساره الجديد الذي اختطت رسالة الإسلام جادته للنـاس في مشارق الأرض ومغاربها، وأقامت لهم على جوانبها منائر الهداية ومعالمها لإرشاد السالكين أن يضلّوا طريقهم في مهايع الحياة ومسالكها، بعد إذ جاءهم الهدى، واستنارت لهم معالم الطريق.

فهذه الهجرة النبوية كانت نقطة التحول في مشارع الحياة الإنسانية التي ضلّت طريقها، وانشعب بها السير في متاثه من مضلات الفكر، وانحراف العقل، وحجب إشراق الروح، ومضت الإنسانية قبل رسالة الإسلام ضالّة تائهة، لا تعرف من أين جاءت وإلى أين تسير لأنها فقدت ذاكرتها وفقدت إدراكها، وعميت عليها جوادّ المسالك، واشتبهت في نظرها أعلام الهداية، فأبلست تتعاورها رياح الريب والأوهام، وتهـزها هـزاهِـز التخـرصات والتخيلات، وانطفأ في يدها مصباح الحقيقة، ولم يبق في كنانتها إلا أزلام من بقايا كهانات النافثات في العقد، كلما نظرت إليها أوغلت في الضلال، وهي تهوي إلى هاوية الضياع.

جاءت رسالة الإسلام لتعرف الإنسان بنفسه وتحرره من التعبد لغير الله

وجاءت رسالة الإسلام لتنقذ الإنسانية من ضلالها، وتخرجها من منحدرها الذي هوت إليه، لتقف بها في مصابّ أنوار الهداية، وهي تنسكب من أشعة شمس الرسالة الخاتمة، منطلقة إلى أرجاء الحياة، وفي يدها مصباح الكلمة الإلّهية مشرقاً، تنادي السارحين في مسارح الرِعْية والسوام: ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران آية (٦٤).

وهذا النداء الموحّد لكلمة الإنسانية في إطار كلمة الله هو النداء الذي أذّنت به رسالة الإسلام لتحرير الإنسانية من بوائق كل عبودية لغير الله تعالى، ولم يبق وراءه إلا عبودية المخلوق للخالق وحده، لأن العبودية لله الخالق المبدع شرف فوق كل شرف، والعبودية لغير الله مهانة أرذل من كل مهانة.

ورسالة الإسلام إنما جاءت لتعلم الإنسان أنه إنسان، وإذا عرف الإنسان نفسه عرف بهذه المعرفة ربه وخالقه، لأن مرتبة الإنسانية في مراتب المخلوقية أعز وأعظم مراتب العبودية للخالق عز شأنه، وهي بهذا أجل مراتب التعزز المتحرر من خنوع العبودية لمن ما في الكون من مخلوق صامت أو ناطق، وهذه المعرفة منتهى آفاق العلم والمعرفة في هذا الوجود.

أفكان محمد ﷺ وهو رسول الله ﷺ بهذه الرسالة الخاتمة لرسالات السماء الخالدة على الأرض بخلود الإنسانية على ظهرها، المَحْبُو بالاصطفاء لها، المكلف نشرها بين العالمين، وتبليغها للناس كافة أينما كانوا، وحيثما بلغهم بلاغها، بلاغاً بينا، يجعل ليل الحياة كنهارها، إشراقاً ونوراً، وهدى ورحمة، وعدلاً وإحساناً، وإخاء ومحبة، ومساواة ومواساة - يخشى في تبليغ هذه الرسالة شيئاً مما يدخل في إطار المخلوقية؟ والخشية لون من ألوان العبودية في رسالة محمد ﷺ التي لم يوصف هذا النبي الكريم والرسول الأمين بأفضل، ولا أرفع، ولا أجل، ولا أعظم من أنه عبدالله ورسوله، ولمّا شرفه في مقام أقرب القرب لم يقل له «خليلي وحبيبي» وهو خليله وحبيبه، ولكنه قال عز شأنه: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾.

فالعبودية في رسالة الإسلام التي جاء محمد ﷺ هي تعبير عن الخضوع المستسلم الذي لا يملك فيه العبد مع سيده (لا) ولا (نعم)، وإنما يملك في تحقيق العبودية على أكمل وجودها أن يسلم وجهه لله الذي خلقه وهداه للعيش في حياته.

فمن المحال الذي لا يعرفه الوجود أن يجعل محمد رسول الله ﷺ شيئاً من الخشية في تبليغ رسالته والقيام بموجبات هذا التبليغ لأحد أو شيء غير

محمد ﷺ عرف حقيقة عبوديته لله في شرف إنسانيته فلم يخش في تبليغ رسالاته أحداً إلّا الله

الله تعالى الذي اجتباه لها على علم منه سبحانه وتعالى، لأن محمداً ﷺ عرف حقيقة عبوديته في شرف إنسانيته، وبهذه المعرفة عرف ربه وخالقه في قهره فوق خلقه، وجلال كبريائه وعظمة خالقيته، والخالقية أخص نعوت الكمال الإلٰهي الحق، فكان له عبداً وللحياة سيداً.

وقد نزل الله عليه في الكتاب مفخرة المفاخر التي زكاه بها فيما زكى إخوانه المرسلين، وهو ﷺ صاحب المقام المحمود في هذه التزكية المنيفة، فقال له متلطفاً به في أشد مضايق مواقفه في رسالته: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له * سنة الله في الذين خَلَوا من قَبْلُ وكان أمر الله قدراً مقدوراً * الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾[1].

وهذا نص قاطع في أن شأن رسل الله إلى الخلق في تبليغ رسالات الله أنه تعالى جبلهم على أرفع درجات الشجاعة وقوة اليقين والثبات، فلا يخشون أحداً إلا الله، ولا يرهبون قوة إلا قوة الله، لأنه هو القوي على الحقيقة، الذي يقهر بجبروته كل قوة خلقها.

أما العوارض البشرية التي لا تتعلق بتبليغ الرسالة، وإنما تكون بمقتضى التكوين الخلقي والغرائز البشرية، فهذا ما لا يدخل في خصائص رسل الله ﷺ التي سموا بها فوق طبائع الناس، فلا حرج من وقوع الخشية منهم صلوات الله عليهم وسلامه إذا كانت من هذا القبيل، ثم يتداركهم الله بعواصمه، فيذيب من صدورهم خشية غيره كائناً ما كان، ولا يبقي فيها إلا خشية الله، ولعل خشيتهم لغير الله التي تعتريهم بمقتضى طبائعهم البشرية يكون وقوعها منهم من باب التأسِّي بهم، لئلا تخرج الحياة عن نواميس التكوين البشري بما فيه من الغرائز وآثارها.

والقرآن الكريم حكى عن بعض أكابرهم شيئاً من هذا النحو الذين لا يضيرهم في مهمتهم العظمى، ففي قصة إبراهيم خليل الله عليه السلام إذ جاءته رسل الله من الملائكة بالبشرى، ولم يكن لديه ـ في أول الأمر ـ علم

---

(١) سورة الأحزاب آيتا (٣٨، ٣٩).

بأنهم رسل من الله إذ جاؤوا في صور بشرية تأنيساً له ولزوجه سارة، يقول الله تعالى: ﴿وأوجس منهم خيفة، قالوا: لا تخف﴾[1]. وفي قصة موسى كليم الله مع السحرة يقول عز شأنه: ﴿فأوجس في نفسه خيفةً موسى، قلنا: لا تخف إنك أنت الأعلى﴾[2].

مرد الخشية في قصة زيد بن حارثة مكونات الطبيعة البشرية وغرائزها

فإذا جاء في حق سيد المرسلين محمد ﷺ، في قصة مولاه وحبه زيد ابن حارثة مع زوجه السيدة النبيلة زينب بنت جحش رضي الله عنها، التي شرفت بعد هذه القصة بأشرف مقامات القرب من رسول الله ﷺ، فكانت أماً للمؤمنين بزواجه ﷺ منها بعد مولاه وحِبّه وضعاً للأمور في مواضعها ـ: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾[3] في صدر الآية نفسها التي جاء فيها الثناء على رسل الله، في تبليغ الرسالة وأنهم لا يخشون أحداً إلا الله، فهو من قبيل ما يعرض للطبائع البشرية، بمقتضى تكوينها مع ملاحظة حكمة التأسِّي به ﷺ، لأن هذه الخشية التي تلطف الله تعالى فنبَّه إليها نبيه وحبيبه عليه الصلاة والسلام لم تكن لها علاقة بتبليغ الرسالة من قريب أو بعيد، وإنما هي خشية مردها إلى ما يعتري الطبيعة البشرية التي من شأنها أن تنفر من قالة السوء، وأن تخشى التقوّل عليها بالباطل وقول الزور، فلم يكن مرد هذه الخشية عند رسول الله ﷺ رهبة شيء يحول بينه وبين تبليغ رسالته، على ما فيها من تسفيه أحلام المستكبرين، وإنما كانت تهيبا لما يتوقع من آثار أسبابها من الإشاعات الكاذبة والإرجاف بالأباطيل التي قد تؤثر على بعض ضعفاء الإيمان، أو تقف عقبة في سبيل تبليغ الرسالة، فيستغلها الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، من المنافقين الذين ملأ صدورهم الكفر الحقود، وهم إذْ ذاك متوافرون في المجتمع الإسلامي، يتربصون بالنبي ﷺ وبرسالته وأصحابه نُهَز التقوّل الكذوب والافتراء المختلق والعرف الجاهلي بما فيه من مفاسد وشرور مترسخ في أنفس الجاهليين، متشبث بقلوبهم لا يفارقها ولا يريم عنها.

---

(١) سورة هود آية (٧٠).

(٢) سورة طه آيتا (٦٧ ـ ٦٨).

(٣) سورة الأحزاب آية (٣٧).

وهذا العرف بأباطيله وشروره ومفاسده كان يجعل من الدعيّ ابنا، ويعطيه خصائص البنوة الحقيقية في أمور تجر على المجتمع من الشرور والأسواء ما لم تؤمن مغباته وعواقبه على حياة الأمة في حاضرها ومستقبلها.

تطهير المجتمع المسلم من رجس مفسدة اجتماعية لا يتحقق إلاّ بعزيمة محمد ﷺ

وقد كان من أظهر مفاسد هذا العرف الباطل التعاير بتزوج الرجل زوجة دعيِّه إذا طلّقها الدعي باعتقاد أن الدعي ابن حقيقي، فإذا أراد الله تعالى أن يبطل هذا العرف الفاسد المفسد، لم يكن ثمة من يتحمل ثقل هذا الإبطال أقوى إرادة وأمضى عزماً، وأعظم نفساً، وأطهر ذيلاً، وأبعد من التهمة سوى رسول الله ﷺ؛ لأنه ﷺ هو الأسوة المتأسَّى به في امتثال تطبيق الأحكام الشرعية، وهو ﷺ القدوة التي تجري على سنَنها أمته، وهو ﷺ مهبط الخطاب الإلٓهي في جميع الأحكام.

فمن هنا كان ﷺ هو المختار لتصحيح أباطيل الجاهلية ومفاسدها، تطبيقاً في واقع الحياة، فقيل له: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ - بنعمة الإيمان والإسلام وكفالتك إياه وتحببه إليك، ﴿وأنعمت عليه﴾ بالعتق والحرية والرعاية وإحسان التربية والاختصاص بك، فكان حِبَّك ومولاك، ولم يكن ابنا لك ولدته من صلبك - وهو يعرض عليك ثقل الحياة الزوجية في بيته مع زوجه، وما يلقى من مرارة في عشرته معها، ويشاورك مستأذناً في مفارقتها بعد يأس منه في حسن الموافقة، فتقول له متلطفاً: ﴿أمسك عليك زوجك واتّق الله﴾ لأنك منبع التلطف والإحسان، تأبى عليك نفسك الزاكية، وتأبى عليك مكارم أخلاقك أن تشير عليه بفصم عرى ما عقد الله بينه وبين زوجه من وشائج كان من حقها أن يظللها الود والسكون، وهما منك في القرب الودود بمكانهما الذي لهما عندك، ولم يكن هناك قط أمر من الله لك بتطليقها منه، وإن تكن قد سبقت إليك لوائح إشاراتنا - وأنت لمّاح البصيرة، مشرق القريحة، لم تفتك لمحة البدء في هذه القصة، - إذْ قطعنا وشائج الجاهلية المزوَّرة بين الدعيّ ومتبنيه، بقولنا: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم، ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ وأوضحنا الحق الذي جعلناه نهجاً في واقع الحياة بتصحيح وضع هؤلاء الذين شذَّت بهم الحياة عن نهجها القويم، رفعاً لخسيسة ألصقت بهم إلصاقاً، فنفتهم عن آبائهم ونفت آباءهم عنهم، وباعدت بينهم، ثم وصلنا

قصة زيد مفخرة من أعظم مفاخر الإصلاح الاجتماعي في الإسلام

ما قطعه الجهل في الجاهلية بأعرافها الفاسدة المفسدة، وقلنا لك لتعلِّم أمتك: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ لأنه الحق، ولأنه سبيل الخير الذي يهدي إليه الله في شريعته المنّزلة لإقامة منار العدل ﴿فإن لم تعلموا آباءهم﴾ فلا ضيعة لهم عند الله ولا ضيعة لهم في مجتمع الإسلام، لأنهم إخوانكم في الدين الذي جمعت وشيجة الإيمان بين سلائله من جميع الأجناس والأوضاع ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ وهم بهذا الإخاء الإيماني مواليكم وأقرب الموالين لكم، يناصرونكم وتناصرونهم على البر والتقوى، فهم أحق بالإكرام والإحسان.

ولكنك في هذا التلطف مع حِبك ومولاك ومكفولك أخفيت في نفسك لوامح الإشارة فيما أنزلناه عليك من قطع وشائج الجاهلية الكاذبة التي عقدوها بأهوائهم وشهواتهم بين المتبنَّى ومتبنيه، وما يترتب على قطع تلك الوشائج الجاهلية المخترقة من إصلاح اجتماعي في مجتمع رسالتك، لتكون أنت مصدره ومنبعه، والمتأسِّى به فيه، في التطبيق الواقعي الذي يقوِّم أود الحياة وعوج مناهجها، بعد تقويض كل باطل يفسد على الناس عيشتهم ـ خشية تقوّلات أعدائك وتَكَذّبهم عليك وعلى ما جاءت به رسالتك من إصلاح يضع الأمور في مواضعها، ويرد الحقائق إلى أصولها.

توجيه إلهي لا يصادم الفطرة

وهذا الذي أخفيت من رشح لوامع الإشارة في نفسك أو توجست منه خيفة أن تكون حامل ثقله وأثقال أداء أمانته، وإن كان لا يمس تبليغك رسالتك، لأنه لم يكن أمراً أو نهياً تقدم الله به إليك فخالفته ـ وحاشاك أن تخالف لله تعالى أمراً أو نهياً ـ كما أنه لا يمس مكانتك من السمو في مكارم الأخلاق، لأنك لم تتبع فيه هوى، ولاخضعت فيه لرغبة هجست في نفسك، وإنما كان هذا الإخفاء عملاً من عوامل الفطرة البشرية، واستجابة لدواعي الطبيعة التي لا تدخل تحت حكم التكليف، لكنه قد يعوق إصلاحاً اجتماعياً، ويبطل عادة فاسدة، مستحكمة في أعراف الجاهليين، فيتأخر زمن إصلاحها نتيجة لتهيبك قالة السوء والبهتان التي قد يتقوّلها عليك أعداؤك وأعداء رسالتك ممن استعبدتهم عادات الفجور الجاهلي المتوارثة، فخشيت أكاذيبهم، وهم أذل وأعجز من أن ينالوا منك نيلاً بباطل يزوّرونه من عند

أنفسهم افتراء على الله ورسولهﷺ،وربك الذي أرسلك لتصلح الحياة، التي أفسدها فجور الوثنية والإلحاد، وتضع لها منهجاً في سلوكها الاجتماعي، يجعل منها منتجعاً لحضارة تزاوج بين حاجات الروح والمادة في ظل من العدالة التي تعطي كل ذي حق حقه، هو الذي تكفل بحمايتك من آثار تقوّلاتهم وأباطيلهم، فهو أحق أن تخشاه في كل ما يعرض لك من عوارض الحياة، كخشيتك له في كل ما يتعلق بتبليغ رسالتك، لأنك به قد سموت برسالتك على كل متعارف ومألوف، فلا تقفن بنفسك عند عوارض الطبيعة البشرية وليكن لك من قوة العزيمة الحازمة ومضائها ما تُخضع به دواعي الطبيعة لهمسات ما يلقى إليك من رشح الإشارات.

وقد كان هذا الإصلاح الاجتماعي، الذي لوحت به الإشارة بقطع وشائج الجاهلية في المتبنّى وردّ روابطه الإنسانية إلى أصولها الحقيقية - أولاً، ثم إلى الروابط الإيمانية ثانياً - من محكم تدبير الله لحكمة ما كان أحد يعلمها، مما جعل الله إنفاذه في قضاء غيبه وتطبيقه في واقع الحياة على يدي من حمل أمانة الرسالة الخاتمة، وتحمل أثقالها، حتى إذا ألفته الحياة ذابت أثقاله، وعاد الأمر فيه جدداً سوياً بِحِكَمِه وشريعة واجبة الامتثال بأحكامه وآدابه.

هكذا يجب أن يفهم المقصود مما أضيف إلى رسول الله ﷺ من خشيته للناس في قوله تعالى: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ منظوراً فيها إلى سياقها من القصة التي وردت في شأنها، ومنظوراً فيها إلى الجو الذي دارت فيه معالم القصة، وهي بهذه النظرة وهذا الاعتبار الذي يجب أن يعّول عليه، ليس فيه قط أن محمداً ﷺ خشي أحداً أو شيئاً من الخلق في تبليغ رسالته وأوامر ربه ونواهيه وأحكامه ونشريعاته، فأحجم عن التبليغ لهذه الخشية.

وهوﷺ قد بلغ رسالات ربه في أحرج الأوقات وأشد الأزمات وأقسى المواقف، بلغها يوم كان وحيداً، لا ناصر له من الخلق، ولا معين له من الناس، يوم بدأه الوحي مفاجئاً في حراء، وليس له في نفسه أدنى تطلُّع أو

مواقف تبليغ الرسالة كان فيها رسول الله ﷺ أشجع الناس

توقع أن يأتيه رسول ربه وأمين وحيه جبريل عليه السلام، ويقف منه ذلك الموقف الذي عجزت أقلام أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء عن تصوير مبلغ شدته، وما أخذ النبي ﷺ فيه من الدهش والفزع والرعب، وما ناله ﷺ فيه من تحول في طبيعته البشرية، وصلته بالملأ الأعلى؛ ممّا لم يكن له به عهد قبل ذلك حتى انتهى به الأمر في هذا اللقاء المفاجىء إلى أن يُطلب منه ما لم يكن قط في قدرته ولا في حسابه ولا خطر على باله، فيقال له: ﴿اقرأ﴾ وأنّى له أن يقرأ؟.

في سبيل تحقيق ما طلب منه وليس في استطاعته يلقى ما لقي من الشدائد التي كان يرى فيها الموت عياناً، وينفصم عنه الوحي وقد قرأ أول ما أنزله الله عليه في مطلع رسالته خمس آيات من سورة العلق، هُنَّ جماع رسالته، وذهب بها موقناً أنه رسول الله إلى الخلق كافة أحمرهم وأسودهم، إنسهم وجنهم.

ومضى ﷺ في تبليغ رسالته متحسساً راسخ اليقين، ثابت الجنان وحيداً، يحمل بين جنبيه عزيمة ماضية صادقة، لا يخشى أحداً ولا يتردد في سيره بدعوته ورسالته، فكان يدعو من الأقوام من يأنس فيه إدراكاً متميزاً، وعقلاً درّاكاً وقلباً مستعداً، لا يعم بدعوته، ولا يجم بها، وهو مستسر بها في دار الأرقم حتى تجمّع حوله فئة من ذوي الاستعداد الخاص لقبول دعوته، وسرى الهمس منهم إلى غيرهم فأقبل من أقبل واستجاب من اهتدى وكانوا كالقطر الرذاذ الذي يقدم الغيث الهتون.

وبلّغ ﷺ رسالات ربه لا يخشى أحداً أو شيئاً من الخلق يوم قال له وحي ربه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، فصعد على الصفا ونادى قومه الأقربين، يعم ويخص حتى اجتمعوا له فدعاهم إلى الله، وإلى توحيده، وأنبأهم أنه رسول الله إليهم خاصة وإلى الناس عامة، فبدره فاجرهم أبو لهب بأقبح القول، ثم انصرفوا عنه لا يخشاهم، ولا يخاف شيئاً يأتيه من قبلهم، ولم تَخُنْه شجاعته، ولافتَّ ذلك في عزيمته، ومضى قُدُماً يبلّغ رسالة ربه.

وبلّغ ﷺ رسالات ربه يوم أن نزل عليه الوحي بقول الله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فكان يدور على حِلَق الملأ من فجار الشرك وطواغيت الوثنية وهم في مجالسهم حول الكعبة يهجرون، وفيهم أفجر الفجار وأعدى أعداء دعوة الإسلام من أضراب أبي جهل، وابن أبي مُعَيط، وابني خلف، أبيّ وأمية، والأخنس بن شريق، يدعوهم إلى الله، ويبلّغهم رسالة ربه، لا يخشى أحداً منهم، ولا يخاف شيئاً من طغيانهم وفجورهم.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم أن ضرب على أبي جهل بابه، يأمره أن يقضي الإراشي حقّه الذي مَطَله به، فلم يبرح رسول الله ﷺ باب هذا الطاغية الظلوم حتى ذل له واستخذى أمامه، وقضى الرجلَ الغريبَ الذي مطله ظلماً حقّه كاملاً.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم أقسم الكذوب المتكذب لعين السماء والأرض أبو جهل ـ أعدى أعداء رسالة الإسلام، وأشدهم حقداً وأخبثهم حسداً لرسول الله ﷺ ـ أن يرضخ رأس محمد ﷺ إذا رآه ساجداً في ظل الكعبة، وجاء رسول الله ﷺ على عهده وعادته إلى المسجد، وتأمّم الكعبة المشرّفة، وأحرم للصلاة وقرأ القرآن، وركع وسجد، وجاء الكذوب المتكذب أبو جهل يحمل صخرة عظيمة ليلقيها على رسول الله ﷺ وهو ساجد ليقتله، فما التفت إليه رسول الله ﷺ، ولاقطع صلاته خوفاً من فتك هـذا الجبان المتكذّب، ولم يَرُعْ ملأ الفجور وهم ينظرون إلى أفجرهم منتظرين ماذا هو فاعل لتنفيذ وعيده، إلا وهو مهزوم يتقهقر مرعوباً مذعوراً، خزيان مخذولاً، يتّقي بيديه، تدور عيناه في وجهه كالذي يُغشى عليه من الموت، وقد نشف دمه في عروقه وأعصابه، وقام إليه ملأ الفجور دَهِشين مذهولين، يقولون في إشفاق متشمّت: مالك يا أبا الحكم، فلم يَحرْ أبو الجهل جواباً، وأكمل رسول الله ﷺ صلاته في هدوء لا يخشى إلا الله تعالى.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم قام أشقى ملأ الفجور عقبة بن أبي معيط مستجيباً لصرخة حاقدة تنفّس بها صدر أبي الجهل وهو يقول لملأ الفجور: من منكم يقوم إلى فرث وأقذار جذور بني فلان فيأتي بها ليلقيها على

ظهر محمد ـ وهو يصلي ـ فانبعث لعين القوم ابن أبي مُعَيط، وجاء بها وألقاها على ظهر رسول الله ﷺ، وهو ساجد، فلم يرفع ﷺ رأسه من سجوده، وظل ساجداً حتى جاء الخبرُ فاطمة بنت رسول ﷺ وهي طفلة، فأسرعت إلى أبيها ﷺ، وألقت عنه ما وضعه اللعين عقبة بن أبي معيط، ثم التفتت إلى ملأ الفجور فسبتهم سباً بلغ من نفوسهم، فخسئوا ولم يردوا عليها بشيء.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم أن أخبره عمه العباس بن عبد المطلب أنه سمع أبا جهل يقول: إن لله عليّ إن رأيت محمداً لأطأنّ على عنقه، قال العباس: فخرجت من المسجد إلى رسول الله ﷺ حتى دخلت عليه، فأخبرته بقول أبي جهل، فخرج رسول الله ﷺ غضبان حتى دخل المسجد، فعجل أن يدخل من الباب فاقتحم من الحائط، قال العباس: فقلت: هذا يوم شر نبشته، فدخل رسول الله ﷺ، فقرأ ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ حتى بلغ شأن أبي جهل ﴿إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾ فقال إنسان لأبي جهل: يا أبا الحكم، هذا محمد، . . . فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر السورة سجد.

فليتأمل أولو الألباب في هذا الموقف ليروا كيف كانت شجاعة محمد ﷺ في تبليغ رسالة ربه، وصدق اعتماده على الله، دون أن يخشى أحداً غيره تعالى وهو معرض للفتك به وقتله، فهو ﷺ يُبَلغه عمه العباس مشفقاً عليه، محذِّراً أن يناله مكروه من هذا الجوّاظ، غليظ الكبد، فيخرج ﷺ مغضباً مسرعاً لا يصبر حتى يدخل من الباب فيقتحم من الحائط، ليكشف خبيئة الجبن في هذا المتكذِّب الرعديد، وليواجه ملأ الفجور في عنفوان طغيانهم دون أن يخشى صولة تكذبهم، ويجابهم بما أنزل الله تعالى عليه ﷺ من آيات القرآن المجيد في وصف متكذبهم أبي جهل، ليزيد من حنقه ويقدم على تنفيذ ما قال إن استطاع ـ ولن يستطيع ـ وهو ﷺ يعلم ما انطوى عليه هذا اللعين من جبن وتكذب، وبلغ رسول الله ﷺ آخر السورة فسجد، وسجود رسول الله ﷺ سجود قرب وشهود، لا تبقى معه ذرة من التفات لغير مراقبة الله عز شأنه، ولا يمكن أن يمر بخاطره ﷺ خشية أحد أو شيء غير الله تعالى.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم أن كان يطوف بالبيت، ويده في يد أبي بكر وفي الحجر ثلاثة نفر جلوس، وهم أخبث ملأ قريش، عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، قال عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ وكان ثالث ثلاثة مع النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه ـ فمرّ رسول الله ﷺ فلمّا حازاهم أسمعوه بعض ما يكره، فعرف ذلك في وجه رسول الله ﷺ، قال عثمان: فدنوت حتى وسطته فكان بيني وبين أبي بكر، وأدخل أصابعه في أصابعي، حتى طفنا جميعاً، فلما حازاهم قال أبو جهل: والله لا نصالحك ما بل بحرٌ صوفة، وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا، فقال رسول الله ﷺ: «إني ذلك» ـ أي إني أنا الذي أنهى أن تعبدوا ما يعبد آباؤكم ـ ثم مضى رسول الله ﷺ، فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان في الشوط الرابع ناهضوه، ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه، قال عثمان رضي الله عنه: فدفعت في صدره، فوقع على أسته.

إيه ذا النورين، هذه واحدة بألف. ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبي مُعَيط، ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ، وهو واقف، ثم قال: «أما والله لا تنتهون حتى يحل بكم عقابه عاجلاً» قال عثمان رضي الله عنه: فوالله ما منهم رجل إلا أخذه أفكل، وهو يرتعد، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «بئس القوم أنتم لنبيكم» ثم انصرف إلى بيته فتبعناه خلفه، حتى انتهى إلى باب بيته ووقف على السدّة، ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «أبشروا فإن الله عز وجل مظهر دينه، ومتم كلمته، وناصر نبيه، إن هؤلاء الذين ترون ممّا يذبح الله بأيديكم عاجلاً» ثم انصرفنا إلى بيوتنا، قال عثمان رضـي الله عنه: فوالله لقد رأيتهم قد ذبحهم الله بأيدينا.

هذه قصة من واقع حياة رسول الله ﷺ، وهو يمضي قُدُماً في عزيمة أرسخ قوة من الأطواد الراسية الشامخة في تبليغ رسالة ربه، لا يخشى مخلوقاً، ولا يخاف غير الله تعالى، وهي قصة من واقع الحقد الذي أفعم صدور طواغيت الملأ من فجّار الوثنية في قريش، وهي في أبسط صورها تصف موقف أولئك الطغاة من رسول الله ﷺ وهم يضمرون الفتك به، وهو ﷺ لا

يباليهم، ولا يرفع لفجورهم وما يضمرون رأسه، يواجههم بشجاعة تذوب أمامها تَكَذّباتهم واستكبارهم وتنفُّجهم بالغرور.

فهو ﷺ يطوف بالبيت مع صاحبيه الصدِّيق وذي النورين رضي الله عنهما وطواغيت الملأ من قريش يجلسون في الحجر، فإذا مرّ بهم أسمعوه هُجرهم، وهو يعرض عنهم تكرماً، فإذا شعروا باستهانته بهم نهضوا يواثبونه، فيخذلهم الله خذلاناً يخزيهم، ويجرعهم مرارة القهر والهزيمة، ولم يتركهم رسول الله ﷺ حتى توعّدهم بنكال من الله يحل بهم عاجلاً، فتصيبهم الرعدة رهبة لوعيده، وينصرف ﷺ إلى بيته ويتبعه صاحباه الصديق وذو النورين، ليطمئنا على ألّا يعود الطغاة إلى ماأرادوا من الطغيان، فيقبل عليهما ﷺ بوجهه الأنور، يبشرهم بإظهار دين الله وإتمام كلمته ونصر نبيه ﷺ، وأن هؤلاء المستكبرين الذين يتعالون بالفجور مما يذبحهم الله بأيدي المؤمنين عاجلاً، وقد فعل الله تعالى وأنجز وعده لنبيه ﷺ، وذبح أعداءه وأعداء نبيه ﷺ بأيدي أحبّائه الذي استجابوا لله ولرسوله، فكانوا طلائع كتائب الجهاد في غزوة بدر التي ذبح فيها أولئك الطغاة بأيدي المجاهدين الصادقين، ومن نجا من بدر منهم قتل بعيدها صبراً، وكان أخذ فيها أسيراً، ذلك هو اللعين ابن أبي مُعَيط.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه وهو لا يخشى أحداً إلا الله، والمشركون في مكة إلبُ عليه متوافرون على عداوته والفتك به إن استطاعوا، يتواصون بذلك ويدبرون فيه ما شاء لهم المكر الخبيث والكيد العنيد، يوم أن اجتمع أشرافهم في الحِجْر فتذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا، وسبّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت فغمزوه ببعض القول، وعرف أثر ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ثم مضى في طوافه فغمزوه الثانية، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فوقف ﷺ، ثم قال: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد

جئتكم بالذبح» فأخذت القوم كلمته، فوجموا وأسكتوا أذلاء مبهوتين، حتى كأن على رأس كل رجل منهم طائراً واقع، وإن أشدهم فيه وصاةً قبل ذلك وتحريضاً عليه، ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، فيقول له: انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً.

فانصرف عنهم رسول الله ﷺ حتى كان الغد اجتمعوا في الحجر وقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه؟ فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا، وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم؟ فيقول رسول الله ﷺ في شجاعة تخر لها الجبال، وثقة بالله تعالى تهوي لها الكواكب: «نعم، أنا الذي أقول ذلك».

هكذا يجابههم لا يخشى أحداً إلا الله تعالى، وهم متمكنون منه محيطون به وحيداً بينهم، ليس منهم رجل إلا ودّ لو أنه فتك به وقتله، وأنَّى للباطل المزعزع مهما كَثُر جندُه وأنصارُه أن يقوم للحق الموطّد أقدامه في أعماق أرضِ الحقيقة رسوخاً وثباتاً؟

وبلّغ ﷺ رسالة ربه، لا يخشى أحداً إلا الله يوم أن تجمَّع ملأ قريش وطواغيتها، ومشوا إلى أبي طالب يشكون إليه ابن أخيه، وما يباديهم به من تسفيه أحلامهم وعيب دينهم، فيقول عمه وهو الذي نهض لحمايته والدفاع عنه، ما ظنه رسول الله ﷺ ضعفاً في عزيمة عمه، وتراجعاً عن موقفه منه، ويرد عليه رسول الله ﷺ بكلمته الخالدة التي تحمل من قوة الإرادة، ومضاء العزيمة، والاستهانة بكل وعيد، ومفارقة كل من لا يثبت في مجال الشجاعة، ما يدل دلالة قاطعة على أن محمداً ﷺ، وقد اجتباه الله تعالى لأعظم رسالاته لا يعتمد في تبليغ رسالة ربه على حماية مخلوق، ولا يخشى في سبيل تبليغها أحداً غير الله تعالى: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى ينفذه الله أو أهلك دونه».

أي قوة هذه التي أعطاها الله تعالى لمحمد ﷺ وقد اصطفاه لحمل أمانة أعظم رسالاته؟ وأية إرادة هذه التي أوتيها رسول الله ﷺ وهو يمضي في تبليغ

رسالة ربه لا يخشى أحداً إلا الله تعالى؟ وأية عزيمة قاهرة تلك التي ملأت قلب رسول الله ﷺ وهو يجابه حشود الشرك والوثنية شاكين إلى عمه، ويلمح في هذا العم الذي جعله الله ركيزة له يتكأ عليها إذا اشتدت عليه الأزمات، شيئاً من زعزعة العزيمة، فلا يبالي ذلك، بل يزيده قوة وعزماً في مضيه قدماً لتبليغ رسالة ربه.

وبلّغ رسول الله ﷺ رسالة ربه، لا يخشى أحداً إلا الله تعالى أيام أن كان يخرج من بيته وحيداً يعرض نفسه على القبائل في المواسم، يدعوهم إلى الله تعالى وتوحيده، ويدعوهم لمناصرته حتى يبلغ رسالة ربه، ووراءه عمه أبو لهب يتبعه أينما وجّه، يقول للناس: إنه كذا وكذا، سباً وشتماً لرسول الله ﷺ، وإنه يريد منكم أن تخلعوا آلهتكم وتعبدوا إلهاً واحداً، فلا يفت ذلك في عزيمته ﷺ، ويمضي إلى مضارب أشراف العرب ومحافلهم، لا يسمع بشريف قوم إلا جاءه ودعاه إلى الله وإلى نصرته، فيلقى من الإعراض وقبح الرد ما يلقى، وهو دائب لا يفتر، صابر لا يجزع، لا يخاف شيئاً من النوازل والأحداث، ولا يخشى أحداً إلا الله.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم محنة الطائف، وكانت من أشد المحن ذهب إليها وحيداً، واجتمع إلى أشرافها وساداتها فدعاهم إلى الله وعرض عليهم رسالته وقرأ عليهم القرآن، فكانوا من أشد الناس قسوة في الرد عليه، وأسوئهم معاملة، وهو ﷺ في أقل اعتبارات المروءة العربية ضيف عليهم في بلدهم وبيوتهم، ولكنه عاد منها يحمل أشد ما يحمل إنسان من آثار سوء اللقاء، وبشاعة المقابلة، وقسوة البلاء الذي قابله باللجوء إلى الله وحده والتضرع إليه في دعائه وهو مكروب إذ يقول: «اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدوٍّ ملكته أمري، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وبلّغ ﷺ رسالة ربه، وهو لا يخشى أحداً إلا الله يوم أصبح يخبر الناس وقد احتشدوا له أنه أُسْري به في ليلته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى ما فوق السموات السبع، إلى حيث سمع صريف أقلام قضاء الله تجري بأقداره في خلقه، ويحدِّثهم بأعاجيب ما شاهد في رحلته الإعجازية العظيمة، وبما رأى من آيات ربه الكبرى، غير مبالٍ ولا خائف من تكذيب الملأ وفجّار المشركين، وهم يومئذ تطفح صدورهم بأخبث ما تعرف الصدور من الشنآن، وتنزّ قلوبهم بأفجر ما تعرف قلوب الفجار من عداوة وبغضاء.

وكان عمه أبو طالب قد مات قبل الإسراء، وماتت زوجه، ومأنس حياته وزيرة الصدق له السيدة خديجة رضي الله عنها، وكان ﷺ يجد في عمه أبي طالب أقوى الحمية في حمايته والدفاع عنه، وكان ﷺ يجد في زوجه بَلْسَم المضايق النفسية التي تعتريه نتيجة لشدائد الأحداث، فتمسح بحنانها وعواطفها وصادق حبِّها ما عسى أن يكون قد علق بنفسه، وكانت وفاتها من أشد ما أحزنه ﷺ.

فإذا خلا جو مكة من وجودهما كان ذلك أشد سُعاراً لسطوة فجّار قريش، وكان في طبيعة الحياة عذراً مقبولاً أن يتريَّث ﷺ في مخاطراته بتبليغ دعوته بعزيمته التي كانت له قبل موت هذين الساعدين، ولكن تاريخ نبوته ﷺ، ومراحل رسالته لم ينقل عنه أنه استأنى أو تقاعس لحظة دون تبليغ رسالته ونشر دعوته في قوة وشجاعة لا يخشى أحداً إلا الله تعالى.

* * *

كذلك كانت مواقفه ﷺ في تبليغ رسالة ربه

هذه شواهد ومُثُل من مواقف رسول الله ﷺ في المرحلة المكية لتبليغ رسالة ربه، تصور ما كان يملأ صدره الطهور من قوة الثقة بالله تعالى، والاعتماد عليه وحده، وتفريده عز شأنه بالخشية منه، دون أن يكون لأحد من الخلق، أو شيء من الحوادث خطور بباله في جميع مواقفه منذ آذنه الله تعالى برسالته، وأمره بتبليغها في أول أمر بالإنذار فقال له: «يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر» وهذه المواقف المتسامية كانت تطبيقاً لمضمون

الاختصاص في أسلوب قوله تعالى: ﴿وربك فكبر﴾ أي لا تعظم ولا تتعاظم مخلوقاً قط غير ربك.

فقام ﷺ بما أمره به ربه، لم يفتر لحظة، ولا تأخر عن متقدم يتطلبه تبليغ الرسالة، مهما كانت الأزمات والشدائد والمضائق، والأحداث، لا يرهب أحداً من الخلق، ولا يخشى شيئاً من الأحداث، بل ما كان ﷺ يشهد قط في خطواته مبلِّغاً رسالة ربه إلا عظمة الله، وجلال قهره، وقوة جبروته، ممزوجة بنسائم رحمته، وإنعامه، ومحكم تدبيره.

وكان ﷺ في جميع مواقفه لتبليغ رسالة ربه - ومجابهته لأعدائها وأعدائه من طواغيت الشرك والوثنية على أشد وأقوى، وأبلغ وأعمق ما تكون المجابهة في شجاعة هادئة، لا تتهور قط، وحزم مصمم لا يتعالى قط، وعزم ماضٍ لا يتردد قط - معرِّضاً لما يريدون به من سوء وكيد ومكر، لا يتخفَّى ولا يداهن، وقد همُّوا بقتله والفتك به مراراً فلم ينالوا منه نيلاً، وظل ﷺ على ذلك الجد الدؤوب والصدق الصريح يبلِّغ رسالة ربه.

حتى إذا استيأس محمد ﷺ من بلده وقومه تطلع إلى آفاق مضيئة لدعوته ورسالته

حتى إذا استيأس من بلده - وهي أحب البلاد إليه - واستيأس من قومه - وكانوا أحق الناس بقبول دعوته، والإيمان برسالته - ساق الله له أنصاراً أشداء الشكيمة، أقوياء العزيمة، راسخي اليقين، وجعل له بلداً يأويه، ويأوي دعوته ويأوي أصحابه، يجدون فيه الأمن والاستقرار والمحبة والإخاء، والمواساة، والايثار، وأراه في منامه ذلك البلد مَهْجَراً له، ورأى في أهله حين بايعهم أنصاراً يبذلون في نصرته النفس والمال، لا يدخرون طاقة في سبيل الوفاء بما عاهدوا الله عليه في بيعتهم، ورأى فيهم كتائب جهاد مظفر، وأنضاء قتال مؤيد، فأذن لأصحابه أن يهاجروا إلى أولئك الأخوة أنصار الله وأنصار رسوله، فهاجروا حتى أوعبوا، وهاجر معهم صوت الدعوة جهيراً مجلجلاً، قوياً هادراً، علياً مدوياً، سروباً سرياً، دخل كل بيت من بيوت المدينة المنورة، وتسلل إلى كل خِدْر ممنع في بيوتها، وعلا كل ذروة من ذرا أطوادها، وتنادى بالتضحية والفداء في مجامعها وحشود أبطالها، وتداعى للجهاد في سبيلها، متطلِّعاً إلى آفاق السماء يتسمع إلى أمرها، مشرئباً إلى مقدم

النبي ﷺ ليقود سير الدعوة إلى الله وتوحيده في مسيرة التاريخ الجديدة التي يستضيء فيها بأنوار رسالة محمد ﷺ، مستهدياً في مداخل الحياة ومخارجها بهديها.

وأقام النبي ﷺ بمكة يرتقب الإذن له بالهجرة إلى البلد الذي اختاره الله له فوجدت فيه الدعوة الجو الرحيب لنشرها ومعه أصحابه، وأنصاره، مُمسكاً بزمام التاريخ لينطلق به في مسيرته إلى آفاق تحرير الإنسانية من عبوديتها لنفسها وعبوديتها للمادة الصمّاء، وإخلادها إلى الأرض في أنانية جوعاء، منهومة لا تشبع، ولا تريد أن تفارق الأرض، لأن التسفُّل طبيعة المادة، والعلو طبيعة الروح.

والإنسانية حينما تسفَّلت فعبدت نفسها، وعبدت المادة في أخس وأظلم صورها إنما صنعت ذلك جهلاً بالقِيَمَ الروحية العليا، قيم الإيمان بقيّوم السموات والأرض، وكفراً بقيم الإيمان بقوى الروح والقلب والعقل، وصدوفاً عن الحق والعدل، لأنها لم تجد القائد الذي يردّها إلى معرفة حقيقتها التي تكمن وراء المادة حتى تؤمن بهذه القيم العليا التي يقوم على دعائمها بناء الإصلاح الشامل للحياة المادية والروحية في رسالة الإسلام التي بُعث بها محمد ﷺ.

وجاء الإذن إلى رسول الله ﷺ بالهجرة دعاءً متضرعاً وتضرعاً داعياً، ليكون أساسُ هذه الهجرة هو البؤرة التي يشع منها نور الرسالة، عملاً روحياً بالقلب والفكر، يؤذن بضرورة الاعتصام بالله خالق الحياة ومسيّرها، وينبىء بضرورة صدق التوكل على ما لك أزمة الحياة ليوجهها إلى صراطه المستقيم، صراط رسالة محمدﷺ. وهذا تحقيق معنى قوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور﴾[1] ـ استشعاراً بسابق

---

(١) سورة الشورى آيتا (٥٢ ـ ٥٣).

فضله في توليه أمر دعوة الهدى والنور، وتعهده نبيه وخاتم رسله ﷺ بالتربية والموالاة والرعاية.

ولذلك جعلت الوسيلة في هذا الدعاء بالهجرة اسم (الرب) تعالى، فقال له آمراً بإخلاص التوجه إلى ربوبيته سائلاً متضرعاً: ﴿وقل رب أدخلني مُدخَل صِدْق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾[1].

قال السيوطي في (الدر المنثور): أخرج أحمد والترمذي وصححه ـ وابن جرير وابن المنذر، والطبراني، والحاكم ـ وصححه ـ وابن مردويه، وأبو نُعَيم، والبيهقي معاً في الدلائل والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله تعالى: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾.

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وقل ربِّ أدخلني مدخل صدق﴾ الآية: أخرجه من مكة مخرج صدق، وأدخله المدينة مدخل صدق، ثم قال قتادة: وعلم نبي الله ﷺ أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله سلطاناً نصيراً لكتاب الله تعالى وحدوده وفرائضه، وإقامة كتاب الله تعالى، فإن السلطان عزة من الله تعالى، جعلها بين عباده، ولولا ذلك لغار بعضهم على بعض، وأكل شديدهم ضعيفهم.

وقال أبو حيان في (البحر) عن قتادة في تفسير (سلطاناً نصيراً) قال: ملكاً عزيزاً تنصرني به على كل من ناوأني.

كان لا بدّ من الهجرة بعد تحجر قلوب قريش وملئها

فإذا هاجر رسول الله ﷺ مفارقاً مكة إلى المدينة بعد أن استيأس من بلده واستجابة قومه لدعوته، وهو يدعوهم إلى رسالة ربه ليخرجهم بها من الظلمات إلى النور، ويضع في أيديهم زمام قيادة الحياة، ويعقد لهم لواء سيادتها، فأعماهم الجهل والغرور والاستكبار، والعتو والعناد، فلم يروا نور

(١) سورة الإسراء آية (٨١).

هذه الرسالة، ولم يعقلوا حديثها، ولم يفقهوا آيات كتابها تُتلى عليهم، يتواصون فيما بينهم ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوا فيه لعلكم تغلبون﴾[1] فإذا غلبوا على سماعه قالوا جهالة وعناداً وعتواً في الكفر، وفجوراً في البأو والتعالي، يستنزلون سخط الله عليهم وانتقامه منهم: ﴿اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم﴾.

ولكن وجود محمد ﷺ بينهم كان أماناً لهم من نزول ما يستحقونه من بأس الله وبطشه، ونزل بهذا الأمان الوحي من الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾[2]، فلم يبق أمام رسول الله ﷺ إلا مفارقتهم والخروج عنهم، ولم يبق لرسول الله ﷺ ذرة من أمل في استجابتهم للهداية، ولابد للرسالة الإلّهية أن تمضي في سيرها إلى أرجاء الحياة هادية داعية، لا تقف عند بلد أو قوم أو جيل لأنها رسالة عامة شاملة، فلتمض في سيرها، وليمضِ بها حامل أمانتها رسولها ومبلّغ كلمتها إلى حيث تجد مهادها ومحاضنها، لتشب وتنهض، ثم تعود قوية قادرة إلى مهدها الأول لتجده مطهراً من رجس الطاغوت، ولتجد فيه ما خبّأت لها الأصلاب والأرحام من ودائع البطولة وكتائب الفتح المبين، وحَمَلة ألوية الدعوة وتبليغ الرسالة، لتضمهم إلى أحضانها وتوجههم إلى الآفاق داعين مجاهدين.

أيكون التطلع إلى آفاق الأمل لنشر الدعوة فراراً؟

إذا هاجر رسول الله ﷺ بعد أن سُدَّت مكة في وجه دعوته جميع أبواب الأمل، وبعد أن هاجر أصحابه بأمره وإذنه هجرة مستوعبة لم تخلف وراءها بمكة إلا عاجزاً محبوساً أو ضعيفاً مفتوناً في دينه، لم تكن هجرته ﷺ في شرعة العدل والعقل فراراً من مواجهة ملأ الفجور وطواغيت مكة، فطالما واجههم ﷺ في أشد المواقف، فكانوا هم الخزايا الأخسرين، ولا كانت هجرته ﷺ هرباً من تدبير خبيث، وكيد ماكر.

لقد تجمعوا له فخذلهم الله خذلاناً أذل عنجهيتهم إذلالاً لم تقم لهم بعده قائمة، ولا كانت هجرته خوفاً من قتله أو الفتك به أو اغتياله، فقد

(١) سورة فصلت آية (٢٦).
(٢) سورة الأنفال آية (٣٣).

ترصّدوه على باب بيته يأويهم الظلام بسواده ومعهم أسلحتهم، فخرج عليهم وأرغم أنوفهم بما ألقى على رؤوسهم من الرغـام وهم ينظرون ويسمعون.

روى ابن إسحاق أن أبا جهل قال للقوم وهم مجتمعون على باب بيت النبي ﷺ يرصدونه: إن محمداً - ﷺ - يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها. وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: «نعم أنا أقولُ ذلك وأنت أحدهم».

كانت الهجرة النبوية تحويلاً لمجرى التاريخ

وإنما كانت هجرته ﷺ تحويلاً لمجرى الأحداث إلى مصبها من محيط التاريخ الذي تغيرت مسيرته في الحياة بهذه الهجرة المباركة، وقد كانت السطر الأول في تجديد تاريخ الإنسانية، وتوجيهها إلى حياة جديدة تقوم على توحيد الله، ونشر راية العدل بين الناس.

فحديث الفرار والهرب في تصوير الهجرة النبوية حديث دخيل مدخول على حياة أشرف من حمل أمانة أشرف وأكمل رسالة إلٓهية لهداية العالمين، رسالة وجهت التاريخ وجهة جديدة، أقامت معالم الحياة في طريق سيرها على دعائم من الخير والحق والهدى والعدل، لم يكن للحياة عهد بها من قبل أن تأتيها هذه الرسالة لتنقذها من براثن الشرور والفساد المادي، والمَحْـل الروحي، والجدب الفكري، والجمود العقلي، وتولجها موالـج الإصلاح والإشراق الروحي، والازدهار الفكري، والتحرر العقلي، لتقيم بنور العلم والمعرفة منائر العدل والمواساة في ظلٍ من الإخاء والمحبة وحسن المودة.

* * *

مواقف محمد ﷺ في تبليغ رسالة ربه كانت أروع تعبير عن تفرد إيمانه برسالة نفسه

هذه المواقف القوية الحازمة التي ضربناها مثلاً لقوة الشخصية التي امتاز بها النبي ﷺ في تبليغه رسالة ربه، معتمداً عليه، لا يخشى أحداً سواه؛ إنما آثرنا ذكرها (هنا) مجملة بعد ذكرها وذكر غيرها من المواقف الفريدة في مناسباتها مفصّلة لأنها تصور مدى رسوخ إيمانه ﷺ برسالة نفسه، وعمق

يقينه النفسي بهذا الإيمان الذي كان على طول مدى حياته ﷺ نبياً ورسولاً هو الدعامة الصلبة التي تتحطم على قوة تماسكها أقوى العزائم، كما كان هذا الإيمان هو المدد الثرّ الثريّ الذي يبعث الحيوية الناهضة في دفع الرسالة قُدُماً لتتابع سيرها دون توقف أو فتور.

وكان هذا الإيمان أيضاً هو القوة الدافعة لحركة سير الرسالة على أيدي الصحابة بعد أن توحّدت قواهم في عزائم لا تفلّ، وإرادات لا تتردد، ولأنها تذكّر الذين ينسون في زحمة الأحداث وتتابعها ما عسى أن يكون ذهب عنهم من بواعث الواقع وما يستهدف من آثارها، حتى لا يبقى في صدور الذين أوتوا العلم شيء من رشح بعض الأقلام والألسنة التي إذا تحدّثت عن هجرة الرسول ﷺ من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة كان حديثها تلقياً حرفياً من روايات لا تستقيم مع موازين النقد العلمي، وتلقفاً من الظواهر التي قد يقتضيها القصد إلى التأسي والاقتداء في حياة الأمة أفراداً وجماعات.

مظاهر التحرز في رحلة الهجرة كانت استجابة للطبيعة البشرية للتأسي

فليس في هجرته ﷺ فرار، ولا هرب، ولا خشية من أحد سوى الله تعالى، والاختباء في الغار والتحرز في السير، والسُّرى تحت جنح الظلام، وتنكب الجوادّ إلى مسالك غير معبدة ولا مطروقة مما وقع لركب هجرة رسول الله ﷺ لم يكن منه ﷺ توارياً لخشيته على نفسه من أحد، ولا كان ذلك خوفاً من حادث يتوقعه، وإنما كان ذلك وقوفاً مع ما ينتظر أمته من شدائد الدعوة، وأخطار الجهاد في سبيل تبليغ الرسالة للتأسي به فيما لا يخصه من نوازع البشرية.

والأمة ليس لها من خصائصه النبوية ما يرفع عنها عوامل الطبائع البشرية، وتأثرات الغرائز الإنسانية التي يجب التحرز منها لمن لم يكن له حق العصمة، فالخوف والتحرز في أفراد الأمة وجماعاتها أثر من آثار الطبائع البشرية التي خُلق عليها الإنسان، والتي لا يمكنه التخلص منها إلا بعصمة من الله، والعصمة من خصائص النبوة.

وفي قول الله عز شأنه تصويراً لموقف النبي ﷺ مع صاحبه الصدِّيق أبي

قول الله ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ مفتاح لمعضلات التحرز في رحلة الهجرة

بكر رضي الله عنه ـ وهو أفضل رجل في أمة الإسلام، وأوثقهم إيماناً، وأرسخهم يقيناً، وأعظمهم اعتماداً على الله تعالى، وأصدقهم توكلاً عليه ـ : «لا تحزن إن الله معنا» ما يفتح مغاليق هذا الموقف، فالنبي ﷺ كان إذْ ذاك في موقف النبوة وعصمتها، ومحض الرسالة وخصائصها، وهذا مشهد من مشاهد اليقين الذي تبطل معه الأسباب والمسببات، وإذا بطلت الأسباب والمسببات انمَّحت عن مرآة النفس آثارها، وأبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه كان في مشهد الإيمان والتبعية، لم يخرج عن طبيعته البشرية، فتوجس ـ إذ الأخطار محيطة بالغار ـ خيفة، واهتز كيانه البشري حتى قال: لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا، فقال له رسول الله ﷺ ليثبِّته، وينقله من حالة تأثرات الطبيعة البشرية إلى شيء من مشهد التسامي على الأسباب والمسببات في شهود: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما» ويحجب عنه توجس الخوف مما يحيط بهذا التصوير الشهودي المحفوف بالعصمة المستغرق لبشرية رسول الله ﷺ بأنوار المعية الخاصة.

ولهذا جاء التنزيل الحكيم بأسلوب الإعجاز حاكياً لوحي الإلهام بأسلوب النبوة في توافق متقارب، أو تقارب متوافق بالنسبة لموقف الصديق رضي الله عنه، فتنزلت عليه السكينة، وسما إلى مشهد اليقين الصدِّيقي، وأمدّه الله بقوة شهود تأييد الله تعالى لنبيه ﷺ بجنود من عالم الغيب، لا ترى إلا بخصائص النبوة، وهنا يتطاير حشد الأعداء عن فم الغار تطاير الهباء في الهواء، ويخرج النور من الغار إلى أفق السماء، ويبدأ الركب المبارك سيره محفوفاً برعاية الله، لا يخشى أحداً في الدنيا غير الله، ميمماً طيبة الطيبة، تاركاً وراءه مكة الحبيبة إلى عودة بعد اشتياق واستعداد، مودعاً لها في حنان المهد، فيقول ﷺ: «والله إني لأخرج منك، وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله، وأكرمها على الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت منك».

وأخرج الإمام أحمد والترمذي ـ وصححه ـ عن عبدالله بن عدي رأيت رسول الله ﷺ على الحزورة ـ سوق كانت بمكة ـ فقال: «والله إنك لخير أرض

الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت» وعند الترمذي من حديث ابن عباس يرفعه إلى رسول الله ﷺ: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أنّ قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك».

عوامل الهجرة النبوية ودوافعها
كانت سياسية واجتماعية واقتصادية

وبالتأمل فيما ذكرنا يظهر بوضوح لا يخالجه شك أن عوامل الهجرة النبوية ودوافعها التي اعتلجت في نفس النبي ﷺ حتى صارت موجبة محتمة إنما هي عوامل ترتبط أشد الارتباط بنشر الدعوة وتبليغ الرسالة. هي عوامل سياسية ترجع إلى البحث عن جو متفتح لسير الرسالة، تجد فيه متنفساً فسيحاً لمنطلقها العالمي، لكي تحقق أهدافها الإصلاحية روحياً ومادياً.

وإلى جانب العوامل السياسية هناك عوامل اجتماعية تتعلق بتنمية المجتمع الإسلامي الذي تنسَّم نسائم الوجود في مِهاد الدعوة الجديدة، ومحاضن الرسالة الخالدة، والحفاظ على عناصر تكوين هذا المجتمع في إطار من الضوابط القوية المنتزعة من طبيعة الدعوة التي نهد في آفاقها.

وإلى جانب العوامل السياسية والاجتماعية عوامل اقتصادية تصون تركيب المجتمع الوليد حتى يشب ويقوى، وتشتد قناته ويبلغ رشده في الحياة العملية الحرة لإقامة بناء اقتصادي، يقوم على أساس ما جاءت به الرسالة الجديدة، من حب للعمل ودأب عليه، وعدل في المعاملة، وبذل من أجل نشر الدعوة، وتوفير حياة كريمة للأفراد والجماعات، وإعداد الوسائل الصالحة لتوجيه المجتمع توجيهاً متعاوناً متواسياً.

تجمعت هذه العوامل كلها أمام النبي ﷺ بأسبابها ومسبباتها، وما عسى أن يكون لها من آثار في حالة عدم إعطائها الوزن الحقيقي لمقدماتها ونتائجها، وفي حالة تقديرها تقديراً يدفع بها إلى أن تكون عملاً من أعمال

تمكين الدعوة من متابعة سيرها بقوة جديدة، لم تكن تتوافر لها وهي في مكة تعاني من العقبات القاسية، والمعوِّقات الظالمة التي يقيمها في طريق الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته إلى عباده الحقدُ العنيد والعناد الكفور.

كانت هذه العوامل تأخذ من نفس النبي ﷺ مكاناً جعله يفكر فيها وفيما يجب أن تقابل به من تحرك إيجابي سريع، وكانت تلازمه في حركاته وسكناته، وغدوه ورواحه بعد أن استيأس من استجابة مكة لدعوته وإيمان ملئها برسالته الذين سدوا دونها أبواب الرجاء والأمل، وكان تفكيره ﷺ يدور حول تمكنه من القيام بواجب تبليغ رسالته ونشر دعوتـه، وتبليغ رسالته ﷺ هو أساس وجوده نبياً ورسولاً.

ولم يطل به التفكير ﷺ حتى لمعت له بوارق النجاح والتوفيق في آفاق الوحي بالهجرة، فهمّ عازماً، وصمم حازماً، ولم يبق لديه ليخطو منفّذاً إلا انتظار كلمة الله يتلقّاها إذناً مرشداً، ليعلم إلى أين يتجه، وجاءه الوحي رؤيا، إذْ رأى في منامه دار هجرته بوصفها، فذهب ظنه إلى ما يعرف من بلاد ينطبق عليها ما رأى من الوصف، ولم يقطع ببلد منها إذ لم تُعين في الرؤيا.

حكمة إبهام المهجر في الرؤيا الأولى وذكريات عزيزات في مكة

ولعل من حكمة هذا الإبهام في بدء الأمر إنما كان لإعطائه ﷺ فرصة من الزمن يروِّض فيها نفسه الكريمة ليستعد نفسياً لمفارقة وطنه وبلده التي ولد فيها، ونهد في مهادها، وشبَّ في أفنائها، بين لِداته وأترابه، ناشئاً في قومه وأهله، وعشيرته، وفيها شرّفه الله بنبوته، ثم بعثه فيها رسولاً إلى العالمين، وفيها تلقَّى أول كلمة من الوحي القرآني، حيث أنزل عليه ﴿اقرأ باسم ربك﴾ وهو أرفع مراتب الوحي، وفيها كافح وناضل في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته، وفيها رَبّى نخبة السابقين إلى الإيمان برسالته وتصديقه في دعوته، وهم الصفوة الذين لا تدانيهم في الفضل وسؤدد الشرف فئة من البشر قط، وفيها منازل الهدى والنور، وفيها البيت المحرم، بيت أبويه إبراهيم واسماعيل عليهما السلام، وفيها زمزم سقيا إسماعيل وهزمة جبريل وثلج أمه الكبرى هاجر أم إسماعيل، وفيها آفاق التجلي وشهود بعض آيات

ربه الكبرى، إذ رأى جبريل عليه السلام على صورته التي هي له، يوم خلقه الله عليها، وفيها تزوج من سيدة نساء العالمين، وزيرة الصدق، الطاهرة المطهّرة، خديجة رضي الله عنها، وفيها رزق منها وُلْده بنين وبنات، إلا إبراهيم عليهم السلام، وفيها، وفيها من ذكريات وآيات وتجليات، كلها حبيب إلى قلبه، يشتد عليه أن يفارقها دون أن يروِّض نفسه على الرضا بهذا الفراق الحزين.

لا بد من الهجرة لقيادة المجتمع المسلم في مسيرة دعوته وتبليغ رسالته

ونظر ﷺ فرأى أن كل ما يحبب إليه مكة ويرغبه في البقاء فيها والإقامة في ربوعها على ما فيه من بلاغ في الحب والرضا لا يوازن بروحة أو غدوة في سبيل نشر دعوته، دعوة الحق والخير، بل لا يوازن بخطوة في سبيل تبليغ كلمة من وحي رسالته، رسالة التوحيد والهدى والبر والندى والخير.

وقد وقفت مكة بملئها وسفهائها في سبيله، ومنعته من نشر دعوته، وهجرها أصحابه بإذنه وأمر ربه، فخلت خاوية على آفاقها إلا من شرِّير كفور، أو سفيه جهول، وبقي ﷺ وحيداً بين هؤلاء الشرِّيرين والسفهاء، أو كالوحيد لقلة من بقي فيها من أصحابه، عاجزاً عن اللحاق بإخوانه في دار هجرتهم.

أفيبقى رسول الله ﷺ في مكة لا يجد من يسمع له، معرّضاً رسالة ربه للتوقف في مثواها الآمن الأمين، حيث هاجرت مع أصحابه إلى آفاق التحرك الإيجابي وهي لا تجد رسولها، وحامل أمانة وحيها، وصاحب زمامها، وقائد مسيرتها، ومتولِّي أمرها ومتنزل وحيها، ومهبط آياتها، يقودها ويَهْدي بهديها؟ ويعلي كلمتها.

هذا ما لا يكون ولن يكون أبداً، ولا بد مما ليس منه بد، لا بد من الهجرة ليؤدي واجب رسالته، ويقودها في مسيرتها إلى غايتها التي كتبها الله لها على يديه في عالم الغيب ومجرى المقادير.

وتطلّع رسول الله ﷺ إلى السماء، يقلِّب وجهه متضرعاً إلى ربه أن يجعل من ظنه يقيناً، فيريه دار هجرته معينة، ليقدم إليها ميمِّماً شطرها، واستجاب الله عز شأنه لتضرعات رسوله ﷺ، وأراه (يثرب) دار هجرته،

ودار رسالته ودعوته، وأنزل عليه آية الدعاء والتضرع ﴿وقل ربِّ أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق﴾ ومدخل الصدق هو مدخل النصر والظفر، ومخرج الصدق هو مخرج الرضا والعودة الظافرة بالفتح المبين، فالله تعالى كما آنسه ﷺ في مدخل صدقه ودار هجرته، وأخبره أنها دار أمن واستقرار ونصر، آنسه في مخرج صدقه، فأرضاه بمفارقة بلده الحبيبة إليه، أكرمه في مخرج صدقه، وجعله مبارك العودة منصوراً.

العوامل السياسية
في دوافع الهجرة النبوية

أشعة الهداية في توالي بيعات الأنصار

والعوامل السياسية التي كانت من دوافع الهجرة تبدأ منذ أول لحظة لقي فيها رسول الله ﷺ أول يثربي، هو سويد بن الصامت الأوسي حكيم (يثرب) ومتحنفها، ومعه صحيفة فيها من حكمة لقمان جمل ومقاطع، يحرص عليها ويتفهمها، وكان لقاء رسول الله ﷺ لسويد بن الصامت إثر عودته ﷺ من الطائف وهو مثقل النفس، مكروب الفؤاد، فتصدّى له رسول الله ﷺ ودعاه إلى الإسلام وتلا عليه القرآن، فرد سويد رداً مقارباً لم يدخل بـه في ساحة الإسلام، ولم يبعد عنها، ولكنه حام حولها.

ورجع سويد بن الصامت إلى بلده وقومه يحمل معه حادث لقاء رسول الله ﷺ وما جرى له معه من حديث عن الإسلام ودعوته والقرآن الحكيم وآياته، وكان هذا أول صوت يصل إلى أسماع اليثربيين عن محمد ﷺ ورسالته ودعوته إلى الله.

ثم تتابع لقاء رسول الله ﷺ للوافدين من يثرب في موسم إثر موسم، وكان اللقاء الذي أعقب لقاء سويد بن الصامت لقاء وفد أبي الحَيْسر الأوسي، وفيه إياس بن معاذ وهو شاب عقول ذكي، سوي الفطرة، وكان هذا الوفد إنما قدم ليعقد مع قريش حلفاً عسكرياً يتقوون به على حرب إخوانهم الخزرجيين، فتصدّى لهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن، فبدر القوم بالكلام إياس بن معاذ، وكان أحدثهم سناً، فقال يجيب عن دعوة رسول الله ﷺ موجهاً الكلام إلى قومه: هذا والله خير مما جئنا إليه، فحصبه أبو الحيسر فأسكته، ولكن إياساً سكت على مستكنة في

ضميره، تلك هي قناعته بما سمع من رسول الله ﷺ عن الإسلام ورسالته والقرآن وهدايته، مما جعل قومه، يقولون عنه بعد موته إنه مات مسلماً.

ومهما يكن من أمر إياس بن معاذ فإنه كان أعظم أثراً في ذكر الإسلام ودعوته ورسالته ورسوله ﷺ في بلده (يثرب) من سويد بن الصامت الذي عاجله الموت في معارك اليثربيين.

وسويد بن الصامت وإياس بن معاذ كلاهما أوسي، وبين الأوس والخزرج تنافس في المفاخر، وسمعت الخزرج صوت دعوة الإسلام يهمس به الأوسيون فيما بينهم همساً لا يكاد يبين، وكان الخزرجيون على ذَرْو من العلم المتناثر إليهم من أفواه أهل الكتاب من اليهود مواليهم وجيرانهم ومساكنيهم في بلدهم عن نبي يبعث قد أظل الناس زمانه، وكان اليهود يستفتحون برسول الله ﷺ على اليثربيين.

ودار الزمن دورته، وحضر الموسم، وقدم إليه فيمن قدم من وفود العرب، وفد (يثرب) وكانوا ستة من الخزرج، لقيهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا سراعاً، وبايعوا رسول الله ﷺ وواعدوه الموسم المقبل، وعادوا إلى بلدهم (يثرب) مؤمنين مصدِّقين، دعاة إلى الإسلام، هداة إلى رسالته، وكان هذا أول صوت يجهر بدعوة الإسلام والتحدث عن رسول الله ﷺ، وتسامع أهل (يثرب) بالدين الجديد، وتحدّث الناس فيما بينهم عنه، وفشا ذكر الإسلام في بيوتهم ومجتمعاتهم.

فلما جاء الموسم القابل قدم وفد يثرب اثنا عشر رجلاً، لا يريدون إلا الإسلام، ولا يقصدون إلا لقاء رسول الله ﷺ، وكان ﷺ يتطلع إلى معرفة آثار بيعته لوفد الستة الذين بايعوه عام أول، وواعدوه الموسم المقبل، ليعلم ما كان منه في بلده وقومه.

ولقي رسول الله ﷺ وفد الخزرجيين الاثني عشر رجلاً، وكان فيهم عدد من الستة الذين سبق لهم أن بايعوه وواعدوه، فلما رآهم استنار وجهه سروراً، وعرض على الوفد الإسلام فبايعوه وبايعهم، وأخذ عليهم

وأعطاهم، وعادوا إلى بلدهم وقومهم دعاة إلى الله، هداة إلى دينه، حتى جعلوا من بلدهم حصناً للإسلام، ومن قومهم كتائب لحماية الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة رسول الله ﷺ، وأقبل الناس على الإسلام يؤمنون به ويعتنقونه، حتى لم يبق بيت من بيوت (يثرب) أوسها وخزرجها إلا دخله نور الإسلام فأضاء جوانبه.

وأقبل الموسم ببشائره وجاءت البيعة الكبرى (فتح الفتوح) سبعون رجلاً لم يُقدمهم الموسم إلا بيعة رسول الله ﷺ، فبايعوه وعاهدوه على أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم ونساءهم وذراريهم إذا قدم عليهم، فبايعهم ﷺ على أنه حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم، وهم منه وهو منهم.

وعادوا إلى بلدهم يترقبون وصول رسول الله ﷺ إليهم في لهفة وشوق واستعداد من القوة المرهبة والعزائم القاهرة والإرادة الحازمة.

بهذا أصبحت (يثرب) تعج بالمجتمع الإسلامي المركب في وحدته البشرية من عنصري المهاجرين والأنصار، وهم باجتماعهم ووحدتهم يؤلفون قوة أرهبت مكة لأن مكة بطواغيتها وعتو ملئها، وفجور كفرها لم تكن تحسب لقوة في جزيرة العرب حساباً في مناوأتها ومواقفتها في حرب مثل ما كانت تحسب لأبطال (يثرب) الذين راضتهم الحروب وراضوها على أزماتها وشدائدها وتضحياتها، فما كان أبغض لمكة وملئها من حرب قوم من هؤلاء اليثربيين.

كيف وقد امتزج بهم الصفوة السابقون الأولون من المهاجرين، وأكثرهم من أبناء بيوتات قريش وشبابها وفتيانها الأبطال الذين لا ينامون على ضيم، ولا يسكتون على ضيعة مستسلمين لذل أو هوان.

مكانة يثرب في الاستقرار والثراء أجلّ من مكانة مكة فيهما

ويثرب هي البلد الذي يسامي مكة في شمال الجزيرة العربية في الاستقرار والثروة ودواعيها من تجارة وصناعة وزراعة، بل إن يثرب تفوق مكة وتزيد عليها في ذلك كله.

أما الاستقرار، فهو ذاتي في يثرب، لأنها بلد زراعي أصيل، والزراعة

هي الجاذبية الأرضية، تشد من يتخذها عملاً له إلى الأرض، يحرث ويحرك ويقلب، ويسقي ويشذّب، ويسمد، وينقي، ثم يحصد ويجذ، ويدرس ويصنف، ويأخذ ويعطي، ثم يعود كما بدأ، لا يفرغ حتى يعود يعمل ما كان قد عمل.

وأما الثروة فإذا لم تكن الزراعة كافية لتأثيل الثراء وجمع المال، ففي التجارة بما يخرج من الزراعة، وثمراتها منتج لتكوين الثروة، وتجارة يثرب محلية وخارجية لها أسواقها الداخلية، ومضارباتها الخارجية، وفيها اليهود سلاطين المال وأرباب الحيل في جمعه من أي سبيل، يملكون زمام التجارة، ويلعبون بالأسواق وأسعار ما يحتاج إليه الناس، ولا يزالون يتحكمون في مصائر الاقتصاد العالمي بما لهم من خبرة في مجال التجارة والمراباة.

وقد كان بينهم وبين جميع عرب يثرب بحكم الجوار والتعامل صلات تجارية قوية، فأخذ اليثربيون من خبرتهم ما وسّعوا به أعمالهم التجارية إلى جانب أعمالهم الزراعية.

ولليهود في (يثرب) صناعات وفيهم صنّاع، ولا سيما صناعة صياغة الذهب والفضة، وكانوا يتعاملون مع جيرانهم في البلد، والصناعةُ كالزراعة لصيقة بالأرض، فهي من عوامل الاستقرار.

الاستقرار في مكة موسمي

أما مكة فالاستقرار المالي فيها عارض موسمي ديني، وتجارتها محدودة خارجية أكثر منها داخلية، لأنها تقوم على المضاربة في أضيق مجال، وتقوم على رحلتيها صيفاً وشتاء إلى الشام ثم إلى اليمن، وأسواقها إنما تعمر بالشعر والخطب، والفخر والمنافرة، وبضاعتها التجارية إنما ترد إليها من الخارج، وهي لما في جلبها إليها من المشقة وقلة الربح قليلة نادرة، وقد تكثر فيها تجارة البهائم والأنعام، وما يخرج منها من ألبان وجلود وأصواف وأوبار.

ومكة عديمة الزراعة والصناعة، لا يعرف لها فيهما شأن يذكر، ومن ثَمَّ كانت ثرواتها محصورة محدودة، تتداولها أيد قليلة، تتحكم في مجتمعها الذي يسوده الفقر والبؤس، وهي تنتظر مواسمها الدينية الوثنية بلهفة المتحرق الصديان، وفي هذه المواسم كانت القوافل واللطائم ترد إليها محملة بالزيوت

والحبوب والبر والزبيب والأفاويه وما شاكل ذلك من الأطعمة وما يتصل بها.

ولذلك كان من أفخر مفاخرها إطعام الطعام وسقي الماء، لأن مجتمعها كان أحوج إلى أن يأكل ويشرب ويلبس، وهو مجتمع جاهلي بأوسع ما تحمل الجهالة من معنى الجهل الذي لا يلم صاحبه بعارفة من علم فطري أو مكتسب، ومن معنى الجهل الذي ليس لصاحبه ذرة من حلم، فإذا ندّ فيهم حليم، أو ظهر بينهم من له دراية بشيء من علم تجريبي متوارث تمدّحوا بذلك وعدّوه أفخر المفاخر.

مكة وكر الوثنية المستغلة

ومكة بعد هذا وذاك وكر الوثنية العاتية والشرك العنيد في الجاهلية كلها، وقد أعرضت مدبرة عن دعوة توحيد الله تعالى، بل انتهضت إلى مقاومتها فطاردتها مطاردة عنيفة عاتية، واضطهدت معتنقيها، وآذت رسولها، لأنها خشيت أن تهدم هذه الدعوة التوحيدية مجدها الوثني، وتقوض عزها الجاهلي، وتزيل سلطانها المادي الذي يستمد طغيانه من الوثنية وفجور الكفر، والذي يستعبدون به الأحرار من الضعفاء والفقراء.

الهجرة من مكة بعد اليأس من استجابتها سياسة محكمة

أفلا يكون إذاً من حسن السياسة ومحكم التدبير، وواجب التكليف في تبليغ الرسالة، ونشر دعوة الحق أن يهاجر النبي ﷺ وقد فتح الله تعالى أمامه آفاق الهجرة من هذه القرية الظالم أهلها إلى بلد يتوافر فيه الاستقرار والأمن له ولأصحابه ولدعوته، بل تتوافر فيه القلوب المخلصة في إيمانها، والبطولة المجاهدة والعقول المستنيرة، والثروة الباذلة، والأيدي المنفقة، والقوة الرادعة المرهبة والمحبة المؤثرة، والوفاء الصدوق، بعد أن أوصدت مكة أمامه وأمام دعوته ورسالته باب كل أمل على مدى ثلاثة عشر عاماً كاملة، قضاها ﷺ بين أهلها نبياً ورسولاً ـ وهم أعرف الناس بصدقه وأمانته وسمو مكارم أخلاقه، يغاديهم فيها ويراوحهم داعياً إلى الله، مرشداً ناصحاً، حفياً بهم هادياً، حريصاً عليهم، يرغبهم في ثواب الله تارة وينذرهم بأسه وبطشه تارة أخرى، يعظهم ويرشدهم إلى آفاق العزّة والسؤدد، يؤذونه أشد الأذى فيعفو عنهم ويصفح، ويسيئون إليه أقبح الإساءة فيغفر لهم إساءتهم ويدعو لهم

بالهداية، ويسخرون منه فيصبر ويتسامح معهم ويرفق بهم، ويمكرون به ويسفهون عليه، ويأتمرون بقتله والفتك به فلا يبالي أن يواجههم بدعوتهم إلى الله، باذلاً نفسه في سبيل إنقاذهم من عذاب الله.

بلى، إن هجرة محمد ﷺ حينئذ كانت من ألزم الأمور، وأشد الضرورات التي تقضي بها السياسة الحكيمة في متابعة سير الدعوة وتبليغ الرسالة حيثما وجدت القلوب المستعدة لتقبلها والإيمان بها، وها هم أولاء أنصاره الذين بايعوه على حمايته وحماية رسالته، الذين تبوؤا دار الهجرة ودار الإيمان من قبل أن ينزل بهم إخوانهم المهاجرون قد أخلصوا له الحب، وأحبوا أصحابه المهاجرين حبهم لأنفسهم بل أشد من حبهم أنفسهم، شاركوهم في أموالهم، وآثروهم على أنفسهم ولو كانوا هم أحوج إلى ما آثروهم به.

قيادة المجتمع المسلم الجديد في دار هجرته توجب الهجرة النبوية

ومما يستوجب هجرة النبي ﷺ مع هذه الصورة الموجبة لهجرته ﷺ حاجة هذا المجتمع الجديد الذي وحّدت بين عناصره الدينية عقيدتهُ التوحيدية ورسوخ إيمانه ـ إلى قيادته الحكيمة لسياسته في حياته الجديدة، وحل مشاكله ومراقبة سيره، وتعهده في تربيته وسلوكه الاجتماعي، ليكون صورة حية تطبيقية في واقع الحياة لشرائع الإسلام وآدابه وأخلاقياته ونظمه الاجتماعية التي ترتكز على العدل الرحيم والمواساة الأخوية. لأن هذا المجتمع في تركيبه البشري ـ بما في هذا التركيب من اختلاف في التفكير واختلاف في النظر إلى الحياة، من وجوهها المختلفة ـ صورة للمجتمع الذي يتفق ويختلف، وقد يشتد فيه الاختلاف فيؤدي إلى مشكلات اجتماعية يجب أن تجد حلّها في سرعة وصبر، كما برهنت أيام المستقبل على ذلك، فيما حدث بين المهاجرين والأنصار من أحداث كادت ـ لولا سرعة تدخل النبي ﷺ ـ تؤدي إلى عواقب وخيمة، وهذه الأحداث برهان قاطع على وجوب أن القيادة يجب أن تكون دائماً في مرأى العين، ومسمع السمع، لتوجّه وترشد، وتنصح وتسدِّد، وتهدي وتوفِّق وتعالج وتحسم.

وقيادة النبي ﷺ لمجتمع الإسلام ليست قيادة عسكرية ولا قيادة

سياسية وإنما هي قيادة نبوية، تعتمد على توجيه الله تعالى لنبيه ﷺ وتسديده وتوفيقه بما يوحيه إليه، يقول الله تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾[1] فهي قيادة لا تقبل ردّ ما يقضي به ﷺ، ولا تقبل التوقف في التسليم به، كما قال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلِّموا تسليماً﴾[2] وهي قيادة لا تقبل التقدم عليه ﷺ في قول أو فعل كما قال تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله﴾[3].

ومن ثَمَّ كان وجود رسول الله ﷺ على رأس مجتمع الإسلام في حياته كلها تحقيقاً لوضع رسالته ﷺ موضعها من التطبيق العملي لشرائعها وأحكامها وآدابها وسياستها ونظمها الاجتماعية، واستكمالاً لتلقِّي آياتها، وتبياناً لمعاني ما أنزل إليه منها.

وليس في حياة المجتمع الإسلامي ـ ما دام القرآن الكريم سيّال التنزل ـ لحظة يمكنه فيها أن يستغني عن قائده ورسوله ﷺ، الذي تجعله رسالته أن يكون على أتم المعرفة والعلم بما يجري في حياة هذا المجتمع، ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بهجرته ﷺ من مكة التي خوت أرجاؤها من أصحابه إلى المدينة التي جعلها الله دار هجرته، ومستقر دعوته، وحصن مجتمعه الجديد المسلم.

---

(١) سورة النساء آية (١٠٥).
(٢) سورة النساء آية (٦٥).
(٣) أول سورة الحجرات.

العوامل الاجتماعية
في دوافع الهجرة النبوية

خصائص القيادة الحكيمة الناجحة في توجيه مجتمعها

أما العوامل الاجتماعية التي كانت إلى جانب العوامل السياسية من دوافع الهجرة النبوية فتتجلَّى في حاجة هذا المجتمع الإسلامي الجديد في تركيبه الاجتماعي إلى القائد المهيمن بسلطانه الحكيم، وتـدبيره العليم بأحوال المجتمع، الحاسم في قضائه وتوجيهه، السياسي المحنَّك، قاطع القضاء في سرعة حل مشاكل مجتمعه، البصير بمكامن انفراج عُقَد الأزمات، الحليم الذي لا تستفزه معضلات الأحداث، ولا يحيد به الغضب عن سداد التفكير، الشجاع الذي يجابه النوازل بكفائها دفعاً، الجسور الذي لا ينكل عند ملاقاة الأحداث، الصبور الذي يقابل شدائد الأزمات بالفكرة الصائبة التي تفك عقدها في عزيمة حازمة، الموجه لحياة المجتمع في ثبات ورسوخ يقين، المسدَّد بالوحي الإلٓهي الذي يقيم لمعالم الهداية على طريق سير رسالته في مسارب الحياة وآفاق الكون.

ذلكم هو محمد رسول الله ﷺ، المصطفى لتحمل أمانة أكمل رسالة إلٓهية ختمت بها رسالات السماء، المكلّف تبليغها إلى الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها، القوي الأمين على قيادة مجتمعه، القابض عـلى زمام رسالته، الآخذ بناصيتها في سيرها ليوائم بينها وبين مجتمعها الجديد في استقراره وطرائق عيشه وحياته وموقفه من سير الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وموقفه من أعداء الدعوة الذين أخرجوها وأخرجوا معتنقيها من ديارهم وأموالهم ظلماً وعَـدْواً، وموقفهم من أعـدائهم الجدد في وطنهم الجديد، ممن انطووا على قلوب مفعمة بالحقد، مبطنة بالحسد، أولئك هم

اليهود لعنة الله على الأرض، وشراذم صنائعهم المنافقون.

اليهود في المدينة شوكة حادّة في ظهر المجتمع المسلم

واليهود في (يثرب) مهجر الرسالة ورسولها والمؤمنين بها أصحاب ثراء وأموال مؤثلة وتجارات مربية، وزروع منتشرة، وقلاع محصنة وحصون محفظة، وقصور متعالية، وأطم مؤسسة، وعلم موروث، وكتب منزلة على أنبيائهم، وشروح وتفاسير لهذه الكتب، حرِّفت من نصوصها، وبدلت من آياتها، وزيد فيها، وانتقص منها، كانوا يتعالون بهذا العلم المشوب بالجهل على جيرانهم ومساكنيهم من عرب (يثرب) الذين كانوا يُكْبرونهم بهذا العلم، ويأتمون بهم في كثير من أفكارهم في طرائق الحياة.

المنافقون من ربائب اليهود في خبثهم

أما شراذم المنافقين فكانوا فئة من اليثربيين الذين بخعت رسالة الإسلام أطماعهم، وجدعت أنوف طموحهم وآمالهم، فجعلوا من أنفسهم أحلاساً لليهود، يذلونهم ويتحكمون في مصائرهم، ويأتمرون بأوامرهم، ويحاكونهم في خبائث أخلاقهم من الغدر وسوء المكر، أظهروا الإسلام ذلة وتقية، وأبطنوا الكفر فجوراً وبغياً، ويكيدون للإسلام وأهله، ويمكرون بالنبي ﷺ، ويقيمون العراقيل أمام دعوته، وهم في بيوت المسلمين ومساجدهم ومجتمعاتهم متدسسون، يرجفون بالإفك والفِرَى يستمعون إلى أحاديثهم فيحرفون ما يسمعون، ويخترقون من الأكاذيب وقول الزور ما يبلبلون به الأفكار والخواطر، ويقعون في أعراض المسلمين، ويشيعون السوء والفحش والأباطيل، ويسعون في الأرض فساداً، ويحاولون بالنمائم إفساد علائق الإخاء والمودة بين المسلمين، ذئاب في أهب أناس، أحرق النفاق أكبادهم، وأذلَّ سلطانُ الإسلام وقهرُه أعناقهم، فمشوا في المجتمع الإسلامي جراثيم شر وبوائق إفساد ﴿هم العدو فاحذرهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾[1].

مجتمع بغير قائد حكيم لا يستطيع تحقيق أهدافه

هذا المجتمع الجديد في تركيبه البشري والفكري والاجتماعي إذا لم يجد قائده ومعلّمه ومربِّيه أمامه، يسوسه ويسدده، ويوجهه ويرشده، ويشاركه حركاته، وسكناته، ويكون قدوته في حياته، ونظام مسيرته مع

(١) سورة المنافقون آية (٤).

موجبات رسالته، ويتلقى منه آيات ربه، تشريعاً وأدباً وحكمة وسلوكاً وتربية تطبيقية عملية في واقع الحياة وأحداثها ـ كيف يمكن أن يسير برسالة الله، يبلِّغها إلى الخلق؟ وكيف يمكنه أن يقوم بموجبات الدعوة إلى الله تعالى؟ وكيف يمكنه أن يقيم للناس منائر الهداية في طريق سير الرسالة؟ وكيف يمكنه أن ينصب لهم معالم الحق والعدل حتى لا يضلُّوا في مسيرهم داعين إلى الله وتوحيده وكمال إلٰهيته؟ وكيف يمكنه أن يؤسس بينهم دعائم الأخوة والمحبة والتراحم والمواساة ليكونوا مثلاً للخير والهدى والنور؟.

إن وجود رسول الله ﷺ على رأس مجتمعه في دار هجرته، يقوده بزمام وحي رسالته في مرحلتها الجديدة، مرحلة التشريع والتنظيم والجهاد القتالي ضرورة من ضرورات سير الرسالة ونشر الدعوة حتى تبلغ آفاقها من الكمال الاجتماعي والتشريعي، بعد أن بلغت أوج كمالها العقدي.

ومن ثم كانت هجرته ﷺ من مكة التي أخرجت أصحابه، وسدّت الآفاق دون دعوته إلى المدينة التي جعلها الله مستقر رسالته، وبؤرة إشعاع نور دعوته لازمة لمتابعة سير رسالته، وقيادة مجتمعه الإسلامي في تركيبه الاجتماعي الجديد الذي يقتضي رعاية في التوجيه والإرشاد.

العوامل الاقتصادية
في دوافع الهجرة النبوية

أما العوامل الاقتصادية التي كانت إلى جانب العوامل السياسية والاجتماعية دوافع إلى الهجرة النبوية، فهي واضحة في النظر إلى وضع المجتمع الإسلامي، وتفهم حالته الاقتصادية في مكة، ثم النظر إلى حالته بعد تركه مكة وهجرته إلى المدينة، وامتزاجه بمجتمعها المسلم امتزاجاً فاق كل ما تعرف الحياة من روابط الامتزاج والمشاركة الحقيقية بين مجتمعات البشر.

لم تكن عناصر تركيب طلائع المجتمع المسلم من الفقراء والضعفاء

فالمجتمع المسلم في مكة من السابقين الأولين لم يكن مجتمعاً من الفقراء والضعفاء والموالي والعبيد كما يصوِّره بعض الكاتبين في السيرة النبوية، بحسن نية أو سوء قصد، وإنما كان مجتمعاً يقوم في تركيبه البشري على قوة العقيدة وقوة الإيمان بها، ولم يكن للضرورات الاجتماعية دخل أساسي في تركيب هذا المجتمع إلا بقدر ما تقتضيه التأثرات العامة في الحياة والبيئة.

وقد سبق لنا عند الحديث عن الهجرة إلى الحبشة أن فنَّدنا فكرة أن نواة المجتمع المسلم الأول ـ مجتمع السابقين الأولين ـ كانوا من الضعفاء والفقراء والموالي والعبيد، الذين وجدوا في دعوة الإسلام إلى الحرية والمساواة والعدالة والإخاء إنقاذاً لهم مما كانوا يرزحون تحت نيره من الظلم الفادح والاستعباد المادي الفظيع، فأسرعوا إلى الانضواء تحت لواء هذه الدعوة، ووطَّنوا أنفسهم على بطولة الصبر والاحتمال لما يلقون من جبروت طواغيت المادة في سبيل لقمة العيش، ليفوزوا بالحرية والعدالة في مجتمع تحكمه المادة العمياء

والترف البطين، أو يذهبوا مع أبطال التاريخ شهداء الحرية والعدالة في خلود الذكر البطولي والسمعة الداوية.

تصوير خادع في صورة حق أريد به باطل

هذا التصوير الخادع فيه شيء من صورة الحق، ولكنه حق أريد به باطل، هو حق في واقعه الإسلامي، لأن الإسلام دين لا يقف مع الأفراد والطوائف ليعطيها بطولات سلبية، ولكنه دين جاء بنظام اجتماعي ينظر إلى الحياة كلِّها بما فيها وبمن فيها على أنها تركيبة كونية وحَّدت بينها نواميس تحكمها بروابطها الطبيعية، وينظر إلى الإنسانية على أنها تركيبة بشرية وحَّدت بينها عناصر مادية وفكرية وروحية، وقد أعطيت الإنسانية زمام القيادة للحياة، وأعطي الإنسان سلطان الخلافة في الأرض، ليقيم عليها موازين العدالة في ظل حقيقة الإنسانية الوحدوية التي هي حقيقتها منذ أوجدها الله في نموذجها الأول.

الإخوة المتواسية هي دعامة المجتمع المسلم، فإذا استجاب لها من استجاب فالحق فيها واحد لا يختلف

وهذه الوحدة ـ التي تجمع البشرية إخوة سواسية في الحقوق والواجبات، لا يتميز فيها قوي على ضعيف، ولا غني على فقير، ولا قادر على عاجز ـ كانت هي القاعدة التي قام عليها نظام الحياة في الإسلام، بعد تأسيس العقيدة على وحدانية الله تعالى التي تستوجب إفراده بالعبادة والطاعة.

وإذا كانت قاعدة الإسلام النظامية في نظرته إلى الحياة ووحدة المجتمع البشري من الدوافع للمظلومين أن يستجيبوا إلى دعوة هذا الدين، فيعتنقوه عقيدة ونظاماً، فليس معنى هذا أن الإسلام مالأ الضعفاء على الأقوياء، أو حابى الفقراء على الأغنياء، وإنما معناه أن الإسلام في حقيقته النظامية دين يرفع لواء العدالة الاجتماعية بين جميع البشر أفراداً وجماعات، وأمماً وشعوباً، فللغني حقه في الحياة، لا يزيده غناه على هذا الحق شيئاً، وللفقير حقه في الحياة، لا ينقصه فقره من هذا الحق شيئاً.

فإذا ظلم غنيٌّ فقيراً كان كظلم الفقير للغني، كلاهما ظلم بغيض يجب رفعه وإحلال العدالة محله، وهذا هو قانون الإسلام الذي جاء به كتابه الحكيم في قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط،

شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتَّبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تَلْوُوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾[1].

روى الطبري وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم، لا يحابوا غنياً لغناه، ولا يرحموا مسكيناً لمسكنته.

وأخرج ابن جرير عن السدِّي في الآية قال: نزلت في النبي ﷺ، اختصم إليه رجلان، غني وفقير، فكان حلفه مع الفقير، يرى أن الفقير لا يظلم الغني، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير.

ومن هنا كان واجباً على الدارسين الباحثين في السيرة النبوية وأحداثها ورجالها وموقف النبي ﷺ من هذه الأحداث وتطبيق النصوص عليها، أن يتعمقوا في دراستهم وبحوثهم ناقدين ممحِّصين، متتبِّعين سير الرسالة وأطوارها في مراحلها منذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها بوحي طلب تبليغها إنذاراً عاماً في قوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾ أو إنذاراً خاصاً في قوله عز شأنه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[2].

وقد ترك أمر الجهر بالدعوة في الإنذارين العام والخاص إلى مرحلة قادمة من مراحل سير الرسالة، ليتم الاستعداد النفسي، وتعرف الجو المحيط بالدعوة في بيئتها التي نهدت بين أحضانها، لأن النهوض بأعباء الإنذار العام كان يستدعي التريث في الجهر بالدعوة اتقاء لمشقة المفاجأة؛ لتأصل عنجهية الوثنية في أساطين الشرك تأصلاً موروثاً جعل منها مصدراً يستمد منه ملأ الكفر تعاليهم على العرب، وفرض سلطانهم المادي والمعنوي على قبائلهم، وما يجره ذلك من مكاسب مادية في المواسم والأسواق والرحلات.

(١) سورة النساء آية (١٣٥).
(٢) سورة الشعراء آية (٢١٤).

قال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في الدلائل: لما أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُعْلِم الناس نزول الوحي عليه ويدعوهم إلى الإيمان به كَبُر ذلك عليه فنزل قوله عز وجل: ﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾[1].

مدنية السورة من القرآن لا يلزم أن تكون جميع آياتها مدنية

وهذه الآية الكريمة وإن كانت في نظم التلاوة في سورة مدنية، هي سورة المائدة وهي من آخر ما نزل من القرآن، فذلك لا يمنع من أن تكون الآية ﴿يا أيها الرسول بلِّغ﴾ مكية النزول، لأن كثيراً من الآيات التي نزلت في مكة لمقتضى استدعى نزولها يومئذ موضوعة توقيفاً من النبي ﷺ في سورة مدنية، وكثير من الآيات المدنية نزولاً موضوعة توقيفاً في سورة مكية.

ومكية السور ومدنيتها إنما هي باعتبار أكثر آيات السورة نزولاً، وبعيد جداً أن تكون آية ﴿يا أيها الرسول بلِّغ﴾ مدنية نزولاً، أي أنها نزلت بعد الهجرة، لأنه لم يعرف في أحداث السيرة النبوية أن النبي ﷺ توقف لحظة منذ استقراره بدار هجرته عن تبليغ رسالته، أو كبر عليه تبليغ شيء مما أنزل إليه من ربه في شأن أعدائه الجدد من أهل الكتاب والمنافقين تهيباً لهم أو خشية من أذاهم، أو خوفاً من إنزال ضرر به من هؤلاء الأعداء، فلا وجه حينئذ لجعل الخطاب في الآية موجهاً إلى رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة التي أصبحت دار الإسلام والاستقرار والأمن والقوة والمنعة والعزة.

فما كان النبي ﷺ بعد هجرته يخاف شيئاً قط يكبر عليه معه أن يبلغ شيئاً مما أنزل إليه من ربه في شأن أعدائه من أهل الكتاب والمنافقين حتى يحتاج معه ﷺ إلى توجيه هذا الخطاب الشديد في أسلوبه، الذي يحتوي على أعظم التهديد والزجر، والذي عُقِّب بالإخبار بعصمة الله له وحفظه من وصول ضرر يريده به أعداؤه في دار هجرته ومستقر دعوته.

أما في مكة فكان ذلك ممكناً ودواعيه متوافرة، حيث اللَّدد، والعداوة، والمكر، والكيد، وفادح البلاء يصب على أصحاب النبي ﷺ، وحيث

---

(١) سورة المائدة آية (٦٧).

التربص به ﷺ لقتله والفتك به للتخلص من دعوته التي غصت بها قريش وطغاة ملئها من عبيد الوثنية المشركين وملاحدة الكفر الفاجرين.

كانت المدينة حصناً منيعاً للمجتمع المسلم فلا مقتضى منها لنزول آية أو آيات للتحريض على التبليغ

والمدينة وإن كان فيها اليهود، وهم ألَدّ عداوة، وأشد شراسة، وأعظم غدراً وحسداً لرسول الله ﷺ، وفيها ربائبهم المنافقون، وهم أخبث وأفجر، لكن هؤلاء وهؤلاء كانوا أذلّة مكظومين، لا يملكون من الشجاعة، ما يظهرون به في غدرهم برسول الله ﷺ، والأحداث التي وقعت منهم ممثلة لغدرهم إنما كانت تدبيراً خبيثاً تحت جنح الظلام، ائتمروا به في مخابئهم وبيوتهم، وفي كلها كان الله تعالى يفضحهم ويكشف سوآتهم قبل أن يقع منهم شيء ينالون به من رسول الله ﷺ.

وقد كان النبي ﷺ محاطاً بأصحابه من المهاجرين والأنصار وهم الكثرة الغامرة في المجتمع المدني، وكانوا هم القوة الرادعة لهؤلاء الأعداء الداخليين كما كانوا قوة مرهبة لأعدائهم الخارجيين.

وقد تشبث من تمسك بمدنية آية ﴿يا أيها الرسول بلِّغ﴾ بحديث عائشة رضي الله عنها (كان رسول الله ﷺ يُحْرَس حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبّة فقال لهم: «أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله»).

ولا متمسك لهم في الحديث لاحتمال أن السيدة عائشة رضي الله عنها لم تخبر عن أمر شهدته، وإنما حدّثت عن أمر حُدِّثت عنه ممن شهد الحادثة ونزول الآية في مكة من الصحابة رضي الله عنهم، ولاحتمال أن قول رسول الله ﷺ لأصحابه ـ على فرض أن هذا القول كان بالمدينة ـ إخبار عن حال ثابتة له ﷺ منذ كان بمكة، ولمّا رأى حرص أصحابه على حمايته وانتدابهم لحراسته في بلد نزل فيه مهاجراً قبل أن يستقر ذكرّهم بأنه لا حاجة له بحراستهم لأن الله تعالى قد عصمه منذ كان في حومة الأزمات والشدائد بمكة.

وبهذين الاحتمالين تبقى مكية الآية قائمة، يعزّزها أن توجيه الخطاب بهذا الأسلوب الشديد الذي يدل على أن النبي ﷺ كان قد فتر شيئاً ما عن تبليغ ما أنزل إليه من ربه وهو بالمدينة من آيات تعيب على أهل الكتاب ما

هم عليه من سوء السلوك والغدر، والحسد وشدة العداوة للإسلام ونبيه ﷺ وأهله، وكتمانهم للحق الذي في كتبهم وتحريفهم لها، وهذا ما لم يثبت قط فالآية مكية، لأن مكة كانت متنزل السور والآيات التي تنعى على أهلها تمسكهم بالوثنية وانحطاط عقيدتهم المشركة، وتعيب آلهتهم وآباءهم، وتسفّه أحلامهم، وكانوا يودّون لو أن رسول الله ﷺ داهنهم، فلم يجبههم بذكر مساويهم وإعلان فجور كفرهم كما أخبر عنهم القرآن الحكيم بذلك في قوله: ﴿ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾[1].

أكثر الآثار تدل على مكية ﴿ يا أيها الرسول بلّغ ﴾

وهنا يكون احتمال تريث النبي ﷺ عن مجابهتهم لحرصه على عدم تنفيرهم ومباعدتهم قوياً، وهذا معنى ما جاء في رواية البيهقي: (فكبر ذلك عليه).

ويؤيد ذلك ما أخرجه أبو الشيخ عن الحسن قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله بعثني برسالة فضقت بها ذرعاً، وعرفت أن الناس مكذبي، فوعدني لأبلغنَّ أو ليعذبنِّي» فأنزل الله ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك﴾ وما أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: لمّا نزلت ﴿بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ قال: «يا رب إنما أنا واحد، كيف أصنع؟ يجتمع عليّ الناس» فنزلت ﴿وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته﴾.

فهذه الروايات مفسرة لمعنى الآية، ومبينة لمضمونها بما يقتضي نزولها بمكة حيث كانت الأزمات والشدائد والمحن تتوالى على النبي ﷺ وعلى أصحابه مما يحتمل الموقف معه أن يضيق النبي ﷺ ذرعاً ببعض ما ينزل إليه من ربه من آيات تسفه أحلام طواغيت الوثنية وطغاة المشركين، وتعيب آلهتهم، وتنتقص آباءهم كما جاء في سورة هود ـ وهي مكية ـ من قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾[2].

وحينئذ يستوجب الموقف دفعاً قوياً محذّراً، يمضي به النبي ﷺ قُدُماً في

---

(١) سورة ن آية (٩).

(٢) سورة هود آية (١٢).

عزيمة حازمة وإرادة صارمة، مبلِّغاً جميع ما ينزل إليه من ربه، لا يبالي رضي الطغاة من عبيد الوثنية أم سخطوا، أعرضوا مدبرين أم أقبلوا مستجيبين لأن رسالة الإسلام لم تكن تتملق أحداً على الإيمان بها، ولم تكن لتداهن الطغاة المستكبرين لتدخلهم في ساحتها، والله تعالى يقول لرسول صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[١].

ويقول عز شأنه: ﴿من كفر فعليه كفره﴾[٢] وفي آية أخرى: ﴿فمن كفر فعليه كفره، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾[٣].

قال الإمام ابن عطية: فإنما أمر ـ ﷺ ـ في هذه الآية ـ أي يا أيها الرسول بلِّغ ـ لئلا يتوقف على شيء مخافة أحد، وذلك أن رسالته عليه السلام تضمنت الطعن على أنواع الكفرة وإفساد أحوالهم، فكان يلقى منهم عنتاً، وربما خافهم أحياناً قبل نزول هذه الآية، وفي حديث ابن عباس ـ تقدم مرسلاً عن الحسن ـ: «لما بعثني الله برسالته ضقت ذرعاً، وعرفت أن من الناس من يكذبني» فأنزل الله هذه الآية، وفي صحيح مسلم تصوير لبشاعة ما كان يتوقعه ﷺ من الإيذاء والضرر، وذلك في قوله ﷺ: «إذاً يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة» وسياق هذا الحديث في صحيح مسلم مشعر على طوله بأن هذا كان بعد الهجرة، وقد تنبه القرطبي إلى ذلك، فنزع هذه الجملة من سياق مسلم ووضعها في موضعها عند كلامه على آية ﴿يا أيها الرسول بلِّغ﴾ باعتبارها مكية وهذا هو الصواب.

الرد على أبي حيان في زعمه أن سياق الآية في موضعها من سورة المائدة وسياقها يدل على أن الكلام مع اليهود والنصارى

ولا وجه لقول أبي حيان في «البحر» ـ وإن جنح إليه الطبري ـ: والذي يظهر أنه تعالى أمّنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بتبليغ ما أنزل إليه في أمرهم وغيره من غير مبالاة بأحد، لأن الكلام قبل هذه الآية وبعدها هو

(١) سورة الكهف آيتا (٢٨ ـ ٢٩).
(٢) سورة الروم آية (٤٤).
(٣) سورة فاطر آية (٣٩).

معهم فيبعد أن تكون هذه الآية أجنبية عما قبلها وعما بعدها.

لأن اعتماد أبي حيّان في الاستدلال على استظهاره على سياق آية ﴿يا أيها الرسول بلّغ﴾ وسياقها لا يستلزم مدنيتها ونزولها بعد الهجرة في أمر اليهود والنصارى، لأن كون آية من آيات القرآن موضوعة توقيفاً من النبي ﷺ في نظم التلاوة بين كلام في شأن طائفة من الطوائف، وهي متسقة الربط منسجمة المعنى مع ما قبلها وما بعدها ـ لا يجعلها أجنبية عما قبلها وما بعدها، لأن المدار في سمو نظم القرآن الحكيم لم يقم على أساس التوافق الزمني أو المكاني في نزول الآيات، وإنما المدار فيه على انسجام المعنى واتساقه في نظم التلاوة، ولو تباعد زمن النزول واختلف مكانه، وهذا هو سر التوقيف في ترتيب الآيات ونظمها في وضع التلاوة.

فلا بِدْع أن تكون آية أو آيات نزلت في مطلع الرسالة وشدائدها، ثم وضعت توقيفاً بين آيات نزلت في أواخر ما نزل من القرآن ما دام المعنى في الآيات منسجماً متسقاً، يأخذ بعضه بحجز بعض، وهذا كثير في القرآن الحكيم، وهو من دلائل الاعجاز.

ثم مضى أبو حيان على ما ذهب إليه فقال في قوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ أي لا تبال في التبليغ فإن الله يعصمك، فليس لهم تسليط على قتلك لا بمؤامرة ولا باغتيال ولا باستيلاء عليك بأخذ وأسر.

ثم قال أبو حيان: وروى المفسرون: أن أبا طالب كان يرسل رجالاً من بني هاشم يحرسون رسول الله ﷺ حتى نزل قوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ فقال ﷺ: «إن الله قد عصمني من الجن والإنس، فلا أحتاج إلى من يحرسني».

ثم روى أثراً عن ابن جريج قال فيه: كان النبي ﷺ يهاب قريشاً فلما نزلت ﴿والله يعصمك من الناس﴾ استلقى وقال: «من شاء فليخذلني» مرتين أو ثلاثاً.

ثم عقّب أبو حيان على هذه الروايات فقال: وهذا وما قبله يدل على

تصحيح أبي حيان غير صحيح

أن ذلك كان بمكة. . . والصحيح أنها نزلت بالمدينة، والرسول مقيم بها شهراً، وحرسه سعد وحذيفة فنام حتى غطّ فنزلت، فأخرج رأسه من قبة أدم وقال: «انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله، لا أبالي من نصرني ومن خذلني» وأصل هذا الحديث في صحيح مسلم.

وحديث أبي طالب وإرساله حرّاساً من رجال بني هاشم، أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبدالله، قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه حتى نزلت ﴿والله يعصمك من الناس﴾ فذهب ليبعث معه، فقال: «ياعم، إن الله قد عصمني لا حاجة لي إلى من تبعث» وأخرجه الطبراني، وأبو الشيخ، وأبو نعيم في الدلائل، وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يُحْرَس، وكان يُرْسِل معه أبو طالب كل يوم رجالاً من بني هاشم، يحرسونه فقال: «يا عم إن الله قد عصمني، لا حاجة لي إلى من تبعث».

فتركُ الروايات المتضافرة ـ الدالة بصريحها على مكية ﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية، وأنها نزلت في موقف أهل مكة من رسول الله ﷺ وموقفه منهم، ومناسبة معناها لذلك ـ لا يستقيم مع سنن البحث الممحص لمجرد أن الآية في نظم التلاوة موضوعة في سورة مدنية بين آيات تعيب على أهل الكتاب ما عيب على أهل مكة من العتو في الكفر، وفضول الضلال مما جعل التناسب المعنوي بين الآية وبين ما سبقها ولحقها في نظم التلاوة متسق الوضع منسجم الربط، وهذا الترتيب في وضع الآيات هو أحد دعائم الإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم.

الآية كلها نزلت بكامل جملها مرة واحدة بمكة أيام شدة الأزمات

ومما يحسن التنبيه إليه ما جاء في بعض الروايات وذكره بعض المفسرين مِنْ إفراد قوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ وسلخه عن بقية الآية قبله مما يفكك الكلام، والآيةُ كلها مرتبط بعضها ببعض في وحدة معنوية تصوِّر في نزولها بمقتضى الروايات المتضافرة، وفي وضعها التوقيفي بمقتضى توافق المعنى وانسجام الربط بين مقاصد الآيات ونظم الجمل ـ معنى واحداً هو المقصود بالآية كلِّها.

وقد نزلت الآية بمجموع مقاطعها وجملها لتؤدي صورة من المعنى الموحد لا تكتمل ولا تتم إلا بجميع جملها وكلماتها مجتمعة على ترتيبها الذي أنزلها الله عليه.

فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ وقد ضاق ذرعاً ببعض ما أنزل إليه من شدائد الآيات المجبِّهة للمشركين، العائبة عليهم سوء مسلكهم الوثني؛ مما جعلهم ينفرون عن سماع القرآن ويباعد بينهم وبين رسول الله ﷺ، يا أيها الرسول، يناديه بهذا الوصف الملزم لتحمل مشاق التكليف مهما كانت العقبات والأزمات وشدائد المحن، وفادحات البلاء، وإلا فكيف يكون رسولاً لله تعالى برسالة تخرج الناس من الظلمات إلى النور، وتقيم أود الحياة واعوجاجها على سنن من الاستقامة لا عهد لها به من قبل - من لم يكن له من الصبر على المشاق ما يفوق صبر جميع أولي العزائم الماضية، ومن لم يكن له من مضاء العزيمة ما يسمو على عزائم أصبر الصابرين، ومن لم يكن له من الاحتمال لشدة ما يلقى من البلاء ما يقهر به عظائم الأحداث ومعضلات المشكلات.

هذا ما لا يكون أبداً في سُنن الله تعالى مع رسله الذين يصطفيهم لتحمل مشاق رسالاته، فكيف يقبل من خاتم المرسلين الذي جمع الله له في رسالته جميع فضائل ومشاق رسالات المرسلين.

فالرسالة إذاً أشرف التشريف البشري فهي أشق مراتب التكليف الإنساني، فالنداء بوصف الرسالة جامع لسمو التشريف ومشاق التكليف.

فإذا جاء بعد هذا النداء الأمر بالتبليغ كان معناه الإيذان بربط هذا التشريف، بتحقيق مضمونه الذي كان مصدر التشريف، فإذا لم يتحقق هذا المضمون فقد ذهب أصل التشريف.

ومعنى هذا أن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: إذا لم تحقق ما كنت به رسولاً، وهو تبليغ جميع ما أنزل إليك من ربك تبليغاً وافياً كاملاً لا خوف معه ولا مداهنة لم تكن رسولاً، وهذا أبلغ من لو قيل: فإن لم تبلِّغ جميع ما أنزل إليك لم تؤدِّ حقَّ الرسالة، لأن التعبير القرآني يطوي تحته من الأبعاد

والزجر والإرعاب ما تنخلع لهوله القلوب، مع ما في الإبهام من التهويل المزعج ما لا تحيط به العبارة ولا يؤديه أسلوب غير أسلوب القرآن الحكيم.

وفي إضافة الرسالة في موقع النفي بجواب الشرط إلى ضمير المرسل ما يؤكد الزجر المرعب، مما جعل النبي ﷺ في أشد الحاجة إلى التلطف الودود ليبعث في نفسه الاطمئنان والسكينة، فجاء قوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ وعداً إخبارياً قاطعاً مسح عن صدره ﷺ آثار الرعب والإيعاد الزاجر.

ولهذا جاءت الروايات كلها على اختلاف أساليبها ومناحيها تصور نفحات التلطف بالبشرى بما أنزل عليه ﷺ من السكون إلى لطف الود الإلهي، وما استشعرته طبيعة رسول الله ﷺ في جانبيها الروحي والبشري من السكينة وهو في أحضان العصمة الإلهية الشاملة، فلم يبالِ بخذلان من خذله ولا بنصر من نصره.

* * *

من أبطل الباطل ادعاء أن الإسلام تملّق الفقراء والمستضعفين

هذه هي صورة الإسلام، الدين الذي أرسل الله به محمداً ﷺ، فإذا دلف إليه مستجيباً مؤمناً به من الفقراء والمستضعفين والموالي والعبيد والرازحين تحت نير ظلم الطغيان المادي الوثني وفجور الشرك مع من دلف إلى ظله الظليل من ذوي الفِطَر النقية والعقول المستعدة والقلوب المفتوحة لتقبل الهدى والخير والنور من ذوي المكانة والشرف في أقوامهم شباباً وكهولاً - وهم الكثرة الغامرة في أعداد السابقين الأولين -؛ فَمِن أظْلم الظلم وأفسد المنطق والسفسطة الجوفاء القول على ألسنة أعداء الإسلام من المستشرقين في الغرب والشرق وتلاميذهم من تافهي (التبعيث) من الأحداث المراهقين الذين فقدوا معالم الشخصية الإسلامية ومقوماتها أمام سلطان الإلحاد المصطغن في صدور أساتذتهم - بأن الإسلام ثورة سياسية استغلت أحوال البيئة العربية الاجتماعية بما كان يسودها من ظلم فادح، يعتمد على اتساع هوّة الفوارق المادية التي لا تتلاقى في مسيرة الحياة، فأسرع إلى اعتناقه المستعبدون للقهر المادي الوثني الظلوم من المستضعفين في أرض العرب،

فكانوا نواة هذا الإسلام السياسي الثائر الأولى ودعامته التي قام عليها بناؤه.

وهذه أكذوبة عريضة القفا، زائفة المخبر، خادعة المظهر، بل هي أبطولة نسج خيوطها الحقد الصليبي الأسود، والفجور الصهيوني الحسود، وحاك نسجها الإلحاد الشيوعي الكفور الذي استشرى في هذا العصر، بين المفتونين من مراهقي مثقفي المسلمين

وقوف الثالوث الإلحادي المادي أمام دعوة الإسلام وعدالته

وهذا الثالوث الخبيث ـ الصهيونية، والصليبية، والشيوعية ـ هو الذي يقف اليوم بقواه المادية والفكرية وراء حركات الإلحاد في العالم، ولا سيما العالم الإسلامي في جميع أوطانه، والمسلمون عنه لاهون غافلون، ومهما اختلفت بهذا الثالوث المصالح الشخصية لا يختلف قطُّ في عداوته للإسلام وأهله، وشدة حرصه على إذلال المسلمين في أوطانهم واستعبادهم مادياً وفكرياً، والاستعبادُ الفكري عن طريق الثقافة التافهة والعلم الجهول أشد من الاستعباد المادي، لأن الأفكار إذا استُعْبِدت سهل عليها قبول كل شيء من صنوف الاستعباد الاقتصادي والاجتماعي والخلقي.

فالذين يغترون من قادة المسلمين وحكامهم بالخطب الرنانة والكلمات المعسولة وتأليف الجماعات لخلق جو من التقارب أو المشاركة المصلحيّة بين الحق والباطل مخدوعون، يسوقون أممهم وشعوبهم إلى مجازر الانحلال الخلقي والإلحاد الفكري، حتى يظفر بعقيدة الإسلام ونظمه وأخلاقياته ليقضي عليها بطرائقه الخاصة حتى يسلس له قيادها، وتذوب بين أيديهم عناصر مقوماتها، وتعجز أمام حيلهم وخداعهم مقاومتها، وتستسلم للذل والمهانة والاستعباد المادي والمعنوي، وتنهار شخصيتها في عقيدتها وأفكارها.

وليسمع حكام المسلمين المخدوعون قول الله تعالى: ﴿قد يعلم الله الذين يتسلّلون منكم لِواذاً، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[1].

فالذين يقولون عن عمد وإصرار، أو عن جهل وتقليد أن نواة

(١) سورة النور آية (٦٣).

المجتمع الإسلامي كانت من الفقراء والموالي والعبيد والمستضعفين خاطئون مخطئون، لم يتفحّصوا تاريخ الدعوة الإسلامية، ولكنهم قرؤوا هذا التاريخ قراءة اعتمدت على روايات ضعيفة أو باطلة، وقد يكون لسمعة أصحاب الأسماء التي أسندت إليهم تلك الروايات أثر كبير في قبولها، وقد يكون للجهل المعتمد على التقليد أثر في تصديقها والاعتماد عليها.

ومهما يكن من الأمر فإن الدلائل التاريخية الممحصة قاطعة بأن ثلة السابقين الأولين التي كانت دعامة المجتمع الإسلامي في مكة بين أزماتها وشدائدها وفوادح بلائها؛ إنما كانت في كثرتها الغامرة من الأحرار ذوي الشرف والمكانة في منابتهم من قبائلهم وأقوامهم.

وثائق التاريخ أصدق دليل على أن طلائع الإيمان بدعوة الإسلام لم يكونوا من الفقراء والمستضعفين

وأصدق دليل نسوقه على صدق الواقع ما أجمع عليه الباحثون في السيرة النبوية ورواياتها، وما سجلوه في مؤلفاتهم، وهي موجودة متعالمة متعارفة، سواء أكانت مما امتدت إليه يد المطبعة فأخرجته إلى النور، وتداولته أيدي القارئين، أم كانت مما لا يزال مخطوطاً في خزائن مكتبات الأفراد والهيئات من إحصاءات لأسماء أولئك السابقين وتقصٍّ لأنسابهم في دقة عجيبة لا تهمل الاختلاف في بعض الأسماء الواردة في سلسلة بالنسب، رجالاً، ونساء، وقبائل، وأمكنة، وأوطاناً، وموالاة وحِلْفاً وعصبة ورَحِماً.

وقد بدأت هذه الإحصاءات بأول الأولين، الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنه، وبمن رغبهم في الإسلام وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا.

قال ابن إسحاق: لما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، فأسلم على يديه: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلموا.

ثم قال ابن اسحاق: ثم أسلم أبو عبيدة، واسمه عامر بن عبدالله ابن الجراح، ثم أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه: قدامة وعبدالله ابنا مظعون، وعبيدة ابن

الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد، وخبّاب بن الأرت، وعمير بن أبي وقاص، أخو سعد، وعبدالله بن مسعود، ومسعود بن القاري، وسُلَيط ابن عبد شمس، وعيّاش بن أبي ربيعة، وخُنيس بن حذافة بن قيس، وعامر ابن ربيعة، وعبدالله بن جحش، وأخوه أبو أحمد بن جحش، وجعفر بن أبي طالب، وحاطب بن الحارث بن معمر، وأخوه خطاب بن الحارث، ومعمر ابن الحارث بن معمر، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطّلب بن أزهر ابن عبد مناف، والنحام نعيم بن عبدالله، وعامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، وخالد بن سعيد بن العاص، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وأبو حذيفة، واسمه مهشم، وواقد بن عبدالله بن عبد مناف، وخالد، وعامر، وعاقل، وإياس، بنو البكير بن عبد يا ليل، وعمّار بن ياسر، وصهيب ابن سنان.

هؤلاء خمسة وأربعون رجلاً، معهم عشر نسوة من المسمين بأنسابهن وبيوتهن وقبائلهن زوجات لبعضهم.

وأكثر هذا العدد قرشيون صليبة، وقليل منهم حليف لبعض بطون قريش، وأقل من القليل فيهم من يعد من الفقراء والمستضعفين.

وقد ذكر النويري في (نهاية الأرب) أسماء عدد ممن لهم سابقة إسلام وهم من غير قريش، ونسبهم إلى قبائلهم، فذكر منهم أباذر وأخاه أنيساً الغفاريَّين، وعتبة بن غزوان المازني. وعمرو بن عبسة السلمي وهو قديم الإسلام، وكان يقول: رأيتني وأنا ربع الإسلام، وقد سأل النبي ﷺ ومن معك على هذا الأمر؟ فقال له: (حر وعبد) يعني أبا بكر الصديق، وبلالاً.

والمقصود أن دعائم المجتمع الإسلامي الأول لم يكونوا من الأحداث والموالي والعبدان، والفقراء والمستضعفين، ولكنهم كانوا من أشراف بيوت قريش وغيرها من قبائل العرب، وكان فيهم شباب تجاوز سن الحداثة، فإذا رأينا في بعض مؤلفات السيرة النبوية رواية تتعارض مع الواقع الاحصائي الذي أجمع عليه العلماء والرواة كان من غير المستقيم مع طرائق البحث العلمي الممحّص أن توضع تلك الرواية الموهمة الواهمة في

ميزان ـ وهي لا تستعصي على التأويل ـ مع هذه الاحصاءات الثابتة الدقيقة.

ومن هذه الروايات الموهمة ما ذكره ابن سعد في الطبقات عن الزهري قال: دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام سراً وجهراً، فاستجاب لله تعالى من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن بالله.

ويمكن أن يكون مراد الزهري ـ إذا صحت الرواية عنه ـ بأحداث الرجال شبابهم ممن كانوا دون الكهولة، وكانوا يعيشون بمعزل عن مجتمعات ملأ قريش، وهم كهولها وشيوخها ومجالسهم المليئة بالهُجر والفحش.

ويكون مراده بضعفاء الناس من تحرر من أبناء أشراف القوم عن ربقة عبودية ذل الانسياق إلى الأباطيل وترّهات الوثنية البليدة التي نسج بردها تقليد الآباء والأسلاف ممن عسا في جهالات الشرك ومهاوي الوثنية بعد إذ تبين لهم الحق في دعوة التوحيد، فاستجابوا لله تعالى وتركوا سلطان آبائهم وثرواتهم، ورضوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبرسول الله ﷺ هادياً ومرشداً ومتبعاً، يرضون بما رضي به من التسامي عن متع الحياة الدنيا، واستغراقه في الدعوة إلى الله تعالى، وهداية الخلق وإصلاح مفاسد الحياة.

إسراع الشباب إلى الاستجابة لدعوة الإسلام اقتضته الملايمة بين الداعي إلى الله والمدعوين

على أن في إسراع الشباب إلى الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ تناسباً طبيعياً يلائم أشد الملاءمة حال رسول الله ﷺ في سنه يوم بعث رسولاً ودعا الناس إلى الإيمان برسالته، وتصديق دعوته، دعوة الحق والهدى والنور والعزة والكرامة.

فقد كان ﷺ في عنفوان شبابه، كما قال عن نفسه ﷺ يوم جمع بطون قريش لينذرهم استجابة لقول الله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ « ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم، لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ».

وكان كهول قومه، وشيوخ قريش إذا مرّ بهم في مطلع رسالته قبل أن يباديهم بعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، وقبل أن يشنفوا به ويعالنوه بالعداوة يشيرون إليه قائلين ـ كما يرويه الزهري ـ إن غلام بني عبد المطلب لَيُكلَّم من السماء.

وهكذا كان سير الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته متدرجاً مع الحياة في مدارج الزمن بدءاً في مهدها كما يبدأ كل حي، ونمواً في مسيرتها كما ينمو كل صغير فيكبر، ويشتد ساعده، ويقوى ساعياً ألوفاً لما يلايمه ويكون على شاكلته.

فإذا أسرع الشباب مقبلاً على الإيمان بدعوة الإسلام فكان درعاً حصينة لها وعضداً قوياً للرسول ﷺ على نشرها، وهي لا تزال في مطلعها، حافّين به، سامعين له، مهتدين بهديه، كان ذلك دليلاً على أن هذه الدعوة الهادية المصلحة إنما تؤثر بهدايتها في القلوب المستعدة لتقبل الخير، والفِطَر الصافية التي لم تصدأ مرآتها، ولم تلوَّث بأوضار الترسب الوثني الموروث عن الجاهلية وقبائحها، وتلك هي قلوب الشباب الشابة، التي وجدت فيها دعوة الإسلام أرضاً خصبة لا يعوقها عن قبول البذر، وإنباته خبثُ سطح التربة ونشع الماء، وتعفن النزيز من طول مكثها دون تحريك وتقليب يعرضها للتطهير من جراثيم العقم والفساد.

أما الذين اسودّت قلوبهم، وصدئت فِطَرهم ، وأظلمت أرواحهم، وتبلّدت إحساساتهم برشح الوثنيات من الكهول والشيوخ الذين قوّست حياة الجاهلية بأوزارها ظهورهم، فأولئك هم الذين ناصبوا دعوة الحق والتوحيد والهدى والنور العداوة، وأضمروا لها البغضاء، وشمّروا لمقاومتها، لأنهم فقدوا صفاء الفطرة التي كانت هي الوسيلة الوحيدة للملايمة بينهم وبين استجابتهم لما دعاهم إليه رسول الله ﷺ من الخير، فأعرضوا وتولّوا عنها مدبرين، وثَنُوا أعطافهم مُشيحين، استكباراً في الأرض حتى قضى الله فيهم أمره، فهدى منهم من شاء بفضله، بعد أن محصتهم الأحداث وصهرتهم الوقائع، فدخلوا في الإسلام طائعين نادمين على ما فاتهم من فضل السبق إليه، وأضلّ منهم من شاء بعدأله، فكانوا هم الأخسرين، ولكن الله تعالى استخرج من أصلابهم من استودعها من أبطال الإسلام وقادة جهاده وجند كتائبه.

واستقام ميسم الدعوة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً شيباً وشباباً،

أحراراً وعبداناً، رجالاً ونساء، وبقي للسابقين فضل السبق الذي لم يلحقهم في فضله من جاء بعدهم ﴿وكُلًّا وعد الله الحسنى﴾.

خصائص مميزة للمجتمع المسلم ملأت قلوب أعدائه غيظاً عليه

وفي ظل العزائم القوية الماضية مضت مسيرة دعوة الإسلام وتبليغ رسالته غير مبالية بما يلقى المجتمع الإسلامي من المحن وفادح البلاء، مما بلغ بالدعوة مبلغاً أضفى على المجتمع الإسلامي خصائص ميزته وحددت كيانه، وأبرزت شخصيته العارمة القاهرة التي ملأت صدور ملأ الطغيان من المشركين وعبيد الوثنية البليدة غيظاً حاقداً، وحقداً مغيظاً، دفعهم إلى فجور العتو الحانق وإلى عناد الاستكبار المغرور.

بيد أن هؤلاء المشركين من عبيد الوثنية المادية وجدوا متنفس أحقادهم في أن يصبُّوا ثمالتها في القضاء على حياة المسلمين الاقتصادية، بعد أن عجزوا أن ينالوا من إيمانهم بعقيدتهم التوحيدية شيئاً بما أنزلوه بهم من قسوة الإيذاء، وفجور التعذيب الذي كان يزيد المسلمين قوة في رسوخ إيمانهم وشدة في تمسكهم بدينهم وإسلامهم.

والمتأمل في تتبع حال الرعيل الأول من السابقين يعلم أنهم كانوا يحيون حياة اقتصادية تتمثل في التجارة والعمل الذي كانوا يكسبون به أرزاقهم، ولم يعرف أن أحداً منهم كان عاطلاً يتكفَّف الناس، وقد كان هذا الجلد في العمل أغيظ لفجار الشرك وأشجى لملأ قريش، فوجهوا إليه نفوسهم الشريرة نهباً وتكسيداً وإعاقة.

نهب أموال المسلمين وتعطيل حياتهم الاقتصادية كان ديدن ملأ الكفر وعبيد الوثنية

روى البخاري ومسلم، وأحمد وغيرهم عن خبّاب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دَيْن فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، فقال: إني إذا مت ثم بُعثت جئتني ولي مال وولد فأعطيك. فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ إلى قوله ﴿ويأتينا فرداً﴾[١].

وفي قصة هجرة صهيب رضي الله عنه أنهم لم يتركوه يهاجر حتى شرى

(١) سورة مريم آيات (٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠).

نفسه منهم بجميع ماله، وفيه أنزل الله تعالى قوله: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد﴾(١).

وفي قصة هجرة عبدالله بن جحش وأخيه عبد بن جحش المكنّى بأبي أحمد وآلهما رجالاً ونساء هجرة موعبة واستيلاء أبي سفيان بن حرب على دورهم لأن بنته الفارعة كانت تحت أبي أحمد بن جحش، ما يدل على حالة المسلمين الاقتصادية، ويدل على مبلغ الظلم الذي ادّرعه الظالمون من فجار الكفر في نهب أموال أولئك المسلمين.

قال ابن حزم في كتابه (جوامع السيرة): فعدا أبو سفيان على دارهم فتملّكها إذ بقيت يباباً لا أحد بها.

وقال ابن إسحاق: ثم هاجر عبدالله بن جحش، واحتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش، وهو أبو أحمد، وكان رجلاً ضرير البصر، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وكان شاعراً وكانت عنده الفارعة ابنة أبي سفيان ابن حرب، وكانت أمه - أي أبي أحمد - أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، فغُلِّقت دار بني جحش هجرة، فمر بها عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة، وهم مصعدون إلى أعلا مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يباباً، ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفَّس الصعداء ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ستدركها النكباء والحوب

ثم قال: أصبحت دار بني جحش خلاءً من أهلها.

ولم يقف إجرام ملأ قريش عند هذا الحد في حربهم الاقتصادية للمجتمع الإسلامي، بل كانوا يتتبعون الوافدين إلى مكة يحذّرونهم لقاء رسول الله ﷺ والدخول في دينه، ويهدّدونهم بتكسيد تجارتهم إن كانوا تجاراً ويغرون بهم سفهاءهم.

قال ابن إسحاق: وكان أبو جهل الفاسق هو الذي يغري بهم في

---

(١) سورة البقرة آية (٢٠٧).

رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة أنّبه وأخزاه، وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهنّ حلمك ولنفيلنّ رأيك، ولنضعنّ شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدنّ تجارتك، ولنهلكنّ مالك وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به.

لم يغن ملأ الفجور محاربة المسلمين في حياتهم الاقتصادية فردياً فلجؤوا إلى المحاربة الجماعية

وكأنما رأت قريش أن هذه الحرب الاقتصادية الفردية التي يُتتبع فيها الأفراد في وسائل كسبهم وأرزاقهم في التجارة وغيرها من الأعمال لم تُجْدِهم نفعاً، ولم تفتّ في أعضاد المسلمين، ولم تثنِ من عزائمهم ولا أضعفت من قوتهم في التمسك بعقيدتهم ورسوخ يقينهم، تداعت إلى التي لاشوى لها، وتنادت إلى عظيمة العظائم، قاصمة الظهور، ومزلزلة النفوس، وخالعة القلوب من مثاوي حنايا أضلاعها، تلكـمُ هي آخر ما بقي في كنانة مكرهم من سهام الفجور العنيد.

فتجمع ملأ قريش ممن نخرسوس الفناء أدمغتهم، وقوّس ظهورهم، فائتمروا وفكروا وقدروا، وتوهَّموا وتخيَّلوا، وهاموا في أودية العتو الفاجر، وانتهى بهم مكرهم إلى أن يسدُّوا على المسلمين جميع طرائق الحياة التي تصلهم بالناس، ويحاصروهم حصاراً جماعياً خانقاً، يمنعونهم فيه من أي معاملة مع أحد، في تجارة أو عمل، فلا يبايعوهم ولا يناكحوهم، ولا يأخذون منهم ولا يعطونهم، حصاراً لا يفرق بين الرجال والنساء والأطفال، حصاراً يمنع فيه كل مسلم وكل إنسان يتعاطف مع المسلمين وهو على شركه ووثنيته من مباشرة أي حركة حرة، تكون مصدراً لكسب أو عمل، حتى يفقدوهم كل أمل في الحياة، وحتى يتبدد ما في أيديهم من مال أو متاع.

وكان هذا الائتمار أخبث ما وصل إليه خبث الفجور، لأنه قتل لأمة من الناس بالجوع والعري والإظماء، لا رحمة فيه لشيخ هرم، ولا لامرأة ضعيفة، ولا لطفل رضيع، ولا لعاجز مريض، ولا تحركت فيه عاطفة قرابة أو نخوة مروءة، فكان عملاً جنونياً يشمئز أحط الحيوانات منه.

وعلم النبي ﷺ بهذا الائتمار الخبيث، وقدّر عواقبه الوخيمة، فأشار على أصحابه بالهجرة الثانية إلى الحبشة ليتخفف من أعباء شغل فكره

بحمايتهم وتدبير أمورهم، ولينشروا دعوة الحق وهم آمنون، فهاجر إليها من استطاع منهم، وكان هؤلاء كثرة من أشراف بيوتات قريش بزعامة جعفر ابن أبي طالب، وكانوا أكثر من مائة من الرجال، ومع بعضهم زوجاتهم، وكان من أثر هذه الهجرة العظيمة في نشر الدعوة ما ذكرناه مفصّلاً في مناسبته عند الحديث عنها، مما دلّلنا به على أن هجرة أصحابه ﷺ لم تكن فراراً ولا هرباً، وإنما كانت نوعاً من الانسياح في الأرض لتبليغ رسالة النبي ﷺ.

وبقي بمكة مَنْ بقي مع النبي ﷺ، الذين دخلوا معه حصار الشِّعْب وأقاموا به ثلاث سنين، لا يصل إليهم شيء ولا يصلون إلى شيء، وظلُّوا معتصمين بالجلد والصبر حتى فرّج الله عنهم، وخرجوا منه كرماء أعزاء، وقد خزيت قريش وملؤها من أهل الفجور.

وبُعَيْد هذا الحصار القاطع لِصِلاتِ الأرحام مات أبو طالب، وماتت بعده بأيام السيدة الجليلة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، فحزن النبي ﷺ حزناً شديداً، وضاقت عليه مكة، فذهب إلى الطائف لعله يجد لدعوته سميعاً، ورجع منها مكلوم الفؤاد لما لقيه من أذى، ولكنه ﷺ لم يفتر قط عن نشر دعوته وتبليغ رسالته.

وقد تلطف الله تعالى بنبيه ﷺ ليمسح عن صدره آلام لقاء الطائف ويخفف عنه حزنه على زوجه وزيرة الصدق له، وعلى عمِّه الذي ظلَّ حادباً عليه، مانعاً له من سفاهة قومه وإيذائهم، فأرسل إليه ذخيرة الغيب في حمل لواء الدعوة ونصرتها وتمت بيعات الأنصار، بيعة إثر بيعة حتى ختمت ببيعة (فتح الفتوح) التي فتح بها باب الهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجر إليها الصحابة تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم وعشائرهم، وموارد كسبهم، مضحِّين بكل ذلك في سبيل عقيدتهم ودينهم ورسالة نبيهم ﷺ.

كانت الهجرة النبوية ضرورة اجتماعية تتطلبها حماية المجتمع المسلم

أفكان من الخير للدعوة الإسلامية أن يبقى رسول الله ﷺ بعد تمثّل هذه الصورة التي تجوزنا في تصويرها لعوامل الهجرة النبوية السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مكة وحيداً بعد هجرة أصحابه من السابقين الأولين، وهم مرملون فقراء لا يجدون في أيديهم سبداً ولا لبداً، ولا يملكون

من حطام الدنيا شيئاً، والفقر فتنة تُخشى بوائقها ولا سيما إذا كان فقراً مفروضاً بقهر العتو والجبروت وطغيان العناد الفاجر ونهب الأملاك، واغتصاب المرافق، وتعطيل الأعمال؟

وإذا بقي رسول الله ﷺ في مكة دفعاً لتوهم المتوهمين أن هجرته ﷺ إنما كانت خوفاً على نفسه، وفراراً من أعدائه، وهرباً من الإيذاء، والبلاء، فماذا كان يمكنه أن يصنع لنشر دعوته وتبليغ رسالته في جو مكة الخانق المظلم؟ وماذا يكون حال أصحابه الذين سبقوه بالهجرة وهم ينتظرون قدومه على مهجره ليقود مجتمعهم ناشراً دعوته مبلِّغاً رسالة ربه.

أو يكون من الخير للدعوة ونشرها، وتبليغ الرسالة ودفعها إلى الأمام في سيرها أن يترك رسول الله ﷺ هؤلاء النخبة الذين ربّاهم بآيات التنزيل، وأدّبهم بحكمة التأسّي به ﷺ حتى جعل من كل فرد منهم أمة في إهاب رجل، يهاجرون دون أمل يستشعرون معه أن هجرتهم لم تكن صيحة في وادي الضياع؟.

أو يترك أولئك الغرّ الميامين من أبناء (يثرب) الذين بايعوه على أن يكونوا ذادة وحماة له، ولدعوته، وجنداً في كتائب رسالته، يفدونه بأرواحهم وأموالهم أنصاراً لله ولدينه ـ نهباً للظنون والأوهام والتخيلات، وهم أحوج ما يكونون إليه قائداً مربياً، يربيهم كما ربى إخوانهم المهاجرين الأولين من قبل، ويرعاهم بحكمته، وينظِّم مجتمعهم في تركيبه الجديد.

إن المجتمع الإسلامي بتأليفه الجديد في أشد الحاجة إلى قائده، يمضي به قُدُماً وبيده زمام مسيرة رسالته إلى آفاق الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، يرعاه وحي الله مسدِّداً هادياً، مشرِّعاً حاكماً، مؤدباً مربياً.

فهل غير رسول الله ﷺ يستطيع أن يحمل أمانة هذه القيادة بخصائصها النبوية المميز بها، وحقيقتها العليا التي تعتمد كل الاعتماد على توجيه الله وإرشاده، وأمره ونهيه، وتعليمه، ورعايته.

إذاً فليمضِ القائد النبي ﷺ والرسول الأمين على بركة الله إلى

هجرته ليعتلي ذروة سنام مسيرة رسالته، غير خائف أحداً من الخلق، ولا مبال بما لقي ويلقى في سبيل تبليغ ما أنزل إليه من ربه، ومن حوله المجتمع الإسلامي حافين به، مرهفين آذانهم لتلقف كل ما ينطق به من حكمة وموعظة، فاتحي قلوبهم لتلقي معاني كلمات الله يرتلها على مسامع الدنيا، ويتعرفوا إلى حقائق رسالته في حركاته وسكناته، عملاً في واقع الحياة.

أو لم يكن من الضروري أن يهاجر رسول الله ﷺ ليتدارك بحكمته وحسن سياسته ومكارم أخلاقه، وتسديد الله له بعونه وتوفيقه نفوس هؤلاء الصفوة وهم من الشرف بين أقوامهم في الذروة، ليكون بينهم يتأسون به، ويقتدون بأحواله في تقلله من الدنيا وأسبابها، وبذله نفسه في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته، حتى يرسخ في أفئدتهم أن الهجرة ضرب من التضحية في سبيل هدف أجلّ وأعظم من الثروات والأوطان والأهل والعشائر؟.

أو لم يكن من موجبات سير الدعوة إلى الأمام أن يهاجر رسول الله ﷺ إلى مجتمعه الإسلامي الذي يتألف من عناصر متوافقة في العقيدة ورسوخ الإيمان مختلفة في وسائل الاستقرار والعيش، فالأنصار مستقرون في بلدهم، وبين أيديهم ثرواتهم يثمّرونها بطرائقهم في الزراعة والتجارة، والمهاجرون طارئون عليهم، وليس في أيديهم من حطام الدنيا قليل ولا كثير، وهم إذا كانوا قد وجدوا من كرم الأنصار ما فاق كل كرم عُرِف بين الناس من قبل ومن بعد، مما أنساهم آلام فراق أوطانهم والتأسف على ضياع ما كان لدى كثير منهم من ثروات وأموال، لكن ذلك كان دفعاً لحاجة الوقت لا تطمئن إلى الرضى به النفوس الأبية سبيلاً دائماً للحياة، فالأمر ليس أمر سدّ خلّة موقوتة، ولا أمر إحسان إن فقد التحديث بالمنة فيه، فإنه لم ولن يفقد الشعور بهذه المنة وهي أسر الأحرار.

استقرار المجتمع المسلم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً هدف من أهداف الهجرة

وإنما الأمر أمر مجتمع يجب أن يستقر على صورة من النظام الاجتماعي الدائم الذي تمتزج خصائصه المادية والمعنوية فتصبح عنصراً واحداً، تقوم عليه شخصية المجتمع الموحّد في عقيدته وتعبداته وأنظمته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية والتربوية المتلقاة من وحي الرسالة كتاباً

منزلاً، وحكمة ملهمة، وقدوة عملية؟

بلى إن ذلك كان من موجبات الدعوة وتبليغ الرسالة وتلقّي الوحي، وتنظيم المجتمع على أسس من الاستقرار الاقتصادي مع الاستقرار الاجتماعي والسياسي تنظيماً لا يقف عند مشارف العدل الرحيم، والإيثار الكريم، وإنما يجب أن يكون تنظيماً يرد رحمة العدل وكرم الإيثار إلى حق المشاركة الواجبة في العمل وأسبابه ومسبباته مشاركة لا تستشعر الامتنان، ولكنها مشاركة يشعر كل فرد فيها بحق يستمد قوته من المشاركة في العمل والتثمير والانتاج، ووحدة الإخاء.

وكان ما أراد الله وما أمر به نبيه ﷺ تحقيقاً لمقتضيات صيانة المجتمع وحفظ خصائصه ومميزاته المقومة لحقيقته. وهاجر النبي ﷺ وتلقّاه مجتمعه بالحب والاعتزاز والطاعة في المنشط والمكره، وحفّ به مجتمعه، وألقى إليه تقاليد تنظيمه في حربه وسِلْمه على أسس ودعائم اشتركت في إرسائها القوة الذاتية لهذا المجتمع النابعة من أصالة التشريع المرتبط بالعقيدة التوحيدية، ورسوخها في منازل اليقين، ومن المرونة الموائمة للحياة المستمدة وجودها من عموم الرسالة وخلودها لتكون رسالة كل جيل في كل زمان ومكان.

هذه هي في إيجاز عوامل الهجرة النبوية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تفجرت منها دوافع هذه الهجرة المباركة، وتمت على أسسها وأصولها وتحققت بها أهدافها.

كيف بدأت هجرة النبي ﷺ
تحقيق يكشف غموض بعض الوقائع والروايات

كان اكتمال هجرة الصحابة في صورته البارعة أغيظ شيء لعبيد الوثنية

كانت الصورة البارعة التي تم بها إنجاح هجرة أصحاب النبي ﷺ المستوعبة لجماهيرهم أفراداً وجماعات إلى المدينة المنورة ـ حيث إخـوانهم الأنصار ـ أغيظ شيء مسّ قلوب المستكبرين من طغاة المشركين وملئهم، وأوجع مانغـل أفئدتهم، ونكأ جراحهم الممدة بعد بيعة (فتح الفتوح) وهي البيعة الكبرى التي بايع فيها زعماء الأنصار وممثلوهم السبعون رسول الله ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه أُزرهم، ويحمونه ودعوته من كل قوة بشرية تناوئه أو تقف أمام تبليغ رسالته من الأحمر والأسود، فجن جنون الفجّار من سدنة الشرك وعبيد الوثنية وطواغيتها في مكة، لأنهم أحسُّوا أن أرض عتوهم الفاجر تميد تحت أقدامهم، وأن دعوة التوحيد والعدل التي جاء بها محمد ﷺ قد وجدت في (يثرب) مستقراً آمناً، وأنصاراً تخشى بوادرهم، وقوة قاهرة غلاّبة، أرعبتهم، وتخوفوا عواقب مواجهتها، فسُقط في أيديهم، وعضُّوا أنامل الغيظ، ورأوا أنهم قد ضلُّوا في ضلالهم وفجروا في طغيانهم، وخسروا معركة الوثنية المادية البليدة أمام دعوة الحق والتوحيد والعدالة والحريـة والمساواة والإخاء منذ اليوم.

ورأوا أن محمداً ﷺ سيلحق بأصحابه ليجمع أمره ليستأصل شأفتهم، ويقضي على تشامخهم واستكبارهم ليطهِّر أرض البلد الحرام من أرجاسهم، وإذاً فما بقاؤهم في الحياة، وخيِّر لهم أن يموتوا بغيظهم، ويتوسّدوا القبور لتغطِّي خزيهم الذليل.

إن ذلك إذا تمّ أصبحت مكة وطغاة قريشها بين عشية وضحاها في

رعب الطغاة خوفاً من خروج رسول الله مهاجراً إلى أصحابه

قبضة يده ويد أصحابه الذين عذّبوهم عذاباً لا طاقة لبشر على احتماله والصبر عليه، يأخذونهم كما يأخذ الإعصار القاصف أعجاز النخل الخاوية، فيبيدونهم كما يبيد السيل الجارف فقاقيع النزيز الطافية على أخابث النشع لتطهير الأرض من أوضار التعفن الوبيء، الذي أفسد فطرهم وأسقم قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم.

حذرت قريش وفجّار ملئها خروج رسول الله ﷺ من مكة لئلا يصل إلى أنصاره حيث القوة والمنعة والإيمان والفداء والتضحية والبطولة وصدق الإخلاص لدعوته، فعرفوا أنهم مأكولون بسيوف المهاجرين والأنصار، يمضغونهم كما تمضع الرحى هريس الطحين لو أن محمداً ﷺ وصل إليهم، وأمسك بيده زمام قيادهم، وأحكم بسياسته نظام مجتمعهم القوي الرهيب.

تداعي طغاة قريش للمكر بالنبي ﷺ والتآمر على قتله

فتداعى ملأ قريش ليأتمروا، وتنادوا ليمكروا، واجتمعوا ليتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، واتعدوا يوماً سموه يوم (الزحمة) لتزاحمهم بغوغائهم ورعاعهم وأراذل سفهائهم انتظاراً لما ينتهي إليه أمر أشرافهم.

وقد ذكر ابن دحية في المولد أن المجتمعين في دار الندوة كانوا مائة رجلٍ وذكر ابن دريد في الوشاح ـ كما نقله الزرقاني ـ أنهم كانوا خمسة عشر رجلاً.

والظاهر أن هذا ليس اختلافاً، وإنما ذكر ابن دحية العدد الذي اشترك في المشاورة، وذكر ابن دريد العدد الذي وقع عليه اختيارهم لتنفيذ ما ائتمروا به من قتل النبي ﷺ، وهؤلاء الذين يمثلون بطون قريش وقبائلها عملاً برأي غميز الرجولية الفاسق أبي جهل ورأي شيخه النجدي المتأبلس، حينما تداولوا الرأي فيما يدفعون به هذه النازلة التي أشجتهم وأخذت بحلا قيمهم، وكتمت أنفاسهم وأحاطت بهم لتقضي عليهم قضاء مبرماً يذهب بأمجادهم الجاهلية الوثنية، وتنهار تحت معاولها مفاخرهم المادية، وقال بعضهم لبعض وهم يمكرون: إن هذا الرجل ـ يقصدون محمداً ﷺ ـ قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنا والله لا نأمنه على الوثوب علينا فيمن تبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً. ودارت مشاوراتهم حول ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى

تذكيراً وامتناناً على عبده ورسوله بنعمته: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفـروا ليثبتـوك، أو يقتلوك، أو يخرجـوك، ويمكـرون ويمكـر الله، والله خير الماكرين﴾[1].

وتقول روايات السِيَر بما يشبه الإجماع إن إبليس حضرهم في ائتمارهم وكان مقرِّر حشدهم، يزيِّف ما لم يعجبه من آرائهم، ويمتدح ما يوافق خبثه ونجيس إجرامه، وكان حضوره متخفياً ليضلِّل غوغاءهم في صورة أعرابي غريب عليهم على هيئة شيخ نجدي، فلما رأوه واقفاً على باب دار ندوتهم قالوا له: مَنْ الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتّعدتم عليه فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يَعْدِمَكم منه رأياً ونصحاً فقالوا له في بلاهة حمقاء وتلهف مستنجد: أجل فادخل، فدخل معهم، وتولّى إدارة أحاديثهم، فكان يسمع ويفنِّد، حتى إذا انتفخ سِحْرُ فاسقهم غميز الرجولية أبي جهل، فتثاءب وتمطى، وتنفس حقداً فاجراً ومال بكلكله على شيخه النجدي المتأبلس ليتلقى وحيه بعد أن فنّد جميع ما قال القوم من فجور، ثم قال أبو جهل: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قال القوم في لهفة الغريق المستنجد بقشة تتقاذفها الأمواج العاتية: وما هو يا أبا الحكم؟ قال ـ وشيخه النجدي المتأبلس يضحك ساخراً وينظر إلى غميز الرجولية نظرة متعابثة، ويرد عليه غميز الرجولية نظرته بنظرة من جنسها ـ وكأنما يقول له: عفواً شيخ نجد، منك وإليك، ويقول غميز الرجولية بعد هذه المهارشة العابثة بينه وبين شيخه النجدي المتأبلس: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً، جليداً، نسيباً، وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فيتفرق دمه في القبائل جميعاً، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فيرضوا منا بالدية والعقل فنَدِيه ونعقله لهم.

فقال شيخه النجدي المتأبلس متنفجاً مأخوذاً إعجاباً وفخراً برأي ربيبه وتلميذه غميز الرجولية الفاسق أبي جهل: الرأي ما قال الفتى، هذا الرأي،

---

(١) سورة الأنفال آية (٣٠).

لا أرى غيره، وتفرقوا على ذلك وأخذوا يعدّون العدة لتنفيذ ما مكروا به.

قصة إبليس ضرب من الخيال المجنون

ونحن لا نقيم وزناً لأبْلَسة الشيخ النجدي وسواء لدى البحث أكان هذا المتأبلس شيخاً نجدياً من أناسي نجد ـ وكان صفوهم مع أعداء رسول الله ﷺ ـ أم كان إبليس عينه تزيا في هيئة شيخ نجدي أم لم يكن الذي توهموه شيئاً، وإنما هو صورة انتزعها من الوهم المتخاذل بعضُ من مسّهم الشيطان فتخيل وخال، وزعم وتقوّل، فالمسألة لا تتغير معالمها الحاقدة المستخذية، وليس بين الصدق والكذب عند عقلاء المجانين ومجانين العقلاء حاجز يفصل بينهما، فصدقهم كذب، وكذبهم ضلال وتمويه، وقدرةُ الله تعالى لا يتعاظمها شيء، والأمر متمكن في دائرة الإمكان قد يكون مما كان، وربما لم يكن قد كان، لأنه لم يثبت فيه خبر صحيح عن رسول الله ﷺ، وكان ما جاء فيه رواية مرسلة عن ابن عباس لم يثبت لها سند يمكن التشبث به والاعتماد عليه، ومهما يكن من أمر فقد انتخب الملأ من قريش بعض طواغيتهم ممن يمثلون قبائلهم لينفِّذوا ما اجتمعت عليه كلمتهم من الفجور الفاجر، فاختاروا خمسة عشر رجلاً في رواية، أو خمسة رجال في رواية أخرى كان قائدهم فتى إبليس وربيبه، غميز الرجولية الفاسق اللعين أبا جهل.

قال الزرقاني: وفي خلاصة الوفاء: وصوّب إبليس قول أبي جهل: أرى أن يُعطى خمسة رجال من خمس قبائل سيفاً فيضربوه ضربة رجل واحد.

ثم أراد الزرقاني أن يوفق بين رواية خلاصة الوفاء وغيرها من الروايات القائلة بتخير فتى من كل قبيلة يعطى سيفاً صارماً، فيضربوه ضربة رجل واحد، فقال الزرقاني في توفيقه: فلعلهم استبعدوا عليه قوله من كل قبيلة، إذ لا يمكن عشرون مثلاً أن يضربوا شخصاً ضربة واحدة، فقال لهم: خمسة رجال.

وهذا التوفيق ينظر إلى حرفية العبارة، وليس المقصود أن تقع الضربة من الجميع، وإنما المقصود أن يشترك جميع الممثلين للقبائل في ارتكاب الجريمة، سواء أوقَعتْ الضربة منهم أو من بعضهم دون أن يعرف الضارب بشخصه

وعينه، فتنسب الجريمة إلى الجميع متقاسمين فجورها فيما بينهم على سواء.

إشكال ضعيف

ومن أغرب ما ذكر في هذا المقام أن القسطلاني في المواهب فرض عدد الذين تربّصوا على باب النبي ﷺ للوثوب عليه وهو نائم على فراشه ليغتالوه مائة رجل، واستشكل ذلك برواية ابن أبي حاتم التي صححها الحاكم من حديث ابن عباس، قال: (فما أصاب رجلاً منهم حصاة إلا قتل يوم بدر كافراً) قال القسطلاني في دفع هذا الإشكال المتوهم: لا يشكل على القول أنهم كانوا مائة وقتلى بدر سبعون، لجواز أن يكون التراب الذي كان بيده - ﷺ - فيه حصى فما أصابه الحصى قتل، ومن أصابه التراب لم يقتل.

وهذه توهمات لا حقيقة لها، لأن الذين قالوا: إن العدد كان مائة رجل لا يعنون العدد الذي اختير لتنفيذ المؤامرة، فتربصوا على باب النبي ﷺ يتحينون غِرّة ليثبوا عليه وهو نائم على فراشه، وإنما يعنون العدد الذي اشترك في المشاورة في دار الندوة.

أما العدد الذي انتخب للتنفيذ فكانوا خمسة عشر رجلاً، أو خمسة رجال على الروايتين السابقتين، لأن قبائل قريش وكبار بيوتاتها لا تبلغ عدد المائة ولا نصيفها حتى يختار من كل قبيلة أو بيت فتى يبلغون في مجموعهم المائة لتنفيذ الجريمة النكراء، ولأنه يبعد جداً اجتماع مائة رجل على باب النبي ﷺ لقصد اغتياله، ولا يشعر بهم آل النبي ﷺ من بني هاشم، وبيوتهم متداخلة ومتقاربة من بيت النبي ﷺ، ويكاد يكون مِحالاً أن آل بني هاشم على علم بهذه المؤامرة الفاجرة، وهذا التربص الخبيث ثم يتركون المتآمرين المتربصين دون أن يتعرضوا لهم بشيء من الممانعة والتحرش بهم ومقاتلتهم.

بدء النهاية في أخبث مؤامرة

ولما استقر أمر المتآمرين على إطفاء أنوار شمس الحياة بنفخة من فجور أحقادهم وعتو طغيانهم جاء جبريل إلى النبي ﷺ وأخبره بالقصة، وقال يبلغه عن الله تعالى: «لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه».

وأقبل الليل زاحفاً على آفاق الحياة يلفها بثوبه القاتم، كأنه يحبو في زحفه وثقل خطوه حبواً يجر به أذياله، والعتمة بظلالها على الأرض متهامسة

بأصوات كفحيح الأساود في كهوف الجبال المستعرة بفيح جهنم، وأشباح الحياة قد ابتلعها الظلام في جوفه، ونام الكون في مهاد الرعب الأخرس، وأقبلت الشياطين بحفيف أجنحة من اللهب الأسود يقودون المتربصين بالحياة في نبضها المتوثب ليئدوها وقلوبهم من الهلع واجفة، وأبصارهم من الرعب زائغة.

وحطّت بهم الشياطين على باب محمد ﷺ يرصدونه حتى ينام ليثبوا عليه ويقتلوه.

يا لهول الحياة؟! تكاد السموات يتفطرن، وكادت الجبال تخر هدًا! أيقتل محمد الهادي ﷺ في لحظة واحدة بضربة واحدة، وتنشق الأرض، وتتناثر الكواكب، وتنتهي الحياة إلى ظلام مفرَّغ، لا يعلم له أول ولا آخر من قبل أن يقضي الكتاب أجله، ولمّا يبلّغ محمد الهادي ﷺ رسالته الهادية الخالدة؟! لا، لا، ولينقشع هذا الظلام، ولتبرز الحياة، ولتشرق الشمس، وليبلِّغ محمد الهادي ﷺ رسالته الهادية، ولْتَبْلُغ أجلها من الخلود، ولتذهب شراذم الشياطين وربائبهم إلى أودية الجحيم مشيّعة مع إبليسها بلعنات الله تعالى وخزيه إلى أبد الآبدين.

إشراق شمس الهداية وفداء الحياة في شخص قيّمها

ولتبدأ رسالة الخلود، رسالة محمد الهادي ﷺ سيرها، وليمض محمد ﷺ إلى أصحابه وأنصاره مهاجراً وداعياً إلى الله مبلِّغاً رسالات الله، متلقياً وحي الله، بشرائعه وأحكامه، ناشراً دين الله، معلماً ومربياً مجاهداً مصلحاً.

ورأى رسول الله ﷺ مكان المتربصين به، فقال لربيب النبوة علي رضي الله عنه: «نم على فراشي وتسجَّ ببردي الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم».

وصدع علي رضي الله عنه بأمر رسول الله ﷺ غير عابىء بما قد يكون من عواقب مهما كان شأنها، ولا ناظر إلى ما حوله من أخطار تكتنفه وتحف بجوانبه، فتسجّى ببرد رسول الله ﷺ الذي كان ينام فيه، ونام على فراشه يُورّي عنه ويفديه بنفسه.

وخرج رسول الله ﷺ على المتربصين به في رسوخ اليقين، وثبات الرواسي الشامخات وهم ينظرون بعيون مفتّحة ولكنها لا تبصر، وأبدان يقظى ولكنها مخدّرة الاحساس، مسكرة الشعور كأنها أشباح نخل خاوية، وأخذ رسول الله ﷺ حفنة من تراب، وجعل ينثره على رؤوسهم وهو خارج عليهم، تحقيراً لشأنهم واستهانة بمكرهم وسوء مكايدتهم، وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مُقْمحون * وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ فلم يبق منهم رجل إلا وضع على رأسه تراباً. قال ابن إسحاق وتبعه سائر من ألّف في السيرة النبوية من المتقدمين: ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى حيث أراد أن يذهب، قال ابن كثير في (البداية): وهذه القصة قد رواها الواقدي بأسانيده عن عائشة وابن عباس، وعلي وسراقة بن جعشم وغيرهم.

وقد كان خروج رسول الله ﷺ لهجرته سراً لم يعلم به ـ كما يقول ابن إسحاق ـ إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر، فأما علي ابن أبي طالب فأخبره ﷺ بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس.

وهذه خِصِّيصة لعلي رضي الله عنه لمكانه من النبي ﷺ ومنزلته الخاصة في قرابته وبيئته، لأنه ربيبه وأعرف الناس بالنبي ﷺ مدخلاً ومخرجاً وأعلمهم بأحواله وفي ثقة الناس به.

اختلاف الروايات في مذهب النبي ﷺ بعد خروجه من بيته

وقد اختلفت الروايات اختلافاً عريضاً لا تتلاقى أطرافه إلا بنظر موفّق يردّ بعضها إلى بعض في معرفة أين ذهب ﷺ بعد خروجه من بيته ليلاً تاركاً المتربصين في خيبتهم وخسرانهم يرصدون علياً وهو نائم على فراش النبي ﷺ يتوهمونه محمداً ﷺ وهم في سكرة الخزي الكسيح يعمهون.

ورواية البخاري وهي أصح ما روي في بدء الهجرة النبوية تقول: إن

النبي ﷺ لم يذهب إلى بيت أبي بكر الصديق، ومنه خرجا إلى غار ثور إلا في نحر الظهيرة من اليوم الذي أعقب ليلة خروجه ﷺ، فأين قضى ﷺ الليلة التي خرج فيها من بيته تاركاً علياً على فراشه ونصف اليوم الذي بعدها قبل أن يذهب إلى بيت صديقه أبي بكر رضي الله عنه في وقت لم تجرِ به عادته في الذهاب إليه، مع أنه كان دائم الذهاب إليه في كل يوم بكرة وعشية كما هو صريح حديث عائشة عند البخاري؟؟.

وهذا الاختلاف في الروايات المتعددة يسدل على الموضوع ستاراً من الغموض يتطلب في الكشف عنه تتبع الروايات بالنظر والموازنة والمقاربة، ليجعل منها صورة متوافقة لخط السير الذي سلكه رسول الله ﷺ بعد خروجه من بيته ليلاً وهو عازم على الهجرة التي أذن الله تعالى له فيها.

سياق رواية البخاري مع بعض التصرف

يقول الامام البخاري بسنده إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من حديث الهجرة الطويل الذي قالت عائشة في صدره: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين. ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية.

ثم ذكر الحديثُ خروج أبي بكر مهاجراً إلى الحبشة حتى بلغ برك الغِماد فقابله ابن الدغّنة، وذكرت عائشة قصته معه ورد أبي بكر جوار ابن الدغنة ورضائه بجوار الله تعالى، ثم ذكر الحديثُ قول النبي ﷺ لأصحابه: «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» فهاجر إليها مَنْ هاجر من أصحابه، وتجهز أبو بكر قِبَل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلك فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال«نعم» فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر.

ثم قال البخاري: بالإسناد نفسه قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، قال أبو بكر: فداءً له أبي وأمي؟! والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت عائشة: فجاء

رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرجْ مَنْ عندك» فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «فإني قد أُذن لي بالخروج» فقال أبو بكر: فخذ بأمي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيّ هاتين، قال رسول الله ﷺ «بالثمن» قالت عائشة: فجهزناهما أحثّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق، فقالت عائشة: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار بجبل ثور فكانا فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسْل حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغَلَس، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي، هادياً خِرّيتا، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، ودفعا إليه راحلتيهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل.

نظر وتحقيق في حديث البخاري

هذه هي أصح رواية في باب الهجرة النبوية، بيد أن البخاري رحمه الله تعالى لم يذكر ما كان من مكر قريش، وهو السبب المباشر في الإذن بالخروج والهجرة، وقد امتن الله تعالى على رسوله ﷺ إذْ نجّاه من مكرهم وائتمارهم به ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، كما لم يعرض البخاري إلى قصة اجتماع قريش في دار الندوة للتشاور في أمر النبي ﷺ، وما انتهوا إليه من إرادة اغتياله ﷺ اغتيالاً جماعياً ليتفرق دمه في قبائل قريش، فيعجز قومه عن مقاتلة جميع قبائل قريش ويرضون بالدية، وما كان من اجتماع منتخبيهم بباب النبي ﷺ لينفِّذوا جريمتهم الفاجرة، وما كان من خروج النبي ﷺ عليهم وتبييته على فراشه علياً، ثم انصرافه ﷺ إلى حيث يريد حتى ذهب

إلى بيت أبي بكر في اليوم التالي في ساعة يشتد فيها قيظ مكة ويقيل فيها الناس. يلتمسون الراحة في الظلال.

كما لم يعرض البخاري لمقدم رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر من أين كان؟ ولماذا اختار رسول الله ﷺ هذا الوقت (نحر الظهيرة) في هذا اليوم على الخصوص، ولم ينتظر إلى وقته المعتاد الذهاب فيه إلى بيت صديقه، وهو العشي؟ هل أوحي إليه بشيء اقتضى خروجه في ذلك الوقت؟ أو أحس شيئاً يدبر في هذا الوقت فبادر القوم بالذهاب إلى بيت صاحبه؟

هذه كلها أمور تركها البخاري رحمه الله ولم يعرِّج على ذكر شيء منها، والقرآن الكريم يشير في آية الامتنان إلى شيء أو أشياء منها ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك، أو يقتلوك، أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾ فإسناد المكر إلى الذين كفروا إسنادٌ إلى جماعة ائتمرت ودبّرت ومكرت لتحدث أخطر حادث في الحياة، وهل يمكن أن يكون هذا المكر والائتمار بهذا الأمر الخطير بين هذا العدد الكثير وتنفيذه ويتحقق دون أن يعرفه العديد منهم، وهل أُمر النبي ﷺ بالخروج دون أن يُخْبَر بما دُبّر له؟

وقد ذكر الأئمة المعنيون بأسباب نزول آيات القرآن ومنهم الحافظ السيوطي والواحدي روايات كثيرة نقلها عنهم أئمة التفسير، وكلها يذكر اجتماع قريش للتشاور في أمر النبي ﷺ، وهي وإن اختلفت في الأسلوب والسياق بالزيادة والنقص والتقديم والتأخير لكنها كلها تدور حول المعاني التي لم يعرج البخاري على شيء منها في حديث الهجرة الذي يؤذن سياقه بالوثبة من شيء إلى شيء، وقد كانت هذه المعاني في حاجة إلى تمهيد يبين الأسباب الدافعة إلى تلك الحوادث الخطيرة.

ولعل البخاري رحمه الله تعالى ذكر من حديث الهجرة ما توافر فيه شرط الصحة الخاص بجامعه الصحيح، ومهما يكن فإن حديثه نص قاطع بأن النبي ﷺ لم يأت بيت أبي بكر بعد خروجه من بيته في الليلة التي أذن له فيها بالهجرة إلا في منتصف اليوم العاقب لهذه الليلة، وهو اليوم الذي خرج فيه هو وصاحبه إلى غار ثور وأقاما فيه ثلاث ليال، وفي صبح ثالثة الليالي

خرجا من الغار منطلقين على اسم الله وبركاته في رحلتهما إلى المدينة المنورة.

فإلى أين ذهب ﷺ عقب خروجه من بيته؟ وأين قضى هذا الوقت الذي استغرق ليلة ونصف نهار قبل أن يذهب إلى بيت صاحبه وصديقه أبي بكر رضي الله عنه؟

محاولة بعض الباحثين من القدامى الكشف عن الغموض في هذا الموقف

وهذا التساؤل مر على ذهن بعض حذّاق قدامى الكاتبين في السيرة النبوية واعْتَرَفَ بأنه لم يقف له على إجابة، قال الزرقاني: قال صاحب النور: ولم أقف على ما صنع ـ ﷺ ـ من حين خروجه إلى أن جاء إلى أبي بكر في نحر الظهيرة.

وقد حاول الزرقاني في شرحه لمواهب القسطلاني الإجابة عن ذلك فقال: روى الإمام أحمد بإسناد حسن، قال: تشاورت قريش، الحديث، وفيه: **فأَطْلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات عليّ على فراشه وخرج النبي حتى لحق بالغار أي غار ثور ـ أي وحده ـ كما في رواية ابن هشام وغيره، فأفاد أنه توارى فيه حتى أتى أبا بكر منه في نحر الظهيرة، ثم خرج إليه هو وأبو بكر ثانياً.**

ومن هذا الحديث علم الجواب عن قوله في النور: ولم أقف على ما صنع ـ ﷺ ـ من حين خروجه إلى أن جاء إلى أبي بكر في نحر الظهيرة.

وهذا الجواب يتعارض مع ما ذكره الزرقاني نفسه عن البيضاوي، إذ قال: وفي البيضاوي ـ أي في تفسيره ـ: **فبيّت علياً على مضجعه وخرج مع أبي بكر إلى الغار،** وهذا غريب جداً

نقد بعض الروايات

قال ابن كثير في (البداية) عن عروة بن الزبير من طريق ابن لهيعة: **فأمر علياً فنام على فراشه، وذهب هو وأبو بكر،** وهكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه وأن خروجه هو وأبو بكر إلى الغار كان ليلاً، أي في الليلة التي خرج فيها ﷺ من بيته.

وهذا مشكل جداً، وأين كان أبو بكر رضي الله عنه،؟ هل كان موجوداً معه في بيته؟ وهل كان على علم بما كان من تآمر قريش ومكرها بالنبي ﷺ، وتشاورها في أمره بدار ندوتها؟.

وحديث البخاري ينفي بظاهره أن يكون أبو بكر كان على علم بشيء من ذلك بدليل تعجبه ودهشته حين أُخبر بأن النبي ﷺ قادم إليه متقنعاً في نحر الظهيرة من اليوم الذي كان عاقباً لليلة خروجه ﷺ من بيته بعد أن أمر علياً بالنوم على فراشه.

فلو كان أبو بكر رضي الله عنه موجوداً معه، وكان على علم بما يجري من الأحداث وخرجا معاً، وذهبا إلى الغار ليلاً معاً في الليلة نفسها لم يبق لحديث نحر الظهيرة مخرج ولا مورد، وهو مروي في أصح الصحيح، فلا يردّ إلا بأصح منه أو مثله، ودون ذلك مهامه فيح.

ومما يتعارض مع حديث الإمام أحمد الذي اعتبره الزرقاني جواباً عن تساؤل صاحب النور ما ذكره الزرقاني نفسه عن الدمياطي، إذ قال: وفي سيرة الدمياطي أنه ﷺ ذهب تلك الليلة إلى بيت أبي بكر، فكان فيه إلى الليلة المقبلة، ثم خرج هو وأبو بكر إلى جبل ثور.

وقد انتقد الزرقاني هذا القول، فقال: وفيه أن الثابت في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام أتى أبا بكر في نحر الظهيرة،وفي حديث أحمد، جعل انتهاء خروجه من بيته بعد أن بيّت علياً على فراشه لحوقه بالغار ـ أي وحده ـ إذ لم يرد لأبي بكر ذكر فيه بأنه خرج معه إلى الغار ليلاً في الليلة نفسها.

ولا ندري لماذا نقد الزرقاني كلام الدمياطي بما ثبت في الصحيح، ولم ينقد به حديث أحمد، ورأي البيضاوي ورواية عروة بن الزبير من طريق ابن لهيعة، وما ذكره موسى بن عقبة في مغازيه؟ وكل ذلك متعارض مع ما ثبت في الصحيح؟.

رواية غريبة ووجهها إذا صحت سنداً

ومن غريب ما وقع في (فتح الباري) وسبقه إليه صاحب العيون، فذكر بسنده، وسماع والده، وهو، حاضر في الرابعة ما قاله الحافظ: ووقع في رواية هشام بن عروة عند ابن حبان (فركبا ـ أي رسول الله ﷺ،وأبو بكر حتى أتيا الغار ـ وهو ثور، فتواريا فيه).

وهذا يحتمل أن يكون موافقاً لرواية الصحيح، وأن خروجهما إلى الغار

راكبـين كان من بيت أبي بكر بعد أن ذهب إليه النبي ﷺ نحر الظهيرة من اليوم الوالي لليلة خروج النبي ﷺ من بيته بعد أن بيّت علياً على فراشه، وهو احتمال ظاهر، ولكن موضع الغرابة في هذا الأثر قوله: (فركبا حتى أتيا الغار) وموطن البعد والغرابة، أنهما مطلوبان أشد الطلب، ومكة بطواغيتها قائمة غير قاعدة في البحث عن محمد ﷺ ليجدوه في أي مكان بأي ثمن، فكيف يخرجان راكبين، يعلنان عن نفسيهما،؟ هذا بعيد، لا يهضمه عقل اجتماعي.

نقد رواية واهية

ومن أغرب الروايات ما ذكره الحافظ ابن حجر في (الفتح) قال: وروى أحمد والحاكم من رواية طلحة النضري قال: قال رسول الله ﷺ «لبثت مع صاحبي ـ يعني أبا بكر ـ في الغار بضعة عشر يوماً، ما لنا طعام إلا ثمر البرير».

قال الحاكم: معناه: لبثنا مختفين من المشركين في الغار، وفي الطريق بضعة عشر يوماً، وقد اعترض الحافظ على هذه الرواية بأمرين:

أحدهما: أنه لم يقع في رواية أحمد ذكر الغار، وهي زيادة على الخبر من بعض رواته.

ثانيهما: أنه لا يصح حمله على حالة الهجرة، لما في الصحيح ـ كما تراه ـ من أن عامر بن فهيرة كان يروح عليهما في الغار باللبن، ولما وقع لهما في الطريق من لقيّ الراعي كما في حديث البراء في هذا الباب، ومن النزول في خيمة أم معبد، وغير ذلك، فالذي يظهر أنها قصة أخرى وهذا كلام من الحافظ غير مسلّم له.

أما الأول: فلأن عدم ذكر الغار عند أحمد لا ينفي ذكره عند غيره، وقد ذكرها الحاكم، وبيّن معنى الحديث على أساس وجوده، فإصدار ذكر الحاكم له دون دليل سوى دعوى أن بعض الرواة زادها غير مقبول.

وأما الثاني: فلأنّا لو حملنا الطريق على الطريق من بيت أبي بكر إلى الغار، بمعنى أنهما كانا يسيران ويختفيان ـ على بعد ذلك لقصر الطريق ـ، فما

كان عامر بن فهيرة يأتيهما باللبن في هذه المسافة، ولا لقيا راعياً، ولا نزلا بخيمة أم معبد، لأن ذلك كله كان في ليالي الغار الثلاث، وفي الطريق منه إلى المدينة.

ولو حملنا الطريق على طريق السير من الغار إلى المدينة ـ كما هو ظاهر كلام الحافظ ـ فاحتمال قلة الزاد والإسنات قائم لا يدفعه رواح عامر ابن فهيرة عليهما باللبن في أيام الغار الثلاثة.

ولقيُّ الراعي والنزول بخيمة أم معبد كان في أثناء الطريق في أوقات محدودة، فلا ينافيان قلة الزاد في سائر مراحل السفر، والاعتماد على ثمر البرير في أغلب أزمنة السفر.

ولم يُعرف أن النبي ﷺ وصاحبه أبا بكر الصدِّيق اختفيا في غار أو غيره هذه المدة الطويلة في غير رحلة الهجرة، ولو عرف لكان من أجدر الناس بمعرفته الحافظ ابن حجر ولا سيما في مثل هذه الوقائع، ولو وجده الحافظ عند غيره لذكره.

وقد جزم الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر بعدم صحة قصة ثمر البرير، فقال: وقد روى في حديث مرسل أن النبي ﷺ قال: مكثت مع صاحبي في الغار بضعة عشر يوماً، ما لنا طعام، إلا ثمر البرير ـ يعني الأراك ـ : وهذا غير صحيح عند أهل العلم بالحديث.

ومن غرائب الروايات في باب خروج النبي ﷺ للهجرة ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث طويل عن ابن عباس، يعدّد فيه مناقب علي رضي الله عنه ـ وقد وقع فيه رهط من شانئيه وغامطي فضله ـ وفيه: وشرى علي نفسه، لبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه، والمشركون يرمون رسول الله ﷺ، فجاء أبو بكر وعلي نائم، وأبو بكر يحسب أنه نبي الله ﷺ فقال: يا نبي الله ـ، فقال له علي: إن نبي الله ﷺ انطلق نحو بئر ميمون فأدْرِكْه، فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار.

فأين تقع بئر (ميمون) هذه في مكة؟ لقد أعياني البحث عن معرفة

مكانها بين آبار مكة، وقد دُرست معالم الآثار، وطُمست بيناتها، لأن الجهل بالتوحيد دفع الأغمار من العامة إلى أن خلعوا على هذه الآثار التي لها ذكر في حياة النبي ﷺ أثواباً من التقديس الذي يخدش وجه إخلاص العبودية لله الواحد الأحد، ولو عُلِّموا لَعَلِموا واستقاموا وحفظت الآثار الخاصة دلائل تاريخية، وآيات بينات على تفسير بعض الأحداث التي تتصل بحياة الدعوة وتبليغ الرسالة.

آثار وأخبار عن بئر ميمون

وكل ما وصل إلى علمي من أخبار بئر (ميمون) هذه التي تقول الرواية أن النبي ﷺ قد انطلق في خروجه من بيته ليلة التربص به لاغتياله نحوها ما ذكره (الأزرقي) في كتابه أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار إذ يقول: وكان لعبد المطلب إبل كثيرة، فإذا كان الموسم جمعها ثم يسقي لبنها بالعسل في حوض من أدم عند زمزم، ويشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحاج، لأن يكسر غلظ ماء زمزم، وكانت إذ ذاك غليظة جداً. وكان الناس إذ ذاك لهم في بيوتهم أسقية يسقون فيها الماء من هذه البيار، ثم ينبذون فيها القبضات من الزبيب والتمر لأن يكسر عنهم غلظ ماء آبار مكة ـ وكان الماء العذب بمكة عزيزاً، لا يوجد إلا لإنسان يُستعذب له من (بئر ميمون) وخارج من مكة.

فبئر (ميمون) كان لها امتياز على سائر آبار مكة بعذوبة مائها، وكانت خصيصة بمن يستعذب له الماء منها، وهذا في عرف الناس لا يكون إلا لطبقة ممتازة بالذوق وصفاء الطبيعة، ولعل النبي ﷺ كان يستعذب له الماء منها، وكانت قريبة من منازل بني هاشم، يردها منهم أشرافهم.

ومهما يكن من شيء فإن هذا الأثر من قبيل الآثار التي جمعت بين النبي ﷺ وصاحبه في الذهاب إلى الغار معاً في ليلة خروجه ﷺ، وهو معارض لحديث البخاري عن عائشة رضي الله عنها.

روايات مستبعدة ومعارضة للحديث الصحيح

وقد أبعد النجعة أبو جعفر الطبري في تاريخه، فذكر روايات زادت من شقة الاختلاف بين روايات الهجرة النبوية باختلافها أشد الاختلاف وأبعده مع رواية الصحيح، قال أبو جعفر: زاد بعضهم في هذه القصة في

هذا الموضع، وقال: ـ أي رسول الله ﷺ ـ لعلي رضي الله عنه: «إن أتاك ابن أبي قحافة فأخبره أني توجهت إلى ثور، فمره فيلحق بي، وأرسل إليّ بطعام، واستأجر لي دليلاً، يدلني على طريق المدينة، واشتر لي راحلة».

وهذا خبر كما يُرى لا يعوّل عليه لانه يتعارض مع حديث عائشة عند البخاري، وهو الأصل في هذا الباب.

ثم مضى أبو جعفر متمماً لروايته السابقة فقال: وقد زعم بعضهم أن أبا بكر أتى علياً فسأله عن النبي ﷺ، فأخبره أنه لحق بالغار من ثور، وقال له: إن كان لك فيه حاجة فالحقه، فخرج أبو بكر مسرعاً، فلحق نبي الله ﷺ في الطريق، فسمع رسول الله ﷺ جَرْس أبي بكر في ظلمة الليل فحسبه من المشركين، فأسرع رسول الله ﷺ المشي فانقطع قبال نعله، ففلق إبهامه حجر، فكثر دمها، وأسرع السعي، فخاف أبو بكر أن يشق على رسول الله ﷺ فرفع صوته، وتكلم فعرفه رسول الله ﷺ، فقام حتى أتاه فانطلقا ورِجْل رسول الله ﷺ تستن دماً حتى انتهى إلى الغار مع الصبح فدخلاه، قال ابن كثير في البداية تعليقاً على هذا الخبر وهذا غريب جداً، وخلاف المشهور من أنهما خرجا معاً، وهذا النقد من ابن كثير غير مستوعب، وهو إلى السطحية أقرب منه إلى التعمق.

وقد ذكر السيوطي في (الدر) أن ابن مردويه، وأبا نُعَيم في الدلائل أخرجاه عن ابن عباس وفيه اختلاف في سياقه وبعض عباراته.

قال ابن عباس: لما خرج رسول الله ﷺ من الليل لحق بغار ثور، وتبعه أبو بكر رضي الله عنه، فلما سمع رسول الله ﷺ حسّه خلفه خاف أن يكون الطلب، فلما رأى ذلك أبو بكر رضي الله عنه تنحنح، فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ عرفه فقام له حتى تبعه فأتيا الغار، فأصبحت قريش في طلبه، فبعثوا إلى رجل من قافة بني مدلج فتبع الأثر حتى انتهى إلى الغار، وعلى بابه شجرة فبال في أصلها القائف، ثم قال: ما جاز صاحبكم الذين تطلبون هذا المكان، فعند ذلك حزن أبو بكر رضي الله عنه، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا» فمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام، يختلف إليهم

بالطعام عامر بن فهيرة، وعلي يجهزهم، فاشتروا ثلاثة أباعر من إبل البحرين، واستأجر لهم دليلاً، فلما كان بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علي رضي الله عنه بالإبل والدليل، فركب رسول الله ﷺ راحلته، وركب أبو بكر الأخرى فتوجهوا نحو المدينة، وقد بعثت قريش في طلبه.

وفي تاريخ الطبري قال أبو جعفر: وأصبح الرهط الذين كانوا يرصدون رسول الله ﷺ فدخلوا الدار، وقام علي عليه السلام عن فراشه، فلما دنوا منه عرفوه، فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، أو رقيباً كنت عليه؟ أمرتموه بالخروج، فخرج، فانتهروه وضربوه، وأخرجوه إلى المسجد، فحبسوه ساعة ثم تركوه.

عجيب أمر هذه الروايات؟!

والذي ذكرناه من الروايات في بحث بدء هجرة النبي ﷺ، وكيف كانت هذه البداءة قليل من كثير مختلف مضطرب، لا يهدي إلى يقين، ولكن بعضه محتمل الوقوع، لا يرده نص قاطع، ولا ينكره عقل مُتَفقِّه في سيرة النبي ﷺ.

والبحث يقف مع رواية الصحيح، ويكملها بدءاً وانتهاء بما يشبهها في معناها، ولا نردّ الروايات المشهورة التي لا تتعارض تعارضاً يتعاصى على التأويل مما ذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ مما ذكره رواة أحداث السيرة النبوية من الحفاظ المتخصصين كابن إسحاق وموسى ابن عقبة، والبيهقي في الدلائل، وأبي نُعيم، والدمياطي والقسطلاني في مواهبه وشارحها الزرقاني، والحافظ في الفتح، وابن كثير في تفسيره وتاريخه البداية والنهاية، وذكره أئمة المحدثين من أصحاب السنن والمسانيد كالإمام أحمد والترمذي وابن مردويه، وابن حبّان، وابن أبي حاتم وأضرابهم.

والتأويل محتمل في كثير من الروايات بما يردها إلى رواية الصحيح، وقد نبّهنا على أن البخاري رحمه الله لم يتعرض لمقدمات الهجرة وأسبابها

المباشرة التي أشارت إليها الآية إشارة واضحة، وذكرت ذلك روايات الأئمة.

ومع ذلك ما يزال التوقف في الجزم بما كان من النبي ﷺ بعد خروجه من بيته في ليلة التآمر عليه والمكر به، والتشاور في أمره إلى أن ذهب إلى بيت أبي بكر في نحر ظهيرة اليوم التالي لهذه الليلة هو الأسلم، حتى يُظهر الله تعالى من غيبه أمراً يكشف الغطاء.

بيد أن هناك أمراً خطيراً لم تعرض له الروايات، ومجرى الحوادث يقتضيه مذكوراً فيها، بل في صدرها، ذلك هو موقف بني هاشم من هذا الحدث الخطير بكل مقدماته وأسبابه ووقائعه، وهو حادث لم يمرّ بهم مع قريش مثله في خطورته وضخامة آثاره، وبشاعة مناشئه ومنعرجات مكايده ومكره.

أين بنو هاشم في حادث هجرة النبي ﷺ ومكر قريش به، وائتمارهم على اغتياله في بيته؟ وما موقفهم منه؟ أفَإنْ مات أبو طالب ماتت حمية قومه من بني هاشم؟ وذهبت معه إلى الفناء نخوتهم وشجاعتهم؟ وأدبرت فَرُوقَة عصبيتهم وتعوضوا عن مكارمهم وتعززهم الذل والهوان والضيم، تصبها عليهم قريش متحدية بتجمعها وتآمرها على محمد ﷺ، وهو الذي كانوا بالأمس القريب يضعون أرواحهم على أكفهم لحمايته والذود عنه بسيوفهم وأنفتهم أن يضاموا فيه؟

هذا ما لا يمكن أن يصدّق، ولا يمكن أن يقبله عقل سليم، عرف أخلاق العرب عامة وحميتهم وعرف أخلاق بني هاشم في قوة شكيمتهم وعرامة نخوتهم، وعلو مكانتهم في بيوتات قريش بل في قبائل العرب عامة؟.

وإذاً ما حكمة عدم أي ذكر لهؤلاء الأُنُف الشامخين من بني هاشم في أخطر حادث مر بمكة وقريشها، بل في أخطر حادث مرّ بالحياة كلها؟ وهو حادث يمس في الصميم عزة الهاشميين، وهو حادث موجّه لإذلالهم لأنهم أصحابه وأهله منذ كانت أسبابه ودوافعه وعوامله يحاك نسجها من وراء أسوار بيوت بني مخزوم والعبشميين عداوة حاقدة للهاشميين؛ لأن الله تعالى

سيما بهم فاصطفى منهم محمداً ﷺ خاتماً للنبيين والمرسلين.

وقد ذاق الهاشميون مرارة هذه العداوة الحاقدة مع الأبعدين من بطون قريش منذ أنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ حفاوة بهم وتوجيهاً لهم إلى التعزز بحماية ما خُصّوا به من الاصطفاء الأعز فيهم، فجمعهم النبي ﷺ وخطبهم، ودعاهم إلى الله، وقال لهم في دعوته: «ما أعلم أحداً جاء قومه بأفضل مما جئتكم، جئتكم بخير الدنيا والآخرة» ومن ثَمّ وقف الهاشميون مواقفهم المتعززة في شجاعة وبطولة إلى جانب محمد ﷺ حمية لقوميتهم بسيوفهم، معرِّضين أرواحهم وأموالهم وعلاقاتهم إلى الهزاهز المدمرة، ولو لم يكن لهم إلا موقفهم يوم دعاهم أبو طالب وقد بلغه أن قريشاً تريد قتل محمد ﷺ فقال لأبناء هاشم: ليأخذ كل رجل منكم حديدة صارمة، ثم ليتبعني، فصدعوا بأمره دون أن يسألوه، فيم هذا؟ وذهب بهم يؤمهم حتى دخل المسجد والملأ من قريش قعود يهجرون حول الكعبة، فقال للهاشميين: ليكشف كل واحد منكم عن حديدته، فكشفوا عن سيوف عَطْشَى للدماء، ثم قال للملأ: أو قد رأيتم؟ والله لو قد مسستم محمداً - ﷺ - ما بقّينا على أحد منكم أو نهلك عن آخر رجل منا، فوجم لها ملأ الطغاة ولم ينبس منهم أحد بكلمة، ثم تركهم وقد اسودت وجوههم خزياً وذلاً.

ولو لم يكن للهاشميين من شرف مواقفهم مع قريش حماية عصبية لمحمد ﷺ إلا موقفهم الجماعي في دخولهم حصار الشعب مؤمنهم وكافرهم؛ لكفى دليلاً على أنهم كانوا في حميتهم القومية وعصبيتهم الهاشمية يجعلون نحورهم هدفاً يتقون به ذل المعرّة والضيم في شخص محمد ﷺ.

ولا نخص العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على مثل ما كانت عليه قريش من الوثنية والشرك - ومواقفه من النبي ﷺ والحدب عليه وكثرة مجالسته له ﷺ، حتى كان من يريد النبي ﷺ، وهو لا يعرفه عرفه بمجالسة العباس له.

وحسب العباس في ذلك موقفه يوم بيعة العقبة الكبرى (فتح الفتوح) وشهوده لها مع النبي ﷺ توثقاً له ﷺ، وما قال في خطبته العظيمة تنويهاً بعزة النبي ﷺ بسيف أهله وقومه، ومنعته فيهم.

ولا نذكر فتى الفتيان أسد الله وأسد رسوله ﷺ سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب الذي جدع أنف الغرور من اللعين الفاسق غميز الرجولية أبي جهل، وأذلّ قومه بني مخزوم حمية لابن أخيه محمد ﷺ يوم أن بلغه أن هذا اللعين الفاسق أبا جهل قد سبّه وآذاه، فذهب إليه على رؤوس ملأ الطغيان وضربه بقوسه فشجّه شجة منكرة، فلم تستطع بنو مخزوم أن تقف أمام حمية حمزة، ورضيت بذل المهانة وعار الجبن أمام وقفة حمزة في حميته التي انتهت به إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ إيماناً سما به فكان سيد الشهداء.

وحمزة رضي الله عنه هو الذي رعبل حشود الفجور في بدر، وأورد أشراف طغاتهم أوخم حياض الموت، وأذاق قريشاً طعم الهوان والمهانة والذل المستخذي بعد العنجهية والاستكبار الفجور.

أفيكون حمزة عم رسول الله ﷺ في قوة إيمانه، وشجاعته وفتوة بطولته موجوداً ـ على قيد خطوات من تجمع ملأ الطغيان من قريش، ومن ورائهم سفهاؤهم وغوغاؤهم للتآمر على قتل محمد ﷺ غيلة في جوف بيته على فراشه ـ ولا يسمع لزئيره همهمة ولا يحس لزمجرته زلزلة؟ بل لا يسمع له نأمة ولا تُحسَ له همسة؟.

أو يكون العباس بن عبد المطلب عمُّ رسول الله ﷺ الذي ندب نفسه حمية لابن أخيه، ليعرف موقف الأنصار يوم أن جاؤوا ليبايعوا رسول الله ﷺ على الإيمان به وبرسالته على أن يحموه بأرواحهم وأموالهم، ويمنعوه مما يمنعون به أعزّ ما يملكون من ذمار ـ موجوداً على مسمع مِنْ تآمر قريش ومكرهم بمحمد ﷺ ليقتلوه، ولا يعرف له موقف في هذا الحادث المدمر لشوكة بني هاشم، المذل لعزتهم؟

ولكنا نتساءل أين أولئك الأعزة الأماجد؟ وأين فتيانهم الأبطال المغاويرَ؟ بل أين شيوخهم وذوو رأيهم وقد صكَّ صوت أخبث مؤامرة أصماخهم، فهل كانوا على علم فذلُّوا وسكتوا واستكانوا مستسلمين لفجور قريش؟ أو كانوا سادرين في غطيط لم يوقظهم منه قعقعة صوارم السيوف التي أعدتها قريش لفتيانها الذين اختارتهم على عين فجورها ليغتالوا محمداً ﷺ بضربة واحدة وهو على فراشه في جوف بيته ليقتلوه فيتفرق دمه في القبائل،

وتعجز بنو هاشم عن الأخذ بثأره بمقاتلة جميع قبائل المتآمرين، ويرضون بعَقْله وديته فتعقله لهم قريش وتعطيهم ديته؟

إذاً كانت قريش تحسب لبني هاشم حساباً مرعباً مخيفاً لأنهم لا يزالون أمجاداً صيداً لا يعدلهم في ميزان الحرب والقوة إلا قبائل قريش مجتمعة.

ولكن أين هم أولئك الأسود الحَرَدة والأبطال الذين لا ترام نخوتهم، والحوادث تجري متتابعة مسرعة في زمجرة الفجور وهي تصيح بهم أين أنتم يا أسود الشرى؟

أليست قريش يقودها اللعين، لعين مخزوم غميز الرجولية الفاسق أبو جهل قد اجتمعت وتشاورت في أمر محمد ﷺ واتفقت كلمتها على اغتياله وقتله؟ أو ليس قد انتهى بها تشاورها في لحظات إلى اتخاذها قراراً بالتخلص من محمد ﷺ على أبشع صورة في صور الغدر والفجور، ومضت قريش قدماً في تنفيذ جريمتها الفاجرة واختارت فتيانها واختارت لهم صوارم أسلحتهم، واتخاذ مواقعهم على باب بيت محمد ﷺ، يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه لقتله، ونزل جبريل عليه السلام يأمر النبي ﷺ بعدم البيات على فراشه وخرج ﷺ ذاهباً حيث شاء وبيّت علياً على فراشه.

كل ذلك قد كان، ولا حسّ لبني هاشم ولا خبر، ولا وِرْد لهم في الأحداث ولا صَدَر، وهم قابعون في بيوتهم متقلبون في مصالحهم وأعمالهم، يروحون ويغدون من وراء الأحداث وفي ظلام النسيان وذل الاستكانة.

أفيمكن لذلك أن يكون؟ أو يصح في شرعة التاريخ الصادق أن يكون بنو هاشم قد تواروا في هذه الأحداث وراء الجبن المذلّ فلم يرفعوا رؤوسهم للأحداث وهي تمرُّ بهم فتلكزهم لكزاً يحوِّل قلوبهم من أماكنها بين أضلعهم؟ أو يرضى التاريخ المنصف أن يدوِّن في صحائفه هذا الموقف بصورته المذلة الذليلة؟ وكأن محمداً ﷺ ليس منهم في الذروة ولا في السفح؟

من يصدِّق هذا؟ ولكن الروايات الكثيرة التي ليس لها استثناء أجمعت على هذا الموقف العجيب الغريب، ولم نعلم أحداً من الباحثين في القدامى والمحدثين تعرض له بإنكار وهو أنكر المنكرات، حقاً إن التاريخ ظالم ومظلوم.

إذاً لا بد أن يكون في الأمر خبيء يكمن وراء هذه الروايات المتكاثرة

ما يمكن أن يكون وراء هذا الموقف من بني هاشم وإخوتهم بني المطلب

التي أهملت موقف بني هاشم بل تعمدت أن تهملهم وتتناساهم كأن لم يكونوا من أهل الذكر في البلد الحرام، حتى أبو لهب عدو محمد ﷺ وعدو رسالته المستعبد لعبشمية زوجه أم قبيح بنت حرب أخت أبي سفيان لم يُذْكر في صفوف المتآمرين إلا في بعض الروايات، كأن في الأمر مؤامرة أخرى قررت تحقير بني هاشم فلا يرد لهم ذكر قط في آخر فصل تختم به قصة الصراع المرير بين الوثنية المادية في عتوها وفجورها، يحمل رايتها أخابث طواغيت الشرك البليد، وبين دعوة الحق لإعلاء كلمة الله ـ كلمة الحق والتوحيد، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، يحمل لواءها رسول الله ﷺ محمد ابن عبدالله الهاشمي، وبنو هاشم على كفر بعضهم كانوا حماة دعوة الحق، تعصباً قومياً للذود عن رسولها وحامل لوائها محمد ﷺ باعتباره غصناً من الدوحة الهاشمية، ولهم في ذلك مواقف رادعة لجبروت المخزوميين والعبشميين ومن لف معهم في ذلك الفجور الوثني البليد من بطون قريش وأفخاذها، وهي مواقف مشهورة مذكورة لم يستطع التاريخ أن يتناساها أو يهملها كما تناسى وأهمل موقفهم في حوادث بدء الهجرة وأسبابها ودوافعها، وهي أخطر من كل ما سبق في مرحلة الكفاح المرير.

والخبيء الذي يكمن وراء الروايات في هذه القصة هو الذي يمكن أن يجيب عن التساؤل الذي تسوقه البداهة: أين ذهب رسول الله ﷺ بعد خروجه ليلاً من بيته ليلة المكرِ به؟ وهو الذي يحل المعضلة، فإن يكن هو الذي قد كان، وهذا ظن يوشك أن يكون يقيناً، ومن هنا كان من الواجب البحث عن سندٍ له من النقل، لأننا لم نعثر له على سند في رواية من الروايات التي استطعنا الوصول إليها والاطلاع عليها.

وإنما سنده عندنا في أمور توحي به إيحاء وتشير إليه إشارة بينة وهي:

أولاً: أن رواية البخاري رحمه الله ـ وهي التي استقامت لها معالم الصحّة كاملة ـ صريحة في أن النبي ﷺ إنما ذهب إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه في اليوم التالي لليلة خروجه ﷺ من بيته في منتصف النهار منه، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن معه ليلة خروجه، ولا كان عنده علم بالأحداث في مكر قريش وتآمرها وتشاورها في أمر النبي ﷺ

ثانياً: أن موقف أبي بكر رضي الله عنه في استقبال النبي ﷺ حين قدم إلى بيته في نحر الظهيرة من اليوم التالي لليلة خروجه من بيته بعد أن بيّت علياً على فراشه يوحي بأن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن قط على علم بما حدث من تجمعات قريش ومكرها وائتمارها بالنبي ﷺ، لأنه حين أخبر بمقدم النبي ﷺ إليه في نحر الظهيرة أبدى تعجباً واستغراباً وإشفاقاً على رسول الله ﷺ أن يكون قد حدث أمر خطير حمله على السعي إليه في هذه الساعة القائظة فقال: بأبي وأمي هو، ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، ثم أخبره ﷺ بأنه أُذن له في الهجرة، ولم يلبثا في بيت أبي بكر إلا ريثما جُهزا أحث الجهاز وخرجا من خوخة في ظهر بيت أبي بكر متوجِّهَين إلى غار ثور، بعد أن واعدا دليلهما صبح ثالثة عند الغار.

وكان أبو بكر مُعِدّاً للهجرة منذ أن رآه النبي ﷺ يتجهز قِبلَ المدينة فقال له: «على رِسْلك فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر استطعاماً لهذا الخبر السار: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال «نعم» فحبس أبو بكر رضي الله عنه نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه.

ثالثاً: إن الروايات المخالفة لرواية البخاري مضطربة متضاربة.

بعضها يقول إن أبا بكر رضي الله عنه خرج مع رسول الله ﷺ ليلاً، وتوجها معاً إلى غار ثور، وهذا يفيد أن أبا بكر رضي الله عنه كان مع رسول الله ﷺ في بيته ليلة المؤامرة والمكر وهو مخالف لما تفيده رواية الصحيح.

وبعضها يقول: إن رسول الله ﷺ خرج من بيته وذهب وحده إلى الغار في جبل ثور، فبات فيه، ثم أتى منه إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه في نحر الظهيرة من اليوم التالي لليلة الخروج من بيته ﷺ، وفيه مخالفة لرواية الصحيح التي تقول فيها عائشة رضي الله عنها: ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية.

فكيف لم يذهب أبو بكر رضي الله عنه صبح هذه الليلة ليسأل عن رسول الله ﷺ ويعرف سبب تخلفه عن عادته في مجيئه إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه طرفي النهار، وهو ﷺ تخلّف عشية ليلة المؤامرة وصبحها، وحينما جاءه في منتصف النهار عجب أبو بكر ودهش؟

وبعضها يقول: إن النبي ﷺ أمر علياً رضي الله عنه أن يشتري له ثلاثة أبعرة، وأن يستأجر له دليلاً يدله إلى المدينة، وأن يأتيه بطعام، وهذا صريح في مخالفته لنص حديث الصحيح في أن أبا بكر رضي الله عنه هو الذي اشترى الراحلتين وأعطى رسول الله ﷺ خيرهما، فأبى أن يأخذها إلا بالثمن الذي اشتُريت به ليخلص هجرته من أية شائبة، ولو كانت عن مواساة الإخاء، وأن آل أبي بكر رضي الله عنه هم الذين جهزوهما أحث الجهاز، وأعدوا لهما سفرة في جراب رُبط بنطاق أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بعد أن شقته نصفين فلقِّبت ذات النطاقين، وأن عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه كان يرعى عليهما غنماً لأبي بكر في غَلَس من الليل، فيشربان من ألبانها ويذبحان ما يحتاجان إليه من شياهها.

وبعضها يقول: إن النبي ﷺ قال لعليّ: «إذا أتى ابن أبي قحافة فقل له يلحق بي في غار ثور»، وهذا يفيد أن النبي ﷺ توجه بعد خروجه من بيته إلى غار ثور، وأن أبا بكر رضي الله عنه لحق به فدخلا الغار صباحاً بعد أن جرح إصبع رسول الله ﷺ، وفيه مخالفة لرواية الصحيح.

وبعضها يقول: إن أبا بكر رضي الله عنه جاء فسأل علياً عن رسول الله ﷺ فقال له علي رضي الله عنه: إنه توجه نحو بئر (ميمون) فالحق به إن كانت لك حاجة.

وهكذا. . . .، وهكذا تختلف الروايات كلها اختلافاً جوهرياً مع رواية الصحيح، وتختلف مع بعضها، ولهذا قلنا: إن التوقف في قبول هذه الروايات ـ واعتبار بعضها إجابة عن التساؤل الذي تسوقه البداهة: أين ذهب رسول الله ﷺ بعد خروجه من بيته؟ وأين قضى ﷺ ليلته ونصف اليوم الذي وليها قبل أن يذهب إلى صديقه أبي بكر رضي الله عنه نحر ظهيرة ذلك اليوم ـ أسلم حتى تظهر أدلة نقلية تجيب جواباً شافياً لا يتعارض مع رواية الصحيح.

رابعاً: ما بيّنا من موقف الروايات كلها من عدم ذكر بني هاشم في القصة كلها يجعلنا نقف من تلك الروايات موقف العجب المدهش، ويفتح

أمامنا أبواباً للحدس واستوحاء العقل، وقرائن الوقائع وما يحتف بها من أمور لعلنا ننفذ منها إلى مخرج يُلائِم أحداث القصة بدءاً ونهاية، ويحل مشكلة التساؤل الذي لم تجب عنه الروايات بما لا يختلف مع رواية الصحيح وبما لا يقع فيه الاضطراب والتعارض.

لقد ألقى موقف الروايات المتكاثرة المتخالفة من بني هاشم وعدم ذكر شيء، أي شيء عنهم في هذا الحادث الخطير ـ وهم عصبة محمد ﷺ الذين أشادت الروايات بمفاخرهم وبطولة مواقفهم في الذود عنه وحمايته بأرواحهم، وتضحياتهم وتصديهم لحماقة قريش وسفهائها ورد كل اعتداء يحسُّون أنه دُبِّر للنيل منه ـ ظلالاً من الحيرة والدَّهش، وأثار في النفس ظنوناً، وفي العقل إيحاءات، وفي التفكير سبحات للاستنباط بناء على ما أوضحناه من أسباب تجعل من المحال عرفاً أن تمر هذه الأحداث التي تفجرت عنها قصة الهجرة النبوية في غيبة متلاهية، وفي صمت لا يعدله إلا صمت الموتى في القبور ممن كانوا بالأمس القريب يهزون أركان مكة بزئيرهم، إذا سمعوا أو أحسوا أن أحداً قد نال أو يريد أن ينال من محمد ﷺ شيئاً من الأذى بالكلمة أو الفعل، فكيف بهم وقعقعة السلاح لقتل محمد ﷺ غيلة في جوف بيته على فراشه تقرع أفئدتهم وتدق أبواب قلوبهم دقاً عنيفاً مزمجراً مرعباً، وبيت محمد ﷺ بين بيوتهم كالقلعة التي تحيط بها أسوار من الكتائب المعبأة للهجوم؟

الأحداث كلها والوقائع جميعها تأبى كل الإباء أن يكون بنو هاشم نبعة محمد ﷺ التي انفرجت عن غصنه، وبيضته التي تفقأت عن طائره، بعيدين كل البعد الذي يفقدهم الشعور بما يجري حولهم من قاصمات الظهور في أحداث هي أخطر من كل ما مرّ بهم في شنف قريش وعدائها لهم بسبب مواقفهم البطولية في الذود عن محمد ﷺ وحمايته.

فالبداهة تقضي بأن بني هاشم كانوا في حومة الأحداث يقودونها بتدبيرهم ومحكم سياستهم، وأنهم كانوا على أكمل العلم وأتم المعرفة بمكر قريش وتآمرها، فرأوا أن يقاتلوها بسلاحها، سلاح المكر والمخادعة، فأحكموا أمرهم لينتهي بقريش إلى الخزي والخذلان والفشل وعار الأحدوثة.

وينتهي بمحمد ﷺ إلى تمكينه من الهجرة حيث أصحابه من المهاجرين والأنصار الذين بايعوه على نصرته وإعزازه ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وذراريهم وحرماتهم بمشهد من عمِّه العباس بن عبد المطلب، وكان العباس ما يزال على دين قومه من الشرك والوثنية، توثّقاً لابن أخيه من هؤلاء المبايعين الصناديد بقية السيف من أبناء قيلة، أوسها وخزرجها، وقد تقدم بين يديهم بالهجرة إليهم الصفوة السابقون الأولون من المؤمنين.

هذا الاتجاه في فهم الأحداث يوحي به ترابط الوقائع في الماضي والحاضر والمستقبل، ذلك الترابط الذي يوجب أن يكون وجود بني هاشم في غَمْرة الأحداث ومطالعها قادة ذادة حكماء يسوسون الأمور سياسة حقيقية واقعة بكل ما يجعلها حلقة في سلسلة التاريخ لا بد من وجودها.

وإذا كان ذلك كذلك فالمعقول القريب إلى التصور أن يكون النبي ﷺ خرج من بيته بعد أن بيّت علياً رضي الله عنه على فراشه إلى بيت من بيوت بني هاشم على علم منهم بمكانه ﷺ، وفيه قضى ليلته وصدر يومها حتى إذا أظهر وهدأت الحياة خامدة تحت وطأة سعير مكة، ولهيب حرها، وقال الناس في فيء الظلال من البيوت وغيرها خرج ميمماً بيت صديقه أبي بكر رضي الله عنه، فأتاه في نحر الظهيرة، وهو وقت لم يكن من الأوقات التي تعودّ رسول الله ﷺ أن يأتي فيها آل أبي بكر رضي الله عنه، فتلقّاه الصدِّيق بلهفة المتوجس المشفق متسائلاً ليكشف له عن سبب مجيئه المفاجىء في هذا الوقت الذي تتثاءب فيه الحياة مسترخية خامدة لا يحس لها حراك قائلاً: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر ـ أي خطير ـ ورأى النبي ﷺ لوائح اللهفة والتوجس والإشفاق تلوح على وجه الصديق رضي الله عنه، فبادره بأسعد بشرى في حياته فقال له: «إني قد أذن لي بالخروج» فقال أبو بكر رضي الله عنه: الصَّحَابة بأبي أنت يا رسول الله، فقال «نعم».

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، ورأيت أبا بكر يبكي وما كنت أحسب أن أحداً يبكي من الفرح.

الإعداد لمسيرة الهجرة
في رعاية الله وكنفه

بدء مسيرة الهجرة من منزل أبي بكر إلى ثور ثم منه إلى المدينة

وكان أبو بكر رضي الله عنه قد حبس نفسه على رسول الله ﷺ انتظاراً لصحبته في هجرته بعد أن قال له رسول الله ﷺ ـ وهو يتجهز قِبَل المدينة بعد أن ردّ جوار ابن الدغنّة ورضي بجوار الله تعالى ـ: «على رِسْلك، فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر رضي الله عنه: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال «نعم».

وأخذ أبو بكر رضي الله عنه يُعد العدة لصحبة رسول الله ﷺ في هجرته عملاً بما فهمه من رجاوة رسول الله ﷺ في الإذن له بالخروج، واشترى راحلتين نجيبتين ظل يعنى بهما ويعلفهما ورق السمر أربعة أشهر.

فلما أُذن لرسول الله ﷺ بالهجرة في ليلة المكر القرشي، ووعد الصديق بالصحبة قال أبو بكر رضي الله عنه: فخذ ـ بأبي أنت يا رسول الله ـ إحدى راحلتيّ هاتين، فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن الذي ابتعتها به» فقال أبو بكر رضي الله عنه، أخذتها بكذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ: «أخذتها بذلك» قال أبو بكر رضي الله عنه: هي لك، وقد ورد من طريق الواقدي أن ثمن الراحلتين كان ثمانمائة درهم وكانتا من نجائب بني قشير، والجمهور على أن التي أخذها رسول الله ﷺ هي القصواء.

خلوص الهجرة من شائبة تفضل من ولو كان أعز الأء

وفي صنيع رسول الله ﷺ وموقفه من صاحبه وصدِّيقه أبي بكر رضي الله عنه وامتناعه من أخذ الراحلة إلا بالثمن الذي اشتراها به تنويه بعظم شأن الهجرة، وأنها عمل يمتاز على سائر أعمال الإيمان من العبادات

مال أبي بكر وثروته وإنفاقها على رسول الله ﷺ وعلى الدعوة إلى الله

والمعاملات، فيجب أن يتمحض لصاحبه، فلا يدخله شيء من فواضل المواساة الأخوية والمودّات الحبيّة، ومن المعروف المتعالم أن النبي ﷺ قد قبل من الصدِّيق رضي الله عنه كثيراً من المواساة الأخوية، وأنفق عليه الصدِّيق مالاً كثيراً، وأثنى عليه النبي ﷺ بذلك فقال: «إن من أمنِّ الناس عليّ في ماله أبا بكر» قال العلماء: وكانت ثروة أبي بكر رضي الله عنه أربعين ألف درهم أنفقها كلها على رسول الله ﷺ وعلى الدعوة إلى الله تعالى.

وكان آخرها خمسة أو ستة آلاف حملها معه في هجرته إلى المدينة، لم يترك لآله وولده شيئاً.

حيلة أسماء لتسكين جدها

روى محمد بن سعد في الطبقات بسنده إلى أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل ماله كلّه معه، خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم، فانطلق بها معه، فدخل علينا جدّي أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه فقلت: كلا يا أبت، إنه ترك لنا خيراً كثيراً، قالت أسماء: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة البيت حيث كان أبي يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: ضع يا أبت يدك على هذا المال، فوضع يده عليه وقال: لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم قالت أسماء: فلا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكنّ الشيخ بذلك.

تميز الهجرة في الإخلاص لله وعدم قبول تفضل فيها من أحد

فامتناعه ﷺ ـ مع ما بذله أبو بكر رضي الله عنه من مكارم المودة ومواساة الإخاء ـ من أخذ الراحلة في سفر الهجرة إلا بثمنها دليل على اختصاص الهجرة وتميزها بهذا الفضل الرفيع الذي خصها به رسول الله ﷺ، وبهذا الاختصاص المميز للهجرة ـ وما فيها من مفارقة الوطن والأهل والولد والأصدقاء والعشراء والمال واحتمال شظف العيش وضيق المستقر، احتساباً لوجه الله وتطلّباً لرضاه، وقياماً بالدعوة إلى دينه وإعلاء كلمته ـ فضّل الله المهاجرين على سائر فئات أهل الإيمان وأنزلهم منزلة الحمد من فاتحة الكتاب، فكانوا رضي الله عنهم أفضل الخلق وأكرمهم على الله بعد النبيين والمرسلين.

وكان رسول الله ﷺ وصاحبه الصدِّيق رضي الله عنه قد واعدا دليلهما عبد الله بن أريقط وكان هادياً خرِّيتاً حاذقاً بمعرفة الطرق والمنازل وهو على شركه، فأمناه ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثَوْر بعد ثلاث ليال، وعمدا إلى غار ثَوْر بأسفل مكة، وأمر أبو بكر ابنه عبدالله أن يتسمع لهما أخبار ما يقوله الناس في شأنهما نهاره ثم يأتيهما ليلاً بأخبار ما كان في ذلك اليوم.

وأمر أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى فيحتلبا من ألبانها، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام.

بدء سير الركب الميمون المبارك في رحلة الهجرة إلى الله لتبليغ رسالته ونشر دعوته

وفي صبح الليلة الثالثة جاءهما دليلهما ابن أريقط براحلتيهما وبعير له، وقَبْل أن يركبا تكلم رسول الله ﷺ مستشعراً ما يحيط بهذا السفر من أخطار وشدائد تتطلب لوناً من الصبر والرضا، واللجوء إلى الله تعالى، والاعتصام به في ضراعة العبودية وذل الاستكانة إلى رحمته.

قال ابن كثير في البداية وأبو نُعَيم في الدلائل: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة قال: «الحمد لله الذي خلقني ولم أكُ شيئاً، اللّهم أعنِّي على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائب الليالي والأيام. اللهم اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذلّلني وعلى صالح خُلقي فقومني، وإليك ربي فحببني، وإلى الناس فلا تكلني. رب المستضعفين وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض، وكشفت به الظلمات وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن تحل عليَّ غضبك وتنزل بي سخطك، لك العتبى عندي خير ما استطعت ولا حول ولا قوة إلا بك».

وقد تحرك الركب المبارك محفوفاً برعاية الله تلحظه وتسدِّده وهدايته تقوده وترشده، وقد سلك بهم الدليل طريق السواحل في مهايع غير مطروقة حتى بلغوا بعد بضعة عشر يوماً قُباء، وهي أول منازل المدينة، فنزلا في بني عمرو بن عوف خير منزل آمنَيْن مطاعَيْن.

وقد توالت أحداث الرعاية الربانية على رسول الله ﷺ وصاحبه

آيات الله وجند نصره في طريق الهجرة من بيت أبي بكر إلى غار ثور إلى المدينة

الصدِّيق منذ خروجهما من بيت أبي بكر رضي الله عنه عامدين إلى غار ثور، وتكاثرت روايات الوقائع والأحداث في هذه الرحلة الإيمانية، ورويت فيها أمور إعجازية أكرم الله بها نبيه ﷺ ليربط على قلبه، ويثبِّت بها قدمه، ويؤنس فؤاده، ويخفف عنه أثقال ما لقي من أزمات وما يتوقع من شدائد وأهوال في رحلة كانت الفيصل بين مرحلتي الرسالة الخالدة: مرحلة الكفاح المرير والنضال الصبور في مكة، ومرحلة الفتح المبين وتأسيس البناء الشامخ لدولة الإسلام في نظامها العقيدي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والتربوي والخلقي، وتنزل التشريع الحكيم المحكم الذي يجمع في إطاره هذه الأوضاع والتنظيمات لخير الإنسانية على هذه الأرض على أسس العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات للأفراد والجماعات.

وهذه المرحلة كانت الهجرة النبوية هي حجر الزاوية فيها، واللبنة الأولى في بنائها؛ لأنها مرحلة بدأ فيها نضال جديد من نوع تكافأ أولاً مع قوى الشر المادية، فردّها على أعقابها مدحورة، ثم استبحر وتوالت انتصاراته هادرة الأمواج، قوية الانطلاق، قاهرة الردع، سريعة الحركة، جياشة المد، فوّارة الاندفاع، عظيمة المنح والعطاء.

منهجنا في البحث وموقفنا من روايات الأحداث والوقائع في طريق الهجرة

وموقفنا في البحث من روايات الأحداث أننا نؤمن إيماناً لا يخالجه شك أن قدرة الله تعالى لا يتعاظمها في الكون شيء، وأن الله تعالى يجري على يدي رسوله ﷺ ما يشاء من الآيات تكريماً له، وتشريفاً لمقامه، وتعظيماً لمكانته، وإظهاراً لسمو منزلته عنده، دون أن تقف سنن الكون العامة التي أقام الله نظامه عليها أمام اقتدار الله تعالى على إحداث سنن خاصة يأتي بها لحكمة تقتضيها بصورتها الخاصة ولا يخرجها ذلك عن إطار السنن الإلٓهية التي يسير عليها نظام الوجود في هذه الحياة، والله فعال لما يريد لا يسأل عما يفعل.

بيد أننا لا نؤمن بالروايات التي تجيء بوقائع إعجازية تخرق نواميس سنن الله العامة في الكون إلا إذا ثبت لدينا سندها صحيحاً بغير معارض، متصل النقل المضبوط إلى رسول الله ﷺ، ولكنا لا نسارع إلى رد الروايات التي لا يعرف في سندها كذّاب وضّاع للحديث، ولا تصل إلى درجة

الصحة، ونقف منها موقف التسليم بإمكانها ولا نتخذها دليلاً على إثبات أو نفي.

هذا مذهبنا الذي قررناه بتفصيل وإسهاب في المقدمات الممهدات، وهو الذي ندين الله عليه، ونعتقده، ونؤمن به.

على ضوء ذلك ننظر في بعض الروايات التي وردت فيها وقائع أحداث في قصة الهجرة النبوية تعد آيات تدخل في إطار الإعجاز البشري، وتجري على سنن كونية خاصة تخضع لقهر الاقتدار الإلهي لعناصر الطبيعة المبثوثة في الكون كله.

ولسنا نقصد بذلك إلى استقصاء الوقائع المروية فيها، لأن كثيراً منها ضعّفه الأئمة من جهة إسناده وهذا مما لا نعول عليه، وإنما نقصد إلى ذكر الوقائع التي استفاضت رواياتها بأسانيد لم يذكر فيها معروف بالكذب ووضع الحديث، لأن مثل هذه الروايات النظيفة قد يزول عنها الضعف وهي في جملتها داخلة في احتمال وقائعها تحت قوله تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾[1] فالآية تذكر سنة من سنن الله تعالى الخاصة مع نبيه ﷺ، يقتضيها الموقف أن تكون في واقع الحياة المشهود.

وفي هذه السنة الخاصة يبين الله تعالى أنه تعهد نبيه محمداً ﷺ في مراحل حياته برعايته وتربيته، وفضّله ونشّأه على أكرم مكارم الأخلاق، وجعله محبباً إلى القلوب حباً طبيعياً حتى بعثه برسالته، فشنفت له أفئدة الوثنيين المشركين بالعداوة، ووقفوا في طريق دعوته يعوّقونها عن سيرها، فتولّاه الله تعالى بنصره، وآزره بحمايته في مواقف لم يكن فيها معه أحد إلا الله بقوته وقهره ومحكم تدبيره حتى كنتم أنتم معشر المؤمنين صنيعة يده بنصر الله له.

---

(١) سورة التوبة آية (٤٠).

عتاب لعامة المؤمنين ما عدا أبي بكر الصديق رضي الله عنه

وهذا عتاب للمؤمنين كافة ما عدا الصديق أبا بكر رضي الله عنه الذي لم يترك رسول الله ﷺ في موقف من مواقف الأزمات والشدائد، ولم تسترخ عزيمته قط في أشد المواقف، ولذلك لم يدخل في عموم الخطاب وقد شمله النداء بوصف التشريف ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ الذي جاء عاقباً له خطاب العتاب في عنف وشدة ﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضرّوه شيئاً، والله على كل شيء قدير﴾[1].

فالله تعالى يعاتب المؤمنين على تقاعسهم عن نصرة نبيه ﷺ استرخاء لمتع الدنيا المقرونة بالمنغصات المنتهية إلى الزوال، بعد أن ندبهم لنصرته فتثاقلوا مخلدين إلى الأرض، مستعذبين الراحة والترهل، راغبين بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ.

وكان هذا درساً في تربية المؤمنين وتطهير أنفسهم من الحرص إلى الركون للدنيا ومتعها، درساً جعل من المجتمع المسلم مجتمع شجاعة وبطولة وتضحية في سبيل نشر الدعوة وحماية الرسالة مما يتكاءدها من عقبات وعوائق يقيمها أعداؤها في طريق سيرها لوقف مدّها وصد تيارها الزخار.

تحليل لآية العتاب

ثم أعلم الله المؤمنين في أسلوب صارم أنهم إلّا يستجيبوا لداعي العزة وينفروا للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله إذا استنفرهم رسول الله ﷺ يعذبهم الله بتسليط عدوهم عليهم، وسلبهم ما غشي قلوبهم من متع الدنيا وشهواتها والاسترواح إلى زخارفها، ويستبدل بهم قوماً غيرهم لينقّي ساحة الإيمان من ضعف العزائم ووهن القوى وترهل الترف المفسد للفطر الأصيلة، و ﴿ يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾[2]. وهو سبحانه غني عنكم، يعز دينه وينصر نبيه ﷺ بمن شاء وما شاء من خلقه ﴿ولله جنود

(١) سورة التوبة آيتا (٣٨، ٣٩).
(٢) سورة المائدة آية (٥٤).

السموات والأرض﴾[1] فلا منة لأحد من الخلق على دين الله، ولا على رسوله ﷺ، ولكن الله تعالى يمنُّ على من يشاء من عباده، لا يضره من تقاعس عن نصرة دينه والجهاد لإعلاء كلمته، لأنه القوي المقتدر لا يتعاظم قدرته شيء في الأرض ولا في السماء، ثم ذكرهم بما لا ينسى من فضله واقتداره فقال لهم: إلّا تنصروا رسولي لنصرة ديني الذي أخرجكم به من الظلمات إلى النور، فليس به حاجة إليكم وإلى نصرتكم، لأن الله تعالى تولّاه منذ أشرق نور وجوده على آفاق الحياة، وربّاه بفضله ونشّأه على عينه أميناً صدوقاً متحلياً بأفضل الشمائل منعوتاً بأكمل المكارم حتى بعثه رحمة للعالمين ورسولاً إلى الناس أجمعين، فدعاهم لما يحييهم، فأشاحوا عنه وكذَّبوه وآذوه واستهزؤا به، وقالوا: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾[2]. . . وتجمعوا لعداوته وتعويق رسالته وكانوا إلباً عليه، يمكرون به، ويأتمرون لقتله، فنصرته على جموعهم، ورددت مكرهم به إلى نحورهم، وأيدته بقوتي واقتداري وجنودي من خلقي، وأظفرته على أعدائه بقوتي وقهري، وأعززته بعزي يوم أن كان في أشد مضايق الأزمات وحيداً ليس معه أحد سوى صِدِّيقه وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه، وقد أويا إلى غارٍ في ذروة جبل ثور، ومكة بلدة ترقص بملئها وطواغيتها على بركان من الحقد الفاجر والعتو الكفور، بعد إذ أخرجته من بيته في جوف الليل، وخرجت إذْ علمت أنه نجا من مكرها وكيدها تبحث عنه وكأنما مسّ ملأها تخبّط من الشياطين لتشفي بقتله غيظها، حتى وصل بها قافتها وقصّاص الأثر لها حيث وقفوا مذهولين تستحوذ عليهم الحيرة والدهش على فوهة الغار، وهم يقولون لها: ما جاز طلبتكم هذا الغار، وهنا انقطع عنا الأثر.

ومحمد ﷺ وصاحبه وصدِّيقه أبو بكر رضي الله عنه في جوف الغار لا يجاوزون بابه لضيقه، لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآهما، ورعب أبو بكر رعباً شديداً خوفاً على رسول الله ﷺ، فألّ، وأنّ، وتفجّع، وبكى، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» فقال الصدِّيق رضي الله عنه: ما

١) سورة الفتح آية (٤).

٢) سورة الفرقان آية (٤١).

على نفسي أبكي!؟ ولكن أخاف أن أرى فيك ما أكره، فقال له رسول الله ﷺ ما حكاه الله: «لا تحزن إن الله معنا» فتنزلت السكينة متحدِّرة من قلب رسول الله ﷺ إلى قلب صاحبه وصدِّيقه فثبت ثبوت الشامخات الرواسي، وجاء الفجّار بعصيهم وهراواتهم وسائر ما ملكت أيديهم من سلاح إلى الغار ينفثون حقداً مغيظاً، ونظر بعضهم في الغار فرأى نسج العنكبوت على باب الغار في صورة يقول من رآها: إنها أقدم من ميلاد محمد - ﷺ - ورأى شجرة من شجر البادية تسد بفروعها باب الغار، فصدّهم ذلك عن استبراء الغار لمعرفة من فيه، ودرأ الله تعالى عن رسوله ﷺ الطلب، ودحر الطالبين مردودين على أعقاب الخيبة.

وأقام رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق في الغار ثلاث ليال في حراسة الله ورعايته، لا يعرف أحد مكانهما إلا عبدالله بن أبي بكر - وكان يوافيهما بأخبار ما يقال عنهما - وإلا عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنهما يرعى عليهما منيحة من غنم أبي بكر رضي الله عنه، يشربان من ألبانها، وإلا أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر رضي الله عنها، تأتيهما بالطعام من بيت أبي بكر، وإلا الدليل الخرِّيت الذي استأجراه ودفعا إليه راحلتيهما وهو على كفره، فأمّناه وواعداه الغار صبح ثلاثٍ، وهدأ الطلب الفاجر، وداخل طواغيت الملأ اليأس، وجعلوا لمن يأتيهما بمحمد - ﷺ - مائة من الإبل، وفي صبح الليلة الثالثة أتاهما الدليل براحلتيهما ومعه بعيره، فخرجا من الغار وركبا متوجهين إلى الله في هجرتهما على اسم الله وبركاته، وسار معهما عامر ابن فهيرة رديفاً لأبي بكر يخدمهما في طريق الهجرة، والدليل الماهر يدلهما على الطريق.

* * *

يريد مؤلِّهو العقل أن يحكموا هذا العقل المحدود في سنن الله في الكون وهذا شطط في شرعة العلم

يأبى العقلانيون الذين يؤلِّهون العقل البشري إلا أن يتحكموا في نظام الحياة ويقيدوا سنن الله تعالى في تدبير الكون وإقامة نظامه بما يدركه هذا العقل المحدود وما يطمئن إلى الإيمان به، ويرفضون كل حقيقة تتعاظم على العقل أن تخضع لنواميسه وقوانينه المحدودة بإدراكاته، وقد رددنا عليهم هذا الجمود الفكري وأريناهم كثيراً من الحقائق التي ما يزال العقل يقف مشدوهاً

أمامها يؤمن بوجودها ولا يعرف حقيقتها، وحسبنا في التمثيل على ذلك (الحياة) فهي موجودة في كيان كل حي، يؤمن بوجودها، ولا يعرف حقيقتها العقل البشري ولا يجد لإنكارها سبيلاً، وإلا وجب أن ينكر وجود نفسه، وهو عاجز كل العجز عن إدراك ما هي الحياة؟

فتحكيم العقل في نواميس الكون شطط يجب أن يتخلص منه البحث في الحكم على الأشياء، وكما أن لله تعالى سنناً عامة يقوم عليها النظام العام للكون؛ فللَّه تعالى سنن خاصة يقوم عليها نظام الأمور الخاصة التي تتصل بالتعبد والوحي والنبوة وآيات الإعجاز، وسائر الغيبيات من الحقائق التي لا يمكن اخضاع تصورها ووجودها لإدراك العقل.

فالأساس العلمي في هذه الأمور وإثبات وقائعها وأحداثها إنما يقوم على دعائم ثبوت الإخبار بها والتحدث عنها بأسانيد مضبوطة صحيحة الاتصال إلى من لا يتطرق الوهم إلى قوله أو فعله أو إقراره، وهو فقط رسول الله ﷺ المنبىء عن الله خالق الكون.

فإذا قرأنا في قصة الهجرة النبوية أن النبي ﷺ أخبره أمين الوحي جبريل عليه السلام بمكر قريش به وائتمارها لتقتله غيلة على فراشه في جوف بيته، وأنه خرج على الذين يترصدونه فلم يروه وهم أيقاظ، تدور أعينهم في محاجرها كالذي يغشى عليه من الموت، وإنه لم يترك واحداً منهم إلا عفّر رأسه بالتراب، وذهب إلى حيث أراد، فلما صحوا من سكرة ذهولهم ورأوا ما انتهى إليه مكرهم من خزي جلّل جباههم بعار الذل والهوان، ومن خذلان أذلّ استكبارهم جن جنونهم وتلظَّى في أفئدتهم حريق الغيظ، وراحوا يضربون في كل فج من فجاج مكة ووديانها وشعابها، وركبوا في البحث عن محمد ﷺ الذي توهموا أنه في قبضة أيديهم كل صعب مستصعب، وجعلوا ديته لمن يأتيهم به، وأرسلوا بذلك إلى أهل المياه والضاربين طنبهم في سفوح الجبال ومشارف الطرق، واقتصُّوا الأثر بمهرة القافة حتى وصلوا إلى الغار الذي أوى إليه رسول الله ﷺ ومعه صاحبه وصدّيقه أبو بكر رضي الله عنه، وهنا عند باب الغار قال لهم قائفهم: ها هنا انقطع الأثر، ولا أدري أخذ

يميناً أم شمالاً أم صعد الجبل؟.

وأقبل فتيان قريش بعصيِّهم وهراواتهم وسيوفهم حتى وقفوا على باب الغار، فقال بعضهم: ادخلوا الغار، فقال أحد شياطينهم أمية بن خلف: وما أربكم في الغار؟ إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد ـ ﷺ ـ وقال غيره: لو دخل أحد الغار لتفسخ العنكبوت.

إذا قرأنا هذا وأمثاله وهو مستفيض مشهَّر لا يكاد يخلو منه كتاب منذ ألفّ أهل العلم قديماً وحديثاً في السيرة النبوية ودونوا أحداثها ووقائعها؛ فلا يستقيم في شرعة البحث العلمي المسارعة إلى التشكيك في وقوعه بتوهم أن العقل لا يفقهه ولا يدركه ولا يطمئن إلى التسليم به، لأنه أمر يخالف ما ألف الناس في مداركهم لحقائق الأشياء وما اعتادته الطبائع البشرية.

وقصة نسج العنكبوت على باب الغار عقب دخول رسول الله ﷺ إلى جوفه رواها الإمام أبو بكر البزار في مسنده من طريق أبي مصعب المكِّي عن ثلاثة من أكابر الصحابة رضي الله عنهم. قال: أبو مصعب: أدركت زيد ابن أرقم والمغيرة بن شعبة، وأنس بن مالك يتحدثون أن النبي ﷺ لما كان ليلة الغار أمر الله عز وجل العنكبوت فنسجت على وجه الغار، ورواها الحافظ ابن عساكر، وفي هاتين الروايتين ذكر الشجرة والحمامتين الوحشيتين مع نسج العنكبوت، ورواها الإمام أحمد في مسنده من حديث طويل عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾. وفي هذا الحديث: لما بلغوا ـ أي فتيان قريش ـ الجبل اختلط عليهم فتصعَّدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه.

قال الإمام ابن كثير في البداية: وهذا إسناد حسن وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسوله ﷺ.

وروى ابن كثير عن الحسن، قال: انطلق النبي ﷺ وأبـو بكر إلى الغار، وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا: لم يدخل أحد، وكان النبي ﷺ قائماً يصلي وأبوبكر يرتقب، فقال: أبو بكر للنبي ﷺ: هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسي أئلّ، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره، فقال له النبي ﷺ «يا أبا بكر؟؟ لا تخف إن الله معنا».

قال ابن كثير: وهذا مرسل عن الحسن وهو حسن بحاله من الشاهد.

ومن أعجب ما روي من وقائع غار ثور ما ذكره ابن كثير في البداية فقال: وقد ذكر بعض أهل السيرة أن أبا بكر لما قال للنبي ﷺ: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال له النبي ﷺ: «لو جاؤونا من هاهنا لذهبنا من هنا» فنظر: الصدِّيق رضي الله عنه إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه. قال ابن كثير: إن هذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوي ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئاً من تلقاء أنفسنا ولكن ما صح سنده أو حسن قلنا به.

وهذا التعليق من هذا الإمام الناقد العليم الذي يجمع بين العلم المصفّى والإيمان الزكي هو ما يجب أن يقف عنده الناظرون في آيات الله وأعاجيبه التي يجريها على يد نبيه ﷺ، فكل ما يثبت منها بسند صحيح أو حسن يجب الإيمان به واعتقاده، وما لم يثبت كذلك يوقف فيه، فلا يردّ ولا يقبل ما لم يكن مروياً عن كذّاب يضع الأحاديث ويخترع الروايات فهذا يجب ردّه وبهرجته وإظهار زيفه.

وقد روى ابن حزم في كتابه (جوامع السيرة) حادثة قد تكون أعجب من الحادثة السابقة في رواية ابن كثير أو هي على الأقل من واديها، وابن حـزم يجـزم بحادثته جزم من شاهد ورأى ويتحدى، قال: فلما فقدته - أي النبي ﷺ - قريش اتبعته بقائف معروف، فقاف الأثر حتى وقف عند الغار،

فقال: هنا انقطع الأثر، فنظروا فإذا العنكبوت وقد نسج على فم الغار من وقته فأيقنوا أنه لا أحد فيه فرجعوا.

ثم قال ابن حزم: وفتح الله تعالى في الوقت في جانب الغار باباً واسعاً خرجا منه في صخرة صلد صماء، لا تؤثر فيها المعاول، فأمالها الله عز وجل، وهي إلى اليوم ظاهرة لا يشك من رآها أنها لو ردت لسدت المكان، ولا يختلف أحد أن ذلك الباب لو كان هنالك حينئذ لرأته قريش.

وابن حزم لم يسند روايته إلى أحد، ولكنه اعتمد على مشاهدته للمكان والباب الذي فتح في جانب الغار غير بابه الأصيل الذي دخل منه النبي ﷺ هو وصاحبه الصديق رضي الله عنه، ويقرر ابن حزم أن هذا الباب الذي فتح في جانب الغار في صخرة صلد صمّاء لم يكن موجوداً وقت أن كانت قريش وقافتها عند باب الغار، وأنه لو كان موجوداً لرأته جهاراً، ويقرر أيضاً أن هذه الصخرة التي لا تؤثر فيها المعاول لو ردت إلى مكانها لسدت الباب الذي فتح فيها بإمالتها إمالة ظاهرة يراها كل أحد يشاهدها.

ولا ندري إن كان هذا التشابه بين قصة ابن كثير التي جاء فيها أن الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وقصة ابن حزم التي يقول فيها: وفتح الله تعالى في الوقت في جانب الغار باباً واسعاً خرجا منه يجعل من القصتين قصة واحدة تصرف فيها الرواة بالزيادة والحذف، أم أنهما قصتان في واقعتين والعلم عند الله، ونلاحظ هنا أن ابن كثير كان جيد النقد لقصته وأمثالها.

وبالتأمل في قول الله عز شأنه: ﴿وأيّده بجنود لم تروها﴾ نجده بعمومه المشعر به تنكير لفظ (جنود) يدل على أنّ كلّ ما حمى الله به نبيه محمداً ﷺ من كيد أعدائه هو من جند الله، ويدل لذلك ما رواه أبو نُعَيم عن محمد ابن إبراهيم التيمي أن النبي ﷺ نهى عن قتل العنكبوت وقال: «إنها من جنود الله» ولا وجه لتخصيص جند الله بالملائكة في هذا الموضع وأمثاله.

وللتخصيص بالملائكة وجه في الوقائع الحربية كوقعة بدر، وحنين ظاهر، والقرآن الكريم صرّح بإنزال الملائكة محاربين في صفوف المؤمنين،

وهذا توقيف قاطع يجب الوقوف عنده والإيمان به، ولكنه لا يمنع أن يكون لله تعالى جنود من غير الملائكة أيّد بهم نبيه محمداً ﷺ في الوقائع الحربية، كما لا يمنع أن يكون قد أيَّد الله نبيه ﷺ بالملائكة مع أنواع أخرى من جنده في غير الوقائع الحربية ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾[١].

(١) سورة المدثر آية (٣١).

كيف تمت الهجرة النبوية؟

حديث أبي بكر عن البراء بن عازب من وصف رحلة الهجرة

مضى الركب الميمون في طريقه إلى المدينة المنورة، تحفه رعاية الله وعنايته سالكاً به دليله الحاذق الماهر الأمين طريق السواحل.

ويترك القلم متوارياً في حياء حييٍّ الحديث إلى الشاهد الذي لا يقال له؟؟ إلى الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنه الصاحب الأول إسلاماً، والصاحب الفرد هجرة، يقول الإمام البخاري في الجامع الصحيح: حدثنا عبدالله بن رجاء، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق، عن البراء قال: اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رَحْلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب: مُرِ البراء فليحمل إليّ رحلي، فقال عازب: لا، حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حينما خرجتما من مكة، والمشركون يطلبونكم؟ قال: ارتحلنا من مكة فأحيينا ـ أو سرينا ـ ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل فآوي إليه، فإذا صخرة أتيتها فنظرت بقية ظل لها فسويته ثم فرشت للنبي ﷺ فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبي الله، فاضطجعَ النبي ﷺ،ثم انطلقت أنظر ما حولي، هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش، سمّاه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن قال: نعم، قلت: فهل أنت حالب لنا؟ قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فقال: هكذا، ضرب إحدى كفيّه بالأخرى فحلب لي كثبة من لبن ـ أي شيئاً ليس له قدر مقدّر ـ وفُسِّر بحلبة

خفيفة، وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي ﷺ، فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله؟ قال «بلى» فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: «لا تحزن إن الله معنا».

وقد رُوي هذا الحديث في صحيح البخاري في عدة مواضع وفي بعضها اختلاف لا يخرج الحديث عن المعنى المقصود.

وقد آن للقلم أن يتخفف من حيائه ليجول مقتفياً أثر الصدِّيق في رياض ما قصه من رحلة الهجرة النبوية بعد الخروج من غار ثور، منبِّهاً على لوامع الإيمان، وومضات الإخلاص، ووفاء الحب.

وأول ما يلفت النظر في هذا الحديث ما بدا من عازب رضي الله عنه من الحرص على سماع ما وقع للنبي ﷺ وصاحبه الصدِّيق رضي الله عنه في رحلتهما الشاقة المحفوفة بأعظم الأخطار، اشتراطه ـ على سبيل المكارمة بين الأخوة ـ أن لا يرسل ابنه البراء مع الصديق ليحمل له رحله حتى يحدثهم عما قابلهم في طريقهم حينما خرجا من مكة مهاجرين والمشركون يجدّون في طلبهم، ليحيط المؤمنون علماً بما لقي رسول الله ﷺ ومعه صاحبه الصدِّيق رضي الله عنه من مشقة وشدة في رحلته المباركة، ليكون ذلك نبراساً يضيء لهم طريق الجهاد في سبيل نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، ونموذجاً للصبر واحتمال المشاق في سبيل إعلاء كلمة الحق والهدى والنور.

وثاني أمر يلفت النظر في هذا الحديث صدق حب أبي بكر الصديق رضي الله عنه للنبي ﷺ، وبالغ حرصه على راحته، وتولِّيه خدمته بنفسه مع وجود عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه الذي اصطحباه ليخدمهما في رحلتهما.

فالصدِّيق رضي الله عنه حينما شعر بمشقة السفر على رسول الله ﷺ -

وقد سارا يوماً وليلة ونصف اليوم حتى دخلا في ظهيرته، لأنهما خرجا من الغار في صبح الليلة الثالثة لإيوائهما إليه كما جاء في حديث الهجرة عند البخاري أيضاً. وسارا يومهما وليلتهما وصدر يوم تلك الليلة حتى قام قائم الظهيرة من ذلك اليوم - رمى ببصره في أرجاء الأفق، هل يرى من ظلٍ فيأوي إليه ليهيىء للنبي ﷺ مقيلاً يأخذ فيه بعض الراحة، وإذا به يلمح صخرة فيأتيها، وينظر فإذا بقية ظل لهذه الصخرة فيسوِّيه ويفرش للنبي ﷺ فروة كانت معه، ويطلب إلى النبي ﷺ أن يضطجع فوقها ليأخذ ﷺ قسطاً من الراحة بعد هذا السفر المضني في ظلام الليل وهجير النهار، ويضطجع النبي ﷺ، ثم يمضي أبو بكر إلى أين؟ إلى حيث ينظر ويستبرىء ما حوله، هل يرى من الطلب أحداً من الأعداء، أو ممن طمعوا في جعالتهم لمن يأتيهم بمحمد ﷺ، وإذا هو براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يطلب الراحة في ظلِّها، فيسأله أبو بكر ليتعرف عليه، هل هو في مخبره كما هو في مظهره راعي غنم، يريد شيئاً من الراحة في ظل الصخرة؟ أو هو في مخبره متستر بمظهره ويقول أبو بكر له بعد أن كشف حاله واطمأن إليه: لمن أنت يا غلام؟ فيجيب الغلام بأنه لرجل من قريش، سمّاه فعرفه أبو بكر رضي الله عنه، ويطمئن أبو بكر رضي الله عنه إلى أنه لا طلب يخافه.

ويسأله أبو بكر: هل في غنمك من لبن؟ ويجيب الغلام: نعم، ويقول له أبو بكر رضي الله عنه: هل أنت حالب لنا، قال: نعم، ويأمره أبو بكر أن يحلب لهم، ويسرع الغلام إلى شاة فيعتقلها، ولكن أبا بكر رضي الله عنه يأمر الغلام أن ينفض ضرع الشاة من الغبار، ثم يأمره أن ينفض كفيه ويستجيب الغلام في سماحة وادعة، ويضرب إحدى كفيه بالأخرى، وحلب لأبي بكر رضي الله عنه كثبة يرتوي منها النبي ﷺ.

وكان أبو بكر رضي الله عنه قد جعل لرسول الله ﷺ إداوة أعدها مطهّرة نظيفة محصنّة من التلوث بالغبار، وجعل على فمها خرقة لتصفية اللبن مما عسى أن يكون قد علق به أثناء الحلب من الشعر والقذر والتراب، وأعدّ ماء طيباً ليبرِّد به اللبن، فصب منه على اللبن حتى برد أسفله، وانطلق به إلى

النبي ﷺ وهو في مضجعه في ظل الصخرة، فوافق وصوله إليه استيقاظه، وقدم له ﷺ الإداوة وفيها كثبة اللبن، وطلب إليه ﷺ أن يشرب فشرب حتى رضي أبو بكر وهو أعلم بحاجة النبي ﷺ إلى القدر الذي يرضيه بعد السفر الطويل المتتابع، ثم تلطّف أبو بكر بأدب الخطاب فقال للنبي ﷺ: قد آن الرحيل يا رسول الله؟، قال: «بلى» فارتحلوا والطلب لم يفتر، ولكن الله حفظهم برعايته، فلم يدركهم أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فرجف أبو بكر رضي الله عنه ورعب خوفاً على رسول الله ﷺ أن يناله ما يؤذيه، فقال معبِّراً عن ذات نفسه، وما هجس فيها: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، ويجيبه سيد المرسلين وهو في مشهد اليقين: «لا تحزن إن الله معنا» كأنه يذكره بموقف الغار، ليحرك في قلبه السكينة التي أفاض عليه من آثار إنزالها عليه إذ تنزلت ساعة «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما» فسكن قلب الصديق وعاودته الطمأنينة وبرد اليقين.

هذه قصة تتحدث عن مشهد من مشاهد الهجرة النبوية لم يكن فيها شيء من آيات الإعجاز الخارق لشيء من نواميس الطبيعة في ظواهرها، ولكنها مليئة بمشاهد الإعجاز الإنساني الذي ينبع من ينابيع مداخل النفس الإنسانية المفعمة بالحب والإخلاص الذي لا يضن بالنفس فداء للفكرة، والفكرة هنا هي العقيدة والإيمان، والإيثار لرمز الحياة في أفقها المضيء.

كان أبو بكر رضي الله عنه رفيق رسول الله ﷺ في هجرته، وصاحبه في الغار الذي أقاما فيه ثلاث ليال ثم خرجا منه مرتحلين إلى المدينة المنورة، والطلب من طغاة الوثنية والشرك يناهضهما، فجدّا في السير سيراً متواصلاً أرهقهما وأضعف قوة رواحلهما في ملتهب من الحر الذي يتنفس من فيح جهنم، وزادٍ مفقود، والنبي ﷺ يمضي قُدُماً لا يبالي نصباً يلحقه، ولا جهداً يناله، وأبو بكر مشغول الفكر والنظر بشدة الحرص على سلامة رسول الله ﷺ يفديه بنفسه، لا يبدؤه بحديث يقطع عليه عزيمته، حتى إذا قام قائم الظهيرة من اليوم بعد ليلة كاملة ويوم قبلها أحس أبو بكر رضي الله عنه أن اشتغاله بمراقبة الطلب شغله عن التفكير في راحة رسول الله ﷺ، فتنبه

لذلك، وفكر في أن يتيح له ﷺقسطاً من الراحة ليقوى على السير، والغاية بعيدة والسفر شاق، فرمى ببصره في مَهْمَه الأرض ليرى شيئاً من الظل ليهيئه للنبي ﷺ حتى يأخذ فيه بعض الراحة، فأبصر بصخرة أتاها، فإذا بقية من ظلها فسّواها وأزال ما فيه من عوج ونتوءات وفرشه بما معه، ثم طلب إلى النبي ﷺ أن يضطجع ليستريح، فاضطجع عليه الصلاة والسلام ونام، وعاد أبو بكر إلى ما كان يشغله على رسول الله ﷺ من الطلب، فنظر إلى ما حوله فرأى راعياً يسوق غنمه إلى الصخرة يريد الراحة بغنمه في ظلها، فسأله حتى عرفه وعرف صاحبه، صاحب الغنم، وطلب إليه في تلطف أن يحلب له بعد أن أمره بالتنظف فحلب له كثبة من اللبن، وقد أعد أبو بكر إداوة على فمها خرقة وصب على اللبن حتى برد أسفله، وذهب به إلى النبي ﷺ فوافقه قد استيقظ وطلب إليه أن يشرب مما أعده له من اللبن، فشرب رسول الله ﷺ كفايته حتى رضي أبو بكر ثم ارتحلا محفوفين برعاية الله وعنايته.

قصة
سراقة بن مالك الجعشمي

وقصة سراقة بن مالك الجعشمي المُدْلجي التي جاءت في حديث أبي بكر من حديث البراء بن عازب رواها البخاري بما فيها من آيات وعجائب الإعجاز التي أكرم الله بها نبيه محمداً ﷺ مستوفاة في باب الهجرة النبوية، قال البخاري بالسند الموصول إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قال ابن شهاب، وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي ـ وهو ابن أخي سراقة ابن مالك بن جعشم ـ أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك يقول: جاءنا رُسُل كفار قريش، يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدْلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة، إني قد رأيت آنفاً أسْوِدَة بالساحل أراها محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنَّك رأيت فلاناً وفلانا، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي ـ وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي ـ وعصيت الأزلام ـ تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة النبي ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين، فخررت عنها ثم

زجرتها، فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عنان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني، ولم يسألاني إلا أن قال ـ اي رسول الله ﷺ ـ : أخْفِ عنّا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

وفي هذا الحديث من الآيات الباهرة والعجائب الكونية الظاهرة ما لا يحتاج إلى تعليق وهي من قبيل حفاوة الله تعالى بنبيه وحمايته ونصره بما لا قِبَلَ لأحد من الخلق أن يصنعه ويقوم به.

قصة أم مَعْبَد
ولطائف آياتها وصفتها رسول الله لزوجها

وقصة أم معبد ـ كما ذكر الزرقاني ـ رواها البخاري في التاريخ، وأخرجها البغوي وابن خزيمة، والحاكم والبيهقي وصاحب الغيلانيات، وابن عبد البر، وابن شاهين، وابن السكن، والطبراني، وغيرهم عن أخي أم معبد، حُبيش صاحب رسول الله ﷺ قال: لما خرج رسول الله ﷺ في الهجرة ومعه أبو بكر وابن فهيرة وابن أريقط يدلهم على الطريق مرّوا بقُديد على أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية، وكانت بَرْزَة جَلْدة، تحتبي بفناء القبّة، ثم تسقي وتطعم من يمر بها، وكان القوم مُرْمِلين مُسْنِتين، فطلبوا لبناً، أو لحمًا، أو تمراً، يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئاً، وقالت والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى، فنظر ﷺ إلى شاة في كِسْر الخيمة خلّفها الجهد عن الغنم، فسألها ﷺ: «هل بها من لبن»؟ فقالت: هي أجهد من ذلك، فقال ﷺ: «أتأذنين أن أحلبها؟» فقالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا ﷺ بالشاة فاعتقلها، ومسح ضرعها وسمّى الله تعالى، فتفاجت ودرّت ودعا بإناء يربض الرهط فحلب فيه ثجاً، وسقى القوم حتى رووا، ثم شرب ﷺ آخرهم، ثم حلب فيه مرة أخرى عللاً بعد نهل ثم غادره عندها، وذهبوا، فما لبث أن جاء أبو معبد زوجها يسوق أعنزاً عجافاً، يتساوكن هُزّلاً فلما رأى اللبن أبو معبد عجب وقال: ما هذا يا أم معبد؟ أنّى لك هذا والشاة عازب حيال، ولا حلوب في البيت فقالت أم معبد: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من شأنه كذا وكذا، فقال أبو معبد: صفيه يا أم معبد، فقالت:

وصف أم معبد لرسول الله
صلّى الله عليه وسلّم

رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، مُبلج الوجه، حسن الخَلْق، لم تعبه ثُجلة، ولم تزربه صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أحور، أكحل أزج، أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع، وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نُظُمْنَ يتحدرن، حلو المنطق، فصل، لا نزر، ولا هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة، لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفُّون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا لأمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفنِّد.

فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش، لو رأيته لا تبعته.

قصة
راعي غنم آخر
وهي غير قصة صاحب الصخرة

قال صاحب المواهب: واجتاز ﷺ في طريقه بعبد أسود، يرعى غنماً، فكان من شأنه ما رويناه من طريق البيهقي بسنده عن قيس بن النعمان السكوني أحد وفد عبد القيس قال: لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفيين مر بعبدٍ يرعى غنماً فاستسقياه اللبن، فقال: ما عندي شاة تحلب غير أن هاهنا عناقاً ـ الأنثى من ولد المعز قبل استكمال الحول ـ حملت عام أول، وما بقي لها لبن، فقال النبي ﷺ: «ادع بها» فاعتقلها ﷺ ومسح ضِرْعها ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فحلب ﷺ، فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت، فوالله ما رأيت مثلك، قال ﷺ: «أو تراك تكتم عليّ حتى أخبرك؟» قال: نعم، قال «فإني محمد رسول الله» قال الراعي: أنت الذي تزعم قريش أنه صابىء قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك» قال الراعي: فأشهد أنك نبي، وأن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال ﷺ: «إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتِنا».

قال الزرقاني: ثم هذا الحديث قطعاً غير قصة الراعي الذي أتى يريد ظل الصخرة التي نام تحتها رسول الله ﷺ، لأنَّ صاحب الصخرة قال: إن في غنمه لبناً، وحلب هو لأبي بكر رضي الله عنه، وبَرَّد أبو بكر اللبن حتى استيقظ المصطفى ﷺ كراهة أن يوقظه، ثم سقاه.

وأما هذا العبد، فذكر أنه لا لبن معه، وإنما أتى اللبن معجزة، والنبي ﷺ هو الذي حلب وسقاه بعد أبي بكر، ثم شرب هو آخرهم.

قال الزرقاني: وقصة الراعي ـ أي الأول الذي حلب لأبي بكر كثبة والنبي ﷺ كان نائماً ـ كانت قبل قصة سراقة، وقصة سراقة كانت بعد قصة أم معبد كما أفاده في فتح الباري.

قصة
شبيهة بقصة أم معبد

ثم قال الزرقاني:

قال الحافظ مغلطاي بعد ذكره لقصة أم معبد: وفي الإكليل للحاكم أبي عبدالله قصة أخرى شبيهة بقصة أم معبد، قال الحاكم: فلا أدري أهي هي، أم غيرها، وقد رواها تلميذه البيهقي بسندٍ حسَّنه ابن كثير عن أبي بكر رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة فانتهينا إلى حي من أحياء العرب، فنزلنا على بيت منه، لم يكن فيه إلا امرأة، وذلك عند المساء، فجاء ابن لها بأعنز يسوقها، فقالت له أمه: انطلق بهذه الشفرة والشاة لهذين الرجلين وقل لهما: اذبحاها وكلا منها وأطعمانا، فرد النبي ﷺ الشفرة وقال له: ائتني بقدح، فقال له: إنها عزبة أي لم يطرقها الفحل، قال ﷺ: «انطلق»، فانطلق فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضرعها، ثم حلب ملء القدح، وأرسله لأم الغلام معه، فشربت حتى رويت، ثم دعا ﷺ بأخرى ففعل بها كذلك، ثم سقى أبا بكر، ثم دعا بأخرى، ففعل بها كذلك وشرب ﷺ، فلبثنا ليلتين، ثم انطلقنا، فكانت - أي هذه المرأة - تسميه - أي النبي ﷺ - المبارك، وكثرت غنمها حتى جلبت جلباً إلى المدينة، فمر أبو بكر عليها فعرفه ابنها، وقال لها: هذا الذي كان مع المبارك، فسألته عنه، فقال لها: هو نبي الله ﷺ، فأدخلها عليه فأطعمها وأعطاها. قال البيهقي في الدلائل: وهذه القصة قريبة من قصة أم معبد ويشبه أن تكونا واحدة، قال الزرقاني: والذي يظهر أنها غيرها، كما أشار إليه مغلطاي، كيف وفي قصة أم معبد أن الشاة التي حلب منها إنما هي التي في كسر الخيمة وسقى الجميع منها ثم شرب،

وأن الآتي بالأعنز إنما هو زوجها بعد ما ذهبوا، وأيضاً فقد قال في هذه القصة: فلبثنا ليلتين، إذ لو لبثاهما ـ أي في قصة أم معبد ـ لأدركهما زوجها، ولا مانع من التعدد، وإلى هذا جنح في فتح الباري، فقال: أخرج البيهقي في الدلائل شبيهاً بأصل قصة أم معبد في لبن الشاة المهزولة دون ما فيها من صفته ﷺ، لكنه لم يسمِّها في هذه الرواية ولا نسبها فاحتمل التعدد.

قصة
بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي

قال الزرقاني: وأخرج البيهقي عن بريدة بن الحصيب قال: لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن يرد النبي ﷺ حملني الطمع، فركبت في سبعين من بني سهم فلقيته، فقال: «من أنت؟» فقلت: بريدة، فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر وقال: «برد أمرنا وصلح» ثم قال: «ممن أنت؟» قلت: من أسلم، قال: «سلمنا» ثم قال: «ممن؟» قلت: من بني سهم، قال: «خرج سهمك يا أبا بكر».

فقال بريدة للنبي ﷺ: من أنت؟ فقال ﷺ: «أنا محمد بن عبدالله رسول الله»، فقال بريدة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعاً، قال بريدة: الحمد لله الذي أسلم بنوسَهْم طائعين غير مكرهين، فلما أصبح قال بريدة: يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، فحلَّ عمامته ثم شدها في رمح، ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة.

وكان ﷺ يحب الفأل الحسن، فما في قصة بريدة من قوله ﷺ: «سَلِمْنا» وقوله: «برد أمرنا وصلح» فهو من هذا القبيل الذي جرى فيه ﷺ على عادته الشريفة.

ومنه ما رواه أبو نعيم بسنده عن إياس بن مالك بن الأوس الأسلمي عن أبيه قال: لما هاجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه مروا بإبل لنا بالجحفة، فقال رسول الله ﷺ: لمن هذه الإبل؟ فقالوا: لرجل من أسلم،

فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سلمت إن شاء الله» فقال: «ما اسمك؟» قال: مسعود، فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سعدت إن شاء الله» قال: فأتاه أبي فحمله على جمل يقال له: ابن الرداء.

وفي ثنايا قصة الهجرة ما يدل على حفاوة الإخاء والمحبة التي يضفيها رسول الله ﷺ على صدِّيقه وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه، ليخفف عنه ما يجده من التوجس على رسول الله ﷺ وشدة حرصه على سلامته، وذلك بما تبعثه كلمات التفاؤل في النفس من راحة ورجاء في رحمة الله ورعايته، ويزيد في أثرها التفات رسول الله ﷺ إلى أبي بكر رضي الله عنه وتوجيه الخطاب إليه بعاطفة الإشفاق والودادة، فكأنه يقول له: أبشر ولا تبتئس، وانفض عن نفسك غبار الأحزان، فقد كتبت لك في ألواح الغيب السلامة والسعادة، ويتلقى الصدِّيق رضي الله عنه هذا الود العطوف بقلب مَلأَهُ اليقين والحب والإخلاص.

كيف استقبل رسول الله
صلّى الله عليه وسلّم
بالمدينة المنورة

الأنصار في ذروة المكارم

كـان الأنصار خـزرجهم وأوسهم، رجالهم ونسـاؤهم، شيـوخهم وشبابهم، فتيانهم وفتياتهـم أصدق الناس وعداً، وأوفاهم عهداً، وأحسنهم على رسول ﷺ رداً، وأحظاهم عنده قبولاً، وأسعدهم له بيعة، وأرعاهم له وداً، وأطهرهم قلوباً، وأصفاهم فطرة، وأعـلاهم في المكرمـات كعباً، وأوصلهم في الخير آصرة وحباً، وأسرعهم لدعوة الحق استجابة، وأقبلهم للهدى، وأعرفهم للخير وأبصرهم لنور الإيمان وأنبلهم في عهودهم خلقاً، وأعظمهم في العطاء إيثاراً، وأوثقهم إيماناً، وأخلصهم سريرة، وأصفاهم علانية، وأقواهم في الذود عن الحق عزيمة، وأعلاهم في الكرم سماحة وأسمحهم بالعفو تكرماً، وأرفعهم في ذرى الشمائل مروءة، وأشجعهم في الحق بطولة، وأجرأهم على أعداء الخير صولة، وأثبتهم في حومة الوغى قدماً، وأسرعهم لداعي الجهاد في سبيل الله استجابة، وأرسخهم في الدعوة إلى الله وتوحيده وهديه يقيناً، وأبعدهم عن الغرور بزخارف الدنيا ورغائبها، وأخلصهم لله تعبداً، وأبلغهم في نصر دين الله لساناً، وأفصحهم قولاً، وأروعهم كلماً، وأحكمهم عنـد المشورة اجتهـاداً ورأياً، وأحبهم لـرسول الله ﷺ، وأقربهم إلى قلبه مودة، وأتبعهم لنهجه، وأعرفهم بمواطن حكمته.

قدّموا أرواحهم وأموالهم وفلذات أكبادهم فـداء لرسـول الله ﷺ ولأصحابه الذين هاجروا إليهم، وعانقوا السيوف دفاعاً عن الدعوة إلى الله وتبليغ رسالاته إلى الناس، وأحبُّوا الموت استشهاداً في سبيل إعلاء كلمة الله، كلمة الحق والتوحيد، وقد أحبهم رسول الله ﷺ، وأثنى عليهم، ونوّه

بفضلهم على الناس، وأنزلهم من نفسه منزلة الحِبِّ من الحبيب، فكانوا منه ﷺ كما قال في تصوير قربهم من نفسه: «الأنصار شعار والناس دثار» وكما قال ﷺ: «الأنصار كَرِشي وعَيْبتي» وكان معهم كما قال: «أنا سِلْم لمن سالمهم وحرب لمن حاربهم».

لهذا كان حبهم إيماناً، وكان بغضهم نفاقاً وكفراناً، روى البخاري رحمه الله تعالى من حديث عدي بن ثابت قال:

سمعت البراء بن عازب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق؛ فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله» وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار».

ولو لم يكن للأنصار من شمائل الفضائل، وفضائل الشمائل التي سبقوا فيها وأربوا على الغاية، فلا يلحقهم فيها أحد في السابقين واللاحقين من المؤمنين ما أنزله الله فيهم قرآناً يتلى ويتعبّد به إلى يوم القيامة، ثناء عليهم وتنويهاً بفضلهم، وذلك قول الله تعالى: ﴿والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أُوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يُوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1] لكفاهم في سجل المفاخر، ومناقب المآثر، ومآثر المكارم.

تحليل يبين ما في الآية من لطائف الرعاية الربانية وإفراد الأنصار بخصائص إيمانية وخلقية

وفي تعبير القرآن الحكيم عن مكانة الأنصار من خِصِّيصتي الإيواء وتمكن الإيمان من أنفسهم، وتمكنهم من ذروته بقوله تعالى: ﴿تبوؤا الدار والإيمان﴾ أروعُ صورة من صور البيان الإعجازي، هذا التصوير الذي جعل من المدينة المنورة دارهم المعهودة التي لا يشاركهم في الاستقرار بها وفرض ما يشاؤون عليها وعلى ساكنيها أحد، مع أن مقاليدها لم تكن إلى عهد قريب جداً - إلى عهد تمام بيعتهم لرسول الله ﷺ وهجرة أصحابه إليهم، ثم هجرته ﷺ - بأيديهم، وإنما كانت بأيدي اليهود الذين سكنوها قبلهم،

(١) سورة الحشر آية (٩).

واستمكنوا من مرافقها، واستقروا بها في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية، لأن الأنصار منذ تلك البَيْعة العظمى أصبحوا سادة الموقف في مدينتهم بما جاؤوها به من سلطان الدعوة التي عقدوا هذه البيعة لمناصرتها بأرواحهم وأموالهم وأولادهم وبكل ما يملكون في حياتهم.

ولا شك أن هذا الوضع الجديد الذي عبّر عنه القرآن الحكيم تعبيره الموجز المعجز قد أحدث في داخل نفوس الأنصار ثورة اجتماعية عارمة، ترفض كل تبعية، وأحدث في نفس اليهود ذلّة خبيثة ماكرة تعمل في ستار من الظلام، أدخلوا بها النفاق في صدور الذين بقي لهم في قلوبهم من إكبار الماضي القريب، وهم قلّة عجزت عن مواقفة العلانية أمام هذا السلطان القاهر الذي أكسبته البَيْعة الكبرى للأنصار، فكانوا سادة مدينتهم، وكانت مدينتهم الدار التي تبوَّؤها لحياتهم الجديدة في ظل الإسلام.

والذي جعل من الإيمان ـ وهو حقيقة معنوية أبعد ما تكون الحقائق عن المادة وخصائصها ـ مستقراً حسياً ومتوطناً لهم لشموله لهم، وإحاطته بهم من سائر أقطارهم مما يفيد تداخله تداخلاً مزجياً في إحساساتهم ومشاعرهم، وإفعامه أفئدتهم وقلوبهم وعقولهم وأرواحهم، وسائر مناحي تفكيرهم بأنواره وشرائعه وأحكامه وآدابه، آمراً ناهياً مطاعاً مستجاباً، فكأنه بهذا التصوير القرآني الوجيز المعجز مكان حسي تبوأوه، وملأوا أحيازه، فلم يتركوا فيه خصاصة لغيرهم ولا فرجة لسواهم، وكان لهم سياجاً يحميهم ويجمع أمرهم، ويشدّ أعضادهم، فهو كالقلعة الحصينة لهم، لا يبلغ أحد أن ينالهم بسوء لقوة شدته، وتماسك عناصره عقيدة وتعبداً ونظاماً للحياة.

وفي قوله تعالى: ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ أبدع تصوير لوشائج القرب التي أحدثها هذا الإيمان المتبوأ لهم فيما بينهم وبين إخوانهم المهاجرين الذين وفدوا إليهم بإيمانهم الذي أقاموا مناره في أفق المحن والبلايا، تصب عليهم من طغاة الشرك والوثنية صباً، وليس لهم سَبَد ولا لبد، لأنهم تركوا أموالهم وديارهم وأولادهم وعشائرهم في سبيل الحفاظ على عقيدتهم ودينهم الذي اصطفاه الله لهم، وارتضاه للدنيا كلها ديناً لا يقبل من أحد سواه.

لأن الحب قمة صُور القرب والتمازج الروحي الذي ينتهي في صفائه وخلوصه من شوائب الأغراض والمقاصد (الأنوية) التي تعمل لتحقيق الرغائب الشخصية إلى وحدة الرغائب والآمال، ووحدة الإحساس بالآلام.

فليست مواساة الأنصار التي مدحهم الله بها لإخوانهم المهاجرين مواساة تكرّم لسدِّ خُلّة أو دفع حاجة، ولكنها مواساة حب مزج بينهم فجعل من مجتمعهم وحدة إيمانية لا تعرف لغير هذا الإيمان سلطاناً، والحبُ أقصى ما تبلغ العواطف من إخلاص يذيب (الأنانية) وإيثار النفس بكل محبوب، ويحقق وحدة شعورية لا يبقى فيها مكان (لأنا) و(أنت) و(هو).

وفي قوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ أصدق تعبير على مدى ما تستطيع الروابط الإيمانية أن تصنعه في داخل النفس الإنسانية من آثار تبلغ ذروة الفضائل، وتتجاوز قمم المكارم إلى آفاق الحق المُقاسم، وهي محسوبة في سجل الإخاء، ولكنه إخاء من لون جديد ـ أحدثه الإسلام بتربيته الخاصة لخواص معتنقيه ديناً، وهبوا له أنفسهم وحياتهم ـ لم تعرفه البشرية في تاريخها العريض المديد لغير هؤلاء الأعلَين الذين كانوا طليعة الإيمان بهذا الدين القويم من المهاجرين والأنصار، لأنه إخاء لا يعتمد على الإيثار المادي فقط، ولكنه إيثار حب يعتمد على وحدة الامتزاج النفسي الذي لا يفرِّق بين المادة والروح، فالإيثار بالروح كالإيثار بالمادة، فهو حب إيثار تصوره الوقائع التي يقف منها واقع الناس، كل الناس في حياتهم مذهولاً مأخوذاً لأنه يرى ما لا يتصور أن يكون إلا في خيالات (المتروحنين)، والتاريخ الصادق شاهد عدل على تلك الوقائع.

وقائع التاريخ شواهد صدق على ما كان للأنصار من شمائل المكارم

ففي آثار السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما غنم أموال بني النضير قسمها على المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر منهم كانوا في حاجة شديدة، وقد قصد ﷺ ـ فيما يظهر لنا ـ بصنيعه ذلك أن يريش المهاجرين ليقفوا في حياتهم الجديدة دون أن يثقلوا على إخوانهم الأنصار فيما تحملوه من مشاركتهم حياتهم ومواساتهم لهم، كما قصد ﷺ أن يطيِّب نفوس الأنصار بهذا العطاء الذي خص به المهاجرين، فقال لهم: «إن شئتم قسمتم

للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من هذه الغنيمة».

فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة، ولا نشاركهم فيها.

عرفان المهاجرين لفضل إخوانهم الأنصار

وقد عرف المهاجرون لإخوانهم الأنصار فضلهم ورِفْدَهم ومواساتهم، وحبهم وإيثارهم على أنفسهم، فأعلنوه شكراً لهم، روى الإمام أحمد في مسنده قال: قال أنس: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال رسول الله ﷺ: «لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم».

مدح سما بفضل الأنصار على كل فضل ومكرمة

ومناقب الأنصار ومكارمهم لا تحصى، ولكنا ذكرنا ونذكر منها نماذج لتحتذى، ومثلاً ليقتدى بها، ولن يبلغ أحد مداها، وحسبهم منقبة فاقوا بها جميع الناس من الأولين والآخرين قول رسول الله ﷺ في الثناء عليهم وحبهم، وقربهم منه ﷺ، وتنويهاً بشأنهم: «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشِعْباً، وسلك الأنصار وادياً وشِعْباً لسلكتُ وادي الأنصار وشِعْبهم» فهم الذين آووا ونصروا، آووا الرسالة والرسول، ونصروا الحق وجنده، وآووا إخوانهم المهاجرين الذين تركوا أموالهم وأولادهم فداء لعقيدتهم ودينهم، وهم الذين نصروا الدعوة إلى الله بأرواحهم وسيوفهم، وهم الذين ذخرهم الله في سجل غيبه ليخرجهم للناس خير أمة وليخرج بهم الحياة من الظلمات إلى النور، أظهرهم الله حينما أتت ساعة إشراق شمسهم لتنير الطريق أمام ركب الحياة بمن فيها وما فيها، وليقيموا لهم معالم الهدى ومنائر الحق في تبليغ الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة الإسلام، دين جميع الأنبياء والمرسلين التي اختار الله لها محمداً ﷺ ليكون حامل أمانتها ومبلِّغ هدايتها وناشر أنوارها، وليبعثوا في كيان هذه الرسالة روح التوثب لتمضي قدماً إلى القلوب والعقول والأرواح بعد أن كادت تتجمد أمام فجور الكفر، وعتو العناد والاستكبار، ومواريث الجهالة

وسفه الاعتقاد وضلال الوثنية وظلام الشرك البليد في مكة، ممثلة في ملئها من الطغاة المتجبرين، المتعززين بزخارف الدنيا، الجاحدين لآيات الله حقداً وحسداً من عند أنفسهم.

لقد سلك رسول الله ﷺ معهم كل مسلك في تبليغهم رسالة ربه، واستمالتهم إلى قبول ما جاءهم به من الهدى والخير، ومشى اليهم في كل طريق يرجو فيه أن يستجيبوا لدعوته، ويؤمنوا بربهم إلٰهاً واحداً، لم يترك شريفاً في قومه إلا اتصل به ودعاه إلى الله، وطلب منه نصره، وكان يأتي المحافل في المواسم والأسواق يعرض نفسه على القبائل والبيوتات ليؤوه وينصروه، فما كان يجد منهم إلا أقبح الرد، وأسوأه قولاً وفعلاً، وبلغ من حرصه على إيمانهم وهدايتهم إلى الحق أن قال له الله تعالى: ﴿فلعلَّك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾[1].

وكان ﷺ يقابل إعراضهم عن قبول دعوته والإيمان برسالته بالحزن الكظيم، والاحتمال الصبور، والصبر الجميل، ويتضرع إلى الله طالباً هدايتهم، ويقول: «لوشئتَ لم يكونوا كذلك» ويقول في إثر غزوة أحد، وقد آذوه وأدموا وجهه الشريف وكسروا رباعيته: «اللّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون».

ولم يكن ﷺ يعرف اليأس والقنوط قط، بل كان قلبه مفعماً بالرجاء والأمل، ولم يكن يقعده كل ما كان يصبُّه عليه وعلى أصحابه الطغاة من أحلاس الكفر وفجرة العتو والعناد في مكة من صنوف البلاء، وسفاهة السخرية والاستهزاء من المضي قُدُماً في تبليغ رسالات ربه بعزيمة جمعت عزائم أولي العزم من الرسل، حتى أذن الله بالفرج وفتحت أبواب الغيب، وانفلقت آفاق ظلام الأزمات وحوالك ظلمات الشدائد عن أولئك الغر الميامين الأعلين في سماوات المجد من أبناء قَيْلة أوسهم وخزرجهم، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً في بيعاتهم المتوالية، بيعة إثر بيعة، وكانت أول ما كانت بيعة الستة الأوسيين، ثم وليتها بيعة الاثني عشر، وكانت مزيجاً من

---

(١) سورة الكهف آية (٦).

الأوس والخزرج، وعادوا إلى بلدهم وقومهم، وكانت الحروب قد أكلت رؤوسهم وأبطالهم وزعماءهم، وبقيت تستطعم السيوف بقيتها حتى سمعوا صوت الإسلام في همسات تسابيح من أسلم منهم، فارتعشت أيديهم، وسقطت السيوف من أكفهم، وتسللت الإحن والبغضة من قلوبهم إلى منحدرات الجاهلية الفانية، وتسمّعوا إلى هؤلاء الذين عادوا إليهم من الموسم بوجوه غير الوجوه التي فارقوهم بها حينما ذهبوا إلى الموسم، وهم يتحدّثون عن رسول الله ﷺ وما سمعوا منه من آيات الكتاب المنزّل عليه، وما دعاهم إليه من توحيد الله وإخلاص العبودية له، وخلع الأنداد، وعقد أواصر الإخاء والمحبة وطرح موروث الجاهلية ومفاسدها.

وقد كان لدى اليثربيين ذَرْوٌ من العلم والمعرفة بمحمد ﷺ وبعثته مما تناقلوه عن اليهود في كتبهم، وما كانوا يتدارسونه في مدارسهم، ويتلقونه عن أحبارهم، ولكنه كان علماً باهتاً، لا أثر فيه لليقين، وها هم أولاء إخوتهم وأبناؤهم قد جاؤوهم بالخبر اليقين والنبأ العظيم، وقد كانوا روّاداً لهم، والرائد لا يكذب أهله.

وقد طلب هؤلاء الروّاد من رسول الله ﷺ من يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، ويدعو إلى الله، فأرسل معهم ﷺ أول داعية للإسلام، القارىء المقرىء العليم بمواطن الحكمة مصعب بن عمير رضي الله عنه، وها هوذا بين أظهرهم في بلدهم، يراه قومهم ويستمعون إلى أحاديثه، وما يتلوه عليهم من آيات القرآن الكريم.

ورنّ صوته بالدعوة في آذان الأكابر ممن نجا من سيوف الجاهلية، فذهب إليه رؤوسهم وذوو خطرهم منكرين مهددين متوعدين، فكان يستقبلهم بما علمه رسول الله ﷺ من السماحة والمصابرة، فتلين قلوبهم بعض الشيء، وتذهب عنهم حدّة الحماسة الجاهلية، ويسمعون منه، ويثوبون إلى رشدهم، ويرجعون إلى بيوتهم وأهليهم فيؤمنوا لإيمانهم، ويفشو الإسلام والحديث عن رسول الله ﷺ في دور الأنصار حتى لم تبق دار من دورهم إلا وفيها رهط من المسلمين، يظهرون الإسلام، ويعلنون شرائعه

وأحكامه، وقلوبهم عامرة بالإيمان به.

واشتد التنافس بين الأوس والخزرج، كلهم يريد أن يحوز قصب السبق في حمل راية الدعوة إلى الأمام، وكلهم يسارع إلى أن يكون صاحب الحظوة عند رسول الله ﷺ بما يقدمه من عمل صالح يدفع بالدعوة إلى الأمام، وكلهم يعمل جاهداً على أن يكون بطل الجهاد في سبيل نشرها، وكلهم يودّ أن يلقى رسول الله ﷺ لينظر إليه ويسمع منه.

ونظروا كلهم إلى فراغ القيادة تتحدر من آفاقه كواكب الغر البهاليل من نجوم الدعاة إلى الله، فلا يملؤها نورهم ولا يحيط بأقطارها هديرهم، لأن شمس الرسالة لا تزال وراء الأفق لم تشرق عليهم بأشعتها المضيئة للحياة.

ورسول الله ﷺ لا يزال في مكة لما يبرحها، وهم ظمآى لنمير حديثه، مفتقرون إلى وجوده بينهم ليأخذ بيده زمام الدعوة في طورها الجديد، طور الحركة والتوثب، ويملي عليهم آيات الجهاد في سبيلها، ليعلنوها على مسامع الدنيا كلمة لا ترد ما قامت سيوفهم بأيديهم، وما كانت فيهم عين تطرف، ونفس بين جوانحهم يتردد.

فاجتمع الأنصار جميعاً أوسهم وخزرجهم، من كان منهم قد لقي النبي ﷺ وبايعه من قبل في إحدى البيعتين السابقتين أو فيهما، أو من أسلم على أيدي الدعاة إلى الله، ولم يكن سبق له أن لقي رسول الله ﷺ وبايعه.

وائتمروا فيما بينهم وقالوا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف على مجتمعات الناس، ويغشى محافل العرب في المواسم، ويطرد في جبال مكة، ويُرَدّ ويخاف؟ وعزموا الأمر، وصدقوا الله في عزيمتهم فرحل إليه منهم سبعون رجلاً وامرأتان، وهؤلاء هم أهل البيعة الكبرى التي سميناها (فتح الفتوح) حتى قدموا عليه ﷺ الموسم، وواعدوه شِعْب العقبة، واجتمعوا عند الشِعْب متسلّلين تسلُّل القطا من رجل ورجلين، حتى توافوا وتمّ جمعهم، وقالوا: يارسول الله، علام نبايعك؟ قال ﷺ: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة» فقاموا إليه يبايعونه، فأخذ أسعد بن زرارة بيده، وقال: رويداً يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم، وتعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبيِّنوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله، فقال القوم: أمِطْ يا أسعد يدك، فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسْلَبها، فقاموا إلى النبي ﷺ فبايعوه، وأخذ عليهم، وشرط لله ولرسوله، وأعطاهم بذلك الجنة.

أولئك أنصار الله وأنصار رسوله، عاهدوا الله ورسوله فصدقوا في عهدهم أكمل ما يكون الصدق في عهد، مضوا على ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ قُدُماً لم يتلجلجوا، ولا ترددوا، ولا كعُّوا عن الجهاد في سبيل الوفاء ببيعتهم، ولا جبنوا عن لقاء عدو لله ولرسوله، ولا تقاعسوا عن مطلب تقاضاهم إياه الوفاء بالعهد، فهم قد بايعوا رسول الله ﷺ على حرب الأبيض والأسود، دفاعاً عنه وعن أصحابه وعن رسالته، إذا حل بينهم في بلدهم، وهاجر إليهم، فكانوا أوفى من بايع، وأصدق من عاهد، فكانت بيعتهم فتحاً للإسلام، مهّدت الطريق أمام كتائب الجهاد حماية للدعوة وعملاً على نشرها، زلزلت أقدام الطغاة من المشركين في مكة، وملأت قلوبهم رعباً، وبخعت تعزّزهم الوثني الجهول، ونكأت غرورهم الأجوف، وزعزعت عنادهم، وغمزت قناتهم فقصفت كعوبها.

نصروا الله بنصر دينه، ونصروا رسول الله ﷺ بنصر دعوته، ونصروا الإسلام بنشر رسالته، ونصروا المستضعفين من المؤمنين فآوَوْهم إلى كنف إخائهم وحبِّهم وإيثارهم على أنفسهم، فبدّلوا ضعفهم قوة، وخوفهم أمناً، وذلهم عزاً، وفقرهم غنى، وجعلوا منهم للجهاد عدة، وللبطولة مدداً، وللحق جنداً، وللفتح رِفْداً وسنداً.

وإذا كان السابقون الأولون من المهاجرين قد خصهم الله تعالى فجعلهم طليعة الإسلام، فكانوا أول من استجاب لله ولرسوله، فانفردوا بالأسبقية إلى الإيمان بالدعوة إلى الله، وكتب هذا الفضل الذي كان خصيصتهم التي لا يلحقون فيها، ولا يوازن بها فضل أحد من الأوّلين والآخرين، فإن الأنصار هم الذين آوَوْا ونصروا، فكانوا كتيبة الإسلام التي حملت لواء النصر خفّاقاً في الآفاق، وكانوا أول جند للإسلام وقفوا في وجه الفجور الوثني فكسروا شوكته ممثلاً في ملأ العتو المتجبر من طغاة قريش، وأذلّوا غرور المستكبرين، فأعزّ الله بهم دينه ونصر بعزائمهم رسوله ﷺ، فالمهاجرون خُصّوا بالسبق إلى الإسلام، وكانت لهم الهجرة، والأنصار خُصُّوا بالإيواء والإيثار والحب، قال أبو حيان في (البحر) في تفسير قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آوَوْا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾[1] قسم الله المؤمنين إلى المهاجرين والأنصار، والذين لم يهاجروا، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وأول من استجاب لله، وثنّى بالأنصار لأنهم ساوَوْهم في الإيمان والجهاد بالنفس والمال، لكنه عادل الهجرة بالإيواء والنصر، فانفرد المهاجرون بالسبق فكانوا اللبنة الأولى في بناء صرح الإسلام.

عاد السبعون إلى بلدهم بعد أن أتم الله تعالى عليهم نعمته في بيعتهم الكبرى التي كانت فيصلاً بين الحق والباطل وهم يتطلعون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة وهم في غمرات المحن، انتظاراً لقدومهم عليهم، ليجعلوا من مدينتهم مأرزاً للإيمان ومعقلاً لكتائب الإسلام، وهاجر إليهم إخوانهم الذين أوذوا فصبروا تكرماً واحتملوا من صنوف البلاء ما كان فوق طاقة البشر في سبيل استمساكهم بعقيدتهم، والحفاظ على دينهم، وتركوا وراء ظهورهم أموالهم وأولادهم ومساكنهم، وعشائرهم، ومآثرهم التاريخية والاجتماعية، وذكرياتهم ومآنس شبابهم وملاعب صباهم، حيث لم يجدوا في مكة للحق والخير والهدى مكاناً.

---

(١) سورة الأنفال آية (٧٢).

فأنزلهم إخوانهم الأنصار في مساكنهم ومجتمعاتهم أكرم منزل، وكانوا يتنافسون أشد التنافس في إنزالهم وإكرامهم، حتى بلغ الأمر أنه ما كان ينزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة، وقاسموهم أموالهم وسائر مناحي حياتهم، بل آثروهم على أنفسهم وأهليهم وأفلاذ أكبادهم، ومزجوهم بحياتهم، وأحلوهم من قلوبهم محل الحِبِّ الأثير، وأنزلوهم من أفئدتهم منزل الحميم من الحميم.

كانت هذه المواساة النبيلة آية من آيات الحب والمودة التي أنست المهاجرين مرارة مفارقة الأوطان والأحبة وأنستهم قسوة الفقر والحاجة، لأن إخوانهم الأنصار واسوهم مواساة امتزاج بهم، فخلطوهم بأنفسهم حتى كانوا منهم بالمكانة التي لا ترام.

واستتمت هجرة أصحاب النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، واستقر المهاجرون بين إخوانهم الأنصار آمنين مطمئنين، ينتظرون جميعاً مقدم النبي ﷺ ليطمئنوا عليه كما اطمأنوا على أنفسهم في كنف إخوانهم الأنصار، وليسمعوا منه آيات الله تتنزل عليه فيتلوها عليهم تفقيهاً في الدين وتعليماً لآدابه وشرائعه، وليروا ما كانوا يرون ويشاهدوا من معالم الوحي وأنوار التنزيل، وليأخذ بيده ﷺ زمام الدعوة في مرحلتها الجديدة، وقد قويت شوكتها، واشتدت قناتها، لتمضي في قوتها قُدُماً لا يعوقها عائق، ولا يثنيها عن طريقها أحد من الخلق.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلّف بمكة من الصحابة إلا من كان مقهوراً محبوساً، أو كان ضعيفاً مفتوناً في دينه؛ سوى أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان أبو بكر دائم الأهبة للهجرة، وكان كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في اللحاق بإخوانه المهاجرين، فيستمهله النبي ﷺ، ويقول له: «على رِسْلك فلعل الله يجعل لك صاحباً»، فيطمع أبو بكر رضي الله عنه أن يكون ذلك الصاحب هو رسول الله ﷺ.

وذكر ابن القيم في (الهدي النبوي) أن الحاكم ذكر في صحيحه أن

النبي ﷺ سأل جبريل عليه السلام، فقال له: «من يهاجر معي؟» فقال جبريل: أبو بكر الصدِّيق، وظاهر أن مثل هذا لا يكون إلا عن وحي متلقى من الله سبحانه وتعالى، وفيه منقبة عظيمة للصديق حيث خصه الله تعالى بهذا الفضل العظيم الذي لا يدانى.

أما علي رضي الله عنه فقد استبقاه النبي ﷺ بمكة حتى يرد الودائع التي كانت عنده ﷺ لأصحابها. قال ابن إسحاق: أما علي رضي الله عنه فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلَّف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ.

وقد كان شوق الأنصار مع إخوانهم المهاجرين إلى مقدم رسول الله ﷺ عليهم بالمدينة يتعاظم ويتزايد حتى بلغ منهم مبلغ اللهفة، فإنهم رضوان الله عليهم لم يكادوا يرون مجتمعهم المسلم قد اكتمل، ورأى الأنصار إخوانهم من المهاجرين مستقرين في منازلهم، مطمئنين في جميع شؤونهم حتى بدؤا يتساءلون في لهفة عارمة وشوق متعاظم مستشرفين الآفاق: أين رسول الله ﷺ؟ ومتى يقدم علينا ركبه الميمون؟ ومتى تشرق في آفاقنا شمسه لتضيء لنا الحياة؟ ومتى نستظل بظله الوارف؟ ومتى يتم لمدينتنا شرف إيوائه بين أحضانها مكرّماً معظّماً مطاعاً، فيقال لهم هو على الأثر، يقدم في حفظ الله ورعايته، كأنكم به وهو ﷺ بينكم تحفون به حباً وطاعة، وكأنكم بوجوده بينكم تمشون معه فوق أديم السماء وتصافحون نجوم الجوزاء.

صدق الحب والوفاء في مظاهر حفاوة الاستقبال

وظل الأنصار في شوقهم المتعاظم ولهفتهم العارمة يستشرفون الآفاق، يتوكفون مقدمه ﷺ، ويتطلعون إلى مطلعه في أفقهم حتى بلغهم أن ركبه المبارك قد تحرك إليهم، قال ابن القيم: وبلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكة وقصده المدينة، وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرَّة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد حر الشمس رجعوا على عادتهم إلى منازلهم، فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول، على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة خرجوا على عادتهم، فلما حمي حر الشمس رجعوا وصعد رجل من اليهود

على أطم من آطام المدينة لبعض شأنه، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين، يزول بهم السراب، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قَيْلة ، هذا صاحبكم قد جاء، هذا جدّكم الذي تنتظرونه، فبادر الأنصار إلى السلاح ليلقوا رسول الله ﷺ، وسمعت الرجة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحاً بقدومه ﷺ، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، وأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) فسار ﷺ حتى نزل بقُباء في بني عمرو بن عوف، فنزل على كُلثوم بن الهدم، وقيل على سعد ابن خيثمة، والأول أثبت، فأقام في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة، وأسس مسجد قباء وهو أول مسجد أسس بعد النبوة.

توضيح وتعليق

هذا الكلام الذي ذكره ابن القيم رحمه الله أصله عند ابن إسحق في سيرته، وقد اختصره ابن القيم، وحقّق بعض تواريخه وأحداثه ووقائعه وأيامه.

بَيْدَ أن في بعض مواضع منه ما يحتاج إلى توضيح وتعليق، يكشف عن بعض ما عسى أن يكون قد ندّ على بعض الناظرين ممن لم يتعمق في دراسة أحداث السيرة النبوية.

فمن ذلك قوله: وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة، وللمدينة حرار تحيط بجوانبها، والحرة أرض ذات حجارة سود حالكة السواد، وأعظم هذه الحرار وأشهرها الحرة التي كانت فيها واقعة يزيد بن معاوية وتسمّى ـ كما في طبقات ابن سعد حرة القصبة ـ وكانت هذه الواقعة من أسوأ وأشد ما مر في التاريخ قديماً وحديثاً على المدينة وأهلها، فقد أبيحت فيها الحرمات، وانتهكت الستور، ونهبت الأموال وشاع الرعب والفزع.

ومن ذلك قول ابن القيم في تحقيقه: فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة خرجوا ـ أي المهاجرين والانصار ـ على عادتهم، ففي هذا القول تحقيق تاريخ اليوم الذي وصل فيه رسول الله ﷺ إلى علو المدينة بقباء، وهي منازل بني عمرو بن عوف، وهم أول قوم نزل عليهم في ديارهم، وفي هذا التحقيق تعيين اليوم باسمه من أيام الأسبوع، وهو يوم الاثنين، وفيه تعيين شهره، وهو ربيع الأول، وفيه

تعيين سنته من زمن النبوة.

وهذا التحقيق يرد ما جاء عن ابن شهاب الزهري من طريق تلميذه موسى بن عقبة أحد علماء المغازي والسير، من قوله: وكان قدومه عليه السلام لهلال ربيع الأول أي أول يوم منه.

ويرد قول ابن إسحق، وهو شيخ أرباب المغازي والسير، من رواية جرير بن حازم: قدمها - أي المدينة - ﷺ - لليلتين خلتا من ربيع الأول.

ويرد قول ابن الكلبي: ودخل - ﷺ - المدينة يوم الجمعة.

ويرد قول مغلطاي: قدمها - اي المدينة - ﷺ - لثمان خلون من ربيع الأول.

وعمدة تحقيق ابن القيم أن قوله: فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول.. إلخ صحة الرواية، وأنها قول جمهور العلماء ومن ذلك قوله: فرأى - أي اليهودي - رسول الله ﷺ وأصحابه مبيِّضين، اي لابسين ثياباً بيضاً، وهي ثياب أهداها لهم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وقد التقيا بهم وهما قافلان من الشام في ركب من المسلمين كانوا تجاراً.

قال الزرقاني في شرح المواهب، ومما وقع لهم في الطريق أنه ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجّاراً قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ ثياباً بيضاً، رواه البخاري عن عروة مرسلاً، ووصله الحاكم عن عروة عن أبيه الزبير، وكذلك لقيهما طلحة بن عبيد الله وكساهما، رواه ابن أبي شيبة، وغيره.

والظاهر من سياق الزرقاني أن الزبير رضي الله عنه قدّم هديته إلى رسول الله ﷺ أخذاً بأدب التعظيم، فقسمها رسول الله ﷺ بينه وبين مرافقيه في رحلته المباركة جرياً على عادته الكريمة في عدم استئثاره بشيء عن أصحابه، وقد لبس كل واحد ثوبه من هذا البياض، فكانوا كلهم مبيضين عندما رآهم اليهودي قادمين يزول بهم السراب، وبهذا يتمشى قوله: مبيضين بصيغة الجمع مع قوله: فكسا الزبير النبي ﷺ ثياباً بيضاً، وأن

طلحة الفيّاض أهدى إلى رسول الله ﷺ وإلى صاحبه أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما أخذاً بشرعة المكارم، ويدل لذلك قول الزرقاني: وكذا لقيهما طلحة وكساهما، ويحتمل أن لقُيا طلحة كانت مع النبي ﷺ وصدِّيقه، وأن رفيقيهما كانا قد تخلّفا عنهما في بعض الطريق، كما ورد أنهما قد تأخر عنهما بعض ظهرهما، وهذا يعلل ما جاء من أنهما دخلا مشارف المدينة والنبي ﷺ مردف أبا بكر وراءه.

وفي قول ابن القيم رحمه الله: فبادر الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول الله ﷺ، وسُمعت الرجّة والتكبير في بني عمرو بن عوف، فكبر المسلمون فرحاً بقدوم الرسول ﷺ، وخرجوا للقائه ـ مظهرٌ من مظاهر الحفاوة في استقباله ﷺ، ومبادرتهم إلى السلاح تصوير لإظهار القوة، وتلميح بالوفاء بما عاهدوا الله عليه في بيعتهم لرسوله ﷺ وتثبيت لوشائج البيعة تثبيتاً عملياً، وازدياد في طمأنة رسول الله ﷺ، وأنهم على عهدهم في بيعتهم له ﷺ حريصون، وعلى شرائطها محافظون، وبأنفسهم وأموالهم وأولادهم يفدونه ويفدون رسالته ودعوته دعوه الحق والهدى والنور.

وسماع الرجة والتكبير في بني عمرو بن عوف، فكبر المسلمون فرحاً بقدومه ﷺ، وخرجوا للقائه ـ دليل على حفاوة الاستقبال وعظمته، وفرحة الاستبشار بقدومه ﷺ، وعلى ما كانت تعمر به أنفس كافة المسلمين من المهاجرين والأنصار من التطلع إلى وصوله ﷺ إليهم، إذ لم يكد المسلمون في بني عمرو بن عوف يسمعون الرجّة والتكبير اللذين أحدثهما قدوم الأنصار من داخل المدينة لاستقباله ﷺ حتى جاوبوا المكبرين، وكان ﷺ قد نزل قريباً من قباء، وأرسل إلى الأنصار، فجاءته جموعهم مكبِّرين فرحين مستبشرين، وخرجوا إلى جموع إخوانهم القادمين من المدينة ممن بادروا بلقائه ﷺ، فعظم الاستقبال وجل مظهره عن الوصف، وكان آية من أعظم آيات صدق الوفاء والحب والإخلاص.

وفي قول ابن القيم رحمه الله: فسار حتى نزل بقباء، فأقام في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة ـ ردٌّ للمشهور بين أهل السير والمغازي من

أن إقامته بقباء كانت أربعة أيام بلياليها، وهي يوم الاثنين، وهو أول يوم وصل فيه ﷺ إلى علو المدينة بقباء في ضحاء اليوم وقد كادت الشمس تميل إلى الزوال، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء ويوم الخميس، ثم ترحل عنهم ضحى يوم الجمعة.

تحقيق مدة إقامته ﷺ في قباء ووقت قدومه المدينة

وهذا الذي جزم به ابن القيم رحمه الله رواية الشيخين من حديث أنس. قال القسطلاني في المواهب: وفي صحيح مسلم، قال الزرقاني: لاوجه للاقتصار عليه ـ أي على مسلم ـ بل والبخاري كلاهما عن أنس: أقام فيهم أربع عشرة ليلة، وبه يفسر قول عائشة: بضع عشرة ليلة وهذا في البخاري قال ابن كثير في البداية: وذكر البخاري عن الزهري عن عروة: أنه ـ ﷺ ـ نزل في بني عمرو بن عوف بقباء، فأقام فيهم بضع عشرة ليلة، فلعل هذه الرواية هي التي حملت القسطلاني على الاقتصار على مسلم في رواية: أربع عشرة ليلة، لأن رواية البضع تحتمل ما جاء في رواية مسلم وما هو أكثر منه مما قيل في بعض الروايات، ومن العجيب أن الواقدي حكى ما رواه مسلم وتحتمله رواية عروة عند البخاري بصيغة التمريض، فقال: ويقال: أقام فيهم أربع عشرة ليلة، وأضعف الروايات في مدة إقامته ﷺ ببني عمرو ابن عوف بقباء أشهرها عن أصحاب المغازي والسير وهي رواية الأيام الأربعة.

ولا يجوز العدول عن رواية الصحيح إلى غيرها مما لا يعـدلها صحة سند، ويدل لها إنها هي المدة المناسبة لبناء مسجد قباء الذي بناه رسول الله ﷺ وقام معه المسلمون في بنائه في هذه المدة التي أقامها ﷺ في بني عمرو ابن عوف بقباء، بدليل قول رواية البخاري: وأسس مسجد قباء في تلك الأيام، أي الأيام التي أقامها ﷺ بقباء، فلو كانت تلك الأيام أربعة أيام فقط، وفيها مظاهر الاستقبال والفرحة والسلام على رسول الله ﷺ ما أغنت شيئاً في إقامة بناء هذا المسجد العظيم، وهذه الرواية لم تثبت في حديث صحيح، وإنما تناقلها أصحاب المغازي والسير خلفاً عن سلف، لكن رواية الأربع عشرة ليلة رواية مسندة بأرفع الإسناد، وهي وسط بين المقلّين والمكـثرين، ومن هنا كانت حريَّة بالقبول.

وقال ابن كثير في (البداية): وذكر البخاري عن الزهري عن عروة أنه ـ ﷺ ـ نزل في بني عمرو بن عوف بقباء، وأقام فيهم بضع عشرة ليلة، وأسس مسجد قباء في تلك الأيام.

وذكر موسى بن عقبة، وهو من أرباب السير والمغازي عن ابن شهاب عن مجمع بن جارية أنه ﷺ أقام في بني عمرو بن عوف اثنتين وعشرين ليلة.

وقد رجح الحافظ ابن حجر رأي ابن القيم في إقامته في بني عمرو ابن عوف أربع عشرة ليلة، ولكنه أبعد وأغرب في بيان وجه هذا الترجيح، فقال: إن هذه المدة رواية أنس بن مالك، وأنس ليس من بني عمروابن عوف فإنهم من الأوس، وأنس من الخزرج، وقد جزم بما ذكر، فهو أولى بالقبول من غيره.

وهذا ترجيح لا يعتمد على سند علمي، ولكنه يعتمد على فرض تأثير العصبية القبلية التي ارتفع عنها أنس بنفسه، فشهد لبني عمرو بن عوف الأوسيين، وهو خزرجي، ومعنى هذا أن أنساً رضي الله عنه لو كان أوسياً من قبيلة بني عمرو بن عوف لكان متهماً في شهادته لهم، وحاشا أصحاب رسول الله ﷺ، ولا سيما خواصهم مثل أنس رضي الله عنه أن يتأثروا بهذه النزعات التعصبية.

وكيف يجنح إلى هذا التوجيه مثل ابن حجر، ويترك وجه الترجيح الصحيح القوي وهو بين يديه، وكان يكفيه أن يقول: إنه من إخراج الشيخين، وقد ذكر هـذا الوجه في الترجيح الزرقاني بعد أن ساق كلام ابن حجر، فقال: ولا سيما مع صحة الطريق إليه لأنه من رواية الشيخين، وذكر صاحب ذخائر العقبى أنه ﷺ أقام في بني عمرو بن عوف بقباء ليلة واحدة، أو ليلتين.

وهذا اختلاف غريب، يبتدىء بليلة واحدة، وينتهي باثنتين وعشرين ليلة، ومثل هذا الاختلاف في تباعده اختلافهم في زمن خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة ووقت وصوله إلى المدينة، فعند موسى بن عقبة أن قدومه ﷺ للمدينة كان لهلال شهر ربيع الأول، أي إنه كان في أول يوم منه، وعند ابن

إسحاق أنه ﷺ قدم المدينة لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، وهذا قريب من قول موسى بن عقبة أو هما قول واحد، بالنظر إلى إهلال الشهر، فقد يختلف الإهلال في بلد وأفق عنه في بلد وأفق آخر، وعند ابن إسحق أيضاً من طريق إبراهيم بن سعد أنه ﷺ قدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، أو لثلاث عشرة منه كما ذكره أبو سعيد النيسابوري في كتابه (شرف المصطفى)، وهذا القول ليس خلافاً لسابقه، ولكنه يؤول معه إلى قول واحد حسب اختلاف الآفاق في إهلال الشهر، وقيل إن دخوله ﷺ المدينة كان لاثنتين وعشرين ليلة من ربيع الأول، وقال ابن حزم: خرجا ـ أي النبي ﷺ وصاحبه الصديق رضي الله عنه ـ من مكة، وبقي من صفر ثلاث ليال، وهذا قريب من القول المشهور من أن وصوله ﷺ دخل المدينة كان لاثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول، وهذه اختلافات عجيبة، تتباعد حتى لا تكاد تلتقي، وتتقارب حتى تكاد تتوحد، ولعل مرد ذلك عدم العناية إذ ذاك بتسجيل أوقات الأحداث تسجيلاً كتابياً يحفظها ليكون فيصلاً فيها.

ويؤيد رواية البخاري في إقامته ﷺ في بني عمرو بن عوف بقباء أربع عشرة ليلة قول أبي قيس صرمة بن أبي أنس: كما ذكر ذلك ابن إسحق وغيره، ورواه عبدالله بن الزبير الحميدي وغيره عن سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن عجوز من الأنصار قالت: رأيت عبدالله ابن عباس يختلف إلى صِرمة بن قيس ليحفظ هذه الأبيات:

ثوى في قريش بِضْع عشرة حِجَة ... يذكّر لو يلقى صديقاً مواتياً
ويعرض في أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوي ولم ير داعياً
فلما أتانا واستقرت به النوى ... وأصبح مسروراً بطيبة راضياً
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً ... قريباً ولا يخشى من الناس نائياً
بذلنا له الأموال من حلِّ ما لنا ... وأنفسنا عند الوغا والتآسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعاً ولو كان الحبيب المواسيا

وهي قصيدة متوسطة الطول، وشريفة المعنى، جيدة المبنى، وقائلها ممن تحنّف في الجاهلية ثم أسلم.

تحقيق الاختلاف
في بناء مسجـــد قباء

هذا المسجد المبارك الذي أعلى الإسلام مكانته، بجعله والياً في التعـظيم والتقديس والتـرغيب في التعبد بـه للمساجـد الثلاثـة المنفردة بالتقديس، والتي خصها رسول الله ﷺ بأنها هي المساجد التي لا تشد الرحال إلا إليها، وهي: المسجد الحرام مسجد الكعبة المشرفة بمكة المكرمة، ومسجد المدينة المنورة، وهو مسجد رسول الله ﷺ، والمسجد الأقصى، وهو مسجد إيليا بالشام الذي خصه الله تعالى، فجعله نهاية تشريف رسول الله ﷺ بالإسراء، وهو أعظم آية حسية مادية أوتيها خاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ.

ومسجد قباء أول مسجد في الإسلام كله جامع عام للمسلمين أسس بعد النبوة، أسسه رسول الله ﷺ وأكمل بناءه وهو يعمل فيه بنفسه الشريفة مع أصحابه، وكان ﷺ ينقل حجارته مع المسلمين.

يقول السهيلي في (الروض): وذكر ابن خيثمة أن رسول الله ﷺ كان أول من وضع حجراً في قبلة هذا المسجد المبارك، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه إلى حجر أبي بكر، ثم أخذ الناس في البنيان، ثم قال السهيلي: إن الخطابي روى عن الشموس بنت النعمان الأنصارية قالت: كان النبي ﷺ حين بنى مسجد قباء يأتي بالحجر قد هصره ـ أي ألصقه وشده بيديه ـ إلى بطنه فيضعه، فيجيء الرجل يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدعه ويأخذ غيره.

مساجد خاصة غير جامعة

ولا ينافي هذا من تحقيق تأسيس رسول الله ﷺ لمسجد قباء وعمله في بنائه حتى أكمل في المدة التي أقامها ﷺ في قباء ـ وهي كما حققناه فيما سبق أربع عشرة ليلة ـ ما جاء في شرح المواهب للزرقاني من قوله: وروى يونس في زيادات المغازي عن الحكم بن عتيبة، قال: لما نزل ﷺ قباء قال عمار ابن ياسر رضي الله عنه: ما لرسول الله بدٌّ من أن نجعل له مكاناً يستظل فيه إذا استيقظ، ويصلي فيه، فجمع ـ أي عمار ـ حجارة فبنى مسجد قباء، لاحتمال أن يراد بقوله: بنى مسجد قباء إنه ابتدأ بناءه، ولاحتمال أن محمل عمل عمار لم يكن بناء مسجد عام جامع للمسلمين لجُمَعِهم وجماعاتهم كما هو حال مسجد قباء الذي بناه رسول الله ﷺ، وإنما كان عمل عمار رضي الله عنه إحداث مكان يستريح فيه رسول الله ﷺ ويستظل فيه إذا استيقظ من نومه، ويجلس فيه إلى أصحابه هادياً مفقهاً لهم في الدين، ويصلِّي فيه فرضه ونفله، ثم بناه رسول الله ﷺ مسجداً عاماً للمسلمين يقيمون فيه جمعتهم وجماعاتهم.

وكذلك لا ينافيه قول الزرقاني وسياقه حديث ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه قال: لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله ﷺ بسنتين نعمر المساجد، ونقيم الصلاة، وقد أقبل المتقدمون في الهجرة من أصحاب النبي ﷺ والأنصار بقباء قد بنوا مسجداً يصلُّون فيه.

فلما هاجر ﷺ وورد قباء صلى فيه إلى بيت المقدس، ولم يحدث فيه شيئاً، فهذه كلها مساجد خاصة بأفراد أو جماعة تحويها دار أو ساحة محدودة، وليست مساجد عامة لجماعة المسلمين وتجمّعهم، ويؤيد ذلك قول جابر رضي الله عنه: لقد لبثنا قبل أن يقدم رسول الله ﷺ بسنتين نعمر المساجد ونصلِّي فيها، لأن انتشار الإسلام بالمدينة انتشاراً يحتاج فيه إلى مساجد عامة، تقام فيها جماعة المسلمين وتؤدّى فيها جمعتهم، إنما كان قبل الهجرة بسنة واحدة، بعد البيعة الثانية: بيعة الاثني عشر من الأوس والخزرج، وبعد بَعْث مصعب بن عمير معهم ليقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وحتى هذا الانتشار كان محصوراً، ثم استعظم وزاد زيادة عظيمة أصبح بها للمسلمين

مجتمع يحتاج إلى مساجد الجمعة والجماعة بعد البيعة الكبرى، وهي البيعة الثانية في رأي بعض العلماء، والثالثة في رأي آخرين، ومقدم رسول الله ﷺ بعد هذه البيعة الكبرى بيعة السبعين بثلاثة أشهر إلى المدينة المنورة.

ففي حديث جابر رضي الله عنه تجوز بإرادة مساجد خاصة كالذي بناه أبو بكر الصديق بفناء داره بمكة، وكان يصلِّي فيه، فيتقَّصف عليه الولدان والنساء يستمعون إلى قراءته القرآن وهو يبكي، فخشي المشركون على ذراريهم أن تأخذهم رقّة الصديق إلى حظيرة الإسلام، فطلبوا إلى ابن الدغنّة الذي كان قد أجار الصديق أن يطلب من الصديق أن يصلِّي في داخل داره أو يرد عليه جواره، فردَّ أبو بكر رضي الله عنه جوار ابن الدغنّة ورضي بجوار الله تعالى.

وقد حاول الزرقاني أن يجمع بين رأي من قال: إنه ﷺ صلّى في مسجد قباء إلى بيت المقدس ولم يحدث فيه شيئاً، وبين رأي من يقول: إنه ﷺ أسسه وبناه والمسلمون يعملون معه في بنائه حتى أكمله في مدة إقامته بقباء ثم ترحل عن قباء في يوم الجمعة، فقال: إنه ﷺ لم يحدث فيه شيئاً في أول بنائه، لكن لما قدم وصلّى فيه غيَّر بناءه وقدم القبلة.موضعها اليوم، كما في حديث ابن أبي شيبة.

فمسجد قباء الجامع العام المشهور في الإسلام، والذي ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ كان يأتيه كل يوم سبت راكباً أو ماشياً، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ كما في حديث الترمذي عن أسيد بن ظهير: «إن الصلاة في مسجد قباء ركعتين أحب إليّ من أن آتي بيت المقدس مرتين، لو كانوا يعلمون ما في قباء لضربوا إليها أكباد الإبل»، وأخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر مرفوعاً: «من صلّى في مسجد قُباء كان كعدل عمرة» ـ هو المسجد الذي أسسه وبناه رسول الله ﷺ، ومعه أصحابه يعملون في بنائه حتى أكمله.

ولما أتمّه ـ ﷺ ـ تجهز إلى دخول المدينة، وحفّ به أصحابه يتنازعون زمام ناقته تكريماً وتعظيماً له ﷺ، وسار في ركبه الميمون حتى أدركته الجمعة

في بني سالم بن عوف، وفي هذا دلالة على كثافة الركب وكثرة المجتمعين حوله ﷺ، لأن المسافة بين منازل بني عمرو بن عوف ومنازل إخوانهم بني سالم بن عوف قصيرة تعد بعشرات الأذرع، لو كانت في سير عادي لم تحتج إلى زمن طويل، لكن شدة الزحام ووآدة السير توقياً لأخطار السرعة هما سبب قطع هذه المسافة القصيرة في الزمن الطويل.

تحقيق الاختلاف في المسجد الذي أسس على التقوى

ومسجد قباء هو المسجد الذي أنزل الله فيه قوله عز شأنه: ﴿لَمَسْجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهّروا، والله يحب المطّهرين﴾[1] والإجماع قائم على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ هم الأنصار أهل قُباء، ويدل للإجماع قوله ﷺ في حديث عند الإمام أحمد: «إن الله قد أحسن الثناء عليكم في الطهور في قصة مسجدكم هذا، فما هذا الطهور الذي تطهّرون به؟» قالوا: والله يا رسول الله لا نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا، وبدليل حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي وابن ماجه عن النبي ﷺ: «نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهرين» وهذا الحديث أصرح في الدلالة.

وليس هذا من قبيل المفاضلة بين مسجد ومسجد، وإنما هو من قبيل المدح الرفيع في مقابلة الذم الشنيع، فالمدح لمسجد أسس على التقوى، خالصاً لوجه الله، نقياً من الشوائب، والذمُ لمسجد أقيم على دعائم الكفر وفجور الشرك، مضارّة لدين الله، ومخادعة لرسول الله ﷺ، وتفريق كلمة المسلمين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من رؤوس المنافقين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين، ويبغونهم الغوائل.

فالمدح العلي الرفيع لمسجد قباء الذي أسسه وبناه رسول الله وأصحابه، وهو مسجد الإسلام في قباء الذي أقيم أساسه وبناؤه على تقوى من الله ورضوانه، تعبداً له عز شأنه، ومدعاة لإعلاء كلمته، كلمة الحق

(١) سورة التوبة آية (١٠٨).

والهدى والنور، وإخلاص الدين لله الواحد الأحد، وإسلام الوجه لجلال كبريائه.

والذم الشنيع لأخبث بناء على وجه الأرض، أسسه وبناه أخبث قوم استبطنوا العتو والفجور والكفر، وقالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، جاء الإسلام فكان غصّة في حلاقيمهم، وجاءت رسالته فشرقوا بها، وجاءهم رسول الله ﷺ فأهلكهم الكمد حسداً، وبخعهم المكر السيء حقداً، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، وهذا اللعين هو المسمّى في الإسلام بمسجد الضرار.

كان قائد هذه الجراثيم الوبائية الفاسق أبو عامر الذي نغل الحقد قلبه، فأعقبه كفراً ونفاقاً لا يشفيه منها هو وأصحابه الفجرة إلا أن تتقطع قلوبهم خزياً وخذلاناً وذلّة في الحياة الدنيا، وعذاباً مهيناً في الآخرة.

ولا محل للموازنة قط بين الخير المضيء بنور الهدى المصفّى من الأدران والأرجاس وبين الشر الخبيث المظلم بظلمات العتو والفجور، المعجون بالإثم والعناد الكفور، فلفظ (أحق) في قوله تعالى: ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ جُرِّدَ عن أفعليته، وكان المراد منه (حقيق) وأهل لأن تقوم فيه للملايمة بينك ـ في صفاء طبيعتك، ونور قلبك، وإشراق روحك، ونقاء فطرتك، وسمو شمائلك، وعلو مكارمك ـ وبينه حيزاً للخير والهدى والنور والطهر، ومباءة للإيمان، ومثوى للإخلاص.

أما ذاك الشر الخبيث المستخبث، المشمول بسخط الله ولعناته، فأنت أرفع وأجل من أن تخدع بمعسول القول عنه من الأخابث الذين أقاموا جدرانه على نزيز من الفجور، وحمأة من خبال الحقد المظلم، والإفساد في الأرض.

فالذين يعقدون موازنة في الفضل بين فاضلين أسسا على التقوى، أسسهما وبناهما أتقى الأتقياء، وسيد الخلصاء، وإمام المخلصين، سيدنا رسول الله ﷺ محمد خاتم النبيين، إنما يريدون التنويه بفضل الفاضلين، ولا يريدون مفاضلة بين الفاضلين، بله تفضيل الفاضل على الأفضل.

وقد ثبت بالقواطع من الأدلة أن مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة هو أفضل مساجد الدنيا سوى المسجد الحرام، مسجد الكعبة المشرفة فهو مثله في الفضل أو أفضل منه، فأي وجه لعقد مفاضلة بين فاضل لا يلحق فضله أفضلية الأفضلين.

فالحديث الوارد في سؤال بعض الصحابة النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فقال: «هو مسجدكم هذا» وهذا من رواية مسلم في الصحيح لا منافاة بينه وبين ظاهر الآية؛ لأن المسجدين مسجد قباء ومسجد المدينة المنورة أسسا على التقوى، كما ذهب إليه الداودي وابن حجر، وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي سعيد: اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: «هو هذا، وفي ذلك خير كثير».

قال الزرقاني: ولهذه الأحاديث وصحتها جزم الإمام مالك في العتيبية بأن الذي أسس على التقوى مسجد المدينة. قال ابن رشد في شرحها: إنه الصحيح، قال الحافظ ابن حجر: والحق أن كلاً منهما أسس على التقوى، وقوله تعالى في بقية الآية: ﴿يحبون أن يتطهَّروا﴾ يؤيد كون المراد مسجد قباء، وعند أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «نزلت رجال يحبون أن يتطهروا في أهل قباء».

قال الزرقاني: وعلى هذا فالسر في جوابه ﷺ بأن المسجد الذي أسس على التقوى مسجده هو رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء، قال الداودي وغيره ليس هذا اختلافاً لأن كلاً منهما أسس على التقوى، وقال بعض العلماء: إن قوله: من أول يوم يقتضي مسجد قباء، لأن تأسيسه في أول يوم حل فيه النبي ﷺ بدار الهجرة.

وهذا اختلاف عجيب لا ندري كيف ابتدأ، فالآية وأحاديث أسباب نزولها، وواقع الأمر في تقدم تأسيس وبناء مسجد قباء زمناً على مسجد رسول الله ﷺ، ونزول قوله تعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ وهم

الأنصار من أهل قباء،ونزول قوله جل شأنه: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ وقد فسر أول يوم بأول يوم حل فيه رسول الله ﷺ بدار هجرته، ويؤيد ذلك حديث «إن الله قد أحسن الثناء عليكم في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطّهرون به» وهذا كله إنما كان لأهل قباء، والحديث رواه الإمام أحمد من طريق عويم بن ساعدة، قال: إن رسول الله ﷺ أتاهم في مسجد قباء، فقال لهم: «إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور» وقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء» ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطّهرين﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ـ صريحة في أن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم كما هو ظاهر الآية هو مسجد قباء.

فكيف إذاً وقع هذا الاختلاف في المسجد الذي أسس على التقوى، فيسأل الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري رضي الله عنه النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فيجيبه النبي ﷺ بقوله: «هو مسجدكم هذا» يعني مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة؟ ثم كيف يختلف رجلان من الصحابة في أي المسجدين هو الذي أسس على التقوى؟ فيقول أحدهما: هو مسجد قباء، ويقول الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، ويأتيان النبي ﷺ يسألانه عن ذلك فيقول ﷺ: «هو هذا، وفي ذلك خير كثير».

ثم كيف يجزم الإمام مالك رضي الله عنه بأن الذي أسس على التقوى هو مسجد المدينة أخذاً بالأحاديث الصحيحة دون نظر إلى ظاهر القرآن الحكيم، ودون نظر إلى تأويل هذا الظاهر القرآني تأويلاً يجمع بينه وبين نص الأحاديث؟ ثم يأتي ابن رشد الفقيه الكبير جد صاحب بداية المجتهد، ويقول في قول مالك هذا إنه الصحيح؟

ثم يأتي الداودي ويقول: ليس هذا اختلافاً لأن كلاًّ منهما أسس على التقوى، وهل يؤدّي سديد النظر إلى أن هذا كله ليس اختلافاً؟ وإذا ففيم كان سؤال الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ؟ وكيف يكون جواب

رسول الله ﷺ مطابقاً إذا لم يكن هذا اختلافاً؟ وإذا كان هذا ليس اختلافاً فهل قول الداودي لأن كلا منهما أسس على التقوى. يتمشّى مع فهم الصحابة الذي كان بمقتضاه سؤالهم لرسول الله ﷺ، وكانت إجابته ﷺ مفيدة أنهم رضي الله عنهم كانوا يفهمون الوضع على أنه اختلاف.

وكيف يأتي الحافظ ابن حجر فيقول كلاماً متدافعاً، يدفع عجزه في صدره إذ يقول: والحق أن كلا منهما أسس على التقوى، وهذا يعارضه أشد المعارضة فهم الصحابة وتوجههم بالسؤال إلى رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى ويجيبهم رسول الله ﷺ بما يفهم منه قطعاً أنهم على اختلاف، وقد عيّن لهم بجوابه المسجد الذي أسس على التقوى بأنه مسجده ﷺ بالمدينة.

ثم يقول ابن حجر: وقوله تعالى في بقية الآية: ﴿يحبون أن يتطهروا﴾ يؤيد كون المراد مسجد قباء، وهذا دافع لقوله في صدر كلامه: والحق أن كُلًّا منهما أسس على التقوى، ومناقض لفهم الصحابة وإجابة رسول الله ﷺ؟

هذه مسألة كان السكوت عنها أولى من إثارتها بمثل ما أثيرت به من أخذ ورد، وأصحاب النبي ﷺ أفهم الناس لمرامي القرآن ومضامينه من المعاني والحقائق، وهم لا يسألون إلا على ما غمض عليهم، والنبي ﷺ بين أظهرهم، وهو ﷺ المبيّن لما غمض من آيات ما أنزل عليه، فسئل ﷺ وأجاب، فكانت المسألة في حاجة إلى السؤال في نظرهم رضوان الله عليهم، وأجيبوا فاقتنعوا، وإذاً فما مبعث السؤال عند الصحابة، وهم رضي الله عنهم على أكمل الاعتقاد بأن المسجدين أسسا على التقوى؟ وقد أسسهما وأكمل بناءهما سيد المتقين.

ويغلب على الظن أن لا تدافع بين نصوص الأحاديث وظاهر الآية، فهذا الظاهر هو على ما هو عليه مؤيداً ببعض الروايات من أن المسجد المذكور في الآية الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء، ولا يشك مؤمن في أن مسجد رسول الله ﷺ وهو غير مراد في الآية أسس على أتقى التقوى،

فالمسجدان أسسا على التقوى باتفاق.

وإنما كان مبعث سؤال الصحابة عن أي المسجدين أسس على التقوى من أول يوم حل رسول الله ﷺ بمكانه، فالسؤال قصد إلى استبانة أي المسجدين أسس على التقوى من أول يوم، أي أن محطّ السؤال هو التأسيس على التقوى مقيداً بكونه من أول يوم، وليس سؤالاً عن مطلق التأسيس على التقوى، لأنه لا يدور بخلد مؤمن أن أي المسجدين وقد أسسهما وبناهما رسول الله ﷺ وصلّى فيهما غير مؤسس على التقوى، فتأسيس المسجدين على التقوى ليس محل اختلاف ولا هو مبعث سؤال، والمراد بأول يوم، اليوم الأول الذي حلَّ فيه رسول الله ﷺ بالمكان الذي صار فيما بعد مسجداً سواء أكان ذلك في قباء أو داخل المدينة، والمعنى أي المسجدين ابتدأ تأسيسه على التقوى في أول يوم حلَّ فيه رسول الله ﷺ بمكانه، ويظهر أن مسجد قباء لم يبدأ فيه عمل رسول الله ﷺ من أول يوم حل فيه بقباء لأنه ﷺ وصل بركبه المبارك إلى قباء إثر رحلة طويلة شاقة متعبة، وكان أصحابه من المهاجرين والأنصار في لهفة شديدة، ينتظرونه، فالمعقول أن يكون رسول الله ﷺ قد أخذ وقتاً طويلاً يؤدي فيه حق أصحابه المتشوقين إلى مشاهدته والسلام عليه والترحيب به في استقبال بذلوا فيه من مظاهر الوفاء وروعة الحب، ووقتاً يؤدي فيه حق نفسه في الراحة والاستجمام، ليستعد لجهد شاق مطلوب منه بذله في هجرته ومجتمعه الجديد وسياسة هذا المجتمع، ونظام حياته، وقد يلمح إلى هذا حديث عمار بن ياسر إذْ يقول: ما لرسول الله ﷺ بدٌّ من مكان يستظل فيه إذا استيقظ ويصلِّي فيه، ويحدِّث أصحابه هادياً مرشداً مبلِّغاً رسالة ربه.

ثم بعد أن أخذ رسول الله ﷺ شيئاً من الراحة والاستجمام بدأ في تأسيس وبناء مسجد قباء حتى أكمله ووضع قبلته وصلّى فيه مع أصحابه ما أتيح له من الصلوات.

وبهذا يكون تأسيس مسجد قباء على التقوى ليس من أول يوم حلّ فيه رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بقباء، أما مسجده ﷺ بالمدينة فقد

ابتدأ العمل في تأسيسه منذ اللحظة الأولى لوصوله إلى مكانه حيث بركت ناقته في مربد سهل وسهيل في مكان منبره أو بابه، وقال لولي اليتيمين بعد أن سأل عنهما مثامناً لشراء المكان: ثامنوني، أي قولوا: ماذا يكون ثمنه؟ وبتمام شراء أرض المربد أخذ ﷺ في تنظيفها من قبور المشركين، وتسويتها، وتسريب النخيل الذي كان فيها، وإعدادها للبناء، ونصب العمد من جذوع نخلها من أول يوم حل فيه ﷺ في مكان مسجده الأشرف الأنور، حيث بركت ناقته، ثم أخذ ﷺ ومعه أصحابه في البناء حتى أكمله، وأصبح هو المسجد الذي خلص في كل شأن من شؤونه لرسول الله ﷺ، وأقيمت فيه جماعته الدائمة في جميع أوقات الصلاة المفروضة بإمامة رسول الله عليه الصلاة والسلام في حياته وإمامة الراشدين من خلفائه، وصليت فيه الجمع، وتحدث فيه رسول الله ﷺ إلى أصحابه وخطبهم في كل ما ينوبهم، وتشاور فيه معهم في مهمات أمور المسلمين، وعقدت فيه لكتائب الجهاد الألوية، والوحي ينزل فيه على النبي ﷺ، وجبريل يدارسه القرآن، ويبلِّغه رسالات ربه ليبلغها ﷺ إلى أمته قولاً وعملاً، وفيه تربى الصفوة من الدعاة إلى الله، وفيه عقدت حِلَق العلم والإرشاد.

فإذا سئل رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى، ولم يربط السائل سؤاله بنص الآية، وأجاب رسول الله ﷺ عن السؤال بأنه مسجده هذا ـ كان جوابه ﷺ أسدّ جواب عن سؤال، لأن التقوى تتفاوت درجاتها بتفاوت الأعمال التي تصورها في القلوب.

وإذاً يكون المسجد الذي أسس على التقوى في نص الآية هو مسجد قباء، ويكون المسجد الذي أسس على أكمل مراتب التقوى من أول يوم إلى آخر أيام الحياة هو مسجد رسول الله ﷺ الذي اختاره الله له ولأمته مشعل هداية ومشكاة نور ومبعث حياة روحية تفوق كل حياة يحياها عباد الله المخلصون.

أول جمعة في الإسلام صلاها النبي ﷺ

ثم خرج رسول الله ﷺ في ركبه المبارك حين ارتفع النهار من يوم الجمعة، يحفه الأنصار من بني عمرو بن عوف مودِّعين، ومن سائر بيوتات

أوس المدينة وخزرجها مرافقين، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فنزل وصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وادي رانوناء، فكانت أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بعد النبوة، لأنه ﷺ لم يكن متمكناً في مكة من صلاة جماعة ظاهرة، يخطب فيها كالجمعة؛ لأن الجماعة المسلمة كانت في مكة قليلة العدد، تؤذى بأفدح الإيذاء، ولم يكن قد أذن إليها بالدفاع عن نفسها، بل كانت مأمورة بالعفو والصفح والصبر، والتجاوز عن سفاهة السفهاء، وغفران السيئات ومقابلتها بالإحسان، والقرآن الكريم يقول لرسول الله ﷺ: ﴿خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين﴾[1] ويقول للمؤمنين على لسان رسوله ﷺ: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾[2].

وقد اختلفت الروايات في العدد الذي صلّى مع رسول الله ﷺ هذه الجمعة، فقال القسطلاني في (المواهب): كانوا مائة، وقال شارحه الزرقاني وقيل: كانوا أربعين، وقد استشكل الزرقاني هذا العدد في القولين وأجاب عنه، فقال: ولا ينافيهما رواية أنه حين قدم ﷺ استقبله زهاء خمسمائة بقباء، لجواز أنهم رجعوا بعد إلى المدينة، فلم يبق معه ﷺ لما دخل بني سالم ابن عوف إلا هؤلاء - أي الذين قيل إنهم صلّوا معه.

نظر وتوضيح

وهذا الجواب يحتاج إلى نظر وتوضيح، فهو قد يكون مسلّماً على رواية أنه ﷺ أقام بقباء مدة طويلة، أقلها ما جاء في رواية الشيخين أربع عشرة ليلة أو بضع عشرة ليلة، والمسافة بين قباء وبطن المدينة حيث منازل القوم الذين نهضوا في أسلحتهم لاستقباله ﷺ والسلام عليه والحفاوة بمقدمه في كثرة عددهم لا تزيد على فرسخ واحد، يمشيه السائر على قدميه، ويقطعه الراكب في مدة وجيزة لا يعسر فيها التردد على قباء في أيام إقامته فيها، فلعل بعض المترددين بين قباء والمدينة من الذين نهضوا في أول يوم قدم فيه ﷺ لاستقباله كان كثير منهم قد ذهب بعد الفراغ من حفاوة الاستقبال إلى

---

(١) سورة الأعراف آية (١٩٩).
(٢) سورة الجاثية آية (١٤).

منازلهم بالمدينة، وبقى منهم من سار معه ﷺ مع بني عمرو بن عوف، ومن تلقّاه من بني سالم بن عوف هذا العدد في قوليه، وهو على ذلك التوجيه لا يزال بعيداً، لأن الذين نهضوا من المدينة للسلام عليه والحفاوة باستقباله قُدّروا بخمسمائة، ولا بّد أن يكون قد كان معهم عدد انضم إليهم من بني عمرو بن عوف، فإذا ركب ﷺ متوجهاً إلى المدينة بعد إتمامه بناء مسجد قباء، فلا بد أن يكون قد حُفَّ بركبه عدد من بني عمرو بن عوف لوداعه، ولا بد أن يكون قد استقبله عدد من بني سالم بن عوف، وقد كانوا على استعداد لإظهار كثرة عددهم وقوتهم ومنعتهم ليبقى عندهم وهم أول من عرض عليه ﷺ ذلك من بيوتات الأنصار، وعلى هذا يكون تقدير العدد الذي صلى معه ﷺ أول جمعه في الإسلام صلّاها ﷺ بالمسلمين فيه تسامح كبير وتجوّز بني على شيء من التساهل وعدم التدقيق، أو يكون هذا العدد المذكور في تقدير من صلّى معه هو العدد الذي اتسع له مسجد بني سالم بن عوف، وهو مسجد صغير كما تقول سائر الروايات، ولم يدخل في العدد من صلّى خارج المسجد.

أما على رواية أصحاب المغازي والسير التي رجّحها ابن إسحق وهو المرجع فيها من أن إقامته ﷺ في قباء كانت أياماً قليلة، لم تتجاوز أربعة أيام بدأت بيوم الاثنين، يوم وصوله إلى مشارف المدينة ونزوله على بني عمرو ابن عوف بقباء فبعيد جداً في جو هذا الاستقبال الحاشد الحافل أن يرجع أكثر العدد الذي نهض للحفاوة والاستقبال، ولا سيما أنه ﷺ كان في مدة إقامته بقباء يعمل جاهداً مع أصحابه في تأسيس وبناء مسجد قباء، مما يجعل الناهضين لاستقباله والحفاوة به لا يفارقونه إلا ريثما يذهب من يذهب منهم إلى المدينة حيث منازلهم للنظر في مصالحهم ومصالح أسرهم، والإعداد لاستقبال رسول الله ﷺ إذا وصل لساحتهم، ولا يمكن القول بأنهم أو بعضهم آثروا الصلاة في مساجدهم على صلاتهم مع النبي ﷺ أول جمعة يصليها بعد النبوة، وهم يعلمون أنها أول جمعة في الإسلام يصليها رسول الله ﷺ بالمسلمين.

وقد يدل دلالة بينة على أن الذين نهضوا للاستقبال العظيم ـ وقُدِّروا بخمسمائة أو يزيدون لم يرجع منهم إلى المدينة إذا صح الأثر بالرجوع رواية

إلا عدد قليل ـ قول موسى بن عقبة: وكانت الأنصار قد اجتمعوا قبل أن يركب رسول الله ﷺ من بني عمرو بن عوف فمشوا حول ناقته، لا يزال أحدهم ينازل صاحبه زمام الناقة شُحّاً على كرامة رسول الله ﷺ وتعظيماً له.

ومسجد بني سالم بن عوف مسجد صغير في بطن الوادي، وادي رانوناء، وهو مبني بالحجارة، قدر نصف القامة، وهو على يمين السالك إلى مسجد قباء، ويقال له: مسجد بني سالم، ومسجد (غبيب) تصغير غب، كما ذكر المجد الفيروز بادي صاحب القاموس في كتابه (المغانم المطابة في فضائل طابة)، ويسمى أيضاً مسجد الجمعة لصلاته ﷺ أول جمعة فيه، وهي أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بعد النبوة، وحكى الزرقاني قولاً لم يسنده إلى أحد، فقال: وقيل: إنه ﷺ كان يصلِّيها في مسجد قباء مدة إقامته فيها، وهذا قول لا يعتد به لمخالفته المشهور الذي عليه الجمهور.

أول خطبة لرسول الله ﷺ
في أول جمعة صلاها بعد النبوة

روى ابن كثير في (البداية) عن ابن جرير قال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وَهْب، عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة النبي ﷺ في أول جمعة صلّاها بالمدينة في بني سالم بن عمرو بن عوف رضي الله عنهم: «الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل.

من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرّط، وضل ضلالاً بعيداً. وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضّه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذّركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه لتقوى لمن عمل به على عجل ومخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدّم، وما كان من سوى ذلك يودّ لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذّركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد، والذي صدّق قوله، وأنجز وعده لاخلف لذلك، فإنه يقول: ﴿ما يبدّل القول لديّ وما أنا بظلّام للعبيد﴾[1] واتقوا

(١) سورة ق آية (٢٩).

الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية فإنه ﴿ومن يتقِّ الله يكفِّر عنه سيئاته ويُعظِمْ له أجراً﴾[1] ﴿ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ وإن تقوى الله توقي مَقْته وتوقي عقوبته وتوقي سخطه، وإن تقوى الله تبيِّض الوجه، وترضي الرب، وترفع الدرجة، خذوا بحظِّكم ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهـدوا في الله حق جهاده، هـو اجتباكم وسماكم المسلمين ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة﴾[2] ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

قال ابن كثير: هكذا أوردها ابن جرير، وفي السند إرسال.

وليس هذا تضعيفاً للنص، ولكنه بيان لواقع الحال، وتعريف بالسند، والإرسال لا يكون ضعفاً في السند على إطلاقه، بل هو عند من يقبله كغيره من السند المرفوع بل قدمه بعضهم عليه.

نص آخر لهذه الخطبة أو خطبة أخرى

ثم قال ابن كثير: وقال البيهقي: باب أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ حين قدم المدينة.

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ - يعني شيخه الحاكم صاحب المستدرك - أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس ابن بكير، عن ابن إسحق، حدثني المغيرة بن عثمان بن محمد بن عثمان، والأخنس بن شريق - لم أعثر بقدر طاقتي في البحث عن راو اسمه الأخنس ابن شريق، وهو اسم لأحد طغاة المشركين الـذين تناهوا في عداوة رسول الله ﷺ، وإنما وجدت في تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر من اسمه

(1) سورة الطلاق آية (٥).　　(2) سورة الأنفال آية (٤٢).

الأخنس بن خليفة الضبي، والأخنس بن خليفة والد بكير بن الأخنس ـ عن ابي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد أيها الناس، فقدِّموا لأنفسكم، تَعْلَمُنَّ والله ليصعقن أحدكم ثم لَيَدَعَنّ غنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولنّ له ربه ـ ليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه ـ: ألم يأتك رسولي فبلَّغك، وآتيتك مالاً فأفضلت عليك، فما قدّمت لنفسك؟ فينظر يميناً وشمالاً، فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته».

خطبة ثالثة

ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال: «إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إن أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زيّنه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبُّوا من أحب الله، أحبُّوا الله من كل قلوبكم، ولا تملُّوا كلام الله وذكره، ولا تقسُ عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار الله ويصطفي، فقد سماه خيرته من الأعمال، وخيرته من العباد، والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حقّ تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

قال ابن كثير: وهذه الطريق ـ أي في الخطبتين الأخيرتين الثانية والثالثة اللتين رواهما البيهقي بسنده عن شيخه أبي عبدالله الحافظ ـ مرسلة أيضاً إلا أنها مقوِّية لما قبلها وإن اختلفت الألفاظ.

وقد عقّب السهيلي في (الروض) بعد أن شـرح بعض ألفاظ في الخطبتين، وضبط قوله (إن الحمد لله) فقال: وقوله: إن الحمد لله أحمده، هكذا برفع الدال من قوله: الحمد لله، وجدته مقيداً مصححاً عليه، وإعرابه ليس على الحكاية، ولكنه على إضمار الأمر، كأنه قال: إن الأمر الذي أذكره، وحذف الهاء العائدة على الأمر كي لا يقدم شيئاً في اللفظ من الأسماء على قوله: الحمد لله.

وإذا كان هذا الضبط هو لفظ رسول الله ﷺ فوجهه في العربية كما قال السهيلي، أما إذا كان هذا الضبط اجتهاداً في الرواية فلا وجه للالتزام بهذا الضبط وتوجيهه بما ذكر، لأنه لا مـانع أن يبقى الكلام على ظاهره وتكون (إن) حرف توكيد ونصب، وهي عاملة في (الحمد) على أنه اسمها منصوب بها، وقوله (لله) خبرها وهو ظاهر.

ثم ذكر السهيلي عقب التعليق بشرح بعض كلم في الخطبتين قوله: وكانت خطبته في تلك الأيام على جذع، فلما صنع له المنبر من طرفاء الغابة، وصنعه له عبد لامرأة من الأنصار، يقال له: باقـوم خار الجذع خُوار الناقة الخلوج حتى نزل عليه السلام فالتزمه وقال: «لو لم ألتزمه ما زال يخور إلى يوم القيامة».

وفي هذا التعقيب دليل على أن هاتين الخطبتين اللتين ذكرهما ابن إسحاق ثم البيهقي بسنده عن شيخه أبي عبدالله الحاكم كانتا في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، لا في مسجد (غبيب) في بني سالم بن عوف، وأن الخطبة التي رواها ابن جرير وهي الأولى من الخطب الثلاث في كتابنا كانت هي الخطبة التي خطبها رسول الله ﷺ في مسجد وادي رانوناء في ديار بني سالم بن عوف المسمى مسجد (غبيب)، وهي أول خطبة جمعة خطبها رسول الله ﷺ في الإسلام بعد نبوته، كما صرح ابن جرير في سنده، وتكون الأولية في هذه الخطبة أولية مطلقة، وفي الخطبتين اللتين رواهما ابن إسحق، ثم البيهقي بعده أولية نسبية، أي بالنسبة لمسجده ﷺ بالمدينة.

ارتفع ركب رسول الله ﷺ مع ارتفاع الشمس في أفق الحياة من

فخامة الحفاوة في مسيرة ركبه ﷺ من قباء إلى المدينة

ضحاء يوم الجمعة آخر يوم ودّع فيه ﷺ قباء وأهلها الغر الميامين، بعد الفراغ من إتمام بناء مسجدها المبارك وإعداده للصلاة والذكر ميمماً مستقره الدائم في المدينة المنورة، ذلك المستقر الذي كتبه الله لرسوله في سجل الغيب، ليكون دار إقامته دائمة حياته كلها ﷺ، ومثوى جسده الطاهر المطهر، ومهبط روحه المشرق الأنور، للرد على سلام أمته إذا سلّمت عليه، تجديداً أبدياً لعهدها الأبدي برسولها ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وجعل له في هذا المستقر الدائم مسجداً خالد الوجود أبدي الذكر والمدد، فضّله على سائر مساجد الدنيا، ليكون مسجدها الجامع ومنار هدايتها، تشع لها من آفاقه أشعة العلم المنّزل لها من سماء الحق، ويمدها بالمعرفة الهادية المهدية، يأرز إليه الإيمان، إذا نكصت الدنيا على أعقابها جاهلة مباعدة للحق والهدى وعاد الإسلام غريباً كما بدأ، ويأوي إليه التوحيد الخالص الذي يفرد الله تعالى بما هو أهله من وحدة التعبد له، وإخلاص الدين كله لذاته، وإسلام الوجه لجلاله في كل ما يقتضيه كمال الالوهية، وتنزل الفضل والإحسان من سماء إنعام الربوبية الغنية عن العالمين، ويتجلّى جلال الله في ملكوت عزه، وسلطان قهره ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدُّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾[1].

تحرك الركب النبوي المشرّف يحف به أوفى وفاء الأوفياء من المهاجرين والأنصار، وتحيط بحفافيه كتائب جند الله في أعظم مظهر لفخامة الحفاوة، وعظمة التكريم والاجلال ومظاهر القوة، يتنازعون زمام ناقته، أيّهم يكون له شرف قيادها، وقد أعدّوا أنفسهم لفداء الدعوة، ومتابعة الداعي ﷺ في كل قول أو فعل يصدر منه، لأن قوله وفعله وحي الله: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾[2] كما أعدوها لحماية الرسالة والرسول من كل ما يقف في طريقهما معوقاً سيرهما في مجالات الهداية، نصراً لدين الله، وإعلاء لكلمة الحق في آفاق الأرض، ليخرج هذا الدين القيِّم الناس من الظلمات إلى النور،

---

(١) سورة الحشر آية (٢٣).

(٢) سورة النجم آية (٤).

ويهديهم من ضلالات العتو والفساد، ويشفي القلوب من أرجاس الشرك، ويطهِّر العقول من أوضار الوثنية في جميع أشكالها، ويوطد دعائم العدل بين أبناء البشرية في أرجاء الأرض.

حتى إذا بلغ الركب المبارك الأشرف منازل بني سالم بن عوف، وهي من قباء على مرمى النظر، كانت الشمس قد توسطت كبد السماء، وهي ترسل أشعتها على الركب في سيره الذي كانت الدنيا تسير به ومعه سيراً تحفه الحفاوة البالغة، وتزجيه فخامة التعظيم والإجلال، والنظر إلى المستقبل المشرق بنور النصر المبين.

ونزل رسول الله ﷺ في بطن الوادي، وادي رانوناء، يؤم مسجد (غبيب) وهو مسجد بني سالم بن عوف متوجهاً إلى الله بقلبه، ليقف بين يديه شكّاراً لنعمه وفواضله، في أول نفحة من نفحات الامتنان الإلهي في الهجرة المباركة تلك هي نفحة التوفيق لأداء صلاة أول جمعة يصليها رسول الله ﷺ بجموع أصحابه علانية في الإسلام بعد النبوة، والصلاة صلة الأرض بالسماء، وصلة العبودية الخالصة بالوحدانية المفردة لله بالربوبية والتعبد له وحده تعبداً خالصاً.

وأذن مؤذن الإسلام للصلاة، وارتفع النداء، الله أكبر، الله أكبر، وأصغت الدنيا إلى هذا النداء، تسمعه بآذانها وقلوبها، وهو غريب على مسامعها، ولكنها تذّوقت حلاوته، واستطعمت ذوقه، وعرفت أنه رسالة من السماء إلى الأرض، وأنه حق، وأنها منذ سماعها هذا النداء يجب عليها أن تخلع عنها جلابيب التعبد لغير الله تعالى، الذي بعث إليها رسولاً هادياً، يدعوها إلى التحرر في عقيدتها، وعيشها، وتفكيرها وتعبدها، ونظم حياتها.

وخطب رسول الله ﷺ الناس، يعظهم ويرشدهم ويعلمهم، فقال فيما وعظ، وهدى، وأرشد فأوعى، وعلَّم ونصح: «أحبُّوا الله من كل قلوبكم» والحب غاية التعبد المتحرر من الغِيَر، قال السهيلي في روضه تعليقاً على قوله ﷺ: «أحبُّوا الله من كل قلوبكم» يريد أن يستغرق حبُ الله جميع أجزاء القلب، فيكون ذكره وعمله خارجاً من قلبه خالصاً له. وأمَّ رسول الله ﷺ

كل من حضره من المسلمين، وشهد معه هذه المنة الفريـدة في سجل التاريخ، وصلّى بهم، وارتفع ﷺ بعد الصلاة على رحله يؤم المدينة المنورة، وهي في لهفة الانتظار.

وفود الأنصار وتضرعهم إلى رسول الله ﷺ أن ينزل في بيوتهم حيث العدد والعدة

فأتته وفـود بني سالم بن عـوف في عددهم وعـددهم وأسلحتهم ومظاهر قوتهم يقدمهم عتبان بن مالـك، وعباس بن عبـادة بن نضلة فقـالوا: يـا رسول الله، أقم عنـدنا في العـدد والعـدّة والمنعـة، فقـال لهم ﷺ: «خلُّـوا سبيلها فإنها مأمورة» وكانوا قد أخذوا بزمام ناقته، فسمعوا وأطاعوا، وخلُّوا سبيلها، فانطلقت تحفُّ بها القلوب والأرواح، حتى إذا وازنت دار بني بياضة تلقته جموعهم في مظهر قوتهم وصـادق حبهم وعظيم وفائهم، يتقدمهم زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو في رجال من زعمائهم، فأخذوا بزمام ناقته فقالوا: يا رسول الله؟ هلمَّ إلى العدد والعدّة والمنعة، فقال لهم ﷺ: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلُّوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا مرت بدار بني ساعدة تلقته حشودهم، يتقدمهم سعد بن عبادة، والمنذر ابن عمرو في رجال من أشرافهم وأخذوا بزمام ناقته وقالوا: يا رسول الله؟ هلم إلى العدد والعدة والمنعة، فقال ﷺ: «خلوا سبيلها فإنها مـأمورة» فخلُّوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج تلقته رجالاتهم في مظاهر قوتهم، يتقدمهم سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وعبدالله ابن رواحة في رجال من ساداتهم، فقالوا وقد أخذوا بزمام ناقته: يا رسول الله، هلمّ إلى العدد والعدة والمنعة، فقال ﷺ: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلُّوا سبيلها.

وانطلقت حتى إذا مرّت بدار بني عدي بن النجار ـ وهم أخواله دنيا، أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم ـ فتلقته جحافلهم في أهبة القوة المسلحة، يتقدمهم سليط بن قيس، وأبو سليط أسيرة بن خارجة في رجال من رؤوس بني عدي بن النجار، فقالوا: يا رسول الله؟ هلّم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة، فقال ﷺ: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلُّوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت في مكان مسجده ﷺ وهو يومئذ مربد ـ أي بيدر تنشف فيه التمور والثمار، كالجرين والجرن للحنطة ـ مملوك لغلامين يتيمين من بني النجار، وهما في

حَجْر معاذ بن عفراء وقيل كانا في حجر أسعد بن زرارة، وهذا أثبت لأنه في البخاري وغيره، وفي الإصابة ويمكن الجمع بأنهما كانا تحت حَجْرهما معاً، وحكى الزبير بن بكار أنهما كانا في حَجْر أبي أيوب الأنصاري وهما سهل وسهيل ابني عمرو، ثم وثبت القصواء ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل، فسارت قليلاً وهو ﷺ واضع لها زمامها لا يكفها ولا يوجهها، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تلحلحت - اي ثبتت - وأرزمت - أي رغت ورجّعت في صوتها وفي رواية: ورزمت بدون همزة - أي أقامت في مكانها من كلال وإعياء وهذا مناسب لرواية تلحلحت، وأما أرزمت بالهمزة فهو مناسب لرواية تحلحلت، فالتناسب يقتضي أن تكون العبارة، تلحلحت ورزمت، أو تحلحلت وأرزمت، وفي العبارة وألقت بجرانها، والجران العنق، وهذا يناسب أن تكون العبارة تلحلحت ورزمت أي ثبتت في مكانها لما أصابها من إعياء وكلال من وعثاء السفر وطول الرحلة ومشقة الطريق، ووصولها إلى نهاية ما أمرت به.

قال السهيلي: وفي غير هذه السيرة - أي سيرة ابن إسحق - أنها لما ألقت بجرانها في دار بني النجار جعل رجل من بني سلمة وهو جبار ابن صخر ينخسها رجاء أن تقوم فتبرك في دار بني سلمة، فلم تفعل.

فنزل عنها رسول الله ﷺ، فاحتمل أبو أيوب رَحْله فوضعه في بيته ونزل عليه رسول الله ﷺ، وسأل عن المربد، لمن؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه فاتخذه مسجداً.

وفي حديث عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عويم الساعدي، قال بعد أن سمع القوم صرخة اليهودي، وهو يخبر بمقدم النبي ﷺ ومرافقيه: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ، وهو في ظل نخلة، ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وتزاحم الناس على رسول الله ﷺ وما يعرفونه من أبي بكر، حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر رضي الله عنه فأظله بردائه، فعرفناه بذلك، ونزل رسول الله ﷺ على كُلْثوم بن هُدْم، وكان إذا خرج من بيت كلثوم جلس للناس في بيت سعد ابن خيثمة وذلك أن سعداً كان عزباً لا أهل له.

حب عارم طهور تضفيه فرحة الطفولية على الاستقبال الودود

أخرج الإمام أحمد في المسند من حديث ثابت البُناني عن أنس ابن مالك قال: إني لأسعى في الغلمان، يقولون: جاء محمد، فأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون: جاء محمد فأسعى ولاأرى شيئاً، حتى جاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر فَكمنّا في بعض خراب المدينة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية، يؤذن بهما الأنصار فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة حتى إن العواتق ـ جمع مفرده عاتق ـ أي الشواب الحرائر الكرائم أول ما يدركن قال ابن الأعرابي: إنما سميت عاتقاً لأنها عتقت من الصبا وبلغت أن تدّرع ـ فوق البيوت يتراءينه، يقلن: أيهم هو؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به ـ أي بهذا المنظر في الشوق واللهفة للنظر إلى رسول الله ﷺ، وعظمة استقباله المحفوف بالحب الهامس من العذارى والمخدرات، وكرائم الأحرار في حفاوة بالغة تفوق الوصف، وتعجز الأقلام عن التعبير عنها. وفي حديث البراء بن عازب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما من رواية الشيخين في صحيحيهما: وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم، يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر، جاء محمد، الله أكبر، جاء رسول الله.

وعند البيهقي من حديث ابن عائشة قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان يقلن: ـ

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

التماس حكمة لهذا الرد الحكيم الموفق

وفي حديث أنس من طريق إسحق بن عبدالله بن أبي طلحة قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما دخلها جاء الأنصار برجالها ونسائها فقالوا: إلينا يا رسول الله، فقال ﷺ: «دَعُوا الناقة فإنها مأمورة» وعند موسى بن عقبة كما ذكره صاحب (البداية): وكلما مرّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار دعوه إلى المنزل، فيقول ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة، فإنما أنزل حيث أنزلني الله» قال ابن المنير ـ كما نقله الزرقاني ـ الحكمة البالغة في إحالة الأمر على الناقة أن يكون تخصيصه ﷺ لمن خصّه الله بنزوله عنده آية معجزة تطيب بها النفوس،

وتذهب معها المنافسة، ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئاً.

وهكذا سارت القصواء أو الجدعاء مأمورة بإذن الله حتى بركت على باب أبي أيوب كما في هذا الحديث، فخرجت جوارٍ ـ أي فتيات صغيرات من بنات الأنصار، ثم من بني النجار يضربن بالدفوف وهن يقلن:

نحن جوار من بني النجار ... يا حبذا محمد من جار

تبادل الحب الطهور بين كمال النبوة الخاتمة وصفاء الفطرة الناشئة

فخرج إليهن رسول الله ﷺ، وقال لهن: «أتحبونني» فقلن أي والله يا رسول الله، فقال ﷺ: «وأنا والله أحبكم، وأنا والله أحبكم، وأنا والله أحبكم» قال ابن كثير: هذا حديث غريب، لم يروه من هذا الوجه أحد من أصحاب السنن، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه كما يروى.

توضيح وتعليق

هذا الحديث أدمج حوادث رحلة الهجرة دون تسلسل لها حسب وقوعها، وذكر ما ذكر منها وثباً، وألحق آخرها بأولها، وترك في البين منها أحداثاً، ذكرنا منها أهمها في مناسباتها.

تحقيق رواية إرداف الصدِّيق خلف رسول الله في طريق الهجرة

وفي قوله: فأقبل رسول الله ﷺ وهو مردف أبا بكر احتمال أن هذا الإرداف كان على ناقة واحدة لتأخر بعض ظهرهما في العرج، ويحتمل أنه كان على ناقتين، وكان النبي ﷺ سابقاً بناقته، وأبو بكر خلفه بناقته. وقد شرح الزرقاني قول القسطلاني في (المواهب): وروى أنس بن مالك أنه ﷺ أقبل إلى المدينة وهو مردف أبا بكر على الاحتمال الأول، فقال عقيب قوله: (وهو مردف أبا بكر): خلفه على الراحلة التي هو عليها إكراماً له، وإلا فقد كان له راحلة، ثم قال الزرقاني: وفي فتح الباري، قال الداودي: يحتمل أنه مرتدف خلفه على راحلته، وهو الاحتمال الأول، ويحتمل أنه يكون على راحلة أخرى قال الله تعالى: ﴿بألف من الملائكة مردفين﴾ أي يتلو بعضهم بعضاً، ثم قال صاحب الفتح: ورجَّح ابن التين الأول، وقال: لا يصح الثاني، لأنه يلزم منه أن يمشي أبو بكر بين يدي رسول الله ﷺ: وقد غلّط صاحب الفتح ابن التين في تصويره لمعنى الاحتمال الثاني وترتيبه عليه ما لا

يترتب، فقال: إنما يلزم ذلك لو كان الخبر جاء بالعكس، كأن يقول: والنبي ﷺ مرتدف خلف أبي بكر، أما ولفظه: وهو مردف أبا بكر فلا، فكلام ابن التين حقيق بالتوهيم والتوهين، واستدل صاحب الفتح على ذلك بما جاء في حديث أنس عند البخاري من قوله: فكأني أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته، وأبو بكر ردفه.

ذكر ابن سعد في الطبقات من حديث حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه كان رديف رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، وظاهر هذا أن الإرداف كان في رحلة الهجرة كلها منذ خروجهم من الغار إلى أن دخلوا المدينة المنورة، ويؤيد ذلك ما جاء في حديث أبي وهب مولى أبي هريرة من قول أبي وهب: ركب رسول الله ﷺ وراء أبي بكر ناقته، ولكنه يخالفه في هيئة الإرداف، لأن حديث ثابت عن أنس جعل الصديق رديف رسول الله ﷺ، على معنى أنه كان راكباً وراء رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ متقدماً عليه، أما حديث أبي وهب فقد جعل رسول الله ﷺ رديف أبي بكر، على معنى أن الصديق كان على مقدم الناقة وكان رسول الله ﷺ راكباً وراءه.

وهذا كلام مشكل مناقض لحديث البخاري في الهجرة برواية عائشة رضي الله عنها الذي ذكر فيه أن النبي ﷺ أخذ إحدى راحلتين كان الصديق رضي الله عنه اشتراهما وأعدهما لرحلة هجرته، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ أخذ هذه الراحلة بثمنها الذي اشتراها به أبو بكر وأنه قال لأبي بكر: «لا أركب راحلة ليست لي» أي في رحلة الهجرة لتكون هجرته ﷺ كلها خالصة لله ليس لأحد من الخلق فيها شيء، كما جاء في الحديث أن دليلهما جاءهما ـ كما واعداه ـ صبح ثالثة من دخولهما غار ثور براحلتيهما وبعير له، وأن أبا بكر رضي الله عنه أردف مولاه عامر بن فهيرة لخدمتهما في سفرهما، فكيف يصح أن أبا بكر كان رديف رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة كما في حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس؟ وكيف يصح ما جاء في حديث أبي وهب مولى أبي هريرة من أن النبي ﷺ كان راكباً وراء أبي بكر ناقته.

ولعل رواية أبي وهب مولى أبي هريرة أقرب إلى التأويل، بأن هذا الوضع الذي ذكرته هذه الرواية كان حينما قرب ركب الهجرة من المدينة بدليل ما ذكره ابن هشام أن الركب لما وصل في طريقه إلى (العرج) أبطأ عليهم بعض ظهرهم، ولعل هذا البعض هو ناقة أبي بكر، ويكون مولاه عامر بن فهيرة هو الذي تأخر بناقته لموجب اقتضى ذلك وكان الموقف لا يحتمل الانتظار، فأركب النبي ﷺ صاحبه معه على راحلته وكانا قد قربا من المدينة، وكون النبي ﷺ هو الذي كان راكباً وراء أبي بكر وضع اقتضاه الموقف.

فقد ورد أن النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «ألْهِ الناس عني» وهذا الإلهاء للناس عن رسول الله ﷺ يكون أبلغ في تحقيق هدفه إذا كان النبي ﷺ راكباً وراء أبي بكر ويكون أبو بكر على مقدم الناقة لمواجهة الناس وشغلهم عن رسول الله ﷺ، لأن اهتمام الناس وأحاديثهم ومساءلاتهم إنما تتجه إلى من يكون بيده زمام الراحلة.

ويترجح هذا بأن الصدِّيق رضي الله عنه كان إذا سئل فقيل له: من هذا معك؟ قال: هذا يهديني الطريق، يريد طريق الدين والخير والإيمان، ويفهم الناس من هداية الطريق، الطريق الحسي، وهذا من معاريض الكلام ولطائف التورية.

وعند البيهقي أيضاً من حديث أنس من طريق ثمامة قال: مر النبي ﷺ بحي من بني النجار، وإذا جوارٍ يضربن بالدفوف، يقلن:

نحن جوارٍ من بني النجار   يا حبذا محمد من جار

فقال رسول الله ﷺ: «يعلم الله أن قلبي يحبكم» ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، عن عيسى بن يونس، وقال ابن كثير في البداية: وفي صحيح البخاري عن معمر، عن عبد الوارث، عن عبد العزيز ـ بن صهيب ـ عن أنس، قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين ـ حسبت أنه قال من عرس ـ فقام النبي ﷺ ممثلاً ـ أي انتصب قائماً فقال ـ : «اللهم أنتم من أحب الناس إلي» قالها ثلاث مرات.

وأخرج الإمام أحمد وابن سعد في الطبقات من طريق عبد العزيز ابن

صهيب عن أنس بن مالك قال: أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف، ورسول الله ﷺ شاب لايعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول أبو بكر هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنما يهديه الطريق ـ أي طريق السير في رحلته الحسية ـ وإنما يعني أبو بكر سبيل الخير ـ أي طريق الإيمان والهدى والنور ـ فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال أبو بكر: يا نبي الله هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اصرعه» فصرعته فرسه، ثم قامت تحمحم، ثم قال ـ أي هذا الفارس ـ: مُرْني يا نبي الله بما شئت، فقال له النبي ﷺ: «قف مكانك، ولا تتركنَّ أحداً يلحق بنا» فكان أول النهار جاهداً على رسول الله ﷺ وكان آخر النهار مَسْلَحة له. قال ـ أي أنس ـ فنزل رسول الله ﷺ جانب الحرّة، ثم بعث إلى الأنصار فجاؤوا، فسلَّموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنَيْنْ مطاعَيْنْ، فركب رسول الله ﷺ وأبو بكر، وحف الأنصار حولهما بالسلاح، وقيل في المدينة: جاء نبي الله ﷺ، فاستشرفوا نبي الله ﷺ ينظرون إليه ويقولون: جاء نبي الله، فأقبل يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبدالله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع التي يخترف فيها، فجاء وهي معه، وسمع من نبي الله ﷺ، ورجع إلى أهله، وقال نبي الله: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله هذه داري، وهذا بابي، قال النبي ﷺ: «فانطلق فهيىء لنا مقيلاً» فذهب فهيأ، ثم جاء فقال: يا رسول الله قد هيأت مقيلاً، قوما على بركة الله فقيلا.

وفي حديث أبي التيّاح يزيد بن حميد الضُّبَعيّ عن أنس عند البخاري قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار فجاؤوا متقلدي سيوفهم، قال أنس: وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب.

وهذا الحديث ظاهر في أن إرداف النبي ﷺ لصاحبه وصدِّيقه أبي بكر

رضي الله عنه وراءه على راحلته كان فيما بين قباء ومنزل أبي أيوب، وهو قريب المعنى معقول الكون والوقوع، لا يتعارض مع حديث الهجرة عند البخاري.

بيان المقصود من قول الرواية: وأبو بكر شيخ يُعْرف، ورسول الله شاب لا يُعْرف

وفي قول الحديث: وأبو بكر شيخ يُعْرف، ورسول الله ﷺ شاب لا يُعْرف، إنما يقصد به تصوير ما يشهده الناس بأبصارهم، لا ما هو واقع الأمر في حقيقة الوجود التاريخي، فالذي شهده الناس أن أبا بكر كان قد أسرع إليه الشيب، وكان رضي الله عنه ضعيف البدن، كما وصفته ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقالت فيما رواه أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: وكان أبو بكر رجلاً نحيفاً، أبيض، خفيف العارضين، أجنأ لا يستمسك أزرته تسترخي عن حقويه، معروق الوجه، غائر العينين، ناتىء الجبهة، عاري الأشاجع.

فمن يشهده رضي الله عنه بداهة وهو بهذه الصفة يضعه في مصاف الشيوخ، الذين فارقوا فتاء الشباب، وفي حديث البخاري عن أنس: لم يكن في الذين هاجروا أشمط غير أبي بكر - والشمط اختلاط الشيب بسواد الشباب.

وكان النبي ﷺ قوي البنية، مفتول العضل، سوي الأعضاء، مستقيم القامة، متماسك البدن مع عدم إسراع الشيب إليه، حتى قيل في شمائله: إنه لم يشب منه ﷺ إلا بعض شعرات في رأسه ولحيته الشريفتين، يقول من يراه بديهة وهو ﷺ في غضارة مخبره، ونضارة مظهره أنه في عنفوان الشباب وفتاء السن، مع أن واقع الأمر أن النبي ﷺ كان أكبر وأسن من أبي بكر رضي الله عنه، والمعروف المتعالم في روايات التاريخ أن أبا بكر رضي الله عنه استكمل بمدة خلافته بعد النبي ﷺ سن النبي ﷺ، وهي - على الصحيح - ثلاث وستون سنة، وكان النبي ﷺ يكبر أبا بكر بسنتين وأشهر.

وأما ما روي عن يزيد الأصم أنه ﷺ قال لأبي بكر: أينا أسن أنا أو أنت؟ فقال أبو بكر: أنت أكرم يا رسول الله مني وأكبر، وأنا أسن منك، فهو كما قال أبو عمر بن عبد البر، مرسل، ولا أظنه إلا وهماً، قال ابن

حجر: وهو كما ظن، وإنما يُعرف هذا ـ أي السؤال والجواب ـ للعباس ابن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ، وأما أبو بكر ففي مسلم عن معاوية أنه عاش ثلاثا وستين سنة، وعاش بعد النبي ﷺ سنتين وأشهراً، فيلزم على الصحيح في سنه ﷺ أن أبا بكر أصغر من رسول الله ﷺ بأكثر من سنتين، قال ابن عبد البر في الاستيعاب: ولا يختلفون أن سنه انتهت إلى حين وفاته ثلاثاً وستين سنة، وأنه رضي الله عنه استوفى بخلافته بعد رسول الله ﷺ سن رسول الله ﷺ.

قال ابن حجر في الإصابة: وأخرج ابن عبد البر من حديث عائشة رضي الله عنها: تذاكر رسول الله ﷺ وأبو بكر ميلادهما عندي، فكان النبي ﷺ أكبر، على أنه جاء في حديث عويم بن ساعدة قوله: ومعه أبو بكر في مثل سنه.

توضيح ما في تورية الصديق من براعة بيانية إذا سئل عن رسول الله قال: هذا رجل يهديني الطريق

وفي قوله: فيلقى الرجل فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول أبو بكر: هذا رجل يهديني الطريق، تورية لطيفة دقيقة شفّافة، تدل على حضور البديهة عند الصدِّيق رضي الله عنه، وتنضح عن رسوخ تفكيره وقوة ثباته عند مفاجأة الأحداث، وهو رضي الله عنه قد كان في موقف من أشد مواقف الشدائد والأزمات التي تمتحن فيها الرجولية، وفي هذه التورية من معاريض الكلام ما يغني عن الكذب، ويخرج بالموقف عن مضايق الحرج، ومآزق الصراحة الموبقة، وهو منهج أهل البراعة البيانية، والفصاحة اللسانية، وشفافية المدارك العقلية.

وقد ذكر ابن سعد في الطبقات أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «ألهِ عني الناس» أي اشغلهم عن النظر إلي والتفكير في أمري، لأن قريشاً لّما غاظها نجاة النبي ﷺ قامت قيامتها وهاجت بلابلها، ولم تترك ناحية أو طريقاً إلا بعثت إليه زبانيتها وشياطينها وأدلاءها، وقائفيها، ليعلموا لها علم رسول الله ﷺ، وأية طريق سلك في خروجه من مكة، وضاعفت في سبيل ذلك المنح والعطايا والاجعال، وكان الطمع في جوائزها قد استبد بكثير من ذوي النفوس المريضة بحب الدنيا، فانتشروا في الأرض يبحثون، ويمنّون أنفسهم

بأكاذيب الأماني ليحصلوا على جائزة فجور الكفر المغيظ المحنق، فأراد النبي ﷺ أن يشغل صاحبه وصدِّيقه الناس عنه، ووفق الصديق إلى هذا الأسلوب حين كان يسأل عن النبي ﷺ: من هذا الرجل معك، أو بين يديك، وهو أسلوب بارع في باب البلاغة العربية، يصرف السائل عن التفكير في غير ما قيل له، فكانت هذه التورية مَسْلَحة دفعت عن النبي ﷺ وصاحبه ما كانا يخشيانه، وكانت من جند الله التي أيّد بها رسوله ﷺ.

وفي قوله: فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم إشارة إلى قصة سراقة بن مالك الجعشمي الذي تبعهما طمعاً في جائزة قريش، فوقع له ما وقع معجزة للنبي ﷺ، وقد ذكرنا قصته فيما سبق، وهي قصة وقعت قبل الوصول إلى المدينة بزمن طويل، ويشبه أن تكون في أول أيام المسير إلى المدينة أو بعده بقليل. .

وفي قوله: فإنه ليحدث أهله إذْ سمع به عبدالله به سلام إشارة إلى قصة إسلام عبدالله بن سلام وكان اسمه الحصين، فغيّر رسول الله ﷺ اسمه إلى عبدالله، وهو سيد من سادات اليهود وأشرافهم، وحبر من أحبارهم الذين يرجع إليهم في علم التوراة وشروحها.

أول من أسلم من اليهود حبرهم عبد الله بن سلام وأهل بيته

وقد ذكر ابن إسحاق قصته في سيرته، فقال: وكان من حديث عبدالله ابن سلام ـ كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم، وكان حبراً عالماً ـ قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنّا نتوكف له، فكنت مُسِراً لذلك، صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة أعمل فيها، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرت، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت، فقلت لها: أي عمة، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه بعث بما بعث به، فقالت: أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ فقلت لها: نعم، فقالت: فذاك إذاً، ثم خرجت

إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، ورجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا.

وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قوم بُهْت وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك، وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامي فإنهم إن علموا به بهتوني، وعابوني، فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلّموه وساءلوه ثم قال لهم: أي رجل الحصين ابن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا، وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، فلما فرغوا من قولهم خرجتُ عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأومن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي، فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهت، أهل غدر وكذب وفجور، فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث، فحسن إسلامها. وقد ذكرها الحافظ ابن حجر باسم خَلْدة أو خالدة بنت الحارث، واقتصر على رواية ابن هشام في مختصر سيرة ابن إسحق.

قال السهيلي في (الروض): وخالدة بنت الحارث قد ذكر إسلامها، وهي مما أغفله أبو عمر في كتاب الصحابة، وقد استدركناها عليه في جملة الاستدراكات التي ألحقناها بكتابه.

بيان ما في قصة إسلام عبد الله بن سلام من آيات وعبر

وقصة إسلام عبدالله بن سلام ـ وهو في مكانته المرموقة عند قومه اليهود علماً وفضلاً، وشرفاً في النسب والفضل، ورفعة الشأن ـ آية من آيات تأييد الله تعالىٰ نبيه محمداً ﷺ في مطلع وصوله إلى المدينة المنورة، وقد كانت أول أثر من آثار الهجرة في نشر الدعوة، وسير الرسالة في طريقها إلى العقول والقلوب، وكانت أولى بشائر التوفيق للأنصار الذين يعرفون مكانة عبدالله ابن سلام في قومه، وما له عندهم من قداسة واحترام، ويعرفون فضله فيهم، ويعرفون علمه بكتبهم في علم علمائهم وأحبارهم، مما ثبّت أقدامهم، وزادهم إيماناً على إيمانهم؛ لأنها قصة بدأت بها معالم النصر لدعوة

الإسلام الهادية منذ أول يوم وصل فيه رسول الله ﷺ إلى مشارف المدينة في قباء، وكان المسلمون من المهاجرين والأنصار مستغرقين في التفكير والحركة والعمل في غمرة الاستقبال الذي استقبل الأنصار به رسول الله ﷺ، وفرحتهم بوصوله إليهم، وانتهت هذه القصة التي نسجت خيوطها مقادير الغيب بما انتهت به من الخير في بيت أبي أيوب النجاري الأنصاري أول منزل نزل به رسول الله ﷺ بأمر الله وتوفيقه، فكان لهذه القصة رجة زلزلت أقدام اليهود، وملأت قلوبهم بالتوجس من المستقبل والغيظ المحنق، وكشفت ما انطوت عليه بواطنهم من ظلمات البغي والحسد، وما كانوا يضمرونه بين جوانحهم من العداوة والبغضاء لهذه الدعوة المهدية الهادية، ومن الكيد لحامل أمانتها محمد ﷺ.

وكانت هذه القصة فرحة اشرأبت لها أعناق المؤمنين غبطة وبهجة، وارتفعت بها كلمتهم، كلمة الحق التي استكانت لها خنزواة الغرور المسعور في نفس اليهود.

ولا شك أن دخول هذا الحبر العالم الجليل في ساحة الإسلام، هو وأهل بيته معه، وإسلام عمته خالدة بنت الحارث ـ كان أول ضربة إلٓهية قصمت ظهر الفجور اليهودي في حقدهم المظلم، وحسدهم الكظيم وغدرهم وخياناتهم وسوء مكرهم.

وقد كان نهج ابن سلام في كشف حقيقة الخبث اليهودي آية في التدبير المسدّد المحكم الذي أعطى المجتمع الجديد في المدينة على اختلاف طوائفهم: من أغمار اليهود في مجتمعهم المغلف بالأسرار، وقد فوجئوا بركن من أركان يهوديتهم الحانقة على الحياة، ودعامة من أكبر دعائمها، وركيزة من أعظم ركائزها تطير عنهم بأجنحة الإيمان والهدى إلى أحضان دعوة محمد ﷺ، لتكشف خبايا نفوسهم، وتعلن أسرارهم التي يحيكونها ضد كل خير.

ومن منافقين لمّا يستعلنوا بنفاقهم، ويظهروا نجيث ما يكتمون من فجور وكفر. ومن مشركين كانوا لا يزالون معتصمين بوثنيتهم المترهلة

المتهاوية، ومن مؤمنين حدثاء الإيمان لم يرسخ الإيمان في قلوبهم، تميلهم أعاصير الأكاذيب هنا وهناك، وتلعب بهم فارغات الشبه التي يرمي بها أعداء الإسلام يميناً وشمالاً.

ومن جمهرة غامرة لهذا المجتمع بقوة إيمانها، ورسوخ يقينها من خُلّص المؤمنين- صورة فاضحة عن طبيعة خبث اليهود، وسوء ما تنطوي عليه قلوبهم وعقولهم من مكر سيء وكيد أسود للإسلام والمسلمين، وما يضمرونه من عداوة لرسول الله ﷺ ولرسالته، وهم يعلمون أنها الحق من ربهم، عداوة امتزجت بدمائهم واستولت على مناحي تفكيرهم، مما نبه المجتمع المسلم إلى لؤم نحيزتهم، ليتقي في مستقبله معهم مزالق غدرهم وخياناتهم وفجور كفرهم، وشرورهم وإفسادهم، وهم مجبولون على الشر والإفساد، أينما حلوا أفراداً وجماعات، وحيثما وجدوا من الأرض، لا يحيون ولا يعيشون في مجتمع إلا وهم متجلببون بشعاره ودثاره، وخفيه وظاهره، وخطيره ودنيه، وقليله وكثيره، أنبأ بذلك عنهم تاريخهم، وتناثرت به أنباؤهم، وقد برهنت الأيام في مستقبل حياتهم مع الإسلام أنهم أخبث جرثومة الشرور والإفساد، كما وصفهم حبرهم وعالمهم عبدالله بن سلام رضي الله عنه، وقد سلبوه كل فضيلة عرفوها له، في علمه وفضله ومكانته؛ بعد ما اعترفوا بأنه سيدهم وابن سيدهم، وعالمهم وابن عالمهم، فبهتوه وكذبوا عليه وزنّوه بكل رذيلة بعدما علموا بإسلامه، وكان قبل أن يكشف لهم أمر إسلامه قد وصفهم لرسول الله ﷺ بأنهم قوم بُهْت، أهل غدر وكذب وفجور.

فجور حيي ابن أخطب أبي جهل اليهود

وعند موسى بن عقبة عن الزهري: أن أبا ياسر بن أخطب - أخا حيي بن أخطب - حين قدم رسول الله ﷺ المدينة ذهب إليه وسمع منه وحادثه ثم رجع إلى قومه فقال: يا قوم أطيعوني، فإن الله قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرون، فاتبعوه ولا تخالفوا، فانطلق أخوه حيي بن أخطب - وهو يومئذ سيد اليهود وهما من بني النضير - فجلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه ثم رجع إلى قومه وكان فيهم مطاعاً، فقال أتيتكم من عند رجل والله لا أزال له عدواً أبداً، فقال له أخوه أبو ياسر: ياابن أم أطعني في هذا الأمر واعصني

فيها شئت بعده، لا تهلك، قال والله لا أطيعك أبداً واستحوذ عليه الشيطان واتبعه قومه على رأيه.

رواية البخاري في إسلام عبد الله ابن سلام

وقد ساق البخاري قصة إسلام عبدالله بن سلام من طريق عبد العزيز بن صهيب، عن أنس، قال: فلما جاء النبي ﷺ جاء عبدالله ابن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق، وقد علمتِ يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فسَلْهم عنيِّ قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيِّ ما ليس فيِّ، فأرسل نبي الله ﷺ إلى اليهود، فدخلوا عليه فقال: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق فأسلموا» قالوا: ما نعلمه، قال رسول الله ﷺ: «فأي رجل فيكم عبدالله بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال النبي ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم» قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، قال النبي ﷺ: «يا ابن سلام اخرج عليهم» فخرج فقال: يا معشر يهود اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ. وفي رواية أخرى، فلما خرج عليهم شهد شهادة الحق، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وتنقَّصوه، فقال: يا رسول الله، هذا الذي كنت أخاف.

وروى الإمام أحمد، والترمذي وابن ماجه من طرق عن عوف الأعرابي، عن زرارة بن أبي أوفى عن عبدالله بن سلام قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام».

قال ابن كثير: ومقتضى هذا السياق يقتضي أنه سمع بالنبي ﷺ، ورآه أول قدومه حين أناخ بقباء في بني عمرو بن عوف، وأنه رآه واجتمع به حين أناخ عند دار أبي أيوب عند ارتحاله من قباء إلى دار بني النجار، فلعله رآه أول ما رآه بقباء واجتمع به بعد ما صار إلى دار بني النجار.

* * *

فخامة استقبال رسول الله ﷺ كانت غصة لليهود والمنافقين

دخل رسول الله ﷺ المدينة والفرحة والبهجة يعمان أهلها: رجالاً ونساء، شيباً وشباناً، فتياناً وفتيات، أغْلِمة وأطفالاً، مخدّرات وعذارى، واستقبلت المدينة رسول الله ﷺ استقبالاً صبت فيه كل ما تحوي قلوب ساكنيها الطاهرة من المؤمنين من حب طهور، وإجلال حفي، وحفاوة بلغت المدى في التعظيم وفخامة المنظر، ونبالة التوقير، ومظاهر الاحترام، وشارات القوة، ورموز الفداء، مما أضفى على المدينة كلها نوراً وهدى وظهراً، وكان غيظاً خانقاً لليهود، وجراثيم النفاق الذين غصّت حلاقيمهم بروعة هذا الاستقبال الفخم المفخّم، الذي أفقد أعداء الدعوة إلى الحق الجدد في مجتمعها الجديد أدنى وأحط نوازع المروءة، وجللهم بأرذل وسائل المداراة والبغضاء وجوامع الحقد الحسود.

قال ابن كثير في شواهد ذلك: وذكر موسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ مرّ في طريقه بعبد الله بن أبي بن سلول، وهو في بيت، فوقف رسول الله ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل ـ وهو يومئذ سيد الخزرج في أنفسهم ـ فقال عبدالله بن أبي لرسول الله ﷺ: انظر الذين دعوك فانزل عليهم، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار، فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه: لقد مَنَّ الله بك علينا يا رسول الله، وإنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملّكه علينا.

وَيْ!! أهكذا يصنع الحقد بالنفوس فيحيلها أشباحاً من الانحطاط البشري، والخلق الزري، فينسيها آدميتها وينزل بها إلى هاوية الخسة، ولؤم النحيزة ودناءة الطبع؟

لقد نفث ابن أبّي بن سلول في كلمته المنحدرة من قلب كفور أضغاث أحقاده السوداء، وتعرّى بها عن كل ذرة من ذرات المروءة التي يتكلفها في مثل هذا الموقف أراذل الناس، حياء أن تذكر عنهم في سوء مراذلهم مثل هذه الرذيلة والمنقصة التي لم تعرفها قط أخلاق العرب.

ومضى عنه رسول الله ﷺ بعد أن كشف نجيثه لينبذ في خربة الإهمال، وتركه للحسرة تقطع نياط قلبه وللحقد الحسود يشوي بنار الأسى

والخزي كبده، وهو يرى رسول الله ﷺ في ركبه المعظَّم يحفّه الإجلال والإعظام، وأهل المدينة أوسها وخزرجها من حوله يتزاحمون بالمناكب لمشاهدته ووجوههم طافحة بالبشر والحب، وهم يهتفون: الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسول الله، والعذارى والمخدّرات على الأجاجير والأسطحة وخلف النوافذ يتنافسن لرؤيته ﷺ، والركب الميمون يمضي في طريقه بين فجاج المدينة، وكأنما تحولت المدينة إلى بؤرة من النور، تمشي مع الركب ميممة حيث تيمم القصواء ورسول الله ﷺ فوقها، لا يثنيها عن اتجاه في سيرها.

إشراق المدينة بحلوله ﷺ فيها

أخرج البخاري من حديث البراء بن عازب، قال: جاء النبي ﷺ إلى المدينة في الهجرة، فما رأيت أشد فرحاً منهم بشيء من النبي ﷺ، حتى سمعت النساء والصبيان والإماء يقولون: هذا رسول الله قد جاء، قد جاء.

تحقيق حول نشيد طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وأخرج الترمذي وابن ماجه عن أنس بن مالك قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء. وأخرج ابن أبي خيثمة والدارمي عن أنس قال: شهدت يوم دخول النبي ﷺ المدينة، فلم أر يوماً أحسن منه ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه ﷺ المدينة.

وروى أبو داود عن أنس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابهم فرحاً بقدومه ﷺ. قال القسطلاني في المواهب بعد سياقه حديث أنس: وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير- اي الأسطحة - عند قدومه ﷺ يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

هذا الشعر أو هذا النشيد لم نعثر على اسم قائله ولا وجدناه منسوباً لشاعر صغير أو كبير، بيد أنه شعر مشهور مذاع على الألسنة وفي بطون الكتب والدواوين.

ومن غريب أمره أن سيرة ابن إسحاق التي بين أيدي النـاس ـ باختصار وتهذيب عبد الملك بن هشام وهي العمدة في أحداث السيرة النبوية، وما يتصل بها من أشعار صحيحة أو منحولة مما بينه الباحثون، وفي طليعتهم ابن هشام ـ لم تورد هذه الأبيات، لا في استقبال النبي ﷺ في الهجرة، وهو قادم من مكة إلى المدينة، ولا في استقباله ﷺ وهو آيب من غزوة تبوك، وكل قد ذهب إليه طائفة من العلماء الباحثين والمؤلفين في أحداث السيرة النبوية.

وقد اختلف أئمة العلم في وقت إنشاد هذا الشعر عند استقبال النبي ﷺ لتحيته وإظهار الفرح والسرور بلقائه، هل كان ذلك عند تلقِّيه ﷺ مقدمه من مكة مهاجراً إلى المدينة؟ فلما وصل إليها استقبل بهذا الشعر إظهاراً للفرحة والسرور بوصوله إلى مهاجره ومستقره؟.

وكان أهل المدينة عامة رجالاً ونساء في لهفة الشوق إليه ﷺ، وحنين الرغبة في مشاهدته، أو كان ذلك في قدومه من غزوة تبوك؟ وهي آخر غزوة وأعظمها عدداً وإخلاصاً وتمحيصاً غزاها ﷺ بنفسه قائداً لجحافل جنده، وكانت امتحاناً للنفاق والمنافقين وضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض، كشف الله به عن سوء ما انطوى عليه باطنهم، وما قامت عليه حياتهم من الجبن والفرق والرعب، والكيد للإسلام والمسلمين والمكر برسول الله ﷺ، والإرجاف به وإشاعة السوء والأكاذيب، والتقّول بالباطل، ليكون في موقف المسلمين من إظهار البهجة والفرح برسول الله ﷺ، ووصوله آيباً من هذه الغزوة منصوراً مؤيداً بتوفيق الله وتأييده على ضد ما أرجف به المنافقون.

وقد جمع أطراف هذا الخلاف القسطلاني في (مـواهبه) وشـارحه الزرقاني، ونحن نسوق كلامهما ممزوجاً بعضه ببعض مقتصرين على بيان ما يحتاج إليه من بيان وتوضيح، ونرجح ما نراه راجحاً من أقوال الأئمة بما يظهر لنا من دلائل الترجيح وأمارات القبول.

والثنيات جمع ثنية، وهي في أصل اللغة ما ارتفع من الأرض، وهي الطريق في الجبل.

قال صاحب (المواهب) بعد أن ساق طرفاً من حديث البراء بن عازب عند البخاري وهو في الهجرة وحديثها قطعاً: وأشرقت المدينة بحلوله ﷺ فيها قادماً إليها في هجرته من مكة، ومعه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وسرى السرور إلى القلوب، وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير - أي الأسطحة - عند قدومه ﷺ يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

قال القسطلاني: إنشاد هذا الشعر عند قدومه ﷺ المدينة - أي في الهجرة - رواه البيهقي في الدلائل وأبو بكر المقّري في (الشمائل) عن ابن عائشة، عبيد الله بن محمد بن حفص التيمي، روى له أبو داود والترمذي والنسائي، وهو من ذرية عائشة بنت طلحة، فلهذا قيل له: ابن عائشة، قال عنه الزرقاني: هو ثقة، ذكر عنه ابن أبي شيبة أنه أنفق على إخوانه أربعمائة ألف دينار، حتى التجأ إلى بيع سقف بيته، وهذا يدل على سخاء بالغ.

وذكر الطبري حديث ابن عائشة في (الرياض النضرة) عن أبي الفضل الجمحي، قال: سمعت ابن عائشة يقول: عن أبيه، فذكر الحديث، وقال المحب الطبري: أخرجه الحلواني، أبو علي الخلال، نزيل مكة، وهو ثقة حافظ على شرط الشيخين. قال الزرقاني: الشيخان لم يخرِّجا لابن عائشة، فلا يكون على شرطهما ولو صح الإسناد إليه، قلنا: لا يلزم من كون الشيخين لم يخرِّجا لابن عائشة ألا يكون حديثه على شرطهما.

قال البيهقي في الدلائل: أنبأنا أبو عمرو الأديب، قال: أنبأنا أبو بكر الاسماعيلي، قال: سمعت أبا خليفة يقول: سمعت ابن عائشة يقول: لما قدم عليه السلام المدينة جعل النساء والصبيان يقلن: -

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

قال القسطلاني: وسميت ثنية الوداع لأنه عليه السلام ودّعه بها بعض المقيمين بالمدينة في بعض أسفاره وهي غزوة تبوك، وقيل: لأنه عليه السلام شيّع بعض سراياه إليها وهي سرية مؤتة فودعه عندها، قال الزرقاني: وهذان يعطيان أن التسمية ـ أي تسمية الثنية بثنية الوداع ـ حادثة.

قلنا: وهو يعطي ـ أيضاً ـ أن نشيد: طلع البدر علينا، قيل بعد التسمية الحادثة، وهي قد حدثت بمقتضى صريح القول بأن التسمية كانت في سفره ﷺ إلى غزوة تبوك، أو قبل سرية مؤتة، وأين غزوة تبوك من القدوم في الهجرة وبينهما زهاء تسعة أعوام، لأن غزوة تبوك كانت في رجب من السنة التاسعة للهجرة، وأين سرية مؤتة، وهي قد كانت في السنة الثامنة من الهجرة من القدوم إلى المدينة في الهجرة فبينهما نحو ثمان سنين، وتبوك ومؤتة شاميتان بالنسبة للمدينة، ومعنى هذا أن إنشاد هذا الشعر لم يكن عند قدومه ﷺ من مكة إلى المدينة في الهجرة، وإنما كان بعد ذلك بزمن طويل، فكلام القسطلاني في بيان وجه تسمية الثنية بثنية الوداع إخبار عن أمر بغير سند، فهو غير مسلَّم، لأنه لم ينسبه إلى أحد من أهل العلم بالمواطن وأحداثها.

ثم قال القسطلاني: وقيل: إن تسميتها ثنية الوداع إنما كان لأن المسافر من المدينة كان يشيع إليها ويودع عندها قديماً، وصحح القاضي عياض هذا القول، وهو قول لا يخلو عن إبهام وغموض لأنه لم يتبين فيه إلى أية جهة كان السفر من المدينة الذي يُشيع سفره أو يودعون عند الثنية التي تسمى ثنية الوداع، فهو محتمل أن يكون سفراً من المدينة إلى الشام، وهذا يوافق القولين السابقين من أن هذه الثنية التي سميت ثنية الوداع إنما كانت شامية بالنسبة للمدينة، والقادم إلى المدينة من مكة لا يمر بها ولا يراها.

ويحتمل أن السفر كان سفراً من المدينة إلى جهة مكة، وحينئذ تكون الثنية مكية والقادم من مكة يمر بها، وتكون هي المقصودة في شعر: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع، وهي التي استقبل عندها رسول الله ﷺ وهو قادم من مكة إلى المدينة في الهجرة.

وتصحيح القاضي عياض لهذا القول الأخير في وجه التسمية بثنية الوداع إنما قصد به إفادة أن التسمية قديمة معهودة عند أهل المدينة، كما استدل عليه القاضي بقول نساء الأنصار حين قدومه ﷺ.

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وليس في قول عياض تعرض لكون الثنية المسمّاة قديماً ثنية الوداع شامية أو مكية، وعندئذ يبقى الوضع على الاحتمال لأن تكون الثنية شامية، ويكون إنشاد هذا الشعر حين قدم الرسول ﷺ آيباً من غزوة تبوك، ولأن تكون الثنية مكية ويكون إنشاد هذا الشعر حين قدم رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة في الهجرة.

وقد ذكر ابن بطّال ما يتفق مع القول بقدم التسمية، فقال: إنما سميت بثنية الوداع لأنهم كانوا يشيعون الحاج والغزاة إليها ويودعونهم عندها، وإليها كانوا يخرجون عند التلقّي.

وهذا كلام وإن كان يفيد قدم التسمية، ولكنه مبهم، لا يعين أين كانت هذه الثنية التي كانوا يشيّعون الحاج والغزاة إليها ويودعونهم عندها، هل كانت شامية المدينة أو مكيتها، وهذا هو المقصود بتحقيق إنشاد هذا الشعر متى كان؟ وأين كان؟.

قال ابن العراقي: وهذا كله مردود، ففي صحيح البخاري، وسنن أبي داود، والترمذي عن السائب بن يزيد، قال: لما قدم النبي ﷺ من تبوك خرج الناس يتلقّونه من ثنية الوداع، وهذا صريح في أنها من جهة الشام، قال الزرقاني: فظهر منه رد كلام ابن بطّال، وأثر ابن عائشة.

قلت: لا أدري كيف يظهر من كلام ابن العراقي وحديث السائب ابن يزيد رد كلام ابن بطّال، وهو لم يتعرض قط لكون الثنية شامية أو مكية، وإنما مفاد كلامه أن هذه الثنية كانت معروفة التسمية بثنية الوداع لأنها كانت موطن التشييع للحاج والغزاة والوداع لهم، فهل الحاج والغزاة الذين كانوا يشيعون ويودعون عندها كانوا فقط متوجهين إلى الشام، حتى لا تكون ثنية

الوداع إلا من جهة الشام؟.

وما الذي يمنع من أن تكون هناك ثنية وداع شامية، وأخرى مكية، فحاج مكة المتجهين إليها كانوا يودِّعون عند الثنية التي من جهتها، وحاج الشام أي السالكون طريق الشام كانوا يودِّعون عند الثنية التي كانت تقع شامية المدينة، وحينئذ يكون رسول الله ﷺ حين قدم في ركب الهجرة إلى المدينة قد مرّ على ثنية الوداع التي تقع في جهة مكة بالنسبة إلى المدينة، ومن ثم كان إنشاد هذا الشعر تحية له ﷺ وفرحاً بقدومه في الهجرة من مكة إلى المدينة، ولزم ذلك أن لا يظهر وجه لكلام ابن العراقي الذي ردّ به كل ما قيل في أن ثنية الوداع التي جاءت في هذا الشعر مكية المدينة، يمر عليها القادم من مكة والذاهب إليها.

وحديث السائب بن يزيد عند البخاري والترمذي وأبي داود لا يرد ما زعمه ابن العراقي أنه مردود به، وكذلك لا يرد ما جاء في حديث ابن عائشة عند البيهقي في الدلائل، والمقّري في الشمائل، لأن أقصى ما في حديث السائب أن رسول الله ﷺ لما قدم من تبوك خرج الناس يتلقّونه من ثنية الوداع، وليس في هذا الكلام ما يفيد نفي أن تكون هناك ثنية وداع أخرى من جهة مكة، كان يُتلقى عندها القادم من مكة إلى المدينة، ويودع عندها الذاهب من المدينة إلى مكة، ويتلقى عندها القادم من مكة إلى المدينة.

وقد استدل ابن العراقي على ردِّ كلام ابن بطال بتوهيم والده الإمام عبد الرحيم شارح الترمذي لابن بطال في كلامه، فقال ابن العراقي: ولهذا لما نقل والدي رحمه الله في شرح الترمذي كلام ابن بطال قال: إنه وهَم، وكلام ابن بطال إنما كان في ثنية الوداع التي كانت محطاً وملتقى لتشييع الحاج والغزاة إليها وتوديعهم وتلقِّيهم عندها، وليس فيه تعرض لكون الثنية المعروفة بهذا كانت من جهة الشام أو كانت من جهة مكة، فلا تصادم بين كلام ابن بطال وحديث السائب، فابن بطال لم ينف شيئاً أثبته حديث السائب، ولا أثبت شيئاً نفاه، فلا محلّ لتوهيمه في قول الإمام عبد الرحيم العراقي، ولا وجه لرده في كلام ابنه الولي العراقي.

وأما حديث ابن عائشة فهو وإن كان من جهة سنده معضلاً فإنه لا مانع من الاستئناس به، ولا سيما أن الزرقاني قد وصف ابن عائشة بكونه ثقة، فإذا صحّ سند الحديث إلى ابن عائشة كان مأنساً لمن يقول إنه كان من جهة مكة ثنية وداع مرّ بها رسول الله ﷺ وهو قادم في الهجرة من مكة إلى المدينة.

ومن أعجب العجب أن يقف الإمام الداودي شارح البخاري على نهاية طرف هذا الخلاف، فينكر أن تكون ثنية الوداع من جهة تبوك، وقد نقل ابن حجر في الفتح إنكار الداودي لكون ثنية الوداع من جهة تبوك، وقال: ثنية الوداع من جهة مكة لا من جهة تبوك، بل هي في مقابلها كالمشرق والمغرب، إلا أن تكون هناك ثنية أخرى في تلك الجهة - أي جهة تبوك - غير أن ابن حجر غلّط في قوله: وتبعه - أي الداودي - ابن القيم، لأن ابن القيم نص صراحة في زاد المعاد - وهو الكتاب المعروف بالهدي النبوي - على أن ثنية الوداع من جهة تبوك، ووهّم من قال: إنها من جهة مكة، ولهذا قال القسطلاني في (المواهب): وسبقه - أي الإمام عبد الرحيم العراقي إلى التوهيم - ابن القيم في الهدي النبوي، فقال يرد على القائلين إن ثنية الوداع من جهة مكة، كما هو قول الداودي -: هذا وهم من بعض الرواة، لأن ثنية الوداع من جهة الشام، لا يراها القادم من مكة، ولا يمر عليها إلا إذا توجه إلى الشام، وإنما وقع ذلك - أي تلقيه ﷺ وإنشاد هذا الشعر: طلع البدر علينا - عند قدومه من تبوك.

وابن القيم إنما ذكر تلقّي أهل المدينة وخروج النساء والصبيان والولائد لرسول الله ﷺ بنشيد: طلع البدر علينا، في رجوعه ﷺ من تبوك، ولم يذكر تلقّيه ﷺ بإنشاد هذا الشعر في قدومه من مكة مهاجراً إلى المدينة.

وعبارته في (الهدي) في آخر الكلام على غزوة تبوك وما اتصل بها هي قوله: فلما دنا رسول الله ﷺ من المدينة - أي في رجوعه من تبوك - خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ثم قال: وبعض الرواة يهم في هذا، ويقول: إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة من مكة، وهو وهم ظاهر لأن ثنية الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادم من مكة، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام.

وقوله: لأن ثنية الوداع إنما هي من ناحية الشام بأسلوب الحصر غير مسلّم؛ إذْ ما يمنع أن يكون هناك ثنيات وداع متعددة من جوانب المدينة يكون بعضها من ناحية الشام، وبعضها من ناحية مكة؟.

ولم يعلم أن أحداً نص على أن ثنيات الوداع خاصة بناحية الشام، والتعبير عنها يشعر بأنها قديمة معروفة يشيّع إليها ويودّع عندها المسافرون من المدينة ويتلقّى عندها القادمون إليها، والسفر من المدينة والقدوم إليها قد يكون من مكة وإليها، وقد يكون من الشام وإليها، وحينئذ ما يمنع أن يكون في كل ناحية ثنية أو ثنيات وداع عندها يكون وداع المسافرين وتلقي القادمين؟ وإذا جاز هذا فلا مانع قط أن يكون النبي ﷺ تلقّاه أولاً أهل المدينة وهو قادم من مكة مهاجراً إلى المدينة عند ثنية الوداع التي هي من جهة مكة بالفرحة وإنشاد هذا الشعر العاطفي، تعبيراً عن لهفة الشوق التي كانت تعتلج في صدور الذين لم يسبق لهم مشاهدته ﷺ، وخاصة النساء والصبيان والولائد الذين تغلب عليهم عواطف الفرحة، فيعبرون عنها بالغناء. والترنم بإنشاد الشعر.

وتلقّوه ﷺ ـ ثانياً ـ وهو قادم من غزوة تبوك منصوراً مظفّراً مؤيداً بتوفيق الله بالفرحة وإنشاد هذا الشعر الذي صار لديهم نشيداً يعبّرون به عن الفرحة والسرور، ولا سيما أن هذه الغزوة العظيمة كثر فيها إرجاف المنافقين بالأكاذيب وإشاعات السوء على رسول الله ﷺ وأصحابه وجنده، فرجوعه محفوظاً برعاية الله، ورجوع جحافل جيشه مؤيدة بنصر الله تعالى، مما أغاظ المنافقين وأغصّهم، وقد كانوا في جبنهم ينتفضون رِعْدة وفَرَقاً ورعباً إذا ما سمعوا اسم بني الأصفر الذين خرج رسول الله ﷺ في هذه الغزوة لجهادهم، فلما رجع مكلل الجبين بالنصر والتأييد من الله أرجف به المنافقون

ليفتنوا المؤمنين، الذين خرجوا لتلقِّيه وهو آيب إلى مدينته ترعاه عين الله ويحفه توفيقه.

قال الزرقاني: وأجاب السمهودي ـ أي عن توهيم بعض الرواة بأن كونها: أي ثنية الوداع شامي المدينة ـ لا يمنع كون هذه الأبيات أنشدت عند الهجرة، لأنه ﷺ ركب ناقته وأرخى لها زمامها، وقال: دعوها فإنها مأمورة، ومر بدور الأنصار من بني ساعدة، ودارهم شامي المدينة، وقرب ثنية الوداع، فلم يدخل باطن المدينة إلا من تلك الناحية، فلا وهم.

قال الزرقاني: وهو جواب حسن، وإن كان شيخنا البابلي يستبعده، لأنه يلزم عليه أن يرجع ويمر على قباء ثانياً، فلا بعد فيه، ولو لزم ذلك، لإرخائه زمام الناقة، وقوله (أنها مأمورة).

وما استحسنه الزرقاني من جواب السمهودي فيه تمحّل للخروج من الإشكال، وكان الأشبه أن يقال بأن كون ثنيات الوداع شامي المدينة لا يمنع من أن تكون هناك ثنيات وداع مكية المدينة، وعندئذ يقال: إن المقصود بثنيات الوداع، هي الثنيات التي يستقبل عندها القادم، ويشيّع ويودع عندها المسافر، سواء أكانت الثنيات شامية أو مكية، ومن ثَمَّ يكون إنشاد هذا الشعر إنما كان أولاً عند قدوم النبي ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، وكان ثانياً عند مقدمه من غزوة تبوك.

وبهذا يندفع ما استبعده البابلي من لزوم رجوعه ومروره ثانياً على قباء الذي أجاب عنه الزرقاني جواباً ضعيفاً لا يدفع الاستبعاد، على أن قول السمهودي في جوابه عن توهيم بعض الرواة: ومرّ ﷺ بدور الأنصار من بني ساعدة، ودارهم شامي المدينة وقرب ثنية الوداع، فيه ما يدل على أنه ﷺ سار وهو مُرْخٍ زمام الناقة لا يكفها ولا يوجهها حتى بلغ طرف المدينة من جهة الشام ليستوعب بمروره جميع دور الأنصار تكريماً لسائرهم حتى لا يحيك في صدر أهل دار منهم شيء، وكون دار بني ساعدة قريبة من ثنية الوداع يشير إلى أن تلقِّي أهل المدينة له ﷺ كان من هذه الجهة التي بها ثنية الوداع.

ولماكان التلقّي والاستقبال غامراً كثير الزحام اجتمع فيه إلى الرجال النساء والصبيان والولائد وهن ينشدن هذا الشعر ترحيباً بمقدمه ﷺ، وإظهاراً للفرحة بحلوله بينهم، ولا يلزم من ذلك الرجوع ثانياً إلى قباء، بل المعقول أن السير كان إلى باطن المدينة من طرفها الشامي، حيث يبلغ ﷺ مستقره ومنزله الذي أنزله الله فيه، وهو مربد سهل وسهيل الذي صار مسجده الأشرف قرب دار أبي أيوب الأنصاري النجاري رضي الله عنه.

وهذا الذي ذهبنا إليه ورجّحناه في دفع توهيم بعض الرواة هو ما صار إليه ابن العراقي، قال صاحب المواهب وشارحه: لكن قال ابن العراقي - أيضاً - ويحتمل في دفع التوهيم الذي ذهب إليه والده وذهب إليه ابن القيم، أن تكون الثنية التي من كل جهة يصل إليها المشيعون يسمونها ثنية الوداع.

قال صاحب الخميس: يشبه أن يكون هذا هو الحق، ويؤيده جمع الثنيات إذ لو كان المراد الثنية التي من جهة الشام لم تجمع، ولا مانع من تعدد وقوع هذا الشعر مرة عند الهجرة، ومرة عند قدومه من تبوك، فلا ينافي ما في البخاري وغيره، ولا ما قاله ابن القيم.

وهذا كلام جيد، سديد، موفق، يحل الإشكال، ويحقق الغرض المقصود ويؤيد المشهور من الروايات، ويدفع عنها التصادم والتضاد، والله ولي التوفيق.

* * *

أين نزل رسول الله ﷺ بالمدينة قبل بناء بيوته

في حديث البراء بن عازب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عند البخاري في الهجرة قال الصديق: فقدمنا ليلاً، فتنازعه القوم، أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله ﷺ: «أنزل على بني النجار، أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك» قال ابن كثير: وهذا - والله أعلم - إما أن يكون يوم قدومه إلى قباء فيكون حال وصوله إلى قرب المدينة كان في حر الظهيرة، وأقام تحت تلك النخلة، ثم سار بالمسلمين فنزل قباء ليلاً، وأنه أطلق على ما بعد الزوال ليلاً، فإن العشي من الزوال - أي يبتدىء من زوال الشمس عن كبد السماء، وميلها للغروب - وإما أن يكون المراد بذلك لما رحل من قباء، فسار فما انتهى إلى بني النجار إلا عشاء.

وهذا الترديد الذي ذكره ابن كثير قريب الاحتمال بشقّيه، فأما الشق الأول فيؤيده أن ركب النبي ﷺ وصل وهو قادم في رحلة الهجرة إلى مشارف المدينة في نحر الظهيرة، ونزل في ظل نخلة، ثم أرسل رسول الله ﷺ رجلاً من أهل البادية، يؤذن بهما الأنصار - كما في حديث أنس من طريق ثابت البُناني عند أحمد - فتهيأ الأنصار ونهضوا في السلاح، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وصاحبه وهما في مكانهما من ظل النخلة التي أويا إليها ليتقيا حر الهاجرة، وفي هذا الحديث أنهما - أي رسول الله ﷺ وصاحبه الصدِّيق - كمنا في بعض خراب المدينة، وعند ابن سعد، فقال رسول الله ﷺ لما انتهى إلى الجثجاثة قال: «من يدلنا على الطريق إلى بني عمرو بن عوف، فلا يقرب المدينة؟» فسلك على طريق الظبي حتى خرج على العصبة، وكان المهاجرون

قد استبطأوا رسول الله ﷺ في القدوم عليهم، فكانوا يغدون مع الأنصار إلى ظهر حرة العصبة يتحينون قدومه، ولعل هذه الحرة هي المقصودة بقول أنس: فَكَمِنَا في بعض خراب المدينة، وقال الزرقاني في بيان الحرّة: أرض ذات حجارة سود، كانت بها الواقعة المشهورة أيام يزيد بن معاوية، وفي حديث عبد الرحمن بن عويم الساعدي عند الحاكم: كنا نخرج فنلجأ بظاهر الحرة نلجأ إلى ظل المدر حتى تغلبنا الشمس عليه، ثم نرجع إلى رحالنا.

وكل هذا يعطي أن زمناً ليس بالقليل قد مرّ بين وصوله ﷺ إلى المكان الذي كمن فيه ومعه صاحبه، وهو الذي قيل عنه في رواية أنس (خراب المدينة) ويمكن أن يكون هو (حرة) العصبة كما في رواية ابن سعد، وقد تكون هذه الحرة هي التي وقعت فيها واقعة يزيد - وبين مجيء الأنصار في أهبتهم بعد أن أرسل إليهم يؤذنهم بوصوله وبين وصولهم إلى مكانه، ثم سار بهم حتى نزل على بني عمرو بن عوف في قباء زمن، وهذا الزمن لا يستبعد أن يكون قد انتهى إلى أوائل الليل، فقول الصديق: فقدمنا ليلاً يراد به فوصلنا بعد أن قدم إلينا الأنصار الذين أعلموا بوصول رسول الله ﷺ وسار بهم الركب إلى قباء ليلاً.

وأما الشق الثاني في ترديد ابن كثير فيوضحه أن رسول الله ﷺ ركب من قباء بعد أن أكمل بناء مسجدها حين ارتفع النهار من يوم الجمعة، وسار الركب يحف به الأنصار الذين يقدمون من المدينة، والذين نهضوا من أهل قباء لتوديعه ﷺ حتى وصل إلى منازل بني سالم بن عوف حيث أدركته الجمعة، فنزل وصلّاها في مسجدهم، مسجد غبيب في وادي رانوناء، وخطب أول خطبة جمعة في الإسلام بعد النبوة.

ثم ركب من بني سالم بن عوف وسار إلى المدينة بعد أن تضرع إليه بنو سالم وهم آخذون بزمام ناقته أن يبقى بينهم حيث العدد والعدة والمنعة والثروة، فدعا لهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلُّوا سبيلها فانطلقت ورسول الله ﷺ مُرْخٍ لها زمامها لا يثنيها ولا يكفها، وكلما مرّت بدار من دور الأنصار نهض أشرافها ورؤساؤها لاستقبال رسول

الله ﷺ وسؤاله في ضراعة الحب والفداء أن ينزل فيهم حيث العدد والعدة والمنعة، فيدعو لهم بخير، ويقول لهم مثل ما قال لإخوانهم الذين سبقوهم بهذا الرجاء والرغبة الملحة، حتى بلغت دار بني مالك بن النجار، حيث المكان المطهر الذي اختاره الله ليكون مسجداً تشع منه أنوار الهداية على الدنيا بأسرها علماً وعملاً، وحيث المكان الأطهر الذي اختاره الله تعالى مستقراً لرسوله في حياته، ومثوى لجسده الشريف بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وكان هذا المكان مربداً مملوكاً لغلامين يتيمين من بني النجار، كانا في حَجْر أسعد بن زرارة كما في رواية البخاري، أو في حجر معاذ بن عفراء، كما عند ابن إسحاق وغيره.

قال ابن كثير: وقد كان في المدينة دور كثيرة، تبلغ تسعاً، كل دار محلة مستقلة بمساكنها ونخيلها وزروعها وأهلها، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم، وهي كالقرى المتلاصقة، فاختار الله لرسوله ﷺ دار مالك ابن النجار.

وهذا السير من قباء بصورته التي ترسمها الروايات، وما جرى فيها من لقاء وحديث ليس من المستبعد أن يستغرق من الزمن ما يصل به عند انتهائه إلى الليل، وهذا يرجح قول الصديق فقدمنا ليلاً في مقابلة الروايات الأخرى التي تصادم في ظاهرها هذه الرواية المرتفعة في سندها ومعناها.

وقوله ﷺ: «أنزل على بني النجار، أخوال عبد المطلب، أكرمهم بذلك» هو معنى قوله ﷺ حين كان يدعوه أشراف بطون الأنصار إلى المنزل فيقول: «دعوها فإنها مأمورة، فإنما أنزل حيث أنزلني الله» كما ذكره موسى ابن عقبة في مغازيه ومعناه أن مسيري ومنزلي ومستقري إنما هو بيد الله، أسير بأمره وأنزل بمشيئته، وأستقر حيث يريد، وهذا بيان منه ﷺ أنه لا يخص بطناً من بطون الأنصار، ولا داراً من دورهم.

ولما بركت ناقته ﷺ في مكان مسجده، وألقت جرانها ورزمت، ولم تنهض منه بعد عودها إليه ـ رغم ما صنعه بها جبّار من النخس بحديدة معه رجاء أن تنهض فلم تفعل ـ ونزل عنها رسول الله ﷺ، وعلم أن هذا منزله

الذي أنزله الله، واختاره لمستقره ومثواه وسأل ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه داري وهذا بابي، ونقل رَحْل رسول الله ﷺ إلى منزله، ثم قال له رسول الله ﷺ: «فانطلق فهيىء لنا مقيلاً» فذهب وهيأ المقيل، ثم جاء فقال: قد هيأت مقيلاً، قوما على بركة الله فقيلا، وفي حديث عبدالله بن الزبير عند البيهقي أن رسول الله ﷺ حين نزل عن راحلته، آوى إلى ظل عريش كانوا يستظلون تحته ويتبردون فيه، فأتاه أبو أيوب، فقال: يا رسول الله، إن منزلي أقرب المنازل إليك، فانقل رحلك إليّ؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم» فذهب أبو أيوب برحل رسول الله ﷺ إلى منزله، ثم جاء رجل فقال: يا رسول الله، أين تحل؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل مع رحله حيث كان».

إقامته ﷺ مقدمه المدينة قبل بناء مسجده وبيوته بين العريش ومنزل أبي أيوب

وثبت ﷺ في العريش اثنتي عشرة ليلة حتى بني المسجد، والظاهر الذي تفيده أكثر الروايات أنه اتخذ من منزل أبي أيوب مستقراً له قبل بناء مسجده ومساكنه يأوي إليه لطعامه ونومه، وما يتطلبه الاستقرار الشخصي من شؤون وأحوال، واتخذ من العريش مكاناً لراحته المؤقتة، يستظل به، ويتبرد فيه أثناء النهار، ويلقى فيه أصحابه، ويشرف منه على بناء المسجد، ويشارك في العمل في بنائه أصحابه، ينقل معهم اللبن، وينشد معهم الشعر يتخففون به من ثقلة العمل، فهو ﷺ لم يشأ أن يدخل إلى مستقره في منزل أبي أيوب ويترك أصحابه يعملون، ولكنه أراد أن يكون معهم يرونه ويراهم، ويشهد عملهم ويشهدون مشاركته لهم، فجعل من العريش مظلة يستظل بها ساعة من النهار، ويقابل فيها من يشاء من أصحابه القادمين عليه للهداية أو التزود من معالم الإيمان والتفقه في الدين.

ونزوله ﷺ في دار أبي أيوب بأمر الله تعالى منقبة عظيمة لأبي أيوب خالد بن زيد النجاري تضاف إلى مناقب الأنصار عامة، وإلى مفاخر بني النجار خاصة.

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: أول هدية أهديت إلى رسول الله ﷺ حين نزل دار أبي أيوب أنا جئت بها: قصعة فيها خبز مثرود

أول هدية أهديت إليه ﷺ أول ما نزل المدينة وتتابع هدايا الأنصار

بلبن وسمن، فقلت: أرسلتْ بهذه القصعة أمي، فقال ﷺ: «بارك الله فيك» ودعا أصحابه فأكلوا، ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة: ثريد وعراق لحم، وما كان من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة، يحملون الطعام يتناوبون.

وبعث ﷺ ـ وهو نازل في دار أبي أيوب من يحضر أولاده وزوجه ـ كما رواه الطبراني من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: لما هاجر ﷺ وأبو بكر خلّفنا بمكة، فلما استقر بالمدينة بعث موليبه، حِبَّه زيد بن حارثة، وأبا رافع، ومعهما بعيران وخمسمائة درهم، ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد، وكانت رقية قد هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وزينب مع زوجها بمكة، أبي العاصي بن الربيع، وجاءت معهم أم أيمن امرأة زيد بن حارثة، وأم أسامة ابنه، وخرج معهم عبدالله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، وفيهم عائشة أم المؤمنين، ولم يدخل بها رسول الله ﷺ إلا في المدينة، وكان مقامه ﷺ في دار أبي أيوب سبعة أشهر في رواية الواقدي عند ابن سعد، وجزم به ابن حجر في الفتح، وحكى صاحب المواهب أنه ﷺ أقام في دار أبي أيوب إلى صفر من السنة الثانية، والمشهور المرجّح أنه ﷺ وصل إلى المدينة المنورة في ربيع الأول لاثنتي عشرة ليلة خلت منه وحينئذ تكون إقامته عند أبي أيوب أكثر من عشرة أشهر، هذا قول ابن إسحق، قال: فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة، حتى بني له فيها مسجده ومساكنه، وذهب الدولابي ـ كما حكاه مغلطاي ـ أنه ﷺ أقام في دار أبي أيوب شهراً وهذا قول غريب جداً، لأنه ﷺ لم يبعث في إحضار بنتيه فاطمة وأم كلثوم، وزوجته سودة بنت زمعة ومولاه الحب بن الحب: أسامة ابن زيد رضي الله عنهم إلا بعد أن أكمل بناء مسجده ومسكن زوجته، فكم يوم مضت في بناء المسجد، وهو مائة في مائة، وفي بناء المسكن، وهو على بساطته يحتاج إلى عمل وأدوات، هي على خفتها لا تتوافر في ساعة طلبها والحاجة إليها؟ مع ملاحظة ما يحتف بذلك من شؤون عامة أو خاصة، وما يشغل النبي ﷺ من أمور لا غناء عنها في مسير الحياة، وما يشغله ﷺ من

بعثه ﷺ لإحضار بنتيه فاطمة وأم كلثوم وزوجه سودة بنت زمعة، ومولاه أسامة وأمه أم أيمن

تبليغ رسالته ونشر دعوته، والتحدث إلى أصحابه، وتلقِّي الوحي وكتابته وتلقي القادمين عليه ﷺ طلباً للهداية والتفقه في الدين؟ وكم يوم مضت في طريق المبعوثين إلى مكة للقيام بمهمتهما، وكم من الزمن مضى في الإعداد للسفر، وكم يوم مضت في الأوبة بمن معهما من النساء والأطفال، ممن لا يتحملن شدة السفر السريع وما فيه من مشقة تتطلب شيئاً من الراحة والرفق، ولعل في رواية هذا القول عن الدولابي شيئاً من الوهم أو التجاوز.

لطيفة من لطائف الأدب الرفيع في أخلاق أبي أيوب الأنصاري

ومن لطائف الأدب التربوي وصور الحب القدسي ما روي عن أبي أيوب رضي الله عنه ـ كما جاء في كتاب (الذكر والدعاء) للإمام أبي يوسف صاحب أبي حنيفة رحمهما الله، قال يصور ما وقع له ولأهل بيته ـ أولاً ـ في غمرة الحب، ولهفة الرغبة في الفوز برسول الله ﷺ ونزوله عنده في داره من سهوة لم تمر محتملاتها الخفيفة بخاطره:

لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله إني أكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت، فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال ﷺ: «يا أبا أيوب إن أرفق بنا، وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت» فكان رسول الله ﷺ في سفل البيت وكنا فوقه في المسكن، فلما خلوت إلى أم أيوب قلت لها: رسول الله ﷺ أحق بالعلو منّا، تنزل عليه الملائكة وينزل عليه الوحي، فما بت تلك الليلة لا أنا، ولا أم أيوب.

وفي بعض الروايات عند البيهقي في الدلائل من طريق أفلح مولى أبي أيوب أن أبا أيوب تنبه ليلاً، فقال: نمشي فوق رسول الله ﷺ، فتحول فباتوا في جانب، قال أبو أيوب: فلما أصبحت قلت: يا رسول الله، ما بتُّ لا أنا ولا أم أيوب، قال رسول الله ﷺ: «لم يا أبا أيوب؟» قال: كنت أحق بالعلو منا، تنزل عليك الملائكة، وينزل عليك الوحي، لا، والذي بعثك بالحق لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبداً، فلم يزل أبو أيوب يتضرع إلى رسول الله ﷺ حتى تحول إلى العلو ونزل أبو أيوب وأهله في السفل.

ويقول أبو أيوب في تصوير أدب الحب، وتقديس النبوة: فلقد انكسر

لنا حُبّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب لقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء، تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وهذه اللطائف الهامسة الخفيفة تصور في بساطة من الحياة مدى التوقير وقداسة الحب التي تكنها قلوب أصحاب النبي ﷺ له، إيماناً بأن حبه ﷺ لُبّ الإيمان برسالته، وأن تعظيمه وتوقيره فوق كل تعظيم عظيم، وتوقير كل موقر كبير هو عنوان اليقين.

وشيجة الحب بين رسول الله ﷺ وبين عامة الأنصار شيباً وشباباً

ولقد برهن الأنصار في شتى مواقفهم على أن إيمانهم برسول الله ﷺ وبرسالته كان إيمان حب أفعمت به قلوبهم، وبادلهم رسول الله ﷺ هذا الحب بحب أجل وأعظم، عم به رجالهم ونساءهم شيبهم وشبابهم، غلمانهم وأطفالهم، فقال لهم: «والله وأنا أحبكم» و«يعلم الله أن قلبي يحبكم» و«أنتم من أحب الناس إليّ».

ووشائج الإيمان إذا قامت على الحب كانت صورة للنفس الإنسانية في أصفى صفائها، وصورة للفطرة البشرية في أنقى نقائها، تعجز عظائم الأحداث عن فصم عراها، وهكذا كان إيمان الأنصار حباً مؤمنا، وكان حبهم إيماناً مُؤثراً، فاستحقوا من دون سائر الناس الاستئثار برسول الله ﷺ حياته ومثواه.

ومن ثم تتبين إشارات الأقدار في مطويات كلمات رسول الله ﷺ إذ قال: «إنما أنزل حيث أنزلني الله» فكان نزوله في ديار بني مالك من بني النجار على أبي أيوب بإذن الله وأمره، وأبو أيوب يمثل بحبه وإيمانه وتوقيره لرسول الله ﷺ إيمان الأنصار وحبهم وتوقيرهم، فنزول رسول الله ﷺ عليه في داره مفخرة للأنصار عامة، ولبني مالك بن النجار خاصة، ولأبي أيوب أخص الخاصة، لأنه رضي الله عنه اختير باختيار الله تعالى لهذه المنقبة المنيفة، واختيرت داره المطهرة لتكون مهبطاً للوحي وهو ينزل على رسول الله ﷺ آناء الليل والنهار، وللوحي قداسته وسموه ورفعة شأنه، وللنبي ﷺ عظمته وعلو مكانته التي لا تسامى.

فأبو أيوب عجّل في نقل رحل النبي ﷺ إلى منزله، فوضعه قريباً في

سفل المنزل، وهيأ للنبي ﷺ وصاحبه مقيلاً في سفل المنزل حيث حط الرحل، لعل أن يكون للنبي ﷺ حاجة في رحله، وهو قادم من سفر بعيد شاق، فيكون قريباً منه، وسها أبو أيوب في هذه الغمرة من الفرحة أن ينظر في كونه وأهله في العلو من البيت، والنبي ﷺ في السفل من الدار مما لا يجب أن يكون، ثم تنبَّه لأول لحظة اطمأن فيها بتحقيق لهفته في الفوز بنزول رسول الله ﷺ عليه في داره إلى ما كان منه من سهوة تجافي كمال التوقير، فأسرع وأبدى للنبي ﷺ كراهيته لهذا الوضع وإعظامه له، فجعل يتضرّع إلى رسول الله ﷺ في أن يغير هذا الوضع الذي جلبته عليه سهوة عابرة، فأجابه رسول الله ﷺ فتحول إلى العلو، ونزل أبو أيوب وأهله إلى السفل.

وكان من لطائف حب أبي أيوب لرسوله الله ﷺ تحينُّ آثاره التماساً لبركاته، روى الحاكم وغيره أن أبا أيوب قال: كنا نصنع لرسول الله ﷺ العشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا ردّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده نبتغي البركة بذلك، حتى بعثنا إليه بعشائه وقد جعلنا فيه بصلاً أو ثوماً، فردّه ولم أر ليده فيه أثراً فجئته فزعاً، فقلت: بأبي أنت وأمي، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟ فقال: «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجي، فأما أنتم فكلوه».

وفي دلائل البيهقي عن أبي أيوب من طريق الليث بن سعد عن يزيد ابن أبي حبيب عن مرثد بن عبدالله اليزني عن أبي رهم السماعي قال: حدثني أبو أيوب قال: كنا نصنع لرسول الله ﷺ طعاماً، فإذا جيء بفضله سأل أبو أيوب عن موضع أصابع رسول الله ﷺ، فيتتبع موضع أصابعه، فصنع له طعاماً فيه ثوم، فلما رد إليه سأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ، فقيل له لم يأكل، ففزع وصعد إليه، وقال: أحرام؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكني أكرهه» فقال أبو أيوب: فإني أكره ما تكره أو ما كرهت. وكان النبي ﷺ يأتيه الملك، قال ابن كثير رواه مسلم عن أحمد بن سعيد ـ أي الدارمي ـ به وسياق ابن إسحاق له أتم من سياق البيهقي، ورواه أبو بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد المؤدب عن الليث.

* * *

تم بعونه تعالى الجزء الثاني
من كتاب محمد رسول الله
والحمد لله الذي بنعمته
تتم الصالحات

الفهرس

الهجرة إلى الحبشة
أثر من آثار حكمة الاستسرار بالدعوة

الطريق الأول في الجهر بالدعوة

الطريق الثاني ١٦٥

بيان موجز في بعض معاني سورة فُصِّلَت

عام الحزن
وتوالي اشتداد المحن

رُزء الإسلام ونبيه ﷺ
بوفاة خديجة رضي الله عنها

رُزء الحمية القومية
بفقد أبي طالب

اختلاف الروايات في وقائع الإسراء والمعراج

مواكب الخير
تجني بواكير النصر في لقاءات الطلائع اليثربية

الباكورة الأولى
من طلائع النصر
طَلٌّ نديّ في لقاء
الكامل في قومه سُويد بن الصامت

الباكورة الثانية
من طلائع النصر بَرْقة غيث
في لقاء إياس بن معاذ

الباكورة الثالثة
من طلائع النصر
انهمار الغيث بالبيعة الأولى

الباكورة الرابعة
من طلائع النصر
بيعة العقبة الثانية

الباكورة الخامسة
من طلائع النصر

هجرة النبي ﷺ
من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة

الهجرة النبوية
كيف بدأت ـ وكيف تمت ؟
تحقيق يكشف غموض بعض الوقائع والروايات

عوامل الهجرة النبوية ودوافعها

عوامل الهجرة النبوية ودوافعها
كانت سياسية واجتماعية واقتصادية

العوامل السياسية
في دوافع الهجرة النبوية

العوامل الاجتماعية
في دوافع الهجرة النبوية

العوامل الاقتصادية
في دوافع الهجرة النبوية

كيف بدأت هجرة النبي ﷺ

تحقيق يكشف غموض بعض الوقائع والروايات

الإعداد لمسيرة الهجرة
في رعاية الله وكنفه

كيف تمت الهجرة النبوية

قصــة
سراقة بن مالك الجعشمي ٥٣٩

قصة أم مَعْبَد
ولطائف آياتها وصفتها رسول الله لزوجها ٥٤١

وصف أم معبد لرسول الله
صلّى الله عليه وسلّـم ٥٤٢

النهضة الإسلامية

في سير أعلامها المعاصرين

تأليف
الدكتور محمد رجب البيومي
عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الوَجِيز
في
تفسِيرِ الكِتَابِ العَزِيزِ

تأليف
أبي الحسن علي بن أحمد الواحديّ
أستاذ عصره في علم التّفسير
(المتوفى سنة ٤٦٨هـ)

تحقيق
صفوان عدنان داوودي

دار القلم
دمشق

الدّار الشّاميّة
بيروت

